
في السياسة
[مقالات]
الجزء الأول
أنيس منصور

اهداءات ٢٠٠٣

الأستاذة / دينا المصرى

الإسكندرية

فى السياسة

.. مقالات ..

أنيس منصور

في السياسة

,, مقالات ,,

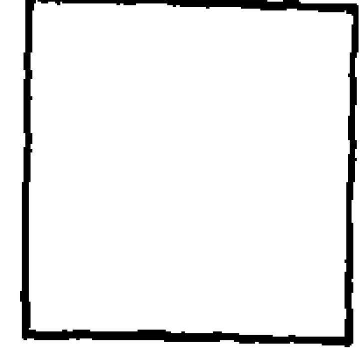
الجزء الأول



دار المعارف - لبنان

تصميم الغلاف : **الفنان عاصم إسماعيل**

الناشر : دار المعارف لبنان – بناية العسيلي - ساحة رياض الصلح ص. ب. ٢٣٢٠ بيروت – لبنان



كلمة أولى :
أدب السياسة وسياسة الأدب ..

ونحن طلبة صغار فى المنصورة الثانوية زارنا د . محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف . أما السؤال الذى كان علينا أن نجيب عنه فهو : ما الذى تحب أن تكونه عندما تكبر ؟

وكان جوابى : لاأحب أن أكون مدرسًا !

وكان ردًا غير سياسى .. فمعناه أننى لاأحب أن أكون مثل هذا المدرس أو مثل ناظر المدرسة أو ربما مثل وزير المعارف . أى لاأحب أن أعمل عملا له علاقة بالتدريس والتعليم وتصحيح الكراريس . . وأن أقول اليوم ماسبق أن قلته بالأمس . وأن أمسك الطباشير وأشم رائحة الجير .. حتى الموت !

وكان صاحب السؤال هو مدرس اللغة العربية . وكان الرجل يحبنى ويحب والدى . فهو شاعر مثله . وكنت أحفظ الشعر . وأنظمه . وكان مدرس اللغة العربية يتوقع لى خيرًا كثيرًا فى صناعة الكتابة .

ولكن إجابتى كانت صادقة : فقد كان ذلك هو إحساسى أو انطباعى مما أراه ومما أرى عليه المدرسين من تعب وعذاب واستخفاف التلامذة الصغار . فقد كان بعضهم لا يحترم المدرسين كثيرًا . بل إن المدرس كان يكلم الواحد منهم فلا يستمعون إليه . ثم يطلب إليهم أن يتركوا الغرفة . فكانوا لايفعلون إلا إذا جاء ناظر المدرسة . وفى إحدى المرات رفض واحد منهم أن يخرج برغم صراخ ناظر المدرسة . فقرر الناظر أن يأتى بوالد التلميذ الذى هو يكبرنا بعشر سنوات على الأقل .

فلم أكن أرى إلا صور مؤلمة للمدرسين . .

وعندما قابلت الرئيس أنور السادات لأول مرة سنة ١٩٦٩ . وكان وقتها نائبًا لرئيس الجمهورية سألنى : ولماذا لاتكتب فى السياسة ؟

قلت : سوف أفعل .

فعاد وسألنى : متى ؟

فأجبت : غدًا .

وكان ردًا سياسيًّا . وكتبت مقالا سياسيًا . وعندما عدت إلى هذا المقال بعد ذلك . لم أجده سياسيًّا تمامًا . وإنما وجدته نموذجًا للشكل والمضمون الذى أستريح إليه . وأنا أستريح إليه . لأن هذا هو الذى أقدر عليه . وأنا أقدر عليه . لأننى أمارس حريتى فى التعبير . . ولكنى أراه ليس سياسيًّا تمامًا . وليس أدبيًّا تمامًا إنما هو خليط من كل ذلك .

وفى مولد النبى عليه الصلاة والسلام ألقيت قصيدة أمام الشيخ حسن البنا فى مدينة إمبابة . وكنت فى ذلك الوقت عضوًا فى جماعة الإخوان المسلمين ، طالبًا فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة . وكان الاحتفال فوق مبنى الجمعية . وكانت إحدى ليالى الصيف الباردة . وكان الهواء شديدًا . وحاولت أن أزرر قميصى . ثم وضعت منديلا فى صدرى . ونهض الشيخ حسن البنا ، وقدم لى مجلة لأضعها بين قميصى وجسمى حتى لاأصاب بالبرد — ولم يكن الجو هكذا باردًا ، ولكنها مخاوفى . ثم اللحظة الحرجة : أن ألقى قصيدة فى مدح الرسول أمام فضيلة المرشد العام حسن البنا . ولاأعرف كيف أنهيت القصيدة . ولالماذا تلقاها الناس بالتصفيق . ثم نهض الشيخ البنا وصافحنى وضمنى إلى صدره . ودعا لى بأن يفتح الله علىَّ .

ثم قال : لو حذفت بعض الكلمات مثل : الأبدية والعدم . . واللامتناهى . . والضرورة والمقولات . . لو فعلت لكانت أجمل وأوضح . .

وعندما فكرت فى هذا الذى قاله الأستاذ البنا وجدت أن الرجل كان فى غاية الرقة . وكان أستاذًا وأبًا . فهو لم يشأ أن يقول : لو فعلت ذلك لكانت أوضح ، وبذلك تكون أجمل .

فهو رجل الجماهير القادر على الحديث إليها فى بساطة وإقناع ، والمثل الأعلى عنده هو أن

يمتلك الجماهير . وامتلاك الجماهير لايكون إلا باجتذابها . ولايكون ذلك إلا بالقدرة على فهمها وتفهيمها بعد ذلك ..

وكان جوابى للأستاذ البنا : هذا مافكرت فيه . ولولا أنك هنا لاعتذرت عن إلقاء هذه القصيدة . فأنا أدرس الفلسفة ولم أفلح بعد فى التخلص من مثل هذه التعبيرات . ولكن سوف أعمل بنصيحتك وأحذفها قبل أن أنام .. بل لن أنام حتى أفعل ذلك . وهذا يشرفنى

ولم أكن صادقًا فى كل هذا الذى قلت . فلم أفكر لحظة واحدة فى أن هذه المصطلحات التى وضعتها فى القصيدة . فى غير موضعها .

ولكن الرد كان سياسيًا . . فقد وافقت الأستاذ البنا فورًا على رأيه . وفى نفس الوقت أرضيت الرجل . عندما قلت له إننى ضحيت بالوضوح من أجل أن ألقيها فى حضوره وليكن مايكون : فوجوده وإلقاء القصيدة بين يديه ، أهم كثيرًا من كل عيوب القصيدة .

وعندما عدت إلى القصيدة بعد ذلك بوقت طويل ، أيقنت أنها لم تكن مفهومة . وأيقنت أنه هو الذى كان سياسيًا . فلم يشأ أن يقول إنها غير مفهومة برغم موسيقاها . ولكنه كزعيم سياسى لايصدم الصغار . إنما يأخذ بأيديهم . فإذا لم يكن قد نجح فى هذه المرة . فلعله فى المرة القادمة ..

وعاتبت نفسى بعد ذلك كيف أسلم له بكل هذه العيوب من أول لحظة . لماذا لم أتمسك بكل كلمة . وأقول له : هذا أقصى ماأستطيع . وإذا كان أحد لم يفهم هذه القصيدة . فلأن مستواه الفنى والفلسفى لايرقى إلى آفاق البعيدة ؟ !

ووجدت أن هذه الإجابة ، لو قلتها فى ذلك الوقت . لكنت خاليًا من التواضع والذوق والأدب . ولكنت عنيدًا مكابرًا مغرورًا .. ولكنت بعيدًا عن السياسة تمامًا ..

ولم تمض هذه الحادثة الصغيرة دون نقاش طويل بينى وبين نفسى . وبين زملائى أيضًا . وكثيرًا ماورويتها متندرًا برقة الشيخ البنا ، أو متندرًا بضعفى . أو مدللا على خجلى وسهولة إحراجى أو على غرورى كطالب صغير تخصص فى الفلسفة وتهجم على كل المذاهب الفكرية والدينية . دون أن يصيبه من هذه المذاهب والنظريات شىء .. وإنما كنت كالذى يسبح ولايبتل . ويمشى حافيًا على الشوك ولايقول : آه ..

أو أنني تخيلت ذلك ..

* * *

وأنا طفل ذهبت لزيارة جدى وجدتى . وكان ذلك فى الريف . وفجأة توفى خالى . وكان رجلا وسيماً رقيقًا جميل الصوت . وقد تعلقت كثيرًا بصوته ووجهه وهو يغنى . وكان الكثيرون يفعلون ذلك .

ولما مات انقلبت الدنيا واضطربت الأوضاع وتمزقت العلاقات . . وعرفت مالم أكن أعرف من أشكال الحزن والغم فى الريف . ورأيت النساء يضعن الطين على رءوسهن . ويصبغن بالسواد وجوههن . وكن يرقصن من الألم فى حلبات مثل حلبات الذكر . وأدهشنى أن أجد أمى أيضًا . ولم أفهم شيئًا . ولم أكن أتصور لحظة أن أمى هذه من الممكن أن تهتز أو يمزقها شيء أو تذوب دمعًا على أحد .. فقد كنت أراها قوية صابرة . وكنت أرى عنفها وهى تضربنى كثيرًا ولأسباب كثيرة أيضًا . ولم تكن كلها أسبابًا معقولة . ولكن عندما كبرت وجدت لها ألف عذر . وبعد وفاة خالى وجدت من يقول لى : لاتلعب مع فلان . . لاتذهب إلى « هذه » المدرسة بعد اليوم .. ولاتجعل فلانًا يدخل بيتنا . . وخاصة أخاه الأكبر ..

وأصبح من المحرم علينا أن نذهب إلى حارة فلان وأن ندخل بيت فلان . انسدت بيوت كثيرة وأغلقت حارات كثيرة . وحرمت علينا علاقات عديدة لماذا ؟ لأن خالى مات . ولكن ماعلاقة خالى وموته بهؤلاء الأطفال أو الرجال . أشيع إن زوجته هى التى قتلته .. أوكانت سببًا فى وفاته . ولذلك يجب أن نقاطع أسرة الزوجة وجميع أقاربها من الرجال والأطفال والبيوت والحارات والمدرسة التى يملكها أخوها ..

ودارت معارك كثيرة بالطوب والحجارة .. واستخدمت الأسلحة النارية .. وأشعلت الحرائق .. وهربت الجواميس والأبقار والأغنام ليلا من بيت إلى بيت .. ثم كان الخلاف على من يكون العمدة بعد ذلك !

وجاء عدد من البكوات والباشوات . يحاولون إصلاح مافسد من هذه العلاقات . . وأغلقت عليهم الأبواب والنوافذ .. وقدمت لهم الأطعمة الضخمة الفخمة .. ثم منعونا من الاقتراب من الحجرات التى يجلسون فيها .. وكان الكلام همسًا والحركات لمسًا ..

وبعد سنة من وفاة خالى سمعت والدتى تتحدث مع بعض صاحباتها عن وفاة خالى. فتقدمت متطوعًا قائلا : إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره وفى صحة جيدة . ومات فجأة لأن زوجته هى التى قتلته !

ورأيت عشرات النجوم فجأة أمام عينى . فقد صفعتنى أمى على وجهى بمنتهى العنف !

وعرفت فيما بعد أن صلحًا قد تم بين أقاربى وأقارب زوجة خالى . فقد دفنوا الماضى مؤمنين بأن الأعمار بيد الله . وأن خالى توفى لأنه كان مريضًا . وأنه كان لابد أن يموت .

ولم تقل أمى ماالذى كان يجب أن أفعله أو لا أفعله حتى لاتغضب منى . ولكن عرفت فيما بعد أننى حشرت نفسى بين الكبار . وأننى تدخلت فيما لاأعرف . وأننى مثل والدتى تمامًا . لم أكن سياسيًا . وكان فى استطاعة أمى أن تقول مثلا : إنه صغير.. إنه لايفهم.. إنه مايزال يكرر مايقوله الناس..

أوكانت تقول : إن حبه الشديد لخاله هو الذى جعله يتصور دائمًا أن التى قتلته هى زوجته . وهو لم يكن يحب زوجة خاله لأنها ضربته فى إحدى المرات..

ومضى وقت طويل جدًا . قبل أن أنسى هذا الذى فعلته أمى..

* * *

ولكن ما هذا الذى كان ينقصنى . إنها السياسة . فما هى ؟

يقال : إن الإنسان السياسى هو الذى يستطيع أن يتثاءب دون أن يفتح فمه..

أو إنه الذى يقول : نعم وهو يقصد أن يقول : لا..

أو هو الإنسان الذى يحاول طول حياته أن يجد كلمة واحدة للدلالة على : لا ونعم معًا.. ثم إنه لاييأس..

ومعنى هذه التعريفات الساخرة أن السياسة هى ألا يكون للإنسان رأى واضح فى شىء . أى يجب أن يكون حريصًا على ألا يقول . على ألا يكشف عن وجهه . ولكن المثل يقول : كيف تضحك وتخفى وجهك.. أوكيف تبكى وتخفى دموعك . إن هذا غير ممكن.. ولكن الممكن هو أن يحسن الإنسان اختيار الوقت والأسلوب الذى يقول به : لا.. ويقول به : نعم .

ولكن لابد أن يقول ..

وفى كل هذه الأحداث التى رويتها كان المطلوب هو : نوع من ضبط النفس . أى أن يكون رأيى صريحًا إلا قليلا . وأقرب إلى إرضاء الآخرين . أما الصراحة الكاملة فمن الواجب أن أحتفظ بها لنفسى ..

وفى يوم فوجئت فى بيتنا بواحد من أقاربى كان الاتصال به محرمًا . وسمعته يقول لوالدتى : ولكن ابنك ماذنبه .. مادخله .. يجب أن يكمل القرآن الكريم .. لم يبق غير جزء واحد . يجب أن يحفظه . وبعده افعلى به ماتشاءين . إنه باسم الله ماشاء الله يحفظ بسرعة .. لاتضيعى مستقبل الولد .

وأعتقد أن هذه العبارة الأخيرة هى التى جعلت أمى تتحدى كل الأسرة وتوافق على أن أذهب إلى المدرسة وأكمل حفظ القرآن الكريم . حتى لايضيع مستقبلى ..

ثم سمعت الرجل يعود إليها قائلا : ولماذا يجىء إلى المدرسة سرًّا ؟ . لماذا تفرضين عليه أن يصحو مع الفجر ويسبق جميع الأطفال إلى المدرسة ؟. حرام عليك .. إنه لايسرق . إنه يحفظ كتاب الله ..

وكانت أمى تأمرنى أن أذهب مبكرًا جدًّا حتى لايرانى إخوتها وأخواتها . ويكون ذلك خرقًا لاتفاق غير مكتوب بمقاطعة المدرسة وصاحب المدرسة لأنه أخو زوجة المرحوم خالى ..

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الأطفال إلى مدرسة هذا الرجل . . وبعد أن ذهب الأولاد تقارب الآباء والأمهات وانفتحت الحارات والبيوت . . وكنا نلتقى جميعًا لنقرأ الفاتحة على روح المرحوم خالى ..

ويحدث بين الناس وبين العائلات مايحدث بين الشعوب والدول . تختلف . وتتقاطع وتتمزق وتتباعد وتتحارب . ثم تتقارب وتتفاوض ويكون سلام . وأساس السلام أن كل طرف يريد أن يحمى حياته وثرواته ومستقبل أجياله .. وهذه هى السياسة الكبرى . التى تبدأ بسياسة صغرى بين الأفراد والعائلات .

فما هى هذه السياسة التى كنت أطالب نفسى بها ؟ .

إن سقراط العظيم عندما قال : « اعرف نفسك » كان سياسيًا .

ولكن عندما قال : « اعرف نفسك بنفسك » كان فيلسوفًا .

لأننى بالآخرين . أى بعلاقتى بالآخرين . من الممكن أن أكون اجتماعيًا وسياسيًا . . أن أكون ابنًا لأحد . أو أبًا أو زوجًا أو رئيسًا أو شريكًا – فكل هذه علاقات بالآخرين . وهى علاقات اجتماعية . وتنظيم هذه العلاقة وتأصيلها ومتابعتها وتطويرها والتمرد عليها –كل ذلك سياسة . ولكن أن أجلس وحدى وأغلق بابى وعينى وأنطوى أفكر فى هذا الإنسان الذى هو أنا . . وأحاور نفسى وأضبط نفسى . وأتخذ لى شعارًا أو قرارًا أواجه به الدنيا . فأنا هنا متفلسف . ولكن عندما أطالع الناس بما قررته . ثم أصطدم بالناس . فى هذه الحالة فقط . ومع هذه البداية فقط . أكون على عتبة السياسة . تمامًا كما يجلس الإنسان على الشاطئ بعيدًا عن الماء . فإذا فعل ذلك فهو ليس فى حاجة إلى دراسة علم وفن السباحة . أو معرفة قوانين الطفو . ولكن إذا ألقى بنفسه فى الماء ، هنا فقط سوف يقاوم الموج . وفى الوقت نفسه يطفو عليه . . فلكى أسبح لابد من الماء ، ولابد أن أقاوم الماء حتى لا أغرق ، ولابد أن أنظم هذه المقاومة حتى أطفو وأسبح . . أى لابد من الحركة بالماء وضد الماء وعلى سطح الماء . وكذلك العلاقات الاجتماعية : هى علاقات مع الناس . وبالناس وضد الناس .

ومعرفة طبيعة هذه العلاقات : هى أساس علم الاجتماع . ولكن تنظيم هذه العلاقات هو أساس السياسة . .

أما تحليل طبيعة الإنسان أيًا كان أبًا أو أخًا أو ابنًا . هو أساس علم النفس . .

وكل إنسان له تاريخان : تاريخه هو كفرد فى أسرة صغيرة . . وتاريخه هو كفرد فى الأسرة الكبيرة التى هى المجتمع الكبير : القرية أو المدينة أو الحضارة الإنسانية . ولكن على الرغم من أننى جزء صغير من شىء كبير . فإننى جزء متميز تمامًا عن الآخرين جسمًا واسمًا وإثمًا .

والناس جميعًا . مثل حيوان الكانجرو يجلس على ذيله . وكذلك الناس يستندون إلى تاريخهم . .

وتاريخى كفرد فى أسرة صغيرة لم يؤهلنى لأن أكون سياسيًا . إنما يؤهلنى لأن أكون متفلسفًا . أو مشتغلا بالأدب . فقد كانت حياتى فى الريف قلقة . وكانت أسرتى تنتقل من مكان إلى مكان . وكان من الصعب أن تكون لى علاقة ثابتة بأحد . فالشىء الثابت فى حياتى هو : أنه لاثبات . وعلى ذلك فلا علاقات . بل لاضرورة لأن أفكر أو أندفع إلى تكوين

علاقة لاتدوم . ولذلك حرمت طويلا من الصديق .. تمنيت ولكنى لم أستطع . حتى والدى لم يكن مقيمًا معنا . ولذلك كان شوقى الدائم إليه . وارتباطى العضوى بأمى : وكان أبى رقيقًا عطوفًا شاعرًا أخذ بيدى إلى عالم الكلمة الجميلة : فجعلنى أحفظ القرآن طفلا . وأحفظ مئات الأبيات من شعره ومن شعر المتصوفين . وكان جميل الصوت . وكنت أيضًا . وتوهمت أننى سوف أصبح مطربًا . إما استمرارًا فى حبى لأبى أو لخالى . وإما ارتباطًا أقوى بالكلام الجميل فى القرآن الكريم والشعر الصوفى الغنائى . وإما كسبًا لمزيد من احترام الناس .. فقد كان الناس فى الريف يحترمون رجل الدين ورجل الشرطة . وكنت أريد أن أصبح رجل الدين . وكنت أجد متعة فى ذلك . فإذا سألنى أحد عن شىء فإننى أجيب . فإذا طلب منى أن أحلف بالله العظيم . فإننى أقول له : لاأحلف . إننى لاأكذب لقد حفظت القرآن الكريم !

فإذا قلت ذلك تغيرت الوجوه وامتدت الأيدى إلى رأسى تباركنى وتدعو بالخير . إذن فأنا لاأكذب وأنا هكذا مختلف عن كل الأطفال ثم اننى أحفظ الشعر وأقرأ القرآن بصوت جميل . وكذلك أتغنى بالقصائد . . وبعد ذلك بالأغنيات المعروفة . وكنت أتمنى أن يسمعنى أبى . ولكن لاأجده . ولم تكن أمى تجد شيئًا غريبًا فى كل ذلك . فقد ثقلت همومها . وأرهقتها أمراضها أيضًا . وهكذا وجدت أن حبى لأمى ليس متبادلا . إننى أحبها وأتوجع لعذابها وهوانها . ثم إنها ليست قادرة على التعبير . فى عينيها كل الحب . ولكنها لاتقول ذلك . وإذا حاولت أنا . وقد حاولت . فإنها لاتسمعنى . . فهذا الذى أريده منها ترف عظيم لاتقوى عليه . وليست فى حاجة إليه . إنها تريد أن تسمع منى عبارة واحدة فى نهاية كل سنة : أننى نجحت وأن ترتيبى جاء الأول !

وقد سمعتها أمى فى كل سنوات الدراسة .

وتدربت طويلا على الصمت وعلى العزلة وعلى الانكفاء على الكتب . وتدربت على أن أرى الناس عن بعد .. فلم أكن قادرًا على أن أراهم وأنا بينهم .. فلم يكن بينى وبينهم شىء كثير . ولاألوم الناس . إنما هى الأرض التى تتحرك تحت أقدامنا فتباعد بينى وبين الناس ..

والتصق خيالى وقلمى بذلك المثل اليونانى القديم : إن الحجر المتحرك لاينبت عليه العشب ! وأيقنت أننى هذا الحجر المتحرك . أما العشب الذى لاينمو عليه فهو الكثير من العلاقات الإنسانية .. ولكى ينبت العشب . لابد للحجر أن يستقر . أن يسكن . فيسقط عليه

الماء . ويجيء عصفور يلقى ببذرة يتمسك بها الحجر .. وهكذا تولد كل العلاقات الإنسانية .. وانتقلت من هذا الحجر الذى لاينمو عليه العشب إلى كل الأحجار التى تحدثت عنها أساطير الإغريق . . فلم يفارقنى ذلك الحجر الذى يدفعه البطل سيزيف إلى قمة جبل .. فإذا بلغ القمة انحدر إلى السفح . فعاد سيزيف يدفع الحجر أمامه إلى القمة . لينحدر إلى السفح .. وإلى الأبد ..

فقد حكمت عليه الآلهة بأن يقوم بهذا العمل الذى لامعنى له ..

وعرفت أن عظمة سيزيف : هى أنه برغم علمه تماماً بأنه لاأمل فى أن يتخلص من هذا العذاب . فإنه كان يدفع الحجر بحماسة وحيوية وتصميم . كأن النهاية آتية لاريب فيها . وتعلمت أن سيزيف قد أغاظ الآلهة بذلك .. فهو لم يشعر بسخافة مايقوم به .. ولم يشعر بالملل . وكأن الآلهة يريدون أن يعذبوه بالملل وأن يعذبوه باليأس .. ولكنه هو الذى عذب الآلهة باستمتاعه بما يفعل ..

ولم يغب عن عينى ذلك الحجر الذى كان يتعذب به تنتالوس أيضًا . . فقد حكمت عليه الآلهة بأن يجلس عند مدخل أحد الكهوف .. ثم يجعلون حجرًا ضخمًا يسقط على رأسه ويكون لهذا السقوط دوىّ هائل .. يسبق سقوطه وفى أثناء سقوطه .. ولكن الحجر يتوقف عند مسافة قصيرة من رأس تنتالوس .. أى يخيفه ولايصيبه . . ويظل الحجر يعلو ويهبط إلى الأبد . .

ولكن تنتالوس اعتاد على هذا الخوف .. أو اعتاد ألا يخاف – وقد أغاظ الآلهة بهذه اللامبالاة التى تدل على أنه عاقل . وأن الآلهة ليسوا كذلك . . وتمنيت أن يكون عندى « حجر الفلاسفة » يلمسونه فيتحول كل شيء إلى ذهب . ولم يكن الذهب أملى فى الحياة .. وإنما كان أملى أن أكون قادرًا على التعبير الجميل .. وأن أكون قادرًا على فهم ألغاز الكون ومشاكل الحياة . .

وعرفت معنى الحجر الذى تصنعه عيون الجرجون – فى الأساطير الإغريقية أيضًا أن بنات الجرجون إذا نظرن إلى شيء تحول حجرًا . فمن الخير لهن ألا ينظرن إلى شيء .. إذا نظرن إلى الطعام أصبح حجرًا . إذا نظرن إلى الناس أصبحوا أحجارًا .. إذن فمن الخير لهن ان يعشن وعيونهن مغلقة . .

فلكي يكون الإنسان سعيدًا فى هذه الدنيا ـ لابد أن يطبق عينيه كثيرًا . . وألا ينظر إلى الآخرين أو مافى أيدى الآخرين !

وتذكرت قصة زوجة لوط التى جاءت فى التوراة . فعندما أمر الله بإحراق مدينتى سودوم وعمورة خرج لوط وزوجته وبناته . . واحترقت المدينتان . . وطلب إلى زوجته ألا تنظر وراءها . . أو طلب إليها ألا تندم على مافات . . وماتركته وراءها . وإلا تحولت إلى تمثال من الحجر . . وحاولت زوجة لوط أول الأمر ألا تفعل ذلك . ولكنها لم تستطع أن تقاوم حب الاستطلاع ـ أو الشعور بالندم أو الأسف . . فنظرت وراءها فتحولت إلى تمثال من الملح . .

إذن كان لابد وأنا أحاول أن أعرف نفسى بنفسى أن أنظر إلى نفسى دون أن أكون حجرًا . . وفى الوقت نفسه أريد أن أكون حجرًا ثابتًا لينمو عليه العشب .

أى أن هناك مشاكل لاحيلة لى فيها . . ولاعلاج لها إلا بأن يسكن الحجر . فإذا لم يسكن الحجر ـ فلا أفقد الأمل فى أن عشبا سوف ينبت عليه . .

وعندما ذهبت إلى الجامعة تخصصت فى الفلسفة . ومعنى ذلك أن الفلسفة بدأت مزاجًا نفسيًا لأسباب اجتماعية ـ فأصبحت أسلوبًا عقليًا لأسباب مهنية .

وقد كانت لى محاولات فى نظم الشعر وكتابة القصة . . وقرأت كثيرًا فى الأدب وتاريخ الأدب . وأحببت عددًا كبيرًا من الأدباء ـ أحرص على مايقولون وأنتظره وأتابعه وأنشغل به . .

ورأيت فى الشعر الصوفى الذى حفظته صغيرًا كلامًا كثيرًا عن الله والوجود والكون والروح والشفافية . . ووجدت احترامًا للقلب واحتقاراً للمعدة . . ووجدت تعظيمًا للروح وتحقيرًا للجسد . . ووجدت الله فى كل شىء . ولذلك فكل مكان نجد فيه الله هو مكان يستحق الاحترام والتأمل . فالله فى كل شىء . . لأنه لايمكن أن يخلو مكان من قدرة الله أو حكمة الله . . وأن أعظم مافى الإنسان أن الله فى كل خلاياه . . وأن الإنسان جزء من الله وقبس من نوره . . وأن هذه الدنيا فانية . . وأن الدنيا جسر نعبره ولانعمره . . وكان والدى يردد هذه المعانى كثيرًا . وكان له صديق من رجال الدين كنت أراه نموذجًا رفيعًا لكل مايجىء فى الشعر الصوفى . . فهو نحيف القوام . وهو هادئ الحركة . وهو هامس الصوت . وهو مضىء الوجه وهو لايرفع عينه عن السماء . وأكثر الكلمات ترددًا على لسانه : الله . . والرسول . . والجنة . .

ولم أكن فى ذلك الوقت أعرف كثيرًا : كيف يكون إنسان بهذه الطيبة وبهذا الصفاء ثم إنه فقير. وكذلك أبى . كان هو الآخر طيبًا رقيقًا رحيمًا يبكى لأحزان الناس . وينهض لزيارة المريض وشراء أدوية له .. أى مريض . فى أية ساعة من الليل .. ثم يتغنى بكثير من الشعر له ولغيره وبكثير من آيات الله .. ويرفع يديه يطلب من الله شفاء كل مريض وعودة كل مسافر . وكان يكثر من دعاء الرسول عليه السلام : اللهم إليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ياأرحم الراحمين ..

وكان والدى يقطع الدعاء ويلتفت ناحيتى ويقول ضاحكًا وكأنه يعتذر لى عن الذى حدث أو الذى قال : ولكنك إن شاء الله سوف تكون شيئًا آخر .. إن الله قادر على كل شىء ..

ولم أكن أعرف بالضبط ماهو هذا الشىء الذى هو « أنا » .. أو الذى لايحب أبى أن أكونه .. لم أعرف ..

وحفظت الكثير من أدب الدنيا والدين « للماوردى » .. وأكثر مافى هذا الكتاب عن آداب السلوك الأخلاق .. أو العادات الفاضلة بين الناس ..

وكنت مشغولا بالكلام الجميل. وكنت مشغولا بروايته. ولابد أن مثل هذا الكلام قد استقر فى أعماقى : متعة وأملا .. متعة عندما أرويه . ومتعة عندما أجد الناس يقدرون لى ذلك .. وأملا فى أن يكون لى مثل هذا الاقتدار فى التعبير..

وكان من الطبيعى أن أتجه إلى الفكر والتأمل .. وهذا أحد معالم نشأتى العقلية أو بداية اهتماماتى الفلسفية التى استغرقت كل حياتى .. فهى أقرب إلى المزاج الشخصى . والسلوك الاجتماعى .. أو « اللا اجتماعى » على الأصح . ثم أسلوبًا فى الاقتراب من الأشياء والناس والعلاقات الإنسانية والأحداث التاريخية ..

ومثل كل الطلبة الصغار اتجهت إلى كتب الفلسفة . وأول كتاب وجدته كان فى « المكتبة الفاروقية » وهى المكتبة العامة بمدينة المنصورة . وهى « الفاروقية » نسبة إلى الملك فاروق .. الكتاب صغير فى ٢٥٠ صفحة وعنوانه « تاريخ الفلسفة فى كل العصور » تأليف محمد أفندى حسن الهلالى . لقد ظللت أتردد على هذه المكتبة شهرًا أقرأ هذا الكتاب . قرأته عشرين مرة . هل فهمت منه شيئًا ؟ يمكن أن أقول إننى التهمت الكتاب . ولا أقول تمتعت بذلك . أى أننى

ابتلعت الصفحات والمعانى والأسماء دون أن أجد لها مذاقًا لذيذًا . لقد كان مذاقها « خاصًا » أى مختلفًا فقط . ولكن بعض المعانى هزتنى . وبعض الأفكار صدتنى . وأدهشنى أن أحدًا من زملائى لم يعرف هذا الكتاب . ولم أشأ أن أحدث أحدًا عنه . وظل الكتاب سرًّا . ثم هدانى هذا الكتاب إلى كتب أخرى فى الفلسفة . ووجدتنى أختلف عن زملائى . وأهتم بما لا يهم الكثيرين . ومضيت فى طريق تهيأت له نفسيًّا تماما . إن هذا الكتاب قد فتح نفسى على نفسى . وأطلعنى على أعماق . وأغمضت عينى لأرى أوضح وأجمل وأعمق . وعرفت الجلوس وحدى . والنظر إلى الأشياء وإن كنت لا أراها . وتوهمت أن الأشياء تحدثنى . وتوهمت النجوم تكلمنى . وتخيلت القمر يغازلنى . وقلت فى ذلك شعرًا ..

وفى مسجد الشيخ حسين بالمنصورة كان الخطيب فصيحًا بليغًا قويًا يتزاحم الناس على سماعه كل يوم جمعة . وذهبت أيضًا . ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل الناس لماذا هذا الزحام على الرجل . وعرفت السر الكامن وراء ذلك : إن الرجل يتفلسف . إنه يروى قصص الأنبياء ويفسر فلسفتها . . ثم إنه أول إنسان سمعته يتحدث عن المعنى وراء ماتنشره المجلات الأدبية للأستاذ العقاد ولطه حسين .. ولم أكن أعرف هذين الكاتبين العظيمين . . وكان يناقشهما ويعترض . وكان يعارضهما ويستفز . وكان يستفزنا وينتظر أن ننهض وراءه لنقتل هذين الرجلين !

وتخيلت فى ذلك الوقت أن خطيب المسجد قد اهتدى إلى الكتاب الفلسفى الذى قرأته كثيرًا . وأنه هو أيضًا . لايريد أن يعرف الناس ذلك .. فهو يقلب الكتاب قبل أن يلقى خطبة الجمعة . فقد عثرت على بعض المعانى فى خطبه . أتى بها من هذا الكتاب وأسعدنى هذا الاكتشاف . فقد التقيت مع خطيب المسجد عند الإعجاب بكتاب واحد وأننا اهتدينا معًا إلى كنز سرى لايعرفه أحد !

ولابد أن تكون كتب « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » الذى ألفه أحمد أمين وزكى نجيب محمود . ثم ترجمة زكى نجيب محمود لبعض « محاورات أفلاطون » . هى التى جعلت الأرض تستقر تحت قدمى نهائيًّا . وأصبحت الفلسفة طريقى وهدفى وطعامى وشرابى ومستقبلى . فهذه الكتب تمتاز بالوضوح وجمال العبارة . ولاأظن أن أحدًا استطاع أن يجعل الفلسفة تبدو أجمل وأمتع وأروع كما فعل زكى نجيب محمود . فهو فيلسوف أديب . أى أنه قادر على الفهم السليم وقادر على نقل-الذى يفهمه فى عبارة أسهل وأجمل . ففى هذه

الكتب يتحقق للقارئ : المعنى العميق والفهم الواضح والأسلوب المشرق .

وكلها مشهيات قوية لمن لديه استعداد فلسفي . وكان عندى هذا الاستعداد . أى الرغبة القوية والصبر على ذلك والأمل فى التفوق ..

وربما الذى أعجبنى فى الفيلسوف العظيم سقراط هو الذى أعجبنى فى الأستاذ العقاد بعد ذلك . فكلاهما قادر على توليد المعانى . بعضها من بعض . وكلاهما صاحب منطق قوى وحجة مقنعة . وكلاهما قد تفرغ للفكر . وكلاهما يرى أن الإنسان أعظم الكائنات وأن العقل أعظم مافى الإنسان .. وأنه هو مركز هذا الكون . وأنه من الممكن أن يكون الإنسان فقيرًا وعظيمًا .. وأن العظمة من شروطها الفقر أيضًا . لأن الفقير إنسان حر من كل قيد .. فهو لايملك . ومادام لايملك فهو ليس مقيدًا بما يملكه . لأن الذى يملكنى هو الذى أملكه .. فصاحب البيت ينام خائفًا على بيته . وصاحب المال ينام خائفًا على ماله . . وكذلك صاحب الأولاد الأحفاد . أما الفقير فقد تحرر من كل الأشياء التى يملكها .. والتى هى تملكه أيضًا . . إلا عقله العظيم الذى لايستطيع أحد أن يسرقه . والذى لم يحصل عليه من أحد .. وإنما هو هبة من السماء .. وهذا هو الفارق بينهم وبين الناس العاديين .

أذكر أن الأستاذ العقاد قال لى مرة . ردًا على أنه جاء من أسوان ليضيء الحياة فى القاهرة : يامولانا وهل تتصور أن الله يخلق موهبة عبثًا .. خلقها « هناك » لأن لها ضرورة « هنا » !

وسقراط نفسه قال : إن آلهة الإغريق يحسدون الفلاسفة .. لأن الفلاسفة هم وحدهم الذين يعرفون ضرورة وجود الآلهة . ولكن الآلهة لايعرفون ضرورة الفلاسفة !

ووجدت كتابًا يتحدث عن حياة سقراط أكثر مما يتحدث عن فلسفته . . الكتاب اسمه « حياة سقراط » من ترجمة عباس ذهنى حسنين . ومن تأليف رنيه كاستيلو . ولاحظت أن المؤلف يخرج المعانى والحكم من حياة سقراط ومن علاقته بتلامذته ومن علاقته بزوجته وأولاده .. وعلاقته بتلميذه أفلاطون

أما المفاجأة الكبرى فهى أن لسقراط فلسفة فى السياسة . إنه ينادى بقيام دولة من نوع خاص يتحقق فيها العدل ويكون الفلاسفة عند قمتها . والفنانون أصحاب العواطف والنزوات عند سطحها بل فى قاعها .

ولم أجد سقراط يتحدث عن « الدنيا » أى عن هذه الحياة اليومية . . عن هذه العلاقات الإنسانية وعن مشاكل الناس ومتاعب الناس . . إنه غير راض عن هذه الدنيا . ولذلك يريد أن يخلق دنيا جديدة . . شعوبًا أخرى . . علاقات نموذجية . . . إن سخطه على هذه الدنيا جعله يفكر فى الدنيا المثالية التى لاوجود لها إلا فى خياله . .

ووجدت فى الكتاب أيضًا أن تلميذه أفلاطون حاول أن يحقق هذه الدنيا العادلة النموذجية . ولكنه فشل . وأذكر أنى وجدت مثل هذه العبارة للمؤلف الفرنسى : عاش سقراط غريبًا عن دنياه . ومات غريبًا عن دنياه أيضًا . كان أكبر من شعب أثينا . وأعظم من القضاة الذين حكموا بإعدامه . ولكن أحلام سقراط لم تمت . ثم إن الكثير الذى استنكرته الإنسانية من خيال سقراط . قد تبنته كل المذاهب الديموقراطية والاشتراكية والشيوعية بعد ذلك . . فسقراط أستاذ الفلسفة والسياسة فى كل العصور !

ولم أعد أجد شيئًا ممتعًا عن الفيلسوف العظيم سقراط . . الفيلسوف « التوربين » أى الذى تتولد لديه المعانى من شدة تساقط الأفكار فى كل حوار مع تلامذته . .

فى النقد الفلسفى يقال : إن سقراط هو الذى أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض . . أى أنه هو الذى جعل قضايا الفلسفة قضايا إنسانية . . فهو يحاور الشباب ويسألهم عن الحب والزواج والجنس والفقراء والأغنياء والجمال والجسد والفضائل والرذائل . . ولكن الذى فعله سقراط هو أنه فقط جعل لأفكاره صوتًا . . فهو لايلقى خطابًا أو يملى مقالا . . وإنما هو يجرى حوارًا . . مع أى أحد . . ولذلك فكل الذين يحاورهم هم « أى أحد » فليست لأحد فيهم معالم متميزة . . ومن الممكن أن تكون محاورات سقراط التى سجلها تلميذه أفلاطون . حوارًا بينه وبين نفسه . . فهى تعطيك انطباعًا بأنها مناقشة ولكنها ليست مناقشة علنية . . إنما هى مناقشة سرية . . فسقراط يريد أن يعرف نفسه بنفسه . .

* * *

ومن متابعتى لما تنشره مجلتا « الرسالة » و « الثقافة » وجدت سلسلة من المقالات عن « فلسفة دستويفسكى » . والمفاجأة أن دستويفسكى لم يكن إلا روائيًا عظيمًا . وكنت أتصور قبل ذلك أن الفلاسفة هم سقراط وأفلاطون وأرسطو وهيجل وشوبنهور ونيتشه . عباقرة تفرغوا للفكر فقط . وليس بينهم واحد يؤلف القصص الطويلة أو القصيرة . . ولكن وجدت أمامى

شيئًا جديدًا . وجدت أديبًا فيلسوفًا . ووجدت له فلسفة فى الحياة الاجتماعية وقواعد فى علم النفس الجنائى . ووجدت قواعد وأصولا لبناء الرواية

إذن فهناك بين الفلاسفة : فلاسفة لهم دراسات تحليلية . وفلاسفة لهم روايات فيها حياة وصراع .. ومن تصارع الأشخاص تتولد أفكار جديدة . مواقف جديدة . وأنماط جديدة من الحياة .

ووجدت مقالا مترجمًا يقول : إن دستويفسكى هو « الينبوع الحقيقى » للفلسفة « الوجودية » المعاصرة ..

وكانت هذه أول مرة أقرأ كلمة « الوجودية » ولم أعرف معناها .. ولاشرح أحد ذلك وأصبحت هذه الكلمة « ضالتى » التى يجب أن أعثر عليها .

وفى امتحان مادة الفلسفة فى المسابقة التى أجرتها الدولة لطلبة التوجيهية سألنى المؤرخ الكبير الأستاذ يوسف كرم قائلا : هل تعرف كيف تصف وجود الله ؟

فقلت : إن « الوجود » ليس من صفة الله . إن الوجود من صفة الإنسان الذى يولد ويموت . . ولكن الله هو « الأبدية » هكذا تقول الفلسفة الوجودية !

ولا أظن أن الأستاذ يوسف كرم . ود . أبو العلا عفيفى قد أقنعهما ماقلت . ولابد أن الدهشة لما سمعا قد جعلتهما يكتفيان بهذا القدر من الإجابة الجريئة من طالب ريفى . لايعرف تمامًا مايقول . ولكنه ذكر كلمة « الوجودية » ولم تكن معروفة كثيرًا فى ذلك الوقت ..

فالوجودية لاتزال ترى أن الأبدية والخلود من صفات الله . ولكن الوجود إنسانى . ولذلك فهو محدود . والله لايوصف بأنه كائن ولا بأنه موجود . فالحيوان والنبات والجماد يوصف بأنه كائن . والإنسان يوصف بأنه موجود .. أما الله فاللغة لاتسعفنا فى أن تجد له صفات أخرى غير أبديته وخلوده .. بلا بداية ولانهاية ..

واهتديت إلى الفلسفة الوجودية الفرنسية . فيما كتب الفلاسفة : سارتر وكامى ومارسيل والفلاسفة الألمان : هيدجر ويسبرز . والفيلسوف الدنمركى كيركجار . وفيلسوفا أسبانيا : أونامونو وأورتيجا إى جاست . وفيلسوف روسيا : برد يانف . وفيلسوف إيطاليا : أبانياتو .. وفيلسوف إسرائيل : مارتن بوبر .. وفيلسوف مصر : عبد الرحمن بدوى . وهو الذى قدم لنا

كل مدارس الفلسفة الألمانية فى الحضارة والوجود والعذاب والألم واليأس والموت .. وقدم أيضًا كل مصطلحاتها الغامضة . فكانت هذه المصطلحات هى مفاتيح كنوز المعرفة الجديدة .

وقد امتاز الفلاسفة الوجوديون الفرنسيون بالأسلوب الأدبى الجميل .. فسارتر كتب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة . . وكامى كتب الرواية .. ومارسيل كتب المسرحية .. وكذلك أونامونو . .

وكتب كيركجار « اليوميات » الدينية والأدبية الممتعة ..

إنها دنيا جديدة مثيرة .

فوجدت فى الفلسفة الوجودية كل شىء : أروع وأمتع .. فقد تحولت الأفكار الوجودية إلى قصص ومسرحيات وروايات ومقالات فى الأدب وفى السياسة وفى علم النفس .

وكانت الفلسفة الوجودية أقرب إلى مزاجى النفسى : إنها تؤكد فردية الإنسان .. أو تصحح فردية الإنسان . وترى أن الإنسان فرد حر .. أو أن الفردية هى الحرية ذاتها .. فأنا عضو فى أسرة .. ولكنى عضو متميز تمامًا .. بل إنى أقوى من هذه الأسرة ومن هذا الكون كله .. فالكون من أوله لآخرة ليست له ملامح متميزة مثلى .. ليست له عين مؤكدة ولاذراع ولاساق . . ولا هو قادر على أن يعبر عن نفسه .. أما أنا فأستطيع . . صحيح أننى جزء من كل . ولكنى أكثر وضوحًا ويقينًا من هذا الكل .. وأنت عندما تتحدث عن « المجتمع » مثلا ، فأنت لا تعرف ماالذى تقصده بهذه الكلمة . . وأنت عندما تقول الجماهير والشعوب . فأنت لست على يقين من المعنى المحدد الواضح لهذه الكلمات الضخمة . . ولكن عندما تقول : أنا وأنت . فأنا وأنت على يقين من ذلك تمامًا . . فلا يوجد كائن حى منفرد اسمه : الشعب . . أو الجمهور .. إنما يوجد كائن حى متميز تمامًا اسمه : أنا . . واسمه أنت .

وقد ظهرت هذه المعانى الوجودية فى القصة والرواية والمسرحية . . أى كانت لها حياة اجتماعية ونفسية وسياسية . . أى أنه من الممكن أن يكتب الإنسان عن السياسة أو يكتب سياسة بصورة أخرى .. غير أن تجىء فى شكل مقال أو تحليل منطقى جاف مهما كان واضحًا مقنعًا . .

أى أنه من الممكن أن يكون الإنسان فيلسوفًا سياسيًا وأديبًا سياسيًا .. وشاعرًا سياسيًا . .

وفى التاريخ كله فلاسفة وأدباء وشعراء سياسيون . . أى أنهم أدباء وفلاسفة وشعراء أولا . وسياسيون بعد ذلك .

وفى الوقت نفسه عاش فلاسفة وأدباء دون أن يشاركوا فى السياسة فقد وجدوا أنهم عاجزون عن ذلك . أو وجدوا أن متعتهم الحقيقية فى أن يكونوا بعيدًا تمامًا كما يفعل الرهبان فى الصوامع . أوكما يفعل العلماء فى المعامل .

وقد وجدتنى فى عالم الفلسفة مبكرًا . ولكننى دخلت المجتمع متأخرًا .

وقد حاولت أول الأمر أن أجد نفسى . فنظرت فى مرايا كثيرة . . وكانت المرايا صغيرة وكبيرة . وملونة وصافية . ومقعرة ومحدبة . وعندما لا أجد نفسى . أو لا أجد صورتى كما تمنيتها فإننى أنطوى وأنزوى وأعود إلى سقراط أعرف نفسى بنفسى . . وليس بالآخرين .

واشتركت فى جمعيات دينية وفكرية وروحية . . وكنت حجرًا متحركًا . لم ينبت عليه عشب كثيف . . (أرجو أن تقرأ ماجاء فى ثلاثة كتب من تأليفى هى : طلع البدر علينا . . وفى صالون العقاد . . ثم وداعًا أيها الملل) .

وقرأت ماكتبه المؤرخون السياسيون : الجبرتى والطهطاوى . وابن النديم . ومحمد عبده . والعقاد . وطه حسين . والحكيم . ود . هيكل . والرافعى . ونجيب محفوظ . ووجدت أنهم أدباء يكتبون فى السياسة . أو ساسة يصنعون الأدب . أى أنهم جميعًا حريصون على الوضوح والجمال أى على جذب القراء . أى كسب القراء بالفن والمنطق . ورأيت فى السياسة الكثير من الفن والقليل من المنطق . فمن مظاهر الفن : الخطابة . . أى العبارة التى ترن وتطن وتكتسح القارئ . وتكتسح عقله قبل أى شىء آخر . . ووجدت أن أسوأ ماكتب العقاد هو الذى كتبه فى السياسة . فقد كان غاضبًا دائمًا . ولم يكن سبب غضبه أنه على حق . إنما سببه أنه وهو « رجل منطق » قد وجد من يعارضه . فالعقاد يرى أنه قادر بمنطقه وعقله الكبير . على إقناع أى إنسان بأى شىء . . ولكنه عندما لايجد ذلك . فإنه يتخلى عن المنطق ويترك نفسه لعواصف الغضب . ولذلك فالدراسات السياسية التحليلية التى كتبها العقاد ولم يكن يخاطب بها الجماهير . كانت أفضل وأبقى . وهى أبقى لأنها أقرب إلى الأدب منها إلى السياسة .

وسلسلة « العبقريات » الإسلامية التى كتبها العقاد ثم كتابه عن « سعد زغلول » الزعيم

السياسى . لم يكن سياسة . إنما كان أدبًا فى السياسة . أوكان تحليلا نفسيًّا للسياسة .

وقد اختلفت أنا مع د . طه حسين وكان لنا حوار عنيف حول أسلوب العقاد فى دراسة الشخصيات الدينية والأدبية . وكان رأى طه حسين أن العقاد عالم نفسي وليس مؤرخًا أو ناقدًا أدبيًّا . وأن تفسير الأديب يكون استنادًا إلى أدبه . والشاعر إلى شعره .

ولم أوافق طه حسين على ذلك ..

وكانت مقالات طه حسين فى السياسة أدبًا جميلا . ولم يكن فى استطاعة طه حسين إلا أن يكون أديبًا . فهو عندما يجلس للكتابة تطل عليه مئات الكتب من روائع الأدب والفن العربى والعالمى . ولم يكن فى استطاعة طه حسين أن يسد أذنيه عن الذى يدور حوله . ولا أن يمحو من ذاكرته تجارب السنين فى الأدب وتاريخه ونقده ..

وكذلك كان توفيق الحكيم . بل ربما الحكيم هو أقرب الجميع إلى الفنان الذى اختار أن يتفرج على المجتمع دون أن يشارك فيه كثيرًا . فكان إذا كتب مقالا أطل برأسه مثل نوح عليه السلام من سفينة النجاة . ثم رأى وسمع .. وأغلق النافذة وجلس يكتب . وليس صحيحًا أن توفيق الحكيم كان صاحب « البرج العاجى » إنما هو صاحب « البرج العالى » . . من فوقه يرى . وإليه يعود .. فهو ليس بعيدًا عن الناس . ولكنه تباعد عن الناس ليرى أوضح . . فأنت إذا ألصقت لوحة بعينيك فإنك لاتراها بوضوح .. ولذلك يفضل الحكيم وغيره ان ينظروا من بعيد ..

ونجيب محفوظ هو المتفلسف بين الروائيين العرب . فهو قد درس الفلسفة وعلم النفس . وهو قد استوعب التاريخ .. ثم إنه قد تمكن من فن الرواية . ولذلك فنجيب محفوظ هو المؤرخ الحقيقى للحياة السياسية فى مصر . ولكن ليست له صفات المؤرخين الذين يعرضون ماحدث كما حدث . معتمدين على الوثيقة والتجربة الشخصية . ولكنه يعرض التاريخ شاعرًا وفنانًا وعاشقًا وناقدًا — وهو أكثر حرية من المؤرخين . وأطول عمرًا أيضًا . فالمؤرخون فى خدمة فنه . ولكن فنه تاج على رءوس المؤرخين ..

وإذا كان لابد أن أفاضل بين اثنين من المؤرخين : الجبرتى والرافعى . فإننى أفضل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى . فالرجل لم يكن سياسيًّا . إنما هو شاهد عيان ينقل بصدق وأمانة . وسجل رأيه بوضوح . وتاريخ الجبرتى سجل لكثير من العادات والتقاليد والألفاظ العربية

والمصرية والأجنبية والمصطلحات السائدة فى عصره . وعلى الرغم من أن الجبرتى كان حريصًا على الصدق والأمانة . فإنه لم يشأ أن يكون جهاز تسجيل . وإنما كان يعلن غضبه واحتقاره لكل أشكال الظلم والقهر الفرنسى .. وكان يشيد أيضًا بعظمة مصر .. وهذا هو الذى جعل مؤرخًا عظيمًا مثل توينبى يقول « إن الجبرتى هو أعظم المؤرخين فى كل العصور » هكذا قال بالحرف الواحد .

أما أسباب ذلك فى رأى توينبى فهى أن الجبرتى قد أعجب بالتطور العلمى الفرنسى . وأعجب بالعدل الذى أظهرته المحاكمات الفرنسية . فقد كانوا يأتون بالمصرى المتهم ويحاكمونه ويتركون له حرية الدفاع عن نفسه . ويأتون له بالمحامى يترافع عنه – وقد انبهر الجبرتى بكل ذلك . ولكنه فى الوقت نفسه ثار على الغزو والاحتلال .

وكان عبد الرحمن الرافعى رجلا طيبًا على خلق كريم . وكان يسجل ماحدث كما حدث . ولكنه فى الوقت نفسه كان يقوم « بتصفية » التاريخ من الشوائب الأخلاقية أو الاجتماعية . فتاريخ الرافعى تاريخ « مهذب » .. إنه يشبه الطعام المسلوق . إنه طعام صحى . ولكنه لاطعم له .. أوليست له نكهة النباتات الطازجة أو الغابات الوحشية .

وكان الرافعى رجلا حزبيًا وسياسيًا . وكذلك كان العقاد وطه حسين ود . هيكل .. ولم يكن الجبرتى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وقرأت فلاسفة التاريخ .. وهم أيضًا فلاسفة السياسة .. أى السياسة التى سار عليها التاريخ أو فلاسفة التاريخ السياسى وتطور المجتمعات . وقواعد تطور المجتمعات . قرأت فيلسوف الحضارة أوزفالد اشبنجلر . قرأت مقدمة كتابه « انحلال الغرب » وقرأت تبسيطًا لهذا الكتاب . وقرأت ماكتبه د . عبد الرحمن بدوى وهو أول من قدم لنا فلسفة هذا الرجل ووضعها فى مكانها من الفلسفة الألمانية ومن الفلسفة الوجودية أيضًا .

وقرأت ماكتبه المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى . وهو أيضًا من فلاسفة الحضارة ولكن أسلوبه الأدبى برغم قوته وتماسكه الشديد . لايخلو من جمال . ثم إن له كتبًا فى تاريخ الأديان ممتعة أيضًا .

وقرأت ماكتبه فيلسوف الحضارة بندتو كروتشه . وهو أسهل الجميع عبارة وأبسطهم منطقًا . وأقربهم إلى الأدباء والشعراء .

وقرأت « مقدمة ابن خلدون » فيلسوف علم الاجتماع العربى الأول . أو هو أول فلاسفة الاجتماع فى التاريخ . ووجدت أن ابن خلدون كان أقدر على أن يضع يده على التاريخ العربى والإسلامى . وأغناهم فى ضرب الأمثلة . وإن لم يكن أكثرهم إحاطة بتاريخ الحضارة الانسانية

والفيلسوفان هيجل وماركس كلاهما يستخدم نفس المصطلحات ولكن لأسباب أخرى . فالفلسفة المثالية الهيجلية هى الفلسفة الماركسية تماماً . ولكن هيجل جعل الدنيا تمشى على رأسها . وجاء ماركس فجعلها تمشى على قدميها – وكلاهما ينشد عالماً ليس موجوداً . ولكنه يرى أنه ممكن التحقيق .

ووجدتنى مستغرقاً فى الفكر السياسى . والمذاهب السياسية .

* * *

وعندما أعود إلى ماكتبته عندما كنت طالباً فى الجامعة . فإننى أجده فلسفياً . أو فلسفياً أدبياً . أو فلسفياً دينياً – بما فى ذلك الشعر والقصة القصيرة والتأملات الرمزية .

ولكنى فضلت دائماً أن أكتب « فى » السياسة .. أى أن أمس السياسة دون أن أنغمس فيها .. فقد كان من الصعب عقلياً ووجدانياً أن أرتضى « إطاراً فكرياً » جامداً .. أى مذهباً فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الدين .. وربما كانت الفلسفة الوجودية أقرب دائما إلى مزاجى النفسى . لأنها ليست « مذهباً » ولاإطاراً وإنما كانت تمرداً على الإطارات وعلى الأشكال .. لم تكن زياً فكرياً وإنما كانت نوعاً من الملابس الواسعة لها شكل الملابس وإن لم تكن لها أناقتها .. وهى بذلك تغطى جسمى ولاتقيد حركتى وإذا أنا خيرت بين الزى المريح والزى الذى يبدو أنيقاً فإننى أفضل الذى يريحنى !

وعندما أعود إلى فلسفة سقراط – ولامفر من ذلك – فإننى أجد أن الذى عرفته عن نفسى قليل . وأن القليل ليس مؤكداً . وأن هذا الذى ليس مؤكداً لم يساعدنى كثيراً على معرفة الآخرين .. ولذلك لم أكن متأكداً من علاقات كثيرة . وهذه الشكوك تجعل اتصالى بالآخرين ليس مريحاً لهم . وليس مريحاً لى .. فالذى ينزل البحر . وهو ليس متأكداً تماماً إن كان ماء البحر مالحاً أو حلواً ، أو كان عميقاً أو ضحلا ، والذى ليس متأكداً إن كان من الضرورى أن يعبر الإنسان الماء سابحاً . بدلا من أن يركب زورقاً ، لايمكن أن يتعلم السباحة . وإذا تعلمها ، فلن يكون سباحاً ماهراً . . إنما سوف يسبح دائماً إلى جوار الشاطئ وفى الوقت

نفسه سوف يكون لديه شعور دائم بأن الشاطئ أسلم . أما البحر فلا أمان معه .

وفى الوقت نفسه يرى أن الشاطئ وإن كان أسلم ، فلا أمان فيه أيضًا . لأنه مادام هناك أناس آخرون . أو آخرون ، فلا أمان لأحد .. ولاعزلة لأحد . ولذلك لابد أن يخرج الإنسان من عزلته ليأمن الناس . ثم يعود إليها مرة أخرى .. وهكذا .. مثل كل القواقع . ومثل كل الرهبان فى الصوامع . والعلماء فى المعامل . ومثل كل نوح صاحب سفينة فى طوفان العلاقات الاجتماعية المضطربة المعقدة .

وفى دراستى الفلسفية كنت أتقلب على مذاهب الفكر السياسى .. أى أصول ومبادئ التفكير السياسى فى الحرية والترابط الاجتماعى وحتمية التاريخ وتطوره أو تطويره بالقوة والثورة .

* * *

وكان أول درس تعلمته فى الكتابة السياسية . قاسيًا . فقد كتبت مقالا بعنوان « حمار الشيخ عبد السلام » وعاقبنى عليه الرئيس جمال عبد الناصر بالفصل من عملى ، وكنت فى ذلك الوقت سنة ١٩٦١ رئيسًا لتحرير مجلة « الجيل » ومدرسًا فى الجامعة . ووجدت نفسى فى الشارع . بلا مرتب محرومًا من الكتابة ومن التأليف ومن الخروج من مصر إلى أى مكان آخر - وفى ذلك الوقت طلب منى عدد من الأصدقاء والأمراء السعوديون أن أترك مصر نهائيًا.وفكرت فى الهرب من بور سعيد . ولكن ظروفًا خاصة منعتنى من ذلك !

أما هذا المقال فكان تعليقًا على رواية توفيق الحكيم « السلطان الحائر » وقد عكست المعانى الواردة فى رواية الحكيم على أوضاع الصحافة فى مصر وكانت قد أممت نهائيًا . ولقى الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين كل أنواع الهوان . ولكنهما رفضا ذلك . ووجدا أن موقف الرئيس عبد الناصر لم يكن موقفًا قوميًا من الدرجة الأولى ، ولكنه موقف شخصى . وكنت وثيق الصلة بالأستاذين على أمين ومصطفى أمين - وبعلى أمين أكثر : صداقة وحبًا وتشجيعًا وحزنًا على ما أصابهما وأصابنى .

وأذكر أننى عندما أعدت نشر هذا المقال فى مجلة « أكتوبر » قرأه الرئيس السادات فقال ضاحكًا : أعوذ بالله .. إن هذا المقال تستحق عليه الشنق وليس الفصل !

وفى أول لقاء للرئيس السادات بمحررى أكتوبر فى « ميت أبو الكوم » رويت قصة هذا

المقال وحرية الصحافة فى عهد الرئيس عبد الناصر . وأعدت تعليق الرئيس السادات وقلت مداعبًا : سيدى الرئيس إنك تحيرنى .. فالرجل الذى كان يشنق الناس اكتفى بفصلى وأنت الذى لاتفصل الناس تطالب بشنقى ! !

والدرس الثانى عندما انتقلت مع الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين إلى دار الهلال . فقد كتبت مقالا أقارن بين « الوحدة والعزلة » . وكان مقالا فلسفيًا نفسيًا . ولكن الذى لم يخطر على بالى أن الرئيس عبد الناصر قد وجد فى هذا المقال أيضا تعريضا به وسخرية بالوحدة مع سوريا والانفصال عنها ولذلك أمر بمنعى من الكتابة . وأذكر أن د . محمد عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام فى ذلك الوقت قد دعانى للقائه . وذهبت فقال لى إن السيد الرئيس قد أمر بأن تعود إلى الكتابة .

ولما سألت الصديق د . حاتم : ولكن لماذا منعنى من الكتابة ؟
فتضايق من ذلك قائلا : لقد أمر السيد الرئيس أن تعود إلى الكتابة . وهذا كل ماعندى .

ولما عدت إلى سؤال د . حاتم بعد وفاة الرئيس عبد الناصر : ولكن لماذا منعنى ؟
فأقسم أنه لايعرف .

وقبل ذلك تلقيت خطابًا رقيقًا من المرحوم على أمين وكنت وقتها فى طوكيو . أدور حول العالم سنة ١٩٥٩ . جاء فى خطابه :

إن الرئيس جمال عبد الناصر قرأ مقالك المنشور فى « أخبار اليوم » عن نظام « الشيوعيات » الصغيرة فى الصين فأعجبه جداً وقال : إنه مقال سياسى ممتاز فلماذا لايكتب فى السياسة ؟

وفى واشنطون قابلت رئيس هيئة الاستعلامات وكان مريضًا فى إحدى المستشفيات وقال لى : إن الرئيس جمال عبد الناصر قد كتب بقلمه على هذا المقال . . إنه مقال سياسى رائع !

وفى سنة ١٩٦٣ ذهبت أتلقى جائزة الدولة فى أدب الرحلات من الرئيس جمال عبد الناصر . ولما اقتربت منه كانت له نظرة فاحصة .. أو هى نظرته العادية . لاأعرف ثم سمعته يقول : هوه أنت !

ولم أفهم المعنى المقصود من ذلك ولكن فى أحد الأيام روى لى المرحوم يوسف السباعى أن الرئيس عبد الناصر سأله : إن كنت شيوعيًا ؟

وكان رد يوسف السباعى : الشيوعى أنيس آخر .. عبد العظيم أنيس .. وليس أنيس منصور .

ربما أدى هذا الخلط بين الاسمين إلى أن يكون للرئيس عبد الناصر موقف خاص فيما أكتبه ..

وفى يوم أخبرنى الصحفى اللبنانى الكبير سعيد فريحة أنه التقى بالرئيس جمال عبد الناصر وتحدث فى عودة الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين إلى مكانهما من « أخبار اليوم » بدلا من وقفهما عن العمل . فقال له : بل لابد من إذلالهما .. وحتى هذا الأنيس منصور اللى طالعين به السماء ، قد فصلته هو أيضًا !

وظل الشك يلاحقنى فى كل الذى أكتبه فى السياسة .. أو يكتبه غيرى فى مجلة « الجيل » التى أرأس تحريرها . فأنا لاأعرف أين يقع هذا الذى أكتبه إذا سمح بنشره من نفس الرئيس عبد الناصر أو الذين حوله ..

بل أذكر أن الصديق إبراهيم بغدادى وكان وكيلا للمخابرات جاء يسألنى عن صورة على شكل ظلال قد ظهرت فى مقال عن صيد الأسماك فى بور سعيد وكان الموضوع عن نقص السردين بسبب السد العالى الذى أنهى عصر فيضانات النيل . ولم نجد صورة لصيد السمك نضعها مع المقال . فوضعنا صورة ظلالية لرجل وامرأة ليست لها معالم واضحة . وقد وقفا عند السور الحديد على قناة السويس . وسألنى إبراهيم بغدادى : من الذى وضع هذه الصورة .

فقلت : سكرتير التحرير ..

وسألنى إن كنت أعرف من هما صاحبا هذه الصورة . فقلت : لاأعرف .

واستدعيت سكرتير التحرير . وقال إنه لايعرف من هما .

وسأله إبراهيم بغدادى : هل تعرف ناهد رشاد ؟ فأجاب : لا .

وسأله : ولايوسف رشاد ؟

فأجاب : لاأعرفه .

وكانت الصورة الظلالية الباهتة لناهد رشاد وزوجها يوسف رشاد الذى كان طبيب الملك فاروق . ولاأحد يعرف ذلك . ولامعنى لها إذا عرف أحد ذلك ولاعلاقة لها بنقص السردين بسبب بناء السد العالى ! ! وإنما وضعت هذه الصورة لتجميل الصفحة التى خلت من الصور ..

ومرة أخرى جاء الصديق إبراهيم بغدادى يسألنى : مامعنى أن تنشر فى مجلة « الجيل » أن الرئيس جمال عبد الناصر قد أقام حفل زفاف ابنته فى بيته « المتواضع » فى منشية البكرى .

ولم أفهم . وناديت المحرر الذى كتب هذا الخبر .. فقال : لابد أن يكون حفلا متواضعًا لأنه لم يقمه فى فندق سميراميس أو فى فندق شبرد ..

وكان سؤال إبراهيم بغدادى : ولكن كيف عرفت أن بيت الرئيس متواضع ؟

ولم يكن هو ولاأنا نعرف أن بيت الرئيس عبد الناصر ليس متواضعًا بسبب التعديلات التى أدخلت عليه وعلى حديقته وعلى ملاعب التنس ولا أن به حمام سباحة .

فظن الرئيس عبد الناصر والمخابرات أننا نغمز ونلمز !

وعرفت فيما بعد أن الشك والقيود لم تكن قاصرة على أنا وحدى وإنما لحقت كثيرين ..

* * *

ويمكنى أن أقول بمنتهى الوضوح إن نكسة سنة ١٩٦٧ هى التى جعلتنى كاتبًا سياسيًا . وجعلت الفلسفة أبعد عن قلمى . وإن كان الأدب والتاريخ وعلم النفس هى المداد والدم والعرق الذى أمزج به كل ماكتبت بعد ذلك .

فقد بدأت الصدمة الكبرى بأن ذهبت إلى الجبهة فى الأيام الأولى من شهر يونيو سنة ١٩٦٧ . ورأيت وسمعت وانبهرت وتوقعت أن النصر لنا لاشك فى ذلك . وقد جمعت قصائد الشبان وخطبهم .. ووعدت بنشرها . . وامتلأت عينى وأذنى وعقلى وقلبى . وأصبحت مثل مدفع سريع الطلقات قد أعد إعدادًا تامًا لينطلق فى أية لحظة ضد العدو اليهودى . وكنت آخر الذين عادوا من الجبهة يوم ٤ يونيو .. أو آخر مدنى قد عاد . فقد دعانى الفريق صدقى محمود إلى طائرته .

لتكون النكسة بعد ذلك بساعات . . وليكون كل الذى رأيناه ترابًا ، والذى سمعناه صدى ، والذى توقعناه سرابًا . وليكون يوم النصر هو يوم الهزيمة ، وليكون جمال عبد الناصر ذلك البطل المصرى القومى ، هو الزعيم الذى هوى ، والفراغ السحيق الذى امتلأ بالألم واليأس والشك والذل والهوان .. وليكون أيضًا هو الذى أجهز على الروح المصرية يوم قرر أن يتخلى عن الرياسة والزعامة – تمامًا كما يقرر قائد الطائرة أن يقفز بالمظلة بسبب الخلل التام فى المحركات .. ثم يترك الطائرة والركاب وينجو بنفسه جريحًا مهينًا ! !

فتكون نجاته بالمذلة .. لابالمظلة !

كأن انسحابه يعوضنا عن فضيحتنا وعارنا . أوكأن هذا فقط هو العقاب الذى يستحقه . . ولم يكن ذلك إلا لحظات وبعدها خرجت الجماهير تؤيد بقاءه مهما كان . فقد عاشت معه « على الحلوة والمرة » وعرفت معه العظمة والثورة ولن تتخلى عنه فى محنته الكبرى .. وكان هو أسبق من الناس إلى المناداة بكل ذلك .. فحشد رجاله مئات الألوف من الناس تطالبه بالعودة . وعاد جمال عبد الناصر . عاد غائباً . . وظل غائباً عن مصر والساحة العربية حتى مات .

بل إن غياب جمال عبد الناصر قد بدأ يوم انتصر سنة ١٩٥٦ على العدوان الثلاثى . وكان غيابه نشوة غامرة ، لأن انتصاره كان شخصياً .

ثم غاب مرة أخرى عندما كوفئ على هذا النصر السياسى بالوحدة مع سوريا .. وكان غيابه نشوة النصر العظيم .. غاب لأنه ارتفع وارتفع حتى لم يعد يراه أحد ، أويرى هو أحداً أو يسمعه أو يدرى به .

ولما وقع الانفصال . كانت أعنف ضربة وجهت إليه فى كبريائه وفى كل ما يعتز به .

وكان احتشاده لمعركة ١٩٦٧ ، ولم يكن يقصد به إلا انتصاراً على إسرائيل من أجل استعادة سوريا التى انفصلت .

وكانت النكسة أكبر هزيمة فى حياته وفى حياة الأمة العربية .. وقد أدت الهزيمة إلى غيابه نهائياً فى غياهب الهوان العسكرى ، والعار المصرى ، والشماتة العربية ..

إن هذه المعانى وغيرها قد هزتنى من أعماق . ودفعتنى إلى الاعتقاد بعددٍ من الحقائق فى مقدمتها : أننا حاربنا عدواً لانعرفه . وحاربنا عدواً يعرفنا تماماً . فكان لنا مانستحقه . وكان له مايستحقه .

ولذلك لابد أن نعرف عدونا .. واتخذت شعار « اعرف عدوك » فرحت أكتب عن اليهود فى التاريخ كله .. وعن إسرائيل وكيف قامت . وماالذى تريده الصهيونية العالمية من العرب ومن العالم كله .. ومن مصر بصفة خاصة .. وكتبت مئات المقالات فى « أخبار اليوم » و « الأخبار » و « الجيل » و« آخر ساعة » .. وهذه المقالات هى دراسات متعمقة للبيئة اليهودية والكيان الصهيونى .

ثم جمعت الكتب التى صدرت عن اليهود والتاريخ اليهودى والصهيونية وإسرائيل باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية . ورحت أتنقل بهذا المعرض بين العواصم المصرية والعواصم العربية . وأذكر أننى ذهبت إلى طرابلس . وألقيت محاضرة عامة . وكنت أدعو فيها إلى أنه إذا لم نعرف من هم هؤلاء اليهود وما الذى يريدونه لنا وبنا ، فلا أمل فى نصر فى حرب .

وأصدرت ثلاثة كتب جمعت فيها كل هذه المقالات هى : الحائط والدموع .. والصابرا : الجيل الجديد فى إسرائيل .. ووجع فى قلب إسرائيل .

وكانت هذه هى قضيتى فى الصحف وفى الإذاعة وفى التليفزيون .

وكانت المعانى التى أدور حولها هى : أننا يجب أن نعرف عدونا لأن عدونا يعرفنا .. فقد عاد جنود مصريون من القتال وهم يقولون : لم نر جنديًا يهوديًا .

بل إن واحدًا من الجنود قال لى بمنتهى السذاجة : إننى لم أر إلا عددًا من الخواجات !

ولم يخطر على باله أن اليهود « خواجات » لأنهم قد جاءوا من كل دول العالم ليحتلوا بالقوة أرضًا ليست لهم ..

وفى ذلك الوقت آمنت بما قاله المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى عن أن الدولة اليهودية فى قلب العالم العربى لايمكن أن تعيش طويلا . فليس لها نظير فى كل التاريخ . لابد أن تنقرض . لأنه مستحيل أن تعيش فى سلام – لافى سلام داخلى بين جميع الطوائف والأجناس اليهودية ولافى سلام مع العرب حولها ، ثم إن اليهود بسبب تاريخهم الطويل ، ليس لديهم شعور بالأمان ، وعدم الأمان يدفعهم إلى الشك . والشك يدفعهم إلى سوء الظن بكل الناس . وسوء الظن يدفعهم إلى الكراهية . والكراهية أم الحروب .. فهم يحاربون لالأنهم يريدون الموت ، ولكن بسبب الخوف وسوء الظن .

وكان من رأيى أن العالم كله قد اتخذ موقفًا واحدًا من اليهود . وهذا الموقف هو سوء الظن بهم . لأنهم حريصون على الانطواء والانزواء والاستفادة من المجتمع الذى يأويهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم شيئًا فى التضحية من أجله .. فهم هكذا استغلاليون أو متطفلون وهم أول من يقفز من السفينة إذا غرقت .. وأول من يتحالف مع العدو والقوى ضد أى شعب يعيشون فيه .. ثم إنه لاولاء عندهم لأحد .. وإنما لدينهم وشعوبهم .. ولإسرائيل !

وانتهيت إلى أنه لاسلام مع إسرائيل وأن إسرائيل إذا كانت قد انتصرت على مصر والشعوب العربية فى ١٩٦٧ ، فلابد من الانتقام . . أى لابد من حرب بعد حرب . فالسلام مع إسرائيل مستحيل . لأنهم لايريدون السلام وهم لايريدون السلام لأنه مستحيل عليهم أن يعرفوه : انظر إلى كل تاريخهم فى العالم وفى هذه المنطقة .

ثم كتبت عن عشرات من الكتب تؤكد هذه المعانى ..

وقد ظهرت فى إسرائيل وفى أمريكا وفى بريطانيا كتب عن العلاقات المصرية الإسرائيلية وكلها تهاجمنى . وتنقل عنى ماكتبته بعد النكسة .

وعندكا بدأت أتحدث عن إمكانية السلام بين مصر وإسرائيل . كان تعليق الصحفى البريطانى دافيد هريست والصحفى الإسرائيلى أموس إيلون وغيرهما : أننى لا أقصد ذلك . فالذى أقصده قد جاء فى كتبى التى تهاجم اليهود . والتى هى عداء صريح للسامية .

وفى أعقاب النكسة العنيفة الموجعة كان رأيى أن السلام مستحيل مع إسرائيل .. ولكن بعد أن تمكن الرئيس السادات من أن ينتصر فى حرب أكتوبر وأن يفك الاشتباك بيننا وبين إسرائيل مرة ومرتين .. ثم أن يبادر بالسلام . ثم بالاتفاق بين البلدين . فوجئت بأن شيئًا كنت أراه مستحيلا قد أصبح ممكنًا وفوجئت بأن أمامنا فرصة جديدة لنعرف إسرائيل بلا حرب . حتى لاتقع حرب وإذا وقعت فلن نكون الجهلاء الذين ذهبوا فلم يروا ولم يسمعوا . وعادوا يقرءون مايكتبه اليهود عن الذى حدث . ليعرفوا ماذا جرى لنا . . ولكن بأقلام وعيون الآخرين . أعدائنا !

ومادام السلام المستحيل أصبح ممكنًا ، ومادام قد أصبح حقيقة ، فلابد أن نعترف بما حدث . وأن نسعد بذلك . وأن نرى الصعوبات الكثيرة التى تواجهنا ، أمرًا طبيعيًّا . فالسلام أيضًا صعب كالحرب . وإن كانت الحرب أقصر عمرًا وأعنف أثرًا ، ولكن مصر التى حاربت وانتصرت ، هى التى سالمت وانتصرت أيضًا . ولم تستوعب الدول العربية الشقيقة ماحدث . ولم يكن أحد يتصور أن شيئًا من ذلك سوف يحدث . والموقف غريب وعجيب . ولكنه أصبح ممكنًا .

ولم أشعر بأن انتصار السلام هزيمة لى . فأنا لم أكن أدعو إلى الحرب . ولكن كنت أرى الحرب ضرورة . وقد حدث أن حاربنا وانتصرنا . ولولا حرب أكتوبر ماكانت « مبادرة »

١٩٧٧ ومعاهدة ١٩٧٩ وانسحاب ١٩٨٢ .. والدول العربية الشقيقة معذورة إذا أفزعها أن مصر حكومة وشعبًا قد اختارت السلام . فهذا الذى حدث لم يكن يتوقعه أحد . فلم يكن أحد يثق بأن إسرائيل سوف تفى بكلمة واحدة ولا أحد كان يثق بقدرة مصر على أن ترغم اسرائيل على ذلك .. ولكن السلام فى صالحنا . كما أنه فى صالحهم أيضًا . وإذا كانت إسرائيل تصنع المشاكل ، فسبب ذلك أنها يجب أن تساوم لتحصل على أطول وقت وأكبر مكسب . ولأنها بتاريخها لاتثق فى أحد . ولافى قدراتها ولافى وحدة شعوبها وراء سياسة أية حكومة لها .

ولابد أن يكون هجوم الدول العربية على مصر بأقلام أبنائها . وبأقلام وخناجر مصرية . سببه أن مصر قد اختارت أن تمشى فى طريقها هى . لأنها هى وحدها التى حاربت والتى أضيرت والتى تهدمت مدنها وتهدمت معنويات ملايينها . ولأنها هى التى تجوع وتتعرى والتى لاتريد أن تسأل العرب عونًا ، مهما زاد عدد أبنائها ومهما زادت حاجتهم إلى السكن والطعام والشراب والنصر والسلام .

وكما لقيت مصر من رفض وعداء الدول العربية والمنظمات المتطرفة ، لقى كتابها أيضًا .. وأنا واحد منهم . ولكنى . ولكننا . لم نجد فى ذلك إلا تضحية عارضة من أجل سيادة مصر .. فلم يكن أسهل أن أعود إلى أصدقاء لى فى السعودية والكويت .. لهم صحف ضخمة . . ولهم دور نشر . . ولهم أموال كثيرة تفتح الطريق إلى المصايف الأوربية شهورًا من كل سنة . . ولكن كان نداء الواجب ولايزال . أعظم من ذلك .

ولا أزال أحتفظ بخطاب من الصديق الأمير عبد الله الفيصل . هذا الخطاب وجهه إلى الرئيس أنور السادات يستأذنه فى شراء قطعة أرض فى مصر الجديدة نقيم عليها مطبعة ودارًا للنشر . قيمة هذه الدار عشرون مليونًا من الجنيهات . وأنه يكلفنى أن أتولى ذلك . وقد تحدثت فى أمر هذه الدار الكبرى مع الصديق د . فؤاد ابراهيم . وكان عضوًا منتدبًا لدار المعارف .. ومع الصديق الناشر أحمد يحيى .. وفجأة قررت أن أسكت نهائيًا عن هذا المشروع الذى لم يعرف عنه الرئيس السادات شيئًا . فقد وجدت أن الذى يغرينى فى هذا المشروع العظيم هو أننى لاأريد أن أشتغل بالسياسة . أما هذه السياسة فهى تأييد مصر فى موقفها من أجل السلام بغير حرب . ومساندة مصر فى موقفها من الدول العربية التى ترى أن مصر قد خرجت عن « طوعها » وليست الدول العربية التى خرجت عن « الواقعية المصرية » فى حل مشاكلها تمهيدًا لحل بقية المشاكل العربية . وفى مقدمة هذه المشاكل هى أن تكون للشعب الفلسطينى دولة .

تماماً كما أن للشعوب اليهودية دولة هى إسرائيل . وأنه بغير هيئة تكوين الدولة الفلسطينية فلاسلام لامع مصر ولامع العالم العربى . . وهذه هى إحدى الحقائق التى آمنت بها ، بعد النكسة وبعد النصر . ولاأزال أؤمن بها بعد الانسحاب التام .

ويوم طلب منى التلفزيون الإسرائيلى عند خروجى من مكتب الرئيس الإسرائيلى نافون أن أتحدث عن السلام قلت : هل من الممكن أن يذاع ماسوف أقوله ؟ فقيل : طبعاً .

قلت : إن السلام مع مصر هو سلام ناقص . لأن السلام يجب أن يكون كاملا . ولا يكون السلام كاملا إلاّ بعد قيام الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة . فإذا لم تقم اليوم أو غداً أو بعد عشر سنوات أوعشرين ، فالسلام مؤقت .. فنحن قد ارتضينا السلام خطوة نحو هدف ، الهدف هو السلام الشامل مع كل العرب . ولا يكون السلام شاملا إذا لم يكن للشعب الفلسطينى دولة .. تماماً كما أن الشعوب اليهودية أقامت لها دولة وليس من العدل أن يقال للشعب الفلسطينى لاتقل : آه إذا ضربك اليهود . بينما ملأ اليهود الدنيا صراخاً عندما ضربهم هتلر وعندما طردتهم كل الشعوب الأخرى .. وهذا كلام ثقيل وموجع ، ولكن هذا هو طعم الحقيقة .. اليوم وغداً !

ولذلك فإننى أعتبر نفسى « أحد الجيوب » التى قاومت الاحتلال الإسرائيلى لسيناء . وأن مقاومتى اتخذت شكل المقالات العنيفة والكتب الملتهبة . وقد انغمس قلمى فى مرارة الهزيمة ، ونار الانتقام .

وفى الوقت نفسه ، لا أعرف مثل ملايين الناس ، ماالذى يمكن عمله عسكرياً . وكنت أؤمن أنه لابد من حرب . وعندما كان الرئيس السادات يتحدث عن الحرب . كنت واحداً من الذين لم يصدقوه . وصارحته بذلك أيضاً ، ووجدت أن العالم كله لايصدقه . لأننا أناس صناعتنا الخطابة والكلام . وبعد ذلك اكتشفنا أنه من فضل الله علينا أن أحداً لم يصدقنا عندما نادينا بالحرب والاستعداد لها . ولذلك انصرفت عنا عيون المخابرات الإسرائيلية والأمريكية والسوفيتية . وكانت الحرب مفاجأة مفزعة . أبكت عيوناً كبيرة من قادة إسرائيل ، وأدمعت عيوناً كثيرة على إسرائيل فى العالم كله ..

فلما كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كان ذلك انتصاراً عظيماً للذين يقاومون الاحتلال اليهودى بأقلامهم ، وللرافضين للهزيمة النفسية ..

وأنا أجد عذراً مقبولا لكل الأدباء والمفكرين الذين تشككوا فى صدق نيات الرئيس السادات عندما أعلن أنه يستعد للحرب . وأن الحرب هى الوسيلة الوحيدة للنصر النفسى أولاً . والكرامة العربية ثانياً والعزة العسكرية ثالثاً ..

وعندما طلب منى الرئيس السادات أن أصدر مجلة « أكتوبر » كان أمله أن تحمل هذه المجلة اسم النصر العظيم ، وأن تمضى فى حمل عبء النصر تمهيداً إلى نصر أكبر .. أو إلى السلام . وكان السلام حلماً قديماً فى رأس الرئيس السادات . بدأ بما أعلنه سنة ١٩٧١ .. وكان مجرد فكرة يقلبها ويناقشها ويستشير فيها ويحسب لها الخسائر والأرباح .. ووجد أن الأرباح ، مهما كان الطريق إليها صعبا ، أعظم وأبقى .. وسوف يقتنع بها المصريون والعرب واليهود على سنوات طويلة . لأن خطوة السلام أجرأ وأعظم من أن يستوعبها أحد فى حينها .

وعاودنى الشك كثيراً بعد النصر فى أكتوبر . فقد رأيت الصعوبات التى تضعها إسرائيل على أرضنا وفى طريقنا . ولكن لم أعرف كيف تكون الحرب بعد ذلك . وكيف تنتهى هذه الحرب الصليبية – أى الحرب الدينية بين المسلمين واليهود .

وارتفعت نبرة الكلام . وحدة المنطق ، واتسعت الهوة بيننا وبين مانحلم به . ولم يجرؤ أحد أن يقول إن الخطوة القادمة هى الحرب . فقد أصبح معروفاً أن حرب أكتوبر كانت مغامرة عنيفة . وأننا لانستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك .. ولكن برغم الاعتراف بهذه الحقيقة المؤلمة ، فإننا قد انتصرنا . . أو أننا قد هزمنا إسرائيل وأوجعناها وأبكيناها حكومة وشعباً .. وإنه لم يكن سلام هذه المرة ، فحرب أخرى وبعدها حرب إلى غير نهاية . . أو إلى نهاية إسرائيل ، كما تنبأ المؤرخ البريطانى توينبى وقد يكون ذلك بعد عشرات السنين ، أو بعد عشرات القرون .. ولكنها نهاية مؤكدة ، والتاريخ الإنسانى بكل أشكاله وألوانه وتجاربه أكبر دليل يقدمه لنا على ذلك !

وسوف أعود إلى ذلك فى كتاب مستقل إن شاء الله ..

*

وكما تطورت المذاهب السياسية ، تغيرت أيضاً أساليب الكتابة عنها .. ولاأريد أن أذهب إلى بعيد جداً . فقد كان من أحلام الملوك . أن يكونوا فلاسفة . وكان من أحلام الفلاسفة أن يكونوا ملوكاً .

كان الإسكندر يحلم بأن يكون مثل أستاذه الفيلسوف أرسطو..

وكان من أحلام الفيلسوف أرسطو أن يكون مثل تلميذه الملك الإسكندر الأكبر. فصاحب الفلسفة يحلم بالقوة التي تجعله يرى أفكاره حقيقة واقعة. وصاحب القوة يريد أن يضيف إليها نور العقل الذى يهديه إلى تحقيق مايريد.

وقد حاول فلاسفة كثيرون أن يكونوا ساسة. فأفلاطون حاول أن يطبق مدينته المثالية فى إحدى الجزر وفشل..

والفيلسوف توماس مور أعدموه.

والفارابى فيلسوف العرب كفروه..

ولكن فلاسفة عقلاء حكماء رأوا أن المسافة بعيدة جداً بين مايفكرون فيه، وبين مايقدرون عليه. فرفض الفيلسوف الإيطالى كروتشه أن يكون رئيساً للجمهورية، ورفض الرياضى الكبير أينشتين أن يكون رئيساً لإسرائيل.. ورفض العالم الفلسفى لطفى السيد أن يكون رئيساً لمصر.

بينما وافق رجل كيمائى مثل فايتسمان أن يكون أول رئيس لإسرائيل. لأن العلاقات الإنسانية هى نوع من «الكيمياء» أى إضافة عناصر إلى عناصر تتفاعل لتكون مادة جديدة..

ومن النادر أن تلتقى الفلسفة والسلطة. فلم يفلح الفيلسوف الثورى كارل ماركس أن يكون له سلطان. فى حين أفلح لينين فى أن يكون الفيلسوف الملك.. وكذلك ماوتسى تونج..

وحاول فولتير عندما وقف إلى جانب الإمبراطور الألمانى فريدريش الأكبر.

وحاول الفيلسوف الهولندى أرازموس برسائله إلى كل الرؤساء والملوك، فإن لم يكن واحداً منهم، فقد حاول أن يكون قريباً منهم..

ولكن الأديب الفرنسى كوكتو قد حقق هذا المستحيل عندما صنع لنفسه عملة ذهبية جعل على وجه منها الإسكندر الأكبر وعلى الوجه الآخر أرسطو – أى أن الملك والفيلسوف لم يلتقيا إلا مرة واحدة على هذه العملة الذهبية.. التقيا وجهين لرأسين، وليس وجهاً واحداً لرأس واحد!..

ففى عصر النهضة الأوربية مثلا كانت الاهتمامات الأولى لكل المفكرين إنسانية – أى كان الاهتمام بالإنسان صانع كل شيء والهدف من كل شيء. ومركز الكون. فقد كانوا يرون أن

الكرة الأرضية هى مركز الكون ، والإنسان هو سيد الأرض ، إذن فهو سيد الكون . وماخلق الله السموات والأرض إلا لكى يتفرج عليها الإنسان إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل ! ..

ولكن ابتداءً من القرن السابع عشر حتّى التاسع عشر ، خضع الفكر الإنسانى كله للعلوم الجديدة . والعلوم الجديدة هى العلوم المادية ، الفيزياء والكيمياء . فكل شىء مادة . وهذه المادة لها وزن وحجم وكثافة وحرارة وأشكال تتغير حسب التفاعلات المختلفة ، فالفيزياء : أساسها المادة والكيمياء أساسها تحول المادة من صورة إلى صورة . ولكن حركة المادة مضبوطة . أى أن هناك قواعد رياضية لحركة المادة . وعلى ذلك فالمثل الأعلى للفكر الإنسانى : أن يكون ماديًّا محدودًا واضحًا . وأن يكون بسيطًا مثل المعادلات الرياضية . ولذلك فالكون كله : عمل هندسى .. ساعة لها عقارب .. والله هو المهندس الأعظم . أو أن الخلق ليس إلا معادلات كيميائية أبدعتها أصابع الله ، دون تدخل من الإنسان ، أى أن الإنسان ليس مركز الكون ، إنما هو واحد من المخلوقات ، أو صورة من صور تطور المخلوقات من المادة إلى الحيوان إلى الإنسان ..

وأصبحت كل العلاقات الإنسانية معادلات كيميائية .. كل العواطف : كيمياء .. كل التغيرات والتطورات والثورات : كيمياء ..

ففى التفسير المادى للتاريخ نجد هذه القاعدة : التّراكمات الكمية تؤدى إلى كيفيات جديدة ..

ومعناها : أننا إذا رفعنا درجة حرارة الماء درجة فإنه يتحول إلى بخار .. أى تراكم درجات الحرارة تؤدى إلى خلق كيفية جديدة هى البخار .. وكذلك كل المواد .. وكل العلاقات المادية بين الناس .. فالظلم المستمر يؤدى إلى الثورة ، والتسيب المستمر يؤدى إلى الانحلال تمامًا كما يذوب الجليد فيصبح ماءً .. أوكما يذوب الحديد فيصبح سائلا .. وهكذا ..

ولكن ابتداءً من الثورة الفرنسية والأمريكية والسوفييتية والانقلابات العسكرية الّتى أدت إلى تحرير الشعوب من الاستعمار والاستغلال أصبحت السياسة هى سيدة العلوم الأخرى ..

وفى القرن العشرين أصبحت السياسة هى العلم الذى « يسود » العلوم الأخرى .. فكما كانت الطبيعة سيدة علوم القرن الثامن عشر ، والرياضة سيدة علوم القرن التاسع عشر ،

والفلك سيد علوم القرن العشرين ، فإن السياسة أيضًا سيدة العلوم كلها بما فيها الفلك .. فالتنافس بين السوفييت والأمريكان على الكواكب الأخرى ، ليس علمًا بالدرجة الأولى ولكنه سياسة تمامًا . فكل منهما يحاول أن يثبت أن مذهبه فى السياسة هو الذى أدى به إلى بلوغ القمر أولا ، وإنزال إنسان عليه وإعادته ..

وكان أستاذنا أرسطو يرى أن الإنسان حيوان سياسى – أى أنه حيوان أولا ، ثم يحاول أن يتحكم فى غرائزه الحيوانية بالسيطرة عليها ، وهذه السيطرة هى السياسة ..

على حين كان أستاذه أفلاطون يرى أن الإنسان حيوان ناطق . أى أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو النطق أو هو التفكير ..

ولكن السياسة الحديثة ترى أن الإنسان : سياسى حيوان . أى أنه – سياسى أولا ، ثم إنه حيوان بعد ذلك . أى أنه يفرز قواعد السلوك ، ثم يتمسك بها بصورة حيوانية ، أو يحطمها بصورة حيوانية .. فالإنسان مثل دودة القز ، يفرز سريره الذى يصبح نعشه بعد ذلك .. أو أنه يريد أن يقول : إن الإنسان سياسى أولا ، وحيوان أو إنسان بعد ذلك . فهو ولد فى مجتمع . والمجتمع قد سبقه إلى الحياة . أى أن الإنسان كما يقول كارل ماركس قد ولد فى ظروف سبقته إلى الوجود .. سبقته بالاسم والدين والجنس والعنصر والطبقة والمشاكل ، ولذلك مادام هكذا غارقًا فى أوضاع وظروف اجتماعية ودينية واقتصادية وطبقية ، فهو لايمكن إلا أن يكون سياسيًا ..

ولذلك لم يعرف العصر الحديث إلا أدباء وفلاسفة فى السياسة . ولأنهم حريصون على أداء هذا « الواجب » أو الوفاء بهذا الالتزام الفكرى والوطنى والقومى ، فلابد من أن يكونوا على صلة بالجماهير : فى الصحف والإذاعة .. فليس بين جميع الكتاب الكبار من لم يكتب فى الصحف والمجلات .. أو لم يصدر الصحف والمجلات .. لأنه لكى يكون سياسيًا ، أو مشتغلا بالسياسة أو منشغلا بها ، فلابد من أن يضع أصابعه على نبض الناس . . على نبض الآخرين الذين يكتب لهم ويقف متهمًا بينهم .. ولأن الكاتب السياسى يلتقى بالقراء فى الأندية والمؤسسات ، فليس فى حاجة إلى أن يتخيل حوارًا معهم . لأنه يحاورهم .. فى حين أن الكاتب الذى اختار أن يرى من بعيد ، وأن يسمع كذلك فإنه يفعل مافعله سقراط : يجرى حوارًا بينه وبينهم .. أو يتخيل ذلك ..

والفيلسوف العظيم برتراند رسل قد استغرقته السياسة فى آخر أيام حياته بصورة مؤلمة . فقد كان وهو فى الثمانين من عمره يتظاهر ضد الأسلحة النووية . وماكان أغناه عن ذلك ، يكفى وزنه الأدبى العالمى . . ولكنه عندما سئل عن ذلك قال : لم أعد قادرًا على الكتابة . وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أتحدث إلى نفسى كما كان يفعل القديس أو غسطين فى اعترافاته أو جان جاك روسو فى هذيانه وشذوذه .. فأنا أريد أن أجعل حوارى مع الشباب عضويًّا .. أزاحمهم فى المظاهرات ويزاحموننى أيضًا ..

ولذلك كان الفيلسوف الوجودى سارتر يكتب القصص والمسرحيات ، وعندما توقف عن الإبداع الفنى ، راح يتزاحم بجسمه المريض فى مظاهرات الشباب ، وعندما حاول أن يكون له حزب سياسى ، كان حزبه نموذجًا جديدًا لفشل الفيلسوف إذا أراد أن يكون حاكمًا ، فليس من الضرورى أن يكون صاحب المذهب الفلسفى . هو رئيس الحزب السياسى – أى يكون الفيلسوف والملك معًا . ولذلك كانت لكثير من الأحزاب فلاسفة لايظهرون فى الصفوف الأولى من السلطة .. كان سوسلوف فيلسوف الاتحاد السوفيتى . وكذلك كان ألفرد روزنبرج فيلسوف النازية . والشاعر دانسيو فيلسوف الفاشية . وإذا ظهر فلكى تكرمه الدولة فقط . دون أن تلزمه بأعباء الملك والسيطرة .

وأقرب نموذج لكل الذى أريد هو ماكتبه د . عبد الرحمن بدوى فى رواية له بعنوان « هموم الشباب » فقد كان عبد الرحمن بدوى شابًّا ألمانى الفلسفة أسطورى الأمل . حالمًا بالبطولة . وقد قدم لنا الكثير من أحلامه البطولية والفلسفية فأضاف إلى أجنحتنا الخضراء ريشًا طويلا قويًّا .. جعلنا نرتفع مثل الفتى الإغريقى « إيكاروس » الذى ألصق الريش فى جناحيه بالشمع فلما اقترب من الشمس ذاب الشمع فسقط أول إنسان حاول أن يطير بجسمه هاربًا من جاذبية الأرض . ولكن الصمغ الذى استخدمه د . بدوى لتثبيت ريشنا لم يذب بهذه السرعة .. إنما أصبح الشمع غددًا تفرز الكثير كلما احتجنا إلى ذلك .

والصفحات الأولى من رواية « هموم الشباب » مثل موج البحر الهادر الثائر بالعبارات الضخمة الفخمة الصارخة الجارحة .. وبعد ذلك يظهر الإرهاق على البطل وهو يرى ماحدث لعزيز باشا المصرى وآخرين ..

وكما أن المؤلف قد خمدت جذوته بسرعة . فقد انزوى هو بنفس السرعة فابتعد تماماً عن السياسة وعن مصر كلها .

لقد قال كلمته وأراح نفسه ومضى .

والحقيقة أنه لم يكن فى استطاعته أن يقول أكثر أو يفعل أكثر . فهو رجل الفلسفة وليس رجل السياسة .. فهو الإنسان الذى امتلأ بنفسه . ولم يعد فى نفسه مكان لنفس أخرى .. وهو الذى أوقف الزمن حين لم يرتبط بتاريخ أو حدث .. فلاتربطه بالسياسة اليومية أو الأسبوعية صلة أو ضرورة . . وهو الذى تصور أن رواية كهذه من الممكن أن يكون لها أثر « آلام فرتر » للشاعر الألمانى جيته فتنتحر الفتيات العاشقات . حزناً على البطل .

ولم يكن لهذا الكتاب الأثر الذى تركه كتاب « هكذا قال زرادشت » للفيلسوف نيتشه فى فلاسفة البطولة وفى النازية بعد ذلك .

ولم يكن لهذا الكتاب ما كان لكتاب « الأمير » لمكيافيللى من أثر فى حياة موسولينى

لقد ألقى عبد الرحمن بدوى حجراً ملتهباً أطلق دخاناً عندما لامس الماء . ثم اختفى خامداً بعد ذلك ..

* * *

والمشكلة التى تواجه أديب السياسة هى ألا يفقد حماسته الأدبية تحت ضغط الأحداث العنيفة المستمرة وفى الوقت نفسه ألا تغرقه السياسة فينسى خط البداية .

* * *

إنما أديب السياسة هو الذى يعرف جيداً أدوات التعبير وقاعدة الانطلاق ، وأن يقول كلمته ثم يمشى .. ويقولها فى اليوم التالى ويواصل المشى أو الحركة أو يتعهد بذلك ..

وقد ذهبت بعيداً فى هذا الذى كتبته ، لأننى لا أريد أن أقترب من المقالات التى جمعتها هنا .. ولا أريد أن أفسر وأن أبرر أو أتحفظ – وإن كنت أعتذر عن أى نقص أو غموض فى كل الذى كتبت هنا . وكنت أتمنى لو اتسع وقتى فأعيد صياغتها وأغير فى نتائجها ، أوفى توقعاتى التى لم تجئ مطابقة تماماً لما حدث بعد ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا حقى ، فإننى أخشى أن أكون قد « حرفت » أو « زورت » فيما كتبت ، وقرأه الناس فى ذلك الوقت .

ولاأدعى أن هذا الذى كتبته هو صورة من نفسى تماماً . ولاصدى لأعماق . ولكنه كذلك إلى حد كبير . ومادمت قد نشرتها ثم أعدت نشرها . فأنا مسئول تماما عن كل ذلك ..

وأقول إنى كاتب سياسى حاولت أن أكسو السياسة أدبًا وفلسفة .. فإذا كان هذا هو ماتراه أنت أيضًا بعد ذلك ، فسوف تجد الكثير فى كتبى أيضًا – مزيج من الأدب والفلسفة والتاريخ والدين وعلم النفس ومن حياتى .

ومعنى هذا أنى جربت ذلك منذ وقت طويل . ولاأزال ..

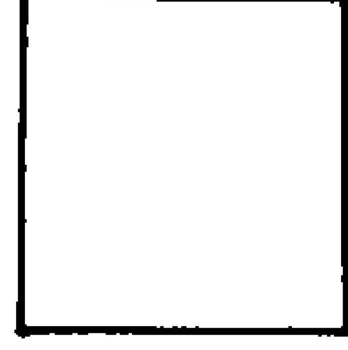
وسوف أعود إليه بصورة أخرى عندما أتحدث عن « رحلة السلام » . فقد عايشت الكثير من الأفكار والقرارات . وكنت شاهدًا على فترة استغرقت ست سنوات . ومن واجبى أن أدلى بشهادتى السياسية . التى هى وثيقة تاريخية .

وليست هذه المقالات إلا تعليقا على بعض ماحدث . على جوانب من الذى حدث ، كما أحسست بها ..

فإنى دائمًا ، مشتغل بالأدب وأتنقل بين غابات السياسة الخارجية والداخلية ..

وأعود مثل دودة القز ومثل قواقع اللؤلؤ ، أنسج وأفرز راضيًا عن الذى حاولت وعن الذى استطعت ، وأملى أن أكون ممتعًا ومفيدًا لك .

أنيس منصور



البيلوقراطية .. أو نظام الحكم في بيلا

حدث فى مركز بيلا ، مالم يحدث فى أية مدينة فى مصر كلها ، تخريب وإحراق واعتداء على المواطنين . والمعتدون مجموعة من الخارجين على القانون والهاربين من السجون .

وهذا مالم يحدث فى أى بلد آخر فى مصر . لأنه كان عنيفا عنيدا وفى وقت قصير وبصورة صارخة ! .

وقد وضعت هذه القضية أمام رجال الأمن ورجال السياسة والإعلام وعلماء الاجتماع . والموضوع : لماذا حدث كل ذلك فى مدينة واحدة !

وليست القضية هى قضية الجريمة أو الخروج على القانون .

فسوف تكون دائماً جريمة . وسوف يعتدى أناس على القانون ، وكلما زاد عدد الناس زادت معدلات الجريمة ، وكلما ازداد الضيق الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، تنوعت أرقام وأشكال الجريمة .

وهناك نظريات وعلماء وكتب ومعاهد تبحث فى أسباب الجريمة . وكيف يمكن إنقاصها ، وليس القضاء عليها .

وهناك مواسم للجريمة .

وهناك نوعيات للجريمة : جرائم المدن غير جرائم الريف ، وجرائم الأغلبية غير جرائم الأقلية . . وجرائم المثقفين غير جرائم الأميين . .

ولكن ماحدث فى مدينة بيلا : شيء خطير . .

نحن أمام ادعاءات كثيرة . من بينها أن رجال الأمن قد أرسلوا تقارير لوزارة الداخلية ، كاذبة . ومضللة بعد ذلك ، وقد اعترف وزير الداخلية بأن رجاله قد كذبوا عليه . وأنهم أيضا قد ضللوا العدالة . أى أن رجال الأمن قد شاركوا فى جريمة الكذب والتضليل لصالح من ؟ لصالح أنفسهم ، حتى لايقال إنهم عاجزون عن الضبط والربط . وفى نفس الوقت لصالح المجرمين الذين يحرصون على أن يمضوا فى طريقهم دون أن يدرى بهم أحد . أو دون أن يعترضهم أحد . أو يثبت قدرته على ذلك . .

إن رجال الأمن متهمون بجريمة التستر على الجريمة . .

ولو فرضنا أن الأطباء فعلوا نفس الشيء . وأرسلوا من مستشفيات الأقاليم ، أو من مستشفى بيلا ، تقارير كاذبة . . فقالوا عن انتشار الكوليرا إنه الزكام ، وعن انتشار التيفود إنه الرمد . . وقالوا إن أحدا فى بيلا لم يمت فى العشرين عاما الماضية ، وفجأة ظهر وباء فى بيلا . . فما الذى يمكن أن نفعله ؟ أليس من حقنا أن نتساءل بعد ذلك : إن كانوا أطباء أو مجرمين ؟ . . أطباء أو ميكروبات ؟ . . ثم ماهو معنى الطب ؟ ومامعنى الداء والدواء ؟ فإذا كذب الأطباء وضللوا وخدعوا وتستروا على الأوبئة ، فمن الذى يحمى مصر ؟ . .

وإذا فعل ذلك مهندسو المبانى ومهندسو السكك الحديدية والتليفونات وإذا فعل ذلك كل مسئول فى موقعه ؟ .

هل هذه مشكلة أخلاق فقط ؟ هل هذه مشكلة أمن عام أو أمن بيلا وحدها ؟

إن رجال الأمن مفروض أنهم يحمون الجميع من أخطاء الأطباء والمهندسين والمحامين والفلاحين . . فماذا نفعل إذا فوجئنا برجال المباحث يكذبون وأمناء الشرطة لاهم أمناء ولاهم شرطة . وإنما هم يعتدون على الأبرياء ؟.

أغرب من ذلك أن رجال التنظيمات الشعبية يحمون المجرمين أيضا ! .

فمامعنى ذلك ! معناه أن المواطنين العاديين قد انضموا إلى المجرمين ، انضموا

إليهم ضد رجال الأمن . . ضد القانون . . ومعنى ذلك أن الشعب ضد رجال الأمن . أو أنهم يرون أن هذه الجرائم لها مايبررها ، وأنها لم تعد جريمة !.

ألا يدفعنا ذلك إلى أن نتساءل ماهى أخطاء رجال الأمن التى تبرر الجريمة . . والتى ترى أن القانون هو المجرم ، وأن رجال الأمن هم جماعة من الأشقياء . .

وهكذا نجد أننا أمام أوضاع مقلوبة . .

ثم شىء أخطر من ذلك . . إن أحد أعضاء مجلس الشعب قد تستر على أحد المجرمين . . أحد زعماء العصابة . . وليست عصابة واحدة بل ثلاث عصابات لها مصالح مختلفة .

ويقال أيضا إن زعيم هذه العصابة هو المسئول عن نجاح عضو مجلس الشعب فى الانتخابات . .

فماهو الخطأ فى رجال الأمن ! هل هو خطأ فى الأشخاص ؟ فى الإجراءات ؟ فى نظام التقارير التى يبعثون بها إلى وزارة الداخلية ؟.

هل الخطأ فيما تعلنه وزارة الداخلية من أنه كلما كانت الجرائم أقل . . ازدادت درجات أو علاوات رجال الأمن .

ونحن أمام « فزورة » من نوع جديد ، مجرم يقنع المواطنين بضرورة أن ينجح عضو مجلس الشعب ، ماهى وسائل الإقناع التى يلجأ إليها زعيم عصابة لكى يقنع المواطنين ؟ وماهو المقابل الذى سوف يدفعه لزعيم العصابة ، إذا نجح العضو . وقد نجح ؟ ويقال إن العضو لم يتردد فى دفع الثمن وهو : التستر على المجرم . .

فعضو مجلس الشعب والتنظيمات الشعبية لاتتعاون مع رجال الأمن . . ونحن أمام معسكرين : رجال الأمن من ناحية . . وعضو مجلس الشعب ورجال التنظيمات الشعبية من ناحية أخرى . . والخائفون من أبناء بيلا فى الوسط . . وهؤلاء الخائفون ليسوا متفرجين على مباراة بين فريق الحكومة وفريق الشعب . . وإنما هم فى حالة من القلق ينتظرون النتيجة بفارغ الصبر . . وواضح أنهم رغم الاعتداءات التى وقعت عليهم ولم ترد فى تقارير الأمن . فإنهم يميلون إلى المجرمين . ضد من ؟

ضد رجال الأمن . .

وهذه هى الخطورة .

وبناء على ذلك فرجال الأمن حريصون على إخفاء معالم الجريمة ؟ . . وفى ذلك قصص ونوادر معروفة للجميع . .

هل هو خطأ وزارة الداخلية التى لم تعد تستخدم العصا فى الضرب على أيدى وأرجل الخارجين على القانون ؟ هل القانون ، لذلك أصبحت ذراعه قصيرة ، وأصبح فى الإمكان أن يلوى أى إنسان ذراع القانون . وقد استطاع أناس أن يفعلوا ذلك فى بيلا ؟ وفى غيرها اليوم وغدا .

إن اجهزة الأمن استطاعت الكثير جداً فى ظروف أقسى وأقصى . يكفى أن أجهزة الأمن واجهت أعنف التجارب وأكثرها مرارة فى ظروف الحرب وأيام مراكز القوى ، وأيام عبث القذافى فى مصر . . كل ذلك حدث وبنجاح ومع عظيم الامتنان .

ولكن الذى حدث فى بيلا يجعلنا نتساءل عن الجريمة والعقاب .

إن الجريمة ليس صحيحا أنها لاتفيد لقد استفاد منها كثيرون فى بيلا وعلى مستوى التنظيمات الشعبية ومجلس الشعب .

ولكن المؤكد الآن : أن العقاب هو الجريمة . .

أى أن أسلوب العقاب وشكله لم يعد رادعا . إنما العقاب فى غاية التراخى والكذب على الحكومة أيضا . فالعقاب هو الجريمة ! ويكفى أن نستعرض الذى يفعله أمناء الشرطة والذى تفعله وزارة الداخلية لهم من عقاب . . أو الذى تفعله وزارة الداخلية فى التقارير التى ترد إليها . . أو ماتتطلبه من الذين يكتبون التقارير . .

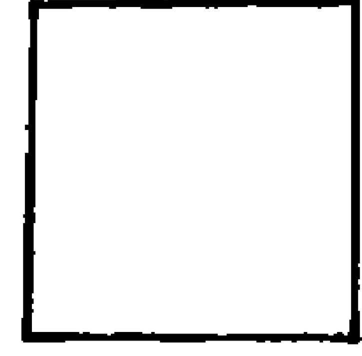
إن هناك غلطة ما ، أو غلطات جسيمة يجب أن تراجعها أجهزة الأمن . حتى لاتكون هناك أكثر من بيلا . .

ومهما تعددت أسباب ماحدث فى بيلا ، فإن أبرز الأخطاء هى التى تدحرجت إليها أجهزة الأمن . والسبب رجال الأمن .

صحيح أنه يمكن أن يقال : انظروا إلى بلاد العالم الأخرى ! انظروا إلى معدلات الجريمة فى أمريكا وفى إيطاليا وفى فرنسا وفى بريطانيا ! وأن أمريكا وحدها فيها من الجرائم مايعادل جرائم أوربا كلها ! ولكن هذا لايمنع أن الجريمة هى الجريمة فى أى موقع . ولايقلل من شأن الوجع فى ضرس ، أن أناسا عندهم أوجاع فى خمسة ضروس . . أو أنهم كانوا يتمنون أن تكون لهم ضروس بدلا من الأسنان الصناعية ! .

ولابد أن نبحث عن هذه « التركيبة » الاجتماعية والشعبية فى مركز بيلا لنعرف المقدمات التى أدت — فجأة — إلى هذه الأعمال الصارخة . وهل صحيح أنها حدثت « فجأة » أو أنها متكررة متواترة الحدوث ، ولكن رجال الأمن يسكتون عن ذلك . .

إن بيلا تستحق بشكلها ونظام الأمن والتنظيمات الشعبية التى فيها أن تدخل القاموس الجنائى تحت اسم ومصطلح جديد « البيلوقراطية » . . أى نظام الحكم فى بيلا !.



يا فقراء العالم وأغنياءه :
اتفقوا من أجل السلام !

شاعر أفريقى هو الذى قال : إن شعوبنا مثل أشجار « الأفزاليا » . . عندما تكون صغيرة تكون أعوادها لينة معوجة ، ورائحتها كريهة . . ولكن عندما تكبر يشتد عودها ، وتعلو أغصانها ، وتتعالى أزهارها . وتصبح فى صلابة الحديد وتقوى على حمل الفيل دون أن تتوجع .

ويقول أيضا : وقد حملت أشجارنا وهى صغيرة الفيلة التى يركبها الأوربيون فسحقتنا ترابا وأعدمتنا بشرا ، وأبقتنا بعد ذلك عارا على البشرية . .

هذا الشاعر اسمه (ابنو راكولى) فى ديوان له عنوانه (أصداء الصدى الأسود) .

ولكن شعوب أفريقيا تجاوزت مراحل العود الأخضر . ولايستطيع أحد أن يدوسها ، ولا أن يجعلها ترابا ، انتهت هذه الفترة الشائنة من تاريخ الإنسان الأبيض الذى استعمر الرجل الأسود . .

واستقلت الدول الأفريقية ، وتقاربت وتضامنت وأصبحت – معا – قوة كبرى . . أصبحت ملايين الأيدى تزرع الأرض وتقطع الأشجار وتشق المناجم ليشتريها الرجل الأبيض ويعود بها لمئات الملايين من المستهلكين السود . . فهم ضرورة استهلاكية ، وهم فى نفس الوقت ضرورة حيوية . . فالخامات كلها هنا . . والأسواق كلها هنا . . والزبون على حق دائما – وهى كلمة تعلمناها من الرجل الغربى .

ولنا مصالح : نحن أفقر الفقراء وأغنى الأغنياء الذين اجتمعنا فى القاهرة . .

فالكثيرون ليس عندهم فلوس ، والقليلون عندهم الكثير من الفلوس . .

والذين يملكون الفلوس لايملكون الأيدى ، أما ملايين الفقراء فلايملكون إلا أيديهم . وإذا كنا نطلب العدل من العالم كله ، فإننا ينقصنا أن نكون عادلين مع أنفسنا . . فنعطى لأنفسنا مانحتاج إليه ومانقدر على مضاعفته . .

وقد سمعنا ذلك فى المؤتمر وفى كواليس فنادق القاهرة .

هذا أول مايطالب به ملايين الفقراء . .

ولكن رغم مالدينا من عدد ، ومالدينا من مال ، فإننا لم نتطور بعد كما تطورت أوربا وأمريكا . . ولذلك فنحن فى حاجة إلى شراء الخبرة الحديثة ، واستعارتها وتقليدها . . وهذا يحتم علينا أن نتجه إلى الغرب . . إلى الرجل الأبيض بخبرته وفلوسه ونفوذه مرة أخرى . . ومعنى ذلك أننا عندما أخرجناه من الشباك فتحنا له الباب لكى يدخل باختيارنا .

وفارق كبير بين ما كان وبين الذى ارتضيناه الآن فى علاقاتنا بالرجل الغربى . .

ولنا نحن العرب والأفارقة معا مشكلة أخرى : وهى أننا نواجه التفرقة العنصرية القائمة على اللون . ونحن نلعن هذه التفرقة فى روديسيا وجنوب أفريقيا وفى إسرائيل . .

ونحن ضد هدم الحضارة وآثارها كما يحدث فى إسرائيل . .

وضد مساندة إسرائيل للبيض فى جنوب أفريقيا . .

وضد التوسع الإسرائيلى القائم على الهوس الدينى ، وطرد شعب فلسطين بالقوة ، وإلقاء ألوف الأبرياء فى السجون وتجريدهم من أقل حقوقهم الإنسانية .

ولقد أدانت الأمم المتحدة إسرائيل كدولة عنصرية متعصبة . . وكدولة تعتدى على المقدسات عندما أحرقت المسجد الأقصى وحفرت الأرض تحته ليسقط فى النهاية . . وفى ذلك إهدار لكل ماجاء فى ميثاق الأمم المتحدة – وكان للدول الأفريقية ودول العالم الثالث الفضل الأكبر فى تلطيخ وجه إسرائيل بالعار . .

ثم إننا بدأنا حملة من أجل السلام . فى كل مناسبة سياسية ودبلوماسية عربية وغربية وأفريقية كبرى . فالسلام لنا جميعًا . ونقدر عليه مادمنا كتلة واحدة ، وينهار السلام ونحن أيضا إذا تفرقنا . .

واجتماعنا هو قمة الفقراء والأغنياء الذين جمع بينهم : الأمل فى العدل طريقا إلى الكرامة والرخاء . .

نحن نلوم أنفسنا كثيرا جدًّا . ولا نزال ندق رءوسنا بأيدينا حتى لاتبقى لنا رءوس . فتتضاءل أمام أعيننا . لماذا !

* * *

نحن نرفع الطين من تحت أقدامنا ونلطخ به وجوهنا ، حتى لانرى وجوهنا فكأننا أجسام بلارءوس . بلا وجوه . لماذا ؟

نحن لم نترك وصمة عار إلا ألصقناها بأنفسنا ابتداء من نكسة ٦٧ حتى سرقة مقابر الفراعنة فى الأقصر. لماذا ؟

نحن غرسنا الندم فى نفوسنا بالأمس وجنينا اليأس اليوم . وأصبح طعم الدنيا على ألسنة شبابنا مرًّا والطريق أمامهم ضيقًا ، والشمس سوداء . لماذا !

* * *

نحن نعيب على شبابنا أنهم بلا طموح ، وأنهم بلا قيم أخلاقية وأنهم ضعاف الإيمان وأنهم يستخفون بكل شيء . وأنهم لايدينون بالفضل لأب أو أم أو أستاذ أو زعيم أو تاريخ . لماذا ؟

* * *

إننا نطالب العالم كله بالعدل ، ثم لانعدل بين أنفسنا . . ثم لانرحم أنفسنا من ألسنتنا ولانحنو على شبابنا بالفهم والحب والتسامح . لماذا !

* * *

لو أن أحدًا تسلط على مصر وقرر أن يحطم معنوياتها لصالح عدونا مافعل أسوأ مما فعلنا بأنفسنا ! فلماذا !

لماذا نجعل تحطيمنا سهلا ، لماذا نجعل تمزيقنا وقهرنا هينًا ؟ كيف ننفق كل ماأنفقناه على بناء الناس ثم نهدمه بهذه السهولة أو دون عذاب من ضمير ، أو خوف من الله ؟

* * *

إننا بعد أكتوبر صدرنا الهزيمة إلى إسرائيل . هذا صحيح إننا صدرنا لهم التمزق واليأس والرغبة فى ترك إسرائيل والهجرة إلى أركان الأرض ، هذا صحيح . إننا صدرنا إليهم الموت والخوف من الموت وهذا حق . . وصدرنا إليهم الانحلال والفساد والشك . هذا صحيح . .

* * *

ولكن صحيح أيضًا أننا بدأنا نسترد ماأعطينا . . ونستورد ماصدرنا . ونكفر بما آمنا . . وبدأنا نشعر بالغربة فى بلادنا . لماذا !

من الذى جعل الناس يشعرون بأنهم غرباء فى أوطانهم ؟ . . من الذى أفزع الآمنين ، وأقلق المؤمنين وسد الطريق وحجب الشمس ، وأوقف سير الزمن عند الأمس . واختار للأمس اسما آخر هو البكاء على مافات وماهو آت أيضاً ؟ !

* * *

نحن فعلنا ذلك بأنفسنا فما أقسانا وماأبشعنا !

فبعد النكسة استعرنا من إسرائيل « حائط المبكى » وأقمناه أمام كل بيت ورحنا نبكى على ماكان وعلى ماسوف يكون . .

* * *

فلم نكن نتصور أن ماسيكون بعد ذلك فى أكتوبر هو أروع ماكان فى كل العصور . .

وبعد أكتوبر نسينا حائط المبكى .

ولكن مع حرية الكلمة استعدنا « حائط المبكى » الإسرائيلى ورحنا نبكى من جديد . . ماذا جرى لنا ؟

* * *

إنها غلطة الذين يكتبون . ويملأون أقلامهم بالطين والندم واليأس ، كأن مصر بلامستقبل . أوكأن مصر بلا شباب . أوكأن أرض مصر أرض لاينبت فيها الأمل ولاتزهر فيها الرحمة ، ولايشرق فيها الحب .

هل نكف عن لوم أنفسنا ؟

هل نتوقف عن نقد عيوبنا ؟

هل لانعرف غيركلمة واحدة نقولها للحاكم : نعم ومليون نعم ؟

* * *

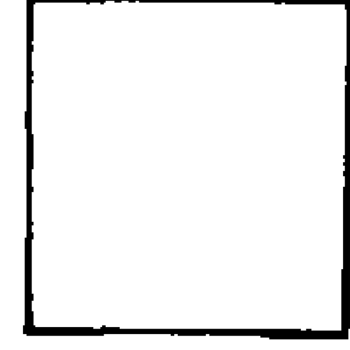
لا . . بل يجب أن ننقد أنفسنا . وأن نترفق فى ذلك وأن نضع حلا لمشاكلنا . فالمشاكل كالهواء الفاسد والماء العكر والمطبات فى الشوارع والغلاء والتضخم والزكام تنتقل عدواها للجميع . . ولايستطيع أن ينجو منها أحد . فأمام مصائب الناس ، لا أحد يتفرج على أحد . . ولا أحد برىء من دم أحد . . وأصابعنا التى تتهم الآخرين . . تتهمنا أيضا .

وأقلامنا التى نشرعها فى وجوه الآخرين . . هى سهام نسددها فى المرآة إلى وجوهنا وصدورنا وأعز أمانينا . .

إن النقد العنيف الهدام ، هوكالسهام المرتدة . . نطلقها مسمومة فترتد إلينا فى نحورنا . . فنكون أقسى على أنفسنا من أعدائنا . . فلنرحم أنفسنا من أنفسنا !

* * *

فقد شوهنا أنفسنا ، ومزقنا قلوبنا ، وحطمنا رءوسنا ، وأخفنا الناس من مصر ، وأفزعنا شباب مصر من مستقبل مصر . . إننا جنينا على مصر ونلوم غيرنا . . فما أقسانا وماأتعسنا بعد ذلك ! .



أول لقاء فكرى فى إحدى الصيدليات

فى الخرطوم التقى الرؤساء السادات والأسد ونميرى : إخوة من أجل قضية واحدة . أمن العرب وبحرهم الأحمر . .

ففى السنوات الأخيرة شاهد العالم محاولات للتسلل المستمر إلى السودان بقصد إسقاط حكم الرئيس نميرى ، وكان التسلل من الغرب ومن الشرق . والدافع المادى إلى ذلك : ليبيا . . والدافع المذهبى إلى ذلك : روسيا . . فليبيا هى لعبة السوفييت فى المنطقة . فمنها تحمل الطائرات البلغارية السلاح والعتاد إلى أثيوبيا الماركسية ومن أثيوبيا تتسلل قوات مأجورة إلى السودان . .

والكلام عن أمن البحر الأحمر معناه : أن يكون البحر الأحمر أحمر اسماً لافعلا . . ففى اليمن الجنوبية نظام شيوعى وفى الصومال عند مدخل البحر الأحمر نظام شيوعى . وأثيوبيا شيوعية والمحاولات لن تتوقف ضد السودان . . وفى مصر سوف يجدد الشيوعيون محاولات الشغب بقصد تشويه صورة مصر التى تدعو للسلام وتريد أن تحققه بجهودها المتواصلة .

والغرض من هذا كله أن ننشغل فى معارك أخرى قومية : أى بين الدول العربية ، ووطنية : أى فى داخل الدولة الواحدة . وبذلك يكون التمزق شاملا . .

وقد سافرت إلى السودان ثلاث مرات . وقابلت كبار القوم . ولكن لم أجلس قط إلى أحد من الصغار – أى الناس أمثالنا من المثقفين . وتمنيت ذلك ، ولكن لم

تتحقق لى هذه الأمنية . فالوقت ضيق . ونحن نجرى وراء ركب الرؤساء .

إلا هذه المرة . ذهبت إلى إحدى الصيدليات : يوسف السباعى وعصام الحينى من رجال سفارتنا فى الخرطوم وأنا . ومددت يدى إلى العقاقير التى أريدها دون أن أفكر كثيرا إن كان المألوف هناك يقضى بذلك . . ولكنه ذلك الشعور القوى الذى أحس به كلما ذهبت إلى السودان : إنه بلدى ، وأى مكان هو بيتنا . وأنا على راحتى ، وعلى راحتى هذه مددت يدى وجمعت العقاقير وقدمتها للوجوه الباسمة الضاحكة التى رحبت بنا لأنها تعرفنا من مصر أو لأنها تعرفنا كتابا من مصر : أهلا وسهلا . . نورتم الخرطوم . .

– بل الخرطوم منيرة مضيئة بكم قبل أن نجىء .

– إذن فلقد ازدادت نوراً . .

– أنتم الذين ازددتم كرما وسماحة . .

– تفضلوا . .

وتفضلنا إلى داخل (أجزخانة كمبال) . . ودخلنا من غرفة . . إلى غرفة أخرى . . إلى قاعة كبرى ، وتجمعنا عشرين رجلا . . ودارت مناقشة . . أول مناقشة ثقافية فى السودان . وكان موضوعها : كل مايخطر على بال قارئ الصحف والكتب المصرية .

والقضية : هى قضية الفكر والصدق والعدل .

والمناسبة . . لاتوجد مناسبة خاصة ، وإنما نحن جميعا مثقفون ومشغولون بقضية واحدة : هى مصير أمتنا العربية . وكيف يتعاون الجنوب والشمال على دفعها إلى الأمام . .

وفى كل مرة أزور السودان يتعاظم عندى شعور بالتقصير : فلم أمكث فى السودان وقتا كافيا ولذلك فالذى أكتبه قليل . ولا أحب أن أكتب عن السودان كأى سائح أجنبى . . فلا أنا سائح ولا أناأجنبى . . ويتعمق هذا الشعور بالتقصير . إذ كيف أكتب عن القارات الخمس وأسافر إلى القطب الشمالى والجنوبى وأكتب

عن الكونغو وأوغندة وعن جزيرة بالى ولا أكتب بنفس الحرارة والحماسة عن السودان الشقيق . لاشىء ينقصنى ، الرغبة الصادقة والحب والأمل الواحد . . ولكنه الوقت الذى لاأجده فى كل مرة أسافر فيها إلى السودان .

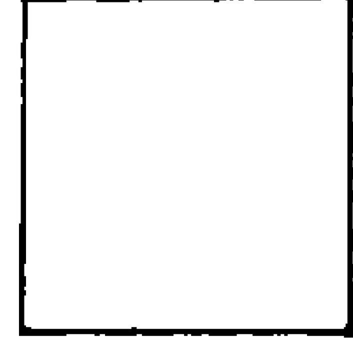
وقنعت بهذا التعويض الذى جاء عفوا عندما استدعانا أصحاب أجزاخانة كمبال لأن نجلس معًا . .

ولم أشعر بالغربة . إنهم مثلنا يبيعون العقاقير . . وزجاجات الدواء تشبه الكتب . . فهى أيضا تركيبة كماوية . والكتاب علاج . والكاتب طبيب .

والصيدلية مكتبة تبيع الفكر فى زجاجة . والمكتبات صيدليات تبيع الدواء فى ورق . ونحن جميعا أطباء ومرضى . . وكثيرا ماوجدنا الدواء وكان التشخيص خاطئا .

ولاأعرف سببا معقولا لكى أطلب شايًا بالنعناع . . وجاءت الفناجيل . . وكانت تأكيدًا لما يحدث فى الصيدليات فتطلب دواء فيعطونك دواء آخر . طلبت شايًا فأتوا بقرفة . شربتها شاكرا . إنهم أكدوا لى أنها صيدلية فعلا وقولا وأن صيدليات السودان كصيدليات مصر واحدة . . صادقة النية ولكن الدواء شىء آخر . والحديث النبوى يقول : « الطريق إلى النار محفوف بالنيات الطيبة » !

ولكن طعم المناقشة ورائحتها ودفئها كان أمتع وأعمق وأبقى - فشكرا لدكاترة أجزاخانة كمبال بالنيابة عن مثقفى مصر والسودان !.



الذين يصيدون فى المياه الدافئة

ما الذى يفعله السوفييت فى أفريقيا ؟

فالرئيس السوفييتى بودجورنى يرتاد القارة الأفريقية من الوسط والجنوب . . ومن ورائه ومن أمامه الرئيس الكوبى كاسترو . .

من الواضح أن السوفييت أكثر اهتماما بأفريقيا من أمريكا ومن الغرب . فهذه القارة قد استعمرها الغرب . وقامت كل حركاتها التحريرية على طرد أوربا من أفريقيا . . ولايزال السود يحاولون التخلص من النفوذ الأوربى أو من الأقلية البيضاء فى الجنوب أو الوسط . .

والسوفييت يمدون بالسلاح هذه الحركات التحريرية ، لأسباب أخرى . .

فمن المنطقى أن يحاول السوفييت ملء الفراغ الغربى فى أفريقيا ، وأن يحولوا دون التسلل الصينى إلى أفريقيا . . وأهم من ذلك كله أن تكون للروس قواعد فى المياه الدافئة . .

فقد كانت البحار الدافئة حلم القيصرية الروسية من أيام بطرس الأكبر . .

والسياسة السوفيتية تعتمد على النفس الطويل . . وهى مغامرة ، أحيانا تنجح وأحيانا تفشل . . فقد نجح السوفييت فى أن تكون لهم « قاعدة » فى الإسكندرية على أيام جمال عبد الناصر ثم خسروها على أيام أنور السادات ، ثم أصبحت لهم الآن قواعد فى ليبيا .. ثم كانت لهم قواعد فى الحديدة باليمن الشمالية ثم خسروها . .

وأصبحت لهم قواعد فى عدن فى اليمن الجنوبية . . عند مدخل البحر الأحمر . . ثم لهم « قاعدة » فى بربر فى الصومال عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر . . ولهم قواعد فى هافانا بكوبا . . ولهم الآن قواعد عند الدول الصديقة على المحيط الأطلسى . . حتى انتصرت أنجولا بالسلاح السوفييتى والقوات الكوبية . . ولم يكن من السهل الانتصار فى أنجولا إلا عن طريق التسلل من الدول المجاورة الصديقة للسوفييت أيضا . .

والسوفييت لهم هدف استراتيجى – أى فلسفى سياسى بعيد المدى . فقد ظهر فى الخمسينات كتاب عن البحرية السوفيتية من تأليف الأميرال جورشكوف قائد الأسطول البحرى السوفييتى . هذا الكتاب يكاد يكون سريا . وليس من الكتب الشعبية المتداولة أو حتى التى يسهل فهمها . الكتاب عنوانه وموضوعه وهدفه وأمله أيضا هو « القوة البحرية للدولة » والمؤلف قد لقى مقاومة عنيفة فى داخل الكرملين . وتعب فى إقناع الساسة السوفييت حتى كانت أزمة الصواريخ فى كوبا سنة ١٩٦٢ عندما اضطر خروتشيف أمام تهديد كيندى أن يسحب الصواريخ السوفيتية ، هنا فقط اقتنع الكرملين أنه من الضرورى أن يكون لهم أسطول يستطيع أن يواجه الأسطول الأمريكى فى أى مكان من أى محيط على الكرة الأرضية .

ومن العبارات ذات الدلالة الخاصة فى هذا الكتاب قول المؤلف « إن البحار ليست ملكا لأحد . والأساطيل أكثر حرية من الطائرات والدبابات . . ثم إن الأساطيل تستطيع أن تهدد كل الشواطئ وأن تغزوها إذا اقتضى الأمر ذلك . .

ولم يشأ المؤلف أن يقول إن روسيا تستطيع أن تعود إلى « سياسة الزوارق المسلحة » التى كانت تقف فى الموانئ فى القرن التاسع عشر وتهدد الحكومات وتسقطها ثم تنزل قواتها وتستولى على الأرض وعلى الناس ، حدث ذلك فى أفريقيا وفى آسيا . .

ولذلك فروسيا حريصة على أن تكون لها مياه دافئة – أى قواعد فى المياه الدافئة . وإن كانت فكرة « القاعدة » الثابتة لم تعد ممكنة الآن ، لأنه لابد للروس

آن تكون لهم السيادة التامة على القواعد وآن تكون القاعدة فى مآمن من سياسة الدول المضيفة ، وقد فشل الروس فى ذلك تماما . وأكبر مثل لذلك ماحدث لهم فى الإسكندرية .

ولذلك فالروس يفضلون أن تكون لهم « تسهيلات بحرية » . . أى تكون أساطيلهم قادرة على التزود بالماء والطعام والوقود والذخيرة . . وبذلك تصبح هذه الأساطيل قادرة على المناورة والحركة والبقاء الطويل فى البحر الأبيض والمحيط الهندى والمحيط الأطلسى . .

وفى أفريقيا يجد الروس أنهم أمام قضايا عنيفة متضاربة وأمام قضايا أخرى سوف تشتعل . ولذلك فهم يستعدون لها من الآن ، وهذا يبرر ويفسر مايقوم به الروس منذ انتصاراتهم فى أنجولا حتى الآن . .

فهم مع السود ضد البيض فى حركاتهم التحريرية فى روديسيا وجنوب أفريقيا . .

ثم إنهم أمام موقف شديد التعقيد فى المنطقة التى تسمى « القرن الأفريقى » — وهى الصومال التى تشغل مساحة من الأرض على شكل قرن يمتد جنوبى البحر الأحمر وعلى المحيط الهندى . فالصومال وأثيوبيا وأريتريا وجيبوتى مجموعة من المشاكل المتضاربة .

فالاتحاد السوفييتى قد ساند الانقلاب العسكرى الأثيوبى بالسلاح والمال . وأعلن اعترافه بالنظام الدموى القائم على أنه نظام ثورى نظيف .

وفى نفس الوقت فإن هذا النظام الثورى معاد للنظام الثورى الموالى للسوفييت فى الصومال .

وروسيا تمد الدولتين بالسلاح . وقد تساءل الرئيس الصومالى كثيرا إن كنت الأسلحة السوفيتية سوف تستخدم ضده .

وهناك منطقة أريتريا وثورتها الوطنية وكل شواطئها على البحر الأحمر ، وهى تريد أن تستقل عن أثيوبيا ، والدول العربية تساندها . وكانت روسيا تساند الثورة

الأريترية ضد حكم هيلاسلاسى . فلما سقط حكم الإمبراطور ، انقلبت روسيا على ثورة أريتريا التى تساندها الصومال . .

ويتقدم السوفييت بمشروع يرضى الجميع ويغضب الجميع أيضا ، وهو إنشاء اتحاد كونفيدرالى للصومال وأثيوبيا وأريتريا وجيبوتى . وعن طريق هذا الاتحاد يمكن تسوية كل مشاكل السكان والموانئ والحدود !.

فإذا حدث ذلك أصبحت للسوفييت قواعد وتسهيلات بحرية هائلة على البحر الأحمر ، وعند مدخله ، وعلى المحيط الهندى أيضا .

وأصبحت روسيا قادرة على إشاعة القلق والفتن فى السودان عبر أثيوبيا وأوغندة أيضا . . وعن طريق ليبيا التى اتخذها السوفييت عميلا وحليفا ، لمجرد أنها ضد مصر . . وفى نفس الوقت واضح جدًّا أن السوفييت يريدون تطويق مصر والسودان والسعودية . .

ومع السوفييت ، ولأسباب مختلفة ، تتقدم إسرائيل إلى الدول الأفريقية ، أثيوبيا وجنوب أفريقيا – بالمال والخبرة . . سواء كان هذا الدخول صريحًا أو من وراء ساتر أوربى أو أمريكى أو شيوعى . .

وفى المؤتمر الذى عقد فى تعز بين السودان واليمن الشمالية واليمن الجنوبية والصومال كان الهدف هو « أمن البحر الأحمر » وأن يظل هذا البحر عربيا . . أى حتى لاتتدخل فيه إسرائيل . . أو تسيطر على مدخله أو على شواطئه . . وليس معروفا بوضوح الآن إن كان رؤساء الدول الأربع قد تصارحوا بشأن النفوذ السوفييتى المتزايد فى الصومال وأثيوبيا والمتربص بغيرهما من الدول . . أو أن أحدًا قد صارح الصومال بضرورة أن يعود إلى القومية العربية الإسلامية ، وإن كان فى الإمكان أن يملأوا فمه ذهبًا !

ربما تفجر هذا الموقف عندما يجرى الاستفتاء على الاستقلال فى جيبوتى . وسوف تكون مستقلة وتصبح الدولة ٤٩ فى منظمة الوحدة الأفريقية . . ويبدأ اللعب بالنار جنوبى البحر الأحمر . .

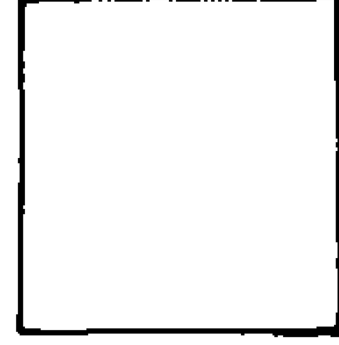
إن مياه البحر الأحمر تتعكر الآن وبشدة . والروس يصيدون فى المياه العكرة وإسرائيل أيضًا ، ولايزال أمام العرب كبارهم وأغنيائهم الكثير من المتاعب ، حتى يعيدوا الإخوة المارقين أو الناشزين إلى الوحدة العربية ضد الصهيونية والماركسية والتبعية المطلقة . . فنكون ضحايا توازن قوى الرعب ، وتعطش السوفييت إلى المياه الدافئة ، وبذلك نستبدل قوة بقوة ، وسلطانًا أبيض بسلطان أحمر . .

وهذا النشاط السوفييتى يؤكد بصورة صارخة (غفلة الأمريكان) والغرب . . وهذا هو أكبر التحديات التى تواجه الإدارة الأمريكية الجديدة فى أفريقيا .

إن قارتنا السوداء تغلى وتتفجر وسوف تمتد إليها أيد من الشرق والغرب تنتقى مالذ وطاب . . ولذلك يجب ألا يغيب عن عيوننا أننا الضحايا . . وأن مصيبتنا أننا بعض لبعض عدو . . فليس أعداؤنا من خارجنا ، وإنما أعداؤنا من داخلنا ؟ لماذا ! وكيف ؟

إنه الجنون من ناحية ، والصمت على ذلك من ناحية أخرى . . فهل يطول ذلك الصمت ؟ ربما طال الصمت لأننا مشغولون بالسلام بيننا وبين عدونا ، وبعد ذلك نتفرغ للسلام فيما بيننا . .

والسلام ليس استسلامًا ، وإنما هو استعداد عسكرى دائم حتى لانفاجأ بالقتال . إننا لانريد أن نحارب ليبيا أو غيرها من أجل أن نتفرغ لإسرائيل وللذين تشويهم المياه الساخنة فى البحر الأحمر !



أنت أحسن من يكتب عنك

المفكر الإنجليزى توماس كارليل . . عندما تحدث عن أهم معالم الحضارة فى عصره قال : اختراع البارود والمطبعة وثورة البروتستانت على الكنيسة الكاثوليكية . . والمفكر الألمانى هربرت ماركوزة عندما وصف حضارة القرن العشرين قال : العقول الإلكترونية والصحافة وثورة الشباب وسلاح « المذكرات » التاريخية ! .

فقد ظهرت فى العشرين عاما الأخيرة مذكرات ويوميات واعترافات لمئات المشاهير من الأدباء والزعماء وكلها من أجل هدف واحد : أن يقول كل واحد منهم حقيقة ما جرى له وما جرى عليه ، وأن يكون ذلك على لسانه وبقلمه .

لماذا ؟

هذه هى مشكلة القرن العشرين فليس أسهل من أن يظلمك الناس وخصوصا إذا كنت إنسانًا قويًّا لأن القوى شخص له سلطة ، وله سلطة لأنه يقوم بعمل وهذا العمل يستغرقه فلا يجد وقتا لأن يقول ما فى نفسه ، فهو مشغول بالناس عن نفسه ثم إنه من الصعب أن ينفرد بنفسه ليفكر فى حالته وفى رواية تاريخه ويصحح الأخطاء التى وقع فيها الآخرون أو تعمدوها ! .

ولذلك يسارع كل زعيم سياسى بأن يروى قصة حياته من البداية إلى النهاية ، أو يروى مرحلة من حياته . حتى لا يكون ضحية القوة التى كانت له . . لأن القوة

قد أعطته الكثير من أجل الناس ، وسلبته الكثير من نفسه . .

ومن الصعب على أى زعيم أن يتكلم عن الظلم الذى وقع عليه ، ولكن من المستحيل أن يسكت عن ذلك أيضاً !.

ولا تزال العبارة التى قالها الزعيم الإنجليزى دزرائيلى صادقة . . فهو الذى قال : أنت أحسن من يكتب عنك !.

والتاريخ – كما يقول كارليل أيضا – هو قصة حياة الأفراد النابهين . . قصة زعماء الشعوب .

ولا يزال التاريخ هو سياسة الأمس . ولا تزال السياسة هى تاريخ الغد .

والزعماء عندما يكتبون تاريخهم ، فإنهم يسجلون ما كان بالأمس لعله ينفع ما سوف يحدث غدا . . فهم يتحدثون عن ماضيهم هم من أجل أن ينفعوا مستقبل الآخرين . .

وكل مذكرات سياسية هى نوع من « الاعترافات » . . فالزعيم يجلس أمام التاريخ – أى أمام محكمة العدل الدولية . . ويترافع فى قضيته هو . . صحيح أن القاضى والمحامى والواقف فى القفص والمحلفين جميعا من صنعه هو . . ولكن هذه هى المحكمة الوحيدة الممكنة . . وهى المحكمة الوحيدة المريحة لكل من يكتب ، فالزعيم يريد أن تنعقد المحكمة وأن يكتب ويقرأ ويسمع براءته بنفسه . .

ومن هذا الشعور يتحول الزعيم إلى فنان يروى قصة ، أو يصور لوحة ، أو يعزف لحنًا . . فيعيش القارئ معه ملحمة إنسانية . .

وبذلك يكسب القارئ مؤرخا وفنانًا. فالمؤرخ يريد العدل ، والقارئ يريد الجمال . والعدل والجمال وجهان للحقيقة .

ولذلك كانت المذكرات السياسية عملا فنيا وكسبا إنسانيا فى النهاية .

وفى السنوات العشر الماضية فقط ظهرت عشرات المذكرات السياسية . ولنفس المعنى . .

إن تشرشل وهو الحائز على جائزة نوبل فى الأدب والذى أصدر عشرات

الكتب ، ماتزال مذكراته تتوالى طبعاتها . . بل إن مئات الخطابات قد صدرت له أخيرًا . وفى هذه الخطابات تفسير وتبرير لما حدث . . أو لما وقع له وما قام بتوقيعه من قرارات فى أقسى الظروف الإنسانية . .

كما ظهرت مذكرات الجنرال ديجول فى طبعات أنيقة . . فهو أيضا شاهد على عصره . وصانع لأحداثه ، ومن الضرورى أن يقول وأن يكشف وأن يكاشف الناس . .

وحاييم وايزمان كتب « المحاولة والخطأ » وبن جوريون كتب الرسائل ونشر الأحاديث والاعترافات من أجل أن يروى لأجيال إسرائيل الصغيرة هذا المعنى الواحد الذى قاله فى مئات الصفحات : يا أبناء إسرائيل غداً وبعد غد ، ترفقوا بنا فقد تعذبنا كثيرا من أجل أن نحصل لكم على هذه الكرامة والحرية . . ومن أجل أن تهجروا حارات اليهود فى كل عاصمة ! .

وفى بريطانيا ظهرت مذكرات كل الزعماء السياسيين وأخيرًا ظهرت مذكرات هارولد ويلسون زعيم حزب العمال « الحكم البريطانى » . . وقد جعل كتابه عن فن رياسة الوزراء . . وكتاب ويلسون يعد ثانى كتاب فى تاريخ بريطانيا عن رياسة الوزراء .

ومن العبارات العميقة التى جاءت فى كتابه هذا أن هناك شرطين اثنين ليكون أى إنسان رئيس وزراء ناجحا : أن يكون لديه إحساس عميق بالتاريخ ، وأن يعرف كيف ينام . .

فالذى يعرف التاريخ ، يعرف المسرح الذى تحركت عليه الأحداث ويعرف المصنع الذى تتولد منه طاقة الحركة . . أو يعرف الأمعاء التى توجع الناس فيتطلعون إلى الخبز والحرية والقوة والله .

ويعرف أيضا كيف ينام : لأن الذى يعرف الأرق ، يعرف التردد والاندفاع أيضا ، ولكن النوم هو العلاج الوحيد الذى يجعل الحاكم قادرا على الرؤية الواضحة وقادرا على العدل بعد ذلك !.

أما زعيم المحافظين إدوارد هيث فهو رجل فنان . . ولذلك أصدر كتبًا عن التجديف وعن السباحة . . ثم أصدر كتابا عن الموسيقى . . أى عن تذوق الموسيقى وعن دراسة الموسيقى وعن كيف يقود هو الفرق الموسيقية . .

وهو بذلك يريد أن يقول إنه إلى جانب زعامته السياسية هو أيضا رجل رياضى ، يقبل النصر والهزيمة بنفس الروح المتسامحة . . وهو أيضا يتذوق الموسيقى . . والسياسة والموسيقى لا تختلفان . . فالرجل الزعيم هو الذى يقود الأوركسترا الجماهيرى من أجل لحن جميل عن الرفاهية والسلام . .

والأديب الإنجليزى رسكن هو الذى قال : أعطنى زمام الموسيقى فى أى شعب ، وأنا أجعله لك شعبًا خيِّرا مسالما نبيلا . .

وقبل ذلك قالها أفلاطون : الموسيقى هى انسجام لرغبات الجسم ونزوات النفس وشطحات الجماهير . .

وليس مهمًّا إن كان إدوارد هيث قد حقق هذا الانسجام العام لشعبه أو للأسرة الدولية . ولكنه قد اعترف لنا بأنه كان يأوى إلى الزوارق هربا من مناقشات مجلس العموم ويلجأ إلى دور الأوبرا فرارًا من الخلافات الحزبية . وأنه من الواجب أن يكون للزعيم مكان يهرب إليه . .

فالرهبان كانت لهم صوامع . . والأنبياء كانت لهم كهوف . . أى كانوا جميعا ينسحبون من أجل الصمت النبيل أو العزلة الشريفة !

وبعد حرب أكتوبر ظهرت المذكرات فى إسرائيل . أما جولدا مائير فقد نشرت قصة حياتها . . وفى الفصول الأخيرة نهايتها الحزينة مع حرب أكتوبر . وكيف أنها بكت . . وأنها لن تسامح نفسها مدى الحياة على ترددها وخوفها ودماء اليهود بعد ذلك .

والذى فعلته جولدا مائير فعله أيضا موسى ديان فقد أصدر كتابًا عن حياته أيضًا . وفصوله الأخيرة عن حرب أكتوبر وراح يفسر ويبرر لهذه الهزيمة .

وكلاهما لم يشأ أن يكتب عن حرب أكتوبر مباشرة وإنما قدم لها بإنجازاته هو من

أجل الصهيونية العالمية ومن أجل إسرائيل . . فكأن كلا منهما أراد أن يقدم تاريخه الجليل ، لعل هذا يخفف الحكم على أخطائه . . أو لعل هذا يشفع له عند القارئ الإسرائيلي أو الممولين اليهود فى كل مكان !.

وكل رؤساء أمريكا أصدروا كتبًا مماثلة بعد الحرب وظهروا على الشاشة الكبيرة والصغيرة يؤكدون ويصححون كل ما وقع أثناء وبعد الحرب . . إلا أيزنهاور فهو الوحيد الذى لم يظهر على التليفزيون . ولكن أحدا من خلفائه من الرؤساء لم يرتكب هذه الغلطة . .

والرئيس الأمريكى نيكسون الذى أسقطته فضيحة ووترجيت ، وظهرت عنها عشرات الكتب والمسلسلات والأفلام . يكتب مذكراته . وقبل أن تصدر مذكراته سجل ثلاثين حلقة تليفزيونية ، كل واحدة مدتها ساعتان ، يشرح فيها حقيقة ووترجيت — أو فضيحة التصنت على الحزب الآخر . ومعرفة ذلك والسكوت عليه يعتبر دليلا على الموافقة . . أى والمشاركة والمسئولية الجنائية أيضاً . .

وقد تقاضى نيكسون ثلاثة ملايين دولار . .

ود . هنرى كيسنجر يكتب مذكراته . وفى نفس الوقت تعاقد على نشرها مسلسلة فى ٢٠ لغة . وتعاقد أيضا على الظهور فى التليفزيون مرة كل أسبوع لمدة عام يشرح القضايا الخطيرة الذى تعرض لها ، وساهم فى حلها أو تعقيدها ، وتقاضى مليونين من الدولارات . .

أما الرئيس فورد فهو صاحب أكبر نصيب من المذكرات ومن الدولارات فى التاريخ فقد تعاقدوا معه على مذكرات مقابل مليون دولار . وتعاقدوا معه على مسلسلات فى التليفزيون مقابل ربع مليون دولار .

وتعاقدوا مع زوجة فورد على نشر مذكراتها عن الرقص والأزياء ومرض السرطان الذى مرضت به . . وعن حياتها فى البيت الأبيض مقابل ثلاثة أرباع مليون دولار . .

وتعاقدوا مع جاك فورد ، ابن الرئيس فورد على أن يعمل مساعدًا لرئيس تحرير مجلة موسيقية مقابل ثلاثين ألف دولار . فإذا كتب مذكراته عن والده وحياته فى البيت الأبيض فسوف يقبض مائة ألف دولار . .

وتعاقدوا مع ستيف فورد الابن الثانى على أن يظهر على شاشة التليفزيون يروى نوادر فى حياة البيت الأبيض مقابل خمسين ألفا من الدولارات .

وكذلك تعاقدوا مع سوزان فورد التى تهتم بالتصوير أن تنشر كتابًا بعنوان « البيت الأبيض فى صور » وسوف تتقاضى عشرين ألف دولار . .

وأخيرًا تعاقدوا مع جاك فورد الابن الثالث على إصدار مجلة عن الرحلات مقابل مائة ألف دولار . .

* * *

إنه الظلم الذى يقع على الزعماء هو الذى يدفعهم إلى رفعه فى أسرع وقت ممكن قبل أن تتمكن الأكاذيب والشائعات من عقول الناس .

والصورة النموذجية لذلك : الرئيس نيكسون . فلم يحدث أن سقط أحد هذا السقوط العنيف ولم يحدث أن فضحت كل أجهزة الإعلام القوية رجلا ، بلا رحمة كما فعلت بهذا الرجل ومعه وضده . .

ثم إنه أيضا الخوف من المؤرخين الآخرين . وليس الخوف من المعاصرين ولكن من الذين يجيئون بعدنا . . الخوف أن يعلقوا صورنا على جدران من الكذب .

ثم إنها المتعة أن يعود الإنسان إلى نفسه . . وأن يخلو بها ، وأن يراجعها وأن يعيشها مرة أخرى . .

فإذا كان من معالم الحضارة الأوربية اختراع المطبعة فمن كوارث القرن العشرين : الصحف . . وبعد ذلك الإذاعة والتليفزيون أى هذه الأدوات القادرة على النشر السريع والتأثير العظيم على الناس . .

فإذا عرفنا أن الإذاعة والتليفزيون والسينما قد جعلت الناس سلبيين ، يتلقون المعلومات دون تفكير لأدركنا خطورة هذه الأجهزة فى نشر الكذب أو نشر الخطأ .

والزعماء بسبب حساسيتهم الشديدة بالجماهير ، فهم أيضا حريصون أكثر من غيرهم على تبديد الكذب وإزالة آثاره فى أسرع وقت وبأقوى وسيلة . .

والفكرة التى تسيطر على صاحب المذكرات أو الاعترافات هى أنه يريد أن يصنع العدل لنفسه . . وأن يوضح موقفه وأن يصحح الأخطاء أمام المعاصرين . وأن يستريح إلى صدى ذلك فى نفوسهم فهل هذا هو حكم الأجيال القادمة ؟ .

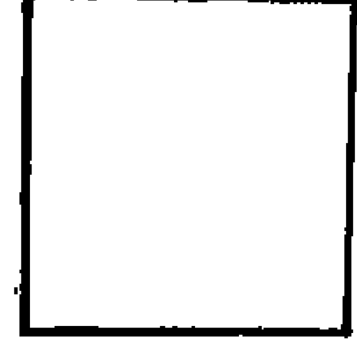
إن كل جيل له منطق وله لغة وله مقاييس فنحن لا نعرف ما الذى سوف تقوله الأجيال القادمة . إننا لا نعرفها ولذلك فنحن لا نشغل أنفسنا بها كثيرا . وحتى عندما ننشغل بها ، فلأننا نريد أن نعيش أطول . . أى نريد أن يكون له صوت اليوم وصدى غدًا وبعد غد . . إن الكاتب الروسى ديستوفيسكى فى روايته « الإخوة كرامازوف » هو الذى قال : إن المسيح نفسه إذا عاد حيًّا ، فسوف يحاكمه المسيحيون بتهمة الخروج عن الدين ! .

وديستوفيسكى فى روايته هذه قد جعل المسيح يعود حيًّا إلى مدينة أشبيلية فى إسبانيا . . وجعل الشعب يلتف حوله مما أغاظ أحد رجال الدين الذى انصرف عنه الناس ليروا المسيح حافى القدمين عارى الصدر نحيفا بسيطا . . وكان رجل الدين قد ارتدى ملابسه الفاخرة فوق كرشه الكبير . . فهدد المسيح بأنه إن لم يخرج فورا فسوف يضعه فى السجن . ثم وضعه فى السجن وهدده إن لم يختف من المدينة كلها فسوف يصلبه بتهمة الكفر والإلحاد !.

وقال للمسيح أيضا : إن الدنيا تغيرت إننا تعذبنا من أجل الحفاظ على دينك . ولا نستطيع أن نمشى حفاة ولا أن نتحدث إلى كل الناس . ولا أن نموت من أجلهم !.

* * *

ومن هنا اتجهت كل المذكرات السياسية إلى أبناء العصر ، لأنهم جميعًا طرف فى القضية التى يجب أن يترافع ويعترف ويرتفع أمامها كل زعماء الشعوب ! .



ارتفعت حرارة قصر الأليزيه بباريس

فى الكتب العسكرية يعلمون الجنود كيف يتحولون من أعداء إلى أصدقاء. وذلك بأن يشتركوا فى حفر خندق أو بناء جسر.. وبسرعة تتقارب الأيدى وتتلامس ويتضاحك الجميع: إنهم أصدقاء..

فالصداقة ليست شيئا يوجد، إنما هى علاقة نصنعها معا، لنا معا.

والصداقة درجة من درجات المودة.

وأهل الريف أقدر الناس على المودة، فليس أسهل من أن تمتد أيديهم بالتحية.. وأن تتسع أذرعهم بالعناق. فهم قريبون وأقارب. وكل مكان يجلسون فيه هو بيت. وكل بيت يضم عائلة واحدة، ولذلك فالريف عائلات. والعقلية التى تسودهم جميعا: إنهم أبناء عم أو خال أو إخوة فى الرضاعة.. أو فى الشرب من قناة واحدة أو يطحنون قمحهم فى ماكينة واحدة. فكل شىء يربطهم بعضهم ببعض فهم دائما مرتبطون مترابطون.

هكذا يعيشون ويحبون أن يكون كل مايربطهم بالآخرين كذلك..

ولا أدعى أننى أقرأ أفكار الرئيس أنور السادات. وإنما ألاحظ حرصه على ذلك.. ثم إنه أضاف شيئا آخر. فهو قد أقام الجسور وفتحها بين كل الأطراف.. ومد ذراعيه لكل الأشقاء العرب بعد أن تولى الحكم.. فلا تزال الجسور والعبور والمودة والأخوة أسلوبه وغايته فى التقارب والتفاهم..

وهو حريص على أن يخلق ذلك أو يشجع عليه . . فى كل مايعمله فى مصر أو خارج مصر ، سواء فى العالم العربى ، أو العالم الغربى الذى يختلف عنا فى أسلوب العمل . .

ولكنه حريص على أن يكون شرقيا عربيا ، وأن يكون مصريا ريفيا . .

فهو فى رحلته فى ألمانيا قد رأى المودة وخلقها وأشاعها أيضا منذ كان أول عشاء أقامه الرئيس الألمانى فالترشيل . . فقد رأى فى هذه الحفاوة العائلية تقديرا عالياً لمصر فى شخصه . فمصر أم الحضارة وصانعة التاريخ ، وكبرى الدول العربية . وقد ظهر ذلك فى « الجو » الرقيق . . وفى الكلمات الشخصية الودية التى قيلت أثناء الطعام . .

ولابد أن الرئيس السادات قد عاد بذاكرته إلى أكثر من عشرين عاما عندما زار ألمانيا فى سنة ١٩٥٥ فى عصر « الرجل العجوز » أديناور . . لقد كان الرجل منحازا تماما لإسرائيل . وكانت علاقة ألمانيا بمصر – عادية لاحرارة ولا مودة . . ولكن فى زيارة الرئيس السابقة لألمانيا وهذه الزيارة قد لاحظ تغيرا هائلا فى موقف الرئيس شيل والمستشار شميت . وقد أحس الرجلان أن لألمانيا مكانة خاصة عند الرئيس السادات ، فهو يرى أنه من الضرورى أن يتوقف عندها ذهابا وإيابا . ولما علموا بأنه سوف ينشد فيها بعض الراحة بعد عودته من أمريكا أسعدهم ذلك أيضا .

بل إن عودة الرئيس السادات إلى ألمانيا قد جعلت المستشار شميت يختصر إجازته . . رغم أن الرئيس السادات قد طلب إليه ألا يفعل !.

ولم تستغرق المناقشات الاقتصادية مع المستشار شميت أكثر من نصف ساعة . فقد تمّ الاتفاق على كل شىء وبسرعة . لأن كل شىء كان فى غاية الوضوح منذ البداية .

والمستشار شميت يستمتع بعظيم التقدير والاحترام من الرئيس السادات . ويرى أنه رجل اقتصادى عظيم .

والمستشار شميت له نظرية فى الاقتصاد : إن الاقتصاد العالمى مرتبك ، وفوضى . ولدى المستشار شميت صورة لعلاج الفوضى العالمية فى الاقتصاد . .

وعلى الغداء شكر الرئيس السادات مضيفه الرئيس شيل والمستشار شميت على الفهم الواضح والحرص على الصداقة المصرية . وشكرهما أيضا على الخبير الاقتصادى الألمانى مولر الذى أهدته ألمانيا إلى مصر ومعه عدد من الخبراء الممتازين .

وفى المقطع الأخير من كلمته وكان باللغة الألمانية ، عاد الرئيس السادات وجدد لهم الشكر الغامر والود العميق .

وعلى الرغم من أن الكلمات كانت قد ألقيت قبل الغداء ، فقد جاء الرد على كلمته وديا للغاية . .

أما الجو العام ، فهو مانتمناه لأنفسنا ، فقد جمعوا للرئيس السادات أقطاب الأحزاب السياسية وأقطاب المعارضة أيضاً . ورغم ذلك فقد كان الجو عائلياً .

ومما أسعد الرئيس السادات فى هذا الجو الودى أن يلتقى أقطاب الحكومة مع زعماء المعارضة فى مناسبة واحدة . فهذه الصورة لها دلالة كبرى ومعنى عميق . . وتعطى نوعا من الوحدة رغم الاختلافات فى الرأى . ولكن لاخلاف على المصلحة العامة . .

وفى فرنسا التقى الرئيس السادات بالرئيس الفرنسى جيسكار ديستان ، وبينهما علاقة صداقة عميقة . . ولذلك فاللقاءات عادة عائلية . فعلى الغداء أو العشاء يلتقى الرئيس الفرنسى وزوجته والرئيس المصرى وزوجته . . وأحيانا يحضر الأولاد أيضاً . وعلى الرغم من « المعنى التاريخى » لطقوس البلاط الإمبراطورى أو الملكى الفرنسى ، فإن شيئا من ذلك لايتمسك به الرئيس الفرنسى . . ولذلك يصبح الكلام أهدأ ، والحوار أرق . . والهدف قريبا . فلا تزال المودة أسرع وسائل الاتصال بين القلوب والعقول معا .

ومن يرى لقاء العائلتين على الغداء أو العشاء أو يستمع إلى الحوار والنكت المتبادلة لايخطر على باله أنه يقف أمام رئيسى دولتين . . إنما يقف أمام صديقين

التقيا على عشاء أو غداء . . بلا قيود وبلا بروتوكول . .

وكان قصر الإليزيه ساخنا جدًّا . كانت التدفئة شديدة .

وعندما خرج الرئيس السادات استقبله الصحفيون . استوقفوه فى الجو البارد جدًّا . ولم يتنبه الرئيس السادات إلى أنه كان يتصبب عرقا . ولكن عندما عاد إلى قصر الضيافة – المارينيه – أوى إلى الفراش . وكانت الغرفة باردة جدًّا . وطلب تدفئة الغرفة . وأحضروا له دفايتين ولكنهما لم تفلحا فى تدفئة الغرفة .

ولم يتنبه الرئيس السادات إلى ارتفاع درجة الحرارة فى قصر الإليزيه ثم انخفاضها الشديد أمام القصر فى حديثه مع الصحفيين ، ثم برودة قصر الضيافة ثم المقابلات الكثيرة جدًّا المرهقة قبل استئناف رحلته إلى أمريكا . .

ولكن بعد أن اتجهت الطائرة إلى أمريكا هنا أحس الرئيس السادات بارتفاع فى درجة حرارته ، واستدعى طبيبه . وخشى الطبيب أن يصارحه بأن درجة حرارته قد بلغت الأربعين . ولكنه أحس بالإرهاق الشديد وعدم القدرة على التركيز . .

وظلت درجة الحرارة كما هى أكثر من خمس ساعات وأجريت للرئيس السادات كمادات من الماء والكولونيا . ولم تنخفض درجة الحرارة . فلم يغمض له جفن طوال هذه الرحلة .

ولما لاحظ السيد إسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الأسبق أن الإرهاق قد استبد بالرئيس السادات اتصل من الطائرة ببرج اللاسلكى فى مطار سانت أندروز الحربى بضرورة أن تكون سيارة الرئيس السادات تحت الطائرة مباشرة . وبذلك ينزل من الطائرة إلى السيارة دون أن يتعرض للهواء ، وأن يتجه مباشرة إلى قصر الضيافة فى واشنطن .

وكنا مانزال على مدى ساعة واحدة من المطار . وقد لاحظنا جميعا حركة غير عادية فى الطائرة . . فالدكتور عطية الطبيب الخاص قد ذهب وعاد . ثم استدعى مرة أخرى . . ولكن أحدا لايسأل . ولا أحد يقول شيئا . وقيل لنا إن الرئيس درجة حرارته ارتفعت . . وأن هناك تفكيرا فى إلغاء برنامجه فى اليوم الأول أو الثانى . .

وأنه لابد أن يلزم الفراش يوما أو يومين . .

ولكن انخفضت درجة الحرارة . . ومازالت الحرارة تنخفض حتى أصبحت عادية تقريبا . ولكن الرئيس السادات قد بدأ يستعد للنزول من الطائرة متساندا على نفسه . وعندما هبط سلم الطائرة استند بذراعه اليمنى إلى السلم . . وكان عند نهاية السلم سيروس فانس وزير خارجية أمريكا السابق والسيدة حرمه وعدد من رجال السلك الدبلوماسى الأمريكى والمصرى . .

ثم وجد الرئيس السادات أن المطار قد امتلأ بأبناء الجالية المصرية جاءوا من كل الولايات الأمريكية ومن كندا . . فاقترب منهم يرد عليهم التحية . رغم أنه لم يكن قادرا على المشى ولكن لم تطاوعه نفسه أن يرى أبناء وطنه ينتظرونه ويفرحون بلقائه ثم لايذهب إليهم ليشكرهم على ذلك . .

رغم أن أصواتا كثيرة وراءه كانت تطلب إليه أن يكتفى بالتحية من بعيد وأن يركب السيارة وينطلق إلى الفراش . .

ولم يكد الرئيس السادات يصل إلى بلير هاوس – بيت الضيافة – حتى وجد الطبيب الخاص للرئيس كارتر فى انتظاره ومعه عدد من الأطباء الأمريكان . وفجأة تصافح طبيب كارتر وطبيب الرئيس السادات فقد كانا صديقين .

وكشف الطبيب الأمريكى على الرئيس السادات . وقرر أن يبعث إليه بممرضة لتسهر عليه . وفى اليوم التالى سوف ينقله إلى المستشفى . .

وبعد أن أجرى الطبيب الأمريكى الكشف التام وإجراء التحاليل الكاملة قرر : أن الرئيس السادات يجب ألا يزاول أى نشاط . وأنه من الضرورى إلغاء البرنامج لليوم الأول على الأقل !.

ولكن الرئيس السادات أصر على عدم الذهاب إلى المستشفى وعلى الوفاء بكل ماالتزم به . فلديه لقاءات صحفية واقتصادية ولقاءات فى التليفزيون وأخطر من ذلك أن يلتقى بالرئيس كارتر وبرجال الكونجرس . وأنه لن يعدل عن الوفاء بكل ماارتبط به بالنسبة للأمريكان أو العرب أو الطلبة المصريين فى أمريكا وكندا .

وفى اليوم التالى نهض الرئيس السادات من نومه مستريحا . ودرجة حرارته عادية . ولكن فجأة ارتفعت درجة الحرارة بعد أن انتهى من جلسة المحادثات الثانية مع الرئيس كارتر .

وعاد الأطباء إلى استخدام كمادات الماء والكولونيا . وهذه الكمادات تجعل النوم متعذرا . تماما كما حدث فى الطائرة . .

ثم إن الأطباء أعطوه بعض العقاقير التى تجعله يتفصد عرقا . وكان ذلك واضحا عندما ألقى الرئيس كلمته فى القاعة الشرقية فى البيت الأبيض . فقد كان وجهه يتندى عرقا . وكلما أخرج المنديل من جيبه يمسح عرقه لمعت كاميرات المصورين لدرجة أضحكت السيدة جيهان السادات وقرينة الرئيس كارتر . فلم يكن شيئا عجيبا أن يعرق أحد تحت المصابيح الباهرة الساخنة .

ولكن هذه المتاعب هانت فى عين الرئيس السادات عندما نجح فى مهمته . وعندما أقنع كارتر بتصوره للوضع فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا . وعندما أبان له تماما موقف مصر أو « الصيغة المصرية » للحل . .

وأكثر من ذلك أنه وجد فى كارتر ذلك الريفى المؤمن . فكارتر ضابط أمريكى . بل إنه أمضى فى البحرية الأمريكية أحد عشر عاما ، أى ضعف المدة التى أمضاها الرئيس السادات فى الخدمة العسكرية . . ثم إن كارتر هذا كان ثانى اثنين اختارتهما البحرية الأمريكية ليعمل فى الغواصات النووية .

ويوم أعلن كارتر لزوجته أنه قرر أن يترك البحرية وأن يعيش حياة مدنية اعترضت زوجته ونصحته ألا يفعل .

وعقب الرئيس السادات على ذلك بقوله : لو كان قد سمع كلامك فمن كان يلقانا فى البيت الأبيض اليوم . . ومن كان الذى يحسن فهم قضيتنا ويشجعنا على المضى فى خطانا إلى السلام ؟.

والرئيس كارتر بدأ حياته المدنية من الصفر . لم يكن فى جيبه سوى خمسة آلاف دولار . . ولكن فى أمريكا من الممكن أن يبدأ الإنسان من الصفر ثم يستطيع أن

يضع عشرين صفرا أمام الواحد فيكون مليونيرا أو ملايينيراً . . فلا حدود للثراء هناك . .

وفى شقة الرئيس كارتر فى البيت الأبيض أحس الرئيس السادات أنه فى بيت عمدة . . ولكن البيت نظيف وبسيط . ولكن أهم من ذلك كله أن جميع أفراد الأسرة قد عاشوا معا . . وأن غرفهم كلها قد توزعت حول « حوش البيت » . . هذه غرفة الرئيس وزوجته . . وهذه غرفة ابنه الأكبر وزوجته . . وهذه غرفة ابنه الثانى . . وهكذا . . كلهم معا . .

وقد اعترف الرئيس كارتر للرئيس السادات بأنه اعتمد على جميع أفراد أسرته فى الحملة الانتخابية . . جميعا ساهموا فى إنجاحها . تماما كما يفعل أبناء الريف .

ولم يكن من الصعب على الرجلين أن يتفاهما . فأكثر عادات أبناء الريف واحدة . وتناولهم للأشياء واحدا . ومايتوقعه الواحد من الآخر من الاقتراب والقرابة واحد تماما . فالفلاح المصرى والفلاح الأمريكى والفلاح الصينى يتفقون فى ٩٠٪ من الوسائل والغايات .

وداعبه الرئيس السادات قائلا : البنت الصغيرة التى انجبتموها على كبر . . نسميها عندنا فى الريف : إنها خلف العجائز !.

وضحك الرئيس كارتر وأصر على أن يذهب مع الرئيس السادات إلى غرفة الفتاة الصغيرة . وكانت نائمة واقترب منها أبوها يقول لها : الرئيس السادات . . قومى سلمى على الرئيس السادات . .

وكانت الفتاة غارقة فى النوم . ففتحت عينيها . . ثم طوقت والدها بذراعيها وعادت إلى النوم . وحاول أبوها من جديد أن يوقظها لكى تسلم على الرئيس السادات . ولكنه لم يستطع . . وقبلها الرئيس السادات وخرج الاثنان من الغرفة يضحكان . ثم سأله الرئيس كارتر : ماذا تسمون هذه الطفلة . . تسمونها خلف العجائز . ولكن لِمَ لا ؟

وبعد لحظات عادت زوجة الرئيس كارتر من حفلة كانت قد أقامتها للسيدة

جيهان السادات . وبعد دقائق امتلأت شقة الرئيس كارتر بأولاده وزوجاتهم . . هيصة . . كأى بيت عمدة فى أعماق الريف !

وكان الرئيس السادات قد قرأ الكثير عن الرئيس كارتر . وقرأ قصة حياته التى عنوانها « ولماذا لايكون الأفضل ؟ » أوكيف لانستطيع أن نحقق ماهو أفضل فى أى شىء .

وقال له : لقد قرأت عن قرية بلينز التى ولدت فيها . . كم عدد سكانها ؟

قال الرئيس كارتر : ٥٠٠ نسمة . . آه . . قل لى ياسيادة الرئيس السادات أين توجد قرية ميت أبو الكوم ؟ لقد بحثت عنها على الخريطة فلم أجدها .

وضحك الرئيس السادات وهو يقول : إنها أصغر من أن تظهر على الخريطة . .

سأله الرئيس كارتر : كم عدد سكانها ؟

فأجاب الرئيس السادات : ألف نسمة !

وفى أحد المؤتمرات الصحفية أعلن الرئيس السادات : أن هذا الرجل كارتر سوف يترك بصماته على تاريخ أمريكا والعالم . .

وقد صارحه الرئيس السادات بأن انتخابه هو « عودة الروح » إلى أمريكا . . فهو رجل جديد فى أفكاره وفى أسلوبه . ثم إنه رجل على خلق . ثم إنه أمريكى نموذجى . هو الوجه الحسن لأمريكا . فقد بدأ من الصفر ليرتفع كالصاروخ إلى أعلى مكان فى الدنيا فى أغنى وأقوى دولة فى العالم . .

ومن رأى الرئيس السادات أن أمريكا كانت تقوم بدور رجل الشرطة الذى يقوم بتأديب المتمردين والخارجين على القانون الدولى أو القانون الأمريكى فى العالم كله . . كانت تقوم بدور « البعبع » .

أو كان دورها نوعا من اللامبالاة بما يحدث خارج أمريكا . . بل كانت فيها اجتهادات بالعودة إلى الانعزال والانطواء وترك العالم كله يتمزق ، مادام بعيدا عنها !

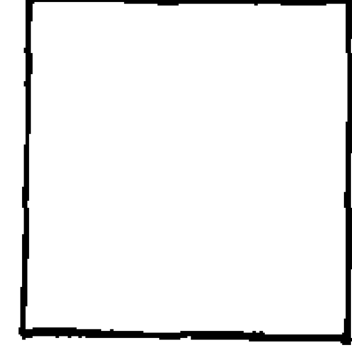
والذى حققه هذا الرجل ، كمواطن أمريكى عادى ، حققته أمريكا كلها فى

٢٠٠ سنة . . ويبدو أن الأمريكان متطرفون فى عواطفهم إذا أحبوا أعطوا ، وإذا كرهوا سحقوا . . فألمانيا هاجموها حتى هدموها ومسحوا بها أرض أوربا ، وعندما أعانوها أعطوها حتى أصبحت أغنى دولة أوربية . . أو هى الدولة التالية بعد أمريكا . . وكذلك اليابان ضربوها بالقنابل الذرية ، ثم أعطوها حتى نافستهم فى بلادهم . .

وقد لاحظ الرئيس السادات سرعة التقدم الهائل الذى أحرزته أمريكا من مجرد مقارنة أفلام رعاة البقر التاريخية والتى تصور حياة أمريكا من خمسين عاما فوجد أن البيوت خشبية ، وأن العربات خشبية . . ولكن فى هذه الفترة القصيرة تغيرت أمريكا وتسابقت وسبقت حتى وصلت إلى الكواكب الأخرى .

ولكن الصورة التى هزت الرئيس السادات وملأت قلبه بالدفء هى هذا الجو العائلى الريفى فى بيت أقوى رجل فى العالم : كارتر !

إن الرئيس السادات يعتقد أن الصداقة هى أعظم هدية يقدمها الإنسان لنفسه . . ولذلك فهو حريص على أن يكون صديقا وأن يكون له أصدقاء فى كل مكان وفى كل موقع !



المهاجر المصرى ذلك المجهول
ولكن .. إلى متى ؟!

كانت هناك شجرة كبيرة عند نهاية كوبرى الزمالك من ناحية إمبابة . الشجرة قطعوها بمناسبة زيارة شخصية كبيرة لمسرح البالون . أما ماهى العلاقة بين مسرح البالون ، وشجرة فى حجم البالون ، وهذه الزيارة ، فلا أحد يعرف حتى الآن . . إلا إذا كان المطلوب هو أن نذبح شيئاً تحت قدمى الزائر الكبير . ولما كانت عادة العرب أن يذبحوا جملا أوشاة ، ولما كانت أزمة اللحوم عندنا مستحكمة فلم نجد إلا هذه الشجرة . . فذبحناها وضحينا بظلها ، وجمالها . . ولم ينتبه الزائر الكبير إلى أن الناس الذين دعوه لرؤية اللوحات الفنية الجميلة على المسرح قد كذبوا عليه . . إذ كيف يحبون الجمال ويحكمون بالإعدام على هذه الشجرة الجميلة . .

هذه الشجرة لها أهمية خاصة فى هذا المقال . فقد كنت أريد أن أنشر صورتها من أجل توضيح فكرتى عن شباب مصر وحياتهم خارج مصر . .

ولم أجد فى القواميس اسما لهذه الشجرة إلا « شجرة تين البنغال » أما اسمها الأجنبى فهو شجرة « البانيان » وليست لهذه الشجرة أية علاقة بالتين ، ولكن هذا هو اسمها . والأشجار كالإنسان لها أسماء ، وليس من الضرورى أن يكون لهذه الأسماء أى معنى خاص . .

وقد صدر فى ذلك الوقت كتاب بعنوان « شجرة تين البنغال – وهجرة أبناء الهند وباكستان وبنجلاديش » للأستاذ هـ . تنكر ، والكتاب مثل هذه الشجرة

المصرية قبل أن يقطعوها : جميل فخم متجمع متشابك .

ومن خصائص هذه الشجرة أن لها أغصاناً كبيرة وكثيرة . وأنها تتشابك وتتداخل فتكون مظلة جميلة وهي لذلك مأوى للطيور والحيوان والإنسان ومن أهم مزايا هذه الشجرة أنها تسقط أغصاناً صغيرة . هذه الأغصان تشبه الأطفال ، إذا سقطت على الأرض نفذت إلى التربة فتتحول بسرعة إلى أشجار جديدة . . وكلها تنمو من جديد وتتعلق بالشجرة الأم . . والمهاجرون هم هذه الأغصان الصغيرة ، ولكن فى أرض غريبة . .

بعض هذه الأغصان يجد التربة السهلة . . وبعضها يسقط على تربة صلبة عنيدة . . أو تتكاثر عليها الآفات الزراعية فتقضى عليها . .

أو تمتد إليها الأيدى فتقتلعها قبل أن تنمو أو بعد أن تنمو . .

وقد درس الأستاذ تنكر حالة المهاجرين فى بريطانيا وأمريكا وأفريقيا . ولاحظ أن القليل من هؤلاء المهاجرين عندهم هذه القدرة على أن يثبتوا فى الأرض بسرعة . ولكن الأغلبية قلقة متحركة . . وقد يدفعها اليأس إلى الحركة . وتؤدى بها الحركة المستمرة إلى الانكماش والموت .

وهذه الأقليات المهاجرة يجب أن تتماسك تماماً ، وأن تكون على علم بالبيئة الجديدة . وأن تكون فى نفس الوقت على صلة بالوطن الأم . . تماما كما ترعى الأشجار بذورها . . وكما ترعى الحيوانات صغارها . .

ويقول الأستاذ تنكر : إن الهند وباكستان وبنجلاديش . نظراً لكثرة الملايين على أرضها ، فإنها تغفل تماماً عن هؤلاء المهاجرين وتتركهم يتحولون من مهاجرين إلى مغامرين . . فتهب عليهم رياح التغيير فتطيح بهم . كما حدث لهم فى بلاد كثيرة فى آسيا وأفريقيا . . وإن كان أمل هؤلاء المهاجرين كبيراً جدًّا فى أن يذوبوا فى المجتمع البريطانى بعناصره الكثيرة الملونة ! .

ولايقترح الأستاذ تنكر حلاًّ لمشاكل المهاجرين أو علاجاً لفشلهم أو يأسهم من الاستمرار غرباء فى أرض غريبة !

وكثير من الدول الأوربية تعتمد على أبنائها الذين يعملون فى الخارج . أو الذين هاجروا واستقروا ناجحين فى بلاد أخرى . .

إيطاليا ويوغوسلافيا واليونان والبرتغال وسوريا ولبنان وتونس والفلسطينيون وتركيا أحسن الأمثلة على ذلك . .

ويكفى أن يتنقل الإنسان بين الفنادق والمطاعم والمصانع فى أوربا كلها ليجد هؤلاء الأجانب يقومون بأعمال هامة . ويبعثون إلى بلادهم بألوف الملايين كل سنة . وهذه الملايين هى الدعامة الكبرى للدخل القومى . .

وقيام دولة إسرائيل أكبر دليل على ماستطاعه ويستطيعه المهاجرون فى إقامة دولة بالهجرة فى أى مكان . . فيهود روسيا الشيوعيون أقاموا إسرائيل فكرياً ، ويهود أمريكا الرأسماليون أعطوها الحياة من الرغيف إلى الصاروخ !

الهجرة غريزة عند الحيوان ، وعند الإنسان باعتباره حيواناً عاقلاً ، فالطيور تهاجر من أقصى الشمال لترمى بنفسها على شواطئ الإسكندرية . . إنها هربت من البرودة وجاءت إلى الدفء . . ولكننا نقلناها من مجرد الدفء إلى النار وأكلناها ولكن الطيور لاتقصد أن تموت وإنما هى هربت من البرد المميت . والأسماك تهاجر من شرق المحيط الأطلنطى إلى غربه فى أوربا ، تتوالد وتعود مرة أخرى . . والسردين يهاجر إلى حيث تلتقى مياه النيل بمياه البحر . . وهذه غريزة البقاء . .

والإنسان عنده نفس الغريزة أيضاً : فهو يهاجر من أرضه إلى أية أرض أخرى لأنه يريد أن يعيش أفضل . أو أن يعيش أولاده أفضل مما عاش هو وأبوه . .

عشرات الألوف من المصريين فعلوا ذلك .

ولكن لا أحد يعرف كم ألفاً أو كم من عشرات الألوف هؤلاء ؟

ولاندرى ماهى الجهة التى نسألها عن المصريين . . لنعرف حالهم وأسباب نجاحهم أو فشلهم وكيف نسهل الهجرة على غيرهم كل عام . . هل نسأل وزارة الداخلية . . لأن هؤلاء جميعاً قد طلبوا الهجرة . سألت فلم أعرف كم عددهم !

هل أعود فأسأل وزارة الداخلية باعتبارهم خارجين « على » مصر وليسوا خارجين منها ؟

هل نسأل وزارة الثقافة باعتبار أن الآثار تابعة لها وبما إن هؤلاء جميعاً توابيت سبقت توت عنخ آمون إلى الطواف حول العالم . سألت فلم يدلنى أحد على شىء من ذلك ؟

هل نسأل وزارة الإسكان لأن هؤلاء المصريين أقرب مايكونون إلى الشقق الجاهزة : الزوج والزوجة والأطفال ومتاعب الأسرة كلها قد صدرت إلى الخارج وتم نقلها وتركيبها هناك؟

سألت فعرفت من وزارة الزراعة أن شجرة « تين البنغال » قد اقتلعت وأن أحداً لايدرى عن هذه الاشجار شيئاً . .

ولذلك فليست العلاقة واضحة بين المهاجرين المصريين وهذه الشجرة ؟ !

فنحن يجب أن نعرف كم عدد المهندسين والأطباء والمدرسين . . وعلى أى أساس ذهب هؤلاء وكيف نجحوا أو فشلوا ، وماهى احتياجات الدول الأجنبية إلى المصريين أو إلى الخبرة المصرية !

وماهى المشاكل التى تواجههم ؟ وماهى الرياح التى تهب عليهم ؟ ومن الذى ينافسهم ويعاديهم وعلى استعداد لأن يقتلعهم ؟ . .

إن الأستاذ تنكر فى كتابه قد لاحظ أن التجارة هى التى تخلق العداء ، لأنها تخلق المنافسة بين المهاجر وبين أهل البلد . . ولذلك فالتجار هم أكثر الناس تعرضاً للمشاكل . .

وربما كان هذا هو السبب فى أن المصريين لايلقون مثل هذه المشاكل فى البلاد العربية أو فى البلاد الأمريكية أو الأوربية لأن المصريين خبراء . . أى يقدمون خبراتهم فى الطب والهندسة والتدريس . . وهم أقرب إلى الموظفين ، منهم إلى التجار . ولذلك كانت أهم مشاكلهم هى : الانضباط فقط . .

أما التاجر فله أسلوب آخر فى حياته : من المنافسة والشطارة من أجل الكسب .

ولكن هؤلاء الخبراء المصريين ليسوا بلا منافسة . فالمصريون فى البلاد العربية يلقون نوعاً من المنافسة . وهذا طبيعى . ولذلك يتحتم علينا نحن المصريين أن

نعرف : عدد المصريين ونوعية المنافسة حتى نواجه هذه المواقف الجديدة . وذلك بتجويد نوعيات الخبرة . فلم يعد يكفى أن نبعث بمهندس عادى ، ولا أى مدرس ولا أى طبيب ، وإنما يجب أن نحسن « النوعية » . وليس معنى ذلك أن تتدخل الدولة تماماً وأن تمسك جميع المهاجرين فى قبضتها ، وتختار من يعجبها وترد من لايعجبها . ربما كان هذا ضروريا لبعض الوقت . . ولكن واجب الدولة هو أن ترشد المصريين هنا وهناك . وأن تنير لهم الطريق أمام العوائق من أجل النجاح فى البلاد الأخرى . .

وقد حاولت أن أجد الأرقام التى تدل على عدد المصريين فى الخارج فلم أجد . . أو على عدد العاملين وعدد المهاجرين المتجنسين بجنسيات أخرى ، أو عدد الذين عادوا إلى مصر . . أو أعرف حتى لماذا وكيف ومتى ذهبوا وعادوا ، فلم أجد أحداً يدلنى على شيء . .

ولذلك فسوف تظل قضية الهجرة المصرية لغزاً . وسوف يظل المهاجرون مغامرين . . وماداموا مغامرين فهم على مسئوليتهم ، والدولة لاشأن لها بهم . . وهذا خطأ فليسوا مغامرين ، ولذلك فالدولة يجب أن تكون مسئولة عنهم . ويجب ألا تنقطع صلتنا بهم . . فهم مصريون أينما ذهبوا وكيفما فعلوا . . وهم سند لمصر ودعاة لها ، وامتداد واتساع وعمق لمصر فى أى مكان . .

وقد عانينا كثيراً جدًّا يوم كان المصرى إنساناً بغيضاً . وكان بغيضاً لأنه كان مخيفاً للبلاد العربية ، فلم يكن أحد يتوقع منه إلا أن يتآمر أو يخرب . .

وتغيرت الصورة المصرية ، أو حاولنا نحن أن نغيرها . . ولن تكون الصورة المصرية ، على النحو الذى نتمناه بسهولة أو بسرعة . . فليس لنا سلطان على الدول الأخرى ، مهما كانت قريبة أو شقيقة . . وسوف يكون الزحام على الرزق سبباً فى الخلاف . وسوف يؤدى الخلاف إلى الشقاق . والشقاق إلى العراك . . إلى اقتلاع الأغصان الصغيرة من التربة الأجنبية ! .

وحتى لانكون نحن أنفسنا سبباً فى اقتلاع أغصاننا بإهمالنا ، يجب أن نعرف

نوعية هذه الأغصان ، ونوعية التربة ، والآفات والحشرات والماء والهواء والضوء . . حتى لاتكون هجرة المصريين إلى الخارج ، طرداً لهم أو تخلصاً منهم . .

وبذلك نكرههم على كراهية بلادهم ، مع أننا فى حاجة إلى حبهم وجهدهم . .

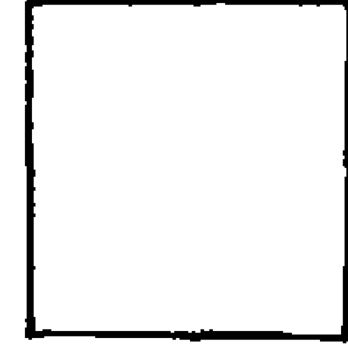
والأشجار عندما تلقى بأغصانها إلى الأرض ، فإنها لاترميها بعيداً عنها . . وإنما تحتها وفى ظلها وفى رعايتها . .

وهى تفعل ذلك بالغريزة . . من أجل أن تبقى وأن تستمر . .

ونحن لانقل عن الأشجار حرصاً على البقاء ولكن يجب أن نذهب إلى أبعد من مجرد هذه الملاحظة فننشئ وزارة أو إدارة أو هيئة للهجرة . . أو للعاملين فى الخارج . . إنها هيئة استثمار للقوى البشرية الممتازة فى البلاد الأخرى . .

إن الاسم لايهم : ولكن المعنى الحقيقى والهدف النبيل هو الذى يجب أن يشغلنا اليوم ونحن نتزايد مليوناً كل عام : وليس لدينا أى أمل واضح فى أن ننظم النسل أو نحدده . .

وبمنتهى الوضوح : إن مناجمنا الحقيقية ليست البترول ولاقناة السويس ولاصحارينا . . وإنما هذه الطاقة البشرية التى نرعاها ونحسنها ونصدرها وننتظر عائدها المادى بألوف الملايين !



من أجل إنسانية الإنسان

لا أحتاج إلى مجهود عقلى كبير لكى أجدنى طفلا فى ريف المنصورة يخاف أن يمد رجلا أو يدا خارج البيت ، فالدنيا ضيقة خانقة لأبناء الطبقة الفقيرة . . هؤلاء الذين يحفظون القرآن لعله يحفظهم ، والذين يتطلعون إلى السماء لأن الأرض ليست لهم ، والذين لا أمل لهم إلا فى الجنة . . أى فيما بعد هذه الحياة ، لأن الآخرة لهم والدنيا لغيرهم .

ولم يكن لنا خيار فى ذلك . .

فهذا هو قدرنا جيلا بعد جيل . . يولد الفقير فلا ينتظره شىء : لالقب ولا أرض ولامستقبل ولاعربة ولاحصان . . أما الغنى فقد سبقته إلى الحياة : عربة وحصان ولون بشرة وطبقة ومستقبل .

ويلتقى الأغنياء والفقراء عند شىء واحد : أن كل شىء وراثى . الفقر موروث والثراء أيضا . العجز موروث والقوة كذلك . فيظل الفقير فقيرا والغنى غنياً إلى الأبد . .

وقد تعودنا ، ونحن أطفال ، أن نرى من بعيد أبناء الأغنياء على أنهم من طراز آخر . . وكان يدهشنا جداً : أن يكون الإنسان غنيًّا ومريضا . . أو غنيا ونحيفا ، أو غنيا وبليدا . . وفى نفس الوقت كيف يكون الفقير ذكيًّا أو الأول فى الفصل أو فى الشهادات العامة ؟

هل كان الأغنياء كذلك ، أو كنا نحن نتوهم ذلك ؟

هل كان أبناء الفقراء نابهين ، أوكنا نتوهم ذلك فنعوضهم عن الفقر بالذكاء ، وعن الظلم الواقع عليهم بالتفوق فى الدراسة ؟

ولم نكن نذهب إلى أبعد من هذه المقارنات ، أو هذه التعويضات نعطيها لأنفسنا . ونسلبها من غيرنا ، ونمضى نتحدث عن ألف ليلة وليلة . . التى فيها العفاريت تنقذ الناس من الغرق ، وعن مصباح علاء الدين وعن بساط الريح . . وكلها أحلام الجائعين والخائفين والعاجزين . .

والعقلاء يقولون : حظ !

والطيبون يقولون : قدر !

والساخطون يقولون : ظلم !

والحالمون يقولون : لابد أن يطلع نهار ويذهب ليل . . ويجىء أناس يثورون على الحظ والقدر والظلم . . ويمسكون ميزان المجتمع بالقوة ويحققون التعادل والاعتدال والعدل . . لابد . .

ولاندرى على أى أساس نستخدم كلمة « لابد » . .

وكنا نؤكد لأنفسنا أنه لابد . .

وكنت واحدا من الغارقين فى الكتب فلا أرى فى الدنيا إلا الورق . . وإلا التقلب على الورق ، ولاأخرج منه إلا لكى أعود إليه . . مثل دودة القطن . . أو سوسة الخشب . . فالذى أنام فيه أصحو عليه . . والذى أعيش به أموت منه . . ورق فى ورق . . وقد رأيت ماالذى فعله الورق بأبى . . عاش أديبا ومات فقيرا . . عاش محبوبا بين الناس ، ومات مظلوما منهم . .

وإذا كان هذا هو مرض أبى الذى ورثته ، وكان هذا أيضا هو تشخيص هذا المرض فليس له علاج . . لأن الفقر لاعلاج له ، كما أن الثراء لاشفاء منه . .

فهذا الفقر الثقافى ، أو هذه الثقافة الفقيرة هى قضاء وقدر . . أو الفقر والثقافة ، كالفقر والستر توأمان . .

ولولا أنني كنت تلميذا مجتهدا لتوقفت عند السنوات الأولى من التعليم . . ولكن هذا الاجتهاد كان التعويض الإلهى ، العون السماوى ، لكى أفلت من جاذبية الأرض والفقر والعجز . .

وكانت للقادرين أسماء غريبة . . وكان لكل اسم سحر عجيب رهيب . يكفى أن تنطقها فيقف الناس ، ويمدون أيديهم ويفسحون الطريق ويعطون الفرص ويدوسون الآخرين . . كيف ؟ ماالذى يجده الناس فى مثل هذه الكلمات الباهرة : ساسون . . بوغوص . . بحرى . . يكن . . وكل اسماء أمراء الأسرة المالكة . .

ولم أعرف من هذه الأسماء إلا اسم أسرة يكن . . عدلى باشا يكن وعز الدين بك يكن ونعمت هانم يكن . .

وكانت لهذه الأسماء مرادفات أخرى غريبة : السيارات اللامعة المغسولة . . والأرض المرشوشة بالماء لتمشى فوقها السيارات ، ويقف على جوانبها الناس فى حذر . . خوفا من أن يتركوا لأقدامهم آثارا على الطرقات المفروشة بالرمل . .

حتى الجواميس والأبقار التى يملكونها تختلف عن بقية الأبقار . . وكنا نقارن بين بقرة الباشا وبقرة أى فلاح ونؤكد لأنفسنا أنها بنت ناس أو بنت ذوات . . أو أنها تعرف أنها هى الأخرى مختلفة فى اللون والطول والعرض والحركة !

وكانت لهم قصور كبيرة مهجورة معظم أيام السنة ، لأن أصحابها فى الخارج لأنهم من الخارج فأكثرهم أجانب .

ولم نكن نعرف ونحن صغار : ماهى العلاقة بين أن يكون الإنسان غنيا وأجنبيا فى نفس الوقت . . ولا بين أن يكون غنيا ومصريا . . أو أن يكون غنيا قويا ظالما ، لماذا لايكون الظلم إلا من القوى ، ولايكوُن الثراء إلا للظالم لماذا ؟

كان أبى يعمل مأمورا لتفتيش عدلى باشا يكن وإخوته . . وكانت كلمة « يكن » ملتصقة بألسنتنا نقولها ألف مرة فى اليوم الواحد . . نقولها حتى إذا لم يكن لها معنى . . نقولها والسلام مع عظيم الاحترام لها ، والاحترام من الناس . . وكان أبى من أكثر الناس إسرافا فى استخدامها . وكان ذلك من أهم حقوقه وواجباته

أيضا وكان يكتفى بأن يقول : الباشا أمر . . أو الهانم أمرت أو يشير إلى صورة على الحائط ، أو يرفع أصبعه إلى السقف . . وكل هذه الإشارات لها معنى واحد : أن هذا أمر من فوق . . وليس على الذين تحت إلا الطاعة . والناس يطيعون خوفا وفزعا . . أو بلا خوف ولافزع . . وإنما يفعلون ذلك بالغريزة . .

وأذكر أنه فى إحدى المرات جاءنى أبى يقول : إن نعمت هانم يكن تريد أن تراك . . أو أمرت أن تراك . . أو يظهر والله أعلم أنها أمرت أن تمر أنت أمامها لكى تراك . .

وقد أجريت تغييرات وتعديلات هائلة على وجهى وشعرى وملابسى ومعاملتى فى اليوم الذى سبق هذه « الرؤية » أو هذه « الرؤيا » . . فغيرت ملابسى وحذائى وحلقوا لى شعرى وأظافرى . وسبقتنى آيات قرآنية وتبعتنى أيضا . . وربنا يجعل فى وجهك القبول . . ومالنصر إلا من عند الله . . وبشر الصابرين . .

ورأتنى الهانم وابتسمت فى وجهى . . وكانت هذه هى المكافأة التى أخذتها من سيدة طيبة كريمة لأننى نجحت فى الثانوية وكان ترتيبى الأول . . وهنأنى الناس جميعا بعد ذلك من أول شارع الأمير حسين فى الزمالك حيث كانت تسكن الهانم . . وكان ذلك موقفا كريما إنسانيا من الهانم .

وكان فى نفس الوقت تسجيلا لشىء عجيب : أن يتقدم أحد فى الدراسة من الطبقة الدنيا . .

فلا يزال الأغنياء يندهشون لنجاح الفقراء . . ولكن هذه الدهشة تذهب بسرعة ، لأن هؤلاء الناجحين أين يذهبون بعد ذلك . . إنهم يسهرون ويتعبون وينجحون ليكونوا فى خدمة الذين لم يسهروا ولم يتعبوا ولم ينجحوا . .

فالنتيجة واحدة : الذين اجتهدوا والذين لم يجتهدوا سوف يلتقون معا عند قدمى الأغنياء خداما موظفين فلاحين عمالا !

وكان هذا هو الإطار العام للحياة والأوضاع الاجتماعية وقوانين الوراثة فى مصر قبل قيام ثورة يوليو . .

وكان الباشوات والبكوات والخواجات كلهم طبقة واحدة متشابكة متساندة معادية لأغلبية الفلاحين والأفندية فى مصر.

وكان لابد من المعجزة لكى يخترق واحد حاجز الطبقة أو حاجز الوراثة . .

وقد نجح عشرات فى تخطى هذه الحواجز التقليدية ولكن لابد من شىء أكبر من المعجزة لكى يدوس الناس هذه العوائق التاريخية . .

والمعجزة الشعبية هى : الثورة . .

وكانت الثورة عملا عظيما . . بل إن نتائجها كانت أكبر منها ، وكانت أبعد مماتصور الشبان الذين فجروها . .

تساقطت الحواجز ، واتسعت الأرض ، وانفتحت الطرقات والأبواب ، وزالت فوارق اللون ، ومعالم الطبقة ، ولم يعد قانون الوراثة وراثيا . .

فكل مكان يقف فيه أى إنسان هو ميدان : يخرج من هذا الميدان ألف طريق لألف إنسان . . وكل الطرق تؤدى إلى مانريد أو إلى ماكنا نحلم به . .

ولم يعد ضروريا أن يكون الغنى الغبى هو الحاكم . . ولا من الضرورى أن تكون الوظائف للفاشلين ، ولا أن يكون الوزير حفيدا لوزير أو حفيدا لإقطاعى . . وإنما من الممكن أن يكون الوزير ابنا لواحد مجهول . . لواحد لايعرفه أحد . . وليس من الضرورى أن يعرفه . . فقد كُتِبت لكل مواطن شهادة ميلاد جديدة ، كفاءته وقدرته على أن يعطى كما أخذ ، وأن يفتح الطريق كما انفتح له . .

وإذا كانت للأثرياء أسماء غريبة . . فللظالمين أسماء أغرب . .

فالرأسمالية والإقطاع والشيوعية كلها أسماء مختلفة لظلم الأغلبية .

فالرأسمالية والاقطاع : أن يملك القليل جداً من الناس الكثير جداً من الفلوس والأرض . .

والشيوعية : ألا يملك أحد شيئا . .

وهى جميعا تتحدى طبيعة الإنسان : فمن الطبيعى أن يملك الإنسان . فيقول : هذا عملى . . وهذا مالى . . وهذا بيتى . . وهذا ولدى . . وهذا دينى . . ولذلك

فهذا حرام وذاك حلال . .

إن الحيوانات عندها غريزة أن تملك العش . . وأن تكون لها أنثاها وصغارها . . وأن تحارب حتى الموت من أجل ذلك . . والإنسان إن لم يكن حيوانا فقط ، فهو حيوان عاقل . . ولكن فى الدول الشيوعية يجردونه من حيوانيته . . فيجردونه من حق أن يملك أى شىء . مع أن هذا ليس قانونا عاما ، فأمراء الحزب الشيوعى أو كرادلة الحزب يملكون البيت الصيفى والبيت الشتوى والسيارة ولهم أماكن خاصة فى كل طريق . . ولهم الحق فى السفر وفى التعليم . . لأنهم باشوات وبكوات الطبقة الجديدة الحاكمة لكل شىء . .

وفى المجتمعات الرأسمالية يملك عدد قليل جدًّا من الناس أغلبية الثروات . . وكذلك الذين يملكون الأرض . . فقد كان بضع مئات من الأسرة المالكة والخواجات المتحالفين معهم يملكون ثلاثة أرباع أرض مصر . . وبقية الملايين يملكون فتات الأرض وبقايا الطعام وما فاض عن موائد أصحاب الإقطاعيات الواسعة . . وكان ذلك هو القانون الذى أكسبه الزمن شكل القداسة فأصبح قانونا إلهيًّا . . وأصبح قضاء الله وقدره على كل الناس !

وكل هذه الأشكال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ظالمة فادحة مالم تحقق فى النهاية غاية واحدة : إنسانية الإنسان . .

فالنظام الذى يرى أن الإنسان أداة . . مطية . . نحو هدف آخر : نظام ظالم . .

لأن النظام الاجتماعى السليم هو الذى يحقق للإنسان أكبر قدر من الحرية . . حرية العمل والحركة والاعتقاد والكسب والأمن . .

فالناس جميعا سواء . .

وكل إنسان من حقه أن يعمل . وأن يكسب إذا عمل وأن يوجه ماله إلى الناحية التى يراها . وأن يترك لأولاده من بعده مايشاء . . ولا أحد يعوق أحدا . . فالطريق مفتوح للجميع . . فى العلم والعمل والمسئولية دون حاجز من طبقة أو لون أو عقيدة . .

إن تاريخ الهوان الإنسانى قديم قدم الإقطاع وقدم الرأسمالية وقدم الشيوعية أيضا . .

ولاخلاص للإنسان إلا بالاشتراكية : أى إتاحة كل الفرص أمام كل الناس وحماية كل الناس من كل الناس بالقانون الذى هو سقف وسور نحتمى تحته ووراءه . .

وبذلك لايتحكم فرد واحد فى بقية الأفراد . .

ولاتتحكم طبقة واحدة فى كل الطبقات . .

ولايتحكم مذهب سياسى أو فكرى فى بقية المذاهب . .

وإذا كان من حق كل فرد أن يعمل مايشاء ويكسب مايستطيع ، فإن الدولة يجب أن تحمى الآخرين فى نفس الوقت . . حتى لايتحول الأغنياء إلى طبقة أخرى متحكمة . . ولايتحول ملاك الأراضى إلى إقطاع جديد . .

وكان تدخل الدولة لحماية نفسها ، ولحماية عامة الناس أيضا . . فساهمت فى المؤسسات والشركات والمجمعات . . ودخلت تحمى الملايين من عشرات الألوف من القادرين . . وتقدمت الدولة ، وسوف تفعل ذلك دائما ، بتدعيم الضروريات الحيوية لكل الناس . . حتى لاتكون أقوات الشعب اليومية فى أيدى أصحاب المتاجر والمصانع . . وفى نفس الوقت لا اعتراض للدولة على أن يكون لأى مواطن ماشاء من المتاجر والمصانع ، مادام فى النهاية يعمل للآخرين ويدفع حق الدولة عليه . .

شىء واحد أصبح ضروريا الآن : أن ندفع الإنتاج خطوة إلى الأمام . .

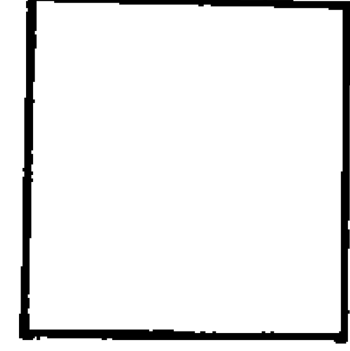
وذلك بأن نشجع العمل وأن نشجع الحافز الفردى وأن نعطى الأمان لصاحب المال المصرى كصاحب المال العربى . . حتى لايتحول صاحب المال الأجنبى إلى خواجة أو إلى خواجات وباشوات ، ويصبح أولاد البلد فلاحين وأفندية مرة أخرى . .

وأن تخفف الدولة من أعبائها بالمشاركة والمنافسة فى الأعمال التى هى من صميم

الأفراد . . مثلا : لاتقوم الدولة ببيع البيض والفراخ والأبقار والمواشى والأرانب . . وليس معنى ذلك أن هذه الصناعات الزراعية أو الحيوانية شىء تافه ، فهى هامة وحيوية ولكن هناك من الأعمال والصناعات الأخطر يجب أن تتجه إليها الدولة ، وتترك ذلك لبقية العاملين من المصريين وشركائهم من الأجانب . . وليس هذا إلا مثلا واحدا من عشرات الأمثلة . .

ولا يهم فى البداية أو فى النهاية شكل العمل أو حدوده أو حصيلته مادامت الغاية هى : أن يظل الإنسان إنسانا كريما على نفسه وعلى بلده . .

ولايكون الإنسان إنسانا إلا إذا احترمنا فيه : حريته وكرامته وخصوصيته ! .



إنهم لا يقدسون الموت !

يومان فى السعودية : يوم اغتيال الملك فيصل ، ويوم عودة الملك خالد بعد أن شفاه الله . . فى اليوم الأول ذهبت لأقدم صادق العزاء إلى الأصدقاء من الأمراء ومن الرسميين . . وفى الطائرة أعددت نفسى لمواجهة هذا الموقف الأليم . ولابد أن الحزن كان واضحا على وجهى . . فالملك كان رجلا عاقلا هادئا متواضعا طيبا . . وهو لاشك خسارة لأهله ولقومه وللعرب . . وفى الطائرة وجدت السعوديين يتكلمون ويأكلون ويضحكون وقلت : لابد أن الحزن أرهقهم وهم فى حاجة إلى شىء من الترفية . .

وفى الطائرة وجدت السعوديات قد نحين غطاء الوجه جانبا ، فظهرت وجوه مغسولة شاحبة وإن كانت العيون كبيرة ولمعانها شديدا . . ولكن عندما اقتربت الطائرة من مطار جدة . . تبدلت الصورة بسرعة فالرجال قد سحبوا الضحك من الوجوه . . والنساء قد سحبن الأغطية على الوجوه ، وكأنهن تحولن من أحياء إلى أشباح . . والمنظر يوحى بالحزن حقا . .

وفى مطار جدة صافحت الكثير من الأصدقاء وكان موضوعنا هو اغتيال الرجل الطيب الملك فيصل . . وفى السيارة كان الراديو يذيع القرآن الكريم . ومددت يدى أدفع لسائق التاكسى وناقشنى فى الأجرة . . فأدركت أن الحزن ليس عميقا كما كنت أتصور . . وفى الفندق دخلت فى الحركة العادية اليومية لأى زائر أو سائح . .

ملأت الاستمارة وطلبت المفتاح ودخلت غرفتى . . ودخلت تحت الدش وطلبت الشاى . . ومددت يدى إلى التليفون وذهبت إلى الصديق عبد الله الفيصل . . إنه أكبر أبناء الملك وأحب أولاده إليه . . ووضعت أحزانى وأسفى كلها فى يدى وفى عينى أو تصورت ذلك . ويبدو أن الأمير عبد الله الفيصل . . قد تلقى هذا العزاء ألف مرة . فلم يعد هناك مايستطيع أن يطيقه . فكل الذى قاله ردا على تعزية الناس قد كرره حتى مله . . أو حتى ملت يداه وعيناه وشفتاه .

وجاء الناس إلى الأمير عبد الله الفيصل وتحدثوا فى كل شىء . . ومضت ساعة لم يرددوا فيها اسم الملك فيصل وبدأت أجمع دهشتى لكى أصل إلى هذه النتيجة : إننى فى السعودية ولست فى مصر .

ومعنى ذلك أن الحزن فى السعودية ساعات وبالكثير جدًّا أيام . . أما عندنا فى مصر فالحزن أيام وسنوات . ثم قام الناس جميعا إلى تناول العشاء . . ودار الحديث عن الفرق بين لحم الضأن ولحم الدجاج . . ولم أنطق بكلمة واحدة . . لا لأننى لا أعرف هذا الفرق ، فأنا آكل ماأجد ثم إننى لا أحب اللحم ولا أشتهيه ولو غاب عن عينى سنوات فلن أطلبه ، ولكن الكلام بهذه الصورة قد صدمنى . . أو صدم مجموعة الأفكار التى أعددتها وحشدتها فى رأسى قبل أن أصل إلى السعودية . وابتلعت مع الطعام لسانى وسكت .

وفى الرياض قابلت عددا هائلا من الأصدقاء إنهم فى غاية الحزن ، ولكنهم فى نفس الوقت فى منتهى التسليم بقضاء الله لقد مات الملك . وكل إنسان سوف يموت .

وفى الرياض كانت الصدمة الثانية : سألت عن قبر الملك فأشاروا إلى طوبة على سطح الأرض . وقالوا : هنا .

* سألت : سوف يدفن هنا ؟

قالوا : بل لقد دفن هنا !

أما « هنا » هذه فمعناها أنهم حفروا الأرض . . ثم حفروا جانبا من الأرض

ووضعوا فى هذا الجانب جثمان الملك مستلقيا على جانبه ووضعوا وراءه الحجارة والتراب . . ثم وضعوا قطعة من الحجارة على سطح الأرض تمييزا مؤقتاً لقبر الملك . . وهم – أى السعوديون – يستنكرون أن يمتاز قبر عن قبر ولو بطوبة أو بقطعة حجر . .

فالرجل « هنا » تحت هذه الطوبة !

انتهى رجل عظيم حكيم . .

فإذا حاولت أن تناقش معهم ذلك قالوا لك : وأين الرسول عليه السلام ! إنه هو أيضا تحت الأرض . . إنه بشر.

* * *

أما اليوم الثانى فهو عندما عاد الملك خالد من لندن بعد أن أجريت له عملية جراحية فى عظام الحوض ، وهى عملية أليمة رهيبة وبعد سبعين يوما عاد الملك ليجد الشعب قد أضاء له الشوارع والبيوت والمؤسسات . . ولم يفرح الشعب السعودى قبل ذلك ، وبهذه الصورة إلا يوم مبايعة الملك فيصل . . بل إن السعوديين هذه المرة قد تجاوزوا كل الحدود . . فأقاموا الزينات وذبحوا الأغنام ورقصوا فى الشوارع وفى أيديهم العصى والسيوف ثلاثة أيام . . بل إنهم كانوا ينتظرون نشرة الأخبار الأخيرة لعل الملك يأمر لهم بيوم إجازة . . أو بأسبوع أو بشهر . . فهم سعداء ويريدون أن يفرحوا وأن يتفرجوا على أنفسهم وهم سعداء . .

وقد خرج الناس إلى الشوارع وقد امتلأت السيارات بالسيدات والأطفال . . وجلس الناس على الأرصفة ومعهم أجهزة التليفزيون والطعام . . وحدث فى المدن السعودية مايحدث فى القاهرة أيام مباريات كرة القدم : زحمة فى الشوارع وانقطاع للتيار الكهربى . .

وفى الشوارع تفرجت على العمارات العالية جدًّا . . فهذه العمارة كانت الشقة فيها بمئات الجنيهات أصبحت الآن بمئات الألوف . . وهذه العمارة تقف على أرض ثمنها عشرات الملايين . . ومن الكلمات التى تتردد على الألسنة هنا كثيرا « المليون والألف

مليون » . . وكثيرون فى السعودية عندهم الشجاعة فى ترديد مثل هذه الكلمات دون حرج أو ادعاء . .

(وقد شعرت بالدوخة كثيرا فى السعودية . وقد شخصت مرضى منذ أيام على أنه التهاب المصارين والمعدة وشدة الضوء على العينين وقلة النوم . . ولما عدت إلى القاهرة سألت الطبيب فقال : عندك تلبك فى الأرقام . . أى انحشرت الملايين فى أذنى فأحدثت خللا فى الأذن الوسطى . . ومن هنا كانت الدوخة !) .

ثم جاء الملك خالد فأعطى للناس إجازة يوما . . ثم ثانيا وثالثا . . ورفعت الأجور إلى ٥٠٪ ولمعلوماتنا جميعا فإن الجندى الذى يلحق بالعمل بعد تدريب شهر أو شهرين يتقاضى مرتبا شهريا قدره ٤٠٠ جنيه - أربعة وأمامها صفران - هذا الجندى يقف فى بداية السلم الوظيفى . وترتيبة الوظيفى رقم ٣٣ . . وأترك لخيالك أن يذهب حيث يشاء عندما ينطلق من الجندى البسيط الذى يمسك عصا ويدق بها العربات الفخمة فى الشوارع إذا خالفت المرور أو توهم أنها فعلت ذلك . إلى المدير والوزير ! !

والفرق بيننا وبين السعوديين واضح جدًّا ، فهم لايقدسون الموتى مثلنا ، ولذلك فأحزانهم عابرة وتسليمهم بقضاء الله وقدره حقيقة تغيظ المصريين والكثيرين من العرب الذين ملأوا بلادهم بأضرحة الأولياء . .

ومن فضل الله تعالى على الإسلام والمسلمين أن أحدا من الخلفاء الراشدين أو الصحابة لم يدفن فى القاهرة . . وإلا لقدسه المصريون وجعلوا زيارته أحد مناسك الحج - لأننا نقدس موتانا - أستغفر الله ! .

* * *

فى مكة تسأل : وأين ولد الرسول عليه السلام ؟

فيقول لك أى واحد : هنا

* أين ؟

— فى مكة .

* أعرف . ولكن أين بيته الكريم ؟

— والله لاأعرف . . أظن أن بيته فى شارع . .

* تقول « تظن ؟ » . . وهل الكلام عن رسول الله وبيت رسول الله مماتصح معه كلمة « تظن » . . أنت لاتعرف أين البيت الذى ولد فيه الرسول . . يانهار أسود . . ألست مسلما ؟ .

— أعوذ بالله . . بل مسلم .. ولكن ياأخى لا أعرف أين ولد رسول الله .. إنه ولد فى مكان ما . . وماقيمة هذا المكان ؟ . .

ولايقوى مصرى على الاستماع إلى مثل هذه المناقشة . . ولكنهم فى السعودية يناقشونك ويرون أن هذه المناقشة سخيفة جدًّا . . لأن البيت الذى ولد فيه الرسول ليست له قداسة ، فالقداسة لله وحده لاشريك له . . أما الرسول فليس إلا بشرا . . كان عظيما وسوف يبقى عظيما . . أما بيته وأما قبره . . فلا يصح أن ينظر أحد إليهما على أنهما مكانان مقدسان !

والبيت الذى ولد فيه الرسول ﷺ تشغله مكتبة . . مكتبة عادية إذا ذهبت إليها اندهش الناس لاهتمامك بالبحث عن هذا المكان . . وفى إمكانك أن تندهش على راحتك فلن يجاريك أو يناقشك فى ذلك أحد !

وفى المدينة المنورة تزور « قبر الرسول » . . السعوديين يقولون : يارجل عيب . . حرام عليك . . لاتقل « قبر الرسول » قل « مسجد الرسول » . .

وهناك نجد الزوار من إيران ومصر وتركيا وباكستان والملايو وأفريقيا كلهم يمسكون الباب النحاسى لقبر الرسول . . ولكن حراس المسجد يضربون أيديهم بالعصا وهم يقولون ياناس حرام . . حرام عليكم . . إنه نحاس مثل أى نحاس !

ويضيق المصريون لذلك ، ولايضيق السعوديون لتحريم ذلك على الناس . .

وفى مسجد « قباء » أول مسجد أقامه الرسول . . نجد أن فى المسجد قطعتين من البلاط الأبيض . . فوقهما بركت ناقة رسول الله ، فأقيم المسجد . . وهم يقولون

ذلك سرا أو تحرجا . . فهم لايريدون أن ينشغل الناس بهذا الرمز المادى ، عن المعنى الذى أقيم من أجله المسجد . .

وقد قال مرة لى الأمير فواز أمير المدينة إنه روى للرئيس السادات : أن الأخ أنيس منصور قد جاء إلى غار حراء يتعبد فيه . . ونحن نحرم ذلك ، ونرى أن التعبد فى غار حراء كما كان يفعل الرسول عليه السلام حرام !

فقال له الرئيس السادات : ضعه فى السجن !

ولكن قلت للأمير فواز إننى صعدت جبل النور . . وظللت أتسلق الصخور المدببة . . وكنت أضع شبشبا من الجلد فى قدمى . . وكنت أتزحلق وأتخبط . . ثم أتعرض للهواء البارد ينفذ من تحت الجلباب الأبيض فيوجع جنبى . . ولما بلغت غار حراء وجدته مسدوداً بالطوب الأحمر . . حتى لايذهب إليه الحجاج وينشغلوا عن الدين بعبادة المكان . . أو بعبادة الأحجار !

ومنذ عدة سنوات طلبت من الشيخ إبراهيم العياشى أحد علماء المدينة المنورة أن نخرج فى سيارة وأن ندخل المدينة المنورة من نفس الطريق الذى دخل منه الرسول عليه السلام عندما جاء مهاجرا من مكة . . وخرجنا فى سيارة وراح يشير : هنا كان يسكن اليهود . . وهنا كانت قبيلة كذا . . وهنا وقفت بنات بنى النجار يستقبلن الرسول يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

وكنت أنظر إلى يد الشيخ إبراهيم العياشى فلا أجد إلا بيوتا وإلا نخيلا . . وإلا لوريات تنقل زجاجات الكوكا . .

إنها نفس القضية : لاتقديس لمكان . . ولاتقديس لشخص . .

وإنما القداسة لله !

نورت المدينة ؟ !

أحب المدن إلى أى إنسان فى رحلته الروحية : المدينة المنورة . . إنها هادئة طيبة . . والناس فى غاية الهدوء . . انظر إلى عيونهم وإلى بشرتهم الناعمة المشدودة . . وإلى أصواتهم وهم يتحدثون إليك . . ثم أعط أذنيك لصوت المؤذن . . إنهم أكثر من واحد يؤذنون فى وقت واحد . . والمدينة كلها تتجه إلى مسجد الرسول . . شيء جميل وعجيب . . وفى المسجد تهتز حقا ، فأنت فى حضرة رجل عظيم . . صاحب دعوة . . وصاحب فلسفة . . أعطاه الله العلم والحكمة والبلاغة والعظمة ، وتعذب بين أهله وقاتل وأحب ومرض ومات . . خرج من هذه الأرض الجافة المجدبة ، وكان نورا وخضرة وعطرا وخيرا لكل الناس . .

وأهل المدينة أكثر الناس اعتزازاً بمدينتهم ، ومعهم حق . . ففى مدينتهم أعظم خلق الله وأروعهم . . وقد هاجر إليهم فاراً من أهله الذين اضطهدوه وعذبوه واعتدوا عليه . .

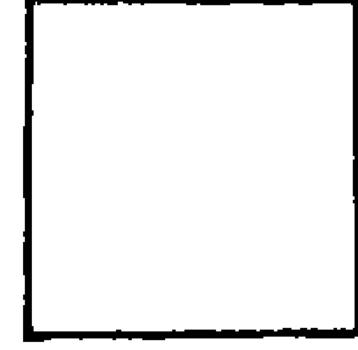
وكل شخص يلقاك يقول لك : نورت !

يقصد أنك نورت المدينة !

وتقبل هذه المبالغة الفخمة أو تعتذر عنها . .

وفى إحدى المرات ، أى فى إحدى المجاملات قال لى صديق : والله نورت المدينة !

قلت : حرام عليك ياشيخ . . وهل يستطيع أى أحد أن يفعل ذلك . . ففى المدينة مسجد الرسول . . وفى المدينة قد أضيئت الشوارع فرحا بعودة الملك . . ثم إن القمر فى السماء ابن ١٦ . . فماهو الضوء الذى يمكن أن يضيفه أحد إلى شيء ؟ ! وأين هو المكان المظلم الذى أستطيع أن أضيء فيه مايعادل عود كبريت ؟ ! ولكنهم مجاملون إلى أقصى حد .



يوم كنا أحجارًا لا ينبت عليها العشب !

هناك بعض الأغانى تعجبنى . وأجد فيها تعبيرا عن حالتى النفسية . . وأحيانا أذهب إلى أبعد من ذلك فأتصور أنها تتحدث عنى . . فإذا وصلت فى أوهامى إلى هذه الدرجة فإننى أشعر بأننى شاب صغير مراهق . وإن كنت لا أذهب إلى أبعد من ذلك . . فعندما غنى عبد الحليم حافظ : راح . راح . . كنت فى الشارع مفصولا من عملى كرئيس لتحرير مجلة « الجيل » ومدرس للفلسفة بكلية الآداب . . فعلا كل شىء راح . . مع أن الذى راح من عبد الحليم حافظ شىء آخر تماما . والذى راح من عبد الحليم كان تمثيلا فى تمثيل . . أما الذى راح منى فحقيقة !

كيف راح كل شىء فجأة . . العمل راح . والأمان راح . والبيت راح وليس أمامى إلا شوارع القاهرة أرتادها فلا أرى شيئا . وإذا حاولت أن أرى ، فلكى أتلفت ورائى لعلى أجد ذلك المخبر الذى يمشى ورائى . . مع أننى لا أملك أى شىء ولا أستطيع أى شىء . . وكل الذى يشغلنى ليلا ونهارا هو كيف أتحايل على أمى فلا تعرف أننى مفصول من عملى . . ففى حياتنا أحداث أليمة . . وذكريات موجعة . . فقد فصل والدى من عمله كثيرا ولأسباب تتعلق بطيبة قلبه ، وسفالة الذين كان يعمل عندهم ومعهم من الباشوات ونظار الزراعة . . ولكن ذكريات الفصل أو ترك العمل . . وأن يصحو الإنسان من النوم ليجد أمه قد ربطت العفش والملابس ووضعت ساعة الحائط تحت أرجلنا لنسافر بها من بلد إلى بلد شىء رهيب لا أستطيع

أن أنساه . . والله يعلم أننى حاولت ذلك كثيرا . . .

كيف فصلت من عملى . .

كل شىء كان مفاجأة . .

بدأت بأن مددت يدى إلى قارئ الكف محمد جعفر . .

مددت يدى . فردّها وكأنها رأس حية رقطاء لدغته . . أو كأنه قرأ فى كفى خطاب استدعاء من المدعى الاشتراكى .

قال لى محمد جعفر : اسمع يا ابنى . . أنت مفصول هذا العام . لن ينتهى هذا العام إلا وأنت بإذن الله تعالى فى الشارع . . لا هذا المكتب ولا هذا المبنى .

أما هذا المكتب فقد كان فى غرفة أساتذة قسم الفلسفة بكلية الآداب . . وأما المبنى فهو مبنى أخبار اليوم .

وبالفعل فى يوم الكريسماس استدعانى مدير مكتب كمال رفعت الوزير الشيوعى وكان أيامها مشرفا على أخبار اليوم . وطلب لى على غير العادة فنجانا من الشاى . وتناقشنا فى موضوعات كثيرة . ولابد أن الناس خارج غرفة هذا المدير كانوا يحسدوننى على هذا الشرف العظيم — أى أن يستدعينى مدير مكتب الوزير وأن تطول إقامتى فى مكتبه . . وقد نبهنى بعض الزملاء إلى أننى جلست عنده أكثر من خمس دقائق . . ويقسم آخرون أنى أمضيت أكثر من سبع دقائق . وهذا رقم قياسى . فقد كان المألوف فى ذلك الوقت ألا يذهب أحد إلى مكتب المدير . . وإنما يجىء سكرتير المدير فيخبر رئيس السعاة الذى يطلب إلى أحد السعاة استدعاء أى رئيس تحرير إلى مكتب السيد السكرتير ليجلس ساعة وبعد ذلك يعتذر له عن انشغال السيد المدير . . ولكننى جلست أكثر من سبع دقائق . .

وكانت هذه الدقائق كافية لأن يذهب السيد السكرتير ومعه السيد رئيس السعاة إلى مكتبى ويفتشاه ثم يغلقاه بالشمع الأحمر . . وعندما تم لهما ذلك . إتصلا بالسيد المدير وأخبراه بذلك فى اللحظة التى كنت قد فرغت فيها من شرب الشاى لأسمع

منه أن أخرج من أخبار اليوم إلى الشارع إلى البيت ولا أعود . . فهذه هى التعليمات . .

أما السبب فهو مقال كتبته بعنوان « حمار الشيخ عبد السلام » بتاريخ سابق على ذلك بأيام . . وعلى مكتب جمال عبد الناصر نفس المقال مع تأشيرة من على صبرى تقول : هذا هو المقال وفى انتظار أوامركم . .

ونفس المقال مع تأشيرة من المخابرات العامة تقول : وفى انتظار أوامركم . .

وكان جمال عبد الناصر فى طريقه إلى الجزائر . . وأنا فى طريقى إلى الشارع . . وظللت أنتقل من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت سنة كاملة !

لاأعرف لماذا خرجت أو أُخرِجت . . ودون أن يكون لى أدنى حق فى مرتبى . . ولاشىء فى أذنى إلا أغنية عبد الحليم حافظ : راح . . راح . .

وعندما غنى عبد الحليم حافظ : قارئة الفنجان . . اتصلت به ، الله يرحمه ، وقلت له : ياحليم . . إن هذه أغنية أخرى تذكرنى بالذى مضى !

وقال لى : مفقود ياولدى مفقود !

وفجأة أصبح من الصعب أن أتعامل مع أى أحد . . ووجدت أن الحل الوحيد هو ألا يرانى أحد وألا أرى أحدا ، فالناس يخافون . إنهم أكثر خوفا منى . . لأن هناك عشرات الأنواع من التهم من الممكن أن تؤدى إلى فصل أى إنسان من عمله . . التآمر على قلب نظام الحكم . . والشيوعية والتجسس . . والتآمر على جمال عبد الناصر . .

وكلها كالأمراض المعدية . . تنتقل بمجرد اللمس أو بمجرد التفكير فيها .

ولذلك قررت أن أبعد حتى لا أنقل العدوى إلى أى أحد . . وفى ذلك الوقت سمعت من المرحوم على أمين هذه العبارة : لاتمتحن أحدا الآن ، وإلا فقدت كل الناس !

ولم أنس هذا المعنى ، ففى هذا الوقت ماكان يصح أن أحاسب الناس على خوفهم منى وحرصهم على الابتعاد عنى . . فهم معذورون ثم إننى لم أكن على

خلاف مع وزير ، وأرجو عطف رئيس الجمهورية . . وإنما على خلاف مع رئيس الدولة . ولا أعرفه ولا أعرف كيف أصل إليه . . فالزحام حوله شديد . . ثم إن هناك مئات من الناس قد أصابهم ماأصابنى ولأسباب مختلفة وكما هى العادة : لا أحد يعرف لماذا خرج ولامتى يعود !

وليس من العقل أن ألوم الناس . فلو كنت فى مكان كل الناس ، مافعلت غير الذى فعلوه .

وبسرعة غريبة انسدت الأبواب من تلقاء نفسها .

فأصدقائى فى الإذاعة رفضوا أن يتعاونوا معى فقد كنت أكتب القصة ويقرؤها المذيع . . قالوا لى : نأسف .

أى لاداعى لأن أكتب قصة ليقرأها واحد آخر . . على الرغم من أنه لاخوف منى .

طلبت أن أعمل دون أن يعرف أحد اسمى . رفضوا . .

هنا تقدم لى الصديق عبد التواب يوسف مؤلف قصص الأطفال . . وشاركته فى برنامج صغير ، دون أن يكون لى اسم ، وظللت كذلك شهورا . .

ولم يكن لى مكان آوى إليه كل ليلة . . سوى بيت مصطفى أمين . . حيث نلتقى بعلى أمين وعبد الحليم حافظ أوكمال الطويل وكامل الشناوى . وفى هذا الجو ينسى الإنسان ماالذى أصابه . . والذى أصاب مصطفى أمين وعلى أمين . . بعد ذلك . . ولم يكن صعبا أن يمضى أكثر الليل فى ضحك وفى الفرجة على الذين يلعبون الكومى . . ولكن المشكلة كلها كيف يمضى النهار . . فقد كان ثقيلا أليما . وكان أقبح مافى النهار : أشعة الشمس . . لأنها تجعلنى أرى الناس وهم يحاولون ألا يرونى . .

وكثيرا مايفعلون ذلك بغباء أو سخافة . . أو يكون تفاديهم لرؤيتى مهينا أكثر من الرؤية نفسها .

وبصورة أتوماتيكية اعتذرت دور النشر عن عدم قبول أى كتاب من تأليفى أو

من ترجمتى . وفى إحدى المرات ذهبت إلى ناشر صديق . فقلت له : عندى كتاب عن « أقصر طريق إلى سعادتك »

فقال : سخرية من السعادة ؟ . .

* قلت : إنه كتاب جاد

قال : جاف ؟ . .

* قلت : جاد . . سهل العبارة وفيه شىء من المرح .

قال : سياسى ؟

* قلت : دراسات نفسية وقصص عاطفية تاريخية .

قال : هل يصدق الناس أنك لاتسخر من جمال عبد الناصر؟

* قلت : لاعلاقة للكتاب بالسياسة .

قال : وكيف أقنع الناس بذلك . . ثم كيف يصدر لك كتاب الآن ، وأنت متآمر على الحاكم .

* قلت : إننى لم أتآمر . . وكل ماهناك أننى كتبت مقالا اعتبره الحاكم نوعا من التعريض والسخرية وانتهى هذا بوقوفى أمامك أعرض عليك كتابا من تأليفى ومن تجاربى . .

قال : أنت تعرف أن جمال عبد الناصر لايرحم . . وأنت لايرضيك أن أمشى معك فى نفس الطريق وأتسول . . أنا صاحب عيال . . وأنت ولله الحمد ، لا عندك أولاد ولا عندك زوجة . . خفيف . اذهب الله يحنن عليك . . أنت من سكة وأنا من سكة . .

وفكرت فى الهجرة من مصر نهائيًّا .

وذهبت إلى المرحوم على أمين . ومنعنى بعنف أن أفكر فى شىء من ذلك . وأنه يجب أن أصبر . وأن جمال عبد الناصر لن يعيش إلى الأبد . . وأن هذا الذى حدث لى هو شرف عظيم وأن هذا أقصى مايبلغه أى كاتب . .

وشجعنى بعض الأصدقاء فى البلاد العربية على السفر إلى غير رجعة . . وكانت

أمى مريضة ثم إننى بدأت أعتاد على هذا الذى أعمله ، أو الذى لا أعمله . . وأحسست أننى نزيل فى أوسع سجن فى الدنيا : الشوارع . . والمطاعم وبيت مصطفى أمين . . والنهار الثقيل والليل القصير . . والنوم المتقطع وأوجاع المصران . . وبكاء أمى ومنتجات قها . . وأغنية عبد الحليم . . ضاع . . تاه . . داخ . .

وعدت إلى عملى ، أكثر قرفا وأكثر خوفا . . ولكن أكثر شجاعة . . أو أكثر بلادة . . فما الذى حدث لى . . لاشىء غير الخوف الذى اعتدت عليه . وغير الضياع الذى ألفته . . لقد كنت قلقا قبل ذلك لأسباب عقلية ، فأصبحت قلقا لأسباب عقلية وعملية . . وفى نفس الوقت أدركت أقصى مايمكن أن يصيبنى إذا كتبت كلاما رمزيا له ألف معنى . . ولم يكن نقدا مباشرا لايحاسب عليه القانون .

ومن شدة الخوف بدأت أتعثر فى الأخطاء . . أتوهم الأخطاء وأتعثر فيها . . وأصبحت مشكلتى ككاتب ليس الذى أفكر فى كتابته ، وإنما الذى لايصح أن أكتبه . . أو لايصح أن أفكر فى كتابته أو عدم كتابته . . لقد تولد فى داخلى رقيب صحفى ورقيب على المصنفات الأدبية والفنية وسجان وسفاح . . فلا أكاد أمسك القلم حتى يقف هذا الصف من الجلادين والرقباء أمامى . . واحد يعطى القلم والثانى يمسك الحبر والثالث يمسك الورقة والرابع يفتح النور والخامس يوقظنى لعلى أكتب ويمضى فى هزى لعلى أصحو . . وفى كل مرة يجدنى جثة هامدة على الورق . . فيطفئ النور ويأخذ الحبر ويسحب القلم ويتلاشون جميعا من أمامى . . أو أتلاشى أمامهم جميعا . .

وفى لحظة التلاشى هذا يصبح النوم والأمن والأمان والإيمان شيئا عزيزا !

ومن الأشياء التى حيرتنى صغيرا هذا الجو الكئيب فى بيتنا . . لا يوجد ضحك ولا فرح وكنت أسمع أن والدى رحمه الله كان مرحا ولطيفا . كان شاعرا ينظم الشعر الرقيق ، ويحفظه ويرويه ويطلب إليه الناس ذلك وكان يدعونى عند صلاة الفجر إلى أن أجلس معه . . لأشرب الشاى بالنعناع وأصلى وراءه دون أن أدرى ما الذى أفعله . ولكن والدى كان يحبنى ولا يحب أن يكون وحده . . وقد حفظت الهمزية

النبوية والبردة للبوصيرى وأنا طفل صغير جدًّا قبل أن أدخل كتاب القرية . . وفى نفس الوقت لا أفهم مما يقوله أبى شيئاً . . وحفظت القرآن الكريم فى سنتين . وأنا لا أفهم كلمة واحدة منه . . ولكن أبى ليس كذلك فى البيت . لماذا ؟ هل لأن أمى شديدة الحساسية . . هل لأن أمى قد عارضت أسرتها كلها فتزوجت أبى الذى يكبرها بعشرين عاما . هل لأنه كان من الأفضل لها أن تبقى بين أهلها وتتزوج أحد أقاربها من أصحاب الأراضى بدلا من أن تتزوج واحدا من الأفندية يتنقل بها وبأولادها كل يوم فى بلد . لقد كانت أسرتنا الصغيرة كالمثل الإغريقى الذى يقول : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب !

فنحن نتحرك كل يوم فى بلد . . لماذا ؟ لأن أبى يغير عمله من شهر إلى شهر . لماذا ؟ لأنه عمل حر . . أى لأنه ليس موظفا فى الحكومة . فلا شىء يرفضه إلا نزوات السيد . . أى صاحب الإقطاع . . فقد عمل أبى مأمورا لتفاتيش عدلى باشا يكن وغيره . . وكان هذا العمل حرا . . أى لا يخضع للوائح أو قوانين وكان أبى لا يطيق أن يقيده عمل . . أو يجرحه أحد بكلمة . . وكان أبى لا يتصور أنه فى الإمكان أن يدوس الإنسان على كرامته من أجل شىء . . ولم يكن أبى مرنا . . ولا سياسيا . . وإنما هو رجل فنان ينظم القصيدة فى أى إنسان ويدفع الثمن . . ويكون الثمن أن يلم العفش ويلم أطفاله فى سيارة من بلد إلى بلد . .

هذا التنقل قد أورثنا القلق .

هذا القلق قد أورثنا الخوف .

هذا الخوف قد أورثنا اليأس . .

هذا اليأس قد جعل البيت كئيبا . والنهار ليلا . والليل خوفا . والطعام مرا . وجعل أبى صغيرا عاجزا . وجعلنا عبئا ثقيلا على أمنا .

يكفى أننا لسنا ككل خلق الله : بيتا مستقرا ، وعلاقات طويلة وصداقات متينة . . إننا شجرة لا نكاد نزرعها حتى نقلعها ، ولا نكاد نقلعها حتى نزرعها . .

وتذبل الشجرة حتى الموت . . وكذلك كانت كل علاقاتنا أوراقا صفراء على شجرة ذابلة . .

هذه المعانى التى احتشدت كلها فى رأسى وفى عينى وجعلتنى عاجزا عن أن أقول لأمى : إننى مفصول من عملى . . تماما كما كان يحدث لأبى . . وإنى قد ورثت عن أبى أشياء كثيرة من بينها أن أجد نفسى كل يوم على باب . .

لقد ورثت عن أبى الزهد فى هذه الدنيا . . فلا شىء يغرينى ولا شىء يخيفنى ولا يهمنى كثيرا أو قليلا أن أكون مالكا لبيت أو أرض أو أى شىء . . لقد عاش أبى لا يملك ومات لا يملك . .

ولكنه لم يكن فى استطاعته أن يملك . . فالحجر الذى يتحرك لا يملك عشبا واحدا . . ولكى يكون عشب ، لابد أن يستقر الحجر على الأرض وأن يبلله الماء . وأن تسقط عليه بعض البذور . . وتنبت البذور . . وتورق وتكبر – كل ذلك إذا استقر الحجر . .

ولكن أحجارنا لم تستقر . .

وفتحت عينى وأغمضتها على مرض أبى وبكاء أمى . . وراء الباب تنتظر عودة أبى فلا يعود . . تبكى مرة أخرى لأنها لا تستطيع أن تعود إلى بيت أبيها . فقد تحدت الجميع . وخرجت فلا تعود !

ولما عدت إلى عملى فى أخبار اليوم رئيسا لتحرير الجيل ، قررت أن أبحث عن طريقة لكى أترك مصر . . وواجهتنى مشكلة أن أمى على خلاف مع أهلها . . والخلاف أنها ورثت ثلاثة أفدنة أو ستة .. والله لا أعرف حتى الآن فلا يهمنى أن أملك . . عاشت أمى وماتت دون أن تحصل عليها . . ولابد أن تنفق على هذه القضية ضد إخوتها حتى الموت . . ومات أكثر من محام . . ومات القاضى ومات المستأجرون . . وماتت له أخوات . . وأمى مصرة على أن تكسب هذه القضية ويوم ماتت أمى حكمت لها المحكمة بنصيبها من الأرض . وفى الصفحة التى نشر فيها خبر الوفاة نشر قرار الرئيس السادات بأن أكون رئيسا لتحرير آخر ساعة وعضوا لمجلس

إدارة أخبار اليوم ، وتلاقت برقيات التعزية والتهنئة معا . . التهنئة بمنصبى الجديد . . والتهنئة بقرار المحكمة وكانت نكتة لم يضحك لها أحد . .

* * *

وتغيرت الدنيا . . ولم يعد الخوف هو الهواء الذى يتنفسه كل الناس . . ولم يعد الأرق هو الطعام الذى يأكله كل صاحب قلم . .

إن أقلاما كثيرة تهاجم مصر وحاكم مصر ، ويعود أصحابها إلى بيوتهم يجدون كل شىء كما تركوه فى الصباح . . البيت والزوجة والأولاد ، والمرتب فى نهاية الشهر . . ولا داعى لأن يتلفت الواحد منهم وراءه ليجد أن مخبرا يتابعه . . يعد عليه خطواته وتحياته وسلاماته . .

أذكر أننى كنت على موعد . وبعد أن تركت سيارتى فى الجراج . . عدت لآخذها من جديد . . ولكنى أكره قيادة السيارات لأننى أسرع كثيرا وأصطدم بالأشياء وبأعمدة النور وبالناس . . فقررت أن أستوقف أحد التاكسيات . ووقف التاكسى ومددت يدى أفتح الباب . . ودخلت لأصطدم بواحد ركب من الناحية الأخرى وجلس واندهشت وسألته فوجدته يصرخ فى وجهى : يا سعادة البيه قطعت نفسى . . أنا صاحب عيال يا بيه !

إنه المخبر قد تعب من متابعتى !

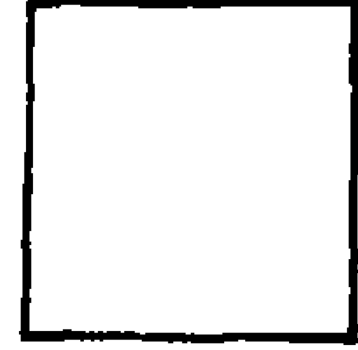
لقد سمعت الرئيس السادات يقول : أعجبنى على بن أبى طالب عندما قال : لو كان الفقر رجلا لقتلته . أما أنا فأقول : لو كان الخوف رجلا لقتلته .

إنه أفدح من الجوع . . إن الإنسان يجوع باختياره فيصوم .

ولكن الخوف . . هذا المتسلل العقلى . . هذا الزلزال الوجدانى . . هذا السم يسرى فى الأيدى فلا تكتب ، وفى العقل فلا يفكر ، وفى القلب فلا يدق إلا مسامير فى نعش الحياة . إن الخوف ليس رجلا إنه ملايين الرجال . . فالخائف يتوهم أن الذين يطاردونه بالألوف ، والذين يحاكمونه بمئات الألوف والذين يريدون القضاء عليه بالملايين . . فلو كان الخوف رجلا واحدا لقاتلته حتى قتلته . .

ولكن الخوف بعدد خلايانا ، بعدد كريات الدم البيضاء والحمراء . . ملايين من الحشرات اللاسعة السامة !

فالخوف هو النهار يأكل الليل . . هو الأرق يلتهم النوم . . هو الشك يمتص الإيمان . . هو الكريات البيضاء تمحو الكريات الحمراء . . هو الموت يزحف على الحياة وأى أمل فى النجاة !



بسبب هذا المقال .. فصلنى جمال عبد الناصر وحرمنى من التأليف والخروج من مصر!

حدث هذا فى القاهرة من ٧٠٠ سنة . . علم أهل القرية أن الشيخ عبد السلام قد أهين . فقرر أن يترك القاهرة .

وأن الخلاف بينه وبين السلطان على سيادة القانون .

القانون مع الشيخ . . والسيف مع السلطان .

القانون يحميه إيمان الشيخ عبد السلام ، والظلم مع السلطان يحميه السيف . . ويحميه ألوف المماليك الطغاة الظالمين . .

وخاف الناس وأشفقوا على الشيخ ، وراحوا يمسكون بالشيخ عبد السلام . . ويشيرون إلى أولاده . . ويشير هو إلى السماء . . يشيرون إلى صمته ، ويشير هو إلى الأرض التى هى نهاية كل حى . .

يشيرون إلى السرير . . وهو يشير إلى حماره الذى وقف بالباب ينتظر التحرك إلى الشام . .

قالوا له : الصبر ياشيخ !

* قال : لاصبر على ظالم !

قالوا له : الحلم ياشيخ !

* قال : لاحلم مع جاهل !

● بسبب هذا المقال فصلنى الرئيس جمال عبد الناصر ١٦ شهراً من عملى . .

قالوا له : السلطان يحبك .

* قال : بل يحب ضعفى أمام القانون !

قالوا له : لا حياة للمسلمين بعدك ؟

* قال : الإسلام له رب يحميه !

قالوا له : السلطان يقتلك .

* قال : ليس أروع من الموت فى سبيل الله !

قالوا له : إرضاء السلطان سهل . .

* قال : إرضاء السلطان إغضاب لله .

قالوا له : يكفى تقبيل يديه ، وبعد ذلك كل شىء يهون .

* قال : بل كل شىء يهون إلا هذا !

قالوا له : ألا تقبل يدى ابنك ؟

قال : فعلت ذلك كثيرا . .

قالوا له : تصور أن يد السلطان هى يد ابنك فقبلها من أجل المسلمين . .

* قال : لو كان السلطان لايدرى ماأفعل ، لقبلت يده ألف مرة . . ولو كان لايدرى ، فأنا أدرى ، وأعرف أن هذا هوان . . اتركونى !

وركب حماره واتجه به إلى الشام . .

إنه فى هذه اللحظة كان يشبه الفتى الزنجى الكسيح فى الأوبرا الأمريكية « بورجى » عندما اتجه إلى نيويورك على ظهر مقعد له عجلات وكانت تجره معزة . .

إن بورجى هذا اتجه إلى نيويورك يبحث عن محبوبته التى خطفها أحد البلطجية . . ومن ورائه أهل المدينة يرثون لحاله ، لأنه لايعرف أن أمامه خمسة آلاف ميل لكى يصل إلى محبوبته !

ومن وراء الشيخ عزالدين بن عبد السلام خرج سكان القاهرة . فلا حياة لهم بعد هذا القاضى العادل الذى يواجه ظلم السلطان والمماليك .

ويومها قال أحد رجال الحاشية للسلطان : إذا خرج هذا الرجل من مصر سقط

عرشك !

وخرج السلطان ليرى ماذا فعل الشيخ عبد السلام . فوجد عددا كبيرًا من الناس يمشون وراءه يبكون . . كلهم من الفقراء والأغنياء . .

وأرسل له السلطان رجال الحاشية ولكن الشيخ أصر على السفر إلى الشام .

وكان الشيخ عبد السلام يتحدث إلى الناس وهو راكب حماره .

وكان يقول : إننى آخذ معى حمارى هذا بالنيابة عن بقية الحمير التى تركتها ورائى فى مصر ! . .

* * *

وأخيرا جاء السلطان وطلب من الشيخ أن يعود .

* واعتدل الشيخ فى جلسته فوق الحمار وقال : ومطالبى ؟

قال له السلطان : أحققها لك . . فأنت الشريعة ياشيخ عبد السلام . .

قال الشيخ : بل حارسها ياأيها الإنسان !

وكان الشيخ عبد السلام طرازا غريبا من رجال الدين . .

كان يؤمن بالمساواة بين الناس جميعا .

لافرق بين سلطان وبين أى إنسان . . لافرق بين المماليك والتجار . .

وكان ينادى المملوك بقوله : يا . . أى شىء ياأى حاجة . .

وكان ينادى العلماء بقوله : ياطالب . . ياإمام !

وعندما رجع الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضى قضاة مصر ، التف الناس حوله يشكون من ظلم المماليك ومن حماية السلطان لهم وقرر الشيخ عبد السلام أن ينفذ تعاليم الشريعة الإسلامية . ويطبق سيادة القانون على الجميع . .

فالشريعة الإسلامية تنص على : أن المملوك لايحق له البيع ولا الشراء ولا الزواج ولا الطلاق لأن المملوك بلا إرادة ولا عقل . . وليس حرًا . . أى أنه لاشىء ! .

ولكى يتحول المملوك إلى « شىء » يجب أن يباع فى مزاد علنى ، والذى يشترى

هذا المملوك له وحده الحق فى أن يطلق سراحه . . أى فى أن ينعم عليه بنعمة الإنسان الحر فإذا صار حرًّا أصبحت له حقوق جميع المواطنين الأحرار . .

ومعنى ذلك أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام يرى أن الأمراء المماليك يجب أن يباعوا كالبهائم فى السوق . . قبل أن تكون لهم هذه السلطة على المصريين الأحرار . .

وهذا رأى الشريعة . .

فالشيخ عبد السلام قد أفتى وأعلن كلمة الشريعة ثم جلس فى بيته . .

وضجت القاهرة بالدهشة والخوف وانزعج السلطان .

وذهب المالك إلى مولاهم السلطان يطلبون إليه أن يمسح هذا العار .

وثار السلطان ، عندما علم أن القاهرة كلها تنتظر هذا اليوم العظيم . . وأن الشيخ عبد السلام متمسك برأيه . . وإلا فالحمار بالباب والطريق مفتوح إلى الشام !

وأصبح حمار الشيخ عبد السلام أشهر حمار فى القاهرة وأحب الحيوانات إلى الأمراء . فلا يكاد الواحد منهم يمر ببيت الشيخ عبد السلام حتى ينزل من فوق حصانه ويتفرج على الحمار وفى بعض الأحيان يقبله

وكان الشيخ عبد السلام يسمح لهذه الأفواه البيضاء التى قبلت الحمار أن تقبل يده . وحجته فى ذلك :

* أن حمارى هذا أفضل من المماليك . . ثم إن قبلات المماليك لاتنقض الوضوء .

وكان يقولها جادا . . فالشيخ عبد السلام لايعرف المزاح .

وعندما طالب ببيع الأمراء ، لم يكن يدرك هذه النكتة التاريخية . . ولم يكن يتصور أن هذا شىء جديد فى التاريخ . . لم يكن يدرى أن هذه العبارة التى قالها فى ثانية ستصبح مسرحية لتوفيق الحكيم بعنوان « السلطان الحائر » بعد سبعة قرون . .

ولكن الشيخ عبد السلام كان بسيطا وكان جادا جافا .

وحاول أحد الأمراء أن يقتل الشيخ عبد السلام . .

ثم ذهب إليه السلطان بنفسه . . وفى يده سيف . . وأمام عدد كبير من الخدم ، دق باب الشيخ برجله . . ثم بسيفه . . وكان ابن الشيخ هو الذى فتح الباب .

قال له السلطان : قل لوالدك أن يعدل عن رأيه وإلا قتلته !

وظهر الشيخ عبد السلام . . ونظر الشيخ إلى السلطان كما تنظر الأفعى إلى العصفورة الصغيرة فتسقط العصفورة من شدة الفزع . . وسقط السيف من يد السلطان . . وسقط السلطان أيضا . ولكن الشيخ عبد السلام أصر على بيع المماليك .

ولم يجد الأمراء مفرا من الشيخ أو من الشريعة . .

وأعلن الشيخ عبد السلام فى القاهرة أن : الأمراء للبيع . .

ولم يقبل البيع الرمزى . . أى مجرد إهانة هؤلاء المماليك وعرضهم كالماشية أمام المواطنين . وإنما البيع معناه البيع . وبأغلى الأسعار لأن هذه الأموال يجب أن تدخل خزانة المسلمين . .

واتفق كل مملوك مع أحد أصدقائه على أن يشتريه . .

وكان الشيخ عبد السلام يطلب ثمنا غاليا فى كل مملوك . .

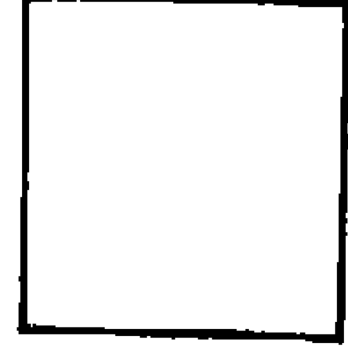
وبنفس الروح الجادة التى لاتفهم الهزار فى الحق . . باع الشيخ عبد السلام حماره فى نفس السوق . . فلا فرق بين الحمير والأمير . . «كلها» أو «كلهم» حيوانات مادامت بلا عقل ولا عدل ولاحرية . .

* باع حماره لأنه قرر البقاء فى مصر ، بعد أن تحررت من العبيد الذين يحكمون الأحرار !

وطويت صفحة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ولكن الشيخ نفسه يطل برأسه وبروحه فى ساعات الأزمات فى التاريخ . .

ولا أدعى أننى أراه الآن وإن كنت أتمنى أن أراه . . وإذا ظهر فسوف يجد له ألوف التابعين . ولكن من المؤكد أن حماره سوف يجد أكثر من ثلاثين مليونا . .

* مدد ياشيخ عبد السلام مدد ! !



كلام مليان فى الفضاء !

مع عالم الفضاء المصرى . فاروق الباز تحس أنك تجلس مع أحد الحشاشين الذين ما تزال عندهم قدرة عجيبة على التفكير المنطقى وذكر الأرقام وموضع كل شىء على سطح القمر والمريخ .

فقديما كان الناس يرون أن القيامة سوف تقوم ولن تقعد إذا طار الحديد . وطار الحديد ودار حول الأرض وحول القمر ونزل فوق القمر وعاد من القمر ، ونزل على المريخ وما يزال يعمل ، ولم نتمكن من استعادته بعد . .

أما الاختراع الجديد فهو سفن مصنوعة من الطين الذى يتحمل درجات الحرارة التى تصل إلى ٥٠٠٠ مئوية فيتآكل ثم نعيده إلى الأرض ليمكن استخدامه مرة أخرى . فالتجربة الجديدة هى إطلاق « المكوك الفضائى » أو « المتنقل الفضائى » كما يسميه فاروق الباز وهذا « المتنقل الفضائى » سوف يضعونه على ظهر طائرة نفاثة ترتفع به إلى أعلى . . ثم ينطلق من فوقها ليدور حول الأرض يومين أو ثلاثة ثم يعيدونه إلى الأرض ليستخدموه مرة أخرى . .

وسوف يكون د . فاروق الباز هو أول عالم عربى يركب هذا المتنقل الفضائى سنة ١٩٨٢ وهو ليس فى حاجة إلى أن يقوم بالتجارب العنيفة التى يجرونها على رواد الفضاء الآخرين من وضعه تحت ضغوط عالية وإلقائه فى الماء البارد والساخن . . وتركه عاريا تماما تحت أشعة الشمس وفى مواجهة أجهزة التكييف ليصبح قويا على

مواجهة كل الظروف الطارئة فى سفن الفضاء ، لأن السفينة الجديدة ، سوف تكون مريحة كالطائرة تماما . . وكل ما سوف يفعله هو ربط حزام المقعد والامتناع عن التدخين !

أما المعلومات التى تتلقاها سفن الفضاء عن العالم الخارجى فهى دقيقة جدًّا ، ولكن تفسيرها ما يزال شيئا صعبا ، مثلا ذلك الصندوق الذى لا يزيد حجمه على حجم علب الأحذية وثمنه خمسون مليونا من الدولارات ويضم ما يعادل جميع معامل البحث العلمى فى مصر ، فهو يرسل المعلومات الكثيرة وطول الوقت . ولكن كل هذه المعلومات مشكلة : فليس لها أى تفسير علمى واضح وقد اختلف فيها العلماء تماما . بل إن بعض المعلومات هكذا : التراب يرتفع بلا سبب ويظل عالقا فى الهواء بلا سبب . . الجليد درجة حرارته مائة مئوية . . كيف يكون جليدا يغلى . . الشمس إذا طلعت انخفضت درجة حرارة الأحجار وذابت المعادن العالقة بها . . الرياح تهب بصورة متقطعة . . وفى كل مرة تهب الرياح تكون على شكل موجات : واحدة باردة جدًّا والموجة الثانية حارة جدًّا . . هناك ظلال كثيفة رغم عدم وجود أية سحب . . ورغم عدم وجود أية كائنات أخرى . . السماء لونها بنفسجى . . ثم يتغير اللون البنفسجى فجأة فيصبح أحمر دمويا رغم أن الشمس ما تزال فى موضعها من المريخ . .

ومعنى ذلك : أننا لا نجد معنى واحدا لكل هذا الذى يحدث على المريخ . .

ومعنى ذلك : أن هناك قوانين أخرى لا نعرفها لأن ما لدينا من قوانين قد استخرجناها من مشاهدة ما يجرى على الأرض . . ولكن أرضنا تختلف عن المريخ . . ولذلك فعلومنا ونظرياتنا ليس لها أى معنى هناك . . ولا بد أن النظريات أو القواعد التى تسير عليها الطبيعة الجامدة والطبيعة الحية فى المريخ تختلف أشد الاختلاف عنا . .

أو بعبارة أخرى نحن أمام كوكب يتكلم لغة أخرى لا نعرفها ولا نفهمها . . تماما كما تجلس أنت مع إنسان صينى . . لا أنت تعرف لغته ولا هو يعرف لغتك . . وإن

كنت إنسانا مثله تماما ، والعلماء الأمريكان فى دوخة وفى حيرة لا أول لها ولا آخر . . أو . . لها أول فى المريخ ولها آخر على الأرض .

وأحدث ما استراح إليه العلماء هو : أننا أمام لغز . وأننا كنا مستريحين قبل أن نرسل هذه المعامل الفضائية إلى المريخ . . فلابد أن هناك نوعا عجيبا من الحياة يختلف عن الحياة على الأرض ، ونوعا من الكائنات لا يشبه الكائنات الأرضية وهذا طبيعى فكل بيئة تخرج كائنات أخرى تعيش معها وتعيش عليها . . تماما كما أن الأسماك تعيش فى الماء ، والطيور تعيش على الأرض وفى الهواء . . فكذلك هناك أنواع من الحياة نجهلها تماما ، تعيش على كوكب المريخ . ولا نعرفها ولا ندرى كيف نعرفها . .

أو بعبارة أبسط نقول : إن جدول الضرب عندما يقول ٣ × ٣ = ٩ وفى المريخ يقول ٣ × ٣ = ٧ أو لا توجد معادلة اسمها ٣ × ٣ = . . . وإنما توجد مثلا ٣ = ٧ ، ٣ × ٧ = ٣ . . شىء غريب عجيب !

سؤال للدكتور فاروق الباز والإجابة والمعلومات التالية كلها من عنده هو . . وعلى مسئوليتنا نحن الاثنين . إذن فهناك ما يبرر الكلام عن الأطباق الطائرة التى تجىء من كواكب أخرى . . أو من حضارات أخرى . .

لماذا تجىء ؟ لا نعرف .

ما هى ؟ لا نعرف . .

هل هى أسلحة سرية يطلقها الأمريكان على الروس ، والروس على الأمريكان ؟ لا نعرف . .

إن الدوسيه الضخم الفخم الذى سجل فيه رواد السفن أبولو ٩ وجيمنى ٧ وأبولو ١٦ وأبولو ١٧ وأبولو – سيوز ، إذا نشر فسوف يقول الناس إن الأمريكان جماعة من الحشاشين وإن علماء الفضاء جماعة من المساطيل . . وإن هذه الرحلات من أولها لآخرها ليست إلا تخريفا لا علاقة له بالعلم . . وإن هناك مؤامرة مجنونة شاركت فيها الصحف الأمريكية ومحطات التليفزيون والمتابعة الأرضية . .

فقد رأى رواد الفضاء أشياء غريبة فى الفضاء الخارجى . وحار العلماء فى تفسيرها . .

فأحد الرواد اتصل بالمحطات الأرضية يطلب إليهم أن يرصدوا هذا الجسم الأسطوانى الذى يقترب من سفينته .

فطلبوا إليه أن يصفه بدقة فقال : أسطوانة ناعمة طويلة . . ملاصقة للسفينة لونها رمادى لامع . . ليس لها نوافذ . . أحيانا أجدها أمامى . . وأحيانا تحتى . . وأحيانا فوقى . . وكلما اقتربت أحدثت ارتباكا فى الأجهزة . .

وترد عليه محطات المتابعة الأرضية : إننا لا نستطيع أن نسجل ذلك . حاول أن تصورها . .

ولا يكاد يمسك الكاميرا لتصويرها حتى تكون قد اختفت . .

وتحاول المحطات الأرضية متابعتها أو رصد حركتها . ولكنها لا تستطيع . .

رائد فضاء آخر اتصل بمحطات المتابعة الأرضية يقول :

* ما هذا ؟

– فيردون عليه : مالك !

* كرة بيضاء باهرة ورائى . . ما هذا ؟

– لا نراها .

* حاولوا .

– لا نستطيع . . صفها لنا . .

– كرة . . كأنها شمس صغيرة . . تقترب من السفينة . . ولا أستطيع أن أراها بوضوح لأن الضوء المنبعث منها باهر لدرجة أننى عندما وضعت منظارى الأسود أحسست كأن ضوءها قد اقتلع عينى ! . . إننى لم أعد قادرا على الرؤية . .

* ولكننا لا نراها . . حدد موقعها . .

– إنها فوق السفينة إلى الشرق بارتفاع ٣٨ درجة . . إنها الآن بارتفاع ٤٥ درجة . إنها تحت السفينة . . إنها أمامى . .

صفها أكثر . . لا تضطرب . . لا تخف . .

– إنها الآن ضوء هادئ مستدير . . ليس له إشعاع . . أميل إلى اللون الأصفر الأخضر . . إنها فى حجم السيارة الصغيرة . .

حاول أن تلتقط لها صورة بسرعة . .

وعندما حاول أن يلتقط لها صورة اختفت تماما !

رائد من رواد أبولو ١٧ اتصل بمحطات المتابعة الأرضية يقول : ورائى أجسام كثيرة لامعة . تشبه الأسماك فى حوض من الزجاج . . لا أعرف ما هذا . . هل فى السفينة أى خلل .

قالوا له : السفينة جيدة . . وكل أجهزتها تعمل بمنتهى الدقة . . حاول أن ترى أوضح . .

– إن السفينة تشبه الحوت . . وهذه الأجسام تشبه القراميط التى تتابع الحوت . . إن عددها يفوق العشرين أو الثلاثين . . وكلها تعلو وتهبط وتقترب . . إنها الآن تحيط بالسفينة من كل الاتجاهات . . ولكنى لا أستطيع أن أحدد شكلها . . فهى لامعة فقط . . ولونها أقرب إلى الرمادى اللامع . . وليست لها محركات . . أو لعلها تدور حول نفسها بسرعة هائلة . . لا أعرف بالضبط . .

حاولوا رصدها . .

ليس لها أثر على شاشة الرادار هنا . . إننا لا نعرف كيف نرصدها . . اطلب من زميلك أن يراها أيضا . . ويقترب الزميل ليراها وليكرر نفس الكلام . .

ولكن شاشات الرادار فى محطات المتابعة الأرضية لا تسجل شيئا . .

أما الذى يحدث على سطح القمر فهو شىء عجيب . . فكل سفن الفضاء التى دارت حول القمر رأت شيئا واحدا ، على الجانب المظلم من القمر . .

فعلى هذا الجانب وجدوا برقا هائلا . وحددوا مكانه . ولكن محطات المتابعة لم تعرف لذلك سببا . فلا يمكن أن يكون برقا ، لأن البرق يجىء من الشحنات الكهربية الموجودة فى السحب حول الأرض . . والقمر ليست له سحب لأنه

لا يوجد ماء أو بخار ماء . .

ولكن ظاهرة البرق أو ظاهرة الضوء الباهر الهائل قد سجلها جميع رواد الفضاء وفى أماكن متقاربة على الجانب المظلم من القمر .

أما أجهزة رصد الزلازل على سطح القمر فلم تسجل أى اهتزاز من أى نوع . .

وفى إحدى المرات قال أحد رواد الفضاء إن ظاهرة البرق هذه تشبه تماما « انفجاراً ضوئيا » – إذا صح هذا التعبير . . فقد أضاء الجانب الآخر من القمر كله مرة واحدة ولوقت قصير . . وفى إحدى المرات تكرر هذا الضوء الباهر وبصورة أقوى وأعنف حتى إن رائد الفضاء ظل عاجزا عن الرؤية لبعض الوقت . وقد شكا ذلك لمحطات المتابعة الأرضية فنصحوه أن يضع بعض القطرة فى عينه لبعض الوقت . . ثم عاد فأعلن أنه ما يزال عاجزا عن الرؤية . . وطلب إليهم أن يتولوا هم قيادة السفينة واستدعاء زميله الذى يمشى على سطح القمر . .

وهنا فى القاهرة جلست مع د . فاروق الباز ورواد سفينة أبولو – سيوز فى فندق مريديان وسمعت من أحد الرواد أنه رأى شيئا عجيبا فقد كان يقوم برحلة تجريبية بإحدى الطائرات وعلى ارتفاعات شاهقة وقرر الهبوط فى أحد المطارات العسكرية . فاتصل ببرج المراقبة وقال إنه لا يستطيع أن يهبط بسهولة لأن إحدى الطائرات تلف حوله . وأنها نوع من الطائرات لم يره قبل ذلك . . وسأل : هل يقوم أحد هنا بتجارب على سلاح سرى .

* فقالوا : لا . .

قال : أرجو أن تتأكدوا من ذلك . . فهناك طائرة غريبة الشكل تطاردنى . . وتسبقنى . . وتعلو طائرتى وتعترضها . . ولا أعرف كيف أتصل بهذه الطائرة . .

* فقالوا له : ولكننا لا نرى على شاشة الرادار شيئا من ذلك . .

قال : تأكدوا . . إننى أراها الآن . .

* قالوا : ليست لدينا أية معلومات .

قال : اسألوا .

* قالوا : سألنا . . لا توجد أية تجارب من أى نوع فى هذه المنطقة هل تستطيع أن تصفها لنا . .

قال : طيارة بلا محركات نفاثة . . وبلا أجنحة وبلا ذيل . . إنها أسطوانية . . وتستطيع أن تعلو وتهبط وتتوقف . . وتدور وتتشقلب بسرعة هائلة وبسهولة غريبة . . إنى أراها بوضوح شديد . . وأنا لا أستطيع أن أتحكم فى طائرتى . . فكل المؤشرات التى أمامى قد ارتبكت . . والمؤشرات كلها تتذبذب والطائرة أيضا . .

* قالوا : شىء غريب . . لا معلومات لدينا . .

وبعد دقائق نزل رائد الفضاء الأمريكى ليروى القصة بالتفصيل لعدد من الخبراء . . وهم عاجزون عن تصديقه . . ولكنهم فى نفس الوقت يستبعدون أن يكون هذا من خياله . . وخصوصا بعد أن لاحظوا أن المؤشرات ما تزال تتحرك يمينا وشمالا رغم أن الطائرة قد استقرت على الأرض وأن جميع التوصيلات الكهربية والإلكترونية قد فصلت تماما . . بل إنهم لاحظوا وجود بقعة غريبة على جسم الطائرة من الخارج ؟!

* * *

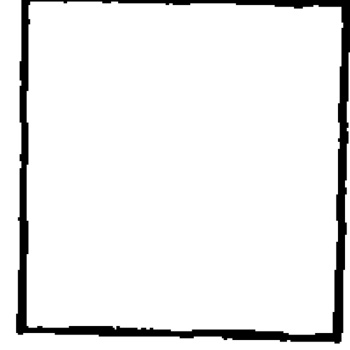
قلت للدكتور فاروق : الباز : أنا أصدرت كتابين هما : الذين هبطوا من السماء . . ثم . . الذين عادوا إلى السماء . . والكتابان متكاملان ويرويان قصة واحدة . ذهابا إلى السماء وإيابا منها . . عن كائنات غريبة عنا جاءت من كواكب أخرى إلى الأرض ، وتركت آثارها المؤكدة وعادت لأسباب لا نعرفها تماما كما جاءت لأسباب لا نعرفها . . وقال الناس : إننى مسرف فى الخيال . .

وكان رد فاروق الباز : ليس هذا خيالاً . وإنما العلماء حائرون أمام ظواهر كثيرة عجيبة ولكن لا خلاف بينهم على شىء واحد : أن هناك حياة من نوع غريب عنا فى أماكن أخرى من الكون وأن هذه الحياة لها أسلوب مختلف عنا . ولذلك فلها قواعد ونظريات لا نعرفها . . ونحن نحاول بكل الوسائل المختلفة أن نعرفها . . ومن أجل معرفتها رصدت أمريكا ألوف الملايين . . ومازال فى أول طريق طويل عريض

مجهول عرضه السماوات والأرض أى كل الكواكب التى تشبه الأرض ! فهل استرحت إلى هذه الإجابة .

قلت : لم أسترح وإلا ما ألفت كتابين وأستعد لكتاب ثالث . . وقد عدت من أمريكا وأوروبا ومعى عشرات من الكتب العجيبة عن مغامرات العقل وهو يحاول أن يفك عقد هذه الألغاز . . وهى متعة أن تقرأها وأن تحاول فهمها ثم أن تكتبها إلى الناس وتفتح شهية العقل على آخرها . . فالحياة مملة . والملل له علاج واحد : الفكر الجديد والخيال المنطلق والأمل فى مزيد من المتعة التى تنعش الفكر ، وتجعل للدنيا طعما آخر . . وتنقلك إلى الغد أسرع مما تنقلك إليه الشمس وهى تتحرك بطيئة من الشروق إلى الغروب إلى الشروق . .

ولم ينقذنى من هذه النشوة العقلية عندما أجلس مع فاروق الباز إلا ضحكته الطفولية المجلجلة التى تجعل وجهه يشرق وجسمه يهتز وعينيه تلمعان . . وكأنه يسخر من الذى نقول . . أوكأنه واحد من سكان الكواكب الأخرى قد هبط فجأة إلى مكتبى وراح يضحك على عبث الأطفال الذى نسميه سفن فضاء وعلى صغار اللاعبين الذين نسميهم علماء فضاء . . حتى لو كانوا : فاروق الباز !.



تعالوا نملك قطعة من أرض مصـــر!

أكثر أرضنا : صحراء .

وأكثر شعبنا : أميون .

ولابد أن نصلح الأرض البور والعقول البور. لنعلم الأرض كيف تنطق بالتدريج ، وكيف تزهى بالزهر ، وكيف تفرح بالعطر ، وكيف تكون لها ظلال تحتها أغنام وأبقار ، ونعلم الهواء كيف يصبح فراشات ، ونعلم الفراشات كيف تنتقل من شجرة إلى شجرة ونعلم الأشجار كيف تحتضن النحل وكيف يكون للنحل عسل . . أى كيف تكون الصحراء جنة على الأرض . .

ثم كيف يتحول المواطنون من كائنات تروح وتجىء . . تأكل وتشرب وتتناسل إلى آدميين . . أفكارهم زهور وطيور . . لها ماض ولها مستقبل . . وتصبح أيديهم العاملة عاقلة أيضا . .

والأميون أيديهم جاهلة . . ومهما كانت أيديهم قادرة على الإنتاج فهى متعطلة أيضاً . .

ولا يمكن أن نزرع الصحراء البور بعقول بور لأن فاقد العلم لا يعطيه ، وفاقد الحياة لا يمنحها . . فالذين يعملون الصحراء يجب أن يكونوا هم أيضا متعلمين . .

وذلك عبء عظيم لا يستطيع أن ينجزه جيل واحد . . وإنما أجيال . . ولهذا كانت الصحراء أمل الأجيال كلها . . ولسنا وحدنا الذين نزحف على الصحراء إنما

شعوب أخرى كثيرة . . لأن أكثر الكرة الأرضية صحراء : رملية أو جليدية .

ثم إن مياه المحيطات مساحات هائلة معطلة . . فنحن لم نستغل المحيطات بعد . . ففى المحيطات حياة وعناصر الحياة ، وكما تمكننا زراعة الصحراء تمكننا أيضا زراعة المحيطات . . ويوم تضيق الأرض بنا ، أو نضيق بها فسوف نذهب إلى الكواكب الأخرى بحثا عن طعام لجياع الأرض ودواء لمرضاها . .

ولن يتحقق ذلك إلا فى ألوف أو ملايين السنين . . ولا أدعى أننى من الذين يولعون بأن تكون لهم أرض . فأنا ريفى ولكنى لست فلاحا فقد ولدت فى الريف ، ولم أعش به ، وعندما عشت فى الريف كنت أجرى وراء أبى ، أو أرتمى على صدره من مكان إلى مكان . . من أرض لا نملكها إلى أرض أخرى لا نملكها ، أكبر وأوسع . .

فقد كان أبى مأمورا لتفاتيش عدلى باشا يكن وعز الدين يكن وغيرهما من أمراء زمان . . ولم تكن الأرض التى نعيش فيها إلا مثل منصات القفز . . نقف عليها لكى نقفز منها . . أو كانت مثل منصات إطلاق سفن الفضاء . . محطات ننتقل منها إلى أماكن أخرى . . وليس وراءنا إلا الندم على ما فات ، والخوف مما هو آت . . فلم تكن الأرض المزروعة إلا غابات موحشة . . أو غابات مليئة بالوحوش . . فلم تقع عينى على أرض ، وإنما وقعت أنا على كل أرض . . وفى كل مرة أرتفع عن الأرض ألعنها . . هى ومن عليها وما عليها .

ولذلك لم أحب الأرض ولم أفكر فى أن أملك أرضا وقد عوضنى الله عن ذلك بأن أملك الكتب . أى بأن أملك بيوتا من ورق ، أحتمى بها من العواصف . . وكانت العواصف كلها تهب من أرض مزروعة واسعة شاسعة ولكنها رغم ذلك تضيق بنا . . ففى كل مرة أراها أغمض عينى عنها . . لأن خضرتها قاسية ، واتساعها ضيق ، وثرواتها حرمان ، وخيراتها ألم !

ومنذ اكثر عشرين عاما ذهبت مع عدد من الأصدقاء الفنانين إلى ضاحية « عزبة النخل » لنشترى أرضا – آسف – ليشتروا أرضا ، فقد رافقتهم فقط وكان

المتر بثلاثة قروش . . واشترى كل واحد فدانا ، ولم أشتر شيئا ولم أجد معنى لذلك ورفضت الفكرة ، ولم أعرها أى اهتمام فالثأر بينى وبين الأرض قديم . . وإحساسى كان دائماً أننى مثل شجرة كلما وضعوها فى الأرض عادوا فاقتلعوها . فأنا أنظر إلى الأرض كأنها تخشيبة فى قسم بوليس أو محكمة . . أو كأنها « منطقة عزل صحى » . . ومعنى العزل الصحى . . أنه يجب عزل أى إنسان لاعتبارات صحية . . أى خوفا عليه من المرض . وكان إحساسى دائما ، أننى مصدر المرض والدليل على ذلك ، أننا كنا نمشى ونترك الأرض وما عليها ومن عليها وراءنا ، آمنة مطمئنة !

واكتفيت بأن كتبت مقالا أسخر من مجرد أن يكون للإنسان أرض يبنى عليها بيتا . أو يضع فوقها جاموسة أو يعلق عليها لافتة ويقول : هذه أرضى أنا . . وتلك أرضك أنت . . وهذه أرضهم هم !

مع أن « الامتلاك » غريزة عند الإنسان والحيوان . .

وعلى الرغم من ذلك فليس كل الناس يملكون أرضا فهناك من يملك البيت ومن يملك السيارة . . ومن يملك حريته . .

ومن مظاهر الحرية أن يقول الإنسان إن الذى أملكه يملكنى أيضا . وبقدر ما يملك الإنسان من الأشياء بقدر ما يكون أقل حرية !

فالذى عنده بيت خائف من السكان والذى عنده أرض خائف من المستأجرين . . والذى عنده زرع خائف من الآفات . .

والذى لا يملك لا يخاف من شىء أو من أحد . .

والذين لا يملكون يقولون أيضا : إن الشحاذين هم أكثر الناس حرية . . فلا أحد يعيب عليهم سلوكهم . ولا أحد يعيب عليهم فكرهم .

والناس يقولون عن الشحاذين يكفى أنهم شحاذون . . أى أنه لا لوم عليهم أن يفعلوا أى شىء . . فلا نؤاخذهم أى أننا لا نطبق عليهم قيود الذين يملكون .

وهذا يمكن أن يقال ، ويقال . ولكنه « تبرير » فقط فقد ندمت كثيرا على أننى لا أجد موطئ قدم فى أى مكان أستطيع أن أقول إن هذا ملكى وعند هذه الأرض

وحولها حدود حريتى . . وحدود حريات الآخرين .

ولذلك كانت الأرض والعرض بمعنى واحد . . فالذى يعتدى على أرضى التى أملكها . . كالذى يعتدى على ثوبى ، على جسمى على عقلى . . على زوجتى على ولدى . . على كرامتى وشرفى !

والفلاحون أكثر الناس ارتباطا بالأرض وقديما عبدوا الأرض كما عبدوا السحاب والأنهار والشمس أى أن الإنسان قد عبد كل مصادر الحياة !

والوطن كله أرض لكل الناس . ولذلك فالوطنية هى حب أرض الوطن ، والدفاع عنه والموت فى سبيله ، والذين يحبون بلادهم ليسوا فقط الذين يملكونها بل إن أكثر الذين يدافعون عن بلادهم لا يملكونها . . فهم أنبل وأشرف وأعظم . لأنهم يدافعون عن الأرض التى لا يملكونها . وإنما هم يدافعون عن التاريخ . . عن الشرف . . عن الكرامة . . عن الحرية . . عن السيادة . . ضد الظلم والإرهاب والقهر والاغتصاب . .

فإذا كان الإنسان وطنيا ، ثم هو فى نفس الوقت يملك قطعة من أرضه . . أو جانبا من تاريخها ، فهو أكثر الناس ارتباطا بالوطن لأنه يملك قطعة من الوطن ولأنه هو أيضا قطعة من الوطن .

والنداء إلى تحرير الصحراء من البور ، أو تعمير الصحراء بالاخضرار ، هو دعوة أيضا لتوطين المواطنين . . أى جعلهم أكثر وطنية وأشد تفانيا فى حب مصر والدفاع عنها ، والموت من أجلها . .

والفيلسوف العربى ابن خلدون هو أول من التفت إلى الفرق بين سكان الصحارى وسكان المدن ، أو أخلاقيات البدو وأخلاقيات الحضر– أى أبناء المدن . . أو الفرق بين البدوى والفلاح والمدنى – أى ساكن المدينة ، وابن خلدون يقول إن بناء المدن مرحلة متحضرة على إقامة الخيام ، ولذلك فالذين يبنون المدن ويعمرون الأرض أكثر علما من أبناء البادية الذين يقيمون الخيام على الرمل فى مهب الرياح ، ويتنقلون وراء المطر أو ينتظرون المطر حتى إذا سقط اخضرت الأرض

فإذا اخضرت أقاموا حتى تأكل حيواناتهم .

والفلاحون إذا أقاموا بيوتا ، فهى بيوت أقرب إلى شكل الخيام : هزيلة متهدمة ليس لها أساس علمي ولذلك فالدولة هى التى يجب أن تقيم المدن ، وهى التى يجب أن تزرع الأرض . لأن الدولة أقدر مالا وأكثر علما . . أو هى التى تقدم المال والخطة لمن يريد أن يبنى بيتا .

وابن خلدون هو أول من قال : إن الدولة إذا أرادت أن تغير أخلاقيات الناس ومعنوياتهم أسكنتهم الأرض المزروعة وأقامت لهم بيوتا .

إن الدولة بذلك تستجيب إلى طبائع الناس ، وتجعلهم جنودا على أرضهم .

أى أن الدولة تستحث غريزة الامتلاك عند الناس . . فكل إنسان يريد أن يملك . . وأن يستقر . . وأن يأمن . . وأن تكون له جذور كالشجرة . أو تكون له قواعد كالبيت وفى ذلك تعميق وتأصيل لمعانى الوطن والوطنية والكرامة والشرف والمحبة بين الناس . . وإنما الكراهية تكون عندما يملك أقل الناس . . ولا يملك أكثر الناس . . والكراهية هى أم الحقد والحقد أبو الصدام . الذى هو أبو الحرب بين الطبقات . .

حتى الدول الشيوعية التى رأت أن الامتلاك شيء . وحررت الناس جميعا من أن يكون لهم شيء يملكونه ، عادت فأعطت لكل واحد بيتا وسيارة . . وأعطت لكل واحد مساحة من الأرض يزرعها ، أى أن هذه الدولة التى نظرت للإنسان على أنه حيوان يرعى فى الأرض ، عادت فصححت هذا الوضع اللا إنسانى . . وردت له بعض إنسانيته أو جانبا من غريزته . .

* * *

ولن نستطيع أن نزرع كل الصحارى فى وقت قصير – لا نحن ولا غيرنا من الذين يعيشون على هوامش الصحارى الرملية أو الجليدية وإنما ذلك يحتاج إلى وقت طويل أى إلى أجيال كثيرة قادمة ولكن من المؤكد أن هذا سوف يحدث . .

ولن نقوم بتعمير الأرض فى مصر مثلا بنفس السرعة التى يتزايد بها عدد السكان

فسوف نكون أكثر عددا وتكون أرضنا أضيق مساحة وليس من الحكمة أن نقف فى الطابور واحدا وراء واحد حتى يجىء دورنا فى احتلال الأرض الصحراء وتعميرها أو تعليمها كيف تكون خضراء .

ولو وقف الشباب منتظرا دوره فإن دوره لن يجىء ولذلك يجب أن يفعل الشباب أى الأجيال القادمة شيئا إيجابيا . وليس أمامهم إلا العمل فى مصر أو فى غيرها والأرض العربية والأجنبة واسعة . والإنسان يجب أن يعمل فى أى أرض وأن يكون نافعا فى أى موقع . . والطبيعى جداً بالنسبة للمصريين أن يهاجروا أو يغتربوا : يجمعون المال ليشتروا أرضهم – قطعة من أرضهم بعد ذلك . . أى ليشتروا صحاريهم . . فكأنهم ذهبوا أبعد ليعودوا أقرب إلى الأرض . .

وإذا كان النيل قد وهبنا مصر ، فإنه قد أعطانا المثل لكى نعمر الصحراء . . وذلك بأن نشق فيها الأنهار والطرقات وأن نعمر البيوت وأن نتجاور ونتقارب ونتكاتف دفاعا عنا . . أى دفاعا عن مصر اليوم وغدا . .

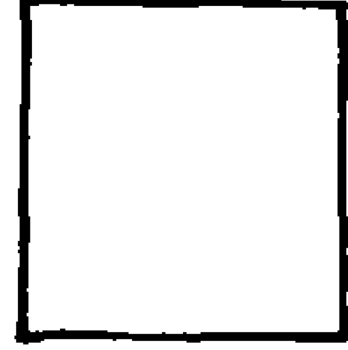
* * *

فيا أيها المصريون تعلموا وعلموا أرضكم الصفراء أن تكون خضراء . . وحتى تزداد أرضنا اخضرارا وإزهارا وطيورا . يجب أن نعلم الفلاحين الأميين .

وإلا كان الفلاح الجاهل مثل رمال الصحراء تسقط على الأرض المزروعة فتجعلها أقل خصوبة وأقل ثمارا . . وبذلك يكون الفلاح الجاهل آفة زراعية . .

فلنعمل على زرع الأرض البور وتعميرها وتنوير العقول البور وتثقيفها لأنه إذا كانت الصحراء خرابا ، فإن الجهل تخريب !

ونحن لا نغزو الصحراء لتهزمنا ، وإنما لننتصر عليها . . وننتصر أيضا على أنفسنا . . أى على الصحارى التى فوق أكتافنا نحن الأغلبية الساحقة من المصريين !



اعترافات واحد من الذين يتعاطون الدواء بغير داء !

أنا واحد من هؤلاء الذين تسببوا فى أن تدفع الدولة ملايين الجنيهات لشراء مواد الدواء . اعترف بذلك . وإن كان غيرى من الملايين ينكرون ذلك !

فأنا أتردد على الصيدليات وأنظر فى الفترينة وأشير إلى الطبيب : عاوز من ده . وتمتد يد الطبيب دون أن يسألنى طبعاً عن أسباب اختيارى لهذا الدواء بالذات . وأشير إلى دواء آخر وأقول : وثلاث علب من هذا . . وأريد علبتين من هذا . . وهذا يكفى اليوم وسوف أعود غدا ، إن شاء الله لكى أكمل احتياجاتى من الأدوية !

وأنا كأى واحد مصرى أتعجل الشفاء . ولذلك فبدلا من أن آخذ قرصا واحدا ثلاث مرات يوميا . فإننى آخذ ثلاثة أقراص أربع مرات يوميا . وأشفى بعد يوم أو بعد يومين . وتظل الزجاجات التى اشتريتها ممتلئة بالأقراص . ولكنى أضعها إلى جوار عشرات من العلب والزجاجات والحقن التى اشتريتها قبل ذلك ولم أعد فى حاجة إليها ولا أعرف ماالذى أفعله بهذه الأدوية كلها .

وإذا سافرت إلى الخارج فإننى أجد الإغراء أعظم وأروع . . فالصيدليات جميلة والعقاقير ملونة . . وفى الصيدليات توجد زجاجات العطور وتوجد بعض عقاقير التخسيس والتنشيط والطبيبات المرحات . . كل شىء يغرى أى إنسان بأن يشترى أى دواء . .

ولأن شراء الدواء وتعاطيه أصبح مرضا عندى ، فإننى أشترى أى شىء بأى ثمن . أما فى أمريكا فإن الصيدليات هى فى نفس الوقت سوبر ماركت . . فأنت تدخل لتشترى بعض الأدوية مارا بالحلويات والمكتبات والكافتيريات وأجهزة التليفزيون والراديوهات والعقول الإلكترونية . . فالإغراء لاشك أقوى وأعنف . . وأنا أعترف أننى لم أستطع أن أقاوم ولذلك فى كل مرة سافرت إلى أمريكا عدت بشنطتين : الكبيرة جدًّا للكتب والصغيرة للأودية . .

ولا أعرف إلا عندما أعود إلى القاهرة أن هذه الأدوية قد اشتريتها قبل ذلك ، وأنها موجودة فى مصر وبأسعار أرخص . وتتكدس أدوية بره وأدوية جوه فى صناديق كثيرة وكبيرة ازدحمت بها غرفة مكتبى فى البيت ، وأدراج مكتبى فى مجلة « أكتوبر » . ولم تقنعنى هذه الأدوية الكثيرة بأن أكف عن شراء الأدوية . لماذا ؟

لأننى مثل ملايين المصريين قد أصبحنا مدمنين لشراء الأدوية ومدمنين لتعاطيها ، ولأننا دون رخصة قانونية ، قد جعلنا من أنفسنا أطباء نشخص لأنفسنا الداء ونشترى الدواء .

وكل هذا الذى أقول : يسجل علينا عدة أخطاء فادحة الثمن . .

فنحن أولا نشترى الدواء بلامناسبة . . ونتعاطاه بلا معرفة حقيقية إن كان ينفعنا أو لاينفعنا . ونتعاطاه بكميات كبيرة استعجالا للشفاء ، وجهلا مؤكدا بخطورة هذه المواد الكيماوية على المعدة والقلب والأمعاء . . وفى نفس الوقت استخفافا بدور الأطباء . وربما كان معنا بعض الحق فى تصورنا لدور الطبيب فى الشفاء – وهذا رأيى الشخصى ، وأنا لا أعبر عن ملايين المصريين الذين يؤمنون بالأطباء ويلعنونهم من وراء ظهورهم . ولكنى أنا شخصيا لا أومن بقدرة الطبيب الخارقة على عمل شىء لماذا ؟

مثلا : أنا أشكو من المصران الغليظ . وأنا فى ذلك مثل ثلاثة أرباع الشعب المصرى . ومن أعراض المصران الغليظ أنه يوجع البطن – وأغلبية الناس يقولون يوجع القلب . وهم يقصدون وجع البطن . وهو يصيب الإنسان بضيق فى

التنفس . ويصيبه بدوخة . فإذا جلست إلى مكتبى فإننى لاأستطيع أن أضغط ببطنى على المكتب وإذا نمت لا أستطيع أن أتقلب على الجانب الأيمن أو الأيسر . . وأشعر فى نفس الوقت بأوجاع فى أماكن مختلفة من البطن .

وعندنا أمراض كثيرة لها نفس الأعراض . فإذا جاء الطبيب ووقف أمام المريض ، أو جلس وروى له المريض هذه الأعراض وكان الطبيب يرى هذا المريض لأول مرة ، فإنه لايعرف ماهو داء هذا المريض وإذا كان الطبيب قد رأى هذا المريض قبل ذلك ، ثم لاحظ أن المريض عصبى . . وأنه أصبح ضعيفا بعض الوقت ، ثم طلب إليه أن يفتح فمه ويقول : آه .

ووجد لسانه أصفر مبيضا وعليه طفح . . ثم امتدت يد الطبيب إلى عين المريض وفتحها ووجد البياض ميالا إلى الصفرة ، ثم رأى أظافر المريض لم تعد وردية اللون . . ثم ضرب بالشاكوش . على ركبة المريض فوجدها تقفز إلى الأمام . .

فمن المؤكد أن الطبيب سوف يشخص أعراضا أخرى للمريض . . ومعنى ذلك أنه سوف يعطيه عقاقير أخرى وهذه العقاقير إذا أضيفت للعقاقير السابقة ، وأحس المريض ، وهذا مايحدث غالبا ، أن الطبيب لايعرف شيئا ، فمن المؤكد أن المريض سوف يزداد مرضا وتعبا .

وإن كان هذا لايمنع أن الدفع واجب : أن يدفع زيارة الطبيب وثمن العقاقير أيضا . .

وأنا أومن – وهذا رأيى شخصى – أن الطبيب غالبا لايعرف ماالذى يناسب المريض . لماذا ؟

لأن الطبيب ليس عنده وقت لكى يرى ويسمع ويفهم . .

ولأن الطبيب لم يذق كل هذه الأدوية التى يصفها للمريض ، لأنه شخصيا لم يصب بكل هذه الأمراض وليس ضروريا . . أن يصاب بها . . وإنما الطبيب لديه معلومات عن فوائد الأدوية ، قرأها ودرسها وسمعها من المرضى .

والمرضى مختلفون فى أوجاعهم ، اختلافهم فى اتساع عيونهم وحجم أنوفهم

ودرجة سخطهم على الداء والدواء ، والمرضى والأطباء !

إذن . . فسوف يصف الطبيب دواء لداء آخر . .

وسوف يتعاطى المريض مايحلو له هو من الدواء ويصاب بأمراض وأوجاع مستمرة . وسوف يكون هو طبيبا لنفسه ، وأن يدفع ثمن هذه العادة السيئة . ويستمر المريض مريضا ، ويمضى فى تكديس الدواء فى بيته . .

ومن اعترافاتى هذه ألاحظ أننا لكى نشترى قرص أسبرين واحدا أو قرص فحم واحدا أو قرص ملين واحدا ، لابد من شراء علبة كاملة أو زجاجة كاملة . وهذه غلطة . يجب أن نتداركها . .

فالعبوات الدوائية ، يجب أن تكون أصغر ، أى يجب أن تباع العقاقير قرصا قرصا ، وحبة حبة . . بدلا من عشرات وعشرينات الأقراص ، نشتريها ونكدسها . ثم يدفعنا الخوف من أن تكون هذه الأدوية قد فسدت بسبب تكدسها ، أن نشتريها مرة أخرى . .

أرجو ألا ننسى أننا جميعا جهلاء بتركيب الدواء ، ولانعرف أى هذه الأدوية يفسد بالتكدس وأيها لايفسد !

ومن اعترافاتى هذه تنكشف غلطة خطيرة . وهى أن جميع الأدوية نشتريها بغير روشتة . فمن حق أى طفل أن يذهب إلى أية صيدلية ويشير إلى أى دواء . . فإذا هو قد نزل من فوق واستقر فى يده : سواء كان الدواء ساما أو مبيدا حشريا أو مضاداً حيويا . مادام الزبون معه فلوس فالزبون على حق . . حتى الموت !

وليس فى العالم كله شيء مثل هذا : لابد من روشتة الطبيب . . صحيح أن هذا مصدر دخل كبير للأطباء ، يضاف إلى الدخل الهائل الذى ينهال على الأطباء ولاتعرفه الضرائب ، ولكن من المؤكد أن التقيد بالروشتات يوفر الكثير للدولة التى تنفق عشرات الملايين من الجنيهات على إنتاج الدواء . . أو على دعم إنتاج الدواء . .

فالمطلوب ليس أن نقلل من الإنتاج ، ولكن أن نقلل من الاستهلاك . وبذلك

نقلل من دعم الدولة لسفاهة المرضى الذين يبتلعون الدواء عن جهل وعن سوء ظن بالأطباء . ربما سوء ظنهم بالأطباء ، هو الشيء الوحيد الذى له مايبرره . ولكن جهل المرضى يحتاج إلى توعية وإلى تنبيه مستمر . .

فمن الممكن أن يصاب أى إنسان بقرحة المعدة وقرحة الاثنى عشر بسبب قرص أسبرين ابتلعه على الريق . أو عشرات ابتلعها فى وقت واحد فى حالة يأس !

* * *

أذكر أننى ذهبت إلى إحدى الصيدليات فى أمريكا أشترى بعض زجاجات القطرة – أنا لاأشترى زجاجة واحدة من أى شىء . والسبب أنت تعرفه الآن ورفض الصيدلى أن يبيع لى القطرة دون روشتة طبيب . ولم تقنعه اعترافاتى بأنى أحد المرافقين للرئيس السادات . وإنما ضحك الصيدلى الباكستانى ورحب بهذه الزيارة ، ولكنه أشار وراء ظهره إلى القانون الأمريكى المعلق على الحائط . .

وعدت إلى الصيدلية ومعى د . محمد عطية أحد الأطباء المرافقين للرئيس السادات . وقدم د . . عطية جواز سفره . وحاول أن يكتب روشتة – ولكن الصيدلى اعتذر . لأنه من الضرورى أن يكون الطبيب الذى يكتب الروشتة مقيما فى أمريكا ونقابيًّا . ولكن حدثت المعجزة . فقد قال الصيدلى : إن لى ابن عم فى القاهرة يدرس الطب . .

فإذا بالدكتور محمد عطية يقول له : عندى طالب باكستانى واحد اسمه كذا . .

وكأننا فى « ألف ليلة وليلة » لأن هذا الاسم الكريم : قد فتح لنا أبواب الصيدلية ليقول لنا الصيدلى الباكستانى : شبيك لبيك عبدك بين يديك !

وأخذت عشر زجاجات قطرة . . وخرجت .

مع أن هذه القطرة ليست سامة ، ولامبيدا حشريا ولامبيدا إنسانيا . . ولكنه القانون الذى يحمى المواطنين ، من سفاهة المواطنين !

* * *

ثم إن بين المصريين من حمل هذه الأدوية المصرية الرخيصة وملأ بها حقائبه

لبيعها في البلاد العربية . . وهذا شيء عجيب !

إنه يبيع الأدوية الرخيصة ، في البلاد القادرة على أن تشتريها غالية !

وبذلك يساهم دون أن يدرى فى أن يزداد الفقراء فقرا ، وأن يزداد الأغنياء غنى .

تماما : وهذا تشبيه مع الفارق الكبير جدًّا : كأن يقوم واحد مصرى بتهريب الرغيف إلى بلد آخر ليبيعه بعشرة قروش . . مع أن الرغيف المصرى ثمنه الحقيقى ٢٢ مليما . . فالدولة تدفع ١٧ مليما فى كل رغيف لكى يستطيع أن يشتريه المواطن المصرى .

والأدوية كذلك . . وحدث أيضا فى أزمة البن – فقد هربه تجار الشنطة وحجاج الشنطة إلى بلاد عربية كثيرة . وحدث ذلك بالنسبة للثوم . فثمن كيلو الثوم فى مصر لايتجاوز عشرة قروش ، لكنه يباع فى بلاد عربية أخرى بستة جنيهات .

والبن يباع عندنا ٣٦٠ قرشا ويباع فى بلاد عربية أخرى بثمانية جنيهات !

وكل ذلك يضاعف ماتنفقه الدولة من أجل التيسير على المواطنين المصريين : الذين يبتلعون الخبز والبصل والثوم والبن والعقاقير !

* * *

إذن . . الشىء الوحيد الذى يميز الإنسان عن الحيوان ، هو استخدام الإنسان للدواء والإسراف فى تناوله . .

ولايزال الطبيب البيطرى أسعد الأطباء : لأنه يشخص الداء والدواء دون أن يجد نفسه فى حاجة إلى أن يسأل المريض عن الشىء الذى يتعبه . .

ومن هنا كانت تعاسة الإنسان أيضاً : فعلى الرغم من الذى نقوله للطبيب عن أوجاعنا فإن الطبيب يصف لنا دواء لمرض لانشكو منه عادة .

والنتيجة واحدة : أن الدواء فى الصيدلية ، وأن الشفاء على الله . .

وليس هناك أمل كبير فى إصلاح هذه العلاقة بين المريض والطبيب ، ولكن الذى يمكن إصلاحه ، رحمة بالدولة وبأنفسنا ، هو أن نوجه الناس إلى خطورة

تعاطى هذه الأدوية . . بنفس الحماسة المضحكة التى نقوم به عندما نعلن عن السجائر ، وعن مضار التدخين . .

فكذلك يجب أن نعلن عن فوائد الأدوية ، وعن ضرر الإسراف فى تعاطيها . . ضررها بالنسبة للمريض أولا ، وميزانية الدولة ثانيا . .

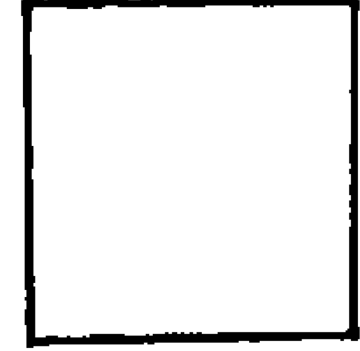
وأنه يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبارات قومية . وهذا المرض الأخير قد قام بعلاجه عدد لايحصى من الأنبياء والزعماء . وأكثر هؤلاء الأنبياء والخلفاء الراشدين قد لقوا مصرعهم وبقى الداء مستشريا حتى يومنا هذا !

والله أعلم . .

فليست هذه إلا اعترافات واحد من بين الملايين الذين يكلفون الدولة الملايين ، عن جهل بما يفعلون وعن إصرار بأن الذى يعملونه صحيح ، وهذا تأكيد لعمق هذا الجهل عندهم – ونحن أغلبية ، ولله الحمد ، فى مصر وفى البلاد العربية !

ملحوظة : هناك أوجه شبه كثيرة بين المترددين على المقابر وأضرحة أولياء الله وبين الذين يترددون على الصيدليات والعيادات – إنها مسألة نفسية !

أقول قولى هذا ، ورزقى على الله !



من أجل نصف الشعب :

لم نكن نتوقع أن تكون مدينة ليبرفيل الصغيرة جميلة . . بيوتها حديثة وشوارعها حرير . وفيلات رؤساء الدول قد أقيمت فى أسابيع على الجبال ، والناس فى صحة وعافية ، وقاعة المؤتمر قد بناها اليوغسلاف وقام على حراستها المغاربة . وكان الجو معتدلا باردا صباحا باردا ليلا على الرغم من أن المدينة تقع على خط الاستواء . ولكن السحب الكثيفة هى التى حجبت الشمس عن الناس الذين يرتدون الملابس الطويلة وفى أيديهم أرغفة الخبز الفرنسية الطويلة . . أما أسواقهم فيبيعون فيها السمك . . ومحلاتهم مفتوحة مليئة بالسلع ومتاجرهم يديرها أو يملكها لبنانيون . .

ولا توقعنا أن يكون المؤتمر ناجحا ، لأنه ضم عددا كبيرا من رؤساء الدول ، لأول مرة ، ولأنهم أصروا جميعا على أن تكون أفريقيا للأفارقة : لا يدخلها أجنبى أمريكى أو سوفيتى . . وإذا كانت هناك خلافات بين الجيران ، وهى بالفعل كثيرة وملتهبة ، فيجب أن تحلها أفريقيا بنفسها . وإن الرجل الأبيض الذى هو أقلية فى أفريقيا ، أو الذى هو يريد أن يعود إليها مرتزقا أو غازيا أو متآمرا ، يجب التصدى له والاحتراس منه . .

وكان الشيوعيون فى هذا المؤتمر قلة ضئيلة : أنجولا وأثيوبيا . .

ولكن الاتجاه العام القوى هو مواجهة العدوان والغزو فى كل صوره ومواطنه . . وقد أعلن أحد الزعماء أن أفريقيا قد عادت لنفسها – يقصد أن هذا المؤتمر كان

لصالح أفريقيا وضد تمزيقها .

وبدأ الأفارقة يتحدثون أيضا عن أن خورتشيف إذا كان قد أسقطه موقفه من كوبا عندما هددته أمريكا . فنفس الشيء من الممكن أن يحدث لبرجنيف وهو مريض ومصاب بالسرطان فى فكه السفلى . وغير قادر على الكلام بوضوح ، وقد لاحظ عليه الرئيس الفرنسى ديستان ذلك ولاحظ أنه لا يأكل ولا يشرب إلا قليلا . ويقال إن قادة السوفيت يعلمون بمرض برجنيف ، وليس إعطاؤه كل هذه السلطات إلا كالورود توضع على نعش رجل مات أو سوف يموت . . ومن المحتمل أن تؤدى مغامراته فى أثيوبيا والصومال وأرتريا وجيبوتى إلى سقوطه فلم يبق له من هذا كله إلا أثيوبيا وقائدها الدموى منجستو . .

وفى المؤتمر كان الناس يتطلعون إلى الرجل الذى يجلس وراءه ، لأنه هو الذى سوف يقتله وقبل أن يقتله سوف يكسر زجاجة من الدم ، كما فعل منجستو عندما اغتال الزعماء السياسيين وكبار ضباط الجيش . . لأنه لا يعتمد الآن إلا على الجندى وصف الضابط . . أما الضباط من جميع الرتب فقد تخلص منهم !

وهاجم الرئيس نميرى ، الاستعمار الاشتراكى – أى السوفيتى فى أثيوبيا وليبيا – بعنف شديد . .

وبلور الرئيس السادات – بالعقل – السياسة التى يجب أن تمشى عليها الدول الأفريقية من أجل وحدتها وسلامتها : وذلك بالاتحاد وحل مشاكلها فيما بينها وتحريم المرتزقة ومنع تدخل الدول العظمى . .

ويبدو أن هناك خطة أخرى حتى لا ينجح هذا المؤتمر أو حتى لا تنجح كل خطوات مصر من أجل السلام .

ولذلك تحركت جماعة « التكفير والهجرة » لخطف الدكتور الذهبى . وهو أول حادث من نوعه فى مصر .

وقد كان له أثره العالمى وأدى إلى انشغال عام فى مصر . . وإلى أن يكون هذا الانشغال على شكل كراهية وقرف من اعتداء الصبية والشبان على رجل من رجال

الدين . لأن له رأيا مخالفا . ولأنه يرى أن الذى تعتنقه هذه الجماعة لا هو من الدين ولا من العلم ولا من الإيمان . .

وعلى الرغم من النجاح العالمى للمؤتمر الأفريقى ، فإن هذه الفرقعة الدموية قد شغلت الناس وأزعجتهم . وفى نفس الوقت أثارتهم على رجال الأمن وعلى الصحافة وعلى هذه الجماعات الضالة المضلة .

* * *

وفى المجتمعات كلها من الطبيعى أن نجد أناسا رافضين . فى أمريكا وفى أوروبا وفى اليابان وفى روسيا أيضا . وتختلف درجات الرفض عند هذه الجماعات .

ففى بريطانيا أثناء العدوان الثلاثى وبعده ظهرت جماعة الساخطين أو الغاضبين ، وكان من بينهم أدباء . . ولكن هناك جماعات أخرى لا تعجبها الأوضاع فى بريطانيا . وليس لديها حل لذلك . ولكن هؤلاء الغاضبين يمتصون غضبهم ولا يعتدون على أحد .

وفى نفس الوقت ظهرت فى أمريكا جماعة الصاخبين وهم أيضا ثائرون على المجتمع الأمريكى الذى تتحكم فيه الآلة والمؤسسات والنقابات . وليست للفرد فيه قيمة . ولذلك فهم ينسحبون من المجتمع ، ويصنعون لأنفسهم مجتمعات أخرى . ومن مظاهر الرفض عندهم : أنهم لا ينفذون كل النصائح والأوامر التى كانوا يسمعونها من آبائهم ومدرسيهم ومن رجال الدين . ولذلك أطالوا شعورهم وأظافرهم وابتعدوا عن الاستحمام وتزوجوا فى سن صغيرة وأقاموا فى خيام خارج المدن . .

ثم ظهرت جماعات الصخرة القذرة . . والجيل الضائع . . والجيل الأبيض – أى الذى ليس فى رأسه شيء ولا فى قلبه شيء . . وإنما هو أبيض العقل والقلب . لأنه يرفض تعاليم كل الناس . .

وظهرت جماعات « المسدس الجنسى » أى الذين يقولون إننا أبناء أناس لم نعد نعرفهم . . أطلقونا وتركونا ، ولذلك يجب أن نتركهم ونعيش بعيدا عنهم . .

وظهرت فى أمريكا بعد حرب فيتنام جماعة الذين يمشون نياما – أى الذين ليسوا على قيد الحياة . وإنما هم فى حالة من الغيبوبة فهم لا يدرون إن كانوا أحياء أو أمواتا . . ثم إنهم يتعاطون المخدرات وحبوب الهلوسة . لأن واقع الحياة فى أمريكا لا يعجبهم والناس جميعا آلات وحيوانات تنجب الأطفال ووحوش تكسب . . فأمريكا ليست إلا زريبة كبيرة نظيفة من الظاهر ، وقذرة ومنحلة وكافرة بكل القيم من الداخل . .

وهذه الجماعات الصغيرة فى مصر . . إنهم أيضا صبية صغار . استغلهم واحد أكثر خبرة منهم . ولعب على وتر أن المجتمع منحل . وأنهم وحدهم القادرون على إصلاحه . أى أن هناك عددا من المشاكل الأخلاقية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، وأنها جميعا بغير حل . وأن الإنسان أمام هذه المشاكل يجب أن يفعل شيئا . .

والناس عادة إما أن ينسحبوا من مواجهة المشاكل لكثرتها وصعوبتها . . وإما أن يتهجموا عليها وعلى الناس أيضا .

ومن مظاهر الانسحاب أن يذهب الشبان بعيدا عن المجتمع . فتكون لهم حياة خاصة . أو أن يستغرقهم شىء : كالهوس الدينى أو التعصب الفكرى أو إدمان المخدرات أو الإسراف فى الجنس فهى جميعا إغراق واستغراق وهرب . .

أو أن هؤلاء الشبان لا يجدون مفرا من الاعتداء على المجتمع . . أى على الناس الذين لهم شكل الأب والأم : كالأب والأم والمدرس ورجال الأمن والساسة ورجال الدين . .

ويرون فى هذا العدوان نوعا من الإصلاح الذى ينشدونه . ويكون العدوان عنيفا . ثم إن هذه الجماعات تحاول أن تبرر لنفسها هذا السلوك المنحرف .

فهم ينظرون إلى المجتمع على أنه هو الذى يعتدى عليهم . أو هو العنيف معهم . ولذلك فالجرائم التى يرتكبونها ، ليست جرائم فى رأيهم ، وإنما هى نوع من الدفاع عن النفس . ومواجهة العدوان بالعدوان . والعنف بالعنف . .

ثم لديهم نوع من المثالية الزائفة . لأنهم يرون أن هناك صورة أفضل لهذا المجتمع ، هذه الصورة فى رءوسهم هم . وإنهم وحدهم القادرون على تحقيقها . ولما كانوا هم أقل عددا من أى مجتمع ، فلذلك ليس أمامهم إلا فرض هذه « الصورة المثالية » بالقوة . . بالقنابل . . بالمسدسات . . بالدم !

ولذلك نجد أن لدى جماعة التكفير هذه أميرا . . هذا الأمير هو سيدهم : أى هو القوة الحقة التى تعطيهم شرعية الجريمة . . ثم لأنه قوى فقد استباح لنفسه أن يفعل ما يشاء . أى أن يضع القانون وأن يعتدى عليه . . ولذلك فقد استباح زوجاتهم . وبذلك يتوافر للأمير : العنف والجنس . .

وفى كل جرائم هذه الجماعات فى أوروبا وأمريكا وجدنا العنف . . القتل . . ووجدنا الاستغراق فى الجنس . . أو تحقيق المتعة عن طريق إسالة الدماء ، أو عن طريق خطف النساء واغتصابهن .

وهذا ما حدث فى جماعة التكفير أيضا .

* * *

ولكن لماذا يلتقى هؤلاء الأفراد معا ؟ ما الذى يمسكهم ؟ ما الذى يجمعهم ؟ ما الذى يسيرهم هكذا ؟ من المؤكد أن هناك تشابها فى تكوينهم النفسى والاجتماعى . .

لأن الإنسان الإرهابى يختار هذا الأسلوب لعدة أسباب .

أولها : أنه يريد أن يؤكد ذاته . أى يريد أن يقول : أنا هنا . وأنا قادر على فعل شىء .

مع أن أحدا لم يسأله إن كان قادرا أو غير قادر . ولكنه يعانى من مشكلة أنه عاجز عن فعل شىء ، أنه بلا وزن أنه بلا فائدة . أنه بلا دور .

ولذلك فالانضمام إلى هذه الجماعة يعطيه فرصة أن يقول : أنا فعلت . . أنا آمنت . . أنا كفرت . . أنا تآمرت . . أنا قتلت . .

وثانيها : أن معظم هؤلاء الصبية والشبان لهم مشاكل نفسية واجتماعية . ولأنهم

صغار فهم غير قادرين على حلها . إما لأنها كثيرة ، وإما لأنهم يتعجلون ذلك . ومن وسائل الهرب من هذه المشاكل ومتاعبها أن يلقى الإنسان بنفسه على عدد آخر من الناس . وأن يذوب فيهم . فإذا ذاب فقد استراح من حريته ومن إرادته ومن مسئوليته . . وترك ذلك كله لإنسان آخر . . أو لجماعة أخرى .

إذن ، فهو محتاج إلى الاستغراق فى جماعة يقصد إغراق متاعبه ، أى الاستغراق فى جماعة أو فى مذهب من أجل إغراق كل أوجاعه ومشاكله . .

وبذلك يكون الاندماج أو الانطواء تحت لواء أو تحت إمارة أحد من الناس نوعا من الهرب . .

والتعصب هو نوع من الهرب . .

لأن هناك فارقا بين المتدين وبين المتعصب ، فالمتدين هو الذى يؤمن بشىء أو بشخص ما ، ولكن المتعصب هو الذى لا يؤمن فقط وإنما هو الذى « يدمن » شيئا ما أو « يدمن » طاعة شخص . . والإدمان يجرد الإنسان من حريته فى أن يقول : لا . .

وهو أصلا ، لا يريد أن يقول : لا أو نعم . . ولذلك فقد أدمن فكرة أو مذهبا ، أى فقد إرادته ، بمحض إرادته . .

وثالثها : أن الإرهابى يجد متعة فى أن يكون قريبا من ضحيته . ولذلك يتنافس الإرهابيون فيما بينهم : من الذى يخطف فلانا أو من الذى يقتله . لماذا ؟ .

لأنه يريد أن يرى الشخص الكبير وقد أصبح ضعيفا هزيلا . . يراه وهو يركع عند قدميه . . يراه وهو يبكى وهو يتعذب . . ثم وهو يقتله بعد ذلك . ويكون القتل استكمالا لمتعة تعذيب الآخرين والتشفى منهم . .

والآخرون : هم كل الناس وقد تجمعوا فى شخص واحد !

والذى يستعرض أعضاء هذه الجماعات الصغيرة المنعزلة فى العالم كله والذين ارتكبوا مثل هذه الجرائم ، يجد أن ظروفهم النفسية شاذة . وظروفهم الاجتماعية منحرفة ، أو أن حياتهم العملية فاشلة . . إذن فهم جميعا أناس يريدون أن يثأروا

من كل الناس ، ولما كان من الصعب عليهم قتل كل الناس ، فإنهم يختارون من يرون فيه عددا من الصفات المطلوبة : كأن يكون أبا أو مدرسا أو رجل دين أو وزيرا أو غنيا . . فهم يفضلون أى إنسان يمثل : القوة أو السلطة !

ورابعها : وهؤلاء الشبان انتحاريون أرادوا أو لم يريدوا . فهم قد أدمنوا فكرة أو رأيا أو أسلوبا ، ولذلك لم تعد لديهم إرادة . فهم لا يستطيعون أن يمتنعوا عن هذا الشيء الذى أدمنوه . . ولذلك كانت هذه الجرأة أو هذه الشجاعة . . وهى فى الحقيقة ليست إلا نوعا من البلادة النفسية والعقلية . .

ثم إنهم يدخلون السجون حتى الموت وهم يسمون ذلك واجباً وتضحية . .

فكأنهم أناس أمسكوا مسدساتهم ثم أطلقوها على صورهم فى المرآة ، بينما هم يريدون أن يطلقوها على كل الناس !

ومنطق هؤلاء الصبية المضللين بسيط جدًّا . وبقدر ما هو بسيط هو خاطئ أيضا .

فكل واحد يقول :

أنا أقول إن الناس جميعا كفرة .

والناس يقولون : إننى أنا الكافر وحدى . .

ولما كان الناس أقوى منى فقد أدخلونى السجن .

ولما كنت أضعف من كل الناس فلم أستطع أن أضعهم فى السجن . .

وهو ترتيب منطقى ، لولا أن أساس هذا المنطق خاطئ . والأساس : هو أن الناس كجميعا كفرة . وأنه هو وحده المؤمن . من قال ذلك ؟ لا أحد إلا هو . . وإلا جماعته !

مع أن المنطق هو أن نقول معا :

بعض الناس كفرة . . أو بعض الناس لا يطبقون الشريعة الإسلامية . .

ولكن لابد أن نسأل : وما هى الشريعة الإسلامية التى يستطيع طفل عمره ١٤ سنة أن يعرفها ؟ ما الذى فهمه من القرآن ومن الأحاديث ومن شرح القرآن

والأحاديث والمذاهب . . إن الدين علم واسع عميق متشعب ، يحتاج إلى أعمار لكى يعرف الإنسان أين الصواب وأين الخطأ ؟ . . ولكن هؤلاء الصغار ، لأنهم صغار ، كان التأثير عليهم سهلاً فدفعهم فى حالة من الإدمان والسير أثناء النوم ، إلى ارتكاب هذه الجرائم ، دون أن يدروا أنهم قد ارتكبوها ضد أنفسهم أيضا . .

وإذا كانت هذه الجماعات المنزوية المنطوية مجرمة فمن المسئول عن هذا الانحراف ؟ من الذى تركهم أو تخلى عنهم ، حتى سقطوا ضحايا أشرار متمرسين ؟

هل هى غلطة رجال الأمن الذين عرفوهم ولم يتابعوهم ؟ هل تكوين مثل هذا النوع من التفكير عمل له علاقة بالأمن فقط ؟ هل هو الأمن « المتراخى عموما » هل الأمن الذى فقد هيبته عند الناس ، هل أجهزة الأمن مثل أجهزة أى طبيب كبير ، ومهما كان الطبيب عظيما وفى يده أجهزة غير معقمة ، فما يقوم به من عمليات جراحية هى عمليات قتل ؟

هل أجهزة الأمن أدوات غير معقمة فى أصابع أطباء مهرة . .

إن الناس عموما لديهم هذا الاستعداد لإدانة رجال الأمن . والأمن . والتراخى والرخاوة وضياع هيبة رجل الأمن على اختلاف درجاته . . وهناك أدلة كثيرة على ذلك عند الناس .

هل هى مشكلة البيت ؟ أى الأسرة وظروفها المادية والأخلاقية . . هل هى مشكلة عائلية ، أدت إلى مشكلة اجتماعية سياسية إجرامية !

هل هى التربية الدينية ، أو افتقاد التربية الدينية فى البيت والمدرسة وأجهزة الإعلام . . هل هم رجال الدين الاستفزازيون فى المساجد الذين يشعلون النار فى كل الناس ، ويرفضون كل ما يجرى فى مصر . . فإذا سمعهم هؤلاء الشبان زاد سخطهم وغيظهم .

ولكنهم عندما فكروا فى خطف وقتل أحد اغتالوا أحد رجال الدين . فهل اغتالوه لأنه رجل دين ؟ أعتقد أنهم اغتالوه لأنه وزير . لأنه صورة من صور

السلطة ، ولأن له رأيا مخالفا . وأن هذا الرأى المخالف كان له أثره عليهم عندما كان وزيرا . .

هل هى الصحافة خصوصا ، وأجهزة الإعلام عموما ؟ هل هى الصحافة التى تقوم بتعميق التمزق عند الناس . . وتوسيع الازدواج بين ما يتمناه الناس وما يحلمون به ، وبين ما يجدونه بين أيديهم . . هل هى الصحافة التى تلقى الوحل على الأمس ، والماء على اليوم ، والورد على الغد . . فيحتار الشباب ما الذى يصدقونه وما الذى يكذبونه . . هل هى الصحافة التى تنشر صورا لمجتمع مصرى لا يعرفه هؤلاء الشبان ولا يعرفون موقعه . . ثم تجىء الصحافة وتتهم كل الناس بالفساد والانحلال وخراب الذمم والرشوة . .

هل هو التمزق السياسى والفراغ الهائل بعد النكسة الفظيعة ، وكان هؤلاء الصبية فى العاشرة من أعمارهم . . أى أطفالا صغارا . . وفتحوا عيونهم على هلوسة صحفية وضوضاء عقلية . . وتحولت رءوسهم إلى برج بابل يتكلم فيه كل الناس بألف لغة ولا يدرى أحد ماذا يقوله الآخرون . .

هل هى مشاكل الشباب أنفسهم : شديدو الحساسية يسهل التأثير عليهم ، عندهم فراغ عقائدى أو مذهبى ، لم يتلقفهم أحد . لم يحتويهم مذهب أو إطار سياسى . . لم يهتم بهم أحد . . ثم وجدوا أخيراً من يعطيهم : الاسم الكودى والصفة والخطة والمذهب والأمل العنيف فى أن يكون شيئا وأن يخيف وأن يكون حديث العالم الذى أنكره واحتقره . . وبذلك يجىء دوره فى أن يخيف هذا العالم . .

المهم : هو أن ندرس هذه الظاهرة وأن نعرف أبعادها وأعماقها وحجمها . وكيف تكونت . . ومن الذى يظلها ومن الذى يطعمها ويسقيها ويدربها . . ثم يجعل منها جميعا مسدسات تنطلق على مصر . .

ويجب ألا نبالغ فى تقديرنا : فنهون من أمرها أو نهول فى فداحتها . . لأن التشخيص نصف العلاج . .

ولا بد أن يكون العقاب رادعا ، فقد اعتاد الناس على الضرب بالرجل بدلا من الضرب بالعصا والضرب بالعصا بدلا من الضرب بالرصاص . وبذلك لم تعد الجريمة تخيف لأن العقاب لا يخيف ، ولذلك سقطت هيبة رجال الأمن ، وهيبة الدولة كلها . .

وإذا كان المقصود أيضا إفساد كل ما سوف يقال عندما تحتفل مصر بمرور أكثر من ربع قرن على ثورتنا ، فإن هذه الجريمة لن تفسد علينا ذلك اليوم . . فقد تحقق لمصر الكثير منذ ذلك اليوم . . تحققت سيادة القانون وحرية المواطنين وأمنهم .

وكان من نتيجة ذلك أن أساء هؤلاء الصغار فهم الحرية . . وأساءوا معنى الأمن والأمان . وآمنوا و « أدمنوا » أيضا : أن القانون ليست له أنياب وأظافر . . ومعهم حق فى هذا الفهم . لأننا لم نر أنياب القانون منذ وقت طويل . . وأن رجال الأمن يستضعفون بعض الناس فيكشرون لهم عن أنيابهم . ولكن إذا لم تكن للقانون – هذه المرة – أنياب حادة ومخالب خارقة ، فلن تنتهى هذه الجرائم ، وأولى هذه الجرائم : ألا يكون لرجال الأمن القدرة على أن يحققوا لنا ولهم الأمن والأمان !

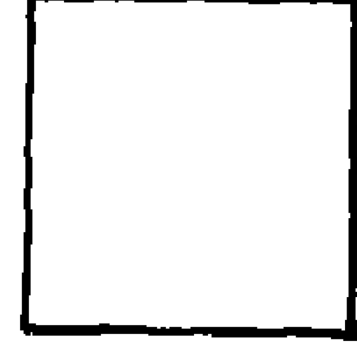
وأكبر جريمة يمكن أن نرتكبها جميعا أن « نلعن » الجريمة . وأن نقف عند هذا الحد . .

فشتيمة الأمراض ليست علاجا لها . . وإنما يستحق الشتيمة واللعن والطرد وعظيم الاحتقار من يكتفى بتكفير جماعة التكفير . . وإنما يجب أن نجد حلا ، وأن يكون الحل هو : الاقتراب والفهم والاحتواء وتقدير وزن وعمق هذه النزعات الرافضة . . وبعد ذلك نتقدم « معا » بالعلاج . .

أى نتقدم « جميعا » كتابا وعلماء دين وعلماء نفس ورجال أمن . .

وسوف تكون جريمتنا فادحة إذا نظرنا إلى كل شىء باستخفاف . لأننا قد اعتقلنا عددا منهم . . هذه غلطة فظيعة لأن معناها أننا نسينا حقيقة هامة وهى أن نصف

سكان مصر دون العشرين ، وأنهم يحتاجون إلى أن نضعهم تحت أعيننا وبين أحضاننا وفى قلوبنا . . لأنهم مصر ، مستقبل مصر . ومن أجل مستقبل مصر ، سالت دماؤنا ، وجف طعامنا ، ونضب شرابنا ، وهان أمرنا على كل الناس . . وهان أمرنا على أنفسنا أكثر . . ثم تحقق لنا النصر على أنفسنا وعلى عدونا ، وارتدت لنا أرضنا وقناتنا وكرامتنا . . من أجل هذا الشباب . . الذى هو مصر غدا وبعد غد !



كانت عندى تجربة
تكفير التكفير ليس علاجًا!

عندى تجربة ولكنها لم تكتمل . . فقد كنت أسكن فى إمبابة . وكانت لى مشاكل كثيرة ، كأى طالب متوسط الحال جاء من المنصورة ، متفوقا فى الفلسفة وأول التوجيهية فى ذلك العام . . ومن أولى مشاكلى أننى لا أجد مكانا معينا أذاكر فيه دروسى . . ولا أجد أحدا أعرفه . أجلس معه ونفكر معا فى هذه الهموم الثقيلة على نفوسنا ، وفى صعوبة المواصلات – أى فى صعوبة أن ندفع ثمن تذكرة الترام فى ذلك الوقت من ٢٥ عاما . .

ووجدتنى أتجه إلى جمعية الإخوان المسلمين ، ووجدتهم يختاروننى أمينا للمكتبة ولم يكن هناك خلاف على شىء : فنحن جميعا مسلمون نصلى ونصوم ، أحيانا نذهب فى الشجاعة والقدرة على مواجهة الناس إلى الخطب فى المساجد وإلى نظم القصائد فى الهجرة النبوية وفى مولد الرسول ﷺ .

وفى ذلك الوقت ، ولا أعرف لماذا ، جاءنى واحد من الإخوان المسلمين يعمل فى محل شيكوريل ، وتوسم الخير فى عقلى ودعانى إلى زيارة صديق له فى شارع محمد على . وهناك تركنى وحدى فى بيت واحد يهودى اسمه ليفى . . البيت صغير نظيف . ورأيت على المائدة سلة كبيرة من الفاكهة ، أدهشتنى : حباتها كبيرة لامعة ، لم أنسها طول حياتى ، وكانت هذه أول مرة أرى فيها الفاكهة مصنوعة من الجبس ، وجاءنى مسيو ليفى وقال ما معناه إنه سمع عنى كثيرا ، وأنه يجب أن نكون أصدقاء

وأن نقرأ معا بعض الكتب ، وقدم لى مجموعة كبيرة من كتب صغيرة عنوانها : « دراسات ثيو صوفية » أى دراسات فى الحكمة الإلهية . . ثم قدم لى مجموعة من كتب أكبر حجما عنوانها دراسات « فيو أنثروبية » أى دراسات فى المحبة الإنسانية . .

وفى ذلك الوقت كنت أتردد على الدير الدومنيكى فى العباسية ، أدرس الفلسفة المسيحية والصوفية المسيحية . وفى ذلك الدير عرفت باحثا مجتهدا اسمه الأب قنواتى ، وهو أحد الذين اشتركوا فى تأسيس جمعية « إخوان الصفاء » . « وخلان الوفاء » وكان من بينهم أستاذ لى فى الفلسفة الإسلامية هو المرحوم الأستاذ محمود الخضيرى . . ولا أزال صديقا للأب قنواتى ، ومن أشد الناس إعجابا به وحبا له . .

وقرأت هذه الكتب وغيرها وظللت أتردد على جمعية الإخوان المسلمين ، ولم أذهب فى التفكير إلى أبعد من القراءة وتجميع المعرفة . والتأمل أحيانا ، ولا أدعى أنه كان فى إمكانى فى ذلك الوقت وفى تلك السن ، أن أنظر إلى الدنيا من بعيد . . أتفرج عليها وأتأملها ، وأختار لى طريقا أو أسلوبا فى الحياة ، فذلك شىء صعب ، ولا يتحقق لأى إنسان وسط هذا الزحام من المشاكل والمتاعب والهموم وحزنى على أبى الذى كان مريضا وعلى أمى أيضا . وعجزى عن أن أضبط أعصابى ، فقد خلقنى الله إنسانا شديد الحساسية وعميق الضعف أمام عذاب والديه . وكل ما أتذكره الآن — أننى لم أكن ساخطا على أحد . ولا حاقدا على الذين لهم نصيب فى هذه الدنيا أكثر من نصيبى . وسبب ذلك أن مطالبى محدودة . وهى أن أكون تلميذا متفوقا . وإن كنت لم أعرف فى ذلك الوقت : ما الذى بعد ذلك ، أى ما هى القيمة العملية لهذا التفوق ؟ ولا ما الذى يمكن أن يحدث لو مات أبى فجأة ولم أكن موظفا ، ولا حتى ما هى الوظيفة التى أصلح لها . وإن كنت قد توهمت ، أن الإنسان يجب أن يعيش قارئا . ولم يخطر على بالى كيف يمكن ذلك . . أى لم أفكر أين أقرأ وأين آكل وأشرب وبأى شىء أشترى هذه الكتب ؟ . وكيف أستغنى بالقراءة عن الناس ؟ .

ولذلك لم أندهش عندما قررت جماعة الإخوان المسلمين فصلى من عضوية الجمعية . أما السبب فهو أننى قد أرهقت ميزانيتها : لأننى أمضى الليل كله مع زملائى نقرأ فى ضوء المصابيح الكهربية – وهذا عبء مادى ليس له مقابل . . أى أننا لا نفعل شيئا من أجل الجمعية يساوى هذه التضحية . فنحن لا نتولى الدعوة أو نشر الفكر . وإنما نستفيد من المكان ومن النور ومن الماء . . وأحيانا يجدوننا قد تساقطنا من الإعياء فنمنا على المقاعد !

ولم يعد الرجل اليهودى يسأل عنى ، فقد أخذت الكتب وقرأتها كأن هذا هو المطلوب . ولم أعد أتصل به ولا هو . . فالهدف المطلوب من القراءة لم يتحقق ! !

ولكن زملاء وأصدقاء كثيرين مضوا فى الطريق حتى نهايته . . فكانوا إخوانا متعصبين ، وكانوا ماسونيين وكانوا شيوعيين . .

أى أنهم لم يكتفوا بالاطلاع والمعرفة ، وإنما ذهبوا إلى الاقتناع . . واتجهوا إلى التطبيق . وتآمروا واتفقوا على الصمت وانتظار الفرصة المناسبة لعمل شىء . .

ولكن فى إحدى المحاضرات فى جمعية الشبان المسيحيين جاءنى من يقول لى : أنت تعرف لغات كثيرة فما رأيك لو درست لغة الاسبرانتو؟

ولم أمانع . وأعطانى كتابا ، ووجدت أنها لغة سهلة وأنها قريبة من اللاتينية أو أنها تأخذ من كل لغة عددا من الكلمات . ثم إنهم اهتدوا إلى قواعد سهلة جداً فى تعريف الأفعال والأسماء – ولكن عيبها أنها لغة بلا تاريخ . . أى أن أحدا لم يكتب بها ، وأنها فى نفس الوقت لن يكون لها مستقبل . . ولكنها مثل بقية الدعوات الخيالية : تدعو لتوحيد اللسان ، أو توحيد الأديان ، أو توحيد الأوطان . .

واستهوتنى هذه القضية بعض الوقت . والتقيت بأناس كثيرين ، ولكن لم تكن الاسبرانتو – ومعناها الأمل – مجرد أن يلتقى أناس ليتعلموا لغة . ويكونوا طليعة لتوحيد كل اللغات ، وإنما كانت هناك أهداف دينية وسياسية . .

ووجدت أن إضاعة الوقت ، نوع من الترف لا أقدر عليه . .

فقد كنت تلميذا نموذجيا . . منقطعا للدراسة . وكنت ابنا نموذجيا متفرغا

للحزن والبكاء على والديه ، وبين التفرغ للأسى وللدراسة قضيت حياة نظرية انطوائية محدودة هادئة . .

وأحسست أن كل هذه المحاولات لاجتذابي أو تجنيدى : تشبه سلة الفواكه على مائدة ذلك اليهودى : ثمار ضخمة لامعة ولكنها من الجبس . . بلا حياة ولا طعم . . وأن الذين يجدون فيها حياة ، ويجدون لها طعما ، هم أناس وثنيون . يعبدون الأصنام الدينية والفكرية ويعربدون فى آمال وهمية . .

ولذلك فتجربتى كعضو فى جمعيات كثيرة غامضة . لم تكتمل . . ولكن أناسا كثيرين قد اكتملت عندهم هذه التجربة ، فانتقلوا من النظرية إلى التطبيق العنيف . .

والمدينة الفاضلة هى التى يسمونها فى اللغة اليونانية « يوطوبيا » أى « مكان ما » .

وقد حاول فلاسفة كبار أن يصوروا أحلامهم فى هذه المدن الفاضلة . وحاول آخرون أن يحققوها بالحكمة أو بالعنف .

ولا وجه للشبه بين الذى حاوله الفلاسفة العظماء والمصلحون الكبار ، ورجال السياسة والاقتصاد . وما نقرأ عنه هذه الأيام ، وإن كانت هناك جماعات صغيرة مماثلة فى أوروبا وأمريكا قد أقامت لنفسها الخيام فى الحقول ، وسكنت الكهوف ، وتعلقت من الأشجار . لنفس السبب وهو : أن المجتمع الكبير جدًّا لا يعجبهم . ولأنهم صغار جدًّا ، فقد انعزلوا وانطووا ، ماداموا عاجزين عن طرد المجتمع كله وإلقائه فى البحر !

والذى يهمنى كصاحب تجربة هو : ما الذى يدفع الشاب أو الصبى إلى أن ينضم لمثل هذه الجماعة ؟ ما الذى وجده فيها ، أو ما الذى وجدوه فيه ؟

هذه هى القضية . وإن لم يكن موعد دراستها والتأمل فيها قد حان بعد ، فلا تزال القضية ساخنة . ولا تزال الأعصاب مشدودة ، ولا تزال لها جذور وبقايا وفلول . وسوف يكون الحكم سريعا ، لأن هذه الجماعات قد اختارت العنف

والاعتداء وإراقة الدماء وإقلاق الناس . ولابد أن يستخدم المجتمع أقوى أساليبه . وحقه الشرعى فى الدفاع عن نفسه . . وسوف يلقى الموت من حكم على الآخرين بالموت . . وسوف يدخل السجن من ألقى بالناس فى سجون الخوف والشك وهذا عدل . أو هو العدل !

وتبقى المشكلة كما هى : تحتاج إلى فهم وإلى دراسة .

وقد كتبت فى هذا المعنى . . وقلت إن تكفير التكفير ليس علاجاً . . أى إذا نحن استنكرنا هذه الجماعة ، وأغرقناها شتما وسبا فليس هذا دواء . . تماماً كما نقول : يسقط الزكام . . اللعنة على البلهارسيا . . فليس هذا هو الدواء !

وحذرت من قبل أيضا من أن العلاج ليس هو فقط إلقاء القبض على هؤلاء الصبية – لأن المشكلة ليست مشكلة أمن وخروج على الأمن فى الدرجة الأولى . إننا قد نصفق لرجال الأمن . . ونشكرهم على ما أدوا من واجب . ولكن ليس هذا هو العلاج : وإنما ما حدث هو أننا عرفنا الميكروب وحدوده ونوعيته ، وعزل الناس المرضى عن بقية الناس ولكى يجىء بعد ذلك العلاج .

وهذه الجماعات لا تختلف فى طبيعتها عن كل الجمعيات الساخطة أو الغاضبة فى كل المجتمعات الإنسانية ، اليوم وأمس وغدا . . لا تختلف إلا فى الاسم وفى أسلوب العمل . .

فهى أولا : سرية ، أى أن أفرادها يلتقون سرا وتكون لهم أسماء تنكرية . وتكون لهم لغة خاصة ، وأماكن خاصة . حماية لأنفسهم من الآخرين الأكبر قوة والأكثر عددا .

وهى ثانيا : تآمرية ، أى أنهم يجتمعون سرا لكى يستعدوا للهجوم على الآخرين ولكى تكون هذه الجمعيات قوية يجب أن تتماسك . ويجب أن تعرف بالضبط طريقها ، وكيف يمكن أن تعتدى على الآخرين وأن تختفى عن العيون لتستعد من جديد .

ولكن أساس قيام هذه الجمعيات أن عددا من الناس ساخطون . وهذا السخط لأسباب كثيرة .

فلا يوجد أحد فى الدنيا إلا وهو ساخط على شىء .

فالذى يقف ينتظر الأتوبيس ساعة ولا يجىء يلعن المواصلات ويلعن الحرب التى أكلت أموالنا . والواقفون فى محطات الأتوبيس ليسوا فى حاجة إلى مذهب دينى أو فلسفى لكى يلعنوا الأتوبيسات . .

ولا أنا ولا أنت فى حاجة إلى نظرية اقتصادية أو دينية لكى ألقى بالتليفون على الأرض ، إذا لم أجد به حرارة . .

ولا أنا ولا أنت ولا هو ولا هى فى حاجة إلى نوع من النظرية لكى أقول : آه . . إذا وخزتنى بدبوس .

فهناك سخط بين الناس لأسباب مختلفة .

ولكن هناك أيضا أناسا يتربصون بالمجتمع . . وهؤلاء الناس على قدر من البراعة فى جذب الآخرين وتجنيدهم والتسلط عليهم . وفى ذلك تلتقى كل الرغبات والآمال من أجل عمل شىء ضد الأغلبية .

ولا يتسع المقام لذكر أسماء الجمعيات السرية الإرهابية فى كل الدنيا التى تلتقى سرا وتتفق سرا وتحاول الانتقام أو النسف أو التخريب . . فهناك جمعيات الماسونية . . وجمعية شهود يهوه . . والبهائية . . وجمعية « حراس المدينة » اليهودية . . وغير ذلك كثير جداً وهى جميعا لا تختلف فى شىء .

ومن السهل على هذه الجمعيات الساخطة على أى مجتمع ، أن تقع ضحية ، أو باختيارها ، لقوى أجنبية لها مصلحة أيضا ضد هذا المجتمع . . ضد مصر . أو ضد أى بلد عربى آخر . . وتسقط هذه الجماعة ، كما أسقطت أفرادها . فى قبضة دولة أخرى تساندها بالتجربة وبالمذهب وبالذهب أيضا . وتلتقى كل المصالح الجماعية والفردية والدولية على محاربة مصر ، أو أية دولة عربية أخرى .

* * *

فما هو الموقف بالضبط – أى ما هو موقفنا من كل الذى حدث فى مصر؟

لا علم لنا ، ككل ملايين القراء إلا ما تنشره الصحف وتردده الإذاعة ويعرضه

التليفزيون . فما هى حصيلة هذا كله !

إننا أمام خليط غريب من الناس : مجموعة من الصبية أو من الشبان . . أو أمام مجموعة من الأميين أو طلبة الجامعات وطالبات الجامعات المنتظمين فى الدراسة أو الهاربين من الدراسة أو الفاشلين . . أو أمام عدد من الموظفين وعدد من المتعطلين . .

ثم إن الصحف قد شوشت الصورة أمام القراء فهم لا يعرفون : أى نوع من الناس هؤلاء جميعا !

وفى نفس الوقت خلعت عليهم كل أجهزة الإعلام ألقاب : الزعيم ونائب الزعيم والرسول والفيلسوف .

والاضطراب الذى يدير رأس القارئ سببه : أن الصحف تصفهم بضآلة العدد ثم تنشر أنهم بالألوف . . وتصفهم بالأمية ثم تنشر صورا لطلبة جامعات . . وتصفهم بالفلاسفة ثم تقول إنهم أنصاف متعلمين . . وأغرب من ذلك أنها تتهمهم جميعا بالكفر وفى نفس الوقت تقول إنهم لا يؤمنون إلا بالقرآن والسنة ؟ !

وقد حذرت من المبالغة فى التهويل والتهوين : لأن هذا خطأ فى التشخيص وإذا كان التشخيص خطأ فالعلاج كذلك . .

وهذه غلطة فظيعة تقع فيها كل الصحف بحسن نية ، وهى غلطة لأننا نبالغ جدًّا فى خطورة هؤلاء الناس ، وفى نفس الوقت نبالغ فى تفاهتهم . .

وعندما نبالغ فى خطورتهم فإننا نصنع شيئا يخيفنا أكثر . فنحن إذن الذين نصنع الخوف ثم نشكو منه . .

ونحن عندما نبالغ فى تفاهة هؤلاء الناس ، ننسى أننا نسخر من أنفسنا أيضا إذ كيف يكون هؤلاء الناس تافهين وقادرين على ارتكاب هذه الجرائم وقادرين على تجنيد هذه الألوف سرا ودون علم من كل أجهزة الأمن ؟ . .

ثم كيف تكون مخاوفنا الفظيعة تافهة المصدر إلى هذه الدرجة ؟

أليس معنى ذلك أننا فى النهاية أكثر تفاهة منهم – مع أننا لا نقصد ذلك ؟

ومعنى ذلك أننا لا نعرف ما الذى نقصد ؟ فيا حيرة القارئ الذى يعتمد على الصحف كمصدر للمعلومات – كمصدر وحيد للعلم والمعرفة والأمن والأمان ؟!

وما حدث قد حدث . .

والدماء التى جفت لن تسيل . .

والذى مات لن نعيد له الحياة .

يجب أن نتأنى فى نشر كل الأنباء . .

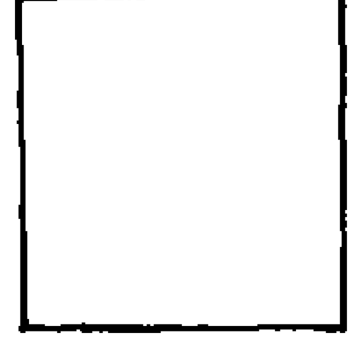
وأن نجند أقلامنا وحناجرنا ومشارطنا وعدساتنا لشرح هذا الذى حدث . .

يجب أن نفهم ما الذى دفعهم إلى ما عملوا . . يجب أن ننقذ ملايين الشباب والصبية الأصحاء حتى لا يستهويهم هذا الشذوذ أو هذا الانحراف . .

إن وقت الجد قد حان . .

إن تجربتى لم تكتمل فى بداية حياتى كطالب جامعى لأننى لم أكن ساخطا على أحد أو على شىء . . وأهم من ذلك أننى لم أكن أريد شيئا أكبر مما ينبغى أو أكثر مما أستحق . . وإننى لم أعط رأسى لأحد . . ولا مددت ذراعى لسلاح . . ولا أعطيت غيرى فرصة أن يجندنى فأشترك فى التآمر على الآخرين لأسباب شاذة . . إن ملايين الشباب كانوا مثلى ، ولا يزالون . .

ولكن الأقلية الخطرة ليست كذلك ، وواجبنا أن نعرف لماذا وكيف ومتى . . وحتى لا نعود إلى الدم والنار ، صحيح إنهم لم يقتلوا إلا واحدا . . ولكن واحدا ليس قليلا . . لأن هذا الواحد لم يكن إلا البداية !



سوق السلام .. سوق السلاح !

عندما ظهر الطيار الأمريكى الذى ألقى أول قنبلة ذرية فى التاريخ على شاشة التليفزيون . سئل عن شعوره وهو يدمر مدينة بها مائة ألف إنسان قال : كان شيئا رهيبا . ويومها كتبت فى مذكراتى : يا إلهى ما هذا الذى ارتكبت !

وردد العالم كله من ورائه : إن هذه جريمة . وإن ضمير الإنسان لن يقوى على ارتكاب مثلها مرة أخرى !

وهذا ما حدث فلم يعد الإنسان قادرا على ارتكاب جريمة إلقاء قنبلة ذرية « صغيرة » كهذه على مدينة كبيرة ، وإنما اتجهت الإنسانية إلى صناعة قنابل أكبر لتحقيق دمار أعظم ! !

ثم من الذى يدعو للسلام فى العالم ، وإلقاء السلاح وحقن الدماء ؟ إنها نفس الدول التى لديها أكبر سوق للسلاح : أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا .

وهى نفس الدول التى تعطى للعالم كله عقيدة جديدة هى : أنه لا سلام بغير سلاح وأنه لا نهاية للحروب إلا بمزيد من الحروب لأنه لا وسيلة لإلقاء السلاح إلا باستخدام السلاح !

وأن الحرب والاستعداد للحرب وضرورة القتال ليست شيئا خارجا عن إرادة الإنسان . . إنها شىء فى طبيعة الإنسان . فالحرب هنا فى داخلنا . . وليست هناك خارجنا . .

ولذلك كانت صعوبة القضاء على الحروب . .

لأنها فى طبيعة البشر . .

ولم تتغير طبيعة البشر منذ قتل قابيل هابيل . . ولم تعرف الإنسانية حربا واحدة واضحة الهدف إلا مرة واحدة : حرب طروادة فقد كان الرجال يحاربون من أجل إنقاذ امرأة !

أما بقية الحروب الأخرى فلا أحد يعرف لها هدفا واضحا أو شعارا مؤكدا . . وإنما عبارات الأصدقاء هى نفسها عبارات الأعداء . . وكل من المتحاربين يرى أنه على حق . . إنهم يستخدمون نفس الكلمات . . ويحرمون ما يحلله غيرهم : ويحللون ما يحرمه عدوهم . .

والدول التى عندها سلاح ليس عندها فلوس لهذا السبب ..

والدول التى عندها فلوس ليس عندها سلاح ، ولذلك تشتريه حتى لو لم يكن هناك هدف واضح لذلك . . وإنما السلاح هو استكمال للوجاهة الدولية . .

وقديما كان يقال : المدافع قبل الزبد . .

أى يجب أن تشترى المدافع قبل أن تشترى الرغيف والزبد . .

فالشعوب تجوع ولا تهزم . .

فإذا انتصرت عادت فأكلت الزبد مكافأة على أنها حملت السلاح ولكن المصيبة أن الذين يأكلون هم الذين لم يحاربوا – أو هذه إحدى مآسى الحروب . .

ومنذ الحرب العالمية الثانية نجد أن الدول التى تأكل الزبد هى الدول ليست لديها جيوش : ألمانيا واليابان . . فقد نهضت هاتان الدولتان أقوىَ من الدول التى انتصرت عليهما فى الحرب العالمية الثانية .

والجيوش تحتاج إلى مال ، نزيف مالى لا ينتهى ، لأن الأسلحة مثل موضات السيدات تتغير عاما بعد عام . . وكلما ظهر سلاح يجب أن يظهر سلاح آخر مضاد له . . وهكذا . .

وبذلك تظل الدولة تخطف الرغيف من أسنان أبنائها لتشترى المدافع ، وتخطف

الزبد لتشترى الدبابات . والسلاح يستدرج السلاح .

فإذا بدأت دولة فى شراء أسلحة فإنها لن تتوقف حتى لا تتحول الأسلحة فى يدها إلى حديد خردة . . لابد من تجديدها وتعديلها . . و « تعصيرها » « وتحديثها » - أى جعلها عصرية حديثة . . والتاريخ يقول لنا : إن الحيوانات التى انقرضت هى الحيوانات المدرعة . . التى كان جلدها درعا كالحديد تحتمى وراءه وفى نفس الوقت تختنق به تماما . كجنود العصور الوسطى الذين يرتدون البدل الحديدية . . إنها تحميهم ولكنها تخنقهم أيضا ولو وقع جندى على الأرض فإنه لا يقوى على النهوض . .

وكذلك انقرضت حيوانات الديناصور والماموث . . لماذا ؟ لأنها حيوانات مدرعة . . حيوانات مسلحة ضد أنياب ومخالب الحيوانات الأخرى ولكن هذه الحيوانات الضخمة ، لأنها ضخمة ، كانت أقل حرية . . لأنها عاجزة عن الحركة ، لذلك كانت دروعها سجنا أو قبرا لها . . فهى تواجه العالم بقوة ولكنها تواجه نفسها بضعف وعجز . .

وأذكر أننى كنت أقتنى سلحفاة صغيرة جدًّا واختفت وظللت أبحث عنها فى كل مكان فى البيت . . وأخيرا وجدتها ميتة فى واحد من أحذيتى . . فقد تسللت السلحفاة إلى حذائى الذى كان واقعا على جانبه . . ولما دخلته اعتدل الحذاء وانقلبت هى على ظهرها ولم تستطع أن تعتدل فماتت . .

وكذلك ماتت الحيوانات المدرعة . . وكذلك تموت الدول المدرعة التى اختارت أن تتحول إلى ترسانة للسلاح تنتظر الموت . . موتها وموت غيرها . . ماتت هذه الشعوب جوعا وخوفا . . وهى تعلن - صادقة أنها تريد السلام - ولكنه سلام يقوم على السلاح أى على الاستعداد للحرب . .

ويبدو أنه مكتوب على الشعوب أن تعيش محرومة من الاستفادة من كل دخلها أو خيراتها . .

وكما أن الفراعنة استنفدوا أموال الشعب المصرى وقدارته فى بناء الأهرامات فإن

كل شعب لابد أن تكون له أهرامات من نوع خاص فأمريكا وروسيا لها أهرامات ، هي صناعة سفن الفضاء التي أنفقوا عليها ألوف الملايين . . وبدلا من أن ينفقوا هذه الألوف على الشعوب التي تحتاج إلى الطعام وإلى العلاج ، فإنهم قد بددوا هذه الأموال : صواريخ فى الهواء .

وليست الجيوش والإعداد والاستعداد لها إلا : أهرامات جديدة تضيع عليها الألوف . .

وبذلك تجد الشعوب نفسها محرومة من كل الضروريات لأنها لابد أن تشترى السلاح دفاعا عن الذى تملكه من الأرض وعن الأمن والأمان والرخاء الذى تحلم به . .

كأنه مكتوب على البشرية أن تعيش فى خوف وأن تعيش فى جوع . . لأنها قررت أن تشترى المدافع بالزبد ، والطائرات بالرغيف والدبابات بالأمان ، والمستقبل البعيد بالحاضر القريب !

* * *

وأكبر دولتين تبيعان السلاح فى العالم هما : أمريكا وروسيا . .

وتتواجه الأسلحة السوفيتية والأسلحة الأمريكية فى كل مكان . . وإن كانت روسيا وأمريكا لا تتواجهان . أو تحرصان على ذلك . . حتى لا تتوقف تجارة السلاح . .

وقد أعلنت بريطانيا وفرنسا عن استعدادها لبيع السلاح للصومال . .

وبعد أن طردت السودان الخبراء السوفيت اتجهت إلى الدول الغربية لشراء السلاح . . وأعلنت أمريكا أنها سوف تساعدها فى ذلك .

والسودان تقع على حدود ليبيا فى الشمال وأثيوبيا فى الشرق . . وكلتا الدولتين : ترسانة للسلاح السوفيتى المتطور . . وكلتاهما تهددان أمن السودان . . وقد نسقت ليبيا مع أثيوبيا العدوان على السودان . .

وتشاد : تحتل ليبيا أرضها . وتشجع التمرد على الحكومة القائمة ، وتمد

العصابات بالسلاح وتشاد تعتمد حتى الآن على السلاح الفرنسى . . ولكن هذا السلاح الفرنسى لا يجىء بالقدر الكافى . ووعدت أمريكا بالمساعدة الفورية . .

* * *

وأكثر الزبائن إقبالا على سوق السلاح : دول الخليج . . لديهم المال الكثير . ولابد من استكمال السيادة بشراء السلاح واشتروا السلاح بكميات هائلة وبعمولات صارخة . .

وكثير من دول الخليج قد تكدس لديها السلاح ، ولم تستخدمه بعد . .

وبعضها تسلمت السلاح ولكنها غير قادرة على استيعابه .

ولكن هذا لم يوقف شحن السلاح المتطور إلى هذه المنطقة من العالم .

وكما أن الخوف الشديد يؤدى إلى الجرأة فإن تكدس السلاح يؤدى إلى التحرش أو افتعال الكراهية حتى يتحقق القتال . وقد حدث وسوف يتكرر كثيرا !

وبعض الدول الأوربية آثرت أن تخرج من سوق السلاح مثل اليابان وألمانيا . أما ألمانيا فإنها مشغولة بصناعة أسلحة لها . . أو صناعة مفاعلات نووية وبيعها فى أمريكا اللاتينية . . أو أنها تنفذ عقوداً لإيطاليا ، ولكنها لا تتعامل بالسلاح مباشرة .

ومن المؤكد أن بريطانيا وفرنسا سوف تتنزلان إلى بيع السلاح على أوسع نطاق . . إنها تجارة رابحة ، وضرورتها تتزايد وتتصاعد . . ولا يحق للدولتين العظميين أمريكا وروسيا أن تلوما أحدا ، لأن اللوم كله يقع عليهما . . ولا تجرؤ إحداهما على أن تمسك غصن الزيتون ، دون أن تخفى قطرات الدم التى تنزف منه فى كل مكان . .

وإسرائيل تبيع كل أنواع الأسلحة فى أى مكان : طائرات وإلكترونيات .

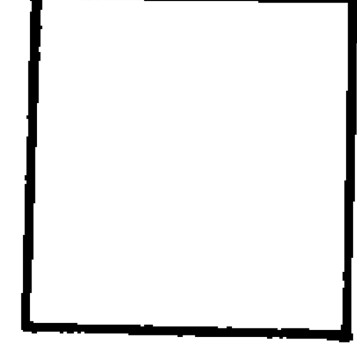
حتى الأرجنتين قد فتحت سوقا لنوع خاص من السلاح : طائرات الهليكوبتر الحربية . .

والدول التى لا تبيع السلاح تبيع الخبرات العسكرية . . أى تبعث بالمدربين والمهنيين والإداريين .

فإلى جانب الأسلحة ظهرت « الخبرة » كسلعة جديدة فى (سوق السلاح) الذى يضع النار والماء معا ، الذى يقوم بتربية الحمائم والصقور فى أقفاص متجاورة

إن الذى يدعو إلى نشر السلام يقضى عليه بالحقد ، والذى يبذر الكراهية يناشد العالم أن يبددها بالمحبة : إنه جنون نعم . . ولكن من هو العاقل ؟

هل هو الذى يبيع ؟ هل هو الذى يشترى ؟ إن أساطير الإغريق قد حدثتنا عن أن جميع الآلهة قد ماتوا . . إلا إلها واحدا مع الأسف - هو إله الحرب !



شياطين فى كل جنة

حتى الجنة من الممكن ان تكون فيها قطعة من جهنم – هكذا قالت التوراة والقرآن الكريم . .

فى الجنة كان آدم وحواء . . وكان شيطان . . ولذلك ولد العصيان . . التوراة تقول لنا : الشيطان أوحى إلى الثعبان . والثعبان أغرى حواء وحواء أغرت آدم أن يأكل من الشجرة المحرمة . . فكانت الخطيئة الأولى التى أنزلت آدم من السماء إلى الأرض . .

والقرآن الكريم يقول إن الشيطان أغرى آدم أن يأكل من الشجرة التى حرمها الله . وكانت هذه الخطيئة التى ملأت الأرض بملايين الناس . . فلم يكن معقولا ولا محترما أن يكون آدم وحواء زوجين فى الجنة . . يحدث بينهما ما يحدث بين الأزواج فى حضرة الله والملائكة . . ولذلك كان من الضرورى أن يهبطا إلى الأرض . . وأن يحدث بينهما على الأرض ما يحدث بين بقية الحيوانات الأخرى . .

حتى الجنة كان فيها شيطان . . والشيطان هو أحد أبناء جهنم . . فالجنة بها – إذن – قطعة من النار . .

هذه الجنة – بجميع المقاييس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هى ألمانيا الغربية فى الثلاثين عاما الماضية . . فما الذى جرى فيها !

إن أوروبا التى اتحدت على تحطيم ألمانيا شعبا وأرضا ومصانع واتفقت على إذلال

الألمان وعقابهم على جرائم هتلر وإبادة عشرات الملايين فى سنوات قليلة . لم تستطع أن تجعل ألمانيا خرابا . . ولا استطاعت أن تقضى على العبقرية الألمانية فى البناء والحرص على الإبداع فى كل شىء . . ولذلك ، ورغم كل محاولات الهوان والإذلال والانتقام ، نهضت ألمانيا حتى أصبحت أقوى وأغنى دولة فى أوروبا . . ومن المؤكد أنها هى واليابان . . أغنى دولتين فى العالم . .

وامتلأت الأسواق والمحلات بكل ما يتمناه مئات الملايين فى كل مكان فى العالم : وفرة فى السلع . وأهم من ذلك : أمن وأمان . . وأعظم من ذلك : آمال لا حدود لها فى حياة أروع وأعظم . .

ولكن هذه الجنة - ككل جنة - ظهر فيها العفاريت . وهؤلاء العفاريت على شكل أناس يرفضون الرخاء ويرفضون المصانع والشركات والمؤسسات ويتمردون على « الانضباط الجرمانى » الشهير . .

ولم تكن لهؤلاء المتمردين أية مطالب مادية . . فليسوا جياعا يطلبون الرغيف . فقد أبطلت ألمانيا تناول الرغيف من ثلاثين عاما . إنها تأكل أنواعا عظيمة من الكعك والفستق واللوز والشمبانيا والكافيار . .

وإنما هم فقط يريدون أن يحطموا الزجاج الشفاف فى أى موقع . . إنهم يريدون أن يكسروا الفرامل . . إنهم يريدون أن يلقوا الوحل على الوجه المشرق للمجتمع السعيد . .

وبدأت مظاهرات الطلبة سنة ١٩٦٠ . . وكانت مظاهرات الطلبة نوعا من الغضب . ولم يكن ذلك الغضب منظما . فهو غضب بلا برنامج ولذلك فهو سخط بلا مطالب .

* * *

ولم يكن لديهم إلا مطلب واحد هو : أن يعرف ملايين الألمان أنهم غير راضين . وأنهم ساخطون وأن الجنة قد ضاقت بهم . أو هم الذين ضاقوا بها . وأن هذا هو الخلاف الوحيد بينهم وبين أبيهم آدم وأمهم حواء . . فآدم وحواء قد

استدرجا إلى الخطيئة . أما هذا الجيل الألمانى الجديد ، فهو الذى أراد الخطيئة ورفض التكفير أو التوبة عنها . .

وعلى الرغم من أن ألمانيا قد شربت المر ألواناً وأشكالا وأحجاما من روسيا وأمريكا بسبب النازية ففيها الآن حزب نازى . . أو أحزاب نازية . . ودور النشر الألمانية تقدم للناس اعتذارات لهتلر وشركات السينما تقدم أفلاما تروى أمجاد هتلر وعظمة الشعب الألمانى . . وأنه لم يكن من العدل أن يقع الشعب الألمانى فى المصيدة التى نصبتها شركات السينما اليهودية الأمريكية : فيرى الألمان أنفسهم وحوشا ، و يرون هتلر مصاصا للدماء . . فهتلر لم يكن سوى قائد كبير انهزم . والويل للمغلوب -- عبارة قالها الألمان قبل ذلك أيضا ! .

ففى ألمانيا اتجاهات نازية . تطالب بالتخلص من الاحتلال الأمريكى ، وتواجه الإرهاب السوفيتى . . ووقف الشعب الألمانى من جديد على قدميه . فألمانيا قد عاقبها الحلفاء كثيرا وطويلا ، عاقبوا هذا الجيل على أخطاء أجيال سابقة !

وشياطين الجنة الألمانية قد أصبحوا عصابات فى سنة ١٩٧٠ تخطف وتسرق وتلقى القنابل وتطلق الرصاص أيضا .

وآخر جرائم هذه العصابات أن تهجمت عصابة على مدير بنك ألمانى فى بيته . وأطلقوا عليه الرصاص ، واهتزت ألمانيا كلها . لا لأن الرجل كان مديرا لأكبر البنوك الألمانية . إنما لأن الرجل قاوم هؤلاء الإرهابيين ورفض أن يستسلم لهم . فلقى مصرعه . .

لأنه هو أيضا قد رفض الإرهاب وحكم الإرهاب . وكان بذلك مثلا يجب أن يحتذيه كل الناس . . أن يرفضوا هؤلاء الرافضين .

ولسبب آخر اهتمت ألمانيا كلها : فقد كان من بين الذين هاجموا هذا الرجل فتاة . هذه الفتاة ابنة لأحد أصدقاء هذا الرجل . وكانت تحمل فى يدها باقة من الورد !

* * *

وهذه الفتاة ابنة رجل مليونير . ولما سئلت عن سبب ارتكابها لهذه الجريمة .
قالت : لقد مللت أكل الكافيار والديوك الرومية والشمبانيا !

إنها قد رفضت الجنة الألمانية !

ومن الغريب أن عددا كبيرا من الفتيات قد انضممن إلى هذه العصابات الألمانية . . ومن بينهن ابنة أحد القساوسة . .

وأشهر عصابة عرفتها ألمانيا كانت عصابة بادر –مينهوف . . أى الفتى بادر والفتاة مينهوف . أما هذا الفتى فلا يزال فى السجن . وأما الفتاة فقد وجدوها ميتة فى زنزانتها . . وقد حوكم جميع أفراد هذه العصابة . .

وظهرت عصابة أخرى من الذين كانوا يدافعون عن هذه العصابة من المحامين الشيوعيين . . هذه العصابة هى التى اغتالت المدعى العام فى أبريل الماضى . وقبل ذلك قتلت أحد القضاة . .

وقبل هذا خطفت أحد الساسة الألمان . . وهاجمت السفارة الألمانية فى استوكهلم . . وخطفت بعض رجال منظمة البترول العالمية . .

وهؤلاء جميعا من الشبان . .

وليسوا من المجرمين أو الذين اعتادوا الإجرام . ثم إنهم من المتعلمين . وأكثرهم من أبناء الطبقة الوسطى القادرة . أما الباقون فهم من أبناء الأغنياء . .

* * *

ولا وجه للمقارنة بين الذى حدث فى ألمانيا – جنة أوروبا – وبين ما حدث فى أمريكا أغنى وأقوى دولة فى العالم . فأمريكا بها أيضا ملايين الفقراء . وبها عشرون مليون زنجى . وبها ملايين من أبناء الشعوب الأخرى – الشعب الأمريكى نفسه خليط من كل الأجناس ، ولا يوجد أمريكى أصيل إلا الهنود الحمر !

ولكن حادثة واحدة وقعت فى أمريكا لها دلالة . وهى حادثة الآنسة باتى هيرست ابنة أحد أصحاب الصحف . هذه الفتاة خطفتها من بين أحضان عشيقها ، عصابة اسمها « عصابة التكافل » أو « التعايش » . وهذه العصابة ليست

لها أية أهداف إجرامية . وإنما هم جماعة يطالبون الأغنياء بأن يكون عندهم قليل من الدم . فيعطوا الفقراء فائضا من طعامهم وشرابهم . وبسرعة أقنعوا ابنة المليونير هيرست أن تكون معهم . وأرسلت إلى والدها تطلب إليه أن يعطى الفقراء والمساكين ، واشترطت العصابة لكى تطلق سراح هذه الفتاة أن يتصدق أبوها على الفقراء . . وراح الرجل يطعم الفقراء بما يعادل مليونى دولار . . فطلبت العصابة مزيدا من الطعام للفقراء فأنفق الرجل أربعة ملايين دولار أخرى . .

وبعد ذلك أعلنت العصابة أنها لن تطلق سراح الابنة ، لأنها لم تعد رهينة ولا محتجزة وإنما هى عضو عامل . وهذا صوتها . . وأرسلت الفتاة تسجيلا صوتيا للإذاعات الأمريكية تؤكد هذا المعنى .

ولم تكتف الفتاة بأن تنضم إلى العصابة إنما بأن تكون عضوا عاملا ، وشاركت فى السطو على أحد البنوك . واختارت العصابة بنكا به كاميرات تليفزيونية . . لكى تلتقط هذه الكاميرات صورة باتى هيرست وهى تطلق الرصاص . . وفى ذلك إعلان عن أنها عضو عامل . . ولم يكن الدافع للسطو على البنك : أن يحصلوا على المال . وإنما أن يحصل العالم كله على « صورة تليفزيونية » للفتاة باتى هيرست ابنة المليونير التى انضمت إلى جيش شعبى ضد أصحاب الملايين .

وتساقط أفراد هذه العصابة . . وسقطت ابنة المليونير أيضا !

أما فى ألمانيا فقد رأت الهيئات العلمية : أن الذى حدث شىء جديد على الحياة الألمانية . ولذلك : يجب تشديد القوانين الرادعة . حتى يكون هؤلاء الشبان عبرة لغيرهم من الناس وحتى لا يفسدوا هذا النعيم الذى يتمتع به ستون مليونا من الألمان . .

أما وزير العدل الألمانى فقد أعلن : أنه من الضرورى عزل هؤلاء الساخطين أخلاقيا وسياسيا !

أما وزير الداخلية فقد كان أصدق وأعمق فى فهمه للموقف ، ولذلك فقد طلب إلى الهيئات العلمية النفسية والاجتماعية والصحية أن تعاونه على فهم هذا الذى

حدث . وأن تقدم له تفسيرا علميا وتشخيصا نفسيًّا اجتماعيا حتى يواجه « هذه الظاهرة الغريبة عن الصبغة الألمانية فى الانضباط التقليدى » .

* * *

. . فحتى الجنة التى كانت فى السماء والجنة التى هى فى الأرض لابد أن تظهر فيها قطعة من جهنم : شيطان أو قرصان . . أو رصاص أو مدافع . هذا طبيعى .

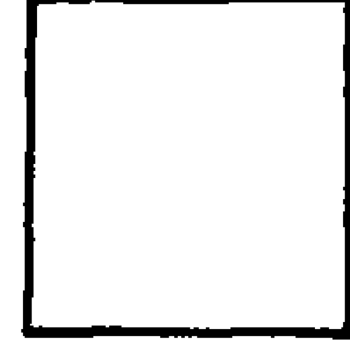
ولذلك يجب أن ننظر إلى مثل هذه العصابات وإلى الصور المختلفة للغضب أو السخط أو التمرد بالعقل . . أن نواجهها . . أن نتروى فى فهمها . . وألا ننفعل . . وأن تكون لنا أعصاب الجراحين فلا يبكون وهم يرون الدم ، ولا يتوجعون لأوجاع المريض . . ولا يلعنون المرض ولا يهتفون بسقوط الألم . .

فليس علاجا أن نلعن المرض ، وليس شفاء أن نهتف بسقوطه . . ولكن نصف العلاج أن نفهم الداء – إن كان داء . .

* * *

والنصف الآخر أن نقبل عليه بعقل وهدوء ونحاول أن نفهم ، لكى يفهم الآخرون . وحتى لا يقع ما وقع مرة أخرى وبصورة أعنف . .

إن هذه كلمة مخلصة هادئة – فقد جاءت بعد النظر إلى ما يحدث فى مجتمعات أخرى أفضل وأقوى وأغنى . فما بالنا إذا حدث ذلك فى مجتمعات أكثر فقرا وأشد تمزقا وأعمق حيرة مثل مجتمعنا .



النار على الحدود
لعبة كل العصور

رأيت فيلما قديما عن مشكلة تريستا بين إيطاليا ويوغوسلافيا . وكانت الدول الكبرى قد قسمت المدينة بين الدولتين ووضعت على الأرض علامات بيضاء ، كعلامات المرور . . ولكن الناس يقومون بحياتهم العادية دون أن يشعروا بهذه الحدود المرسومة على الأرض . .

ولكن الذى لفت عيوننا إلى هذه الحدود : مجموعة من الأطفال الصغار . اختلفوا . تشاجروا . جاء رجال الأمن ، وأعادوا كل مجموعة إلى مكانها من المدينة . . كنا نرى الأطفال وهم يقفزون من فوق العلامات البيضاء . . كأنها علامات شائكة أو كأنها جدران عالية . . مع أنها بقع على سطح الأرض . .

ومعنى ذلك أن الحدود والفواصل قد انتقلت من سطح الأرض إلى ما تحت الجلد . .

فأصبحت حدودا نفسية أو أصبحت علامات شائكة . . تفصل بين الأطفال وهم يلعبون ، أو بين آبائهم عندما يتشاجرون . . أو عندما تسيل عليها الدماء . .

ومشكلة الحدود بين الشعوب ومشكلة الحدود بين الأشخاص قديمة . فعمرها هو عمر الحرية والملكية الخاصة . عندما تقول هذا لى . . وهذا لك . . أى هذه حدودى ، وتلك حدودك . . وعندما تنتهى حدودى تبدأ حدودك . . والقانون هو تنظيم لهذه الحدود . والقانون هو الحق الذى تسانده القوة .

ومنذ كانت هناك قوة كان هناك اعتداء على حدود الآخرين . . أو على حق الآخرين . . وإذا ما وقع العدوان نوقشت قضية « الحدود » بين الناس . . أو بين الدول أو بين الشعوب .

وكانت الصورة الساذجة للحدود والأمن فى العصور القديمة عندما تحاط المدينة أو الدولة بسور عظيم . . ووراء هذا السور . وفوقه توجد القوى التى تحمى الشعب . . وكانت القوات المعادية تقف أمام الأسوار وتحاول أن تحطمها . . وذلك بأن ترميها بالحجارة أو تلقى عليها مشاعل الغاز . . أو تضع عليها السلالم وتحاول الهبوط إلى الناحية الأخرى . .

ووراء هذه الأسوار كان الأغنياء – أى الأقوياء أيضا – يحيطون قصورهم أو قلاعهم بالمياه . . وكانوا يمدون على الحياة جسورا . فإذا جاء اللين ، أو حدث عدوان ، أو حتى لا يقع عدوان ، فإنهم يرفعون هذه الجسور . . وبذلك يصبح القصر أو القلعة جزيرة وسط بحر من الماء ، أى من الأمان !

كان ذلك فيما مضى . .

وأصبحت هناك حدود لونية . . السود والبيض والصفر . . وحدود لغوية . .

ثم مع قيام الدول المستقلة الحديثة ، والمتمردة على التبعية وعلى الكتل السياسية والاقتصادية تغيرت الحدود وتعدلت وتبدلت . . والتوت واعتدلت . وتاهت فى الغابات وفى الصحارى وفى المياه . .

وكان لابد من إعادة رسم الحدود . وإعادة تثبيتها أو الاتفاق أو المساومة على ذلك . . ؟

وذلك تاريخ طويل جداً . . هذا التاريخ الطويل للحدود التى تلتوى ويبتلع بعضها البعض ، سوف يعاد من جديد فى أفريقيا . .

فاللعبة الجديدة فى أفريقيا هى الحدود . . التى تتحول إلى أنواع من الأفاعى أو أصابع الديناميت . . وعلى الحدود تقف الدول الكبرى ، أو الدولتان العظميان تلعبان بالنار . . أى بأسعار النار ، إنهما تبيعان أحدث أنواع النيران للشعوب

النامية . . ومن وراء روسيا وأمريكا تقف بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تبيع النار . . وفى نفس الوقت تقوم كل هذه الدول بدور رجال المطافئ ! !

وكانت الأسوار حدودا آمنة . .

وكانت الموانع المائية حدودا آمنة . . ولكن بعد أن ابتدع الإنسان المدافع سقطت الأسوار . . وبعد أن اخترع الطائرات والقنابل سقطت القلاع والتحصينات أيضا . .

ولما ظهرت الصواريخ لم تعد هناك حدود آمنة . . إن حرب أكتوبر قد أسقطت الحدود الآمنة . . فلم تكن قناة السويس مانعا مستحيلا . ولا السواتر الرملية ولا خط بارليف .

فقد اجتازتها جميعا الصواريخ والطائرات والدبابات . . وظهرت حدود عائمة : هذه الحدود العائمة هى حاملات الطائرات الأمريكية والروسية . إنها قطع من أمريكا وروسيا ، أو هى حدود الدولتين تسبحان بالنار فوق الماء . وبالقرب من الشواطئ . .

وبذلك لم تعد هناك حدود أيا كانت فى مأمن من ضربها والعدوان عليها لأى سبب !

وإذا نظرنا إلى مشاكلنا مع إسرائيل ، أو حتى مشاكل الدول العربية بعضها مع بعض لوجدنا أن الحدود عائمة مائعة . .

إن إسرائيل وحدها لم تنشر خريطة رسمية بعد ، فمازال فى داخلها مجانين يطالبون بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات . .

وإسرائيل ودول المواجهة ، لم تتفق على حدود أو اتفقنا . ولم تحصل على الحدود بعد . . وبين الدول العربية ذاتها مشاكل حدود . . بين دول الخليج وكذلك بين دول المغرب . . وبين السودان وجيرانها . . وبين أثيوبيا والصومال وبين دول أفريقيا الاستوائية . .

ولم يكن سهلا فى التاريخ أن تكون هناك أكثر من فيتنام وأكثر من كوريا وأكثر

من ألمانيا وأكثر من هند وباكستان وبنجلاديش . وأكثر من أيرلندا وأكثر من يمن . . !

إن هذه اللعبة القديمة قدم الطغيان والظلم ، سوف تتجدد بكل أشكالها القديمة ، وبأحدث الأسلحة وأغلى الأسعار . فى قارتنا أفريقيا . . وفى الشرق الأوسط حول قناة السويس وحول آبار البترول !

* * *

لو أن أحدا ركب طائرة وتفرج على معاركنا مع اليهود لوجد هذه الصورة التى لم تتغير فى حروب ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، و٧٣ وأية حرب قادمة – والعياذ بالله – عدداً قليلاً جدًّا من المشاة اليهود وعدداً كثيراً من الدبابات والمصفحات . . وعدداً كثيراً جدًّا من المشاة المصريين وعدداً أقل من الدبابات والمصفحات . .

ومعنى ذلك : أننا نحمى أسلحتنا لأنها قليلة ، وهم يحمون رجالهم لأن أسلحتهم كثيرة . ورغم كثرة الأسلحة الإسرائيلية فإن ضحاياهم فى حرب أكتوبر يساوى ضحاياهم فى حرب ٥٦ و٦٧ . . أو بعبارة أخرى : إن نسبة ضحايا اليهود فى حرب ٧٣ تعادل نسبة ضحايا الأمريكان فى الحرب العالمية الثانية . . فاليهود قد خسروا ثلاثة آلاف جندى وعشرة آلاف جريح من شعب عدده ثلاثة ملايين إلا قليلا (الأمريكان ٢٢٠ مليونا) . .

ولم تنته مشاكل إسرائيل السياسية والاجتماعية والعسكرية والدينية بسبب مصائب حرب أكتوبر . ولكن اليهود حاولوا إصلاح الخلل النفسى والعسكرى بسرعة . وحاولوا تعويض النقص وحاولوا تغيير الكثير من عقيدتهم العسكرية ليواجهوا الجيش المصرى فى أية حرب قادمة . .

وفى نفس الوقت فإن الجيش المصرى يرفع كفايته القتالية . ويواصل تدريبه المستمر وينوع ماركات الأسلحة ويستكمل النقص فى قطع الغيار السوفيتية . وذلك بابتداع أشكال جديدة ، والاستعانة بالدول الغربية . . وتصنيع السلاح أيضا . .

ولابد من الاستعداد للقتال لكى نصبح قادرين على تحقيق السلام . . أو لكى

نصبح قادرين على أن نوالى البحث أو التفاوض من أجل السلام . وفى نفس الوقت نمشى فى إصلاح خلل الخدمات ونوالى البناء والتعليم والتعمير والعلاج وفرض العدل بالقوة وتأمين الحرية – وكلها معارك . وإن لم تكن فيها دماء . . فهى معارك عصبية عنيفة !

وبعد حرب أكتوبر مباشرة كلفت إسرائيل قاضى القضاة سيمون أجرانات بتشكيل لجنة لبحث حقيقة ما جرى فى حرب أكتوبر . واستدعت اللجنة كل القيادات . وحققت معهم . وانتهت اللجنة إلى تشخيص وإلى علاج . وجاء التشخيص والتوصية بالعلاج فى أكثر من ألف صفحة . نشرت إسرائيل ملخصا لها فى سنة ١٩٧٤ . ولم يوزع تقرير لجنة أجرانات كاملا إلا على أربعين شخصا من القيادات السياسية والعسكرية والدينية . أما ملخص هذا التقرير فقد تم توزيعه على جميع ضباط الجيش الاسرائيلى حتى رتبة النقيب .

وأهم المشاكل التى عرض لها التقرير أربع :

الأولى : أخطاء المخابرات .

الثانية : أخطاء عدم الانضباط

الثالثة : أخطاء التعبئة العامة .

الرابعة : أخطاء تسلسل القيادة .

المشكلة الأولى :

إن المخابرات الإسرائيلية لم تفلح فى معرفة أن المصريين يستعدون للقتال حقا . وربما كان الخبر الوحيد الذى يدل على ذلك هو الذى تلقته رئيسة الوزراء جولدا مائير وهى تبكى ، وكان قبل بدء القتال بتسع ساعات . وأول أخطاء المخابرات الإسرائيلية أخطاء مدرسية . أى أن المخابرات كانت جامدة تمشى على قواعد ثابتة . من بينها أن المصريين تمزقوا وانهاروا واستسلموا للهزيمة . وأنهم لن يحاربوا . هذه غلطة فظيعة . ومن الأخطاء أن « قنوات المعلومات » كانت محدودة .

وأوصت اللجنة بتعديل فلسفة المخابرات الإسرائيلية . وقد فصلت المخابرات كل قياداتها . ثم عدلت عن « تجميد » قنوات المعلومات ونوعت مصادر المعلومات بحيث يصبح كل إسرائيلى قادرا على أن يدق جرس الخطر – أى يجب أن يكون كل مواطن عاملا فى المخابرات لصالح إسرائيل . فلا يصح أن تستهين المخابرات بأية معلومات من أى مصدر . .

وقد لجأت إسرائيل إلى شراء محطات إنذار مبكر محمولة جوا بطائرات هوكى . وذلك لجمع المعلومات أولا بأول وبصورة شاملة وسريعة . .

المشكلة الثانية

الانضباط العسكرى ، فقد هاجمت اللجنة بشدة هذه العلاقات الملتهبة بين القيادات . وبين العسكريين والمدنيين . وبين المحترفين والمتطوعين . وقد رصدت اللجنة وبالتفصيل عددا من الأخطاء الفنية الخطيرة بسبب هذه الحساسية بين القادة . وبسبب عدم الانضباط العسكرى . وبسبب التراخى عند المدنيين . .

ولذلك أوصت لجنة « أجرانات » بضرورة الضبط والحسم والحزم أيضا . . وإن كانت اللجنة ترى أن الانضباط بهذه الصورة المثالية صعب فى مجتمع ينادى بالمساواة المطلقة بين الجميع . . أو فى مجتمع يشوبه التعصب بسبب تعدد الأحزاب السياسية والدينية . وبسبب التمييز العنصرى . .

ولذلك ترى اللجنة أن مشكلة الانضباط هذه سوف تبقى مشكلة المشاكل إلى وقت طويل !

المشكلة الثالثة

فقد لاحظت اللجنة أن إعلان التعبئة العامة فى حرب أكتوبر ٧٣ قد استغرق وقتا أطول من المقرر . مما أحدث ارتباكا وأعطى للمصريين والسوريين فرصة الضربة الأولى والمباغتة وإحداث خسائر فادحة فى القوات اليهودية .

وقد لاحظت اللجنة أن عددا كبيرا من قوات الاحتياط قد شكوا من نقص المعدات التى سلمت لهم فى الساعات الأولى . . وشكو أيضا من بطء توزيع هذه المعدات وتناثرها وعدم ترابطها . . كما شكوا من أن الصيانة لم تكن على المستوى المطلوب . . مما جعل الانتشار صعبا فى الساعات الأولى . .

ولكن أجريت تجارب عديدة على التعبئة العامة . وسجلت إسرائيل أنها تستطيع التعبئة العامة فى ٣٦ ساعة . .

المشكلة الرابعة

وهى مشكلة المشاكل فى جيوش كثيرة ، ولكنها تصبح مميتة فى جيش صغير كالجيش الإسرائيلى . . وهى مشكلة القيادة . . فمن الملاحظ فى كل الجيوش أن الضباط العظام ابتداء من رتبة عقيد فما فوقها ينفذون الأوامر الصادرة إليهم لاعتبارات شخصية . . فالضباط العظام يعرفون بعضهم البعض . وقريبون من بعضهم البعض . . وربما كان هذا القرب فى الدرجات هو الذى يجعلهم عادة لا ينفذون الأوامر التى تصدر إليهم فور صدورها ، أو على النحو المطلوب . حدث ذلك فى حروب كثيرة . وحدث هذا أيضا فى حرب ٧٣ . .

وقد ضربت لجنة أجرانات مثلا بالقائد أريك شارون الذى صدرت إليه أوامر من رئيسه اللواء شموئيل جونين . كان من الواجب أن يطيع الأوامر . وإن كانت اللجنة ترى أن جونين هذا لا يصلح أن يكون قائدا لسيناء . . وأما من ناحية المبدأ : فالطاعة واجبة !

ولكن بين الضباط العظام توجد حساسية دائما وفى كل الجيوش . فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعضهم قد تحول إلى نجم صحفى أو تليفزيونى . وجدنا جنون النجوم قد انتقل إلى ضباط آخرين . . ودخلت إسرائيل فى معركة الجنرالات أو معركة من هو بطل حرب أكتوبر ٧٣ بعد أن سقط بطل حرب يونيو ٦٧ : موسى ديان . . إلى الأبد !

إن دماء حرب أكتوبر قد جفت . . ولكن أوجاعها لم تسكن بعد . . وهذه المحاولات المتصلة من أجل السلام ، يجب أن تظل أكثر أمنا واستمرارا فى ظل السلاح . . أى فى ظل التخويف بالحرب . . أو الحرب !

أجهزة لا تمنع الحرب !

وعلى جانبى الممرين متلا (١٨ ميلا) والجدى (١٥ ميلا) توجد محطات الإنذار المبكر بين مصر وإسرائيل . .

وهذا النوع من المحطات قد استخدمه الأمريكان فى جنوب شرقى آسيا . هذه المحطات لا تمنع الحرب . وإنما فقط تنبه إلى احتمال وقوعها . . أو تنبه إلى أن هجوما مفاجئا يوشك أن يقع .

وربما كان أحد الاعتبارات التى تخيف الطرفين حتى لا تشتعل الحرب : وجود عدد كبير من المدنيين الأمريكان وقوات الطوارئ الدولية . . إن هذه الأرواح أخطر من العبث بها أو إبادتها !

وإذا كانت الشقة بين القوات السورية والقوات اليهودية ضيقة ، فإنها ليست كذلك فى سيناء . . فالمسافة واسعة . . ولذلك انتشرت أجهزة كثيرة للاستشعار عن بعد ، وهذه الأجهزة تقع تحت الرمال بعشرين سنتيمترا ، وهى قادرة على رصد أية هزة لسيارة تبعد ألف متر ، أو تنقل صوت أقدام أى إنسان إذا كان يبعد عنها ٧٠٠ متر . . فإذا سجلت هذا الصوت نقلته إلى محطات الإنذار المبكر فقامت أجهزة أخرى بمسح المكان وتصويره بمنتهى الوضوح ، ليلا أو نهارا ، وبعد واحد على ألف من الثانية من حدوث هذا الصوت .

وفى الأيام الأولى لمحطات الإنذار المبكر حدث كثير من الرعب لكل الخبراء ولقوات الطوارئ ، وكان السبب : الإبل الضالة والأغنام فى الصحراء !

أما محطة الإنذار نفسها فعبارة عن غرفتين لا تلفتان النظر ، وكل واحدة من الأسمنت المسلح تزن ٢٥ طنا وإحداهما عنابر للنوم والأكل والشرب ، وهما جميعا

على اتصال بجميع أجهزة الاستشعار والإنذار والتصوير التليفزيونى والعدسات التى تستطيع أن تحصى عدد البنادق الملقاة على الأرض أو التى يحملها جنود على مساحة ١٨ ميلا . .

ويعمل فى كل محطة ٢٥ موظفا من وزارة الخارجية الأمريكية و١٤٢ خبيرا مدنيا (من بينهم عشر سيدات) وكل واحد يتقاضى ١٧ ألف دولار سنويا وبعقد لمدة ١٨ شهرا . وهو لا ينفق من هذا المبلغ مليما واحدا لأنه يأكل ويشرب مجانا !

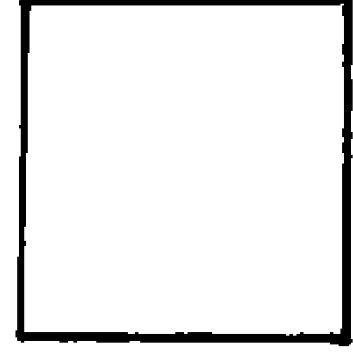
والمحطة الواحدة تكلفت ٣٠ مليونا من الدولارات بينما إدارتها وصيانتها تتكلف ١٥ مليون دولار سنويا .

فإذا حدث شىء ما ، ورصدته الأجهزة فإنها تنقله إلى مندوب وزارة الخارجية الذى ينقله فورا إلى مكتب الأمم المتحدة فى الإسماعيلية ، وإلى وزارة الدفاع المصرية فى القاهرة ووزارة الدفاع الإسرائيلية فى تل أبيب ، مع تحليل كامل لهذا كله .

ولكن الأجهزة لا تمنع وقوع الحرب . وإنما فقط تنبه إلى احتمال شىء من ذلك . . حتى لا يفاجأ الطرفان ، ولكن فى استطاعة كل من الطرفين رصد حركات الطرف الآخر وتصويره جوا . . وهناك أجهزة أخرى كثيرة للإنذار المبكر محمولة جوا عندنا وعندهم . .

ورغم كل هذه الاحتياطات – أى هذه المخاوف المحسوبة – فإن اللعب بالنار على الحدود وعبرها ، هو لعبة كل يوم .

فما يزال السلاح الحديث جدًّا يتكدس ، وما تزال المليارات من الدولارات تتدافع على خزائن الدول الكبرى والدولتين العظميين وسماسرة سوق السلاح ، كل ذلك باسم السلام القائم على العدل فى الشرق والغرب ؟ ! .



حتى لا نعود إلى ٥ يونيو وما بعده !

لا أنت ولا أنا ولدنا أمس . .

ولا مطبات الشوارع وأسلاك التليفون ومواسير المياه ومطار القاهرة وسلالم الترام وسقف القطار . .

فكل ذلك مثل نكسة يونيو وانتصارات أكتوبر قد ولدت قبل ذلك بسنوات . .

وكانت ولادتها عسرة . .

وغضبك أيضاً على ما أصابنا ليس إلا مولوداً له شهادة ميلاد قديمة .

فكل هذا العناء النفسى والضيق الاقتصادى واليأس قد سبقنا أو عاش معنا وسوف يعيش بعدنا . هذه هى حال الدنيا وهذه هى شريعة الحرب . ولقد تعذبت كل الشعوب بعد حروبها وشربت المر . وابتلعت الهوان . وصبرت حتى وقفت تبنى من جديد . .

ولكن البناء صعب . والهدم سهل . فأنت لست فى حاجة إلا أن تكون حيواناً لكى تهدم . وأنت فى حاجة إلى أن تكون إنساناً لكى تبنى .

والتعب والحزن والمرارة واليأس كلها تجعل الإنسان حيواناً بليداً . لا يعرف إلا الهدم والبكاء عليه ويدير ظهره للمستقبل !

وكثير من الناس فى حالة من الغضب . . وفى حالة من السخط ، ومعهم حق

إذا ضاقوا بالدنيا .

ولكن تعالوا نحسبها معاً ! ولابد أن نكون معا . فلم ينفرد أحد بأى شيء ولن ينفرد . .

وإنما نحن جميعا شركاء القدر ، ورفقاء المصير . .

فقد احتاجت مصر ، ولا تزال ، إلى السلاح . لأننا فى حالة حرب . وسوف نظل طويلا . .

وموارد مصر محدودة . وبهذه الموارد المحدودة اشترينا ذخيرة غير محدودة . وكان من الضرورى أن نمسك أيدينا وبطوننا ولكننا لم نفعل ذلك . . وكان لابد أن ننفق الكثير على السلاح وعلى الطعام وعلى البناء أيضاً . وتكاثرت الفلوس فى البلاد التى حولنا ، إلا فى أيدينا . .

وانسدت قناة السويس وكل قنوات الرزق عندنا ، وليس كذلك فى بلاد حولنا .

واتجهنا إلى تجار السلاح ، فلا حرب بغير سلاح . . واشترينا من التاجر الروسى . وفوجئنا بأن التاجر الروسى يبيع بشروطه ، فهو يعطينا السلاح ويحتفظ بسر استخدامه ، أو يعطينا صندوق البارود ، ويضع المفتاح فى جيبه – وهى نكتة شعبية قديمة أبكتنا كثيرا .

واتجهنا بملايين الدولارات إلى تجار سلاح آخرين . . وفى جميع الأحوال نخطف الرغيف من أفواه الناس . والمقاعد من تحتهم . ولا حيلة لنا فى ذلك .

وكل ما نعمله اليوم هو أن نلجأ إلى السياسة والدبلوماسية تخففاً من تكاليف الحرب .

أى أنه لابد أن نبحث عن السلام فى ظل الحرب والاستعداد لها والخوف من وقوعها فى أية لحظة .

ولا شيء يسعدنا أكثر من أن نشترى الرغيف بدلا من المدفع ، والأتوبيس بدلا من الدبابة . ونبنى المستشفى والمدرسة والمطار ونرصف الطريق بدلا من الصواريخ

والغواصات . وأن نتجه إلى المستقبل بعد أن أغرقنا الماضى فى ويلاته وعذابه وهوانه .

كلنا نتمنى ذلك . .

ولكن ما أبعد المسافة بين الذى نتمناه وبين الذى نقدر عليه . . ما أبعد المسافة بين أحلامنا وبين الواقع العسكرى والسياسى والاقتصادى فى المنطقة وفى العالم . .

فكل متاعبنا لها تاريخ قديم . . ونحن ورثة الألم والضيق .

ولو كان الفقر رجلا لقتلته – قالها على بن أبى طالب ولكنه لم يستطع ولن يستطيع أحد أن يقتل الفقر . لأن الفقر ليس رجلا واحدا ، وإنما هو ملايين الرجال الفقراء ، ولو قتلنا ملايين الفقراء ، لكانت هذه الجريمة فقرا فى السياسة وإفلاسا فى الحكمة والحكم !

* * *

وكما يقاتل كل العسكريين ، فيجب أن يتحمل كل المدنيين ، وأن نفرض العمل على أنفسنا . كما فرضنا القتال على العسكريين ، وفرضنا عليهم الموت أيضا .

هنا فقط نكون جيشاً واحدا ، من أجل تخليص مصر من ويلات الظلم والفقر ورواسب الماضى . توجها إلى المستقبل . .

ونحن نجد العذر للشباب الذين لا يجدون كل ما يريدون . فنحن أيضا لم نجد كل ما نريد . ومن الصعب أن يجد أحد كل ما يريد ، ومن الصعب أن يتحقق لجيل واحد كل ما يريد . . وإنما سوف يتحقق ذلك للأجيال القادمة .

أى لابد أن يضحى الأب من أجل راحة ابنه . . ثم يشقى هذا الابن من أجل أجيال تالية ، وإلى غير نهاية . .

إن الذى حققناه فى أكتوبر لمصر وللأمة العربية شىء كثير . ولكن الحرب لم تخمد . والشقاء لن يتوقف . والعذاب لن ينتهى . فهذا قدر ، وهذه طبيعة أحداث التاريخ . .

وكما أن ٥ يونيو لم يعلن وفاتنا إلى الأبد ، فإن ٦ أكتوبر ليس قضاء على كل

شقاء مصر وتعاستها . . فليس هذا إلا يوما من عام . وإلا قفزة فى طريق طويل شاق . .

ولكن يجب ألا نفقد الأمل ، ويجب ألا نكف عن العمل ، فقد كان ٦ أكتوبر دليلا على الذى يصنعه الأمل والإصرار على الحياة والكرامة معاً . أو على الحياة الكريمة أو الكرامة الحية . .

وليست معارك السلام أقل من معارك الحرب . . فإن قتال العدو كان شاقاً ، ولا يزال . ولكن قتال النفس ، أى عيوبنا وفسادنا . أقسى وأعنف وأطول . .

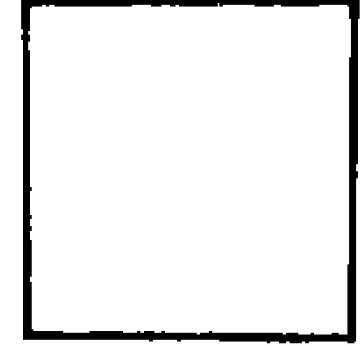
وكما أنه ليس صحيحا ما قلناه يوم ٥ يونيو وما بعده من أن مصر قد انتهت وأننا أيضا . فكذلك ليس صحيحا أن يقال الآن نفس الشيء . . فنحن اليوم نستعجل الرخاء . . وليس سهلا ما نتمناه دون عمل . .

إن ٦ أكتوبر هو أروع نتيجة لعمل شاق وتخطيط عنيف وإصرار من حديد . وأمل فى النصر وإيمان بالله . .

إن معركتنا مع مصر نفسها ، يجب أن يكون لها نفس التعبئة العامة ، وأن تكون جادة ، وأن نتساوى فيها فينال كل واحد نصيبه من التعب والراحة ، والتضحية . .

وإلا فسوف نضاعف ويلات الناس . . ونعود إلى ما كنا عليه بعد النكسة من أنه لا أمل عند أحد أو فى أحد أو فى شيء . !

يجب ألا ننسى أن ٦ أكتوبر قد صنعه مواطنون مثلنا ، ولكن أكثر جدية وتضحية ! .



أخطاء تشخيص وعلاج جماعة التكفير

جماعة التكفير حكموا بإعدامى . . وشرفونى بأن وضعونى فى أول القائمة . هذا لا يهم . لأنها حلقة من سلسلة جهلهم وأخطائهم فى فهم أشياء كثيرة فى هذه الدنيا . .

فهل سبب ذلك يا ترى أنى كنت من الإخوان المسلمين ، أؤم الناس وأخطب فيهم . كل سنوات الدراسة الجامعية ؟ هل لأنى حججت إلى بيت الله ثلاث مرات ؟ هل لأنى اعتمرت عشرين مرة ؟ هل لأنى صليت فى داخل الكعبة إحدى عشرة مرة ؟ هل لأنى رأيت الرسول ﷺ فى منامى مرتين ، وهذا يحسدنى عليه أكثر الناس إيمانا وتصوفاً ؟

هل لأنى أصدرت كتاباً عنوانه « طلع البدر علينا » ورويت فيه تجربتى مع الإيمان والإلحاد . . وكيف إننى كنت مدرساً للفلسفة فى الجامعة وكنت أشرح لتلامذتى تاريخ الإلحاد فى الإسلام والديانات الأخرى ، ثم إننى اهتديت معهم إلى الله ؟

هل لأنى كنت أول من تسلق الطريق صاعداً إلى غار حراء ونازلاً منه ، نفس الطريق الذى صعده الرسول عليه الصلاة والسلام . وكتبت تجربتى ونشرت صوراً لها لأول مرة فى مصر؟

هل لأنى أصدرت كتاباً بعنوان « ديانات أخرى » لأربعين دينا معاصراً –

ووضعت الإسلام تاجاً على رأسها وقمة ما بعدها شيء أكمل وأعظم ؟

ربما ذلك أو غيره .

ولكنى أرى – وهذا واجبى كمفكر أو كمصرى وطنى – أن قضية التكفير هذه لم تعالجها الأقلام علاجاً صحيحاً . وليس هذا الذى أقوله وأتمسك به إلا دفاعاً عن مصر وشباب مصر والمفكرين والعلماء المصريين .

إن هذه ظاهرة حدثت قبل ذلك فى أوقات مختلفة ولأسباب متنوعة . وقد نشرت أنا عدة مقالات فى (مجلة أكتوبر) نقلت بعضها الصحف العربية . وفى مصر نقلت بعضها مجلة (الدعوة) الإسلامية – وكان رأيى أن أسلوبنا فى علاج هذه القضية لم يكن صحيحاً ولا لائقاً بهذا البلد العظيم بجامعاته ومعاهده وعلمائه وملايينه الأربعين ، وطبيعة الإناء الذى يغلى ويتقلب فيه الناس من الضيق الاقتصادى والإحباط النفسى . وهذا طبيعى فى كل الدنيا فى أعقاب الحروب وقبلها . ونحن بالضبط فى أعقاب حروب أليمة ، ومازلنا فى حالة حرب وخوف منها واستعداد لها . . وهذا يكلفنا الكثير مادياً ومعنوياً . ولا شيء يخفف عنا ويلات ما نعانيه . إلا أن تنتهى الحرب ونعيش « بعد » الحرب – لأننا لم نضع السلاح بعد ؟

إننا عالجنا هذه القضية علاجاً بوليسيا . وهذه غلطة !

فنحن لسنا أمام جماعة من النشالين أو اللصوص . إنها جماعة من المنحرفين دينياً أو فكريًّا أو عائليًّا . وهذا الانحراف ، لابد من فهمه وشرحه وتقويمه ، ولا يكون ذلك إلا بالمناقشة والحوار والإقناع . وهذا ما لم نفعله ؟ !

وأريدك أن تتصور شيئاً مضحكا لو فعله وزير الصحة فى مواجهة وباء الكوليرا : حين يعتقل كل مصاب ويضعه فى السجن – هل ترى هذا علاجاً للأوبئة ؟ !

إنه إجراء بوليسى ، وليس علاجاً ولا وقاية طبية !

وأريدك أن تتصور شيئاً آخر : أن وزير الصحة يعالج جماعة التكفير بأن يحقنهم بالمضادات الحيوية – هل هذا علاج للخلل الاجتماعى والفكرى أو السلوكى عند

هذه الجماعة أو غيرها من المتهوسين دينيًّا ، بين المسلمين أو عند الأقباط ؟ !

ولكن العلاج يجب أن يكون من جنس المرض . . فلا وزير الداخلية وحده ، ولا وزير الصحة وحده ، ولا شيخ الأزهر وحده ، هو الطبيب الذى نبادر باستشارته . لأن « المرض » يدخل فى اختصاصات أناس آخرين .

ثم يجب ألا نجد حرجاً مطلقاً فى أن نقول لأنفسنا إننا فى ضائقة . هذا صحيح . وأننا مرهقون وأننا معذبون .

ويجب ألا نتحرج إذا قلنا إن الشبان هم ترمومترات حساسة لما يجرى فى البيت وفى الشارع والنادى والمعهد . وإنهم لذلك يعبرون بصدق ولكن بعنف — وهذا العنف سببه أنهم شباب ، وأنهم بلا تجارب ، وأنهم يتعجلون الهدف . وهذه طبيعة الشباب وقد كنا جميعاً شباباً .

والشباب فى حد ذاته ليس ميزة ينفرد بها أحد . وإنما هو مرحلة من مراحل العمر . . سوف يبلغها الطفل ويتجاوزها الشيخ . كما أن الشيخوخة ليست عيباً ، وإنما هى أيضاً محطة النهاية التى سوف يبلغها الشباب . .

فهل سمعنا عن ندوة واحدة ؟

هل سمعنا عن مناقشة مفتوحة ؟

هل صدر كتاب واحد يروى للشباب ماذا حدث فى أوروبا سنة ١٩٦٨ عندما ثار الشباب فى فرنسا وفى كل الدول الأوروبية لأسباب مختلفة . ثم هدأ كل شىء بعد ذلك .

فلماذا هدأ كل شىء ؟

لأن مناقشة بالعقل قد دارت بين الملايين وعلى مسمع منهم . . فعرف كل واحد عندما يضع أصبعه على جسده أين مكان الألم ، من الرأس حتى القدم ؟ . .

فلما رأى الشباب أنفسهم عرفوا الحقيقة . .

وهى : أنهم لا يصرخون فى الفراغ . وإنما صرخاتهم لها صدى . . وصداها عند الذين هم أكبر سنا وتجربة ويحكمون العالم . .

إن دولا عربية وإسلامية قد أرسلت إلى الرئيس السادات تقول : ما هذه المحاكمات ؟ ما هذا التطاول على المحكمة . فتهتز صورتها وهيبتها فى عيون الناس ؟ اعدموهم . . اشنقوهم فورا . ليكونوا عبرة لغيرهم فى كل مكان !

ولم يكن ذلك ممكنا فى مصر. لأننا نحتكم إلى القانون ، سيدنا جميعا !

والقانون يحمى الناس جميعا : الداخلين تحته والخارجين عليه . . بل إنه يحمى الخارجين عليه ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم !

إنها نفس العبارة الباقية للفيلسوف فولتير : أنت تختلف معى فى الرأى ، ولكنى سوف أستميت من أجل أن تعبر عن هذا الرأى !

وهذا هو جوهر سيادة القانون ، الذى ارتضيناه ونحن سعداء بذلك . .

لولا . . .

لولا أن الذى نراه ونقرأ عنه فى الصحف وعلى الشاشة ليس إلا مطاردة بوليسية لأصحاب الآراء المنحرفة التى يجب أن نقومها بالرأى . أو بالمناقشة . .

ويجب ألا نجد حرجا فى أن نعترف بأن « مرض العصر » هو : السخط والضيق والتمرد . .

ولو سألنا المهندس والمحامى والطبيب والمدرس والأديب والصحفى والعامل الماهر لوجدناهم يصرخون فى نَفَسٍ واحد بعبارة واحدة ومعنى واحد : أن الحياة صعبة . والأجور قليلة ولذلك يجب أن نهاجر.

وقد هاجر ، وسوف يهاجر كثيرون ، ونتمنى ذلك . ولكنهم جميعا مصريون وطنيون مهما بعدوا عن مصر ، فمصر فى قلوبهم وفى عيونهم وفى أعناقهم . تماما كما يترك الواحد بيت أبيه ويسكن وحده . . إن هذا البعد فى المكان ليس ابتعادا بالقلب . . وإنما هى طبيعة الحياة أن ينتشر الإنسان وأن يبحث عن الراحة الأكثر والمال الأوفر.

وهذه المعانى ليست إلا مشاعر عامة وواحدة عند الشباب . لم يطبعها أحد على لسان أحد . إنما هى نبتت كالشعر على الجلد ، والعرق على الجبين .

صحيح أن هناك أشراراً يستغلون هذه النار فى دماء الشباب فيصبونها على الآخرين . .

ولكن – فقط – عندما يصطدم أناس بحريات وحرمات الآخرين وأمنهم وإيمانهم ، هنا تتدخل الدولة لحماية الأغلبية من الأقلية الضارة . وهذا ما حدث للذين يكفرون الناس ، وهم كافرون أيضاً .

* * *

إننى كنت أتمنى أن أضحك على هذه الواقعة التى رأيتها يوم ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ على الحدود بيننا وبين إسرائيل ، ومعى خمسة صحفيين . قال لنا اللواء عبد العزيز سليمان رحمه الله : تعالوا نستعرض جهل مصر !

وكان جهلاً فادحاً . أو خداعاً لا أعرف . فقد رأينا رجلاً يجمع الميكروبات ويضعها فى علب ويبعث بها إلى مصر لتحليلها . ولم نصدق ما يقوله الرجل . وسألناه . فأكد أن الذى يفعله صحيح لأن إسرائيل قد استخدمت الحرب الميكروبية فعلا !

ولكى يدلل هذا الرجل على صحة ما يقول ، أطلعنا على الميكروبات . وكانت نوعاً من الذباب الذى فقس أخيراً وطبيعى أن يكون صغيرا . . أما الدليل الثانى فقد طلب إلينا أن نصعد أبراج مراقبة قوات الطوارئ الدولية لنرى على الجانب الإسرائيلى رجلاً أمسك بالوناً من القماش الأبيض . . وهو لا يكاد يرانا حتى يحركه يمينا وشمالا . ونزلنا لنسأل عن المعنى . فقال لنا : إن هذا اليهودى يطلق الميكروبات علينا !

وعرفنا فيما بعد أن هذا اليهودى كان يضع مسحوق الجير على الأرض لتهتدى به الدبابات والعربات فى اليوم التالى . !

وقد آلمنى ذلك ، ولا يزال . ولا أعرف إن كان هذا الذى رأيته حلماً ، أو أن الشمس قد ضربتنى وأننى أهلوس . . لولا أن خمسة آخرين قد شاهدوا ذلك معى .

إن الميكروبات لا يمكن اعتقالها بهذه الصورة . ولا هذه هى حرب الميكروبات

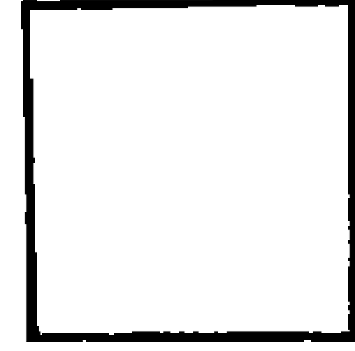
التى تبرر انتشار الخوذات على الجبهة المصرية فى ذلك الوقت !

ولكن الذى يجعل مثل هذه الواقعة ممكنة : أننا اليوم نعالج الظواهر النفسية علاجاً بوليسيًّا .

ولا علاج لها إلا إذا غيرنا تشخيص مثل هذه الظواهر التى تطفو ثم تخبو ، وسوف تظهر فى كل المجتمعات الحية المكدسة بالسكان وبالمشاكل وفى ظل مثل هذه الحروب التى كسرت ظهورنا ومزقت شملنا . والتى لم تنته بعد .

إن واجبنا القومى يحتم علينا أن نقترب من المشاكل بالعقل والموعظة الحسنة . . لأنها مشاكل عقلية اجتماعية اقتصادية سياسية . فليس استنكار المرض علاجا له . . ولا احتقار الظواهر احتراماً لعلمنا ولأنفسنا . .

. . وإلا كان معنى ذلك أن صبيان التكفير قد استدرجونا ، فاستعرنا أسلوبهم فى الفهم الخاطئ لأنفسهم ولغيرهم من الناس — « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد ! » .



الذين يمشون بأطراف أصابعهم فوق القانون

ما معنى أن يقف شخص ومعه مسدس فى إحدى دور السينما أو الأتوبيسات أو الطائرات ويرفع سلاحه أمام الجميع ويطلب من كل واحد ألا يتحرك. فلا يتحرك أحد !

معناه أن هذا الرجل قد فاجأ الناس بأنهم غير مسلحين. وأنهم لذلك غير قادرين على أن يفعلوا شيئاً. ولأنهم قد قرأوا عن حوادث كثيرة مشابهة. عجز فيها الناس والحكومات عن فعل شىء. فهم لذلك يستسلمون.

وقد يكون هذا المسدس لعبة. وقد يكون مسدساً حقيقياً، خالياً من الرصاص !

ولكن الخوف والمفاجأة أو المفاجأة المخيفة تجعل المسدس الصغير يبدو مدفعاً، وتجعل حامله عملاقاً.. ثم تضاعف شعور الناس بالعجز رغم أنهم أغلبية بينما الإرهابى الذى أمامهم ليس إلا واحداً !

ومما يضاعف خوف الناس أيضاً أن هذا النوع من الإرهاب لا يقوم به فرد إنما كثيرون وفى بلاد مختلفة.. إنه دولى ولأسباب غامضة.. تختلط فيها السياسة بالجريمة.. أو أنها عملية إجرامية ملفوفة فى غلالة سياسية رقيقة، وهذا يجعل من الصعب أن نفرق بين الإرهاب والوطنية.. أو بين الجريمة العادية والجريمة الفلسفية السياسية..

فالإرهابى الشهير كارلوس اسمه « أليش » وهو الاسم الصغير للزعيم السوفيتى لينين . . ثم كارلوس هذا له أخ اسمه لينين أيضاً ، وكلاهما قد تعلم فى جامعة لومومبا بموسكو . .

وهو مجرم عادى جدًّا يعرف عدة لغات من بينها العربية . ولكنه يلف جريمته فى إطار سياسى . .

وهذا المجرم الفنزويلى كارلوس يخطط جرائمه فى أمريكا وينفذها فى أوروبا ويتقاضى عليها أجراً من أفريقيا ثم يختفى بعد ذلك فى أستراليا ! وهذه الصفة الدولية للجريمة هى التى تصيب الناس والحكومات بما يشبه الشلل الذى هو نتيجة لمخاوف متراكمة . .

ويمكن وصف الأعمال الإرهابية التى قام بها كارلوس والعصابة الألمانية الشهيرة « بادر ماينهوف » بأنها عمليات يقوم بها شاب فنزويلى . وينفذها فى إيطاليا بأيدى شبان ألمان يحملون سلاحاً روسياً قد اشتروه بفلوس عربية ، ليخطفوا طائرة فرنسية . ويهبطوا بها فى عدن ، من أجل الإفراج عن معتقلين فى اليابان قتلوا ليلة رأس السنة فى إسبانيا !

فإذا كان هذا العمل الإرهابى قد حدث فى إحدى الطائرات فالعجز تام . والتعليمات صريحة لدى قائد الطائرة بأن يستسلم لكل من يمسك مسدساً أو عصا غليظة . . لأن المقاومة لا معنى لها . فلا أحد يعرف ما الذى يمكن أن يفعله هذا الإرهابى بالطائرة والركاب . ولذلك : لا مقاومة .

وإذا قاوم قائد الطائرة ، كان ذلك عملا أحمق . أو كان عملا إجراميا . . لأنه دفع الإرهابيين إلى سفك الدماء . .

ومن الصعب على أحد خارج الطائرة أن يعرف ما الذى يجرى فى داخلها . ولذلك فالدول تحاول أن تتصل بالإرهابى لعلها تعرف ماذا يريد ، وما هو سلاحه ، وكم واحداً يعاونه . . ثم كيف يمكن إطلاق سراح الأطفال والنساء والشيوخ

والمرضى . . وكيف يمكن إطعام الباقين وإمداد الطائرة نفسها بالوقود ، ثم ما هى مطالبه ؟

وكل ذلك يؤكد أن أحداً لا يستطيع أن يواجه المسدس بالمسدس . .ولا يمكن قتل الإرهابيين بنسف الطائرة كلها . . وإلا كان معنى ذلك قتل مائتى راكب من أجل ثلاثة إرهابيين . . أى معاقبة المجرمين بإحراقهم مع مئات الأبرياء – وهو عمل جنونى . ولذلك لم يفعله أحد !

ثم إن الطائرة على الأرض أو فى الجو جسم هش . . لا يمكن إطلاق الرصاص فى داخلها حتى لا تحترق كلها . . ولذلك فلا بد أن يهتدى العلماء إلى أسلحة محدودة لا يتعدى أثرها مساحة صغيرة فى حجم جسم كل إرهابى . . وهذه مرحلة لم يصل إليها العلم بعد . ولكن سوف يصل إليها حتما . وسوف يهتدى الإرهابيون إلى أسلحة أخرى مضادة !

فهل اعتدنا نحن على هذه المشاهد ، حتى مللناها ؟ .

إن مجرد إحساسنا بالملل أمام هذه الجرائم الدولية . يعتبر ظاهرة أكثر خطورة ، لأن معنى هذا الملل أننا ضقنا بها ، وأننا لا نريد أن نراها أو نسمعها . . مع أنه من الضرورى أن نراها أوضح وأعمق ، وأن نسمع أكثر حتى تتعمق فى نفوسنا كراهيتها والبحث عن وسيلة لإنقاذ أنفسنا من مثل هؤلاء المجرمين . .

كما أن الشعور بالملل يضعف إحساسنا بها . . ويجعلنا نطلب شيئاً جديداً . . أى شيئاً أكثر إثارة ، وهذه نهاية خطيرة لأن معناها أن هذه الحوادث ، وغيرها ، أصبحت مادة للتسلية . . وأننا لم نعد نفكر فى التخلص منها ، وإنما نفكر فى أن نجعلها أكثر إثارة . . أو ننتظر من الإرهابيين أن يتفننوا وأن يعثروا على جيل أذكى وأمتع !

وهذا ما حدث على الشاشة . . فعلى الشاشة نجد صوراً للحروب الحقيقية فى جميع أنحاء العالم . . سواء كانت حروباً قديمة أو حروباً حديثة . وفى نفس الوقت نجد أفلاماً عن حرب العصابات ، هذه الأفلام أمتع ، لأنها من تأليف وإبداع

كتاب السينما ومخرجيها وممثليها . ولذلك يختلط علينا الأمر ونحن نتفرج على الحروب الحقيقية والحروب التمثيلية . . أو الحروب الدموية والحروب الفنية . .

والنهاية : أننا نعتاد على مناظر الدم والعنف والكراهية ، فإذا اعتدنا عليها فإننا لا نذهب إلى أبعد من ذلك كأن ندعو للسلام أو ندعو لتجفيف الدموع والدماء . . وإنما يصبح الدم والدمع والنار والدخان طعاماً يومياً . . تسلية يومية نصحو عليها ونأكل أمامها وننام على موسيقاها وألوانها . . تماماً كالأغانى والاستعراضات والموسيقى !

وهذا هو مصدر الخوف الحقيقى من السلبية أمام الإرهاب العالمى . .

وفى مواجهة هذا الإرهاب الدولى يجب أن نقاومه بمنتهى العنف . . بالتضحية أيضا حتى يمكن القضاء عليه ، أو القضاء على كثير منه . .

ويجب أن تكون هناك قوانين خاصة لمواجهة هذا الإرهاب الخاص ، ولكن القانون نائم وعائم ! ولذلك فالقانون الدولى هو أحد الأسباب لتشجيع الجريمة . . وانتشار الإرهاب . فالقانون بهذه الصورة ليس إلا سوراً مليئاً بالثقوب لحماية الناس . . وهذه الثقوب ليست إلا نوعاً من استعداء الناس على الناس ، وباسم القانون .

والقانون – إذا كان ثوباً ممزقاً – فهو قانون لا يحمى الناس وإنما يفضحهم ، وإذا ارتضى الناس مثل هذا القانون . فهم قد ارتضوا الفضيحة وفى نفس الوقت يطلبون الستر من قانون فاضح ! .

وإذا كان المسدس الذى يمسكه إرهابى يدل على شىء فإنه يدل على قوته أمام ضعف الملايين . . وإذا كان القانون جباناً أمام الإرهابيين ، فلا لوم على الإرهابيين إذا أطلقوا النار على القانون . . أى على سيادة القانون ، وعلى هيبة الدولة التى تحمى الناس بالقانون . .

ولابد أن الحكومة الألمانية سوف تتخذ خطوات جريئة رائدة فى مواجهة الإرهابيين . . الذين نجحت الحيلة الذكية فى القضاء عليهم ، ولكن ألمانيا – التى

هى جنة الله فى أوروبا – لا تريد أن يتضاعف فيها الشياطين والحيات . ولا تريد أن ينهدم عليها مرة أخرى ذلك الصرح العالى الذى بنته بالدم والهوان بعد الحرب العالمية الثانية حتى أصبحت أغنى وأقوى دولة أوروبية .

وإذا كانت الدول الغنية القوية تقاوم الإرهاب ، فإن الدول النامية مثل مصر يجب أن تؤكد لمثل هؤلاء الإرهابيين أن القانون له أنياب وأظافر ، وليس له « طاقم أسنان » يمكن كسره فى لحظة .

إن الناس أمام التراخى والقنزحة فى تطبيق أو تكبيل القانون . قد أصابوا هيبة الدولة فى قلبها . . وأصبح من السهل جدًّا على أى متهم فى أية قضية أن يخرج لسانه للمحكمة وفى الصفحة الأولى من كل صحيفة . . ويجد هذا اللسان تجاوبا فتخرج ألسنة كثيرة فى البيوت وفى المكاتب والمصانع والمعاهد . لماذا ؟ لأن الدولة قد هان أمرها على الناس ، وإذا أصبح التهاون والتراخى أسلوبا عاما فى مواجهة الجرائم ، فإنه كذلك فى مواجهة المخالفات اليومية فى كل مكان .

ولذلك فكل صفيحة زبالة يلقى بها أحد من النافذة ، إنما هو يرميها على القانون وعلى حماة القانون . .

وإذا ارتفع صوت أى راديو فلكى يخرق أذن القانون ومن يتصدون ضعافاً عاجزين للدفاع عن القانون .

وكل من يخالف التسعيرة وكل من يهرب من الضرائب ومن الجمارك ، إنهم جميعاً يمشون بأطراف أصابعهم حتى لا يسمعهم القانون . . بل إنهم يمشون بأطراف أحذيتهم حتى لا يسمعهم القانون ، ولكن سواء سمعهم أو لم يسمعهم فقد داسوه « بالجزمة » .

لا مانع من الرفق والأدب فى تطبيق القانون بشرط أن يكون الرفق والأدب مثل « نعومة » السيف . . إنه ناعم ، ولكنه قاطع !

ولكن الذى نراه هو « النعومة » التى لا تقطع ولا تسيل دما فى مواجهة الجريمة – وهذه أكبر وأفدح غلطة فى حق الدولة والشعب وسيادة القانون !

إن « عصا » سيدنا فى الكتاب القديم يجب أن ترتفع وتكون لها أشكال مختلفة ، ولكن الهدف واحد : الانضباط العام .

والذين ينادون ويبكون على « كتاب القرية » إنما يحنون إلى القيم القديمة فى احترام الأكبر سناً ، وفى الإخلاص فى العمل وفى احترام الآخرين ، وهم فى نفس الوقت يحنون : إلى التربية الأخلاقية والدينية والعائلية والوطنية . .

وكل هذه الكلمات لها معنى واحد : أن تكون هناك حدود بين الناس يحترمونها ويدافعون عنها بأنفسهم أو بالقانون !

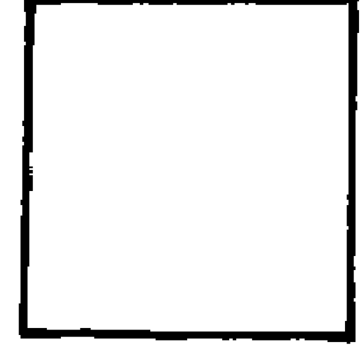
والشاعر القديم يقول . . ولا يزال قوله صحيحاً :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا
فلا تلم الصبيان فيه على الرقص !

أى إذا كان الأب قد أمسك الطبلة فلا لوم على أبنائه إذا رقصوا . . إنه هو الذى ابتدأ وهو الذى خلق الجو وشجع . . وهو صاحب « الفعل » ورد الفعل أيضاً . .

وإذا تهاونت الدولة ، فلا لوم على الناس إذا استهتروا . . فأمسكوا الطوب والحجارة والمسدسات وأطلقوها على المؤسسات أو الأفراد . .

فالمجرم واحد أو أكثر ، ولكن الضحايا ملايين . . والسكوت مشاركة فى الجريمة ، فإذا سكتنا تحولنا من ملايين الضحايا إلى ملايين المجرمين بلا سلام ولا سلامة ! .



أسرار وراء صدور العدد الأول من مجلة أكتوبر

بعد أن استعرض الرئيس السادات المجلات المصرية والعربية بعين الصحفى القديم وبمنطق السياسى الكبير ، كلفنى بأن أصدر مجلة جديدة اسمها « ٦ أكتوبر » .

وأسعدنى الرئيس السادات بأن اختارنى وتوجنى بهذه المهمة الصعبة جداً . فليس من السهل إصدار مجلة جديدة فى مصر ولا فى غيرها من البلاد العربية . فالسوق مليئة بكل أنواع المجلات السياسية والاجتماعية والمصورة والعلمية .

وإصدار مجلة جديدة فى مصر ، معناه أنها سوف تكون الأولى فى عشرين عاماً . فلم تصدر فى هذه الفترة مجلة كبيرة لأى سبب ومن أية جهة .

وأنا أعرف صعوبة أن يكون الإنسان رئيساً لتحرير مجلة تحتاج إلى تطوير . أما إنشاء مجلة جديدة الشكل والمضمون ، فهذه هى قمة الصعوبة .. وقد كنت رئيساً لتحرير مجلة « الجيل » ورئيسا لتحرير مجلة « هى » مع المرحوم على أمين ثم رئيساً لتحرير مجلة « آخر ساعة » ..

وقد أدرك الرئيس السادات بسرعة صعوبة هذه المهمة فوعد بأن يساعدنى . وأنه عندما يجد الوقت سوف يقترح أبواباً وموضوعات . لأنه حريص على أن تنجح مجلة « ٦ اكتوبر » .

* * *

وصدر القرار الجمهورى بأن أكون رئيساً لتحرير مجلة « ٦ أكتوبر » ورئيساً

لمجلس إدارة دار المعارف ، كبرى دور النشر فى العالم العربى وأكثرها احتراماً .

وفى دار المعارف لم أجد مكاناً لهيئة تحرير المجلة ، وهنا برزت الروح الطيبة للعاملين فى دار المعارف . . وأفسحوا لنا غرفة وراء غرفة . . حتى أعطونا طابقاً واثنين . .

وكان لابد أن يأتى المحررون من كل المؤسسات الصحفية الأخرى . .

من كانوا تلامذتى فى الجامعة ، ومن كانوا أصدقائى وزملائى . . واحداً وراء واحد حتى أصبحنا ثمانين محرراً وسكرتيراً فنياً ومصوراً ومراجعاً ومصححاً وفنيين فى المطابع . .

لقد تكونت أسرة « ٦ أكتوبر » وسط خوف وفزع من التجربة الجديدة . وتحت وابل من الشائعات تطلقها بعض المؤسسات الصحفية . وكلها تؤكد أن هذه المجلة قد ولدت لتموت – مع أنها لم تكن قد ولدت . . وأن عدداً واحداً سوف يصدر . . وسوف يعود المحررون والمصورون جميعاً إلى المؤسسات التى جاءوا منها . وأننا سوف نندم على أننا أصدرنا هذه المجلة الجديدة من مكان آخر – أى مكان آخر غير هذه المؤسسات الأخرى ؟ ! .

وكانت نظرة شامتة – كأننا دار أجنبية تصدر مجلة معادية لمصر ، وليست مؤسسة مصرية تصدر مجلة قومية ، والذين أحسنوا الظن قالوا : إنها الغيرة الصحفية والحقد الشخصى . . والذين أساءوا الظن قالوا : إن الذين احتكروا النجاح يوماً لا يريدونه لأحد آخر . .

مع أن هذا الأحد الآخر ، ليس شخصاً ، ولكن عشرات من الشبان الذين لهم الحق فى أن يساهموا فى كل ما هو جديد فى مصر ومن أجلها !

وفى مبنى دار المعارف بدأنا نتجمع واحداً وراء واحد : وكانوا سعداء ، وكنت أقلهم سعادة وأكثرهم حيرة . . وبدأ العاملون فى دار المعارف يشكون – وبمنتهى الرقة والأدب – من أننا قد أحدثنا نوعاً من الفوضى . فنحن نسهر حتى ساعة متأخرة من الليل . وقد اعتادوا أن يغلقوا أبواب الإدارة فى الثانية بعد الظهر ، ومع

الأبواب : المصابيح والمصاعد والحنفيات ، ولم يعتادوا على الضوضاء والسهر وعلى الكلام بصوت مرتفع وعلى الضحك الصارخ أو الراديوهات التى تدوى فى بعض الغرف . . وعلى أن ينام المحررون على مكاتبهم . . ولكننا جميعاً اعتدنا على هذا الأسلوب المختلف . . حتى تعايشنا . ولم يكن ذلك هو الفضل الوحيد للعاملين فى دار المعارف ، ولكن لهم فضل الصبر علينا والتعاون معنا ، والتشجيع المستمر حتى نجحنا معاً . . والحمد لله . .

ولكنى حائر فى شكل المجلة وحجمها ولونها وتبويبها وقلبت فى جميع المجلات التى تصدر باللغات الأوروبية وكانت لى علاقة قديمة بقراءة المجلات الإيطالية وبعدد من محرريها وكتابها وخصوصاً مجلات : الأويروبيو التى عرفت من كتابها الأديب الكبير ألبرتو مورافيا الذى قدمته إلى القارئ العربى منذ أكثر خمسة وعشرين عاماً ، وترجمت له عشرات القصص القصيرة ، ثم إنه أصبح صديقى هو وزوجتاه الأولى والثانية .

وكنت أعرف الكاتبة الإيطالية البادى سشيدس المحررة الأولى فى مجلة « أبوكا » . وقلبت فى بقية المجلات الإيطالية . .

وحارت عينى وعقلى فى صفحات المجلات الألمانية شترن وكويك وبونته وبوردا . .

وفى المجلات الفرنسية : لوبوان وبارى ماتش .

ونشرنا هذه المجلات بالعشرات أمام أعيننا . . وتوقفت أيدينا عند تبويبها وموضوعاتها وألوانها وصورها وأغلفتها . . وكذلك المجلات العربية . .

وكان لابد أن نخرج بتصور واحد من كل هذه الأنواع – أى من كل تجارب الشعوب الأخرى واجتهاداتها فى أن تكون مجلتنا الجديدة ذات طابع خاص . وفى نفس الوقت ليس شاذا عن الذوق العام للمجلات الأسبوعية .

* * *

وتنوعت أشكال وأحجام كلمة « ٦ أكتوبر » فى أيدينا . .

ثم اخترنا شكلاً للاسم من بين عشرات الأشكال والألوان والأحجام . .

وجاءت خطابات من البلاد العربية تعيب علينا أن نسمى هذه المجلة « ٦ أكتوبر » دون أن نسميها « ١٠ رمضان » ووجدناها فرصة لكى نسميها : ٦ أكتوبر – ١٠ رمضان . .

وبحثنا نوع الورق وحجمه . .

وبحثنا فى حجم الحروف ونوعها . . واخترنا نوعاً منها ، ثم عدلنا عنه وغيرناه فى الأعداد التجريبية . .

ولم يكن لهذه المجلة : مكتبة ولا أرشيف للموضوعات ولا أرشيف للصور – أى ليست لهذه المجلة « ذاكرة » . . وليست لها ذاكرة ، لأنه ليس لها تاريخ فما تزال جنيناً فى علم الغيب . .

وكان لابد أن أستغل سماحة الرئيس السادات وتشجيعه ، فذهبت إليه وعرضت عليه تجاربنا الأولى . عشرين عدداً كتبناها وصورناها قبل أن يصدر من المجلة عدد واحد .

وأبدى الرئيس السادات ملاحظات نافذة على صفحات المجلة ، وقدّم أبواباً .

ولم يفته أن يقول كلمة لتشجيعى وزملائى ، قال : لست متعجلاً ، الوقت لا يهم ، خذ وقتك ، المهم أن تنجح وأن تستمر . .

وكان ذلك زاداً لنا فى هذه الرحلة الشاقة ، إذن فليس من الممكن أن تنجح المجلة من أول عدد – وإن كان هذا هو ما حدث – ولكن يجب أن نصبر على أعدادها الأولى واحداً بعد واحد ، وأن نتلقى ملاحظات القراء والصحفيين المحترفين وأن نجمع هذه الملاحظات وأن ندرسها وأن نعدل مسار المجلة أولا بأول . .

وذهبت إلى السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك

وليس بين الذين عرفتهم فى حياتى رجل يعطيك الأمل فإذا أنت تطير . . وليس بين الناس واحد يخفف عنك مصائب الدنيا ويهونها عليك مثل هذا الرجل ومن خلال كلماته الرقيقة ، وأخوته وصداقته يبدى الملحوظة والنصيحة . . وهو لذلك

يستحق منا عظيم الشكر وعميق الامتنان .

وعرضت النتائج النهائية لشكل المجلة واسمها ونوع الخط والأبواب على الرئيس السادات . واختار صورتها الأخيرة ، وهو يؤكد أنه ليس متعجلاً مطلقاً ، وإنما المهم أن ننجح وأن نستمر . .

* * *

وفى مؤتمر صحفى فى فيينا سأله أحد الصحفيين المصريين . متى تصدر مجلة ٦ أكتوبر ؟

وكان السؤال مفاجأة لى . وكان رد الرئيس السادات : قبل أكتوبر القادم إن شاء الله . .

إذن فلقد تحدد الموعد نهائيا . وعلينا أن نوفر الورق والمطبعة وآلات جمع الحروف .

ولم يكن عندنا من ذلك كله شيء . . أما آلة جمع الحروف التصويرى . فقد استعنا بمؤسسة الأهرام . ولولا زملاؤنا عمال الأهرام . ولولا صداقة الأستاذ المرحوم يوسف السباعى . لوجدنا صعوبة هائلة فى إصدارها فى موعدها .

فقد رأى الأستاذ يوسف السباعى – رحمه الله – أن إصدار مجلة مثل « ٦ أكتوبر » : واجب قومى .

وبهذه الروح الصادقة . تلاشت صعوبات كثيرة أمامنا . .

وساعدنا الأهرام أيضا فى توزيع المجلة . .

وساعدنا أيضا فى الإعلانات .

وسوف نعتمد على آلات الجمع عندنا ، وسوف يكون لنا جانب إعلانات الأهرام إدارة إعلانات خاصة بنا وإدارة توزيع أيضا ، وهنا نشعر تماما أننا نمشى على أرجلنا ونطير بأجنحتنا .

وقد ساعدنا المهندس مشهور أحمد مشهور . عندما قدم آلة للطباعة هى أحدث ما اخترع العقل الإنسانى . وقدمها بنفس راضية وسماحة تامة . . وقد أدت هذه

المطبعة إلى تخفيف أعبائنا . وهو لذلك يستحق منا كل تقدير وكل عرفان بالجميل . .

ثم زودنا المجلة بمطبعة ثانية وثالثة . .

واختار الرئيس السادات أن يكون لمجلة « ٦ أكتوبر - ١٠ رمضان » اسم نهائى هو مجلة « أكتوبر » . .

وعقب مؤتمر صحفى فى مدينة الرياض استدعانى الرئيس السادات . وأخرج من تحت المخدة فى غرفته ورقة مكتوباً عليها : عدد من الأبواب التى يرى إدخالها فى المجلة .

وعاد مرة أخرى يقول : إنها مهمة شاقة . أعرف ذلك . لكن يجب أن تنجح وسوف أساعدك .

* * *

وكانت أكبر وأعظم مساعدة لنا هى أن الرئيس السادات قد خصنا « بأوراقه » التى ننشرها بمنتهى الاعتزاز منذ العدد الأول . وأصبحت هذه الأوراق أهم معالم مجلة « أكتوبر » . ففى هذه الأوراق يتحدث الرئيس السادات عن أخطر الإنجازات فى حياته السياسية ، وفى حياة مصر والأمة العربية والسياسة الدولية .

وقد جعل عنوان هذه الأوراق « الجليد يذوب بين موسكو والقاهرة » . وقد رأى الرئيس السادات أن ينشر الحقيقة كاملة . وينتظر أن يراجعه أحد فى واقعة واحدة . فلم يفعل ذلك أحد . فقد آمن الرئيس السادات بأن من الأفضل أن يعلن أسرار سياسته بنفسه . . فقد كثرت « المذكرات » « والذكريات » الكاذبة فى الصحف العربية . . وقد أطلق الرئيس السادات على أكثر هذه المذكرات أنها اتخذت معناها من أغنية فريد الأطرش التى تقول : ما قال لى وقلت له . . أى أن هذه المذكرات تدور فى الغالب بين شخصين فى جلسة خاصة ، أحد هذين الشخصين قد مات - فأين الحقيقة وأين الخيال ؟ !

ثم إن الرئيس السادات قد توجه بتجاربه الخطيرة فى السياسة إلى شباب مصر وشباب الأمة العربية حتى لا يضلوا فى متاهات السياسة . ثم إن الرئيس السادات

نفسه كان شاباً وكان غاصباً وكان ثائراً . وعرف السجون والمعتقلات . ونام فى الظلام على البلاط . وعرف الجوع وعرف البطالة . . وعرف الضياع . لولا أن عصمه الله ولولا أن شاءت إرادة الله أن تدخره لمصر . . ليشارك فى ثورتها . ثم يثور على ثورتها .

والرئيس السادات فى كل ما كتب ، وسوف يكتب ، لم يرفع عينه عن مصر . فمن أجلها هان عليه كل شىء . . بل الهوان من أجل مصر عزة وكرامة ، والجوع فى سبيلها شبع . والقيود فى حبها حرية مطلقة . . وهو يقول للشباب : « اصبروا وصابروا وثابروا . . فمن كان يصدق أن شاباً مثلى فى سنة ١٩٥٠ ليس فى جيبه إلا أربعون قرشاً وبلا عمل ، سيكون رئيسا لجمهورية مصر . . إن هذا ممكن لأى أحد . ولكن بشرط أن يكون قوياً وأن يكون مخلصاً وأن يكون على استعداد للتضحية . . لأنه لا يصح إلا الصحيح ! » .

ولم يكتف الرئيس السادات بأن خصنا بهذه « الأوراق » بل سمح أيضاً بنشرها فى البلاد العربية . . فنشرتها معنا فى نفس الوقت صحيفة « الرياض » السعودية . . ونشرتها صحيفة « السياسة » الكويتية .

ونشرتها الصحف اليوغسلافية . فرفعت توزيعها بعشرات الألوف . .

ونشرتها الصحف الصينية . . ثم عادت فنشرتها فى كتاب . .

وطلبت ست دور نشر ألمانية وإيطالية أن تترجمها إلى اللغات الأوربية وكان ذلك ممكنًا . ويسعدنا ، لولا أن هناك عقوداً بين الرئيس السادات ودور نشر أمريكية على نشر كتابه الذى ألفه عن حياته بعنوان « البحث عن الذات » باللغة الإنجليزية . .

ولكن سوف تنشر هذه الأوراق فى مجلدات باللغة العربية .

وأكثر من ذلك أن الرئيس السادات كان حريصاً على قراءة هذه الأوراق وتصحيحها بقلمه . وإبداء الملاحظات على حجم الحروف وعلى أوائل السطور . . وموضع العناوين الفرعية — فكان بذلك ، وبرغم أعبائه الهائلة ، نموذجاً للكاتب

القلق على عمله والمتفانى فيه أيضاً .

والذين شاهدوا الرئيس السادات فى أحاديثه الممتعة فى التليفزيون يرونه فى كامل لياقته النفسيةوالعقلية . فهو صاحب ذاكرة غير طبيعية . وهو يعرف التواريخ والأيام والأرقام .

قال لى ممدوح سالم : كنت أتصور أننى صاحب ذاكرة قوية جدًّا ، حتى عرفت الرئيس السادات عن قرب فوجدت أن ذاكرته أقوى بمراحل . .

وفى أحاديث الرئيس السادات أيضا لديه هذه القدرة الهائلة على أن يكون حديثه « سياق » متين – فهو يجيب عن السؤال بتوسع ، ويدخل فى تفاصيل كثيرة جدًّا . ثم بسرعة يعود إلى النقطة التى بدأ منها هذا السرد . ثم يربط الحديث من أوله لآخره ، مهما طال بالساعات ، فى خيط متين . .

وفى أحاديثه المسجلة يستطيع أن يتذكر تماماً من عشرين عاماً . كيف كان يجلس فلان وأين كان يجلس وما الذى كان يرتديه . . ولون بشرته ، وحركة عينيه وبحّة صوته بمنتهى الدقة !

أذكر أن الرئيس السادات عندما كان يروى مقدمات ثورة يوليو . . أن أشار إلى واقعة غريبة . . أن جمال سالم قد جاءه فى المطار واقترب منه وأبلغه رسالة . . ثم ذهب إلى السيد حسن إبراهيم ، وقال له شيئاً . ولكن الرئيس السادات لم يعرف ما الذى قاله لحسن إبراهيم فلا جمال سالم أخبره ، ولا حسن إبراهيم أخبره . ولا هو تذكر أن يسأل أحدهما . .

ولكن بعد ٢٥ عاماً تماماً تذكر الرئيس السادات هذه الواقعة ، ثم طلب منى أن أسأل السيد حسن إبراهيم عن الذى قاله له جمال سالم فى ذلك اليوم ! .

ولكن السيد حسن إبراهيم أدهشه جدًّا أن الرئيس السادات مازال يذكر ذلك ، رغم ملايين الأحداث التى وقعت فى مصر وفى العالم !

ولما قلت للرئيس السادات : إن السيد حسن إبراهيم لا يتذكر شيئاً من ذلك مطلقاً .

كان تعليق الرئيس السادات : غريبة !

أى غريبة جداً أن السيد حسن إبراهيم لا يذكر ذلك الذى حدث لمدة نصف دقيقة من ربع قرن ؟ !

* * *

ولما علم الرئيس السادات بحملات التشكيك فى إصدار هذه المجلة أو بتعقيد الأمور أمام محرريها الشبان ، بعث بكلمة مسجلة إلى محررى مجلة أكتوبر .

وجمعت المحررين جميعاً وأسمعتهم تحية الرئيس السادات لهم . .

ثم إن هذه الكلمة قد نشرتها الصحف فى صفحاتها الأولى فى يوم صدور العدد الأول من مجلة أكتوبر يوم ٣١ أكتوبر ١٩٧٦ . .

وجاءت هذه التحية التى كانت موجهة إلينا ، وإلى كل المؤسسات الصحفية من ورائنا ، فى مقدمة نشرات الإذاعة والتليفزيون . فلم يكن المقصود مجلة أكتوبر ، وإنما كل الصحف والصحفيين وضمير الصحافة المصرية ، أو السلطة الرابعة فى مصر .

* * *

وكان يزورنى أحد الوزراء السودانيين وقد أقمت له حفلة شاى فى مكتبى . عندما دق جرس التليفون . وكان المتحدث الرئيس السادات يتوجه بالتهنئة لجميع العاملين فى مجلة أكتوبر على العدد الرائع من المجلة الذى صدر يوم ١٥ مايو – عن ثورة التصحيح . . والذى كتب فيه الرئيس السادات بخط يده « اليوم الكبير من ثورة التصحيح » .

وتمنيت لو أذن لى الرئيس السادات أن أعرض ما كتبه وما صححه فى كل سطر وكل صفحة من هذه الأوراق . والخطوط التى وضعها تحت الكلمات . والإشارة إلى إبراز العبارات والمعانى – تمنيت لو يأذن لنا فتعرض هذه الأوراق على طلبة الصحافة ليروا مدى دقته ، وحرصه على كل كلمة يقولها . . وكيف أنه نسى أنه رئيس جمهورية ، وتذكر أنه صحفى وكاتب ومؤرخ ، وأن أمانته العلمية اقتضته أن يتابع

بالاهتمام الشديد كل كلمة كتبها – منتهى الأمانة التاريخية والتفانى فى العمل والصبر على هذه المشقة ، مع أعبائه الكثيرة العنيفة . .

ودهش الوزير السودانى بهذا الاهتمام من رئيس الجمهورية ، ولهذا التشجيع العظيم لهذا المشروع الجديد .

فقد شجعنا الرئيس السادات كثيراً ، وخصنا بأشجع وأجرأ مذكرات سياسية فى العصر الحديث ، ولكنه لم يكتف بهذا . . بل ذهب إلى تشجيع المحررين بنفسه وبصوته .

* * *

والحمد لله الذى أعاننا على كثير من المشاكل المادية والنفسية . .

وإذا كنا قد بلغنا من العمر عاماً . فقد كان عاماً شاقًا وفى نفس الوقت كان مثيراً .

ونحن لا ندعى أننا حققنا الأمل المنشود منا . . ولا استطعنا أن نجيب شركات التوزيع إلى كل الأعداد التى طلبتها فى البلاد العربية – فنحن أكثر المجلات العربية انتشاراً فى العالم العربى بشهادة شركات التوزيع المصرية والعربية .

وعندما فرغ الرئيس من قراءة ومراجعة الحلقات الخاصة باليوم الكبير فى ثورة ١٥ مايو كتب هذا التوجيه . . وفيه تقرأ هذا التعبير « . . مع استخدام أسلوبنا الصحفى . . » فقد نسى أنه رئيس الجمهورية وإنما هو صحفى يكتب ويراجع وبمنتهى الدقة !

ولم يحدث أن استطاعت مجلة ولا حتى جريدة يومية . أن تصل فى توزيعها إلى ١٥٠ ألف نسخة فى عام واحد . . بل إن كبرى الصحف المصرية انتشاراً ظلت أكثر من عام توزع ثلاثين ألف نسخة يومياً ! .

ولكن هذا النجاح الذى يصفه أصدقاؤنا وخصومنا أو المشفقون علينا ، بأنه ساحق ، لا نراه إلا مرحلة . . وسوف نصل بعون الله واجتهادنا وتضحيتنا وتشجيع القارئ العربى والمصرى لنا ، إلى أرقام أكبر . . وأهم من ذلك إلى تبويب أجمل

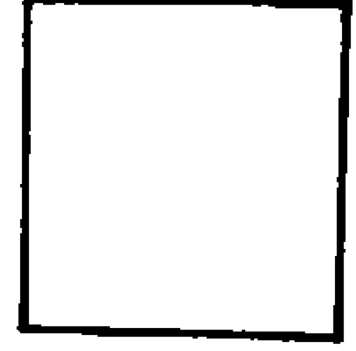
وموضوعات وقضايا أشمل .

فقد استطعنا بمجلة « أكتوبر » هذه أن يكون لنا حضور فى كل القضايا العربية . . ولكن سوف نذهب إلى أبعد من الحضور فنلاحق الأحداث العربية ونكون معها ووراءها . . عندما يكون لنا مراسلون وكتاب فى كل البلاد العربية . وسوف يرى القارئ أسماء لكبار الكتاب الذين يحبهم ويعجب بهم . ضمن أسرة « أكتوبر » .

وإذا كان أكتوبر اسماً غالياً علينا فى كل تاريخنا . فأملنا فى الله كبير ، أن تكون مجلة أكتوبر اسماً على مسمى . . فتكون رسولاً صادقاً ينتقل إليكم ، وينقلنا إليكم . . وليس من الصدفة أن يكون مبنى مجلة أكتوبر مطلاً على كوبرى أكتوبر . فكلاهما رمز للنصر على المصاعب ، وكلاهما وسيلة للانتقال من شاطئ إلى شاطئ . . من شاطئ الهوان إلى شاطئ الأمان ، من شاطئ المجهول إلى شاطئ المعلوم . .

ولا يزال العبور والجسور وفتح القلوب والمصارحة ، من أهم معالم عصر السادات . . فى السياسة والحرب والاقتصاد والصحافة أيضا !

وكل سنة وأنتم طيبون يا قراء أكتوبر فى مصر وفى العالم العربى . .



كثير من الوحل على وجه مصر لماذا؟

المصريون خارج مصر لهم مشكلة عند المصريين فى مصر . أو مشكلة المصريين خارج مصر هى : المصريون فى مصر!

فهم يقرأون الصحف المصرية ويجدون أن مصر قد خربت . وأنه لا علاج لها . أو أن المرض المادى والمعنوى فى مصر قد تجاوز مرحلة الأمان . . وأن مصر الآن فى آخر مراحل المرض . وبداية مراحل الموت . لماذا ؟ .

لأن الناس فى مصر – كما تقول الصحف – جميعاً من اللصوص . وإذا لم يكونوا لصوصاً ، فهم لا يعترضون على السرقة والنهب والدعارة وهتك الأعراض . بل إن الصحف المصرية تدعو إلى ارتكاب جميع الخطايا . . لأنها لا تتحدث إلا عن الجانب السيئ من كل شىء . ثم لا تعرض علاجاً أو لأن أحداً لا يعالج شيئاً ، فلا أثر لذلك فى الصحف . .

والصحف تغمز وتلمز . . ومعنى ذلك أنه على الرغم من الحرية الممنوحة لكل الصحفيين ، فإن هناك من لا يستطيع أن يكون صريحاً . ومعنى ذلك مرة أخرى : أن هناك أخطاء يرتكبها أشخاص لا يمكن التصريح بأسمائهم أو وظائفهم . وعلى كل إنسان أن يتخيل ما يعجبه . ومادمنا قد دخلنا باب الخيال ، فلا نهاية لما يمكن أن يقال . .

وبذلك نعمل جميعاً على تلطيخ وجه مصر من أعلى قسمات هذا الوجه إلى أدناها ! .

وإذا نشرت الصحف المصرية أن هناك من يخطف البنات من الشارع فى الظلام ، وهذا شيء مفزع . . فإن الصحف لا تنشر بعد ذلك بيوم أو عشرين يوماً ، ما الذى فعلته الدولة مع هؤلاء الخاطفين للبنات . لماذا ؟

لأن خطف البنات مثير ومخيف ، ولأن القبض على خاطفى البنات لا يثير ولا يفزع – ولأن الصحافة المصرية حريصة على إشاعة الفزع والرعب ، فإنها لا تنشر ما يبعث على الأمن والأمان والأمل .

والنتيجة الظالمة : أن المجتمع المصرى منحل ، وأن الأمن المصرى عجز عن ضبط الناس وربطهم .

والنتيجة الأبعد والأكثر ظلماً من ذلك : لا داعى لأن يجيء أحد إلى مصر حيث الأمن مفكك ، وحيث العصابات أقوى من القانون . .

وعندما يبدأ العام الدراسى فيدخل خمسة ملايين طالب ، وهذا إنجاز عظيم . فإن هذاالحدث الجليل تنشره الصحف فى مساحة صغيرة متواضعة بدرجة حرارة فاترة .

ولكن إذا لم يجد طالب واحد مكاناً له فى مدرسة ، أو طالب لم يجد اسمه ضمن طلبة كلية الطب أوكلية الهندسة ، فهدا حدث خطير وإهمال جسيم !

. وهذه التهمة موجهة إلى كل أجهزة الدولة التى استطاعت أن تستوعب ملايين الطلبة ، وأن تستعد لهم بالمقاعد والكتب والأتوبيسات والمدرسين . .

وإذا أقيم كوبرى على النيل ، وهذا إنجاز عظيم ، فإن الصحف لا تنشر إلا « إعلانات » عن هذا الكوبرى ، ولكن إذا وقع بيت متهدم على من فيه ، فهو حادث فظيع يستغرق اهتمام كل الصحف وكل الأقلام ، صحيح أن هذا حادث رهيب ، وتجب مواجهة مثل هذا الموقف بشدة ، حتى لا يتكرر . ولكنه ليس فى

خطورة كوبرى يربط ملايين الناس ويعينهم على أداء عملهم ويختصر لهم الوقت الضائع . .

ومن يقرأ عن الشوارع والمجارى والمطبات والتليفونات فى مصر ، يستنتج أن أحدا فى مصر لا يتحرك حتى لا يقع فى الحفر ، ولا يتصل بأحد تليفونيا ، فلا حرارة هناك . . وأن مصر ليست إلا مدينة « البندقية » العائمة فى المجارى . . وأنه من أعمال القضاء والقدر أن الكوليرا لم تعتصر مصر كلها . . ثم نقرأ أن الكوليرا لم تصب أحدا فى مصر ، رغم المجارى والمستنقعات والبعوض ! .

وإذا اتسع وقت أحد لكى يفكر فهو يقول : إما أن ما تنشره الصحف غير صحيح عن المجارى ، وإما أنه صحيح ، ولكن وزارات الصحة والداخلية والإعلام قد نجحت فى توعيتها لكل الناس . ومعنى ذلك أن هناك أعمالاً قد أنجزت فأنقذت مصر من هذا الوباء !

وإما أن مصر قد أصيبت بالكوليرا ولكنها تكذب !

ولا حدود للحوادث البشعة التى تنشرها الصحف كل يوم ، ويكون من نتيجتها أن مصر قد انتهت ، وأن سكان مصر يمشون فى جنازتها ، أو أنهم يدفنونها ، ومعها أنفسهم ومستقبلهم ، وهم سعداء بذلك ، لأنهم لا يفعلون أكثر من تلطيخ وجهها والبكاء عليها !

والمصريون خارج مصر يرون شيئاً أسوأ من ذلك أيضا ، لأنه أكثر انتشاراً وأكثر جاذبية : الأفلام المصرية فى التليفزيونات العربية . .

وهم ليسوا غاضبين على أفلامنا التى تعرض فى مصر ونراها معهم مثلهم . . ولكن هناك شيئاً أسوأ من ذلك : هو الأفلام التى يمثلها المصريون ويخرجونها وينتجونها لكى يعرضها التليفزيون فى البلاد العربية . .

ففى كل هذه الأفلام نجد أسوأ ما فى مصر : الدعارة والحشيش والنهب والسلب . . ويرون المواطن المصرى العادى إنساناً بليدا . متواكلاً ، ويرون الزوجة المصرية فى غاية الكسل والقذارة ، وإذا اهتمت بشىء فهو مظهرها فقط ، وهى

تافهة لا عمل لها ولا دور . .

وإذا تزوجت رجلا من بلد شقيق فهى متسلطة وهى متغطرسة وهى تمضى وقتها كله فى الزينة وإنجاب الأولاد .

أما إذا تزوج الشقيق العربى واحدة من بلده وواحدة من مصر ، فالمصرية أسوأ وأحط ، وهو معذور إذا لم يتزوج مصرية ، ومعذور إذا عاد لابنة بلده لأنها الأفضل والأطيب والأحق بالحب وعظيم الاحترام !

وإذا ظهرت ممرضة فى أى فيلم ، فهى عادة أسوأ الجميع . . وهى الفتاة « السيئة السمعة » ؟ !

ويندهش المصريون ويتساءلون مخلصين : إننا لم نترك مصر منذ وقت طويل ، فهل تحول كل المواطنين إلى حشاشين وكل الأمهات والبنات إلى غانيات فى هذا الوقت القصير؟ وإذا لم يكن ذلك صحيحاً فلماذا نتطوع بهذه القوة والإصرار على تشويه مصر ، وتهوين أمرها على كل الناس ؟ هل هؤلاء الممثلون ينتقمون من التليفزيون المصرى لأنه لم يعطهم ما يحتاجون إليه من مال ؟

إن المهندسين والأطباء والمعلمين والعمال المصريين فى الخارج لا يفعلون نفس الشيء مع مصر ولا يشعرون بمثل هذه المرارة . وهم لا ينسون أبدا أنهم مصريون . وأن مصر أعز عليهم من هذه السفالة الأخلاقية ؟ .

والمصريون فى غاية الحساسية ، وهم بعيدون عن مصر . ويتمنون لها أجمل وأروع ما فى هذه الدنيا . . ولا يرون أن مصر ، فى هذه الضائقة المادية والسياسية ، قد انحطت وانهارت ، وإنما هى أمنا المرهقة من كثرة أعباء أبنائها الأربعين مليوناً ، وتحت وطأة الحرب والسلام معاً ، وإنها شدة سوف تهون . وإن دولاً مثلنا قد تعذبت بعد الحروب — مع أننا لم ننته من الحرب بعد ! وإن أمامنا طريقاً طويلا حتى نصبح قادرين على استخدام كلمة « بعد » . . حتى لو أفلحنا فى حل مشاكلنا الخارجية . فإن مشاكلنا الداخلية أقسى وأعنف ! .

ربما كان المصريون خارج مصر شديدى الحساسية .

ومصدر هذه الحساسية الشديدة أنهم « مفضوحون » أمام الأشقاء . . فهم فى حيرة : هل يكذبون ما تنشره الصحف المصرية ؟ هل يكذبون ما يعرضه التليفزيون للممثلين المصريين ؟ .

إنهم عاجزون تماما عن مواجهة كل هذه الحملات اليومية العنيفة وحدهم . وإنما سوف يكونون أكثر غضبا على مصر . لأن مصر – أمهم – قد أحرجتهم وفضحتهم . وشجعت الناس عليهم . فإذا نظر إليهم العربى الشقيق على أنهم لصوص ، أوسوف يكونون ، أو أنهم حشاشون . . أو أنهم تافهون فهو لم يأت بشىء من عنده . . وإنما هو فقط « يصدق » ما تنشره صحف مصر وأفلام مصر ! .

وعلى ذلك ، فلا يصح للمصرى خارج مصر أن يغضب إذا كانت نظرة الآخرين إليه : هى نفس نظرة المصريين إلى المصريين ! .

وقد سمعت فى بلد عربى أن طفلا وقع فى بئر ، فأنقذه مصرى . فنشرت الصحف أن : شقيقا عربيا قد أنقذ هذا الطفل ، ولم تشأ الصحيفة أن تقول إن المنقذ واحد من مصر .

وغضب المصريون لأن الصحيفة لم تنشر الحقيقة . ولما سئل الصحفى الذى نشر القصة : ولماذا لم تقل إن الذى أنقذه شاب مصرى ؟

أجاب : هل لو نشرت هذه الحقيقة . . يكون فى ذلك إنقاذ لمصر من مطباتها ومجاريها وتليفوناتها ولصوصها ؟ !

أى أنه يرى أن مصر لا إنقاذ لها مما هى فيه ! – وهى وجه نظر مصرية صميمة ، صحفية وتليفزيونية !

والمصريون يغضبون لأن الأشقاء العرب وغيرهم يصدقون ما تنشره الصحف المصرية .

وعلى ذلك فأكثر المصريين فى الخارج ساخطون على صحافة مصر وعلى حرية الصحافة فى مصر ، لأن هذه الحرية لم نستخدمها فى تجميل مصر ، ولكن فى

تقبيحها . . لم نستعن بها على إنقاذ مصر ، وإنما على إغراق مصر والمصريين فى مصر وفى الخارج أيضا !

وبذلك يتحول المصريون خارج مصر إلى معسكر الغضب من مصر التى تبدد انتصاراتها العظيمة وتحدياتها الكبرى ، بأقلام وأفلام أبنائها من الكتاب والممثلين !

ومن عيوب المصريين عموما : المبالغة ، فنحن إذا وصفنا بالغنا . .

فالكاتب يبالغ والقارئ يبالغ أيضا . .

وكما أن ما نكتبه فى الصحف غير دقيق ، فما نسمعه من المصريين فى الخارج غير دقيق أيضا .

وقد قابلت فى بلد عربى أحد المصريين . وملأ أذنى بالشكوى . وسألته : هل هم يعاملون كل المصريين معاملة سيئة .

قال : نعم .

قلت : لماذا ؟

قال : لا أعرف . .

وسألت مصريين كثيرين فلم أجد لهذه الشكوى صدى . وإنما هناك من يعاملون المصريين معاملة عظيمة ولكن إذا أخطأ أحد ، فالقانون على رقاب العباد . . فى مصر وفى السعودية وفى أبو ظبى والكويت . .

قال لى صديق سعودى : يا أخى أنتم أهلكتم مصر . حرام عليكم . إن مصر أمنا جميعا . . ولكن هذا الذى تنشره الصحف المصرية ، إن لم يكن عقوقا متواصلا ، فهو إهانة متكررة . . إن فى بلادنا جرائم يومية لا تقل عن الذى يحدث فى بلادكم . ولكننا لا ننشرها . إننا نعاقب المجرم ويتولى الناس نشر أنباء الجريمة والعقاب . . ولكنكم ملأتم صحفكم بالمجرمين واللصوص والبغايا . . حرام عليكم !

إذا كانت فى مصر جرائم يومية يرتكبها بعض الناس ، فهذا طبيعى . . ولكن الذى ليس طبيعيا ولا عادلا ولا مشرفا أن تنشر صحف مصر أنه لا يوجد فى مصر إلا المجرمون واللصوص والمنحلون وأنه لا أمل عند أحد فى أحد أو فى شىء !

ومن أخطر نتائج هذه النظرة الشويهية لمصر ، أن . صورة المصرى فى البلاد العربية وغيرها ، قبيحة أو سوف تكون كذلك . .

وهذا من شأنه أن يصيب مصر بالبوار فى خبراتها ، فلا تقبل البلاد العربية على الاستعانة بهم ، فى مجالات التدريس والطب والبناء والعمل . لماذا ؟ لأن صورة المصرى بأقلام المصريين قبيحة .

ولما كانت مصر تعتمد على قدراتها البشرية ، كمصدر هام للدخل ، فإن هذه الصورة الفظيعة سوف تؤدى إلى الكساد فى تجارة العقول المصرية . .

ومنذ سنوات دارت مناقشات فى مصر حول « تصدير العقول » المصرية . . أو نزيف العقول المصرية إلى الخارج ، وأن الاستمرار فى تصدير النوعيات الجيدة من المصريين ، سوف يؤدى إلى كساد داخلى . . أو تخريب داخلى !

وعلى الرغم من أن فى هذا الرأى شيئا من الصحة ، فإنه ليس صحيحا كله . .

فقد حدث نفس الشيء فى بريطانيا ، وهى التى ابتدعت تعبير « نزيف العقول » أو « تسرب العقول » أو تهريب العقول إلى أمريكا . . فقد لاحظت بريطانيا أن عددا كبيرا من علمائها يهربون إلى أمريكا . حيث فرص العمل أكثر وأوسع . . وحيث يتقاضون مرتبات أكبر . ويهربون من الضرائب الباهظة فى بريطانيا .

ولكن بريطانيا لم تستطع أن تواجه هذه الهجرة العقلية . فالمواطن حر ، يعمل أينما يريد . . ثم إن بريطانيا لا تستطيع أن تعترض أحدا ولا أن تتيح له مثل هذه الفرص الهائلة التى يجدها فى أمريكا . وعلى ذلك فليس أمام بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية ، إلا أن تستسلم أمام هذه المواهب المهاجرة !

ولكن عادت بريطانيا فناقشت قضية هجرة العقول ، فوجدت أنها قد بالغت فى مخاوفها . وأنه ليس صحيحا أن بريطانيا قد خلت من المواهب . وأن فى داخلها علماء وأطباء وأدباء وشعراء وفنانين موهوبين . . وأن الهجرة لا تبرر إغلاق المدارس والجامعات حتى لا يتخرج فيها أحد ، ثم يهاجر إلى أى مكان فى العالم . فالأسرة

العلمية عالمية . والتفوق العلمى يعود على الجميع . فعلماء أمريكا فى خدمة علماء بريطانيا . وأطباء فرنسا فى خدمة مرضى ألمانيا وإيطاليا . . ومهندسو سويسرا فى خدمة مصر والسعودية .

ومصر أيضا قد هاجر منها مليون ونصف مليون . وهى طاقات بشرية صدرناها واستثمرناها ، فعادت إلينا مئات الملايين من الجنيهات وإلى الأبد . .

وهذا يضعنا أمام حقيقة حيوية : ليس لدى مصر من مناجم وكنوز إلا أبناؤها . . فأرضنا ضيقة ، ومواردنا قليلة ، وقناتنا محدودة . . ولكن القدرات التى لا حدود لها هى : البشر . . هى المدرسون والمهندسون والأطباء والعمال المهرة . هذا هو كنز مصر الحقيقى . ولذلك يجب أن نحسن استخدامه ، وأن نحسن الدعاية له . . أى تسويقه فى مجالات العلم والثقافة والفن .

إن إسرائيل نموذج واضح جدًّا ، لمدى نجاح الجاليات اليهودية فى أمريكا وأوروبا . إن هؤلاء اليهود خارج إسرائيل هم الذين أقاموها وساندوها وفرضوها بالقوة والعلم على الخريطة السياسية فى الشرق الأوسط وفى العالم .

وإذا نحن نظرنا إلى مصر فإننا لا نجدها قد خلت من المواهب وإلا فكيف تحققت كل هذه الإنجازات فى كل مجالات الحياة ؟ !

ثم إن مصر بها خبراء أجانب أيضا ، يعوضونها عن خسارتها فى الخبرات المصرية .

وفى مصر أيضا بيوت للخبرة الأجنبية . هذه البيوت تستخدم آخر ما وصل إليه علماء أوروبا وأمريكا فى بناء مصر . . وفى ذلك تعويض عن خسارتها فى علمائها وخبرائها .

ثم إن « الخبرة » نفسها ليس لها وطن فلا توجد هندسة إنجليزية وطب ألمانى . . وإنما نظريات الهندسة عالمية ونظريات الطب عالمية . ولذلك فالخبرة العالمية فى متناول كل الناس . . تماما كالعقاقير التى امتلأت بها الصيدليات . . والسيارات التى امتلأت الجاراجات . . والطائرات التى تضج بها المطارات . . كلها نظريات

وتطبيقات عالمية . فى خدمة كل الناس .

فلا خوف على مصر ، إذا مضت فى تصدير عقولها إلى الخارج . فهذا طبيعى . وهذا ضرورى وحيوى لها . وسوف تفعل ذلك دائما .

إذن فمن الواجب علينا أن نحسن إنتاج هذه العقول . وأن نحسن تسويقها .

وألا نتطوع بتشويه هذه العقول ولا تقبيح المدارس والمعاهد التى تنتجها . .

والذى يحدث بالأقلام والأفلام المصرية ، هو تشويه مستمر لكل ما هو مصرى . . للطالب والأسرة والمعهد وبذلك نخيف الناس من مصر . . نخيف الطالب العربى والمريض العربى والعامل العربى من كل ما هو مصرى . .

ونخيف السائح الأجنبى وصاحب رأس المال الأجنبى من أن يدخل مصر أو يقيم فيها . .

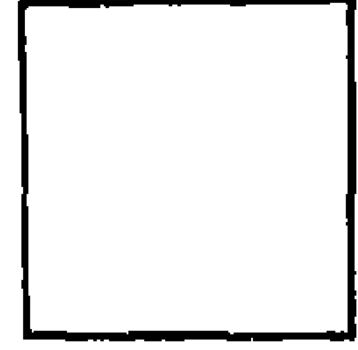
فإذا جعلنا مصر مخيفة لغيرنا ولنا ، فما الذى ننتظره من الآخرين . وما الذى نتوقعه لمصر ، إن لم يكن خرابها التام وسقوطها علينا وعليهم ؟ ! .

وإذا كانت مصر بهذا السوء — كما نتصورها ونصورها لنا ولغيرنا — فما الذى تستطيعه مصر هذه ، فى السياسة والحرب ؟ كيف تواجه إسرائيل بقدراتها الأمريكية والأوروبية الهائلة ؟ كيف تواجه معركة السلام !

إن أعباء السلام والحرب على مصر ثقيلة وطويلة . وإسرائيل هى هذا الهواء المسموم الذى ينعقد سحابا أسود فى كل سماء . . إن مصر ليست وحدها التى ستواجه الدمار أو تواجه الموت الذرى . إنما ستواجه مصر وكل الدول العربية الأخرى . فأمام إسرائيل وتربصها المستمر يستوى أبناء الأنهار وأبناء الآبار . .

ولذلك فمن مصلحة الجميع . أن تبقى مصر قوية . وأن تكون صورتها مشرقة . وإن لم تكن كذلك ، فمن الواجب علينا أخلاقيا وحيويا ، أن نعمل على أن تكون مصر جميلة بأبنائها ولأبنائها ولأشقائها . .

والمطلوب من المصريين : أن يرحموا مصر وأن يخففوا عنها . . وأن يمسحوا وجهها ويجففوا دمعها ، وأن يرفعوها ، ففى ذلك رفعة لنا أيضا !



السبب المباشر لهجوم السادات على السوفييت

كان هجوم الرئيس السادات على السوفييت عنيفا ، فقد وصفهم فى خطابه إلى مجلس الشعب بالغباء السياسى ، فنهض السفير السوفييتى من مقعده ومن ورائه سفراء الدول الشيوعية ، ومضى الرئيس يكمل حيثيات الهجوم على السياسة السوفيتية فى مصر وفى الشرق الأوسط . .

ولم يكن فى حاجة إلى أن يقول كل شىء . ولكنه أشار إلى عيوب فى التفكير السوفييتى : وهى أن لديهم فكرة ثابتة عن السادات . وهذه الفكرة هى قرار مسبق : أنه ليس رجلهم فى مصر. وعلى ذلك فهو عدو لهم .

لأن القاعدة عندهم : إما أن يكون الإنسان عميلا لروسيا أو عميلا لأمريكا ، أو إما أن يكون عميلا لهم أو عدوا لهم - ولكن لايوجد أحد وطنى أو قومى !

ولم تكن قرارات السادات بطرد الخبراء السوفييت إلا تحريرا للإرادة المصرية من السيادة السوفيتية ، ولم يكن منح السوفييت بعض التسهيلات البحرية إلا امتنانا لهم على الدور الذى قاموا به فى تسليح مصر.

ولكن السوفييت طلبوا فورا بعد طرد الخبراء تسهيلات بحرية فى مرسى مطروح . فرفض الرئيس السادات ذلك !

أما سبب هذا الهجوم العنيف فهو أن كوسيجين ، فى الحفلة التى أقامها للمرحوم الرئيس هوارى بومدين ، قد هاجم مصر وقال إن الرئيس السادات بمبادرته هذه قد

أضاع حقوق الشعب الفلسطيني وأهدر الكرامة العربية !

وإذا نظرنا إلى المبادرة الأخيرة وجدنا أن الرئيس السادات بعد انتصارات أكتوبر قد سافر إلى القدس وقابل بيجين وصافح جولدا مائير وعشرات الزعماء السياسيين والعسكريين ، واختصر بهذا « الهجوم الأبيض » ألوف الخطب وألوف الأيام بين شعبين يربطها الخوف والكراهية والرغبة فى الانتقام .

وقد بدأت المبادرة شخصية وانتهت عالمية . . وإذا كان السادات من العلامات البارزة فى تاريخ العرب . فإن مبادرته من علامات العصر .

وكوسيجين هذا هو الذى طلب تحديد لقاء بين السادات وجولدا مائير فى طشقند وكان ذلك فى سنة ١٩٧٢ ، على غرار اللقاء بين الرئيس الباكستانى أيوب خان والرئيس الهندى شاسترى . .

وكان المطلوب أن يذهب السادات مهزوما للقاء جولدا مائير . أى لكى يوقع على أية ورقة تقدمها له إسرائيل أو روسيا .

فإذا التقى السادات منتصرا بإسرائيل ، يكون قد أضاع القضية وأهدر الكرامة العربية ، وبدد الحقوق الإنسانية ! !

مع أن روسيا الآن هى المتهمة عالميا بتبديد الحقوق الإنسانية واضطهاد المفكرين والعلماء

ولكن كوسيجين طراز غريب من الساسة السوفييت قادر على التكيف والالتواء . . يكفى أنه عاش فى ظل ستالين ١٣ عاما . يوم كان من المستحيل على أى إنسان أن يعيش ١٣ يوما . وخروتشيف هو الذى قال للرئيس السادات : إننا كنا نودع زوجاتنا فى كل ليلة يدعونا ستالين . لأن أحدا لم يكن يعرف هل يعود حيا إلى بيته أو ميتا . . وإذا عاد حيا فهل يصبح ناظر محطة أو يذهب فى قطار الصحافة إلى سيبريا . . وإذا عاد إلى بيته فهل يلزم الفراش أو يغير ملابسه ويرتدى ملابس شعبية لأن موعد الرقص قد حان !

وكان من عادة ستالين أن يطلب إلى كوسيجين وغيره أن يرقصوا له فى مكتبه

بعد منتصف الليل وهى عادة إمبراطورية قد استنها الملك الرومانى كاليجولا . . فكان يطلب إلى الوزراء والشعراء أن يرقصوا . ثم يتفضل عليهم فيخيرهم بين الموت غرقا فى النبيذ أو القفز من النافذة – لقد كانت حريتهم الوحيدة هى أن ينتحروا !

ولعل الرئيس السادات بإبراز هذا الوجه السوفييتى أراد أن يقارنه بما فعله الأمريكان مع مصر أو بمصر. إنهم لم يتعالوا على القيادة المصرية . إنما كانت معاملتهم ندا للند . وكانت مساعداتهم غير مشروطة . . على الرغم من العلاقة الخاصة جداً التى تربطهم بإسرائيل . وهى علاقة عضوية . . علاقة الأم بطفلها الرضيع الذى لايريد أن ينفطم . . وهذا الطفل الرضيع « إسرائيل » يبدو عملاقاً لأنه يجلس على كتفى أقوى دولة فى العالم . . ولذلك كانت ذراعه وساقه طويلتين . . وجيوبه مليئة بالذهب ومعدته بالطعام ، وفى يديه أحدث الأسلحة فى الدنيا .

وهنا تظهر خطورة الدور الذى يلعبه الشعب الأمريكى . فلولا تسامحه وكرمه ومساعداته التى لا أول لها ولا آخر ماتشددت إسرائيل وتعددت ألسنتها واتخذت شكل بيجين وديان وشارون ومائير ويادين . . إلى آخر هذه الألسنة الطويلة الحادة . إن القوة التى وراء هذا التعالى : الشعب الأمريكى !

إن « الثغرة » التى حدثت بين قواتنا يوم ١٦ أكتوبر كان سببها أننا دفعنا بالفرقة ٢١ المدرعة قبل موعدها لإنقاذ سوريا من الهجوم الإسرائيلى عليها . ولكن القمر الصناعى الأمريكى هو الذى اكتشف هذه الثغرة فى جبهتنا فأرسل صورها إلى إسرائيل . وطلبت وزارة الدفاع الأمريكية إلى إسرائيل أن توازن نفسها مع مصر. فدخلت قوات الإسرائيليين ودخلت أمريكا بقوتها التى لاقوة لنا ولا حول أمامها . فتوقف القتال .

وماتزال الأقمار الصناعية الأمريكية حتى هذه اللحظة تصور أرضنا وقواتنا ، وكل هذه الصور تقدم مع طعام الإفطار إلى القيادة الإسرائيلية .

وليس من العدل أن نريد السلام الذى تريده إسرائيل أكثر منا ، ثم تقدم

أمريكا كل هذا السلاح الذى يتجاوز حدود حاجة إسرائيل . . إنها – إذن – تساعدها على العدوان علينا . . ولذلك كان الطبيعى أن تعطينا مثلما تعطيهم . . أو تتوقف عن إعطاء إسرائيل كل مايدفعها إلى العدوان أو المجاهرة بذلك . .

ثم إن المخابرات الأمريكية هى التى اكتشفت أمس أن لدى إسرائيل أسلحة نووية محدودة !

* * *

ورغم ماحدث فى الدنيا شرقا وغربا ، ورغم اهتزاز أعماق إسرائيل واليهود فى العالم والعالم كله . كان مناحم بيجين يقاوم اتجاه رياح السلام ويثور ويغالط . . ويقدم يدا ويخفى وراء ظهره سلاحا فى اليد الأخرى . إنه إرهابى قديم ويعز عليه ألا يرهب أحدا حتى لو لم تكن هناك ضرورة لذلك !

وعندما وصفه الرئيس السادات بأنه تاجر شاطر أو كالتاجر الشاطر قال لمحمد إبراهيم كامل : ياأخى لست تاجرا شاطرا ، إننى مقاتل شاطر !

مع أن الشطارة ليست عيبا فى المقاتل أو فى التاجر ، إنها مطلوبة ومرغوبة . . ثم إن إنكار الشطارة والتظاهر بالبراءة والسذاجة هو شطارة جديدة وقد أضيف إليها قدر لابأس به من الخبث أيضا !

إن العالم كله وضع على كتفى بيجين كل هموم العصر من أوله لآخره . وسوف يتهمه بأنه الرجل الذى نسف مبادرة السلام – وإن كان لايستطيع أحد ذلك . فلم تكن المبادرة تتعلق بشخص السادات ، إنما تتعلق بأحلام الإنسانية فى أن يكون سلام ، وأعمق أعماق الشعب اليهودى بأن يكون آمنا وأن تكون له « شرعية » فى أى أرض .

تلك مشكلة « اليهودى » فى كل العصور أنه مخنوق وأنه منبوذ وأنه محبوس فى عشرات السجون : فى حارة اليهود وفى العزلة وفى الخوف وفى الكراهية وفى دينه الخاص وفى أحلامه بأن يكون له وطن فلما أصبح له وطن تحول الوطن إلى حارة يهود كبرى محاطة بالأعداء ومحاطة بالرفض . . ثم أصبح سجينا فى ترسانة من

السلاح الأمريكى . أى أحدث أنواع الخوف المشحون بالكراهية !

إن العالم كله الذى صفق للسادات وشكرا لله على أنه أعطى للناس هذه الفرصة أن يعيشوا ليروا الفجر الصادق للسلام ، يتجه بكل أصابع الاتهام إلى العقبة فى وجه السلام .

إن صحيفة « نيويورك تايمز » قد حذرت الطرفين من إضاعة هذه الفرصة وشنق الأجيال القادمة ، التى سوف تكون أكثر مرارة وحقدا وأكثر شهية لسفك الدماء على الأراضى المقدسة فى الشرق الأوسط !

إن رسالة تركها السناتور الأمريكى هيوبرت همفرى ، ونشرت بعد وفاته يحذر فيها صديقه بيجين ألا يضيع هذه الفرصة النادرة !

إن عبارات بعث بها الفيلسوف الوجودى سارتر إلى ندوة « النظرة الجديدة » التى انعقدت فى الشهر الماضى فى القدس لَمِنْ أرق وأحكم ماقرأت . وسارتر هذا يعطف على اليهود وله كتابه المشهور عن « تأملات فى المسألة اليهودية » ثم إنه أوصى بثروته لفتاة تبناها من إسرائيل . وقد زار مصر وقطاع غزة وإسرائيل ، ونشر بعد الزيارة كتابا ضخما عن « النزاع العربى الإسرائيلى » .

يقول سارتر فى رسالته : « فى ذلك اليوم ١٩ نوفمبر . هبطت طائرة تحمل رئيس أقوى عدو لإسرائيل . وانفتح باب الطائرة ليخرج رجل وحده . ويتوقف لحظات ثم يبتسم . لقد رأيت ذلك الحدث مثلكم تماما .

« إنها أسطورة . . إنه يشبه سقوط الباستيل . ولم يكن سقوط الباستيل هو مجرد الاستيلاء على قلعة قديمة خالية ، إنما كان سقوطه رمزا لسقوط نظام قديم . . وكان هذا الذى فعله السادات رمزا لحدث أسطورى فى التاريخ .

« إن هذا الحدث معناه أن الآخرين قد أعطوا الحياة لأعدائهم . وعليكم أنتم أيضا أن تعطوا الحياة للفلسطينيين . . فمن حق الفلسطينيين أن تكون لهم دولة ، وأن يختاروا لأنفسهم مصيرهم . . إن كل الأطراف قد اتفقت فى لحظة واحدة على أن تكون للجميع حياة فى سلام .

وقد أعلن منديس فرانس وهو رئيس وزراء سابق لفرنسا ويهودى أيضا ، فى ندوة « النظرة الجديدة » : إن الشعب اليهودى قد اكتسب عطف العالم كله . لأنه أراد الحياة ، ولأنه محروم من الوطن . وأنه يريد أن يكون سيد نفسه على أرضه . فيختار مصيره ، وقد تحقق للشعب اليهودى ماأراد . . فكيف ينكر ذلك كله على الشعب الفلسطينى . إن الشعب الفلسطينى يجب أن تكون له أرضه وتكون له سيادته عليها . . وإذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أراقت الدماء فهى معذورة فهى حركة مقاومة تريد الوطن وحق تقرير المصير . تماما كما أرادت إسرائيل ، وكما تنسى الآن كيف كانت وكيف أصبحت ؟ !

واستحق منديس فرانس تصفيقا عاليا عالميا أيضا !

ولما قابلت الحاخام إسحاق شندلر فى القدس استأنفت حوارا معه وقلت إن بيجين يقوم بمحاولة شريرة . فهو يريد أن يقنع الناس بأن مبادرة السادات مجد لم يبلغه أى إنسان . أى أنها مبادرة شخصية مجيدة . يستحق عليها السادات عظيم الامتنان وجائزة نوبل فقط !

وكان رد شندلر أن الرأى العام العالمى يضيف إلى هذه المبادرة مزيداً من الحياة المستمرة . .

مع أن المبادرة لم تعد ملكا لأحد . . إنها مثل كل الإنجازات الكبرى التى غيرت مسار التاريخ . . أو مثل الاكتشافات العلمية التى تنسب لأصحابها بعض الوقت ثم تكون ملكا للإنسانية . . فلا أحد يعرف من الذى اخترع ٩٩٪ من الأجهزة التى نستخدمها كل يوم ، والتى غيرت حياة البشرية . . ومن المؤكد أنها من صنع رجال متفوقين . وينسى الناس هؤلاء المتفوقين ولايذكرون إلا ماقدموا للبشرية . ولذلك فالسادات يحاول أن يدفع المبادرة فى كل اتجاه وبكل قوة . . لتتخذ مدارات أوسع . . تماما كما يحدث فى سفن الفضاء . . إن بها قوة دفع إلى أعلى وأبعد لتظل عالية فى خدمة الإنسانية !

ولذلك فما يقوم به مناحم بيجين من افتعال معارك جانبية لتوجيه أو تحريك

الكتل اليهودية العالمية ضد مصر أو الصحف المصرية أو الدبلوماسية المصرية ليس إلا نوعا من إطلاق النار وهو ينسحب !

ومن المؤكد أن بيجين ممثل كبير أو رجل له أعصاب حديدية . . إنه يشبه « البارمان » فهو الوحيد الذى لايشرب الخمر مثل الزبائن . . ولو فعل بيجين ذلك لما عرف من الذى يشرب الخمر صافيا ومن يشربها بالماء أو بالثلج ، ومن الذى دفع ومن الذى يغالط مثله . !

ولكن ماأغناه عن هذا كله . . إنه يريد السلام أكثر منا . . إن الشعب المصرى ليس كله مسلحا . كالشعب الإسرائيلى . . إن صفارة الإنذار إذا انطلقت فى مصر فإن مليونين فقط من العسكريين والمدنيين سوف يحملون السلاح وينقلون الذخيرة ، أما بقية الشعب فسوف يجلس إلى جوار الراديو والتليفزيون . . ولكن الشعب الإسرائيلى سوف تتعطل حياته من أولها لآخرها ولايبقى إلا الأطفال والشيوخ والمرضى . . والباقى كله خوفا من الموت ، يحمل الموت سلاحا أمريكيا متطورا .

إن اليهود بشر مثلنا . بل إن تاريخهم أقسى وأتعس وأسود من تاريخنا . فليس فى طاقة بشر أن يظل خائفا مكروها منبوذا طول عمره . . يكون غنيا منبوذا ويكون عبقريا منبوذا . . ويكون شعبا اختارته التوراة . ثم رفضته كل الشعوب . . ثم يهرب من الحارات والسجون ليلقى بنفسه فى بحر الكراهية العربية . . ويكون فى نفس الوقت صداعا للعالم كله !

إنهم يريدون السلام ، ونحن أيضا . فلماذا لانواجه الواقع المخيف . بواقع لايخيف .

ومن بين الرصاص الذى يطلقه بيجين وهو ينسحب : أننا ضد اليهود .

إننا لسنا ضد اليهود ، وحتى لو كنا ضدهم . فهم أيضا ضدنا ونحن حتى هذه اللحظة أعداء . ألسنا حتى هذه اللحظة فى حالة حرب . ونريد أن ينتهى ذلك كله على مراحل . فلايمكن أن تتم تصفية حساب قديم بيننا فى جلسة أو فى أربعين جلسة . . إن فك الاشتباك قد أخذ منا ٢٦ جلسة وأعطانا بضعة كيلو مترات ، أقل

من عدد أصابع اليدين . . وأن أمريكا احتاجت إلى ١٣ عاما لتصفى حسابها مع أصغر دولة فى أمريكا : بناما . . ولتعرف كل من الدول العظمى والدول الصغرى : حدود السيادة على قناة بناما وعلى ترابها ومائها !

ولكن المشكلة أن كلمة « يهودى » لها تاريخ طويل عند كل الناس . وهذه الكلمة رغم اعتزاز اليهود بها تضايقهم فهم لايستطيعون أن يتخلصوا من أعز مايعتزون به . ولايستطيعون أن يتخلصوا من النكت التاريخية العالمية . .

فإسرائيل دولة قامت على كتاب واحد : التوراة . . ولما انهدم معبد سليمان أقام اليهود معبدًا جديداً هو : التلمود . . فوقف الشعب اليهودى محتميا فى كتاب آخر . .

واليهود فى كل العالم ، من كل لون ولغة ، لم يعرفوا بعضهم البعض . . ولكن إنجازا هائلا قد تحقق بوجودهم فى إسرائيل . . إنهم كانوا مثل ملايين الموسيقيين أمامهم نوتة موسيقية واحدة . . يعزفونها من ألوف السنين . فى أوقات مختلفة وعلى آلات مختلفة . . وفجأة وسرا وبإصرار جمعهم مايسترو واحد . ولما أشار إليهم أن يبدأوا العزف كان لحنا واحدا — وهذا من عجائب الإيمان والإرادة . .

فاليهودية إذن ليست تهمة إذا وصفوا بها . وإذا تمسكوا بها . .

وإذا أردت أن تجرب مدى تمسكهم بذلك . فقل لهم : ولماذا لاتكون إسرائيل دولة علمانية ، أى دولة ليس منصوصا فيها على الدين الرسمى للدولة كما كان يراد لمصر فى أيام جمال عبد الناصر.

يثور اليهود ويقولون لك : بل نحن دولة يهودية !

فإذا قلت لهم : ألم تقولوا إنكم إسرائيليون . . وإن هناك إسرائيليين عربا وإسرائيليين يهودا .

قالوا : ولكننا يهود أصلا وفصلا وقولا وفعلا وسلما وحربا !

ويعود بيجين مرة أخرى فيضع الملح على الجرح ويقول : بل أنتم أعداء للسامية !

وهو يشير بذلك إلى كثير من المقالات التى كتبتها ، وقد احتج رسميا على ذلك . . ولكن هذه التهمة : العداء للسامية . كانت شيئا مخيفا إذا قيلت لأى أوربى . .

وقد نجحت دور النشر والدعاية اليهودية فى الترويج لهذا التعبير والتخويف به .

وقد ظهر هذا التعبير فى ألمانيا من مائة سنة تماما . . وقد ابتدعه الكاتب فلهلم مار . . وقد وصف به عداء الأوربيين للساميين . أى لليهود . وهم ساميون لأنهم من أبناء سام بن نوح . . أى أنهم آسيويون والمعادى للسامية هو إنسان عنصرى ، أى أنه يؤمن بتفوق العنصر الآرى على أبناء سام من الآسيوين وأبناء حام من الأفارقة . . وهو لذلك إنسان متعصب وبيجين يريد أن يقول إننا متعصبون ضده وضد إسرائيل .

مع أن بيجين نفسه وكل الطبقة الحاكمة فى إسرائيل آريون أى أوربيون ولاعلاقة لهم بآسيا أو أفريقيا . فهم أجانب . وهم إذ عادونا نحن فهم معادون للسامية والحامية أيضا !

وإذا كان العداء للسامية معناه العداء لليهود فاليهود يلقون هذا العداء فى كل العصور من أيام إمبراطوريات بابل وآشور وروما . . وعندهم سجل طويل عريض للطرد والذبح والقتل لاتتسع له هذه الصفحة والصفحات التالية . فالعداء — إذن — للسامية قديم جدًّا . .

ونحن نريد لهذا العداء أن ينتهى بسلام . .

وهناك من يهود إسرائيل نفسها من لايؤمن بهذه الدولة ويرى أنها دولة ليست يهودية . لأنها لم تقم على النحو الذى أشارت إليه التوراة . . فلاجاء مسيح منتظر ولا أقامها إنما بالحديد والنار قد انتزعت إسرائيل أرضا وشردت شعبا . وقد رأيت هؤلاء اليهود واشتريت كتبهم . إنهم جماعة يسمون أنفسهم « مدينة كارتا » أى حراس المدينة . وهم يعيشون فى القدس . ولكن يحملون جوازات سفر أمريكية ولا يتعاملون مع إسرائيل وهم يؤمنون بالتوراة فقط . ولا يرون أن « التلمود » كتاب

مقدس . مع أن اليهود يرون أن « التلمود » أهم وأخطروأقدس من التوراة . وهؤلاء اليهود بعثوا إلى الملك حسين يستأذنونه فى زيارة « حائط المبكى » لأن حائط المبكى فى القدس العربية التى كانت للأدرد حتى حرب ٦٧ . وآلت الآن إلى الاحتلال الإسرائيلى . وهم لم يروا حائط المبكى الذى يبعد عنهم مئات الأمتار لأنه فى أرض تحتلها إسرائيل – هؤلاء هم الوحيدون فى العالم الآن الذين يصفون إسرائيل بأنها الدولة « المزعومة » .

ثم إن كاتبا يهوديا عظيما اسمه آرثر كيستلر قد أصدر كتابا عنوانه « القبيلة الثالثة عشرة » وفى هذا الكتاب يقول : إنه ليس لليهود الحق التاريخى فى أن تكون لهم أرض إسرائيل لأنهم أوربيون وليسوا ساميين !

ثم إن فى داخل إسرائيل اضطهادا واحتقارا لليهود الساميين . أى أن القيادة الإسرائيلية معادية للسامية . وكل هذا كلام يمكن أن يقال دفاعا عن السامية أو توضيحا للعداء لها . .

ولكننا لا نريد أن نعود إلى حسابات قديمة وإلى نبش القبور اللغوية والأضرحة التاريخية . . إننا نريد أن نصفى القديم وأن نصفو إلى الجديد . .

وبيجين يريد أن يقلب فى الرماد وأن ينفخ فى النار . فيثير العالم كله علينا ، ولكنه يثير عالما قد تعب من النفخ فى التراب وتعب من تقليب النار وتأليب الشعوب بعضها على بعض وتعب من الكراهية والمرارة ويريد السلام مع نفسه ومع غيره . .

ثم إن صدى مايقوله بيجين ليس فى صالحه . فالأقلام والأصوات تردد أنه يجب أن يكف عن لعبة قديمة مملة . وأنه جاء على المسرح متأخرا ، وأن طاقة القدر قد انفتحت له . وأنه من الخير له أن يقدم هدية السلام إلى شعبه وهو يحتفل بمرور ثلاثين عاما على قيام دولته . . بدلا من أن يضيف مزيدا من الدموع إلى عيون الأرامل والأيامى واليتامى فى إسرائيل . .

وبيجين يدعى ضعف الذاكرة فيقول إن الرئيس السادات قد قال له : كلهم شيوعيون . . وكان ذلك ردا على تساؤل بيجين : هل بين الفلسطينيين شيوعيون ؟

إن بيجين يتهم شعبا من أوله لآخره بأنهم عملاء كلهم . . إن بينهم شيوعيين . هذا صحيح وبين أعضاء المنظمة قيادات غير مسئولة . ومنهم إرهابيون ونحن نرفض الإرهاب ونستنكره ولكن الفلسطينيين معذورون . إنهم يقاومون ويحاربون بكل سلاح مستطاع .

ولكن بيجين يريد أن يضيف إلى مالم يقله الرئيس السادات : أنه مادام الفلسطينيون جميعا شيوعيين فسوف تصبح الضفة الغربية إذا استقلت دولة شيوعية !

وقال بيجين أيضا : إن مدينة نابلس التى سوف تكون عاصمة للدولة الجديدة على مدى ساعتين من أوديسا السوفيتية !

ولكن الرئيس السادات لم يقل هذه العبارة التى أطلقها بيجين وهو يتراجع عن موقفه القديم . ثم لنفرض أن بين الفلسطينيين شيوعيين ، أليس فى إسرائيل نفسها حزب شيوعى . أليس لهذا الحزب عضو عربى فى الكنيست !

وأكثر من ذلك : ألم تقم إسرائيل نفسها على أيدى رواد من الشيوعيين الروس والبولنديين ؟

ولكن مصر هى التى رفضت قيام دولة شيوعية فى المنطقة . . وترفض الشيوعية والتبعية المطلقة لأية دولة أجنبية . وقد ألح السوفييت على الرئيس السادات أن يعترف بالانقلاب الشيوعى فى السودان . ولكنه رفض ذلك ، حتى قامت الحكومة الثورية الشرعية فى السودان — وربما كان هذا الرفض هو الذى أضاف كثيرا من المرارة على ألسنة السوفييت والكثير من الحصى بين أسنانهم . وهذا يجعل من السهل عليك أن تتخيل وجه كوسيجين وهو يتحدث عن مصر والمبادرة والسلام !

* * *

إن أشياء كثيرة قد طرأت مابين لقاء السادات وبيجين فى فندق «كنج دافيد» بالقدس . . وبين لقاء السادات وكارتر فى «كامب دافيد» فى أمريكا . .

إن المبادرة كما يقول الفيلسوف سارتر : قد جعلت المستحيل ممكنا . . وسوف

يتحقق هذا الممكن يوما بعد يوم .

وإذا كان بيجين يريد منا أن نكف عن استخدام عبارات تضايقه . فهو أيضا يجب أن يكف عن استخدام قصص تضايقنا .

فليست كل مناسبة ، سواء كانت لشرب الشاى أو العشاء هى فرصته المفضلة لكى يروى لأطفال العالم : قصة أمنا العجوز والغول . . أو قصته المفضلة : دافيد وجولياث . وعلى الرغم من أن هذه القصة تضايقنى ، فلابد أن أحكيها . قال - أو يقولون - إن الأمير دافيد ظهر له رجل عملاق ضخم وحش . واعترض طريق كل الناس وتغلب عليهم . . وكان لابد أن يبعثوا له بشاب يحاربه ويخلص الإنسانية من الإرهاب الذى قطع طريقهم وأرزاقهم وراحتهم . وذهب دافيد الأمير اليهودى ليرى العملاق العربى الشرقى ، فوجده يحتمى وراء درع هائلة . وهذه الدرع ثقيلة لاتجعله قادرا على الحركة . ولم يكن عند دافيد سلاح إلا ذكاؤه ، وهداه ذكاؤه إلى أن يضرب العملاق بالطوب فى جبهته . . وظل يضربه فى جبهته بالطوب حتى سقط العملاق . انتهت قصة أبينا العجوز بيجين . وتلفت يمينا وشمالا ، مثل أسد « مترو » ليملأ أذنيه وعينيه بالتصفيق . أما المعنى فهو : أن العرب قوة غاشمة ، وأن إسرائيل قوة ذكية !

فلانحن قوة غاشمة . ولاهم الذين احتكروا الذكاء . وإنما الذكاء هواء يتنسمه الجميع . ولكن مواردهم من القوة لاحدود لها !

ثم إذا كانوا قد هزمونا فى سنة ١٩٦٧ ، فقد فعلنا نفس الشىء فى ١٩٧٣ ، وكان الطريق مفتوحا إلى تل أبيب كما أعلن موسى ديان بعد يومين من المعركة . . وبعد أربعة أيام أعلنت جولدا مائير كما جاء فى مذكرات رئيس الأركان أليعازر : أننا فى الحضيض وعلى أمريكا أن تفعل شيئا !

أما النكتة التى لايضحك لها أحد إلا بيجين فهى نكتة المستعمرات . وقد أقيمت أول مستعمرة على أرض فلسطين فى ظل الاحتلال العثمانى سنة ١٨٧٨ . وتوالت المستعمرات الزراعية . اليهود يجيئون ويشترون الأرض ولايعرفون كيف

يزرعون ويبعث لهم البارون روتشيلد بمن يعلمهم فلاحة الأرض . . حتى أصبح عدد المستعمرات التى أقاموها بين قيام دولتهم وحرب أكتوبر أى فى ٢٥ عاما ٥٠٠ مستعمرة زراعية . . وبعضها مستعمرات شيوعية لايملك فيها أحد أى شيء . وبعضها تعاونية . . ثم إنهم أقاموا فى سيناء ست مستعمرات أكبرها وأشهرها مستعمرة ياميت أى « البحر الصغير » عند رفح .

وعندما أعلن الرئيس السادات رفضه لهذه المستعمرات توقفت أعمال البناء وأعلن سكان هذه المستعمرة أنهم سيقاضون الدولة لأنها خدعتهم سنة ١٩٧١ عندما قررت أن هذه المستعمرات لن تعود إلى مصر . . ولقد تظاهر سكان هذه المستعمرة . وقالوا إن حكومتهم قد كررت وعد بلفور بصورة أخرى . . أى أن الدولة التى لاتملك الأرض أعطتها لمن لايستحقها . .

بالضبط كما أعطت بريطانيا بوعد بلفور أرض فلسطين لإسرائيل . . أى أعطت مالاتملك لمن لايستحق . .

والمستعمرات نكتة لأن إسرائيل تطلب منا أن نترفق بسكانها الذين جاءوا من السويد والنرويج وأمريكا بحثا عن الأمن والأمان . وحرام علينا أن نطردهم من بيوتهم !

إنها تشبه بالضبط حكاية الرجل الذى قتل أباه وأمه ووقف أمام القاضى يطلب الرحمة لأنه أصبح يتيما !

فعلا أصبح يتيما ، ولكن لأنه ارتكب جريمتين .

إنه احتل أرضا ليست له ، وأقام عليها بيتاً . أى أنه أقام بيتاً يملكه على أرض لايملكها . . ثم يطلب الرحمة حتى لانطرده من بيته !

أو كالذى يدخل بيتك ويسرق مالك ، فإذا خرجت له بالمسدس فى يدك قال لك : هذا لايتفق مع الشهامة إذ كيف تواجه بالسلاح إنسانا أعزل ؟ !

ولكنه دخل بيتا ليس له . وسرق مالايحق له !

وهذه المستعمرات نموذج للتفكير الذى يعرقل السلام . لأن المستعمرة هى

اعتداء على أرض الغير وانتقاص لسيادة الغير . .

ولايمكن أن يتحقق سلام دون أن نتفق أولا على هذه البديهية : لامساس بأرض الغير ولا بسيادته والذى يقال عن المستعمرات التى فى سيناء ينطبق على عشرات المستعمرات فى الضفة الغربية . ولذلك كان الجلاء عن المستعمرات أو « إجلاء » المستعمرين عن المستعمرات « مبدأ » وهذا مالايريده بيجين . ومن هنا كانت صعوبة إعلان المبادئ !

ونحن نريد أن نستخلص منهم هذا المبدأ ولكنهم يراوغون . .

* * *

والموقف صعب ومعقد . .

ولذلك فهناك اجتهاد سياسى يقول إن السادات ، إدراكا لكل هذه الصعوبات ، قد لجأ إلى العلاج بالصدمات . . فالمفاجأة صدمة هائلة . . وعقد مؤتمر القاهرة : صدمة . . وسحب اللجنة السياسية : صدمة . . وتحميل الرأى العام الأمريكى المسئولية كاملة : صدمة جديدة . لعل العالم كله يفيق ليرى إسرائيل وقد انكشفت نيات قادتها واحدا بعد واحد . .

وليس أسهل من الحرب . إنها قرار تنطلق بعده المدافع والصواريخ والصرخات والدموع .

وليس أبشع من ذلك أيضا . .

أما السلام فيبدأ بمد اليد المنزوعة السلاح وبالتحية والكلام .

لأن الهدم سهل والبناء صعب . .

ثم إننا لانعرف إسرائيل ، ولاهى تعرفنا . . ونحن لانلتقى إلا فى درجات حرارة عالية . . وإلا فى الدخان والنار والكراهية والخوف . . لم يعرف أحدنا الآخر إنسانا عاديا يتكلم ويصافح ويأكل ويشرب . .

لقد كان مشهدا رهيبا أن نرى من نافذة طائرة الرئيس السادات طائرات الفانتوم الإسرائيلية . . طائرات تحميه . . صورة خرافية . . إن طيارا إسرائيلية قال

لى : تصور أننى جئت لحماية زعيم عربى . . إننى أخاف عليه من الرافضين العرب إن هذه خرافة القرن العشرين !

ومادمنا قد اخترنا الكلام والسلام . فالجلوس طويل . والكلام كثير . والاختلاف ممتد . . وطريق السلام طويل والخطوات إليه قصيرة . وهذا ما حدث بعد الحروب جميعا .

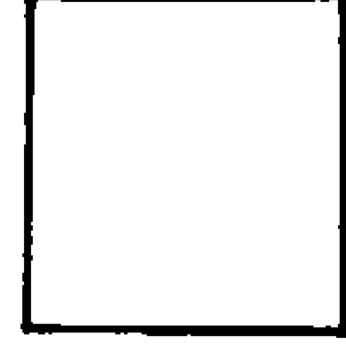
ولكن لابد أن نستفيد من التاريخ وألا نضيع الوقت فى أن نمشى فى نفس الطريق الطويل . . لقد اختصرنا عشرين عاما . . ولكن من كم عام اختصرنا هذه العشرين !

فى استطاعتنا أن نجعل الباقى خمس سنوات أو عشر سنوات أو عشرين أخرى . . إن الأمر متروك لشعوبنا وقياداتنا وللرأى العام العالمى وللملايين الأمهات والشباب . . ولكن السلام قد بدأ . .

إننى أعذر مناحم بيجين . . إنه مثل مايسترو يقود فرقة موسيقية . . لا يعرف إلا لحنا واحدا حزينا كريها عاش به وعليه ودخل من أجله السجن حتى ضعف بصره من المصابيح المضاءة ليلا ونهارا فى زنزانته . . وفجأة هبط عليه مايسترو آخر . . وقبل أن ينزل هذا المايسترو فوجئ بيجين بأن إسرائيل والعالم كله تعزف لحن المايسترو الجديد .

إن بيجين معذور إذا كسر عصاه ومزق آلته الموسيقية واتهم الجماهير بالخيانة والعداء للسامية ! !

فمن فندق « كنج دافيد » إلى ضاحية « كامب دافيد » يا قلب يجب ألا تحزن ، فإن كثيرا قد تحقق لنا وتحقق بنا !



شاهد على مناحم بيجين

يوم ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ زلزلت الأرض فى إسرائيل ، وفى المنظمات اليهودية فى العالم . لقد جاء مناحم بيجين إلى السلطة . وبمجىء بيجين إلى السلطة اتخذت القضية اليهودية شكلا دينيا صوفيا . وارتفع المد الدينى التقليدى فى إسرائيل كلها . وعاد إلى أذهان العالم كله أن فلسفة من التطرف العنيف سوف تتحكم فى التفكير الإسرائيلى من أوله لآخره .

فرئيس الوزارة الجديد إرهابى قديم ، وإن كان يتباهى بأنه لم يمسك قنبلة ولامدفعا فى يده . ولكن كان عقله يضع خططا للذين أمسكوا القنابل ضد الإنجليز فى فلسطين . جاء إلى الحكم لعدة أسباب :

أولا : أن اليهود الشرقيين – وهم أغلبية – قد ضاقوا بحزب العمل الأوربى . أى الحزب الذى يضم اليهود الغربيين (الأشكناز) الذين يتعالون على اليهود الشرقيين (السفاردى) فالغربيون جماعة من الأوربيين جاءوا يطبقون حياتهم وأحلامهم فى الشرق . وجعلوا الحزب دكانا مغلقا عليهم . فلم يدخل الكنيست (١٢٠ عضوا) سوى ٢٤ من اليهود الشرقيين . . ثم إن تعاليهم على بقية الشعب جعل المسافة كبيرة بين البيض والملونين فى إسرائيل . حتى قيل إن هناك فى داخل إسرائيل دولتين : إسرائيل الشرقية ، وإسرائيل الغربية ! . .

ولأن الشرقيين أغلبية فهم الذين أتوا ببيجين إلى الحكم وقد انضمت إليهم

الكتل الدينية . ولذلك كان مجىء بيجين إحياء جديداً للدين والغطرسة فى نفس الوقت .

ومن أهم دعاوى هذا الدين أن إسرائيل الكبرى ، تمتد من النيل إلى الفرات . . وعلى ذلك فالضفة الغربية وقطاع غزة (السامرة ويهوديا) أرض مقدسة . ولا يمكن الانسحاب منها . وهذا قرار نهائى . . وإلا فالحرب .

كما أن قانون العودة ينص على أن من حق أى يهودى أن يعود إلى إسرائيل وأن يملك أرضا . أى أرض فى أى موقع . والدولة سوف تدافع عنه حتى آخر جندى عربى ! . .

وثانيا : سوف تواجه الحكومة الجديدة البطالة الشديدة . وهى من مخلفات حزب العمل الذى يحكم إسرائيل منذ قيامها سنة ١٩٤٨ . . ولذلك فليس من صالح الدولة أن يتحقق السلام الذى يؤدى إلى تسريح الجيش . فإذا تم تسريحه كله أو بعضه . تضاعف عدد الأيدى المتعطلة . خاصة أن إسرائيل بعد حرب ٧٣ قد زادت قواتها المسلحة من ٣٥٠ ألفا إلى نصف.مليون ثم جعلت تجنيد المرأة إجباريا !

والزلزال الآخر عندما زار السادات القدس . فقد أدت هذه المبادرة إلى إحراج الدولة وإلى اضطراب برنامجها الذي أتى بها إلى السلطة .

وكان على بيجين أن يواجه السلام وأن يواجه المد الهائل فى الشعب اليهودى وفى العالم كله وعليه أن يختار بين السلام والدمار . بين أن يبقى فى الحكم ويتنكر لكل الدعاوى التى أتت به إلى السلطة ، وبين أن يساير مواكب السلام وأن يعدل فى خطوطه وأن يلين ، لأن هذه الفرصة النادرة لم تتح لأحد من قبل .

وسوف يدخل التاريخ كأشجع رئيس لوزراء إسرائيل منذ بن جوريون ، وأنه رجل ساهم فى صنع السلام فى الشرق وفى العالم كله . .

وليس بين اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل مثل هذا الرجل « إيلى الياشر » الذى صدر عنه كتاب بعنوان (فلسطينيون وعرب تعايش وإلا عقيدة إيلى الياشر) من تأليف فيليب جيلون . هذا الرجل (الياشر) قد كان صهونيا بارزا شارك فى المنظمات

الإرهابية . واختير نائبا لعمدة القدس وعضوا فى الكنيست سنوات طويلة . وهو الآن الرئيس الفخرى (لمنظمة السلام مع الفلسطينيين) وقد درس الطب أيضا فى بيروت ودرس الحقوق فى مصر وفى القدس . وهو فى الثمانين من عمره .

وعندما كانت الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب تحت الطبع .

جاءت مبادرة السلام . . فأحس الرجل أن هذه هى النهاية السعيدة لحياته الطويلة . .

فقال : لقد ظللت عشرات السنين أدعو للسلام مع العرب . وقد حقق الله لى هذه الأمنية بمبادرة السادات التاريخية الباهرة الشجاعة . فرأيت أن أضيف فصلا إلى هذا الكتاب الذى يعد تحية متواضعة لرجل شاءت له الأقدار أن يهب الحياة لملايين الناس فى الشرق وفى العالم . .

ولذلك فهذا الرجل اليهودى الصهيونى هو خير شاهد على روح العدل والإنصاف . . وهو خير شاهد فى محكمة التاريخ التى تفصل بين اليهود والعرب فى قضية فلسطين . . انه يرى ان للشعب الفلسطينى الحق الكامل فى ان تكون له دولة مستقلة - تماما كما اصبحت لليهود دولة . .

وهو خير شاهد على سوء فهم اليهود الخواجات الذين يحكمون إسرائيل التى يريدونها دولة شرقية فى قلب الشرق الأوسط وعلى علاقة سليمة شرعية بالجميع ؟ ! !

* * *

وهذا الرجل صهيونى إسرائيلى مخلص . ولذلك فهو يرى أن السلام ضرورة حياة . فقد عاش الشعب اليهودى خائفا . ودفعه الخوف إلى العدوان . ودفعه العدوان إلى الخوف وطلب الأمان من الذين أخافهم واستولى على أرضهم ، وحرمهم حق الحياة الذى فاز به هو أيضا . . وحرمهم من الحق فى أن يكون لهم وطن مثل وطنه .

وبيجين ومؤيدوه من جماعة (جوش أمونيم) المتطرفة التى ترى التمسك بالأرض

تنفيذا لإرادة الله ، ويؤمنون بأن « أرض المعاد » هى من عند الله .

ولكن لايوجد أى دليل فى التوراة على صحة ذلك ، فأكثر الناس تطرفا يقولون : إن الله قد وعد إبراهيم بأرض من النيل إلى الفرات . فليكن ذلك الوعد . ولكن مجرد الإيمان بذلك الآن يتجاوز حدود الدين إلى الخرافة ، ويتجاوز الخرافة إلى الجنون !

ثم أين يوجد ذلك النص الدينى الذى يقول إن الأرض هى التى احتلت بعد حرب ١٩٦٧ ؟ من قال ذلك ؟ ومن يصدقه ؟

إن التاريخ يقول لنا إن إسرائيل القديمة ربما امتدت إلى دمشق . ولكن ساحل البحر الأبيض كان ملكا للفلسطينيين والفينيقيين . .

والتاريخ يؤكد لنا مرة أخرى أنه فى خلال ٣٥ قرنا لم يعش على هذه الأرض شعب واحد . وحتى عندما كان اليهود يرون أن لهم أرضا اسمها « أرض المعاد » فقد أمضوا ٢٥ قرنًا لا يفكرون فى ذلك . . ولايرون أن هذه الأرض هى فلسطين بالذات . .

بل إن حاييم فايتسمان – عم وزير الدفاع الحالى – أول رئيس لجمهورية إسرائيل كان يقول إن هناك دولتين لفلسطين : إحداهما يهودية والأخرى عربية ! . .

ويوم أصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم رقص اليهود فى الشوارع .

ولكن العرب ارتكبوا أولى حماقاتهم عندما رفضوا التقسيم واختاروا أن يحاربوا قيام الدولة اليهودية . فلم تفدهم الحروب شيئا وقويت إسرائيل مستغلة قدراتها الذاتية . ومتشبثة بدينها ، وبالعون الخارجى ، حتى زادتها القوة جشعا وطغيانا .

ولكن بن جوريون ، وهو مهندس الدولة اليهودية أعلن مرة : لو خيرونى بين الأرض والسلام فإننى أختار السلام . . إلا القدس ! . .

ثم عاد يقول : واختار السلام فى القدس أيضا !

غير أن إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ وانتصارها الهائل . قد أيقنت أن هذه الحرب قد حلت لها كل مشاكلها ، فهى الآن خارج حدودها ، وهى الآن تدافع عن تل

أبيب من قناة السويس . وتدافع عن القدس من الجولان ، وتدافع عن ديمونة من الخليل . . فحرب ١٩٦٧ قد جعلت الحدود الآمنة هى حدودها السياسية !

ولم يكن غريبا فى سبتمبر ١٩٧٣ أن يعلن موشى ديان فى أوروبا : لو خيرونى بين أرض بغير سلام . وسلام بغير أرض . لاخترت الأرض !

وبيجين يقول الآن : لو خيرونى بين الأرض والسلام لاخترت الأرض والسلام !

ونحن نقول تعليقا على ذلك : الأرض لنا نحن والسلام لنا جميعا !

وقد اعتقدت إسرائيل أنها يجب أن تظل فى حالة الاستعداد القصوى . مثل أمريكا أقوى وأغنى دولة فى العالم ، أما حجة إسرائيل فى ذلك فهى أنها محاطة بالأعداء وأن أحدا لا يقبلها ولذلك فعليها أن تفرض وجودها وشرعيتها بالسلاح .

ولكن الحرب لم تضف لإسرائيل إلا مزيدا من المتاعب والشقاء ، فاليهود الذين كانوا يهاجرون إليها توقفوا . فلا أحد يريد أن يموت . ثم إن أرض المعاد . ليست هى أرض الأحلام . وإنما هى أرض الدمار . . ثم إن اليهود يتهمون العرب بأنهم قالوا : سوف ندفنكم فى البحر . .

ولكن اليهود هم الذين جاءوا بأقدامهم إلى أرض ضيقة . . فجعلوها جزيرة رموها فى بحر من العرب . . مائة مليون عربى ، وليس من المعقول أن تظل إسرائيل تحارب إلى الأبد . وتتهم العالم كله بأنه يتفرج عليها ، كما تفرج على اليهود عندما أدخلوا معسكرات الاعتقال وأفران الغاز النازية فى بلزن ودخاو وأوشفتس . .

ولكن هنا مغالطة ، فلم يكن اليهود يملكون أية قوة فى مواجهة هتلر والنازية . ولكنهم يملكون الآن القوة والسطوة . . أما الذين لاحول لهم ولا قوة فهم الفلسطينيون .

ثم ألا يتعظ اليهود بما حدث لبريطانيا فى الحرب العظمى الثانية ؟ لقد انتصرت فى هذه الحرب ، ولكن بعد الحرب تحولت الإمبراطورية البريطانية إلى دولة مستقلة . . وانسحبت بريطانيا ، بمنتهى الواقعية ، من دولة عظمى إلى دولة

كبرى . . وعرفت حدودها ، وأيقنت أنها ليست بالقوة تستطيع أن تبقى ونفس المنطق يجب أن تدركه إسرائيل فهى لا تستطيع أن تفرض وجودها بالقوة على جيرانها . .

وإذا تصورت إسرائيل أنها تستطيع أن تضم الأرض بالقوة ، وحجتها فى ذلك ما فعله الاتحاد السوفيتى الذى ضم أورروبا الشرقية كلها بالقوة ، فإن الاتحاد السوفيتى دولة عظمى ولا أحد يبرئ السوفيت من تهمة السيطرة والغزو والقهر ، ولكن إسرائيل دولة صغيرة ضيقة الأرض . . وهى تدفع ثمن هذا الضيق بأن تظل تحت السلاح دائما . . وهو ثمن فادح تبذله يوميا من راحتها ومن قوتها ومن تمزقها ومن ضيق العالم بذلك . .

وإلا كانت إسرائيل وهى تقلد السوفيت . تماما كما يقلد القط الصغير نمرا كاسرا !

وإذا كان اليهود الشرقيون الذين أتوا ببيجين إلى الحكم انتقاما من اليهود الغربيين . . قد وجهوا كراهيتهم للعرب . فإن هناك « يقينا » جديدا قد ظهر : أنه من المؤكد أن تنشب حرب بين إسرائيل وجيرانها من جديد . .

ولكن بعد مبادرة السادات وإيمان العالم كله بأنه رجل جاد فسوف تتجه عداوة نصف الشعب اليهودى إلى اليهود الغربيين ومن بينهم وفى مقدمتهم بيجين وبقية الصقور التى تحكم إسرائيل فى جو جديد من الرغبة فى السلام . لم يشهده ولم يتوقعه أحد من قبل !

ولو عدنا إلى التوراة ، ويجب أن نعود إليها كثيرا ونحن نتحدث إلى الرأى العام اليهودى الشرقى فى إسرائيل فإنها تقول فى سفر إشعياء :

تكون إسرائيل ثلثا لمصر وآشور : بركة فى الأرض !

أى أن التوراة لا تقول إن إسرائيل يجب أن تبتلع مصر وفلسطين والعراق وسوريا وإنما تكون جزءا من هذا كله وتكون بركة وليست لعنة على نفسها وعلى الجميع !

وفى إسرائيل جماعة متطرفون يرون التمسك بالأرض المحتلة . حتى لو أدى ذلك

إلى استخدام القنبلة الذرية ضد الفلسطينيين . ولكن عند استخدام القنابل الذرية فى هذه المساحة الضيقة سوف يكون القاتل قتيلا . ويكون المعتدى ضحية . .

ويكفى أن نعود إلى ما روته التوراة فى سفر « القضاة » عن الذى فعله شمشون الجبار . ثم ما الذى أصابه بعد ذلك . . لقد كان شمشون أحد أبناء غزة قويا عنيفا . . وأحب فتاة فلسطينية وقرر الزواج منها . واختلف مع أهل العروس وقتلهم ثم تكاثروا عليه فأطلق هو عددا من القطط ربط ذيولها معا . ثم أشعل فيها النار وتركها فى حقول قمح الفلسطينيين فأهلكت النيران كل شيء . . وعاد شمشون فأحب فتاة فلسطينية اسمها دليلة واتفق الفلسطينيون مع دليلة على معرفة مصدر قوته ؟ وعرفت أن شعره هو مصدر قوته واحتالت عليه حتى نام وحلقت له شعره فأحرقوا بالنار عينيه . . وسحبوه إلى السجن حتى طال شعره ثم أدخلوه المعبد ليهدمه عليه وعليهم . .

وأمام مناحم بيجين إما : أن يعيد مأساة شمشون بقوته الغاشمة أيضا ، وإما أن يكون رجلا للسلام والتعايش مع الفلسطينيين ولهم دولة مستقلة ذات سيادة . .

ولكن إذا نحن مضينا فى التهديد بالحرب فسوف يكون الرد عليه بالحرب أيضا . . وفى نفس الوقت سينقص عدد اليهود الغربيين ويتضاعف عدد اليهود العرب . . أى اليهود الشرقيين . . وسوف يزداد حرصهم على أن يكونوا دولة شرقية عربية وهذه هى المشكلة التى تزعج اليهود الغربيين فى إسرائيل .

وبينما يحرص اليهود الغربيون على أن يعيشوا فى إسرائيل وفى الشرق فإنهم يظلون غربيين منعزلين متعالين . . يحتفظون بأسمائهم الغربية . وأكثرهم يرفض أن يتكلم اللغة العبرية . . بينما المدارس الإسرائيلية لا تعلم تلامذتها اللغة العربية ، ولا تاريخ العرب . . وهذا هو التناقض الرهيب . . فإسرائيل فى الشرق ولايريدونها شرقية . . وأغلبها يهود العرب يتضاعف عددهم وتزداد هجرتهم إلى إسرائيل بينما يهاجر الغربيون من إسرائيل كما أن متوسط عدد الأسرة اليهودية العربية ستة أشخاص ومتوسط الأسرة اليهودية الغربية ثلاثة أشخاص فقط . .

ويرى اليهود الغربيون أن إسرائيل مقبرة لهم ، مع أنهم هم الذين أقاموها ودافعوا عنها . . ولكنهم سوف يتركونها للأغلبية الشرقية . ويحس اليهود الغربيون أنهم لن يكونوا أغلبية فى إسرائيل . .

ولذلك فهذا الرجل « الياشر » يرى أن اليهود الشرقيين هم إسرائيل الثانية .

* * *

ومنذ أيام بن جوريون والتهديد بالحرب تتغير نبرته وحدته من سنة إلى سنة فعندما أعلن الشيشكلى أنه سوف يضرب تل أبيب من دمشق : على مدى ٦٠٠ كيلو متر ، اعلن بن جوريون أن الشيشكلى يجب أن يعرف أن لدى إسرائيل طائرات أسرع !

ومن الأفضل أن يتذكر بنو إسرائيل عبارة قالها الرئيس التشيكى بنيش عندما اقتطعت ألمانيا جانبا من أرضه : إن بلادى صغيرة ولكنى أمتلكها !

وأفضل ليهود إسرائيل أن يمتلكوا أرضا يعترف بها العالم كله ، على أن يطالبوا بامتلاك أرض أوسع بالقوة وضد القانون والعرف الدولى وضد الأمن الذى يتمنونه ، والشرعية التى يحلمون بها !

* * *

ولكن هناك تغيرات طرأت على فكر بيجين نفسه . فبعد أن كان يقول مثل جولدا مائير : لا توجد أرض اسمها فلسطين . ولا شعب فلسطينى . فهو الآن يتحدث عن الفلسطينيين .

ثم إنه تفضل « مشكوراً » فقال : إن هناك أرضا واحدة اسمها فلسطين : فيها فلسطينيون يهود وفلسطينيون عرب .

وبعد أن كان يقول إن إسرائيل الكبرى قضية لا تقبل المناقشة . . أعلن أن كل شىء قابل للمناقشة والتفاوض . .

وبعد أن كان يقول إن الضفة الغربية وقطاع غزة أرض مقدسة ، راح يتحدث عن احتلالها لاعتبارات تتعلق بالأمن وليس بالدين أو بوعد مقدس !

وبعد أن كان يرفض التفاوض فى مستقبل الضفة الغربية تقدم باقتراح أن يحكم الفلسطينيون أنفسهم حكما ذاتيا . . وبعد أن كان لا يتحدث مطلقا عن القرار ٢٤٢ الذى ينص على عدم جواز احتلال الأرض بالقوة فإنه يوافق الآن على هذا القرار مع تعديلات طفيفة . ونحن نوافق أيضاً .

وكان بيجين يتحدث عن المستعمرات وضرورتها الإنسانية للشعب اليهودى ويتحدث الآن عن أهميتها العسكرية . ثم عدل عن أهميتها من ناحية الأمن أى أنها « مادة للتفاوض » . .

ولكن بيجين يراوغ ويعتذر عن كل الذى يقوله بلسانه أو بلسان غيره . .

وهذا يضاعف صعوبة الموقف عموماً بيننا وبينه بشأن الانسحاب كله والدولة الفلسطينية وطبيعة السلام !

وبيجين مثل إنسان يطلق النار فى كل الاتجاهات وهو يتراجع أمام الذين انتخبوه لكى يتقدم نحو حدود أكثر أمنًا .

فهو يطلق النار على أمريكا . ويطلق النار على معاونى الرئيس السادات فى وزارة الخارجية . ويهاجم الصحف المصرية . ولكن الرأى العالمى كله بدأ يرى أن بيجين ليس رجل سلام ، ثم إنه وعد شخصيا بأشياء كثيرة للرئيس كارتر والسادات ، ثم عدل عنها .

وأمام بيجين فرصة أخرى غير أن يكون شمشون الذى حاربه الفلسطينيون وحاربهم ، هو أن يكون مثل الجنرال ديجول .

فديجول نجح فى الانتخابات الفرنسية لأنه وعد الشعب الفرنسى بأن يتمسك بالجزائر فرنسية ، ولكن ديجول بعث برجاله يجلسون مع جبهة التحرير الجزائرية فى مدينة إفيان . وانتهت الاجتماعات مع هؤلاء الجزائريين الذين كانوا يسمونهم إرهابيين . باستقلال الجزائر ، وصفق الشعب الفرنسى لديجول الرجل الذى عاش ومات نموذجا للابن البار للدولة التى نادت بالحرية والإخاء والمساواة فغيرت وجه العالم كله .

ولا يستبعد الذين يعرفون الرأى العام الإسرائيلى والرأى العالمى اليهودى . والضغط الواقع على بيجين أن يكون داعية قويا للسلام . كما كان داعية عنيفا للتمسك بالأرض عن طريق الحرب !

وقد حاول بيجين فى لقائه بالسادات أن يعود إلى عبارته المشهورة لماذا لا نتفق على أن نختلف ونبقى أصدقاء ! . .

هذا ممكن . . أن نتفق على خلافات صغيرة ولكن من الصعب أن يطول الخلاف ، ونظل أصدقاء . . فليست المشكلة هى أن يسافر السادات إلى القدس . وأن يجىء بيجين إلى الإسماعيلية أحمر العينين بعد أن أزعجته طول الليل جماعة « جوش أمونيم » يتهمونه بالتفريط . . ولكن المشكلة هى مصير الشعوب . وجدية الموقف . والمعجزة التى تحققت فى ٣٠ ساعة ! .

ونحن نعرف أنه ليس سهلا أن نحب إسرائيل ولا شعبها ولا قادتها ولاهم أيضا فلا نحن نسينا ما حدث فى ١٩٦٧ ولا هم نسوا ما حدث فى ١٩٧٣ . . بل إن بعض المتطرفين يطالبون بالانتقام من هزيمتهم أمام بسمارك فى ١٨٧٠ . .

ولكن الحروب مثل ماء البحر : مهما شربنا منها فلن نرتوى . وسوف تؤدى الهزيمة إلى طلب الثأر . وسوف يؤدى الثأر إلى ثأر آخر . . إلى غير نهاية . . أو حتى نهاية كل المحاربين ، والسبب : غلطة طويلة عريضة قديمة !

هذه الغلطة هى أننا نرى اليهود فى صورة كريهة . . فاليهودى هو الإنسان القبيح الوجه .

واليهود يرون أن العرب كذابون خونة وجهلة وأنهم لا يصلحون للقتال .

ويقول « الياشر » : لقد عرفت فيهم الصدق والأمانة وعاملتهم وأخذت منهم وأعطيتهم دون ورقة مكتوبة !

وإذا كانت حرب ١٩٦٧ قد أكدت لليهود أننا لا نعرف القتال . وأننا ولدنا لنهزم دائما ، فإن حرب ١٩٧٣ قد أثبتت قدرتنا على القتال وإصرارنا على النصر ، وأكدت أن العرب فى الأزمات يتضامنون ، وأن دول البترول قد استخدمته سلاحا

ضد إسرائيل وضد العالم كله . !

إن غلطتنا جميعا أساسها : سوء الظن الذى يؤدى إلى سوء الفهم وسوء التقدير . . فنهون من قدرهم ، ونهول من قدرنا !

فإذا التقينا وجدنا أننا لا يعرف أحدنا الآخر ! .

يحكى لنا الفيلسوف الوجودى سارتر أنه عندما سافر إلى الصين . اكتشف الغلطة الفظيعة التى راح ضحيتها العالم كله . فكل ما كتبه الأدباء والمفكرون والساسة عن الصين ليس إلا غلطة واحدة . فقد حمل كل واحد منهم صورة للرجل الصينى . الصورة تقول إنه غامض . إنه خبيث . إنه عدو لكل الناس . . وذهب الناس إلى الصين . وحاولوا أن يطبقوا الصورة على الأصل .

ولكن الأسلوب الصحيح هو أن نمزق هذه الصورة وأن نواجه الشعب الصينى وأن نعايشه لنعود وفى جيوبنا صور أخرى أصدق .

يقول الفيلسوف الوجودى سارتر : إن أهل الصين عندما يستخدمون الأحذية الحديد ويضعونها فى أقدام السيدات فلسبب تقليدى . هو أن الرجال يفضلون الأقدام الصغيرة للمرأة . ولذلك سجنوها فى الحديد .

إن الغرب كله قد وضع الصين (أكثر ٧٠٠ مليون نسمة) فى أحذية من الحديد . . فارتكبوا جريمة كبرى ضد الشعب الصينى العظيم ، وضد العقل السليم وحسن الإدراك . .

وهذه غلطتنا مع إسرائيل وغلطة إسرائيل معنا . . ولا أعرف إن كان يعزينا نحن العرب أن إسرائيل هى الأخرى ضحية مثلنا . . فحكامها غربيون لا يعرفون الشرق ولا تقاليد الشرق ولا عاداته . وإنما هم أناس جاءوا من أوروبا ومعهم بيئتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقوالبهم الحديدية . . التى أدخلوا فيها مع اليهود الشرقيين كل العرب . .

ويتراكم الظلم وسوء الفهم والظلم والكراهية وسوء الظن مع الظلم القائم على سوء الفهم وسوء التقدير ، وبذلك أصبحنا جميعاً على مدى مليمترات من

الكراهية التى هى ابنة شرعية للخوف من كل ما هو شرقى يهودى أو شرقى مسلم أو مسيحى !

ومع التغييرات الجوهرية التى طرأت على بيجين ، وسوف يزداد تغيره بعد ذلك كان لابد أن تختفى هذه الادعاءات الخرافية الجنونية التى يطلقها ديان وزير الخارجية اليوم . ووزير الدفاع ١٩٦٧ . وكذلك ما يعلنه شارون قائد الثغرة ووزير الزراعية ، فكلاهما يتحدث عن المستعمرات اليهودية ، باعتبارها أرضا يملكها اليهود ، مع أن الذى يملكونه هو البيوت والأشجار التى أقاموها وزرعوها فى أرض مغتصبة !

وفى آخر سبتمبر من العام الماضى أعلن موشى ديان : أفضل لنا أن نعارض قيام دولة فلسطينية الآن حتى لو أدى ذلك إلى الحرب ونحن على استعداد لها . على أن تقوم دولة فلسطينية الآن . ثم نحاربها بعد عشر سنوات ونحن على غير استعداد لمحاربتها والانتصار عليها !

ولكن موشى ديان – استمرارا فى تغيير المواقف وفى المرونة الضرورية – أعلن أن المستعمرات ليست مشكلة ، ولكن الذين يتابعون ديان باهتمام يرون أنه كرجل عسكرى وجديد على السياسة يغير تصريحاته ويتنكر لها ويراوغ . فلعل هذه التصريحات هى من قبيل المظاهرات أمام الرأى العام اليهودى . . حتى يتوهم العالم أنهم ليسوا متشددين كما تقول عنهم مصر !

وفى نفس الوقت كان قد تعهد بيجين للرئيس كارتر ألا يبنى مستعمرات من جديد ، ولكنه أقام المستعمرات وترك المواطنين يزرعون الأشجار . .

ولكن الشىء الذى يلفت النظر ، وهذا يدل على أعماق المواطن اليهودى : أنهم عندما يقيمون المستعمرات ويزرعون فيها وحولها الأشجار ، فإنهم يحيوطنها بالأسلاك الشائكة لماذا ؟ إنه الخوف ، إنه عدم الشعور بالأمن والأمان . . مع أنهم فى الصحراء . ومع أنهم الدولة الأقوى والتى تحتل الأرض . . وأنهم المسلحون وأن العرب حولهم مجردون من السلاح .

وتلك مشكلة إسرائيلية وعلى قادة إسرائيل أن يحلوها ، وأن يخففوا قبضة ثلاثة ملايين مواطن على السلاح الذى يمسكه !

* * *

لقد كانت : لا . . التى جاءت فى مؤتمر الخرطوم نكتة للعالم كله ودليلا على العقلية العربية التى قالت : لا . . للتعايش مع اليهود فى فلسطين . والتى قالت لا . . لتقسيم فلسطين ، وبعد ذلك قال الفلسطينيون : لا . . لتكوين حكومة فلسطينية فى المنفى وقالوا : لا . . لمبادرة السادات . .

وقالوا : لا . . لمؤتمر القاهرة التمهيدى والجلوس مع اليهود وفوقهم العلم الفلسطينى . .

أما النكتة الجديدة فهى : أن إسرائيل تقول : لا . . للانسحاب الشامل . . وتقول لا : لطبيعة السلام . . وتقول لا . . لقيام الدولة الفلسطينية . . وتقول : لا . . للرأى العالمى كله الذى يريد السلام لإسرائيل وللعرب وللعالم كله . .

وكما أن السادات قد ألغى « لألأة » العرب جميعا . . فعلى مناحم بيجين أن يفعل نفس الشيء وذلك كسب له ولحزبه ولإسرائيل التى تريد الأمن فى حدودها والشرعية فى أسرة الشرق الأوسط !

مع أننا الذين يجب أن نطلب السلام والحدود الآمنة . . فقد اعتدت إسرائيل على أرضنا فى كل الحروب .

ثم إنها دولة تملك القنبلة الذرية !

* * *

إن هذا الكتاب من إسرائيلى صهيونى عايش العرب ورأى مبادرة السادات كإكليل من الغار يوضع على رأس الذين اتخذوا مثلهم الأعلى : شجاعة السلام !

هذه المجلة والسيد بيجين !

هل أشكر أجهزة الإعلام الإسرائيلية على اهتمامها الشديد بكل ما تنشره مجلة « أكتوبر » ؟ هل أعيب على الحكومة الإسرائيلية عدم التدقيق فى اختيار أناس يعرفون اللغة العربية بدرجة لا تجعل رئيسهم عصبيا بلا مبرر . . وتجعله يؤكد لليهود الشرقيين الذين أتوا به إلى الحكم أنه خواجه أجنبى ، وليس شرقيا كالدولة التى يرأسها . .

فقد حدث بعد أن سمعت خطاب بيجين فى الكنيست أن قلت لياوره إنه خطاب سيئ وأن بيجين رد على السادات بصورة غير لائقة . . كأنه تصور أن السادات مرشح فى دائرة القدس الانتخابية أمام بيجين فجاء خطاب بيجين على نمط الخطابات التقليدية الجافة والسخيفة أيضا . .

وبسرعة ذهب ياور بيجين إلى التليفون . وبعد لحظات سمعت الإذاعة تقول : إن رئيس تحرير مجلة أكتوبر قد عاب على السيد بيجين خطابه السيئ . . ولابد أن تكون هناك أخطاء فى الترجمة !

ثم اعتذرت إسرائيل عن الترجمة ووزعت نصا إنجليزيا وعربيا وعبريا أى أنها غلطة فى الترجمة !

وفى المرة الثانية ثار السيد بيجين على ما نشرته مجلة « أكتوبر » أيضا عندما سألت الرئيس السادات عن مصير المطارات اليهودية على أرض سيناء فكان رده : عليهم أن يحرثوها قبل خروجهم !

وثار بيجين فقد ترجموا له كلمة « احرثوها » بكلمة أخرى هى « احرقوها » . وقال عبارة غليظة هى أنه يكفى العالم كله نيرون واحد كان يحرق روما وهو يغنى !

ثم اعتذر لمحمد إبراهيم كامل وزير الخارجية السابق عن هذه الترجمة الخاطئة .

ثم اعترف موسى ديان لوزير خارجيتنا بأنه فعلا قد حرث الطرقات والمطارات

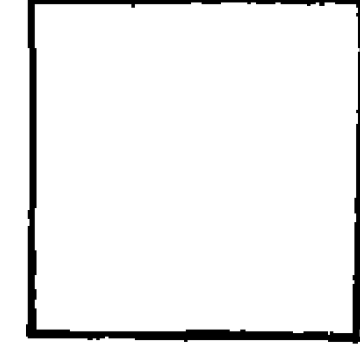
المصرية فى حرب ١٩٦٧ .

وأخيرا ثار السيد بيجين لأننى قلت إن مبادرة السادات لم تسكره . بينما انتشى الشعب اليهودى والعالم كله . . وإنه يشبه « البارمان » الذى يقدم الخمر للناس ولا يشرب هو ، حتى يعرف كيف يحاسب الزبائن . . ولو شرب هو أيضا لضاعت عليه فلوسه !

ونقلوها له أننى أقول إنه يشبه البارمان الذى يقدم شرابا مغشوشا .

وأنا أردت أن أعيب عليه جموده ولكن المترجم قرر أن يشتمه .

وسوف يقع اللوم للمرة الثالثة والرابعة والعاشرة على المترجمين الخواجات الذين لا يعرفون اللغة العربية لغة المائة مليون عربى الذين يريدون أن يعيشوا معهم فى سلام أبدى !



عندما قال بيجين : كل شئ قابل للتفاوض .. كان يقصد كل البديهيات أيضاً

عندما أعلن مناحم بيجين : أن كل شيء قابل للتفاوض سجل المؤرخون تغيرا عظيما فى فلسفة الرجل .

لأن معنى هذه العبارة أن القضايا البديهية التى كان يتمسك بها ولا يقبل أن يناقشه فيها أحد . سوف يجلس ليناقشها مع مصر ، وأن هذه المناقشة قد تؤدى به فى النهاية إلى الانسحاب من كل الأرض التى يحتلها .

وخصوصا أن بيجين ومؤيديه قد انسحبوا من الحكومة فى سنة ١٩٧٠ عندما أعلن موسى ديان أنه لابد من قبول القرار ٢٤٢ أى القرار الذى يطالب إسرائيل بالانسحاب من الأرض المحتلة ، وقد فهم بيجين فى ذلك الوقت أن هذا يعنى الانسحاب من الضفة الغربية وتركها للأردن فانسحب من الحكومة الائتلافية فى ذلك الوقت .

إذن فهذا الرجل يقبل مناقشة القرار٢٤٢ ويقبل مناقشة الانسحاب الكامل أو الجزئى أو المرحلى من الضفة الغربية !

ولكن هذا الاجتهاد فى فهم عبارة بيجين هذه كان خاطئاً . لأن بيجين كان يقصد شيئا آخر هو : أن كل البديهيات المصرية – أيضاً – قابلة للمناقشة .

فإذا نحن طالبنا بالانسحاب الكامل من الأرض المحتلة ، فإن كل هذه الكلمات يجب أن نناقشها أولا بأول ، ولذلك قيل لنا : ما الذى تقصدونه بالانسحاب هل

هو الانسحاب دون تعديلات ؟ هل هو الانسحاب من قطعة أرض مقابل قطعة أرض أخرى ؟ هل الانسحاب «كامل» لأن القرار ٢٤٢ لا ينص على الانسحاب الكامل إنما على الانسحاب من بعض الأرض ؟ وهل الأرض « المحتلة » تنطبق على الضفة الغربية أيضا ؟

لأن إسرائيل – وبيجين بصفة خاصة والأحزاب الدينية – ترى أن الضفة الغربية أرض إسرائيلية وأنها تحررت وعادت إليها تحت اسمها العبرى : السامرة ويهوديا ، وأن الأرض المقدسة على جانبى نهر الأردن حتى البحر ؟ !

وإذا نحن طلبنا أن نصل إلى « المبادئ » – أى إلى القاعدة العامة أو القانون ، فإننا بعد ذلك ندخل فى التفاصيل الصغيرة والكبيرة ، ولكن إسرائيل ترى أننا يجب أن نبدأ بالصغير ، وصولا إلى الكبير ، أى أننا إذا اتفقنا على الأشياء الصغيرة ، كان ذلك اتفاقا على الأشياء الكبيرة أيضا .

أو بعبارة أخرى : إن موقف مصر فلسفى ، وموقف إسرائيل عملى .

ولذلك اختلفنا وكان لابد أن تنقطع المفاوضات لأن إسرائيل مصرة على مناقشة كل شىء صغير ، حتى لا نصل معا إلى أى شىء كبير . ومعنى ذلك أن هذه المفاوضات ليست إلا ستارا شرعيا لتغطية موقف غير شرعى وغير أخلاقى .

ولم تخف إسرائيل موقفها هذا ، وإنما أطلقت ألسنة وزرائها يتحدثون فى القضايا الجزئية مثل : المستعمرات .

وأصبحت نكته لغوية عندما تنشر الصحف الإنجليزية كلها أن مصر تريد « التسوية » وإسرائيل تريد« التسوية » – والنكتة هنا أنه فى اللغة الإنجليزية توجد كلمة واحدة للدلالة على التسوية وللدلالة على المستعمرات هى كلمة Settlement .

وهناك خلاف آخر أعمق من ذلك . هو أن السلام الذى فهمته إسرائيل هو سلامها هى . . . أى أمنها هى . فإذا قلنا لإسرائيل إننا سوف نضمن لها الأمن والسلام .

كان السؤال : ومن الذى يضمن لنا السلام ولمدة كم من السنوات ؟ . .
ويكون ردنا :

إننا نستطيع أن نضمن لكم السلام إلى الأبد . ويكون السؤال : كيف يتكلم إنسان ، أى إنسان عن الأبدية وهو سوف يزول بعد عشرة . . أو عشرين عاما ! فنقول لها :

إذن . . فلتضمن السلام دولة عظمى . . أو لتضمنه الأمم المتحدة .

ويكون رد إسرائيل : لانريد طرفا ثالثا . . يجب أن نتفق معا وعلى هذه الأرض وفى المنطقة !

– موافقون على ذلك تماما . ومن أجل هذا كانت المبادرة تعالوا نتفق .

– على ماذا ؟

– على الانسحاب الكامل .

– وما الذى تقصدونه بالانسحاب الكامل ؟

– خروجكم من كل الأرض المحتلة .

– ومن قال « كل » الأرض المحتلة .

– القرار ٢٤٢ .

– ولكن القرار يقول : الانسحاب من أرض محتلة . وليس كل الأرض المحتلة .

– إذن فلم نتفق .

– بل اتفقنا . . لأننا نجلس معا . ولم يكن ذلك ممكنا قبل المبادرة .

– ولكنكم قد عدتم إلى ماكنتم عليه قبل المبادرة .

– لم نعد . . ولكن أنتم تتعجلون الأحداث وليس عندكم صبر .

– بل عندنا صبر ، ولكنكم لستم جادين إنكم تريدون إضاعة الوقت . . أو الاستفادة من الوقت لعل العرب يزدادون تمزقا . . ولعل الناس يملون المفاوضات ويعودون إلى الحرب . . ولكنكم قد انكشفتم أمام الرأى العام فى إسرائيل وفى

أمريكا وفى العالم . . إنكم لا تريدون السلام . . وليس صحيحا أن العرب يتعالون عليكم ويحتقرونكم . . ويرفضونكم . . ولا يريدون أن يضعوا أيديهم فى أيديكم . . . ومن الممكن أن يطول النقاش اللفظى إلى غير نهاية . ولذلك كان لابد أن نضع نهاية للمفاوضات العسكرية والسياسية فلا تختلف هذه اللجنة عن الأخرى . . لا فى مواقفنا . ولا فى مواقفهم . .

وقد أدت هذه المفاوضات المنقطعة إلى شعور باليأس وخيبة الأمل . . وتنبه الناس ، بعد أن نسوا ذلك بعض الوقت إلى أننا نفاوض اليهود . . أكبر سماسرة فى التاريخ وأننا يجب أن نفطن إلى هذه الحقيقة كلما جلسنا إليهم . وأنه من الصعب أن نغير طباعهم أو تكوينهم أو أن نزيل رواسب التاريخ الأسود المرير ، فى لقاء واحد ، إنه شىء صعب . فالمبادرة قد غيرت « مسار » الأشياء ، ولكنها لم تغير « طبائع » الأشياء . .

والمبادرة الخاطفة الباهرة قد اختصرت من سنوات الحوار والمفاوضات السرية والعلنية عشرين عاما . ولكننا لم نسأل أنفسنا : اختصرت عشرين عاما من كم من الأعوام ؟

اختصرت عشرين من ثلاثين ؟ إذن فأمامنا عشر سنوات . . أو هل اختصرت عشرين عاما من ٢٥ عاما ، إذن فأمامنا خمس سنوات . .

أى أن الباقى أمامنا سنوات طويلة وقد نسينا ذلك .

ونسينا أن فك الاشتباك الأول قد استغرق ٢٦ جلسة مع أن فض الاشتباك قد أسفر عن مساحات ضئيلة من الأرض ، وكذلك فك الاشتباك الثانى . وأن أمريكا نفسها قد أمضت سنوات تبحث عن شكل « ترابيزة » المفاوضات مع فيتنام . . وأن أمريكا نفسها وبجلال قدرها وجبروتها لم تنته بعد من مفاوضاتها مع بناما . منذ ١٣ عاما – أقوى دولة فى أمريكا وفى العالم مع أصغر دولة فى أمريكا كلها !

وتساءل اليهود : لماذا هم عصبيون هؤلاء المصريون ؟ لماذا يفرضون مزاجهم علينا . . لماذا هم يتعجلون النتائج ولا يرون إلا مشاكلهم دون أن ينظروا إلى

مشاكلنا وأحزابنا الدينية والسياسية و « تركيبتنا » الاجتماعية الشديدة التعقيد ؟

ولكن إسرائيل كاذبة فى هذا الموقف ، لأنها لم تكتف بوضع المشاكل أمام المفاوضين ، وإنما راحت تفتعل المعارك : كأن تهاجم الصحف المصرية وتهاجم المفاوض المصرى وخبراء وزارة الخارجية المصرية . ثم تتهم الإعلام المصرى كله بأنه عدو لليهود وعدو لإسرائيل . . كأن العداء لليهود غلطة يجب التكفير عنها . طبعا كمسلمين أعداء لليهودية ، ونحن كمصريين أعداء لإسرائيل لا شك فى ذلك ، وليس من المعقول أن نحب شعبا أو دولة تحتل أرضنا ، ولا أن نقدس دينا يرى أن احتلال أرضنا واجب علينا وحق له !

ومثل هذه العبارات كان اليهود يستخدمونها ضد الأوروبيين لتخويفهم . ولكن الذى بيننا وبين إسرائيل حرب طويلة واستعداد لقتال طويل . . ولكننا لا نريد حربا ، وإنما نريد سلاما . . فإذا كانوا لا يريدون الحرب وفى نفس الوقت يريدون السلام . . فيجب ألا نصدقهم لأنهم هم أيضا بشر ولأنهم قد تعبوا من كراهية العالم كله لهم . . فهو عبء على ميزانية المواطن الأمريكى المسيحى واليهودى أيضا . . وهم صداع فى رأس البشرية ، فالناس لديهم همومهم الأخرى الكثيرة والبشرية من أولها لآخرها يجب ألا تموت من أجل مناحم بيجين والآخرين من ذوى الأعناق الغليظة وأصحاب الهوس الدينى .

* * *

وعندما اتجهت مصر إلى أمريكا لكى تعاون فى حل هذه المشاكل التى تتوالد بيننا وبين إسرائيل كان سبب ذلك أن أمريكا لها علاقة خاصة بإسرائيل ، وهذه العلاقة معروفة ، وهى علاقة مبدئية . — أى أنه من مبادئ السياسة الأمريكية معاونة إسرائيل والإبقاء عليها فى جميع الأحوال . ولا أحد يعترض على ذلك وحتى إذا اعترض ، فإنه لايقدر على تغيير السياسة الأمريكية .

ومادامت أمريكا تعطى لإسرائيل كل ماتحتاج إليه من مال وطعام وسلاح ، فهى تستطيع أن تضع رأسها على كتفيها وأن تفتح عينيها وأن تبصرها بخطورة الموقف

المتشدد الذى تتخذه إسرائيل على المصالح الأمريكية فى المنطقة ، وعلى المصالح الإسرائيلية .

وإسرائيل تعلم أنها « طفل رضيع » على صدر أمريكا . وأن هذا الطفل لايريد أن ينفطم مطلقا . وإنما يظل يرضع اللبن والعسل والذهب والفانتوم إلى الأبد . . وفى نفس الوقت يظل يبكى ويصرخ خوفا من المائة مليون عربى والسبعمائة مليون مسلم . وألفى مليون مسيحى عندهم من المتاعب والمشاكل أضعاف ماعند الشعب الإسرائيلى !

ولاشىء يجعل إسرائيل ، حكومة فقط ، تفقد صوابها إلا الاتجاه إلى أمريكا فإسرائيل تؤكد أن أمريكا ليست وصيا عليها ، وأن أمريكا لاحق لها فى أن تتدخل فى سياستها أو سيادتها ، وأن إسرائيل دولة مستقلة ذات سيادة .

وأمريكا لأن لها مشاكل أخرى غير الضغط اليهودى الإعلامى والمالى والسياسى ، تؤكد هى الأخرى أن لها حدودا فى الحركة وأن لها حدودا فى الضغط . وأنها لاتستطيع إلا القليل ، وأن علينا أن نتفاهم معا . أى دون أن يكون هناك طرف ثالث .

وهى عقدة الدولة الصغيرة جدًّا ، القوية بسبب دولة كبيرة جدًّا .

ولذلك انزعجت الحكومة الإسرائيلية من أن الرئيس السادات قد اتجه بمشاعره إلى الشعب الأمريكى وإلى الجاليات اليهودية فى أمريكا ، وأحست الحكومة الإسرائيلية أن الرئيس السادات قد نقل القضية من محكمة صغيرة فى الإسماعيلية أو القاهرة أو القدس إلى محكمة دولية على كل شاشات التليفزيون وفى كل بيت . لأن السادات يدعو للسلام الذى يحلم به كل إنسان وكل مجتمع وكل دولة وكل الشعب اليهودى والشعب المصرى والعربى أيضا .

وتخفيفا لهذه « العقدة » فإن الحكومة الأمريكية حاولت أن تتفادى أن تكون طرفا فى هذه القضية – وهو افتراض من الصعب تصديقه . لأنها بالفعل طرف . ولأن السلاح الهائل الذى تعطيه لإسرائيل هو الذى جعلها فى حالة حرب مستمرة

وفى حالة تصعيد دائم ، وتشبث بالأرض طلبا للسلام !

ولذلك فإذا كانت أمريكا جادة فى دعوى السلام ، فلتمسك يدها عن إعطاء السلاح بلا مبرر لإسرائيل — إلا إذا كانت إسرائيل تريد أن تحارب العرب ، وإلا أن تبيع السلاح لأفريقيا لكى تجعل هناك نقطا ساخنة فى العالم تهدد بها أمريكا وتشغل العالم عن النزاع العربى الإسرائيلى .

ولذلك طالب الرئيس السادات بنفس الأسلحة لمصر . .

وطالب أيضا بإعطائه أسلحة لكى يساعد بها الصومال وتشاد . لأن إسرائيل وليبيا والسوفييت يساعدون أثيوبيا .

وكان الرئيس السادات قد شرح للرئيس كارتر فى أسوان موقف الصومال . وعرض عليه حاجة الرئيس سياد برى إلى الأسلحة . وطلب الرئيس كارتر توضيحا لموقف الرئيس الصومالى . ولذلك أعلن الرئيس الصومالى فى بيان بعد ذلك موقفه بوضوح .

وبعد ذلك قدمت له ألمانيا الغربية معونة عسكرية .

وبجزء من هذه المعونة اشترى أسلحة من مصر .

وكذلك تلقى معونات من السعودية ومن إيران . .

وأعلن موسى ديان أن إسرائيل سوف تمضى فى مساعدة أثيوبيا .

وقال : لأن أثيوبيا صديق قديم ، ولأن المسلمين سوف يحتلون البحر الأحمر . فلا يبقى أمام إسرائيل سوى أثيوبيا المسيحية . .

كما أن الرئيس السادات قد ناقش الموقف فى « القرن الأفريقى » مع الرئيس كارتر . وقد أضيفت الفقرة الخاصة بالقرن الأفريقى إلى البيان الذى أعلنه كارتر ، وجاءت هذه الإضافة بعد أن طبع البيان ، ولكن قبل توزيعه على أجهزة الإعلام العالمية . .

ولاتزال أمريكا بعيدة عن القارة الأفريقية وعن الأحداث الملتهبة الدامية التى تجرى ، وسوف تزداد التهابا فى الشهور القادمة . .

وعندما زار الرئيس السادات أمريكا فى مرة سابقة . شرح للرئيس كارتر ماذا يجرى فى زائير . وكان يحمل معه تفويضاً بهذا الحديث من الرئيس الفرنسى السابق ديستان ومن الملك الحسن الثانى عاهل المغرب . وتدخلت فرنسا والمغرب ومصر فى زائير . وأنقذت الحكومة الحالية من التسلل والتمرد الشيوعى . .

وفى هذه المرة تلقى الرئيس السادات برقيتين عاجلتين من الصومال وتشاد . وكان من نتيجة ذلك أن بحث الرئيس السادات مع الرئيس كارتر قضية القرن الأفريقى ، وأعلن الرئيس السادات حاجته إلى السلاح ، تعادلا مع إسرائيل وتخفيفا للتصعيد ، ولأن له التزامات أفريقية . .

وحرصا من أمريكا على تخفيف درجة حرارة النزاع العربى الإسرائيلى . نقلت إلى الطرفين ضرورة التزام الهدوء الإعلامى ووقف « الحرب الإعلامية الصاعقة » . . ولذلك اختفت التصريحات على أعلى المستويات . وفى نفس الوقت اختار الرئيسان كارتر والسادات عزلة كاملة بعيدة عن العدسات والميكروفونات . وجلس الرجلان أكثر من خمسين ساعة معا وقد أحاطها الجليد وقوات البحرية والصمت أيضا . وأرسلت إسرائيل موسى ديان ليكون فى أوربا ثم ليصل إلى أمريكا قبيل نهاية زيارة الرئيس السادات . .

وأعلنت إسرائيل أنها مضطرة أن تواجه الحملة الإعلامية الضخمة التى يشنها الرئيس السادات على إسرائيل فى أمريكا وفى أوربا أيضا . ثم إن إسرائيل شكت إلى أمريكا أن السادات قد أصبح نجما شعبيا بسبب الأحاديث الكثيرة التى يدلى بها .

ولم تعرف أمريكا ماالذى تستطيع أن تفعله ، فالصحف حرة وكذلك شركات التليفزيون . ثم إن السادات لأنه أصبح شعبيا . فلا يستطيع أى جهاز أن يتجاهله . بل إن محطات التليفزيون تعلن فى الصحف عن أنها سوف تذيع نصف حديث أو كل حديث السادات . لكى تتجه العيون إلى هذا البرنامج ومايسبقه ومايجىء بعده من إعلانات تجارية .

وقد أعلن الرئيس كارتر فى أسوان للرئيس السادات قائلا إنك الآن تنافسنى فى

أمريكا ! بل إنهم فى أمريكا قد انتقدوا المذيع التليفزيونى الشهير دافيد برانكل لأنه أنهى حديثه مع السادات قائلا : وسوف نوجه نفس الأسئلة إلى مناحم بيجين عندما يعود إلى أمريكا بعد شهر أو شهرين .

وقالوا : ماكان ينبغى له أن يقول ذلك . . كأنه يعتذر للمشاهدين عن حديثه مع السادات . .

ولكن الحقيقة ، ومن الناحية الفنية ، أنه على حق . ، لأنه يريد أن يربط مشاهديه بهذا البرنامج ، لكى تكتمل أمامهم الصورة بكل أطرافها . . ولكن هذا الاعتراض من الأمريكان على البرنامج ، يؤكد أن عطفهم على قضية السادات والسلام أصدق . وأنهم يرون أن بيجين ليس جادا . وأنه يناور ويداور ويحاور .

وعندما نشر الرئيس السادات خطابا طلبته صحيفة « ميامى هيرالد » حاول اليهود فى إسرائيل وفى أمريكا أن يفسدوا هذه المبادرة من السادات ، فقالوا : إنه يتجه إلى الشعب الأمريكى بدلا من أن يتجه إلى الحكومة الأمريكية أو الكونجرس . . ويتجه إلى يهود أمريكا كأنهم « أولياء أمور » يهود إسرائيل . . إنه يحاول أن يوقع بين اليهود هنا واليهود هناك . . ثم مالبث الحاخام شندلر أن أرسل خطابا وكذلك فعل بيجين . .

ولم يتضايق السادات لذلك لأنه يريد أن يعرض القضية وأن يرى الناس كل جوانبها ، وأن يحكموا علينا أو يحكموا لنا : أينا يريد السلام حقا ؟ وأينا يريد ألا تكون نار ودخان ودماء ودموع ؟

وحاولت أمريكا أن تتفادى المطبات التى يمتلئ بها الطريق بين القاهرة والقدس وبينهما وبين واشنطن . ولذلك دعت الطرفين إلى الصبر ، حتى تتمكن من أن تعيد التفاهم بين مصر وإسرائيل .

والتزمت أمريكا جانب الحذر . .

فعندما طلب الرئيس السادات إلى أمريكا أن تكون « حكما » بين الطرفين . . اختارت أمريكا أن تكون « وسيطا » . . أو « واسطة خير » حتى لاتعود إسرائيل إلى

الصراخ بأن أمريكا ليست وصيا عليها . .

وأمريكا ليست أقل حيرة منا مع إسرائيل ، فإسرائيل تكوين عجيب وغريب من البشر . فلا أحد يعرف لها رأيا واحدا سياسيا أو دينيا فى أية قضية . . وإسرائيل دولة عندها حساسية لدرجة الجنون .

وربما كان أبا إيبان هو أوضح من وصف هذه الحالة فى كتابه الأخير « قصة حياتى » ، فعندما تحدث أبا إيبان عن مقدمات حرب أكتوبر سجل آراء الزعماء الإسرائيليين وكيف إنها تضاربت وتناقضت بعد ذلك . .

مثلا : موسى ديان أعلن فى مايو ۱۹۷۳ فى التليفزيون البريطانى : أن إسرائيل يجب أن تبقى على الضفة الغربية إلى الأبد . أما الشعب الفلسطينى فعليه أن يختار له وطنا فى سوريا أو الأردن أو العراق . .

وفى ۳۰ يوليو ۱۹۷۳ أعلن ديان لمجلة تايم : لاشىء اسمه فلسطين !

وفى احتفالات إسرائيل بعيد قلعة « الماسادا » أعلن ديان : أن دولة إسرائيل قوية طويلة عريضة من نهر الأردن إلى قناة السويس !

قال أبا إيبان : وهذا موقف غريب . فسياسة الدولة الرسمية تختلف تماما عن سياسة وزرائها . فعندما كان ديان يعلن كل ذلك ، كانت الحكومة الإسرائيلية تعلن تمسكها بالقرار ٢٤٢ .

وكانت الحكومة الإسرائيلية ترى أيضا : أن العرب إذا لم يفلحوا فى استعادة أرضهم بالحرب أو بضغط الدول الكبرى . فسوف يجدون أنفسهم مضطرين إلى التفاوض معنا !

ومعنى مايقوله أبا إيبان هو أن هناك رأيين وثلاثة وأربعة فى إسرائيل : رأى الدولة الرسمى المعلن ، ورأى الوزراء أو زعماء الأحزاب . .

فلا أحد يعرف أى هذه الآراء هو الذى تتمسك به الدولة .

وإنما الدولة ترى أن تكون هناك آراء كثيرة ليحار الخصم أو الصديق فى معرفة وجهة نظر إسرائيل . وبذلك تفاوض إسرائيل من مقاعد متعددة حول مائدة

واحدة . وهذا بالضبط ماتفعله إسرائيل . ومافعلته بالنسبة للمستعمرات . فالدولة تقول : لامستعمرات . والوزراء يقولون : بل مزيد من المستعمرات . وأمريكا تعلن أن إنشاء المستعمرات ليس عملا مشروعا . .

وأمريكا تعلم مدى حساسية الموقف . . وتعلم انزعاج الطرفين من الضغط عليهما . . وربما كان ذلك يفسر الانسحاب المفاجئ للوفد المصرى من مباحثات القدس . فقد كان وزير خارجية أمريكا يحاول التوفيق بين الطرفين . ثم فوجئ بالانسحاب . وحاولت إسرائيل أن تبرز أن الانسحاب صفعة لفانس . ولكن فى نفس الوقت أحست أمريكا بأنها نفس المشكلة : أن كلا الطرفين يريد أن يؤكد بصفة مستمرة أنه لايتصرف من عقل أمريكا . ولا بأوامرها . .

وإن كان الرئيس السادات قد أدرك قبل ذهاب الوفد المصرى إلى القدس ، أن تصريحات قادة إسرائيل تؤكد لنا صعوبة الوصول إلى مبادئ عامة ، وقد حدث ماتوقعه . ولكنه أراد أن يمشى فى الطريق حتى نهايته ، وإن كان يعرف مقدما ماسوف يحدث . ولكنه لم يستبعد أن يحدث شيء ليس فى حسابه ، كأن يلين اليهود أو يستسلموا قليلا للضغط العام فى إسرائيل وفى العالم . .

وجاء استئناف لقاء اللجنة العسكرية تأكيدا وتجديدا لضرورة استمرار الحوار ، ولكن فى درجة حرارة منخفضة وعلى فترات متباعدة حتى يعتاد الطرفان على هذا « الجو » الهادئ لحوار طويل . ومن الضرورى أن يكون هادئا ومن المنطق أن يكون طويلا . .

* * *

وهناك اجتهادات عصبية لحل المشكلة المعقدة الأطراف الغامضة الجوانب .

من بين هذه الاجتهادات : أن تقوم سوريا بابتلاع جانب من لبنان يضم الفلسطينيين . ويعلن قيام دولة لبنان المارونية المستقلة . .

وقد وعدت إسرائيل بمساندة الدولة الجديدة . وفى العام قبل الماضى عرض وزير خارجية أمريكا على الرئيس السادات تعهداً كتابياً من مناحم بيجين بأنه سوف

يساند هذه الدولة وأن هذا التعهد أخلاقى . وأنه جاء بعد إلحاح من زعماء لبنان بقيام هذه الدولة !

وسوف تبتلع الأردن الضفة الغربية بالاتفاق مع إسرائيل وتعهد منها أيضا . وخصوصا أن العلاقات بين الأردن وإسرائيل لم تنقطع فى أى وقت . وعلى أعلى المستويات !

وهناك اجتهاد آخر هو أن تعلن منظمة التحرير الفلسطينية أنها لم توكل مصر فى الدفاع عنها . وعلى ذلك فليس لأحد الحق فى أن يتحدث باسم الشعب الفلسطينى . ولما كانت مصر ترى أن « المنظمة » هى الممثل الشرعى ، فسحب هذا التوكيل من الممثل الشرعى ، يعنى أن المنظمة سوف تترافع عن نفسها . . ويعنى أيضا أن مصر يجب أن تنشغل بانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء . .

وهذا من شأنه أن يجعل مصر تدخل فى مفاوضات مع إسرائيل من أجل حل منفرد . ورغم أن مصر تفادت الحل المنفرد فإن المنظمة ودول الرفض معها قد دفعت مصر إلى ذلك دفعا .

ويمضى أصحاب هذا الاجتهاد إلى القول بأن مصر ستدعو لمؤتمر قمة عربى وتعرض فيه تفاصيل ماحدث ، وأنها مضطرة إلى أن تحل وحدها . . وأن مصر لديها من المشاكل الداخلية ماتنوء به الجبال . وأن الشعب المصرى قد تحمل كثيرا جدًّا . وأن من حقه أن يستريح ، وأنه لايطلب تعويضا ماليا من أحد وإنما تكفيه موارده لو أنها اتجهت جميعا إلى البناء والتعمير . .

وهناك اجتهاد بأنه من الممكن أن يسقط بيجين . وتجىء حكومة أكثر اعتدالا ، وأن هذه الحكومة المعتدلة سوف تمضى بخطوات أوضح وأوسع إلى السلام . ولكن الذى يتابع تاريخ الحكم فى إسرائيل يجد أن المتشددين يكسبون فى النهاية ، وأن الشعب الإسرائيلى العنيد سوف يتمسك ببيجين . والشعب قد أتى به إلى الحكم لأنه متشدد دينيا وسياسيا ، بل إن الأرقام تؤكد أن شعبيته قد زادت هذه الأيام . .

ثم إن اليهود يعزفون لحنا اسمه : الزمن . .

فهم بعد حرب ١٩٦٧ أعلنوا أن العرب سوف يعتادون على الأوضاع الحالية ، أو الحدود العسكرية . . وسوف تصبح الحدود العسكرية حدودا سياسية . . وإلى الأبد !

وموسى ديان هو الذى روى فى التليفزيون الإسرائيلى هذه النكتة : أن ملكا إسرائيليا كان عنده حصان . وكان يحب هذا الحصان جدًّا . ولكنه حزين لأن الحصان لايشاركه طعامه . فلا يأكل الأرز واللحم . فأتى بواحد من الحكماء وطلب إليه أن يعلم الحصان كيف يأكل اللحم . وفكر الرجل الحكيم وقال : ممكن يامولانا . وسأله الملك : كم تحتاج من الوقت ؟ قال : أحتاج إلى عشرين عاما ! وسأله الملك : ألا ترى أن هذا وقت طويل جدًّا .

وكان رد الرجل الحكيم : لو كان خروفا لعلمته ذلك فى خمس سنوات . . ولكنه حصان يامولانا !

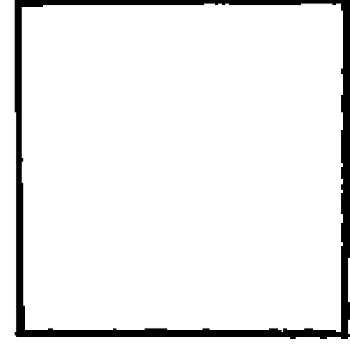
ووافق الملك . وذهب الناس إلى الرجل الحكيم يسألونه كيف وافق على تعليم الحصان أن يأكل لحما ، وكان رد الرجل : السبب بسيط جدًّا . . فبعد عشرين عاما . . إما أن يموت الحصان أو يموت الملك أو أموت أنا !

ولهذا السبب فإن مصر حريصة على ألا تقع فى مصيدة (الزمن) وأن تمضى نحو التسوية للقضية . فالذى تريده واضح ولكن الذى تريده إسرائيل ليس واضحا .

فهى على المستوى الرسمى تقول كلاما ، وعلى ألسنة الوزراء تقول كلاما آخر . . وفى اللجنة السياسية تقول كلاما ثالثا ، وفى اللجنة العسكرية تقول كلاما رابعا . . أما الكلام الخامس فهو الذى يقال لنا خارج اللجنتين أو فى الطريق إليهما أو فى الحفلات الرسمية . .

إن إسرائيل يجب أن تكون أوضح وألا تضيع هذه الفرصة النادرة ، حتى لايتورط العالم كله فى مواجهة نووية ، سوف تكون إسرائيل أولى ضحاياها . . وإذا

لم تكن حرب فسوف تعود إسرائيل إلى إلقاء نفسها فى البحر : بحر الكراهية والحقد والمرارة حتى يهجرها أبناؤها . . أو حتى تتمزق أحزابها السياسية والدينية وتقضى إسرائيل على نفسها ، ويصدق عليها ، كل ماجاء فى التوراة من أنها شعب استباح دم أبنائه وأعدائه أيضا . . فأباحت كل الشعوب دمها !



إنها خناقة على « اللحاف » فى إسرائيل !

من الذى كسب حتى الآن ؟

إن هذا السؤال يبدو مبكرا جداً ، لأن اللعبة لم تنته . أو المباراة لم تكد تبدأ ، أو أننا – مع إسرائيل – لم نتفق بعد على معانى الكلمات المستخدمة بيننا . . فليس لنا قاموس واحد . .

فإذا قلنا : الأمن

كان رد بيجين : موافق تماما ، مادام الأمن معناه الأرض .

وإذا قلنا له : إنه يحتل الأرض ، ولكن الخوف يحتله هو . .

يكون رد ديان ، فى لندن : إذا لم نتفق على شىء فسوف نعود إلى سيناء والجولان والضفة الغربية .

يريد أن يقول : إنه لم يخسر شيئا ، فلا تزال أرضنا معه .

فهل صحيح أنه لم يخسر شيئا ؟

إنه قد خسر الكثير ، فهل كسبنا نحن بمقدار ما خسر ؟

نعم كسبنا كثيرا .

فقد احتاجت إسرائيل إلى وقت طويل جداً لكى تنفى أن « بروتوكولات حكماء صهيون » من وضعها ، فهذه البروتوكولات هى مؤامرة مدروسة للسيطرة على العالم كله . وقد نشرها على حسابه بإيمانه وشجاعته فورد صاحب السيارات المعروفة ، وفى

هذه البروتوكولات يظهر الوجه الشرير لليهودى الأمريكى والأوروبى . . أو اليهودى العالمى . . وقد نجح اليهود فى أن يشككوا فى هذه البروتوكولات .

وكذلك ما أحدثه اليهود من مذابح دموية فى دمشق ، تدخل فى فضها محمد على باشا وإبراهيم باشا والباب العالى . . حتى أصبح مجرد ذكر هذه الوقائع الدامية التى ذبح فيها اليهود راهباً مسيحيا ، نكتة أو شيئا لا يقبله العقل .

واستطاع اليهود أن يستدرجونا إلى أن نتخذ منهم موقفا عدائيا غير معقول – كأن يجعل شعارنا أننا سوف نلقى بهم فى البحر . . مع أن الذى فعله اليهود ، ولا يزالون يفعلونه فى سجونهم ، أبشع من إلقاء يهودى فى البحر .

ومع ذلك فالذى فعله اليهود بأنفسهم أبشع وأعنف ، فقد أقاموا إسرائيل فى بحر من الكراهية والمرارة العربية . فهم إذن الذين ألقوا بأنفسهم فى البحر ، وظنوا أن إسرائيل هى سفينة نوح الذى سوف ينقذهم من طوفان العرب ، ولكن من المؤكد أن السفينة ما تزال مهددة بالغرق ، بسبب العرب ، وبسبب ما فيها من خلافات بين قبطان السفينة والطاقم المرافق له وبين الركاب جميعا من كل مذهب سياسى ودينى ، لدرجة أن فى إسرائيل مناقشات تقول : متى ينقرض الشعب اليهودى ؟

وهو ما سبق أن تنبأ به المؤرخ البريطانى العظيم أرنولد توينبى عندما انتصرت إسرائيل فى حرب سنة ١٩٦٧ ، فى ذلك الوقت أعلن توينبى : أن هذا النصر سوف يكون كارثة على إسرائيل لأنه سوف يضاعف من مرارة العرب وعزلة اليهود فى الشرق الأوسط وفى العالم كله !

وجاءت مبادرة الرئيس السادات فخلقت صورة : « الإسرائيلى القبيح الوجه » ، أى الإسرائيلى الذى لا يريد السلام والذى يفضل أن يستولى على الأرض ، وأن يصحو وينام فى ظل السلاح ، وأن يعيش ويموت من الخوف ، على أن يترك الأرض من أجل الأمن والسلام .

ولكن الشعب الإسرائيلى ليس كله قبيح الوجه ، فقد رأيناهم بمئات الألوف

يرقصون من أجل اقتراب السلام ، ويهتزون أمام حائط المبكى من أجل إلقاء السلاح واستقرار الأرض وسلامة سفينة نوح وركابها من البشر والحيوانات . . إلا رجلا واحدا هو مناحم بيجين .

إنه هو الوحيد الذى لم تسكره مبادرة السلام . . إنه كما قلت عنه – وأغضبه ذلك – الوحيد فى بار السياسة الذى لم يسكر . . إنه كالبارمان . . لم يرفع عينيه عن الزبائن داخلة وخارجة . . تشرب وتدفع أو تهرب من الدفع . .

ولذلك ظل غريبا عن الواقع الجديد . . غارقا فى التاريخ القديم الذى جاء فى التوراة والذى يصف اليهود بأنهم كالزيت يطفو على كل السوائل . . والذى يصف اليهود بأنهم « شعب يسكن وحده بين الشعوب » (سفر العدد الإصحاح ٢٣ الآية ٩)

وقد وصفتهم التوراة بأنهم شعب « صلب العنق » ، أى عنيد لا يلين . . وجاء أيضا : كما أن الديك بين الطيور ، والكلب بين الحيوانات ، فكذلك إسرائيل بين الشعوب : غليظة العنق .

وكما جاء فى سفر « أستير » أن الوزير هامان قال للملك : إن هؤلاء اليهود مشتتون فى الأرض ولا يؤمنون بشريعتك ، ولم تتغير آراؤهم وأوهامهم وغطرستهم . . رغم كل الظروف .

وهى نفس العبارة التى جاءت فى كتاب « كفاحى » لهتلر عندما وصف اليهود بقوله : أين يمكن أن نجد شعبا لم يتغير له رأى ولا عادة ولا تقاليد رغم شتاتهم فى الأرض من ألوف السنين؟ .

إن مناحم بيجين لا يزال يؤمن بهذه الصورة الخرافية لشعبه ، ولذلك فهو لا يريد أن يلين ولا أن يعمل من أجل السلام ، أو من أجل الحفاظ على الشعب اليهودى من الخارج .

وإذا كان هناك أحد يريد القضاء على يهود إسرائيل فهو مناحم بيجين ، لأن

القلق والسخط قد تضاعف عليه من الداخل ، ولأن صورته قد انفضحت فى الخارج . . وأصبح هو رجل الحرب الذى فوجئ بالسلام !

وعندما سئل الفنان صلاح جاهين فى التليفزيون الإسرائيلى : إننا نلاحظ أنك ترسم صورا كثيرة لبيجين ، فما الذى جعله جميلا هكذا فى عينيك ؟ وكان رد صلاح جاهين : إنه ليس جميلا . . ولكن توافرت صوره لدينا ، ولذلك فإننى أرسمه الآن بدقة !

ومع ذلك فصورة بيجين كما يرسمها صلاح جاهين وكل رسامى الكاريكاتير فى العالم ، هى صورة إنسان آلى له وجه مصفح ، وله أنياب قاطعة – إنها صورة الإسرائيلى القبيح الوجه !

فنحن قد كسبنا تغيير صورة العربى القبيح الوجه الواهم الجاهل المغرور المهزوز بسبب الهزائم المتوالية ، العربى الذى ليس متحضرا . إنما هو إنسان غبى ، وأن المائة مليون عربى لديهم الناس والمال ونفاق الدول العظمى والكبرى ، حتى كانت المبادرة : منتهى الشجاعة والواقعية والصدق والنفاذ وبعد النظر !

هنا فقط انكشفت الصورة الحقيقية للرجل القديم الوهمى : مناحم بيجين . . وحاول بيجين أن يتراجع ، وتراجع ، ولكن العالم كله يقف ضده – وفى المقدمة يقف يهود العالم . . ويهود إسرائيل !

وقام بيجين ووزراؤه بمحاولات كثيرة لتحسين هذه الصورة القبيحة ، ولكن أحدا لم يستطع وحاول بيجين أن يستدرج أمريكا وغيرها إلى المعسكر الذى يطالب بإسقاط بيجين ، ولكن كارتر أعلن : أن هذا ليس شأنه . . وكذلك أعلن الرئيس السادات !

وإذا كنا قد ذهبنا مرة أخرى إلى لقاء رسمى بين وزراء خارجية مصر وإسرائيل وأمريكا فلأسباب مختلفة عند جميع الأطراف ، أما إسرائيل فأعلنت : أن أمريكا طلبت منا ذلك فذهبنا . .

أى أن إسرائيل لم يكن فى نيتها أن تذهب لولا الضغط الأمريكى ، ولكن إسرائيل أعلنت أيضا أنها لن تذهب إذا ضغطت عليها أمريكا ، وحتى يكون ذهابها بلا معنى ولا هدف ، أعلنت أنها ترفض المقترحات المصرية . . وهى بذلك تنهى الاجتماع قبل أن يبدأ .

أما مصر فقد أعلنت أيضا أنها ترفض النقط الست والعشرين التى أعلنها بيجين وكل التفسيرات الأخرى لها ، ومع ذلك فسوف تذهب لأن أمريكا طلبت منها ذلك . .

ولكن مصر لها موقف آخر : وهو أن الرئيس السادات استطاع أن يجعل أمريكا طرفا ثالثا وأن هذا اللقاء حتى إذا لم يسفر عن شىء . . فإن أولى نتائجه الواضحة هى أن أمريكا هناك ترى مزيدا من التهرب الإسرائيلى من كل مواجهة من أجل السلام . .

وقبل الذهاب إلى لندن حاول بيجين أن يعرف ما الذى دار بين الرئيس السادات وشيمون بيريز زعيم المعارضة ، فأرسل وزير الدفاع فايتسمان ، والذى يسمونه فى إسرائيل دلوعة السادات . . ولكن لم يحصل فايتسمان على ماكان يريد . . فقد اتفق السادات وبيريز على عدم الإفصاح عن كثير مما دار بينهما ، إلا بالنسبة للجنة المركزية لحزب العمل الإسرائيلى .

ولذلك فقد هاجم بيجين هذا اللقاء ، بعد أن سمع به . . هاجمه لأن الرسالة التى تلقاها من بيريز لم تكن كافية .

مع أن بيجين كان قد طلب إلى أبا إيبان أن يذهب إلى أمريكا لتجميل صورة إسرائيل لدى الرأى العام الأمريكى ، ورأى أبا إيبان ، وهو من حزب العمل المعارض ، فى هذه المهمة واجبا قوميا .

ولم يغضب بيجين لأن أبا إيبان لم يخف عنه شيئا .

ولكن الصورة تغيرت ، لقد أخفى بيريز الكثير عن بيجين ، وفى نفس الوقت قد فضح بيجين ، فقد عرف من لقائه بالرئيس السادات كل حقائق الموقف ، وكل

ما أخفاه بيجين عن الرأى العام الإسرائيلى واليهودى العالمى .

ولذلك نجد أن موسى ديان اندهش تماما ، لأن ما يقوله الرئيس السادات ووزير خارجيته محمد كامل . . علنا ، هو نفس الذى يقال سرا . . وليست كذلك إسرائيل !

وجولدا مائير أيام كانت رئيسة للوزراء ، عندما علمت بأن جولدمان يحاول لقاء الرئيس جمال عبد الناصر عارضت ذلك ، واستنكرته ، مع أن جولدمان ليس له أى دور حزبى . . إنما هو رئيس المجلس الصهيونى العالمى . . وكان جولدمان قد حاول عن طريق همرشولد سكرتير الأمم المتحدة . . ثم حاول مرة أخرى عن طريق نهرو . . ولو كان جولدمان قد استأذن من جولدا مائير ، لأذنت له . . ولكنه ، وهو الأكبر سنا والأطول تاريخا . . وجد فى ذلك حرجا . . فلم يفعل . .

أما بيجين فقد وافق على لقاء بيريز بالرئيس السادات بشرط أن يطلعه على كل شىء ! ولكن بيريز أعلن أنه وعد الرئيس السادات بألا يطلع بيجين على كل الحقائق ثم إن بيريز زعيم المعارضة التى نحّاها بيجين عن الحكم .

وهذه فرصة المعارضة الآن لكى تزداد قوة بعد أن زاد عدد المنشقين عليه فى الوزارة وفى الكنيست وفى الشعب ، وليس أمام بيجين أى خيار الآن : إما أن يلين ، وإما أن يسقط . .

وهم فى إسرائيل يقولون : بيجين بيجين . . يسقط بيجين .

والذين لايرددون هذا الهتاف يخفونه فى صمت حتى لايجعل بيجين من هذا الهتاف تدخلا فى شئون إسرائيل ، وتلك عقدة الشعب اليهودى أن يحس بأن أحدا يفرض عليه رأيا من الخارج . سواء كان هذا الأحد : مصر أو الولايات المتحدة ! وبعد أن ارتفعت أصوات المعارضة والأحزاب المؤتلفة معه حاول استرضاء الأحزاب الدينية فأدخل تعديلا على قانون المجندات ، إذ يكفى أن تعلن فتاة أنها متدينة ليتم إعفاؤها . . بل إن زوجة بيجين نفسها أعلنت معارضتها لهذا القانون . . وقالت السيدة أليزا بيجين إن تعديل هذا القانون هو منتهى الظلم .

فالسيدة أليزا لها ابنتان مجندتان : هاسيا (٣٢ سنة) وليا (٣٠ سنة)

إن مناحم بيجين يحاول أن يرضى كل الناس . فلم يرض أحدا وتلك خسارة فادحة له وللشعب الإسرائيلى الذى يريد السلام . . ليس على طريقة بيجين .

وقد أعلن حاييم بارليف صاحب الخط الشهير ، وعضو المعارضة العنيفة ضد بيجين ، أنه لا أمل فى أن يتحقق السلام إلا إذا أدخل بيجين عدة تعديلات جوهرية على تفكيره . أولا : يجب أن يكف تماما عن الإعلان بأنه لن يترك شبرا من الأرض المحتلة لأنها أرض الأجداد فليس ذلك صحيحا بل من الواجب أن ينسحب من الأرض المحتلة وثانيا : يجعل ذلك سببا لإعلان المبادئ .

ثم إن بارليف قال : إنه يجب أن يستبعد أيضا بعض العبارات من الحوار مع مصر مثل الحدود الآمنة والحدود التى يمكن الدفاع عنها ، فلا توجد حدود آمنة – وقد رأينا ماحدث لخط بارليف ، ثم إنه لاتوجد حدود لا يمكن الدفاع عنها ، أى أن كل الحدود يمكن ضربها ويمكن الدفاع عنها . . ولذلك يجب استخدام تعبير جديد هو الحدود المعقولة فالأردن قد ضرب إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ . فقد كانت للأردن قوات خارج القدس وعلى مدى ١٢ ميلا من تل أبيب .

* * *

ومن مكاسب مصر أيضا أن مبادرة السلام أو مفاوضات السلام لم تعد تجعلنا ننتظر مايفعله الآخرون . . وإنما نحن مصدر الفعل ومصدر الحركة . . فالمبادرة فى أيدينا .

ومن الطبيعى أن يتعجل الناس النتائج ولكن هناك فرقا كبيرا بين الذى يريده الناس وبين الذى يريده الواقع .. أو تسمح به الأحداث المتشابكة الأطراف .

ثم إن التاريخ يدلنا على أن اتفاقيات السلام ، أو مفاوضات السلام لا تتم فى يوم أو فى ليلة أو فى سنة .

ورغم ذلك فإن الشجاعة الباهرة التى جعلتنا نقدم على طريق آخر غير الحرب ، سعيا للسلام . سوف تجعلنا نعلن عجزنا عن تحقيق السلام بكل الطرق المشروعة –

إذا ماتأكد لنا ذلك ..

إننا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم نحرر كل الأرض . فما تزال أرضنا محتلة ولكن الذى تحررنا منه نفسيا وقوميا . . أوسع وأعمق وأعظم من الأرض .. ولولا ذلك ماتجهنا إلى أسلوب آخر ، بعد أن جربنا مرارة وفداحة القتال – لقد ذاقتها إسرائيل أبشع وأفظع مما نتصور : إنهم هم الذين يقولون ذلك ونحن نصدقهم لأن هذا هو الواقع النفسى والقومى لهم .

وهذه الخلافات فى الحكومة الإسرائيلية ليست تمثيلا . وهذه المناورات الحزبية ليست تهريجا . . إنما هو موقف بيجين الذى أدى إلى ارتفاع مد معاد لليهود فى العالم كله . ليس بين العالم واليهود ، ولكن بين اليهود أنفسهم ، وإذا كان العرب متهمين بالعداء للسامية – أى العداء لليهود – فإن التهمة تسقط عنهم اليوم . فليس أعدى لليهود من اليهود أنفسهم – مناحم بيجين مثلا .

* * *

إن إحدى قصص الشعب اليهودى تقول ، إن جماعة من الناس قد التفوا حول رجل أنيق . . ثم راحوا يخطفون ملابسه قطعة بعد قطعة . . حتى أصبح عاريا . . فلما رأوه عاريا انهالوا عليه بالطوب . إذ كيف يسمح لنفسه أن يخدش الحياء العام ! .

إن هذه القصة « مسروقة » أيضا من الأدب الشعبى العربى . إذ يقال : إن جحا فى إحدى المرات ذهب يفض خلافا بين رجلين . . ثم عاد بغير ملابسه وبغير اللحاف الذى كان يغطى رأسه وظهره .

ولما سألوه على أى شىء كانا يتشاجران ؟

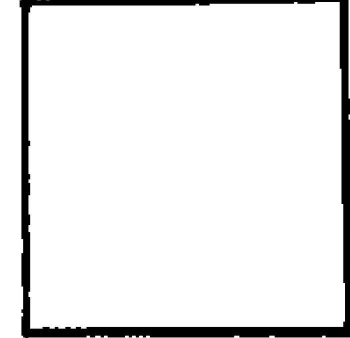
فقال جحا الرد التاريخى المضحك : لاأعرف ولكن يظهر أنهما كانا يتشاجران على اللحاف !

وهذا بالضبط ماحدث فى إسرائيل . . فعندما ذهب بيريز للقاء السادات عرف حقيقة بيجين .. وانكشف أمامه بيجين عاريا ، وإذا ببيجين هو الذى يتهم بيريز بقلة

الأدب ، لأنه قد عراه أمام العدو .

وإذا ببيجين يقول لمؤيديه : إن السادات وبيريز كانا يتفقان على اللحاف . . أى على الغطاء وعلى تعريته . . وفى نفس الوقت على أن يتهمه الرئيس السادات بالمرارة والتخلف عن روح العصر !

مع أن بيجين هو السبب . . وإسرائيل مولاته وسيدته وتاج رأسه هى الضحية اليوم أو غدًا .



العالم كله يتآمر على بيجين : أكذوبة !
بيجين وحده يتآمر على السلام : حقيقة !

إن رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين قد أثار غرائز اليهود فى إسرائيل وفى العالم . فهو يؤكد لهم أن هناك « مؤامرة » على إسرائيل وعلى قرار الشعب الإسرائيلى بأن يكون بيجين رئيسا للوزراء .. وأنه لذلك يستحق مساندة الجميع ، وإلا عاد الطرد والتعذيب للشعب اليهودى فى كل مكان ولاتزال أعمق غرائز اليهود هى الخوف .

والخوف يؤدى إلى سوء الظن . وسوء الظن يفضى إلى الكراهية ، والكراهية تدفع إلى الحرب ..

ثم إن الخوف يؤدى إلى العزلة والانطواء . فإذا انعزل الإنسان أو انطوى فقد جعل العالم كله يقف ضده .

وقد جرب اليهود ذلك فى كل العصور . وهم يحفظون ذلك ولاينسونه وعلى الرغم من أن اليهود قد أصبحت لهم دولة فإن المذاهب الدينية تصر على أن تعيد على مسامعهم وعلى عيونهم أشكال العذاب والهوان والطرد والحرق والعويل عند « حائط المبكى » حتى لاينسوا . . وحتى لاينسوا أيضا أن هذا من الممكن أن يحدث مرة ومرة ، لأنه حدث قبل ذلك عشرات المرات . . وأنه لاسبيل إلى وقف التآمر على اليهود إلا بأن يتماسك اليهود . وإلا بأن يتشبثوا بأنفسهم وبما لهم ومال الغير ، وأرضهم وأرض الغير . .

وعلى هذا الوتر الدموى الحزين يلعب بيجين ، وفى نفس الوقت يغمض عينيه عن مبادرة السلام التى أتيحت لليهود لأول مرة فى التاريخ .

وعندما يثير فيهم غريزة الخوف فإنه يعيد إلى خيالهم مآسى « اليهودى التائه » من أرض إلى أرض . . ومن دين إلى دين . . ويعيد إليهم أيضا كيف انهدم عليهم المعبد .. وكيف طردوا من فلسطين . وكيف وقعوا فى سجون بابل ..

ثم إن هذا التآمر العالمى على اليهود هو مايسمى « بالعداء للسامية » .. وقد اتخذ هذا العداء أشكالا دينية وسياسية واقتصادية عنيفة .

فعندما ذهب الصليبيون يحررون القدس من المسلمين . ذبحوا ربع مليون يهودى وهم عائدون من القدس إلى العواصم الأوروبية ..

وعندما حدث مد دينى كاثوليكى فى إسبانيا ظهرت « محاكم التفتيش » وطرد اليهود وأحرقوا فى سنة ١٤٩٢ وهى نفس السنة التى اكتشف فيها كولمبوس قارة أمريكا وفى القرن السابع عشر عندما ذهب شلمنتسكى فى مقدمة ألوف الخيول التى عبرت القوازق لتحرير أوكرانيا من الاحتلال البولندى ، ذبحوا ربع مليون يهودى ..

وفى روسيا فى أوائل القرن التاسع حددوا لليهود مساحة لايخرجون عنها . إلا موتى ثم مافعله هتلر بعد ذلك – أخيرا وليس آخرًا !

فلا شىء يفزع اليهود إلا أن يكون هناك مد دينى فى العالم . ووحدة للأعداء العرب ، وتخلٍّ من الأصدقاء الأمريكان والأوربيين ، ومحاولة تصوير جهود أنور السادات على أنها تفريق بين وزراء بيجين وبين الحكومة والمعارضة وبين إسرائيل ويهود العالم . .

ولذلك فمناحم بيجين يتجه إلى أغلبية اليهود الشرقيين الذين جاءوا من البلاد العربية والشرقية ، ويذكرهم بما يمكن أن يقع عليهم مرة أخرى . ثم يتجه إلى سكان المستعمرات الإسرائيلية التى أقيمت على أرض مسروقة ، وينقل إليهم أن

مصر تريد أن تطردهم حتى من هذه المستعمرات على الأرض المحتلة . . وأنهم سوف يتحولون إلى لاجئين مطرودين من بلادهم وفى بلادهم .

ولكى يخفى مناحم بيجين عيوبه الشخصية فإنه يجعلها عيوبا عامة ..

وإن كان فى نفس الوقت قد حرص منذ البداية على أن يجعل مبادرة السادات ذات طابع شخصى . . أى مرتبطة بالرئيس السادات شخصيا ومحسوبة له فى التاريخ ، ويستحق عليها جائزة نوبل للسلام : ويكفى الرئيس السادات أنه كان حسن النية صادق العزم !

ولم يفلح بيجين فى أن يجعل مبادرة السادات قرارا شخصيا ، أو ضربة زعامة . فقد اكتسبت المبادرة تأييدا عالميا .. فلا يوجد على الأرض شعب لايحلم بالسلام . بما فى ذلك شعوبنا العربية وإسرائيل أيضا .. ولكن من العيوب الشخصية : أن بيجين قد أعد نفسه للحرب . والشعب الإسرائيلى قد اختاره لذلك بعد هزيمة أكتوبر ٧٣ .. وبعد أن مات عدد من اليهود يعادل فى نسبته عدد الأوروبيين الذين ماتوا فى الحرب العالمية الثانية .. ولذلك اختاره الشعب الإسرائيلى ليعيد إلى إسرائيل قوتها وسطوتها .. وليعيدها إلى صورتها التى عرفها العالم : أقلية أوروبية منتقاة فى وسط بحر من العرب الأغنياء الجهلة المتعطشين للدماء .. وأنه لابد أن يقف الجيش الإسرائيلى حيث هو إلى الأبد .. لأن الانسحاب مترا يعنى كيلو مترا . والانسحاب كيلو مترا يعنى الخروج من الشرق الأوسط !

وبعد الحرب جربنا « عبر » أمريكا التفاهم والاتفاق ثلاث مرات فيما بين ٧٣ و ١٩٧٦ وثبت للعالم أنه يمكن الاتفاق التدريجى على شىء ما . وأن هذا من شأنه أن يجعل الحرب احتمالا بعيدا .

وكان هناك اتفاق بين السادات ونيكسون وفورد وكارتر على أن السلام خطوة خطوة والانسحاب قطعة قطعة . سوف يستغرق وقتا طويلا .. وسوف نظل هكذا لانحن فى حالة حرب ولانحن فى حالة سلم إنما نحن فى سلام أقرب إلى الحرب وفى

حرب أقرب إلى الاسترخاء . وهذه الحالة تعطل العقل وتخمد الخيال وتبتز مشاريع التنمية . وتهلك الأعصاب .. وتجعل اليأس والمرارة طعاما وشرابا للجميع ..

وكان لابد من عمل شيء آخر أكبر وأشمل .

وبدأ الانتقال من قطعة أرض مقابل قطعة سلام أو ساعة سلام مقابل متر أرض . إلى « الحل الشامل » و « السلام التام » .

وبدأ التفكير فى أن يذهب جميع الأطراف إلى جنيف . . هناك يلتقى الجميع ويعرضون وجهات نظر محددة يتفقون عليها أو يختلفون . . المهم أن نعرف وأن يعرفوا .. والعالم كله شهيد على ذلك .

واختلف العرب : هل نذهب وفدا عربيا موحدا ! هل نكون وفود عربية مختلفة ؟ ومن الذى يمثل الفلسطينيين ؟

وظهرت سوريا مرة تطالب بالوفد الموحد . ومرة بالوفود المختلفة ..

وإن كان الرئيس حافظ الأسد قد أعلن بعد ذلك أن سوريا وروسيا لم تقررا فى أى وقت الذهاب إلى جنيف .

واهتدى ياسر عرفات الى فكرة ذكية وهى أن يمثل الفلسطينيين أستاذ أمريكى فلسطينى الأصل .

واتصل الرئيس السادات بالرئيس كارتر يخبره بهذا الحل السعيد .. وفرح كارتر بذلك وأنكر ياسر عرفات أنه صاحب هذه الفكرة ..

وكان من الممكن أن يمضى العرب . بما لديهم من موهبة التلاعب بالألفاظ التى تؤدى إلى التلاعب بأقدار الشعوب . ثلاثين عاما أخرى أو تزيد (والعرب يتباهون بأحد الأمثلة التاريخية وهو أن أحد فقهاء اللغة قد أمضى من عمره عشرين سنة فى دراسة الحرف « حتى » ولما مات قال : أموت وفى نفسى شيء من « حتى ») ! !

لهذه الأسباب ولعناصر أخرى كثيرة كان لابد من عمل شجاع جريء فريد . فكانت مبادرة السلام ، خاطفة بارقة وكانت اختصارا لعشرات السنين من النقاش

والحوار اللغوى فى معنى الوفود وشكل المنضدة والعلم الذى يوضع فوقها وجدول الأعمال ... إلخ .

وإيمانا من الرئيس السادات بأنه لامجلس الأمن ولا الأمم المتحدة استطاعت أن تحل أية مشكلة ، فلا تزال ألمانيا دولتين ، ولاتزال برلين مدينتين ، وغيرهما من المشاكل الكبرى ، فليس من سبيل إلا الاتصال المباشر وعلى أعلى المستويات وعلى مرأى من ألف مليون نسمة أمام شاشات التليفزيون فى العالم كله . وكان نزول السادات إلى القدس مثل نزول الإنسان على القمر ! !

وكان منتهى أمل اليهود فى إسرائيل وخارجها أن يجلسوا مع العرب . أن يتكلموا . . أن يتفاهموا سرا أو علنا . فقط مجرد الجلوس معا . والحديث معا ، وبعدها يأخذ كل شىء وزنه وحجمه ، فقط أن نجلس معا ..

ويضربون لذلك مثالا : أن كنيسة القديس بولس بالفاتيكان بها القبة السداسية التى رسمها ميكلو أنجلو يصور فيها نشأة الكون . . وفيها أن الله عندما أراد خلق الكون مد يده ومد أصبعا واحدة من يده لمس بها المادة الأولية للماء والهواء والتراب والنار . . مجرد لمسة من إصبعه أدت إلى خلق العناصر وبقية الكائنات ..

والمعنى : أن أكبر الأعمال تبدأ بلمسة من إصبع ، ولم يكن ذلك الذى حدث فى القدس لمسة يد ، وإنما كان مصافحة وجلوسا وخطابا ونقاشا وتوضيحا لكل شىء ..

ومنذ تلك اللحظة أحس مناحم بيجين بأنه قد فوجئ بما ليس فى حسابه . إن مبرر وجوده على رأس الحكومة قد ألغاه السادات . فقد جاء بيجين يحارب المصريين . فجاء المصريون يعلنون أنه لاداعى للحرب . فقد أتى الشعب الإسرائيلى ببيجين ليبقى حيث هو ، وإذ بالمصريين يطالبونه بالعودة إلى حيث كان فى سنة ١٩٦٧ ..

وهنا انكشف تماما أمام العالم كله .. وانفضح أمره .. واهتزت صورته . .

والتف العالم كله حول السادات فى أمريكا وأوروبا . . ودول العالم الثالث ثم الدولية الاشتراكية . . ويرى بيجين أن فى تكوين علاقة ودية خاصة بين وزير الدفاع فايتسمان وبين الرئيس السادات .. محاولة من مصر لتمزيق الوزارة وإحداث صدع فى كتلة الليكود الحاكمة . . مع أن فايتسمان فى كل مرة يلتقى فيها بالرئيس السادات يؤكد : أنه ليس إلا وزيرا ضمن وزراء . وأن له رأيا خاصا . ولكن القرار فى النهاية لبيجين . .

وعندما وافق بيجين على أن يلتقى شيمون بيريز زعيم المعارضة بالرئيس السادات فى فيينا . عاد بعد ذلك فاعترض على أن هذه المقابلة قد تمت . وأنه لن يسمح له بعد ذلك بأن يلتقى بأحد ، وأن التفاوض يجب أن يكون حكوميا .. بل إنه فى الجلسة الأخيرة للكنيست قال له : إننى على استعداد لأن آتى لك بجهاز كشف الكذب . . لنعرف أينا يكذب على الآخر !

والذى ضايقه فى موقف زعيم المعارضة أنه قد عرف حقيقة مادار بين بيجين وبين الرئيس السادات ، وقد أخفاه بيجين عن الشعب .. ثم إن هناك أشياء كثيرة لم يعرفها بيجين من زعيم المعارضة . . ثم إن المعارضة قد هاجمته بعنف وطرحت الثقة به . .

ولكن مايزال موضع ثقة معظم الخائفين فى الكنيست : الخائفين من أن يكون انسحابهم من شبر واحد من الأرض هو انسحابهم من كل الكرة الأرضية !

ثم إن هذه المبادرة قد أدت إلى انقسامات بين الشعب الإسرائيلى .. ومظاهرات ضد بيجين فى إسرائيل وفى غيرها ..

وفى مواجهة هذه « المؤامرة العالمية » ضد إسرائيل أو ضد بيجين شخصيا . حاول بيجين أن يسترضى كل العناصر فى داخل الكنيست .. فلم يحدث أن صدرت تشريعات ترضى رجال الدين المتطرفين كما حدث فى عهد بيجين فقد صدر قانون تحريم الإجهاض وصدر قانون منع التبشير المسيحى فى إسرائيل وفى الأرض المحتلة

وصدر قانون إعفاء المجندات المتدينات من الخدمة العسكرية . .

وفى نفس الوقت نجد أن جماعة « جوش أمونيم » تواصل بناء المستعمرات على الأرض المحتلة حتى أقامت ١٩ مستعمرة منذ مبادرة السلام حتى اليوم . . وتستعد هذه الجماعة لبناء مستعمرة كبرى بالقرب من نابلس عاصمة الضفة الغربية . ،

وينصح بيجين باللجوء إلى الكتاب المقدس لمواجهة العدو الواحد : السادات والعالم كله . .

ففى التوراة أنه إذا تشاجر كلبان . ثم فجأة ظهر لهما الذئب واعتدى على واحد منهما فيجب أن ينضم الكلب إلى جانب الكلب الآخر . . وإلا انفرد الذئب بأحدهما اليوم وقضى على الثانى غدا ! (سفر « العدد » الإصحاح ٢٠ الآية ٤) .

وفى « الساتهدرين » أيضا : أن لعنة الصديق أرحم من بركات العدو . .

إن الخلاف بين خصوم بيجين أرحم من الاتفاق مع السادات . .

ويقول كتاب الساتهدرين :' إن لعنة الصديق تشبه أعواد العشب . إذا وضعت فى أرض خصبة فإنها تنمو وتترعرع وتهزها الريح ولاتقصفها . . ولكن بركات العدو مثل أشجار الأرز صلبة عالية ، إذا هبت عليها رياح الصحراء الساخنة اقتلعتها . .

أى إن الصديق يجب أن يظل صديقا ، وأن يبقى عدوا !

* * *

وأضاف مناحم بيجين إلى تخويف الشعب اليهودى ، سلسلة من التشويش والتشويه لما يقوله الرئيس السادات . . بقصد أن يعيد صورة العرب إلى ما كانت عليه . وليواجه هذا المد العالى للموقف المصرى . والكسب الهائل للسادات ومبادرة السلام .

فقد ظل بيجين أكثر من أسبوعين بعد المبادرة مباشرة ، يصرخ فى كل مكان : وأين وعود السادات . . وأين ما اتفقنا عليه فى القدس . . إنه قد وعد ولم يف — وكذلك يفعل العرب !

أما الذى زعم بيجين أن الرئيس السادات قد وعد به .. فله قصة .

فقد التقى الرئيس السادات فى فندق الملك داود ، بعد إلقاء خطابه فى الكنيست . بمناحم بيجين ويادين وديان وبطرس غالى ، ولم يتمكن فايتسمان من الحضور ، فقد كان مصابا فى ساقيه ، ولم يسفر هذا اللقاء المحدود عن شىء جديد .. فقد كان الجميع يريدون استكشاف وجهات النظر ، ولكن بعد ذلك انفرد الرئيس السادات ببيجين وتحدثا فى كل شىء ولم ترد عن « سيناء » إلا عبارة واحدة قالها بيجين : لاخلاف بيننا على سيناء ..

وقبل ذلك قال له الرئيس السادات : أكرر لك ماأعلنته فى الكنيست من أنه لا سلام بغير حل المشكلة الفلسطينية ، وإننى لم آت من أجل فك اشتباك ثالث أو حل منفرد .

وكان بيجين سعيدا إلى أقصى درجة . وأعلن له الرئيس السادات أيضا ، لكى يطمئنه تماما على ضمانات السلام : أنه لن تتعدى القوات المصرية الضاربة خط المضايق .. ولما جاء فايتسمان إلى الإسماعيلية يمهد لزيارة بيجين .. التقى بالرئيس السادات ثم التقى بالفريق الجمسى ..

وسأله الرئيس السادات : ماذا فعلت مع الفريق الجمسى ؟

أجاب فايتسمان : ماتزال هناك خلافات بشأن القوات المصرية الضاربة .

قال السادات : وماهذه الخلافات ؟

أجاب فايتسمان : لقد فهمت من حديثى مع الفريق الجمسى أن قوات مصرية ضاربة سوف تكون شرقى المضايق ، وهذا يخالف ما اتفقت عليه مع بيجين فى القدس . . كما أن بيجين قد أخطر مجلس الوزراء بذلك .

وقال الرئيس السادات : فعلا لن تكون هناك قوة ضاربة شرق المضايق تأمينًا وتهدئة لخوفكم الرهيب ، كما سبق أن وعدت ولكن مادخلكم فى قواتنا العادية وتوزيعها ؟ ماذا جرى لكم ؟ كيف تفكرون ؟ إن توزيع قواتنا وانتشارها وتمركزها

أمر يخص الفريق الجمسى ، ومأأزال عند الوعد الذى قطعته لبيجين من ألا تتعدى القوة الضاربة شرق المضايق .

وهنا سأل عيزر فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى أخطر سؤال : يا سيادة الرئيس هل دار بينك وبين بيجين شيء عن المستعمرات الإسرائيلية فى شمال سيناء ؟ وهل تحادثتما عن المطارين فى النقب وبالقرب من رفح ؟

وقال السادات : لم نتحدث فى شيء من ذلك ؟ ولماذا ؟ ومع ذلك إذا كانت هناك مشكلة بالنسبة لهذين المطارين ، فاحرثوهما قبل أن تخرجوا منهما .. وقد فعلتم ذلك بعد عدوان ١٩٥٦ حرثتم كل شيء . ثم إن هذين المطارين ، كما تعرف ليست لها أية قيمة عسكرية . . لأنهما قريبان جدًّا من حدودكم ، وفى دقيقة واحدة يمكن ضربهما . . ولذلك سوف أضمها إلى المطارات المدنية . ولن أضع فيها طائرات حربية فهذا ضد كل نظريات الحرب .

وعاد فايتسمان يقول : إنه موضوع فى غاية الخطورة !

ولما لاحظ فايتسمان استنكار الرئيس السادات لمجرد ذكر المستوطنات على الأرض المصرية عاد يقول : تصورت أنه لابد أن يكون قد دار بينكما حديث فى هذا الشأن ..

وعاد الرئيس السادات يقول : لقد سمعتنى أقول للعالم كله إننى مستعد أن أذهب لآخر الدنيا إذا كان هذا سيؤدى إلى وقف الحرب ونزيف الدم بيننا . . يا فايتسمان قل لبيجين سأحاربكم إلى الأبد إذا فكرتم فى استبقاء شبر من أرضنا أو الاحتفاظ بمستعمرة على سيناء .

وامتقع وجه فايتسمان وهو يقول : يا سيادة الرئيس لقد حاربت أربع مرات ، ومستعد أن أحارب مرة خامسة !

وعاد السادات يقول : إننى لا أقول لك ذلك عن انفعال مثل انفعالك . إنما هذا أمر لا أقبل فيه المناقشة !

قال فايتسمان : إذن اختلفنا !

قال السادات : نصيحتى : إذا كنتم تتصورون أن الاتصال المباشر سوف يكون وسيلة لتنازلات مصرية تمهيدا لتنازلات أخرى على الأرض المحتلة ، فهذا مرفوض تماما . . فلا أقبل مستوطنات فى سيناء ولافى الضفة الغربية والجولان وأرى فى مجرد التفكير فى إبقاء المستعمرات على أرضنا ، إهانة لمصر..

وكان تعليق فايتسمان على ذلك : جئت وفى قلبى فرحة ، أعود وفى نفسى حسرة !

وكان هذا الموقف موضع رسائل تبادلتها مصر وإسرائيل عبر السفير الأمريكى .

وأعلن بيجين فى رسالته أن ماحدث : شيء يبعث على الأسف .

* * *

وقد عاد بيجين يلوى الوقائع ويفسرها على هـواه ليؤكد ليهود إسرائيل والعـالم أنه رجل شهيد ، وأنه يقف وحده ضد العالم كله من أجل سلام الشعب الإسرائيلى . فقد أعلن بيجين أمام ضباط الطيران أن الرئيس السادات يهاجمنى شخصيا لأنى قد وصفته بنيرون الذى أحرق روما وهو سعيد بذلك !

وأعلن منذ أيام أنه يرفض التعليق على ماتنشره مجلة « أكتوبر » ورئيس تحريرها أى أن موقف مصر من بيجين شخصى من أوله لآخره . وهذه الأكذوبة الجديدة لها قصة أيضا .

ففى حديث للرئيس السادات مع مجلة « أكتوبر » أعاد ماسبق أن قاله فى جلسة خاصة لبيجين ثم مادار بينه وبين فايتسمان . .

قال الرئيس السادات : إن هذين المطارين فى شمال سيناء يجب ألا يبقيا .. وأرى أن إسرائيل يحسن بها أن تحرث أرض هذين المطارين قبل انسحابها إذا كانت تخشى استخدامها ضدها . .

ونشرت الصحف اليومية المصرية هذا الحديث فى نفس اليوم مع مجلة « أكتوبر » . غير واحدة من هذه الصحف قد وقعت فى خطأ مطبعى . فبدلا من أن تقول : هذه المطارات احرثوها .. كتبت : هذه المطارات احرقوها !

فماذا فعل بيجين ؟

بسرعة أعلن أنه لايقبل تهديد الرئيس السادات الذى يعيد إلى ذاكرتنا نيرون الأمير الرومانى الذى أحرق روما – هذه أول مغالطة ..

والمغالطة الثانية أن بيجين بدلا من أن يقول السادات طالب « بحرق » المطارات قال إنه يطالب بحرق « المستعمرات » .. أى إحراقها بمن فيها وعلى من فيها ؟ !

وكان فى استطاعة بيجين – طبعا – أن يتحقق من نص الحديث . . ولكنه بسرعة قام بالتشويه والتشويش .

وأذكر أنه فى إحدى المرات كان التليفزيون الأمريكى يسجل برنامجًا للرئيس السادات فى بيته بالجيزة . وأثناء الحديث سمعنا مندوب التليفزيون يتحدث فى جهاز لاسلكى من فندق مريديان ويوجه زميله فى بيت الرئيس ويطلب أن يقرأ على الرئيس السادات برقية جاءت من واشنطون لعله يعلق عليها فى البرنامج . فاعتذر الرئيس السادات قائلا : لا أعلق على برقيات تنقل كلاما لزعيم من الزعماء .. إننى أنتظر النص الرسمى لما قال ، وهذا هو العرف السياسى الصحيح !

فلم يعلق الرئيس السادات على تصريح للرئيس كارتر قبل أن يتثبت من ذلك !

ومما قاله الرئيس السادات لفايتسمان عندما التقى به فى القناطر الخيرية . وعلى مسمع من حسنى مبارك والجمسى وبراق النائب العام الإسرائيلى الذى استقال أخيرًا : لو خطر لى لحظة واحدة أن بيجين وهو يتكلم عن المستعمرات كان جادا ، لأنهيت اللقاء وقطعت كل شىء . . ولكنى تصورته يداعبنا فقط .. أو أنه يتخذ موقفًا تفاوضيًا ..

وهذه الواقعة أيضا كانت موضع رسائل متبادلة بين السادات وبيجين عبر السفير الأمريكى . وكان رأى بيجين فى رسالته : أنه شىء يبعث على الأسف !

ثم إن هاتين الواقعتين وهذه الرسائل المتبادلة قد أعلنها الرئيس السادات على رؤساء تحرير الصحف الأمريكية الذين التقى بهم فى أبريل قبل الماضى فى بلير هاوس (قصر الضيافة) بواشنطون . وطلب إليهم عدم التعليق على ذلك ، حتى لا يعطوا

بيجين فرصة للتباكى على أنه أصبح مضطهدا معزولا من العالم كله ..

ولايزال بيجين يحاول تغطية هذا الموقف الصعب الذى اختاره لنفسه والذى تراكم عليه وحوله ، ولذلك لم يبالغ الرئيس السادات عندما وصف بيجين بأن فى داخل مرارة . وبيجين نفسه قد أكد هذا المعنى فى أحاديثه السياسية وحملاته الانتخابية ومواقفه من المعارضة فى داخل الكنيست .

وفى كتابيه : كتاب « الثورة » الذى أهداه للرئيس السادات فى بيت رئيس الدولة السابق كاتسير . وكتابه الثانى الذى لم يهده للرئيس السادات وهو « الليالى البيضاء » . كأنما توقع أن يكون للرئيس السادات رأى خاص فى هذا الكتاب .

فهذا الكتاب سجل كامل من اعترافات بيجين وعذابه وهوانه ومرارته فى داخل السجون السوفيتية . . وفيه مقارنات بين السجون فى روسيا والسجون فى ألمانيا . . ويقول بيجين فى هذا الكتاب : إن المؤلفين السوفيت يرون أن سجونهم أفضل .. لأن السجين يعمل . وفى العمل تهذيب وإصلاح وتقويم لخلقه ..

وأهم من ذلك أن السجون السوفيتية فيها نوع من « الحكم الذاتى » ..

أما تفسير الحكم الذاتى عند بيجين فهو : أن السجين يتولى بنفسه الطعام والشراب والنوم ! . والسوفيت يتولون الإشراف على تثقيفه وعلاجه ..

ويقول بيجين : ولكن المؤلفين السوفيت لايشرحون للناس ، ماهى هذه الأشياء التى يتولى السجين عملها .. مانوع الطعام ومانوع الشراب ومانوع الفراش . إنها جميعا حقيرة لاتستحق الذكر .

وهذا هو « الحكم الذاتى » الذى ينادى به بيجين لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة : سجن يمارس فيه السجين حريته فى الأكل والشرب وتبقى السلاسل اليهودية فى يديه ورجليه .

وبيجين يختم كتابه هذا بقوله : إن كل شىء فى الدنيا يهون أمام ضحكة طفل !

فهل هان كل شىء أمام اللحظات السعيدة لمئات الألوف من الإسرائيليين يوم استقبلوا وودعوا الرئيس السادات . داعية السلام الحقيقى للجميع ؟ !

إن بيجين يعنى مايقول عن المرارة ولايعنى مايقول عن السعادة والسلام ! إن بيجين له وضع غريب وعجيب فهو بولندى المولد . روسى السجن ، شرقى الدولة وتنطبق عليه الآية التى وصف بها موسى عليه السلام نفسه حين ذهب إلى سيناء : إنه غريب فى أرض غريبة ! (سفر « الخروج » الإصحاح الثانى الآية ٢٢) ..

وهو غريب عن الأرض وعن الشعب . . ومع ذلك يحاول أن يكون شرقى الجغرافيا ، غربى التاريخ ، ولكنه فى نفس الوقت يعتمد على الشرقيين فى مواجهة الغربيين المثقفين من حزب العمل والأحزاب الأخرى .

وربما كان هذا هو الخلاف بينه وبين فايتسمان . ففايتسمان من الصابرا - أى من الذين ولدوا فى فلسطين . وهو قد شرب الروح الشرقية وعرف معنى وجود العرب فى إسرائيل وخارجها . ولذلك كان حديث فايتسمان مع الرئيس السادات سهلا . وكان التفاهم يسيرا وقد أغضب ذلك بيجين أيضا .

وخلال ساعات طويلة جلس فيها الرئيس السادات مع فايتسمان فى جزيرة السلام تحت الأشجار فى مدينة الإسماعيلية التى يجد عندها الرئيس السادات كل إنجازاته تتحرك أمامه . . فالجزيرة نفسها كانت فى لون الحديد الصدئ بسبب قذائف الحرب . . فأصبحت خضراء ، والقناة كانت مسدودة فانفتحت . وأمامه على الجانب الآخر كانت « النقطة » التى أصابت عبد المنعم رياض والتى هدمت مدينة الإسماعيلية ..

وفى إحدى المرات أشار الرئيس السادات إلى فايتسمان وهو يقول : إن خط بارليف قد اختفى . . وهذه الكراكات اليابانية تفتح فرعا جديدا لقناة السويس مكانه . . وسأله الرئيس فى إحدى المرات : فى كم من الوقت جئت من إسرائيل إلى هنا ؟ !

قال : ساعة .

هز السادات رأسه ليقول له : عندما نفرغ من الأنفاق تحت القناة فسوف نذهب إلى عمق سيناء فى عشرين دقيقة وعند إبرام السلام يمكن أن تختصر الساعة

إلى ثلث ساعة .

إلى مثل هذه المجالات العالية عن السياسة والمجردة من خصومات الحرب وتراكمات المرارة ، كان الحديث يأخذهما إلى الكلام عن المستقبل ..

وفى نفس الوقت كانت تتضاعف مرارة بيجين ، وحقد ديان على هذه المودة بين الرئيس السادات وفايتسمان .

وقد حاول فايتسمان نفسه أن يستأذن فى مجئ ديان معه . واعتذر الرئيس السادات ، وحاول ديان عن طريق الرئيس شاوشيسكو . واعتذر الرئيس السادات . ثم حاول عن طريق الرئيس كارتر فاعتذر الرئيس السادات . وحجة الرئيس السادات هى : أن ديان لا يعنى ما يقول . وأنه أمام الميكرفون سوف ينسى كل ما وعد به .

وكان قد وعد فى بوخارست باستعداده لأن يعلن عن مبادئ الحل الشامل إذا وافق الرئيس السادات على لقائه فى القاهرة !

ثم أعلن الرئيس السادات أنه لن يلتقى بمناحم بيجين إلا إذا كانت عناصر جديدة فى الحوار تبرر مثل هذا اللقاء !

* * *

وفجأة ، مرة أخرى ، أعلن بيجين أنه يرفض المشروع المصرى المقدم من الرئيس السادات إلى إسرائيل عن طريق فايتسمان ، وهو أن تنسحب إسرائيل من العريش ، إثباتا لحسن نيتها ، واستجابة رمزية لمبادرة السلام .

والحقيقة أن مصر لم تقدم مشروعا إلى إسرائيل ، فقد كان هناك مشروع معروض فى قلعة ليدز فى ضواحى لندن من وزير الخارجية المصرى على وزيرى خارجية أمريكا وإسرائيل .

أما زيارة فايتسمان للرئيس السادات فى سالزبورج فقد كانت « زيارة شخصية » .

وحقيقة ماحدث هو أن الرئيس السادات قد أعلن لمونديل نائب رئيس

الجمهورية الأمريكية فى ذلك الوقت عندما عرض مبادرة الرئيس الأمريكى بالاجتماع فى لندن ، عندما التقى به فى الإسكندرية . أنه يقترح أن يلتقى الطرفان مرة فى العريش ومرة أخرى فى بير سبع .. أى مرة على الأرض المصرية ، ومرة على أرض إسرائيل . والموقعان قريبان من الجانبين .. وسبقت مجلة « أكتوبر » بهذا النبأ كل صحف العالم ..

وفى سالزبورج دار الحديث الودى طويلا بين وزير الدفاع الإسرائيلى وبين الرئيس السادات .

قال الرئيس السادات : ما دمتم سوف تنسحبون من غزة اليوم أو غدا ، فلماذا لاتكون هذه بادرة منكم تدل على حسن النية . ويكون الانسحاب من العريش وماحولها بطول رأس محمد استجابة رمزية لمبادرة السلام .. فتنسحب القوات الإسرائيلية من العريش ويجئ بدلا منها مدنيون مصريون .

وأعلن فايتسمان أنه سوف يطلع مناحم بيجين على ذلك .

ولما عاد فايتسمان أطلع بيجين على هذه الفكرة ، ولكن بيجين أجل النظر فى ذلك إلى ما بعد لقاء ليدز .. الذى انتهى بأن أعلن ديان : أن الأرض هى السلام . وأنه لن يتخلى عن الأرض ..

وفى نفس الوقت أعلن بيجين : أنه لن يعطى العريش بلا مقابل ، وأنه لاشىء بغير ثمن ! . والعريش هذه قد احتلها اليهود فى سنة ١٩٥٦ . ثم أدارتها الأمم المتحدة بعد خمسة وسبعين يوما . واعترض بيجين على دخول الأمم المتحدة ، وكان وقتها زعيما للمعارضة ، ثم استولى عليها اليهود فى حرب ١٩٦٧ ..

ثم عاد بيجين فاعترض مرة أخرى على خروج اليهود منها بلا ثمن !

ثم مضى الرئيس السادات متبسطا مع فايتسمان يقول له إننى أعلنت قبل ذلك أنى سوف أبنى على جبل موسى مسجدا للمسلمين وكنيسة للمسيحيين ومعبدا لليهود تكون جدرانها متلاصقة . وفيها يصلى معا كل المؤمنين بالأديان السماوية الثلاثة ،

وهذه المنطقة هى التى قال عنها القرآن الكريم « بالوادى المقدس طوى » . وهنا كلم الله موسى .. كما تعرفون ..

قال الرئيس السادات : إننى صليت عيد الأضحى فى المسجد الأقصى . وهو العيد الذى كان يضحى فيه أبونا وأبوكم إبراهيم عليه السلام بولده . امتحانا من الله لطاعة إبراهيم وصبره ، والقرآن الكريم يقول « وفديناه بذبح عظيم » .. لماذا لانصلى العيد كل عام فى هذه المنطقة من أرض سيناء المقدسة .. ويكون ذلك عادة سنوية وقد أطلعت البابا بولس السادس على ذلك .. ودعوته . وفى ذلك اليوم سوف أجمع شيخ الأزهر وبابا الإسكندرية والحاخامين الشرقى والغربى فى تل أبيب . كلهم فى صلاة واحدة فى مكان واحد ..

وهنا أحس فايتسمان أن الرئيس السادات قد اجتاز به الحاضر وعاد به إلى الماضى ثم أخذه إلى مستقبل بلا أحقاد ولا ضغائن ولا حروب .. إنما سلام فى سلام .

وقبل أن يفيق فايتسمان من هذا الحلم قال له الرئيس السادات : افرض أننى ركبت سيارتى وورائى مؤمنون بالأديان الثلاثة واتجهت إلى حيث كان يقف موسى .. فهل تطلقون علينا الرصاص ؟ . . سأضعكم أمام الأمر الواقع . . ولن أتوقف ..

وقال فايتسمان : طبعا لن يطلق أحد الرصاص . ولكن سوف أنقل هذه الصورة الدينية الإنسانية السلامية الباهرة إلى بيجين .

* * *

ولكن الرئيس السادات رأى فى القرار الذى أعلنه بيجين فى القدس وديان فى لندن فى وقت واحد : نقطة تحول خطيرة فى مسار أحاديث السلام بين مصر وإسرائيل !

وعاد فايتسمان إلى بيجين . وعاد بيجين إلى موقفه المتصلب العنيد يطالب بأن يكون هناك مقابل لانسحابه من أرض الغير على طريقة «الحلوان» التى حكى عنها الرئيس فى جامعة الإسكندرية .

ونحن نوافقه على المقابل . والمقابل هو السلام والاعتراف وحسن الجوار وتطبيع العلاقات .

أما إذا تصور بيجين أننا يجب أن نعطيه أرضنا من أجل سلامه وسلامته . فذلك كله مرفوض ، وعليه ابتداء من اليوم أن يحمل تبعة ماقال ومايقول .

ويجب أن يعدل بيجين تمامًا عن الهلوسة الصهيونية التى تطالب بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، وعن أن مدينة « عمان » ماتزال فى أرض الأعداء .. وأن « الكعبة » قد بناها من أجلهم أبوهم إبراهيم .. وأن لهم فى « المدينة المنورة » أحياء كاملة ..

وبيجين هو الذى أعلن بعد العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ : أن الوطن اليهودى يجب أن يشمل ضفتى نهر الأردن لأنه وحدة تاريخية وجغرافية . وأن تقسيم هذا الوطن عمل غير مشروع . وواجب هذا الجيل أن يعيد الأرض التى فى حوزة الغير ، إلى إسرائيل الأم . . إسرائيل الكبرى ! !

وأعلن بيجين فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ : إننى أؤيد غزو مصر من كل قلبى . . وأن بن جوريون يستحق عظيم الاحترام لأنه اتخذ القرار . وبعد ذلك لابد من السلام مع مصر . . السلام . . السلام . .السلام ، دون أن نجلس مع جمال عبد الناصر .

أى أنه يريد أن يتقدم بالتسوية بعد غزو مصر ، وبعد إسقاط جمال عبد الناصر أيضا !

أى بشروط إسرائيل وسطوتها !

وعاد مناحم بيجين فى المؤتمر الرابع الذى انعقد فى تل أبيب فى ذلك الوقت وأعلن لحزبه « حيروت » أنه قد آن الأوان لكى يتولى السلطة هو وزملاؤه من تلامذة الزعيم الثورى جابوتنسكى ..

وكان الحاخام نسيم ، زعيم اليهود الشرقيين حاضرا . فوقف والتفت إلى الجميع وإلى بيجين وقال : إننى أرى فيك وأسمع منك وأشم رائحة الأنبياء !

وعلى اليهود الشرقيين والغربيين الذين شاركوا فى العدوان علينا سنة ١٩٥٦

واحتلوا أرضنا سنة ١٩٦٧ ، وانسحبوا وانكسروا أمامنا ١٩٧٣ ورحبوا وبكوا فرحًا عند زيارة السادات للقدس ، أن ينظروا إلى رجلهم مناحم بيجين ، وأن يدلونا ويدلوا أنفسهم أيضا : من هذا الذى نراه الآن .. أهو الإرهابى القديم الخارج من سجون روسيا المطالب بإسرائيل الكبرى . . هل هو رجلهم المريض الذى يطالب بالسلام ويراوغ فى كل مايقول وما يفعل ؟

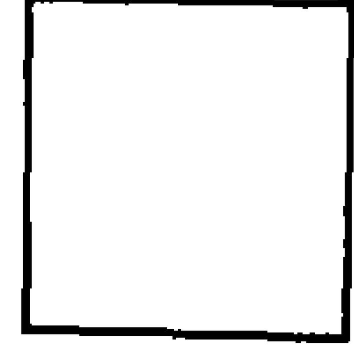
عليهم أن يلفتوا نظره وسمعه وعقله وقلبه إلى الذين كانوا رفاق سلاحه . . لقد تغيرت آراؤهم وانتقلوا إلى خصومته وعداوته وأصبحوا أكثر مرونة وواقعية وأصدق فى دعواهم للسلام ..

وعلى الشعب اليهودى فى إسرائيل وخارجها . أن يستحضر ما كان يقوله بيجين بالأمس وماعاد إليه اليوم مستهينًا بالتاريخ وضربات القدر . . وعليهم أن يتساءلوا : هل من حقه أن يريق دماءهم لا لشىء إلا لأنه قد عاش إلى مابعد عصره .. أو أنه عاش أكثر مما ينبغى . . أو أنه توقف بالزمن عند عدوان سنة ١٩٥٦ ..

وبعد ذلك على بيجين أن يواجه أعضاء الكنيست وزملاءه من الوزراء الذين يرون فى كلامه وحركاته بداية سقوطه النهائى ، فقد اشتد عليه مرض السكر ومرض القلب ، ولم يدفع هذين المرضين إلى التآمر عليه أحد من إسرائيل ، أو من يهود أمريكا أو من العالم الثالث أو الدولية الاشتراكية ..

ومرض رئيس الوزراء ليس مشكلة عائلية أو شخصية . . وإنما هو مشكلة قومية . لأن قدراته وتصوراته التى تسبق قراراته هى أعمال مصيرية .. فضربات قلبه هى ضربات القدر ، والسكر الذى فى دمه مرارة على شفتيه .

والمهم أن يكون قادرا على القرار . والقرار هو السلام ، وليس من حقه أن ينفرد بذلك . . ولن يسكت عنه : المعارضون وخصومه ووزراؤه وشعبه ومرضه . . ومصر أيضًا !



الشعب الأمريكى
ما الذى يدفعه لإسرائيل ولماذا ؟

قبل مبادرة الرئيس السادات بخمسين عاما تماما ، أعلن حاييم فايتسمان فى رومانيا . وهو أول رئيس لإسرائيل وعم وزير الدفاع الحالى : أن وعد بلفور كان مفاجأة تامة . وأن اليهود لم يستعدوا لمثل هذا القرار ، فهو وعد فى الهواء ، ولكن يجب أن نعمل له بسرعة ، وألا نضيع الوقت وأن ننزل بالوعد من الهواء إلى الأرض ، فإذا نزلنا إلى الأرض ، وكانت لنا الأرض . . تحقق لنا السلام !

وكان وعد بلفور وعدا بالأرض . .

أما المفاجأة الثانية فى تاريخ إسرائيل فهى مبادرة السادات : فقد كانت وعدا بالسلام . لأن الأرض التى استولى عليها اليهود لم تحقق لهم السلام !

* * *

وفى سنة ١٩٢٨ أعلن العالم الكبير . ألبرت أينشتين الذى رفض أن يكون رئيسا لإسرائيل : « أن مرض العصر هو القومية المتطرفة . التى تولدت من الكراهية العمياء إننى أفضل اتفاقا معقولا بين العرب واليهود وتعايشا سلميا ، على أن تقوم دولة يهودية . لأن جوهر « الديانة اليهودية » يتنافى مع قيام الدولة التى تكون لها حدود ويكون لها جيش مثل هذه الدولة . إذا قامت فسوف تكون هدفا معروفا محددا لأعدائها من العرب . ثم إن الدنيا تغيرت . فليس يهود العالم اليوم هم يهود ألف سنة مضت .. إن قيام الدولة فى ذاته تحطيم لجوهر الديانة وما نادى به الأنبياء .

وقبل ذلك بعشرين عاما ذهب يهود أمريكا يطلبون من الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون ألا تكون لليهود دولة فى فلسطين . فاليهود يجب أن يكونوا فى العالم كله . وأن يوطنوا أنفسهم على الحياة بين الشعوب . وبذلك لايكونون غرباء ، وهذه هى « عالمية الديانة اليهودية » وهذا هو دورهم المقدس فى التاريخ . أما أن تكون لهم دولة ويكون لهم وطن فهذا يحطمهم ويجمع عليهم الأعداء .. ولذلك فأرض المعاد التى جاءت فى التوراة . يجب أن تكون « أرض المعاد » لكل الديانات !

ولكن الرئيس فايتسمان كان يطلب الأرض أولا . وبعدها الدولة . ثم على الأجيال التالية أن تحمى نفسها ضد الأعداء ..

غير أن يهودا آخرين كثيرين كانوا يرون ألا مبرر للدمار والحروب . وأنه أفضل لليهود أن يكونوا فى كل بلاد العالم مواطنين من الدرجة الأولى . وليسوا غرباء . وألا يكونوا « مزدوجى » الولاء : لإسرائيل أولا ولأية دولة أخرى ثانيا .. إنهم يفضلون ألا يكون لهم وطن ..

أما بن جوريون فى كتابه « ميلاد جديد لإسرائيل ومصيرها » وقبل قيام الدولة بعشر سنوات فيقول : « هناك مليون عربى فى فلسطين ، يرون أنهم أبناء شرعيون لهذه الأرض . أردنا ذلك أولم نرد . ولكن أرادوا هم أيضا أولم يريدوا ، فهذه الأرض هى إسرائيل القديمة . وسوف تكون بيننا وبين العرب حروب طويلة . وهؤلاء العرب ليسوا فى حاجة إلى أن يشتروا أرضا .. فالأرض موجودة وليسوا فى حاجة إلى أن يستوردوا شعبا .. فشعبهم موجود ، وكل مايريده العرب هو أن تكون لهم حكومة ، إن الحكومة هى مايريدون . وسوف يحاربون من أجل ذلك . أما نحن فسوف نحارب مرات كثيرة من أجل أن يكون وجودنا مشروعا ونهائيا على هذه الأرض » .

ومناحم بيجين هو كل هذه الآراء معا مضافا إليها : الكثير من المغالطات والاستعداد للحرب والدم ، والتظاهر بكل ماليس كذلك .

فهو يرى أن الأرض المحتلة هى أرض إسرائيلية . كان الانتداب البريطانى وصيا

عليها ثم جاءت حرب ١٩٤٨ فاستولت الأردن على جزء ومصر على جزء . ولما قامت حرب ١٩٦٧ استردت إسرائيل أرضها المقدسة !

وفى نفس الوقت فإن مناحم بيجين يريد ألا تكون هناك خريطة أو حدود مفتوحة من النيل إلى الفرات ..

وإنه سوف يحارب حتى لاتكون لفلسطين دولة .. أولا تكون لها حكومة فإذا كانت حكومة فلسطينية فسوف تعلن الحرب على يهود إسرائيل ويهود المستعمرات فى الأرض الفلسطينية ، وهذا مايستخدمه بيجين ليخيف اليهود فى إسرائيل . ولذلك أعطوه ٧٠ صوتا ضد ٣٥ صوتا . فقد أقنعهم بيجين أن الطوفان سوف يجيء من بعده ، وأنه هو « نوح » الجديد الذى يجب أن تركب كل إسرائيل سفينته ، وإلا أغرقهم طوفان المبادرة التى اكتسحت الرأى العام العالمى والرأى العام اليهودى أيضا !

إذن فلقد كانت فى تاريخ إسرائيل مفاجأتان :

الأولى : وعد بلفور .. كما اعترف الرئيس فايتسمان بذلك .

والثانية : مبادرة الرئيس السادات .

ولكن الرئيس فايتسمان استقبل المفاجأة وانتقل من مجرد الحلم إلى الواقع ، وأقام لوعد بلفور شعبا وأرضا وجيشا ..

أما مبادرة السلام ، فإن بيجين لم يكن مستعدا لها ، ولايزال مكابرا مغالطا يتظاهر بالسلام وهو لايريده . يتظاهر بالمرونة وهو فى غاية التصلب . . ومن أكثر الأدلة على تصلبه ماقرره مجلس الوزراء الإسرائيلى من أن العريش لن تكون هدية ! ..

أى لن تكون العريش ، ولاذرة رمل من سيناء ، بلا مقابل !

كان ذلك قرار مجلس الوزراء . ثم أعلنه بيجين ، وعاد فبعث به فى رسالة للرئيس السادات ، ورفض الرئيس السادات تسلم هذه الرسالة ، وأعيدت مغلقة إلى أمريكا لتردها إلى إسرائيل ..

ثم بعث بيجين باعتذار للرئيس السادات عن طريق ألفريد أثرتون ، وقال فى اعتذاره إننى لم أقصد أية إساءة إلى شخص الرئيس السادات ! ..

بل إنه لم يقصد الاعتذار ، وإنما قصد الإساءة .

وكانت المفاجأة الأخرى : أن الرئيس السادات قد أعلن رفض الاقتراح باجتماع ثلاثى فى إحدى محطات الإنذار المبكر فى سيناء ، وكان بيجين قد أعلن قبل ذلك أنه تم الاتفاق على لقاء ثلاثى بين وزراء خارجية أمريكا ومصر وإسرائيل ، وحدد بيجين موعدا لذلك ..

مع أن شيئا من ذلك لم يكن قد اتفق عليه . وبالتالى لم يتحدد له مكان أو موعد وأعلن الرئيس السادات أن أى لقاء مرفوض الآن . ثم إنه لا لقاء على أرض سيناء !

(والمشتغلون بالتفسير الطبى لسلوك بيجين قد سجلوا انحدارًا عنيفا فى سلوكه النفسى والعقلى ، وامتقاعا فى لونه .. لدرجة أنه فى إحدى الجلسات للكنيست قد نبهه بعض الأعضاء إلى ضرورة أن يضع يده فى جيبه لتناول الحبوب الضرورية ، وقد حدث نفس الشىء قبل أن يلقى الرئيس السادات خطابه فى الكنيست . إذ كانت زوجته أليزا بيجين تجلس فى شرفة كبار الزوار . فأشارت إلى أريك شارون ، فلما استوضحها شارون طلبت منه أن ينبه بيجين ، فلما انتبه بيجين ونظر إليها . . وضعت يدها على فمها بما يدل على أنه يجب أن يتعاطى بعض الحبوب ، وقد فعل . وهناك الآن فى الكنيست من يتولى تنبيه بيجين إلى ذلك . رغم ماتؤكده المعارضة من أن حالته الصحية قد ازدادت سوءا . وذلك بسبب اشتداد السكر عليه وإصابته بالذبحة ثلاث مرات واحتمال أن يصاب بمرض بيرجر الذى يؤدى إلى عجزه عن الحركة تماماً ، بل إن بعضهم يشبه بيجين بما أصاب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى أواخر سنة ١٩٧٠ .

وما فعله بيجين فى الكنيست بيديه مع تفوهه بكلمة نابية جدًّا . لم يشأ أن

ينطقها بالعربية ولكن نطقها بالروسية ، دليل على جنونه المتصلب ، أو تصلبه الجنونى .

ويوم رفع خروشوف حذاءه فى الأمم المتحدة قال العالم : جليطة على أعلى المستويات .. فما الذى سوف يقوله العالم عن بيجين ؟)

ثم لم يكن معقولا أن نجلس مع إسرائيل . فى ظل هذا القرار ، وإلا كان ذلك تسليما بمعناه ، وفى نفس الوقت سوف تستدرجنا إسرائيل ومعنا الأمريكان أيضا إلى موقف يجعل الانسحاب من هذا اللقاء ضروريا . وهنا ينفخ بيجين فى أبواق الدعاية قائلا : إننا نلتقى بالمصريين ولكنهم متشددون !

مع أن موقف بيجين لم يتغير ، فهو يريد الأرض والسلام معا .

ويرى بيجن أن المعارضة الإسرائيلية التى تختلف معه فى الكنيست وخارجه ، قد حاولت مع الرئيس السادات إسقاطه – وهذه المحاولة مقبولة من المعارضة . ولكن أن يحاول الرئيس السادات ذلك . فهو تدخل فى صميم شئون إسرائيل إلى آخر مايثيره فى كل أجهزة الإعلام !

* * *

وجاء قرار الرئيس السادات برفض أى لقاء ثلاثى على سيناء ، نتيجة لمعاناة طويلة فى اللقاءات والمفاوضات والمراوغات الإسرائيلية وكان هذا القرار منطقيا بعد الذى أعلنه موشى ديان فى ليدز . وماأعلنه بيجين فى القدس : من أنه لانزول عن الأرض لأى سبب ..

بل إن ديان قد انكشف تماما عندما صور الموقف العربى قائلا : إن الرئيس السادات يريد السلام فى الضفة الغربية وغزة لأن المشكلة الفلسطينية هى الجوهر . ولكن فى المفاوضات يجب أن يجلس معه الملك حسين . والملك حسين لايستطيع أن يذهب للمفاوضات دون الرئيس الأسد ، والرئيس الأسد لن يجىء بغير منظمة التحرير وبغير السوفيت . فما الذى يمكن عمله مع مصر؟ .. إننا صوت واحد فى إسرائيل ، ولكنهم كثيرون ومختلفون !

ومعنى ذلك أن إسرائيل حريصة على أن تقع الخلافات بين العرب . وفى نفس الوقت لاتريد أن تفاوض مصر ، وإن كانت تتظاهر بعكس ذلك . وعندما تتفاوض فهى تعلن فى كل مرة : أنه لا فائدة من المفاوضات ولا نتائج ، ولكن لا مانع من أن نلتقى فى أى مكان فى سيناء ، أو فى إسرائيل أو فى أوروبا ؟ !

وقد أسئ فهم قرار الرئيس السادات ، حتى من جانب الأمريكان ومن جانب أشقائنا العرب ، فقد ربطوا بين هذا القرار الذى أعلنه الرئيس السادات ، وبين زيارة الأمير فهد ولى عهد المملكة السعودية ، مع أنه لاصلة مطلقا بين هذه الزيارة وهذا القرار !

أما سبب ذلك فهو أن بعض المشتغلين بالتحليل السياسى يتوهمون أن مصر لاتستطيع أن تتخذ قرارًا دون ضغط خارجى . ودون « ولاية » أو « وصاية أحد .. مع أن هناك قرارات كثيرة وخطيرة قد اتخذها السادات وكانت مفاجأة لأقرب الأشقاء والأصدقاء .. ولكنها فكرة « التبعية » و « عقدة النقص » وروح « الانهزامية » هى التى تملأ رءوسهم وتلوى أقلامهم .. كانت ولاتزال !

وقد حدث نفس سوء الفهم قبل ذلك عندما أصدر الرئيس السادات قراره التاريخى بطرد الخبراء السوفيت – وهو أخطر قرار فى تاريخ مصر وفى حياة الرئيس السادات !

فقد جاء الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع السعودى إلى مصر . وكانت زيارته لمصر بناء على طلب الرئيس السادات ، فقد ذهب الأمير سلطان إلى أمريكا يطلب مزيدا من الأسلحة ، والتقى بالرئيس الأمريكى ووزير الخارجية ووزير الدفاع ، وطلب الرئيس السادات أن يتوقف الأمير سلطان فى طريق عودته إلى الرياض ليعرف منه آخر الأخبار والتطورات السياسية فى أمريكا ، وعرف الرئيس السادات من الأمير سلطان .. أن الجو العام سيئ جدًّا ، وأنه ليس هناك أسوأ من ذلك !

وقال هواة التحليل وأدعياء العلم بالأمور وبواطنها وصناعة السياسة والقرار فى

مصر : إن الرئيس الأمريكى قد بعث برسالة خاصة للرئيس السادات ، وبعد أن قرأ الرئيس السادات هذه الرسالة طرد الخبراء السوفيت ؟ !

بل حدث أن التقى الرئيس السادات بعد صدور القرار بدكتور كيسنجر وزير خارجية أمريكا الأسبق . فقال له كيسنجر : لو أنت أطلعتنى على هذا القرار لكنا رتبنا أمورا كثيرة .

وقال الرئيس السادات : كيف ؟ إن علاقتنا بكم كانت مقطوعة ، ثم إن السوفيت مايزالون رغم ذلك أصدقاء ، وأهم من ذلك أن قرارى مصرى ، وأنا لا أشرك أجنبيا فى قراراتنا المصرية الصميمة !

بل إن الرئيس السادات قد أعلن فى المؤتمر القومى « ١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ » :

أن الاتحاد السوفيتى هو الطرف المناصر لنا فى الشرق الأوسط ، وأن هزيمة أمريكا فى فيتنام سوف تجعلها مستعدة لأن تندفع بشكل أكثر حماقة فى منطقة أخرى . وبعد هزيمتها فى المحيط الهندى . فقد حصلت على قاعدة فى ميناء بيريه باليونان ، وهى تحاول إسقاط الأسقف مكاريوس لتكون لها قاعدة فى قبرص ، إن أمريكا تفعل هذا كله ضدنا وضد الاتحاد السوفيتى .

وقال أيضا : إن الصداقة السوفيتية العربية قاعدة من أصلب القواعد ، يتحتم أن نخوض نضالنا من فوقها ..

إلى هذه الدرجة كانت العلاقات سيئة جدًّا مع أمريكا .. ولم تكن علاقتنا بالسوفيت أحسن حالا . رغم حرصنا على الاحتفاظ بواجهة باسمة لهذه العلاقات ؛ فقد أضاعوا علينا سنة الحسم دون مساعدة مادية . وفى نفس الوقت أعلن روجرز أن أمريكا سوف تساعد إسرائيل لتجعلها أقوى من كل الدول العربية مجتمعة .

ولم تعلم السعودية ولا أية دولة شقيقة ، لابقرار طرد الخبراء السوفيت ولابقرار آخر هو حرب أكتوبر .. إلا الرئيس حافظ الأسد . فقد كان يعلم ساعة الصفر ، وقد اتفق الرئيسان السادات والأسد على أن يطلعا السوفيت قبل الحرب بيومين فقط .

وقد مر الرئيس السادات بأزمة نفسية عنيفة ، عندما عرف الموقف الأمريكى

من الأمير سلطان . وعندما تأكد من أن الروس سوف يخذلونه مرة أخرى ، ولذلك قرر أن يفعل شيئا هاما وخطيرا ، قبل أن يلتقى بالسفير السوفيتى الذى ألح فى طلب مقابلته لينقل إليه رسالة من القادة السوفيت ، ولم يتخفف الرئيس السادات من وطأة هذه المحنة النفسية إلا عندما ذهب إلى بيت د . محمود فوزى ، وكان أول من أطلعه على قراره . ووافقه د . فوزى . ثم أنه طلب إليه ألا يقطع « الخيط » مع السوفيت ، وقال له : يحسن أن تدعوهم بمقتضى المعاهدة إلى بيتنا إلى لقاء وإلى وقفة مع الصديق !

* * *

وتكررت اجتهادات المعلقين والمحللين ، بعد أن اتخذ الرئيس السادات قراره برفض أى لقاء ثلاثى على أرض سيناء أو فى أى مكان آخر ، لأن إسرائيل قد ارتفعت بحدة الموقف إلى درجة رهيبة ليس بعدها إلا الحرب . أو هى الحرب . فبعد كل هذا العناء وتأكيد كل ضمانات السلام وحسن الجوار « وتطبيع » العلاقات ، نفاجأ بأن إسرائيل ماتزال على موقفها ..

وعاد المحللون يقولون إن الأمير فهد له دخل فى هذا الموقف الذى اتخذه الرئيس السادات .. والحقيقة شىء آخر ..

فقد بعث الرئيس السادات إلى جلالة الملك خالد برسالة يقول فيها : « جلالة الأخ .. لقد قابل سمو الأمير فهد ولى العهد كلا من الرئيس ديستان والمستشار شميت وجلالة الملك الحسن ، وهم جميعا أصدقاء . وتربطنا بهم علاقات أمينة ومتينة ، ولذلك يسرنى أن يتوقف الأمير فهد بالإسكندرية يوما أو يومين . . وهو فى طريق عودته إلى الرياض ، لنتحدث معًا فى أمور كثيرة ، ولأعرف منه آخر تطورات الموقف العالمى » ..

وجاءت برقية من الملك خالد تقول : إن الأمير فهد سوف يتوقف يوم السبت ويخرج من مصر إلى سوريا ..

• ثم جاءت برقية ثانية من الملك خالد بتأجيل موعد وصول ولى العهد إلى يوم الأحد ..

ووصل إلى الإسكندرية الأمير فهد ولى العهد ومعه الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية والأمير سلمان أمير الرياض ..

والتقى الرئيس السادات بالأمير فهد مرتين ولعدة ساعات ..

وكان جلالة الملك خالد قد أرسل إلى الرئيس السادات ورقة تضمنت عرضا دقيقا لما دار بين وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل وألفريد أثرتون فى الرياض ، وقد أعجب الرئيس السادات بهذه الورقة ورأى فيها براعة الجيل الجديد من الساسة السعوديين ، وأدهشه أنه . دون اتفاق بين مصر والسعودية . قد تطابقت وجهات النظر المصرية والسعودية !

بل إن الرئيس السادات قد قرأ هذه الورقة وهو فى فراشه قبل أن يصل الوفد السعودى بساعات ..

ثم إن الرئيس قد أمر بتوزيع هذه الورقة على أعضاء مجلس الأمن القومى .

وهذا الاتفاق فى وجهات النظر ، هو الذى جعل الرئيس السادات يعلن فى مؤتمره الصحفى أن هناك تطابقا تاما فى وجهات النظر ، قبل وبعد زيارة الأمير فهد ..

ولكن فى نفس الوقت هناك قرارات وطنية لا أحد يستشير فيها أحدا ، فالسعودية عندما تقرر رفع سعر البترول أو خفضه أو تثبيته ، فإنها لاتستشير مصر ، وليس من الضرورى أن تفعل ذلك ..

ولايعنى هذا أنه لاتوجد مشاورات واتصالات حول أمور كثيرة . بل إن الاتصالات والمشاورات وتبادل المعلومات ووجهات النظر ، لم تتوقف ولن تتوقف .

ثم إن حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية عندما زار السعودية ، قد أطلع الملك خالد والأمير فهد ولى العهد على تفاصيل المشروع المصرى الذى قدمته مصر لأمريكا ..

ووزير خارجيتنا محمد إبراهيم كامل فى ذلك الوقت ، عندما قام بأول مهمة له خارج مصر ، زار المملكة السعودية وبقى فيها يومين ..

ولكن لقاء الرئيس السادات والأمير فهد كان ضروريا لأسباب أخرى عديدة : فهناك قضايا كثيرة يجب الاقتراب منها وفهمها والاتفاق عليها ، مثل قضية اليمن الجنوبية – على حدود السعودية . وهناك قضية الصومال والسودان فى مواجهة السعودية وجنوب مصر ، وهناك التحركات السوفيتية فى أفريقيا ، وهناك الموقف العربى بكل أبعاده ..

ومع ذلك,عندما تقدم التليفزيون المصرى يطلب تعليقا من الأمير فهد . نظر الرئيس السادات إلى الأمير فهد ، وفى لحظة واحدة قال الاثنان : لاداعى ، فكل شىء معروف ومتفق عليه . . وعليكم أن تخمنوا الباقى !

* * *

أما بعد ذلك وقبل ذلك فينبغى على مجلس الأمن القومى أن يدرس الموقف ، عندما ينتهى وجود قوات الطوارئ الدولية ، فوجودها قد استنفد المدة القانونية المقررة .. وهى ثلاث سنوات ، كما يقضى اتفاقنا مع أمريكا ..

وعلينا بعد ذلك أن ننظر فى اتفاقية فض الاشتباك ، التى تنص على أنها تتجدد من تلقاء نفسها ، مالم نعقد اتفاقية أخرى جديدة – وهو كلام يمكن الاجتهاد فى تفسيره لحسابنا ولحساب الطرف الآخر ..

وأهم من هذا كله .. على أمريكا أن تدخل طرفا ، لامجرد حكم فى مباراة الملاكمة التى يريد أن يفوز فيها بيجين بالنقط ، بعد أن أصيب بالضربة القاضية فى مبادرة السلام ..

بل إن أمريكا يجب أن يكون موقفها أكثر وضوحا ، هل هى تحمى إسرائيل أو تحمى التوسع الإسرائيلى .

هل هى تحمى إسرائيل فى حدود ١٩٦٧ أو تحمى ادعاءات مناحم بيجين

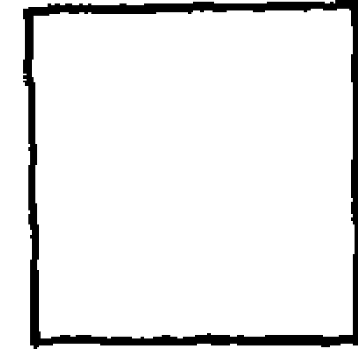
بأرض المعاد وإضافة مزيد من الأرض إلى الأرض المسروقة باسم الأمن الإسرائيلي ؟ ..

مع أن الرجل الذى أقام خط بارليف وهو أحد أقطاب المعارضة ، قد أعلن أنه لاتوجد حدود آمنة من العدوان . . إنما توجد حدود معقولة – أى أن بيجين ليس معقولا ولا منطقيا عندما يطالب بالأمن بلا حدود . . أى أن أمن إسرائيل هو ألا تكون لها حدود !

ثم إن أمريكا يجب أن تواجه إسرائيل ، يجب على فانس أن يسأل بيجين علنا : بالضبط ماذا يريد ؟ .. هل تريد السلام حقا ؟ .. قل ذلك . وقل لنا وللسادات وللعالم كيف ؟

وعلى الشعب الأمريكى ، دافع الضرائب ، أن يعرف حجم المعونات الأمريكية لإسرائيل . . المعونات العلنية والسرية . . فإذا عرف ذلك فمن واجبه أن يتساءل أيضا : كل هذه الفلوس وكل هذه الأسلحة من أجل السلام أو ادعاء السلام أو الاستعداد للحرب أو لحرب الاستنزاف ضد مبادرة السلام ؟ !

إن أمريكا لم تقم بالدور المطلوب منها بعد . . إن أحدًا لايطلب من أمريكا ذلك ، إنما هى الأخلاق الدولية وتأكيدها للسلام وحرصها على مصالحها فى الشرق الأوسط .. وحتى لايكون البحر الأحمر والأبيض والأسود : أحمر اللون والعقيدة ، فعلا لا قولا !



لقاء القمة ليس بين دافيد.. و.. جليات!

معنى التصريحات التى تخرج من عواصم دول القمة الثلاثية : أن أحدا لن يغير موقفه ، وأنه لا يقبل ضغطا من أى طرف ، وأنه يفضل أن يعود من حيث جاء على أن يوقع ورقة واحدة تحت أى تهديد ، وفى نفس الوقت فإن كل طرف يؤكد أن صالح الطرف الآخر أو الطرفين الآخرين هو أن يتحقق سلام فى الشرق الأوسط ، وفى ذلك ضمان للمصالح المشتركة . وأمان من الخطر الشيوعى الذى يهدد الجميع .

والتصريحات الإسرائيلية تؤكد التشدد وتستفز أمريكا ومصر وتستدرجها للتعليق على ذلك ، ويكون التعليق لغما عائما ينسف المؤتمر أو يقطع الطريق إليه . ورغم الواجهة المتحدة لإسرائيل ، فإن الخلافات شديدة فى داخل الوزارة وفى المجتمع الإسرائيلى والرأى العام اليهودى ، واللوم كله يقع على مناحم بيجين ، إن هو أضاع هذه الفرصة الأخيرة ، بعد أن أضاع الفرصة الأولى الباهرة فى القدس وفى الإسماعيلية وفى قلعة ليدز بعد ذلك .

وقد عاد بيجين إلى نفس الحيلة القديمة . . وهى أن يثير قضية المستعمرات الإسرائيلية مرة أخرى ، تماما كما أثارها بعد المبادرة . لعلها تشغل الناس عن القضية الأساسية وهى السلام الشامل . والغرض من إثارة هذه القضية هو كسب عطف الرأى العام اليهودى ، مع أن قضية المستعمرات هى قضية جزئية ، فالأصل هو الانسحاب من الأرض المحتلة ، سواء كان الذى يحتلها جنديا حافى القدمين . .

أوكان يطل من فيلا يملكها فوق أرض لا يملكها !

وكما حدث قبل ذلك أيام الرئيس فورد ووزيره كيسنجر أن اضطرت أمريكا إلى التهديد « بإعادة النظر » فى العلاقات التقليدية بين أمريكا وإسرائيل . . فسوف يجد كارتر نفسه أمام هذا الموقف الصعب ، ولكنه ضرورى أيضا ، وإن كان كارتر قد أعلن رأياً صريحاً فى كل القضايا العربية . . بما يختلف عن إسرائيل كثيرا كما أنه اتخذ قرار صفقة الأسلحة لمصر والسعودية وإسرائيل ، واتخذ قرار سحب القوات الإسرائيلية من لبنان ، واتخذ قرار « الشريك الكامل » فى قضية السلام فى الشرق الأوسط .

ولكنه لم يستطع أن يتخذ قرار أيزنهاور فى سحب القوات الإسرائيلية بعد العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ . . ولم يتخذ قرار فورد « بضرورة إعادة تقويم الموقف بين أمريكا وإسرائيل » . . وكانت إعادة التقويم هذه مراجعة للمعونات الاقتصادية والعسكرية وتجميد للعلاقات بين الدولتين بعض الوقت ، وكان سبب ذلك فشل كيسنجر فى إقناع إسرائيل بعقد اتفاق ثان مع مصر .

وقد علق كيسنجر على التشدد الإسرائيلى بأنه : صورة لقصر النظر ونكران الجميل !

وتغيرت الظروف الدولية ، وشكل وحجم العلاقات الأمريكية الإسرائيلية . وتغير أشخاص المسرحية فى البلدين . .

ولكن موقف كارتر . . رغم اختلافات الظروف الدولية ، أشجع وأجرأ وأكثر مخاطرة .

وفى لقاء « المؤمنين الثلاثة » السادات وكارتر وبيجين ، سوف تكون المفردات واحدة . . والألحان مختلفة ، وإن كان هدف الجميع هو : السلام . . ولقد كشفت وزارة الخارجية الأمريكية عن جانب من الحوار الذى دار بين كيسنجر ورابين رئيس وزراء إسرائيل وآلون وزير خارجيتها وبيريز وزير دفاعها يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٧٥ ، وهذا الحوار السرى صورة مكتملة للتفكير الإسرائيلى والدبلوماسية البارعة

لكيسنجر . ورغم كل محاولات كيسنجر للترهيب والترغيب وإثارة الأسى والشفقة وإظهار المودة ، فقد فشلت هذه المرحلة من الحوار بين إسرائيل وبين أذكى وأبرع دبلوماسى أمريكى فى كل العصور . . وأنا أنقل الحديث بالحرف الواحد لأهميته ودلالته ، واحتمال أن يتكرر مرة أخرى :

قال آلون : نريد أن نتفاوض من أجل اتفاق مؤقت ، ولكن ليس تحت أى ضغط من أى نوع ، ولا تحت أى إنذار من الطرف الآخر .

قال كيسنجر : لا ضغط من أحد ولا إنذار ، ومادامت إسرائيل لم تتقدم بأفكار جديدة ، فإننا لم نتلق أية أفكار جديدة من مصر . . والموقف الآن صعب ، فالعرب الذين كانوا يعتمدون علينا ، أصبحوا يتشككون فينا ، ولذلك فالأمر بدأ يفلت من أيدينا ، وسوف يؤدى بهم ذلك إلى أن يتحدوا ضدكم وضدنا ، وسوف يتشددون أكثر ، وسوف تعود العلاقة أقوى بين سيناء والجولان ، كما أن هذا سيجعل السوفيت يقفزون إلى المنطقة ويدعمون علاقاتهم بالعرب .

ولو كانت الاتفاقية المؤقتة قد نجحت فى سنة ١٩٧١ . ماكانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وسوف يتكرر نفس الموقف . . وليست لدينا خطة واضحة لما يجب أن نفعله فى المستقبل . وإن كانت خطتنا قبل ذلك قد رسمت بعناية فائقة ، أما الذى سوف يحدث ، وأما الذى يجب أن نعمله ، فأنا لا أدرى ما الذى نستطيع أن نقوم به ، ثم إن هناك ضغوطاً شديدة لتفرق بيننا وبينكم ، والموقف هو الذى يحتم هذه الضغوط ويفرضها ، ويجب ألا نغالط أنفسنا ، بصراحة نحن فشلنا .

آلون : ولماذا لا نحاول مرة أخرى فى الأسابيع القليلة القادمة ؟

كيسنجر : فى الأسابيع القليلة القادمة ، سوف تتغير الظروف وتتلاحق الأحداث ولن يثق العرب فينا ، ولا تنس أننا أصبحنا ضعافاً أمام العالم كله فى فيتنام وتركيا والبرتغال . وفى أمور أخرى كثيرة . وأرجو ألا تسىء فهم ما أقول . فأنا أحلل الموقف فقط أمام جماعة من الأصدقاء ، ولا شىء يؤرقنى أنا وزملائى إلا أننا نرى صديقا لنا يدمر نفسه فى السنوات الخمس القادمة – تماما مثل بعض قوات

الصاعقة المصريين فى سيناء سنة ١٩٧١ . .

ثم إننى لا أرى أية بارقة أمل لمبادرة أمريكية أخرى فى المستقبل القريب ، ربما ذهبنا إلى مؤتمر جنيف المتعدد الأطراف إلى جانب السوفيت – وقد رأيت منذ خمس سنوات أن هذا المؤتمر لن يسفر عن أى نجاح من أى نوع . .

آلون : ولكن المصريين لم يعطونا شيئا يذكر !

كيسنجر : عقد اتفاق مع مصر هو الذى يجعل أمريكا قادرة على المضى فى مساعيها الدبلوماسية ، وإذا قارنا هذه النتائج بالكيلومترات المطلوب التراجع عنها هنا أو هناك ، فإن هذه المسافة من الأرض تبدو لا قيمة لها . . ولكن النتيجة هى أن تحصل إسرائيل على اتفاق « بعدم اللجوء إلى القوة » .

بيريز : إن المضايق ليست هى المشكلة ، ولكن المنشآت الاستطلاعية ، التى ليست لها قوة هجومية ، هى التى تهمنا الآن . . وهى ضرورية ، إن الحكومة السابقة لم تتغلب على الصدمة النفسية للهجوم المفاجئ فى أكتوبر ١٩٧٣ . نحن فى حاجة إلى محطات إنذار مبكر . . أى محطات تنذرنا قبل الهجوم باثنتى عشرة ساعة ، ولكن الاتفاقية المعروضة تنذرنا قبل الهجوم بست ساعات فقط ، فإذا كانت هناك تنازلات من مصر خاصة بمحطات الإنذار المبكر ، فإن اقتراحك يبدو معقولا . .

كيسنجر : إنها مأساة حقيقية ! لقد حاولنا أن نوفق بين تأييدنا لكم وبين مصالحنا الأخرى فى الشرق الأوسط ، إن سياستنا هى إنقاذكم من كل الضغوط الواقعة علينا فى وقت واحد ، ولو كنا أردنا إرجاعكم إلى حدود ١٩٦٧ ، لكان لنا ذلك ، فالرأى العام العالمى ، والرأى العام الأمريكى كله يؤيدنا ضدكم ، إن استراتيجيتنا هى حمايتكم من هذا كله ، ثم إننا تفادينا تماماً وقع خطة شاملة لحل شامل . . وأرى الآن بوضوح ضغوطاً كثيرة تتجمع كلها ضدكم لتعيدكم إلى حدود ١٩٦٧ ، فإذا قارنا ذلك بانسحابكم عشرة كيلومترات إلى الوراء ، فإن هذا الانسحاب يبدو تافهاً ، وأنا لست غاضباً ، كما أننى لا أطلب إليكم تغيير

مواقفكم ، ولكن يحزننى حقا أن أرى شعباً يحطم نفسه ويتردى إلى هوة سحيقة . .

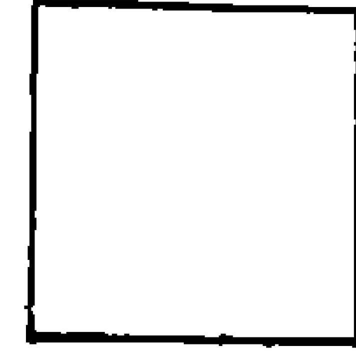
رابين : فى هذا اليوم لقد زرت أنت قلعة الماسادا !

(نقلا عن كتاب « إسرائيل الحليف المقاتل » تأليف ناداف صفران)

ويشير رابين إلى أن هنرى كيسنجر قد زار قلعة الماسادا ، التى لجأ إليها اليهود وراحوا يقاومون حتى الموت . وهذه القلعة هى عقدة إسرائيل — عقدة « الماسادايزم » — أى أن يحاصرهم أعداؤهم ويخنقوهم حتى الموت . ولذلك فإسرائيل منذ قامت تحارب خارج أرضها . . وعلى الرغم من أن اليهود قد عاشوا فى « حوارى اليهود » وماتوا فى قلعة « الماسادا » . . فإنهم قد أقاموا إسرائيل وهى أكبر حارة لليهود وأكبر قلعة للانتحار الذاتى ! !

وواضح فى هذا الحوار استخدام كيسنجر للعصا السحرية . . يشير إليها ولكنه لا يمسكها بيديه . . وهو كيهودى ، أكثر الناس دراية باليهود . .

وسوف يتجدد الموقف مرة أخرى ، وسوف يتساءل كارتر والشعب الأمريكى : هل إسرائيل تساوى ضياع المصالح الأمريكية فى المنطقة ؟ هل إسرائيل تساوى ضياع « الحكمة والاعتدال من أجل السلام » الذى اتخذه الرئيس السادات أسلوبا فى حل المشكلة ؟ ، هل بيجين ، بالذات ، جاد فى بت ما يقول ؟ هل هو يريد السلام أو أنه يريد الأرض . . ومزيدا من الأرض وأن يظل بقواته خارج إسرائيل ، وأن يظل الخوف والضيق واليأس داخل إسرائيل ؟ هل صحيح أن بيجين يستطيع أن يهدد كارتر وأن يهدد الشعب الأمريكى الذى يضع إسرائيل على ساقيه ويرضعها ذهبا وحديدا ونارا منذ قيامها ؟ .



إذا كانت الصين قضية نيكسون .. فالشرق الأوسط قضية كارتر

من الأخطاء الواضحة لأمريكا فى الشرق الأوسط ، أنها لم تكن لها سياسة واضحة . .

فأمريكا تعلم أن هناك أزمة بين العرب وإسرائيل ولكنها لم تضع هذه الأزمة فى مكانها اللائق بين قائمة الطعام على مائدة الرئيس الأمريكى ، الذى يتخذ القرار فى النهاية . .

ولم تحسب جيداً أمريكا خطورة التدخل السوفيتى فى المنطقة . . وإن كانت ترى ضرورة ألا يقع صدام مسلح بين الدولتين العظميين . .

ولم تتنبأ بفداحة الخسائر التى سوف تمنى بها لسوء تقديرها لحجم المشاكل ، ولكن أمريكا رغم علمها بسخونة القضايا فى هذه المنطقة ، فإننا لم نجد لها صيغة واحدة لفهمها أو حلها . .

وهى فى نفس الوقت تريد الاستقرار وتريد السلام .

والشىء الوحيد المؤكد فى سياسة أمريكا أن عليها التزاما ثقيلا لإسرائيل يجب الوفاء به اقتصاديا وعسكريا ودبلوماسيا .

وقد طرأت تغيرات طفيفة على الفكر الأمريكى على أثر مجموعة من الأحداث دقت رأس « الإدارة الأمريكية » ، وإن لم تفتحه . .

أول حدث هو قيام إسرائيل ١٩٤٨

وبعد ذلك العدوان الثلاثى ١٩٥٦ والقرار الشجاع الذى اتخذه أيزنهاور بضرورة انسحاب الدول الثلاث ، ولم يكن هذا القرار ينطوى على تقدير لخطورة ما حدث ، بقدر ما هو تأديب للمعتدين لأنهم تجاهلوا أمريكا أو استغفلوها !

حتى كانت انتصارات إسرائيل فى ١٩٦٧ التى أدت إلى إحساس الرأى العام الأمريكى بأن إسرائيل قوة ، أو بأن الشعب الأمريكى هو المسئول عن جعلها قوة رادعة . . أو قوة لتأديب هؤلاء العرب الذين لا يملكون سوى الكثير من المال والقيل والقال ، ولذلك أخذت إسرائيل ما تستحقه ، وأخذ العرب ما يستحقونه أيضا .

وكانت انتصاراتنا فى أكتوبر ١٩٧٣ ، فصدمت إسرائيل وصدم الرأى العام فى أمريكا وفى العالم ، وساعدت إسرائيل على تغيير نظرة الناس إلى العرب ، وتأكد العالم أنه ليس صحيحا أن كل ما نملكه هو الفلوس والكلام . . إنما نملك القوة إذا أردنا .

أما التغيير الذى طرأ على الفكر الأمريكى فقد جاء بعد مبادرة السادات فى سنة ١٩٧٧ .

وقد أساء الأمريكان أيضا فهم الرئيس السادات . وتحمل هو ذلك ، كما تحمل سلسلة طويلة من الهوان الشخصى والقومى فى علاقته بالسوفيت . وبعد أن وضح تماماً موقفه من التدخل السوفيتى ، فإنه لم يسلم من سوء الفهم الأمريكى ، كما وضح ذلك فى اللقاءات الأولى مع كيسنجر . .

ومن المواقف الواضحة التى اتخذتها أمريكا من أزمة الشرق الأوسط : عدم مناقشة القضية الفلسطينية بصورة علنية أو بصورة محددة .

والمسئول الأول والأخير عادة هو أى رئيس أمريكى . . لأنه هو الذى يتخذ القرار أو هو الذى يعطى « طبقة الصوت » لكورس المستشارين حوله . .

ونظام الحكم الأمريكى لا يعطى للرئيس ، أى رئيس ، الكثير من الوقت والحرية لاتخاذ القرار السياسى ، فهو لا يكاد يفرغ من حملته الانتخابية ، ويتجه

إلى ترتيب بيته من الداخل ، حتى يستعد لحملة انتخابية جديدة لعله يعود رئيسا مرة أخرى . .

ثم إنهم فى أمريكا يدمنون « لعبة الاستفتاءات » وقياس الرأى العام . ففى أمريكا هيئات كثيرة تتولى قياس درجة محبة وكراهية الشعب للرئيس الأمريكى بين لحظة وأخرى . . وقياس الرأى مثل قياس الضغط . فلا يوجد علميا شىء اسمه « الضغط » – إنما ضغط الدم يعلو ويهبط فى اليوم الواحد عشرين مرة لعشرين سبباً تافها . . وكذلك قياس الرأى العام الأمريكى يعلو ويهبط لأسباب تافهة ، كأن يغير الرئيس تسريحة شعره أو لون الصبغة ، أو انكماش ابتسامته عن المساحة التى اعتادوا عليها . .وليست نكتة ما قيل من أن نيكسون قد فشل فى انتخابات الرياسة لأول مرة بسبب الماكياج الردئ الذى وضعه على وجهه ! !

ثم إن أجهزة الأعلام التى تتأثر برأس المال اليهودى استطاعت أن تجعل أزمة الشرق الأوسط أصغر من حجمها . وأن تصور إسرائيل أنها وحدها هى القادرة على حلها . لأنها الأقدر على فهمها ومعايشتها !

ورغم ذلك فإن أمريكا غارقة فى الشرق الأوسط : فهى تدفع ألوف ملايين الدولارات مساعدة لاسرائيل ودول أخرى . . وغارقة بمصالحها فالأسواق مفتوحة للسلعة الأمريكية . .

وغارقة بالبترول الذى يتدفق عليها من الخليج ، وهى حريصة على ألا يرتفع ثمنه لأى سبب . .

ولذلك فهى تريد ألا تقع حرب ، وألا تؤدى هذه الحرب إذا وقعت ، إلى صدام بينها وبين السوفيت .

ولذلك اتخذت أمريكا موقفين لمواجهة الأزمات وإلقاء الماء البارد عليها ، لتهدئتها ، وليس لحلها :

أولا : منع قيام الحرب عن طريق توازن القوى فى الشرق الأوسط .

ثانيا : أن تبنى جسرا دبلوماسيا تحاول عن طريقه أن تتفاهم مع دول المنطقة ،

لعلها تحل النزاعات الإقليمية الصغيرة ، وتوفر بعض الاستقرار الضرورى . .

وقد أخطأت أمريكا تماما عندما جعلت توازن القوى لصالح إسرائيل . فلم يؤد هذا إلى تهدئة الجميع . إنما أدى إلى استنكار موقف أمريكا . . وأدى إلى الاستعداد المستمر لشراء سلاح من بائع آخر هو الاتحاد السوفيتى . .

وأدى أيضا إلى أن استخدمت الدول العربية البترول سلاحا سياسيا . ضد أمريكا .

وأمريكا بهذا قد أخطأت لأنها ساعدت على « إبقاء الوضع على ما هو عليه » ظنا منها أن هذا هو الحل الأمثل . وكان ذلك موقفا سلبيا كريها لدى العرب . بل كان انحيازًا كاملا لإسرائيل ضد العرب . .

وقد تعمق هذا الشعور لدى العرب وتعاظم . .

وفى نفس الوقت انشغلت أمريكا عن المنطقة بمشاكل أخرى ، لأنها لم تضع الأزمة فى مكانها الصحيح من كشف المتاعب الدولية . .

وقد بحث العرب عن تاجر آخر للسلاح . وعن صديق آخر يرتمون فى أحضانه أو عند قدميه ليستعينوا به على إسرائيل ، وعلى أمريكا طبعا .

وإذا كان لابد من أن نجد صفة لمساعى أمريكا بعد النكسة وقبل المبادرة ، فهى صفة الوسيط أو الحكم المحايد .

وكما يحدث فى المباريات العنيفة أن يتلقى الحكم بعض الضربات من اللاعبين ، فقد اتهم العرب أمريكا بالانحياز لإسرائيل . . واتهمت إسرائيل أمريكا بوقوعها تحت الضغط العربى ، وأنه ليس بعيدا أن تنحاز لهم . . فأمريكا لا تلقى امتنانا من أحد . وعدم الامتنان هو عقوبة تستحقها أمريكا نتيجة سوء الفهم وسوء التقدير لحجم المشاكل الخطيرة والحيوية فى الشرق الأوسط . .

ولو استعرضنا مواقف « رؤساء » أمريكا من الأزمة لوجدنا عبارة واحدة لجونسون يقول فيها : إنه لا يجوز لإسرائيل أن تخطط الحدود بينها وبين العرب « بوحى من انتصاراتها العسكرية » فى ١٩٦٧ .

وابتلع هذه العبارة التافهة ، وندم عليها بعد ذلك . .

أما نيكسون صاحب فك الاشتباك . . فقد دفع لإسرائيل ثلاثة مليارات من الدولارات ثمنا لذلك . . ثم دفع مقعد الرياسة . . ثم سقط من فوقه فى وحل فضيحة ووترجيت !

ولكن نيكسون هو أول من أعلن ضرورة تطبيق القرار ٢٤٢ ، ومن أجل ذلك كانت رحلات وزير خارجيته كيسنجر بين العواصم العربية ولم ينج كيسنجر من اتهام اليهود له - وهو يهودى - بالخيانة والعمالة حتى بكى دمعا ودما .. وكادوا يهدونه هو الآخر بفضيحة . وحاولوا .

ولكى يكون حل لأزمة الشرق الأوسط يجب على أمريكا أن تقدم « إطار العمل » وفى هذا الإطار تضع كل أفكارها . وفى نفس الوقت تضع جدولا زمنيا لتطبيقها ، وأن تتفق الأطراف على ذلك .

وآخر محاولة لرسم إطار هو تقرير معهد بروكنجز الذى نشر فى سنة ١٩٧٥ . وقد اشترك فيه مع آخرين برزنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر . .

ورغم أن تقرير بروكنجز ليس مطروحاً . فإننا لا يمكن استبعاده لأن أحد الذين ساهموا فيه هو المستشار الأول للرئيس كارتر . . ومصر لها تحفظات شديدة على هذا التقرير وخاصة ما يتعلق بالسلام التدريجى أو الأمن المرحلى . فنحن نريد الحل الشامل العادل النهائى . .

أما « ملاحم » بيجين - أى التلاعب بالألفاظ ومتاهات التراكيب اللغوية العسكرية حتى لا يكون حل أو حتى لا يكون موقف محدد . . أو حتى يتمكن هو من « فرض واقع جديد » لا نريده اليوم لعلنا نقبله غداً . فكل هذا مرفوض تماما ومقدماً !

ومع ذلك فهذا « الإطار » يجب أن يكون مثل صندوق متين امتلأ بأفكار هامة . وتصورات محدودة . ويجب على الأطراف أن يتفقوا على الصندوق وفتح الصندوق . واختيار المناسب والاتفاق عليه . .

وتقرير بروكنجز هذا أوضح جدًّا من القرار ٢٤٢ لأنه ينص بوضوح تام على أن لأمريكا مصلحة فى السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب . وأن هذا السلام لابد أن يتحقق عن طريق المفاوضات من أجل السلام والعلاقات الطبيعية ، وأن يكون للفلسطينيين كيان وأن يعوضوا عن ممتلكاتهم وأن يعوض اليهود أيضا عن ممتلكاتهم فى البلاد العربية . وأن يكون تطبيق القرار ٢٤٢ مقابل ترتيبات أمنية وانسحاب إلى حدود ما قبل نكسة ١٩٦٧ . . و « أنه لا أمن بغير سلام » . مع توفير الضمانات الضرورية المتفق عليها كوجود مناطق منزوعة السلاح . وتخفيض القوات . ومحطات الإنذار المبكر . .

وقد عرض الرئيس السادات كل هذه الضمانات عندما ذهب إلى القدس وتحدث فى الكنيست ، ولم يعارض فى أن تدخل إسرائيل فى أية اتفاقات مع أية دول لضمان أمنها . . لأنه يريد السلام . .

* * *

ولا تزال الكلمة التى قالها ناحوم جولدمان باقية .

قال : « لا تندهشوا لما يجرى فى إسرائيل . فنحن كيهود لنا صفتان : أن نحتج لسبب ولغير سبب . وأن نجمع المال فى جميع الأحوال » .

ولذلك فإسرائيل تتساءل . رغم كل هذه التأكيدات بالأمن والسلام وتطبيع العلاقات بينها وبين مصر .

هل صحيح أن المصريين يريدون السلام ، أو أنهم يريدون فقط مصالحة بعدها ننسحب من الأرض ، ثم يبقى كل شىء على ما هو عليه من الكراهية والمرارة ؟

ويقولون : إننا نريد دليلا على أن سلوك العرب قد تغير . فالذى نراه ونسمعه يؤكد أن المصريين لا يزالون يعادون السامية ولا يزالون يكرهون اليهود ، بل إن الزعماء العرب يؤكدون هذا العدوان ويتباهون به ؟

وقبل المبادرة كان اليهود يتساءلون : لماذا لا نلتقى علنا . . لماذا لا نجلس معا . . لماذا لا يكون فى ذلك اعتراف بوجودنا وبآدميتنا . بأننا شركاء فى التاريخ

والجغرافيا . . لماذا لا نلتقى بلا وسيط بيننا ؟

وكانت مبادرة السادات بلا وسيط . وكان استعداده للسلام والاعتراف بهم وأن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب وآخر الأحزان !

ويتساءلون أيضا : هل يستطيع الإسرائيليون أن يتجولوا فى مصر والبلاد العربية فى الوقت الذى يريدون ؟

وينسى الإسرائيليون : كم ساعة أمضاها الصحفيون المصريون فى إسرائيل ، وكم يوما أقامها الصحفيون الإسرائيليون واليهود الأمريكان فى مصر وكم شهرا بقى العسكريون فى القاهرة والإسكندرية ؟

ونحن المصريين نريد أن نتأكد : أن إسرائيل ليست لديها أية نزعات توسعية ، وأن تعلن صراحة رفضها لخرافة « من النيل إلى الفرات » وأسطورة « إسرائيل الكبرى » . لأن تمسك إسرائيل بالأرض التى احتلتها دليل على ذلك . واستمرار إسرائيل فى بناء المستوطنات على أرض الغير . أكبر برهان على أنها تريد أن تضيف أرضا إلى أرضها . ولو كان السلام هو الضحية ! .

أما الموقف الأمريكى فهو – إلى ما قبل المبادرة – يتضمن تشجيع الطرفين على نوع من الحوار ، وتعويض إسرائيل عن التزمت والتشدد العربى . وذلك بإعطائها مزيدا من المال والسلاح – كما حدث بعد فك الاشتباك الثانى فى سبتمبر ١٩٧٥ .

وظلت أمريكا تعلن ، حتى بعد المبادرة : أنها لا تفضل صيغة بعينها ، إنما هى مستعدة للموافقة على أية صيغة يرتضيها الطرفان .

وإذا كانت أمريكا قد أعلنت أنه لا خلاف على سيادة مصر على سيناء ، ولا سوريا على الجولان . فقد اختلفت معنا على طبيعة وحجم « الكيان الفلسطينى » .

وعلى أن القدس يمكن الاتفاق عليها فيما بعد . .

وأعلنت أمريكا ، بعد المبادرة أيضا ، أنها لا توافق على بناء المستوطنات على

أرض الغير . . ولكنها لم تذهب إلى أبعد من الاعتراض على ذلك ، أى أنها اعترضت على أن تقوم إسرائيل « بخلق واقع جديد » تتمسك به .

* * *

ويجب أن نعود فنشير إلى أخطاء أخرى أخطر وأعمق وقعت فيها أمريكا . . أو وقع فيها صانعو القرار السياسى . .

من بين هذه الأخطاء الأمريكية الفادحة : أنها تصورت أن الزمن فى خدمة السلام . وأنها إذا تركت إسرائيل والعرب فسوف تبرد درجة الحرارة وسوف يستمر « الوضع الراهن » أو « الوضع القائم » قائما إلى الأبد . . وقد تتحول حدود الهدنة إلى حدود سياسية – تماما كما توهمت إسرائيل . ولكن على عكس ما تصورت . فقد وقعت أربع حروب . ومازالت المرارة والكراهية على أشدها . وتزداد يوما بعد يوم . وأحس العرب وإسرائيل أن قناة السويس ليست هى الفاصل بينهم . . إنما هناك « هوة » أوسع وأعمق وأكثر مرارة من مياه القناة وهناك أحقاد وكراهية أكثر ضخامة من جبال سيناء . .

فالزمن لم يضاعف عدد المعتدلين فى المنطقة .

وغلطة أخرى وقعت فيها أمريكا هى أنها تصورت أن توازن القوى لصالح إسرائيل يؤدى إلى منع الحرب . . ونشبت حروب . وأكدت هذه الحروب فشل أمريكا فى سياستها المنحازة إلى إسرائيل . .

واكتشفت أمريكا أن العرب إذا أرادوا الحرب فلن يترددوا . وتأكد لديها أيضا أن « التهديد بالهزيمة » لم يخف العرب . . بل برغم هذا الإحساس فقد حاربوا وانتصروا فى أكتوبر ١٩٧٣ . .

وأساء الأمريكان فهم دور السوفيت فى المنطقة . فقد تصور الأمريكان أن السوفيت هم الذين يحركون كل النظم ماداموا يمدونها بالسلاح . ولكن ثبت أن مصر لم تذهب فى تفاهمها مع السوفيت لدرجة أن تضحى بنفسها من أجل المصالح السوفيتية فى المنطقة . صحيح أن مصر قد اعتمدت على السلاح السوفيتى فى

٦٧ و ٧٣ ولكن قرار الحرب كان مصريا . ورغم أنف السوفيت .

تماما كما أن قرار طرد الخبراء السوفيت لم يكن بالاتفاق مع أمريكا . .

بل رأينا السوفيت يحاولون « تجويع » مصر بالامتناع عن إعطاء السلاح وقطع الغيار لعلها تركع . ولعلها تسلم إرادتها وقيادتها لموسكو فلم تفعل ! .

وغلطة أمريكا خطيرة هى أنها قامت « بتوصيف » النظم فى منطقة : بنظم معتدلةونظم متطرفة . . والنظم المعتدلة هى الصديقة لأمريكا ، والمتطرفة هى الصديقة لروسيا . وهذا تبسيط مخل للأوضاع فى المنطقة . ولكنه يريح أدمغة المستشارين فى البيت الأبيض . . بقدر ما يزعج شعوب الشرق الأوسط .

لأنه ينطوى على فهم تعيس خاطئ لكل ما يجرى أو يتعثر أو يتعقد فى هذه المنطقة . لأنه لابد من فهم الشرق الأوسط بمعايشة الشرق الأوسط . وبناء على ذلك تنحل مشاكل الشرق الأوسط فى عواصم الشرق الأوسط باتفاق جميع الأطراف .

وغلطة صارخة وقعت فيها أمريكا ، قبل المبادرة أيضا : هى أنها تصورت أن التضامن العربى ضد السلام . . وأنه خير للدول العربية أن تتمزق . فإذا تمزقت استطاعت إسرائيل أن تواجهها واحدة واحدة . . وأن تسقطها جميعا عند قدميها . . وبذلك تظل مشكلة الشرق الأوسط بلا حل . . وتبقى الأرض المحتلة أرضا إسرائيلية إلى الأبد .

واستمرارا فى هذا الفهم الخاطئ . فإن تمزق العرب معناه تهاونهم وتراخيهم فى حل قضيتهم . . أما تضامنهم فسوف يؤدى إلى تشددهم . . وسوف يؤدى التشدد إلى التوتر الذى يدفعهم إلى الحرب . . وقد استعارت أمريكا وجهة النظر الإسرائيلية فى ضرورة تمزيق وحدة العرب . .

ولكن لم تحسب أمريكا ماذا يمكن أن يؤدى إليه هذا الموقف السلبى الأعمى . . من زعزعة ثقة المعتدلين فى المنطقة . والذين يعولون كثيرا على الحكمة الأمريكية والعدالة المثالية التاريخية .

ثم إن هناك شيئا آخر لا يعرفه الأمريكان وهو أن العرب شعوب عاطفية ، من السهل أن يتحدوا ومن السهل أن يختلفوا . وعندما تضامن العرب قبل حرب أكتوبر كان ذلك ضد أمريكا وإسرائيل ، وليس مع السوفيت . .

ولابد أن نعترف بأن تغيرا جذريا خطيرا قد طرأ على تصورات أمريكا بعد مبادرة الرئيس السادات ، وسبب هذا التغير هو وضوح صورة الأزمة عند الإدارة الأمريكية والرأى العام الأمريكى والعالمى . . فقد تأكد أننا نريد السلام . وأننا من أجل ذلك تجاوزنا الفجوة أو الهوة الهائلة بين إسرائيل ومصر . . وعرضنا السلام وضمانات السلام . وكانت فرحة الشعب الإسرائيلى حقيقة ، رأينا ذلك فى الشوارع والبيوت والمستوطنات وفى كل وسائل الإعلام ، ورد الفعل فى الكنيست وفى داخل الحكومة الإسرائيلية وعند المنظمات اليهودية العالمية . . وبقدر ظهور السادات جادا فى السلام ، ظهر بيجين جادّا فى الاحتفاظ بالأرض على حساب السلام ، ولقى بيجين معارضة عنيفة فى إسرائيل وفى أمريكا وفى أوروبا وفى العالم الثالث .

وجاءت تصريحات الرئيس كارتر ومعاونيه دليلا على فهم واقعى لطبيعة الأزمة وأعماقها . ولذلك كانت تصريحاته تؤيد المبادرة وتؤيد المساهمة والتوسط . . ثم المشاركة الكاملة فى الحل . لأن أمريكا التى ترضع إسرائيل ذهبا وسلاحا . والتى لها مصالح بيع وشراء وطاقة بترولية والتزامات فى أفريقيا وأوروبا لا يمكن إلا أن تكون شريكا كاملا .

وقد كان قرار الرئيس كارتر بانعقاد مؤتمر قمة ثلاثى مفاجأة ومخاطرة سياسية ، بل إن بعض معاونى كارتر قد خشى من نتائج هذا المؤتمر . . نجاحا أو فشلا ، لأنه فى الحالتين قد جعل أمريكا طرفا ، وجعل الخلاف بينها وبين إسرائيل ، وليس بين إسرائيل ومصر ، حتى مونديل نائب الرئيس كارتر قد أعلن « أن هذا المؤتمر لم تستعد له أمريكا بدرجة كافية ! وقد كان قرار انعقاده على مسئولية الرئيس كارتر شخصيا » .

وكان وليام كونت مساعد بيرزنسكى هو أول من تنبأ بأن حل قضية الشرق

الأوسط لا يمكن أن يتحقق إلا على أرفع مستويات القرار السياسى . . أى بقرار من الرئيس كارتر وعلى مستوى القمة . .

ويحاول بيجين ، ووسائل الدعاية الصهيونية فى أمريكا وفى أوروبا ، أن يهونوا من قدر هذا المؤتمر ، وفى نفس الوقت ينثرون الألغام فى طريقه . أما الألغام فهى مواقفه المتشددة كلها ، أى أنه يريد أن يقول إن مؤتمر القمة الثلاثى لا يختلف عن لقاءات القدس والإسماعيلية وليدز . حلقة فى سلسلة من اللقاءات . . وليس نهاية الخط الحديدى بين القاهرة والقدس . .

وأول استنكار لمثل هذه التصريحات جاء من الرأى العام فى إسرائيل والمنظمات اليهودية العالمية . فهى ترى أن تشدد بيجين سوف تقابله فى العالم كله كراهية له ولإسرائيل ، وتجديد للعداء للسامية ، وعطف على العرب . . وصدام مع الولايات المتحدة ، ويكون هذاالصدام تجديدا للمعنى الذى قاله كيسنجر عندما أعلن فشل مباحثاته مع حكومة إسرائيل : إن موقف الحكومة الإسرائيلية مزيج من قصر النظر والعقوق !

ومن كل « الصيغ السياسية » لتحقيق السلام لا يزال تقرير بروكنجز هو أشملها وأكثرها واقعية ، لولا أنه يدعو إلى الاتفاق المرحلى فى جدول زمنى معروف ، وهذا ما نرفضه لأنه يتفق مع « الشراك الخداعية » التى ينصبها بيجين الآن . . وهى اتفاقات جزئية طويلة الأجل أو دائمة . . أو علاقات طبيعية مقابل انسحاب جزئى ، دون أن تكون هناك معاهدات صلح أو سلام . . ودون أن يكون هناك أى شىء واضح أو محدد ، لنظل فى هذه « الدوخة » ثلاثين سنة أخرى أو ثلاثين قرنا !

* * *

ويتوقف على نجاح مؤتمر كامب دافيد ليس فقط مستقبل الرئيس كارتر ، وهو ليس إلا واحدا فى سلسلة الرياسات العديدة ، ولكن مستقبل أمريكا فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا وفى حلف الأطلنطى .

فموقف أمريكا فى العالم كله – كان قائما على أساس خاطئ ، فقد ظن

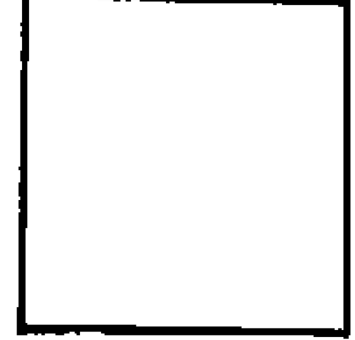
الأمريكان أن « الوفاق » مع السوفيت سيبعدهم عن الشرق الأوسط ، وثبت بطلان هذا الفهم .

فالوفاق لم يبعد السوفيت عن الشرق الأوسط وعن أفريقيا ، إنما « عقدة فيتنام » هى التى أبعدت أمريكا عن المنقطة . .

ولذلك فأمريكا تراجع مفهوم « الوفاق » وتتراجع عنه أيضا . .

والعالم كله الآن يتفرج على ما سوف تقدر عليه أمريكا ، من الذى يحكم الشعب الأمريكى الرئيس الأمريكى أو رئيس وزراء إسرائيل ؟ .

وإذا كانت الصين هى قضية نيكسون ، فإن الشرق الأوسط هو قضية كارتر ومعه : أمريكا والعالم الغربى والشرق الأوسط والقيم الأخلاقية والمثل العليا والاعتدال والحكمة ومبادرة الرئيس السادات ، التى بدأت بشجاعة شخصية من الزعيم المصرى ، وأصبحت الآن من علامات العصر كله ؟



بالاتفاق على السلام .. ينتهى عصر "الفرص الضائعة" ..

ما هذا الذى قيل فى الكنسيت . . أعضاء حزب بيجين يهتفون بسقوطه ، ويتهمونه بخيانة الأمانة . والأمانة هى أن يحارب العرب حتى الموت ، موت العرب طبعا . . أحد رجال الدين يقول : إن الأرض المحتلة ليست مقدسة . . أحد رجال المستوطنات يقول : إن التخلى عن مستوطنة واحدة يعنى التخلى عن إسرائيل كلها . لأن إسرائيل ليست إلا كبرى المستوطنات . . واحد يقول : انتهى حلم الصهيونية !

وكان الكاتب الإسرائيلى أورى أفنيرى يقول لنا : اصبروا على بيجين . . إنه خواجة يعيش فى الشرق الأوسط . . فلا هو شرق ولا يريد أن يكون ، ثم إن الرئيس السادات هو أول سياسى عربى يراه أو يتحدث إليه . . إن بيجين ينظر إلى القرى العربية من نافذة مكتبه ويقول لضيوفه الأجانب : إن العرب قريبون جدا فكيف نتعايش معهم ؟

والذى نراه اليوم وغدا ليس إلا ثمرة سقطت من شجرة زرعت بالقوة فى حرب أكتوبر ، ورويت بالسلام فى مبادرة القدس ، وفى ظلها اتفق الزعماء الثلاثة فى كامب دافيد على أن ينتهى ذلك العصر الذى استغرق ثلاثين عاما من الكراهية والحقد والحروب الأربع . . إنه عصر « الفرص الضائعة » على الجميع !

وكانت الفرصة الأولى هى أننا رفضنا قرار التقسيم سنة ١٩٤٨ . . وكانت إسرائيل سعيدة بهذا القرار مع أنه كان يعطيها مساحة من الأرض أقل من نصف

مساحتها اليوم . .

وبعد ذلك توالت « اللاألأة » العربية – أى أن نقول : لأ . . لأ . . فى جميع المناسبات . . حتى أصبحت « اللاألأة » مذهباً سلبيًا فارغاً فلسفيا اسمه : الرفض . . والتصدى والتحدى لكل خير يجىء للعرب عن طريق مصر .

إن الرئيس السادات أعلن أن مبادرته التاريخية قد أزالت « الحاجز النفسى » . . كما أزلنا حاجز بارليف الترابى الحديدى . .

ولكن هناك الكثير الذى يجب أن نفهمه لكى يكون سلوكنا على ضوئه . وحتى لا نقع فى مطبات سوء الفهم ومزالق سوء النية . . فنحن جميعا جادون فى تحقيق السلام . .

وقد تلقى الرئيس السادات بحثا من الزعيم الصهيونى ناحوم جولدمان ، قبل أن ينشره فى نهاية نوفمبر ١٩٧٨ . البحث عنوانه « الصهيونية وواقع إسرائيل » . وهو من أروع وأصدق ما كتب رجل صهيونى عالمى يُريد السلام ، حماية لإسرائيل وتسليما بالأمر الواقع ، وهذا البحث يرجو جولدمان أن يقرأه العرب واليهود معا ، لأن هناك أخطاء فادحة وقع فيها الجميع ، وأن مبادرة الرئيس السادات قد فتحت الأمل إلى غير حدود من أجل أن تكون حياة ورخاء .

فإسرائيل دولة من نوع فريد فى التاريخ ، فلم يحدث أن التقى مثل هذا العدد من الناس من كل الألوان واللغات فى مكان واحد دون سابق معرفة ، واتحدوا واتفقوا على البقاء مهما كان الثمن ، ودفعوا الثمن فادحا ، ومن الممكن أن يكون الثمن أفدح إذا أضاعوا فرصة السلام هذه .

ولم يحدث فى التاريخ أن شعبا من ثلاثة ملايين قد شغل العالم كله ، ولذلك فقضية الحرب والسلام مع إسرائيل قضية دولية ، ويوم عرض الاعتراف بإسرائيل فى الأمم المتحدة فازت بثلثى الأصوات . . من أقصى اليمن الرأسمالى إلى أقصى اليسار الشيوعى . . وتسابقت أمريكا وروسيا فى الاعتراف بها بفارق ٥١ ثانية ! بل إن تاريخ اليهود كله غريب عجيب من الدين والعنصرية والقومية .

ومن الغريب أيضا أنهم يركعون ويسجدون من ألفى سنة من أجل أن يكون لهم وطن ، فلما أصبح لهم وطن فإن أغلب الشعب اليهودى يرفض أن يعيش فيه ، فأكثر من سبعة ملايين يهودى يعيشون خارج إسرائيل !

والصهيونية التى جمعت اليهود حول إقامة الوطن اليهودى أو الدولة اليهودية ، لم تكن نتيجة ظلم وقع على الشعب اليهودى فى فلسطين ولا فى الدول الأخرى ، فاليهود كانوا فى كثير من الدول مواطنين عاديين سعداء بحياتهم ، وهؤلاء اليهود لم يتغلبوا على المحن التاريخية بسبب نشاطهم الاقتصادى أو براعتهم السياسية أو تفوقهم العلمى ، إنما فقط بسبب إيمانهم بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم . .

ولم يكن لهم وطن ، إنما كانت « التوراة » هى وطنهم الذى يحملونه على رءوسهم ويضعونه بين عيونهم ، وما زالوا عند الصلاة يضعون نموذجا مصغرا لها بين عيونهم !

وإسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تستمد وجودها من الخيال لا من الواقع . . فهى تعيش على أحلام اليهود فى أن يكون لهم وطن ، وتنبع من اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار . . (السيدة جولدا مائير تقول تصحيحا لذلك : ليس الله هو الذى اختار الشعب اليهودى ، إنما الشعب اليهودى هو الذى اختار الله !) .

وليست المستوطنات التى أقيمت فى سنة ١٨٨٠ وما بعدها على الأرض الفلسطينية إلا تجسيدا للحلم والحقيقة . . فقد اشترى اليهود أرضا وزرعوها وحرسوها . . وعاشوا حياة جماعية . . فالمستوطنة هى إسرائيل الصغرى ، والحياة الجماعية هى الاشتراكية المطلقة التى يحلمون بها . . والتى يتساوى فيها كل الناس ، فقد جرب اليهود التمييز الدينى والعنصرى . .

ثم إن اليهود بسبب القلق الدائم والخوف المستمر من أن يطردوا من كل بلد ، لم يشتروا أرضاً قبل ذلك ولا عقارا . فالأرض لا يمكن أن يحملوها معهم إذا اضطهدوا إنما كانوا يشترون الذهب ليسهل الهروب به ، كما فعلوا عندما خرجوا من

مصر سنة ١٢٣٠ قبل الميلاد . . ويودعون أموالهم فى البنوك ليسهل تحويلها من بلد إلى بلد فى ثانية واحدة . .

فالمستوطنات إذن هى حلم الصهيونية ، ولكن اليهود عندما أقاموا المستوطنات لم تكن لهم دراية بالزراعة أو الفلاحة ، ولذلك كان البارون الفرنسى روتشيلد يبعث إليهم من يعلمهم زراعة الأرض وريها وحرثها .

وكما لم تكن لهم دراية بالزراعة ، لم تكن أيضا لهم دراية بالسياسة . . كما وصفهم المستشار كرايسكى ، فهم لم يحكموا أنفسهم إلا منذ ثلاثين عاما ، فقد جاءوا من السجون والمعتقلات ولم تختف من عيونهم ولا من أحلامهم صور السلاسل والسيوف والمحارق . . وفجأة وجدوا أنفسهم فى دولة ، ولابد أن يحكموها باللين ، وأن يستعدوا دائما لأن يواجهوا أعداءهم العرب بالحديد والنار .

ولكن دعاة الصهيونية عندما طالبوا بقيام الدولة لم يدركوا بوضوح معنى ذلك . . بل إنهم ألهبوا خيال اليهود فى كل مكان بعباراتهم الخطابية الفذة ، فالصحفى النمساوى هرتسل أول دعاة الصهيونية ، هو الذى قال هذه العبارة : شعب بغير أرض ، إلى أرض بغير شعب . .

أى أن اليهود يجب أن يستولوا على فلسطين التى هى أرض بغير شعب ، وهى عبارة واضحة الكذب بقدر ما هى واضحة المعنى ، فلم يكن اليهود شعبا واحدا . . إنما كانوا عشرات الشعوب فى بلاد كثيرة ، وليس يجمع بينهم شىء واحد سوى الدين . . ولم يكن عددهم فى فلسطين يتجاوز خمسين ألفا . . أى أقل من ملايين الفلسطينيين ومائة مليون عربى ، ففلسطين لم تكن أرضا بغير شعب !

ولكن براعة هرتسل هى فى إطلاق مثل هذه « المانشتات الصحفية » التى تلقفها الحالمون بأن يكون لهم وطن من ألفى سنة ! ورغم أن يهود العالم قد أضيروا كثيرا بسبب هذه الدعوى ، فإن الحالمين قد اتجهوا فى حالة تنويم مغناطيسى إلى « الأرض الموعودة » ، أى الأرض التى يكونون فيها أغلبية لأول مرة فى التاريخ ، والتى يمارسون فيها حياتهم الدينية دون خوف من أحد .

فاتجهوا إليها وأقاموا بها دون أن يدركوا خطورة قيام الدولة بالقوة ، ودون أن يتبينوا عمق الكراهية العربية ، ودون حساب دقيق لذلك . .

وقد حاول ناحوم جولدمان وآخرون أن يؤجلوا تصويت الأمم المتحدة على قيام الدولة اليهودية . لعلهم يحصلون على موافقة العرب ، ولكن زعماء اليهود كانوا أسرع إلى الأمم المتحدة .

وقد حاول الملك عبد العزيز آل سعود أن ينبه الرئيس روزفلت إلى خطورة قيام الدولة ، وقد اقتنع روزفلت بذلك فاتصل باليهود ، ولم يفلح فى إقناعهم ، وحاول مارشال وزير خارجية أمريكا أن يقنع موسى شاريت بالعدول عن قيام الدولة . . لأن قيامها سوف يؤدى إلى « عزلة اليهود » وإلى تحريك نار الثأر عند العرب إلى غير نهاية !

ولكن اليهود والعرب ساميون ، ولذلك فمن أهم معالمهم : العناد .

وكما أن الماء المالح يؤدى إلى العطش ، والمزيد منه يؤدى إلى المزيد من العطش ، فكذلك الحروب . إن الحروب تؤدى إلى الحروب . .

والانتصارات الكبرى فى الحروب مثل الهزائم الكبرى ، لا تمضى دون إصابة بالغة . . فانتصارات إسرائيل نفختها حتى تعاظمت وتعالت ، وفى نفس الوقت أهانت العرب وجرحت كبرياءهم . . وتوالت حروب الثأر . .

وكما أننا لم ننس هزيمتنا فى يونيو ٦٧ ، فإن إسرائيل لم تنس هزيمتها فى أكتوبر ٧٣ .

وقبل حرب ١٩٦٧ أعلن ليفى أشكول أن إسرائيل ليست لديها أية نزعات توسعية ، ثم توسعت إسرائيل ونسيت هذه العبارة !

والمثل الفرنسى يقول : إن الطعام الشهى يفتح الشهية إلى مزيد من الطعام ! ولذلك تنكرت إسرائيل للقرار ٢٤٢ الذى يطالب بالانسحاب من الأرض المحتلة ، ويطلب الاتفاق على حدود آمنة ومعترف بها . . إلخ .

ولم تفلح إسرائيل أن تكون فى سلام مع العرب ، مع أن هذه ضرورة حيوية

لها ، ثم إن العالم كله ليس لديه أدنى استعداد أن يذرف دمعة واحدة على شعب عنيد مغرور متغطرس بلا مبرر . .

وقد توهمت إسرائيل أن العالم سوف يعطف على هذه الأقلية التى تعيش بالقوة فى محيط من الكراهية العربية ، ولكن تجربة إسرائيل مع العالم فى عهد النازية ، قد أكدت أن مصائب الشعوب الأخرى من الممكن أن تشغلها عن إحراق هتلر لثلاثة ملايين من اليهود ، أى أن العالم من الممكن أن يتفرج على مصائب الآخرين . . وقد فعل ذلك بالأمس ، وسوف يفعل ذلك غدا . . فعل ذلك فى فيتنام . . وفعل ذلك فى جنوب أفريقيا ، ويتفرج على ما يجرى فى لبنان : عرب يقتلون عربا باسم الأخوة والمحبة والسلام . . ثم يحشدون قواهم ملفوفة فى عباءة من ذهب من أجل التظاهر ضد مصر التى تريد السلام لهم ولنا وللعالم !

ثم إن تركيبة المجتمع الإسرائيلى تجعل من المستحيل أن تستمر إسرائيل فى تشددها ، والتشدد رد فعل للحروب أو الانتصار أو الانكسار فيها ، فالتشدد مزيج من الكبرياء والعناد والانتقام .

فإسرائيل ، والصهيونية العالمية أيضا ، لم تفلحا فى تحقيق الحلم اليهودى فى خلق مواطن يهودى متمسك بدينه . . ففى إسرائيل نفسها عدد كبير من الملحدين . . وفيها جماعة دينية ترى أن قيام الدولة حرام ، لأن الدولة لا تقوم إلا إذا جاء المسيح المنتظر ، والمسيح لم يأت بعد ، ولذلك فعندما ظهر المسيح – قبل أوانه ؟ ! – حاكموه وصلبوه .

وقد قابلت فى القدس جماعة من اليهود المتطرفين . . إذا أرادوا زيارة « حائط المبكى » الموجود فى القدس العربية استأذنوا الحكومة الأردنية ، لأنهم لا يعترفون بدولة إسرائيل .

ثم إن اليهود يعلمون أن هناك خطرا كبيرا يتهددهم ، فكثير من الشباب اليهودى لا يريد الحرب ولا يريد الجيش . . ويرى أن هناك ملايين اليهود فى أمريكا وأوروبا يعيشون فى رخاء وسلام ، وأنهم وحدهم يهود إسرائيل يعيشون فى الرمال وتحت

الشمس وتحت النار فلماذا ؟

كما أن هناك ثلاثة ملايين يهودى فى روسيا لا يمارسون الطقوس الدينية !

وأخطر من ذلك أن يهود أمريكا قد أخذوا يذوبون فى المجتمع المسيحى ، وأكثرهم لا يمارسون الديانة اليهودية . .

ومعنى ذلك أن إسرائيل لم تفلح فى الإبقاء على الدين أو على التقاليد اليهودية . . وفى ذلك فشل للدولة نفسها وفشل للصهيونية العالمية . ولهذا فمن صالح إسرائيل أن تحقق السلام .

بل إن جولدمان يرى أن الخطوة المقبلة لإسرائيل هى أن تكون دولة محايدة تماما مثل سويسرا والنمسا . . بل إنه يطالب بوجود قوات أمريكية فى داخل إسرائيل كالقوات الموجودة فى ألمانيا وبلجيكا وهولندا واليابان ، دون أن يشعر أبناء هذه الدول بأن الوجود الأمريكى فيه أدنى مساس بالسيادة ، بل إن هذه الدولة تنزعج تماما إذا فكرت أمريكا فى تخفيض قواتها .

ويرى جولدمان أن إسرائيل يجب أن تتفرغ للسلام وللحياة بلا حرب ولا سلاح ولا دماء . . وأن تنتهز هذه المبادرة التاريخية ، وإلا ارتكبت أكبر جريمة فى تاريخها كله !

ومن أخطاء إسرائيل أيضا أنها تصورت أنها متفوقة علميا وعسكريا . . وأن العرب فى حاجة إلى خبرتها العلمية والاقتصادية ، ولكن العرب مائة وعشرون مليونا ، أغنياء ولديهم جامعات وأعداد هائلة من المتعلمين والمثقفين والخبراء الدوليين ، إنهم يختلفون تماما عن الصورة التى توهمتها إسرائيل للعربى الجاهل الذى ينام فى ظل أغنامه ، ولا يشغله شىء إلا أن يأكل وينام وتجىء الأطفال بعد ذلك !

لقد تغيرت الدنيا حول إسرائيل . وآن الأوان لأن تتغير هى أيضا !

ومن أخطاء إسرائيل التى يجب أن تتخلى عنها علنا : أنهم يتمسكون بالتوراة ككتاب علمى ، وأن الذى ورد فى التوراة لا تمكن مناقشته . ليكن ذلك رأيهم فى

كتابهم ، ولكن من قال إنه ملزم للعرب وللعالم كله ؟ . . إن ما جاء فى التوراة ليس ملزما لكثير من المؤمنين اليهود — فهناك عشرات المذاهب الدينية !

ومن معالم الخطأ فى الفكر الإسرائيلى أيضا أنهم رفضوا أن تتدخل أمريكا فى حياتهم مع أنهم طلبوا من أمريكا كثيرا أن تحل لهم مشاكلهم مع السوفيت ومع دول حلف الأطلنطى . ويجب أن يعترف اليهود أن أمريكا قد دللتهم حتى أفسدتهم ، وأنها بذلك أساءت اليهم أكثر مما يتصور أشد الناس حماسة لإسرائيل . .

ثم إن أمريكا لا يمكن أن تساعد إسرائيل إلى غير حدود ، حتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بمصالح أمريكا فى الشرق الأوسط وفى العالم كله !

ولذلك كان الرئيس السادات أقدر الزعماء العرب على إدراك حقيقة أن أمريكا يجب أن تأخذ مكانها الطبيعى فى السلام . ويوم كان الرئيس السادات يقول : إن ٩٩٪ من أوراق اللعب فى يد أمريكا ، كان يقال له : بل يجب أن تقف أمريكا على الحياد . وكان يقال له إن الاعتماد على أمريكا مغامرة سياسية كالاعتماد على روسيا . .

ولكن الرد على ذلك أن العلاقة الخاصة جدا بين أمريكا وإسرائيل ، تجعل أمريكا طرفا وشريكا كاملا ، حتى اقتنع الرأى العام الأمريكى والعالمى بأن أمريكا طرف كامل .

وكانت قمة كامب دافيد لإكمال الخطوة التاريخية التى بدأها الرئيس السادات فى القدس ، وتصحيح مسار محادثات القدس والإسماعيلية وليدز فى داخل علامات بيضاء فوق طريق مرصوف بين تل أبيب والقاهرة وواشنطون والعواصم العربية . .

* * *

وفى الكنيست وخارجه هدد بيجين بالاستقالة إذا لم يوافق الأعضاء على اتفاق كامب دافيد ، وإذا لم يوافقوا على إزالة المستوطنات ، لقد تغير الرجل تماما . . ولكن هذا التغير لصالح إسرائيل وأمريكا والسلام العالمى . .

ومن الممكن أن يكون إطار السلام فى الشرق الأوسط إطارا للسلام فى القرن الأفريقى والخليج . .

وإذا كان الرئيس كارتر يباهى الأمم بأنه فى عصره لم تسقط قطرة دم لجندى أمريكى على أية أرض ، وأنه سوف يمضى فى تحقيق السلام بغير حرب ، فإن هذا ما يمكن أن يحدث فى المنطقة العربية أيضا . . أو من الواجب أن يتحقق ذلك .

إن الدعوة إلى السلام والحرص عليه : حلم الإنسانية كلها . . وهو أكبر من كل أحلام اليقظة . .

وقبل انعقاد كامب دافيد بأيام صدر كتاب لموشى ديان بعنوان « أن تعيش مع التوراة » . . وقد أهدى هذا الكتاب إلى الزعماء الثلاثة .

يقول ديان فى كتابه هذا : لو تحقق السلام بين مصر وإسرائيل ، لكان علينا أن نترك لهم سيناء ، وإذا حدث ذلك فى حياتى ، فسوف أرحب بالسلام وأبكى على سيناء !

لابد أن هذه حالته النفسية يوم جلس يسجل هذا الكتاب . . أما الآن فقد تغير كل شىء إلى خير الجميع .

ويقول ديان أيضا فى كتابه هذا وهو واقف على قبر شاب قتله العرب فى مستعمرة بالقرب من غزة . . الشاب اسمه روى روتنبرج (٢٢ عاما) : ليس العرب مسئولين عن هذه الجريمة نحن المتهمون ، نحن يجب ألا نرفع أيدينا عن السلاح . . يجب أن نفعل ما فعله قائدنا هوشع الذى أمسك السيف ووضع الخوذة على رأسه حتى الموت . . إننا يجب أن نحفر الخنادق ونقيم الأسلاك الشائكة وأن نحمى فيها أمننا وسلامتنا . . فنحن أبناء التوراة نبنى المستوطنات ولا نتركها حتى الموت ، حتى بعد الموت !

ويقول ديان أيضا : إذا سقط السيف من أيدينا ، سبقناه فى السقوط إلى الأرض ! كل هذا تغير وسوف يتغير يوما بعد يوم . .

أما ناحوم جولدمان فيقول فى نهاية البحث الذى أهداه للرئيس السادات قبل

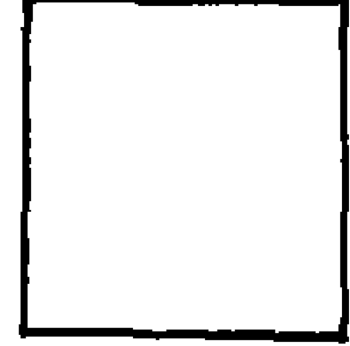
نشره فى مجلة « الشئون الخارجية الأمريكية » .

إن معجزة مبادرة الرئيس السادات قد تلقاها الناس فى إسرائيل وفى العالم كله فى أروع صورة ، إنها معجزة فى عصر بلا معجزات ، وكان صداها فى مصر هائلا ، فقد تعب الشعب المصرى من المعاناة الاقتصادية ، إنه يريد السلام حقا ، وسوف تكون مأساة حقيقية فادحة لإسرائيل وللعالم كله ، إذا لم تعش طويلا هذه المبادرة الضخمة الشجاعة . . وإلا تفجرت حروب جديدة لا تنتهى ! . .

تغيرت الدنيا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وتبدلت مرة أخرى بعد مبادرة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ . . وقفزت فوق سلالم السلام فى كامب دافيد .

* * *

ويعز علينا أن نقول لبعض الأشقاء العرب : إن الأسنان الذهبية لا تعض . . وهى لذلك لا تسيل دماً ! . .



ماذا قال وقيل في كامب ديفيد : يوم بيوم ولأول مرة ..

كانت مبادرة الرئيس السادات فى نوفمبر ١٩٧٧ صاعقة ، ولكنها الصاعقة التى قضت على صواعق مدمرة كان من الممكن أن تحرق الأخضر والأصفر من النبات والحيوان والإنسان ، فقد كان من الممكن أن تقع حرب لا نريدها . . ولا يريدها عدونا أيضا . .

وأقوى دليل على ذلك أول حوار دار بين الرئيس السادات ووزير الدفاع الإسرائيلى — فى ذلك الوقت — عيزر فايتسمان عندما ذهب لزيارة الرئيس فى فندق كنج دافيد بالقدس .

قال فايتسمان : سيادة الرئيس . . لماذا كنت تريد أن تهجم بقواتك علينا ؟ . .

قال الرئيس : لم يكن فى نيتنا ذلك . .

قال فايتسمان : ولكن القوات المصرية كانت تقوم بمناورات مكثفة . . رصدناها وعرفناها .

قال الرئيس : بل أنتم الذين قمتم بمناورات ضخمة .

— ولكننا أخطرنا الأمم المتحدة التى أخطرتكم بذلك . . قبل أن نقوم بها .

— هذا صحيح ، ولكن الفريق الجمسى عندما تابع مناوراتكم لاحظ أنها أكبر من أن تكون مجرد تدريب على خطة ، ولذلك اتصل بى الجمسى بسرعة ، وأخطرنى بذلك . . فكان لابد أن نستعد لكل الاحتمالات . .

ومن الممكن بالنسبة للعسكريين أن يعرفوا عن طريق أجهزة الاستشعار من بعد ووسائل أخرى إلكترونية ، حجم القوة التى تتدرب وأسلوبها وهدفها ، وكل العلوم العسكرية الحديثة فى متناول مصر وإسرائيل معا .

ثم إن إسرائيل تخاف أن يتكرر ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣ ، فقد بدأت الحرب بمناورات عسكرية مصرية ، وقد رصدها اليهود . . ورصدها الأمريكان بأقمارهم الصناعية ، وانتهوا إلى قرار واحد : إنها مناورات الخريف العادية للقوات المصرية . . فلا خوف منها !

وكانت التعليمات لدى الفريق الجمسى صريحة :

احترس من وقوع أية مفاجآت !

فنحن نخاف أن تفاجئنا إسرائيل ، وهى أيضا تخاف من وقوع مفاجأة أخرى !

ثم عاد فايتسمان يقول للرئيس السادات :

سيادة الرئيس . . إننى كالعالم كله ، أصدق كل كلمة تقولها ، ولذلك فأنا مقتنع تماما بأن الذى حدث هو مناورة للرد على مناورة .

ولم يكن الرئيس السادات قد رأى فايتسمان قبل ذلك ؟ ولكن بسرعة أمكن التفاهم بينهما منذ ذلك الوقت ، وقد حاولت إسرائيل بصحفها ووزرائها والكنيست ، أن تجد لهذه الصداقة بين الرئيس وفايتسمان تفسيرات كثيرة ، ولكن ليس لها إلا تفسير واحد قاله الرئيس السادات أكثر من مرة ، وهو أن فايتسمان شخص لطيف يمكن التفاهم معه والثقة به .

ومن سوء الظن وسوء الفهم والشك المطلق وأكداس الماضى ، خرجت مبادرة الرئيس السادات لتقضى على كل ذلك من أجل أسلوب آخر فى التفاهم من أجل السلام . .

لقد كانت المبادرة حلما تحقق ، ولا تزال أملا . . وسوف تبقى كذلك إلى أن يكون السلام على أرضنا وبيننا جميعا . .

ولابد أن يجىء العمل تاليا للأمل . . أما العمل فهو دفع السلام خطوة

خطوة . . قد تطول الخطوات وقد تقصر ، ولكنها جميعا قد جاءت بعد المبادرة . . ومن وحيها وعلى هداها . . فالنجاح والفشل لا علاقة لها بما كان : أى بالمبادرة الشجاعة الجريئة إنما الفشل والنجاح صورة من عملية السلام . . أو خطوات السلام . .

وأول من نزل على القمر عندما حرك قدميه على أرض القمر : هذه خطوة صغيرة لإنسان ، خطوة عظيمة للإنسانية !

سواء كانت الخطوة الأولى قصيرة أو طويلة . . وسواء كان الطريق بعد ذلك طويلا أو قصيرا . . فالخطوة الأولى قد تمت بنجاح ، ولم يكن لها نظير فى التاريخ ، ودخلت الخطوة الأولى تاريخ القرن العشرين . . كعلامة بارزة وإنجاز عظيم ، وأصبحنا جميعا شهودا عليها أول الأمر ، ومن الواجب أن نكون شركاء فى إكمال الطريق بعد ذلك .

وكما حدث سوء ظن وسوء فهم فى خريف ١٩٧٧ ، تكرر نفس الشىء فى خريف ١٩٧٨ .

فبعد المبادرة كان مؤتمر القاهرة تحضيرا لمؤتمر جنيف ، وبعده ذهبت اللجنة السياسية إلى القدس وعادت ولم تحقق شيئا ، ثم جاءنا السيد مناحم بيجين فى الإسماعيلية واختلفنا على كل شىء . .

وتعثرت عملية السلام . . وتثاقلت الخطوات ، وأصيب العالم كله بخيبة أمل ، لأن الذى علقناه على المبادرة كثير جدا . . وتلهفنا على أن تكون المبادرة هى الباب الواسع إلى كنوز الرخاء فى أسرع وقت ، ولكن لما لم يتحقق شىء من ذلك ، ولما وجدنا إسرائيل لم ترتفع إلى مستوى العمل الجليل ، شاع اليأس والقرف والضيق . .

ولكن لابد أن نرتفع فوق اليأس . . فقضيتنا قائمة . . ونحن أحياء ، وما دمنا أحياء فلابد أن ننعش هذه القضية . . وأن نجد لها حلا . . اليوم أو غدا . . فى القدس أو فى أية مدينة أخرى . . لابد من حل . . والحل يعنينا فى الدرجة الأولى . .

ولكن رجلا حريصا على السلام لم يفقد الأمل . . إنه الرئيس كارتر ، لقد كانت الخيوط كلها بين أصابعه ، وهو قادر على أن يحقق سلاما للجميع . .

وكانت زيارة الرئيس السادات لأمريكا ، وكانت زيارة السيد مناحم بيجين أيضا .

أما زيارة الرئيس السادات فهى بحساب الأرباح والخسائر تعتبر ناجحة تماما ، فقد أدت إلى دخول أمريكا طرفا كاملا فى مفاوضات السلام ، فقد اقتنع كارتر بأنه لا يمكن أن يكون متفرجا على ما يجرى فى الشرق الأوسط . . فهو الذى يعطى إسرائيل كل شىء ، يعطيها السلاح التى تحتل به أرض العرب وتقتلهم . ويعطيها المال . . ثم إنه لا يسأل إسرائيل ما الذى تفعله بالسلاح . . غير أن تدوس كل المبادئ التى قامت على أمريكا والعالم الحر . . ولذلك اقتنع كارتر بأنه لا يمكن أن يكون حكما أو متفرجا . إنما يجب أن يكون شريكا ، لأنه بالفعل كذلك ، وهذا هو المكسب الهائل من لقاء السادات وكارتر فى كامب دافيد . . لأول مرة . .

وجاء والتر مونديل نائب الرئيس كارتر فى ذلك الوقت إلى الشرق الأوسط . . زار إسرائيل فى احتفالها بمرور ثلاثين عاما على إنشائها ، وكان حريصا على ألا يدخل فى مشاكل معها من أى نوع ، فدخل القدس الشرقية دون أن يرفع العلم الأمريكى على سيارته ، حتى لا يكون لزيارة القدس العربية شكل رسمى . . ويكون بذلك اعترافا بها عاصمة لإسرائيل !

وفى لقائه بالرئيس السادات فى استراحة المعمورة بالإسكندرية ، اتفق الاثنان على كسر الجمود وتحريك عملية السلام ، فقبل الرئيس السادات دعوة الرئيس كارتر باجتماع وزراء الخارجية فى قلعة ليدز ، وفى ذلك الاجتماع اشترك وزير الخارجية السابق فانس ، كعضو كامل فى المفاوضات ..

وأمام فانس أعلن موشى ديان أنه لابد من تنازلات مصرية ، وإلا فلن يكون اتفاق . ووضح من ذلك لمصر ، أن إسرائيل لا تريد أن تتفق ، ولكن أهم من ذلك أن أمريكا كانت شاهدا على هذا التعنت الإسرائيلى .

وفشل مؤتمر ليدز ، وكان من المقرر عند نجاح هذا المؤتمر أن يكون اللقاء الثانى فى المنطقة المنزوعة السلاح من سيناء تحت علم الأمم المتحدة .

ودخلت مصر وإسرائيل فى دوامة التصريحات الملتهبة ، ولكن رجلا آخر غير الرئيس السادات لم يفقد الأمل : إنه الرئيس كارتر .

وأرسل الرئيس كارتر وزير خارجيته فانس إلى الشرق الأوسط ، فزار إسرائيل وزار مصر ، وقابل الرئيس السادات فى الإسكندرية ، واستغرق الاجتماع ساعتين .

وفى أول دقيقة أخرج فانس من جيبه خطابا بخط الرئيس كارتر ، واستأذن الرئيس السادات فى أن يقرأه قبل أن يسلمه إليه ، وكان فانس قد سلم خطابا مماثلا للسيد مناحم بيجين فى القدس .

وقبل أن يجىء السيد فانس إلى الاسكندرية كان الرئيس السادات فى مجلس الأمن القومى وعرض عليه تصوراته للموقف من كل جوانبه . .

وكان الرئيس السادات يحتفظ فى جيبه بتصورات جديدة . . لكى يتحرك فى المنطقة . وكان يريد أن يتأكد من السيد فانس شخصيا : إن كان الرئيس كارتر ما يزال يريد أن يقوم بدور الشريك الكامل فى المفاوضات من أجل السلام . فإذا تأكد له ذلك انتقل الرئيس السادات إلى خطوة أخرى عاجلة وهى أن يقوم كارتر بدعوة الرئيس السادات والسيد بيجين إلى لقاء معه فى واشنطون ، وبذلك تكون المواجهة والمناقشة الصريحة على هذا المستوى : خطوة أوسع وأوضح من أجل معرفة كل وجهات النظر على مسمع ومرأى وبمشاركة كاملة من أمريكا .

وقال الرئيس السادات لفانس : إننا نريد أن ننهى كل شىء . . أو بالمثل الريفى : أن نقطع العرق وأن نسيح الدم . . وإلى الأبد .

وكانت مفاجأة للرئيس السادات : فقد كان خطاب الرئيس كارتر إجابة واضحة عن الذى يريده تماما ، وكأن أحدهما قد قرأ أفكار الآخر . فكارتر يعلن أنه يريد أن يكون شريكا كاملا . . ثم إنه يدعو الرئيس السادات والسيد بيجين إلى لقاء قمة ثلاثى فى كامب دافيد ! .

ومن الغريب أن هذه المفاجأة قد جاءت فى السطور الخمسة الأولى من رسالة الرئيس كارتر ! .

ولم تستغرق مناقشة لقاء كامب دافيد سوى خمس دقائق ، أما بقية الساعتين فقد دارت حول كل مشاكل الشرق الأوسط ولبنان بالذات وأفريقيا والقرن الأفريقى !

وجاء هذا الخطاب والتحول الإيجابى الكبير فى السياسة الأمريكية . . إنقاذا لعملية السلام من الموت فى وهج مبادرة القدس !

وحتى لا تنشب حرب التصريحات مرة أخرى . . فقد جاء فى رسالة الرئيس كارتر : أنه سوف يفرض حظرا تاما على أخبار المؤتمر . . وبذلك يضمن له الهدوء والاستمرار . .

وأعلن السيد بيجين موافقته على دعوة الرئيس كارتر .

ودعا الرئيس السادات مجلس الأمن القومى للانعقاد فى الإسماعيلية ، وأثناء الانعقاد أعلن الرئيس كارتر موافقة مصر وإسرائيل على قمة كامب دافيد ، وحدد الرئيس كارتر هذا اللقاء بيوم ٢٧ أغسطس ، ولم يكن يعرف الرئيس كارتر أنه ما يزال على نهاية رمضان أربعة أيام أخرى ، ولذلك طلب الرئيس السادات تأجيل اللقاء إلى أن ينتهى رمضان ، لأنه لا يريد أن يفطر ، وإن كان الدين يرخص بذلك لمن هو على سفر ، ولكنه يضيق بالإفطار فى رمضان لأى سبب ، فهو ريفى فى أعماقه ، ولذلك تأجل لقاء كامب دافيد إلى اليوم الثانى من أيام عيد الفطر (٤ سبتمبر) . .

ومن الصدف التاريخية أن تكون مبادرة القدس فى عيد الأضحى ، ويكون لقاء السيد بيجين بالإسماعيلية فى الكريسماس ، وعيد ميلاد الرئيس السادات ، وأن يكون لقاء كامب دافيد فى عيد الفطر ، وأن يكون لقاء واشنطون فى عيد الغفران !

ولم يتخل الرئيس السادات عن تفاؤله لحظة واحدة ، أو لم يتخل عنه التفاؤل ، وفى كل مرة يعلن ذلك تواجهه تفسيرات غريبة ، من بينها : أن الرئيس السادات

قد أخفى وراء ظهره شيئا ملموسا . . أو أن هناك اتفاقات سرية . .

والحقيقة الأولى : أن فى يده شيئا مؤكدا : مبادرة السلام .

والحقيقة الثانية : أن أمريكا قد أصبحت شريكا كاملا .

ولابد أن تكون حرب التصريحات التى سبقت كامب دافيد . . أساسها أنه لا يوجد الحد الأدنى من الثقة المتبادلة ، لأنه إذا كان هناك جزء من الثقة ، فإنه يمكن أن يتضاعف حتى يصبح ثقة كاملة وتفاهما تاما ، ولكن حتى هذا القدر الضئيل لم يكن له وجود . ولا علاقة لهذه الثقة - زيادة ونقصا - بمبادرة السلام ، فذلك ضوء هائل نمشى على هداه . . أما الذى يصيبه النشاط والكسل . . فهو خطواتنا من أجل أن يتحقق أملنا فى السلام .

هذا الحد الأدنى من الثقة قد جاء فى رسالة بعث بها الفريق الجمسى وزير الدفاع المصرى الأسبق إلى السيد فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلى ، وبعد أن تلقى السيد فايتسمان هذه الرسالة طار إلى الرئيس السادات فى سالزبورج بالنمسا ، وكان لهذا اللقاء صداه العنيف المتضارب فى إسرائيل .

أما الحقيقة الثالثة : فى تقدير الرئيس السادات للموقف ، فهى أنه يبنى تصوره للأحداث على اعتبارات معنوية ، وليست اعتبارات مادية ، فلو كان الرئيس السادات قد طاوع العقل الإلكترونى قبل حرب أكتوبر ما دخل هذه الحرب ولا انتصرنا فيها ، فهناك اعتبارات أخرى معنوية يضعها فى حسابه . . هذه الحسابات هى أنه يجب ألا يتوقف عن الكفاح وعن المحاولة ، لأنه تصدى لقضية ونذر لها نفسه ، ولابد أن يصل فيها إلى حل ما دام حيا . .

وأمام مجلس الأمن القومى كان الرئيس السادات يتحدث بنبرة مختلفة وواقعية ، فكان يتساءل : ماذا لو فشل مؤتمر كامب دافيد ؟ ممكن أن يفشل . . فهل لو حدث ذلك يكون نهاية العالم ونقفل دفاترنا ونضع آمالنا وأحلامنا ومصر على الرف ؟

وقال الرئيس السادات فى مجلس الأمن القومى : يجب أن نضع خطتنا على أن إسرائيل لن تتجاوب معنا ، وأن السيد بيجين سوف يكون أكثر تشددا . .

ومضى فى تصوراته الكاملة لما يمكن أن يحدث بسبب رد الفعل العالمى والمصرى على كل الاحتمالات . .

ولكن واحدا فقط من أعضاء مجلس الأمن القومى كان متفائلا . . هو الفريق الجمسى ، فهو الذى قال : سيادة الرئيس إننى أتوقع الاتفاق بيننا !

أما الرئيس السادات فعندما بدأ يحتاط لأسوأ الاحتمالات لم يكن يائسا ولا عصبيا ولا مرهقا . . ولكن لابد من افتراض أسوأ الظروف .

الاثنين

ثم سافر الرئيس السادات إلى فرنسا ، وكان له لقاء هام مع الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان .

واستغرق الاجتماع ثلاث ساعات ونصفا ، وتناول الاجتماع مشاكل الشرق الأوسط واحتمالات النجاح والفشل فى كامب دافيد ، وردود الفعل المصرية والعربية والعالمية وتحدث الرئيسان عن الوضع فى أفريقيا ، وفى القرن الأفريقى بالذات ، ففرنسا لها قوات فى جيبوتى ، ثم إن فرنسا لها مواقف إيجابية فى أواسط أفريقيا وشمالها وغربها .

وانتهى الحديث بينهما إلى مشكلة لبنان وإلى رأى واضح محدد تماما لمصر فى مأساة لبنان . سأل الرئيس ديستان : سيادة الرئيس أريد أن أعرف رأيك فى مأساة لبنان .

قال الرئيس السادات : يجب أن يمر الطريق إلى حل مشكلة لبنان بالمدخل الصحيح

قال الرئيس ديستان : لذلك أنا حريص تماما على أن أسمع منك كل شىء فى هذه القضية .

قال الرئيس السادات : هناك ثلاث نقط هامة ، هى فى تقديرى : المدخل الصحيح للمأساة اللبنانية . . أو المهزلة المفجعة فى لبنان . .

النقطة الأولى : أن تتوقف إسرائيل عن دعم ما يسمى بسعد حداد الذى يحتل بعض القرى اللبنانية مستخدما قوات الميليشيا اليمينية ، وإسرائيل لم تنكر أنها قد أعطت هذه القوات عددا من الدبابات وكميات من الذخيرة .

وإنه لمن المؤسف حقا أن يساعد إسرائيل على ذلك رجل مثل كميل شمعون .

النقطة الثانية : أن يتولى الجيش اللبنانى السيطرة على الموقف . وحكومة سركيس أيضا باعتبارها السلطة الشرعية فى لبنان ، فإذا حدث ذلك ، فإن حكومة لبنان لن تكون فى وضع تطلب فيه تجديد بقاء القوات السورية ، لأن بقاء القوات السورية لا ضرورة له . إنما الضرورة هى خروج هذه القوات التى ضربت المسلمين والمسيحيين ، وأبادت المقاومة الفلسطينية . . فهل الدفاع عن لبنان هو بالقضاء عليها . . ثم ما اسم هذا النوع من العلاج ، إذا الطبيب رأى أن تخليض المريض من أوجاعه يكون بالقضاء عليه ؟ !

النقطة الثالثة : هى دعوة جميع زعماء لبنان – مسلمين ومسيحيين – لكتابة ميثاق جديد يحل محل ميثاق ١٩٤٣ الذى وضعه رياض الصلح .

وقال الرئيس السادات للرئيس الفرنسى : إن كل ما قلته لك الآن سوف أنقله للرئيس الأمريكى عندما ألتقى به فى كامب دافيد . .

الثلاثاء

نزلت طائرة الرئيس السادات إلى القاعدة العسكرية سانت أندروز ، وكان فى استقباله نائب رئيس الجمهورية السيد مونديل والسيد فانس وزير الخارجية السابقين ، وأعلن الرئيس السادات : أننا يجب أن نقبل هذا التحدى ، وأن نتخلص من المفهومات القديمة فى تناول مشاكلنا الحيوية من أجل السلام . .

ونقلته طائرة هليوكوبتر إلى كامب دافيد ، وفى مطار كامب دافيد كان الرئيس كارتر وزوجته روزالين فى استقباله ، وتعانق الرئيسان ، وبدأ الكلام بسرعة عن آمال الرجلين فى أن يتحقق السلام ، ثم ساروا على أقدامهم إلى الكابين الخشبى

الذى ينزل به الرئيس السادات فى مواجهة كابين الرئيس كارتر . .

وفى المرة السابقة عندما جاء الرئيس السادات إلى كامب دافيد كان الجليد ٤٠ سم على سطح الأرض ، الجو بارد والخضرة كلها قد تغطت بلون أبيض ، وكانت رياضة المشى مستحيلة . .

ولذلك كان الرئيس السادات وهو يتمشى إلى مسكنه يتلفت حوله ينظر إلى الأشجار الخضراء الشامخة . فكامب دافيد غابة على قمة جبل . . منتهى الهدوء والجمال والعلو . . وكان سعيدا بأن يرى أشعة الشمس تتخلل الأشجار والأغصان بألوان جميلة صريحة . . تماما كالصور التى رآها فى أفلام رعاة البقر ، وهى من الأفلام التى يحب مشاهدتها . . لأنها لا ترهق العقل . . إنما تطلق سراحه وتريحه بعد ذلك . .

أما الكشك الذى نزل به الرئيس السادات فهو من الخشب . . والخشب ناعم من الخارج ، أما فى الداخل فهو على طبيعته . . تظهر فيه العروق والتعرجات فى غاية البساطة . . وفى الكشك كل وسائل الراحة التى ينشدها . .

ولم يطل الكلام بين الرئيسين ، فقد كان على الرئيس كارتر أن يعود إلى مطار كامب دافيد ليستقبل السيد بيجين قادما من نيويورك . فقد سبق الرئيس السادات بيومين ، ولذلك اتسع وقته للراحة والاستجمام .

وقال الرئيس كارتر : سوف ألتقى الليلة بالسيد بيجين فهو قد استراح بما فيه الكفاية وغدا صباحا نلتقى .

الأربعاء

وفى الساعة الثامنة صباحا نهض الرئيس السادات من نوم هادئ ، وقام برياضته اليومية وهى المشى أربعة كيلومترات ، أى ما يعادل ساعة تماما من المشى النشيط الذى جعله يتصبب عرقا فى النهاية ، وهذه هى نصيحة الأطباء .

أما الرئيس كارتر فهو ما يزال يعيش كما كان ضابطا فى البحرية ، يبدأ يومه فى

الخامسة صباحا ويتناول إفطاره ويعمل ، ثم يحدد مواعيد مقابلاته فى الثامنة صباحا ، سواء كان فى كامب دافيد أو فى البيت الأبيض .

وذهب الرئيس السادات إلى لقاء الرئيس كارتر فى الكشك الخشبى الخاص به ، والكشك الذى يقيم فيه الرئيس كارتر به مكتب وبه أكثر من غرفة نوم وأمامه حوض سباحة . وكل شىء فى غاية الجمال : الأشجار . . ولون السماء . . والهواء . . والصفاء والهدوء . .

أما حب الرئيس السادات للهواء الطلق والأماكن المفتوحة فهو لأنه ريفى . . نشأ فى القرية وفى الحقول . . وإذا عاش فى المدن بعض الوقت ، فإنه بسرعة يستجيب لنداء الحقل . . ويقول الرئيس السادات : إن سببا آخر يدفعنى إلى ذلك ، هو أننى سجنت بما فيه الكفاية ، وأصبحت أضيق بالأماكن المغلقة والهواء المخنوق !

ودار الحديث بينهما .

ابتدأ الرئيس السادات بقوله : قبل أن أجئ إلى كامب دافيد كان هناك رأى يتردد فى الشرق الأوسط ، وفى بعض عواصم العالم ، أننى جئت إلى هنا لكى أناقش « الاتفاق على المبادئ » أو من أجل إعلان مبادئ الحل الشامل . . وأعلنت أنا فى مجلس الأمن القومى المصرى أننا تخطينا هذه المرحلة وليس من المعقول أن نلتقى على هذا المستوى الرفيع ، ثم نجلس لنتناقش فى إعلان المبادئ ، وبعد ذلك يعود كل واحد إلى بلده . . إن هذا الموضوع كان موضوع خلاف بيننا عندما التقت اللجنة السياسية فى القدس . . وكان ذلك فى يناير . . وهذا الموقف قد تجاوزناه . . ولذلك لابد أن ندخل فى صلب التسوية . . لابد أن ندخل فى « إطار » التسوية الشاملة .

فسأله الرئيس كارتر : وهل أعددت إطارا للتسوية ؟

فأجاب الرئيس السادات : نعم .

وكان رد الرئيس كارتر : ولكنى لم أجهز شيئا ، وكما وعدتك ، فأنا مُصر تماما

على أن أقوم بدور الشريك الكامل ، وعندما يحتاج الموقف إلى تدخل أمريكى بين الطرفين ، فسوف أضع مشروعا وأتقدم به .

فقال الرئيس السادات : أما مشروعى فجاهز تماما .

وقال الرئيس كارتر : أمس ليلا قابلت السيد بيجين ، فما رأيك لو التقينا نحن الثلاثة عندى غداً ؟

قال الرئيس السادات : موافق .

وهذا « الإطار » المصرى يعنى بالقضية الفلسطينية وبالضفة الغربية وقطاع غزة ويضع سيناء والجولان فى مرتبة واحدة ، أى ما يسرى على سيناء ينطبق تماما على الجولان ، ويضع الضفة الغربية وقطاع غزة فى مرتبة واحدة أيضا .

وهذا « الإطار المصرى » ليس اتفاقا نهائيا إنما الاتفاق يجىء بعد ذلك . . كما أنه لا يمكن أن يناقش الزعماء الثلاثة التسوية الشاملة للقضية ، لأن هناك أطرافا أخرى ولأن هناك تفاصيل كثيرة .

ثم إن الرئيس السادات ليس مفوضا إلا من الشعب المصرى فقط ، ولذلك فعلى الأطراف الأخرى أن تناقش القضية وأن تأخذ وتعطى وتقبل وترفض كما تشاء . .

ولو كان الرئيس حافظ الأسد قد استجاب للرئيس السادات يوم التقى به قبل زيارة القدس ، لكان موقف الرئيس السادات فى كامب دافيد من احتلال الجولان مثل موقفه من احتلال سيناء . .

ولكن الرئيس السادات لم يكن مفوضا فى أن يدخل فى تفصيلات الجولان والضفة الغربية ، كما يفعل بالنسبة لسيناء وقطاع غزة . . ولهذا لابد أن يجىء الرئيس الأسد والملك حسين والفلسطينيون وأبناء الضفة والقطاع ليشاركوا فى الحل . .

ولذلك فالإطار المصرى المقترح هو المدخل الصحيح لحل المشكلة كلها .

وكانت أول جلسة ثلاثية بين الزعماء : السادات وكارتر وبيجين فى مكتب الرئيس كارتر . . جلس هو إلى مكتبه . . وجلس الرئيس السادات والسيد بيجين فى

مقعدين متقابلين ، وشرح الرئيس السادات وجهة نظره التى كان قد أعلنها للرئيس كارتر قبل ذلك . لكى يكون ذلك على مسمع من السيد بيجين وفى مواجهته . . وأكد الرئيس السادات ، ما سبق أن أعلنه قبل ذلك من أنه لا ينشد الحل الجزئى ، ولا الحل المنفرد ، إنما جاء من أجل التسوية الشاملة لكل الأطراف ، وأننا تخطينا مرحلة مناقشة إعلان المبادئ . . ولابد من وضع إطار محدد للتسوية ، حتى لا يضل الناس وتتوه العقول . . ويصبح كامب دافيد معركة تليفزيونية ، كما حدث فى مؤتمر جنيف ، فقد كانت كل الأطراف تتنافس على الشاشة الصغيرة كأنهم مطربون هواة ، يريدون أن ينجحوا لعلهم يصبحون محترفين بعد ذلك !

وأخذ الرئيس السادات ثلاث نسخ من « الإطار المصرى » وأعطى واحدة للرئيس كارتر والثانية للسيد بيجين .

وسأل الرئيس السادات : هل أقرأ التصور المصرى لإطار الحل الشامل ؟

وقرأ الرئيس السادات « إطار الحل الشامل » من وجهة نظر مصر . .

ثم التفت الرئيس السادات إلى السيد بيجين قائلا : فى حضور الرئيس كارتر لا أتوقع منك ردا فوريا ، فأنا أعرف أن معك وفدا من الوزراء والمستشارين ولابد أن ترجع إليهم .

وقال السيد بيجين : إننى متفق معك فى أننا تجاوزنا مرحلة مناقشة إعلان المبادئ ، ولابد من بحث الحل الشامل ، وكل ما أرجوه من سيادتك هو ألا تستعجلنى .

وقال الرئيس السادات : لست على عجل ، إنما هذا هو التصور المصرى ، أدرسه أنت ومساعدوك ، وأنا فى انتظار الرد . .

وانصرفوا على أن يلتقوا للمرة الثانية فى صباح الغد . .

الخميس

وفى مكتب الرئيس كارتر التقى الرئيس السادات والسيد بيجين ، وكان السيد

بيجين قد درس « الإطار » المصرى مع الوفد المرافق له .

ورفض السيد بيجين أغلب البنود التى جاءت فى الاقتراح المصرى .

وطالت هذه الجلسة ، وأبديت فيها ملاحظات ، وكان الرئيس الأمريكى يدون باستمرار كل ما يدور . . وانصرفوا على أن يلتقوا مرة أخرى فى المساء .

وفى اجتماع المساء أصبح واضحاً أن الخلاف بين مصر وإسرائيل قد اتسع . . كما يتباعد اثنان حتى لم يعد يرى الواحد منهما الآخر . . وأصبح ما بينهما مسافة طويلة أو هوة عميقة .

واحتدمت المناقشات بين الرئيس السادات والسيد بيجين ، لدرجة أفزعت الرئيس الأمريكى ، حتى وصفها بقوله : لأول مرة فى حياتى أرى رجلين يقتتلان كأنهما وحشان ضاريان ، وكل منهما يدافع عن وجهة نظره فى موضوعية تامة رغم ارتفاع النبرة !

ولم يخرج أحدهما عن أصول المناقشة الموضوعية أو الحوار السياسى بين اثنين من الزعماء . . وبعد هذه المناقشة الحادة قرر الرئيس كارتر أن يقدم مشروعاً أمريكياً يلتقى فيه بوجهات النظر المتطرفة بين الجانبين ولكن شيئاً هامّا قد أعلنه الرئيس السادات فى هذا الاجتماع ، وهو أنه نقل للرئيس كارتر فى حضور السيد بيجين ما سبق أن أعلنه للرئيس الفرنسى جيسكار ديستان . .

وقال الرئيس السادات وهو يشير إلى السيد بيجين : أولا يجب على إسرائيل أن توقف تدخلها ومساعدتها لمن يسميان حداد وشمعون .

وحكى النقطتين . . الثانية والثالثة . .

والرئيس كارتر يدون كل كلمة ، والسيد بيجين يصغى باهتمام شديد .

وقال بيجين : أنا معترف بأننا أعطينا دبابات وذخائر لليمينيين ونحن لم ننكر ذلك ووافق الرئيس الأمريكى على أن يقوم بجهد كبير مع فرنسا والسعودية ، ودعوة زعماء لبنان – مسلمين ومسيحيين – لوضع الميثاق الذى اقترحه الرئيس السادات .

الجمعة

طلب الرئيس السادات سيارة واستقلها وراح يطوف بالغابات والجبال ، واجتهد الصحفيون والإذاعة والتليفزيون فى تفسير هذه النزهة . . ولم يكن لها أى سبب إلا مجرد انتهاز فرصة هذه العطلة للترويح عن النفس والتفكير الهادئ .

ثم التقى الرئيس السادات بمعاونيه ودارت المناقشات وإعادة النظر فى الموقف . . وتصور ما سوف يحدث بعد ذلك .

السبت

إجازة السيد بيجين التى تحتم عليه الصيام والصلوات . . وإن كان بقية أعضاء الوفد الإسرائيلى يتدارسون ويتناقشون .

الأحد

الرئيس كارتر ذهب إلى الكنيسة وأدى الصلاة ، وفى نفس الوقت فإن مستشاريه يعملون .

وكان الرئيس كارتر أنشط الجميع . . على أن السيد فانس لم ينم ساعة واحدة منذ التقى الزعماء الثلاثة ، وكان الرجل طاقة هائلة ، ولديه حضور ذهنى خارق للعادة .

وبعد أن خرج الرئيس كارتر من الكنيسة ذهب للقاء الرئيس السادات ، وكانت بينهما جلسة قصيرة ، وفى هذه الجلسة دارت مناقشات حول الاقتراح المصرى .

وتأكد لدى الرئيس السادات أن الرئيس كارتر ومعاونيه ، مثل السيد فانس والسيد برزنسكى مستشار الأمن القومى لم يتوقفوا لحظة واحدة عن دراسة المشروع المصرى ، وعن محاولة تقريب وجهات النظر ، حتى نائب الرئيس كارتر السيد

مونديل كان يحضر بطائرته كل يوم ليتابع تطورات الحوار ثم يعود إلى البيت الأبيض ليباشر أعمال الرئيس كارتر ، وإن كان الدستور الأمريكى لا يعطى صلاحيات رئيس الجمهورية لأى أحد ، بل للرئيس نفسه أينما كان ، فى طيارة أو سيارة أو غواصة . . فمع الرئيس الأمريكى كل وسائل الاتصال بوزارة الدفاع . .

وفى مصر رأينا ذلك عندما جاء الرئيس نيكسون ، كان معه فى الطيارة خط مباشر له شفرة وتردد سرى لا يعرفه أحد ، بل إن السيارة التى ركبها الرئيس نيكسون فى شوارع القاهرة قد طلبها الأمريكان قبل حضور الرئيس نيكسون بيومين ليضعوا فيها هذه الأجهزة السرية ليكون على صلة بأى مسئول فى أمريكا وفى العالم كله فى أية لحظة . . لأنه لو نشبت حرب ذرية فإن القرار بالرد لا يستغرق إلا ثانية !

وقال الرئيس كارتر للرئيس السادات : إن المشروع الأمريكى يوشك أن ينتهى . .

أما إسرائيل فلم يكن لديها تصور جديد سوى مشروع الحكم الذاتى الذى قدمه السيد بيجين فى الإسماعيلية ورفضته مصر .

وفى صالة الاجتماعات الملحقة بكشك الرئيس كارتر التقى بالسيد بيجين والوفد المرافق له وفى الصالة الكبرى يلتقى مجلس الوزراء الأمريكى عندما يكون الرئيس كارتر فى كامب دافيد . . ويلتقى بأعضاء اللجان لبحث القضايا العاجلة .

ثم التقى الرئيس كارتر بالرئيس السادات والوفد المصرى ، واستمر الاجتماع حتى الواحدة صباحا .

وكان هذا اللقاء بعد الحفلة التى أقامتها البحرية للزعماء الثلاثة ، فكامب دافيد تابع لمشاة البحرية الأمريكية ، وفى هذه الحفلة شاهد الزعماء قمة اللياقة العسكرية ، فلا تزال قوات البحرية الأمريكية هى أروع القوات المقاتلة فى العالم ، وهى إلى جانب لياقتها الفائقة . . مزودة بأحدث ما أبدعه العقل الإنسانى . .

والرئيس كارتر كان مهندس غواصات ، ولذلك فهو شديد الاعتزاز بسلاح البحرية وكان سعيدا مزهوا بمشاهدته للقوات البحرية الرمزية التى جاءت لتحية الزعماء الثلاثة .

الاثنين

بدأت المهمة الصعبة جدا ، وهى مهمة البحث والتشاور دون أن تكون هناك لقاءات . فقد كان الرئيس كارتر حصيفاً ، ولذلك لم يشأ أن يجمع بين الرئيس السادات والسيد بيجين حتى لا تكون مشادات أعنف من التى أذهلته . .

الثلاثاء

ما تزال المناقشات دائرة ، والصياغة مستمرة . . ووزير خارجية أمريكا السيد فانس ما يزال حائراً بين جميع الأطراف من أجل كلمة أو عبارة .

الأربعاء

هذا اليوم كان للسيد فانس . . فقد عمل فى هذا اليوم ١٤ ساعة من الثامنة صباحا يتحرك من كشك الرئيس كارتر إلى حيث يقيم أعضاء الوفود ، ومع السيد فانس كل خبراء الصياغة . . مرة يلتقى بالوفد المصرى ، . ثم يعود للرئيس كارتر . . ويعود ليلتقى بالوفد الإسرائيلى ثم يتجه إلى الرئيس كارتر . .

الخميس

تبلور أخيراً شكل الاقتراح الأمريكى وأدخلت عليه تعديلات كثيرة ، ورفعت ووضعت كلمات أخرى . . ثم حذفت عبارات وأثبتت عبارات جديدة .

أما الصياغة الأولى للمشروع الأمريكى فقد رفضتها مصر وإسرائيل فى وقت واحد . وفى هذا اليوم خرج الرئيس السادات كعادته يتمشى فالتقى بالسيد بيجين ،

وهذه صدفة عادية ، والتقى الرجلان وحيًا كل منهما الآخر . . فأكشاك الجميع متقاربة جدًا . . وأكشاك الرئيس كارتر والرئيس السادات والسيد بيجين على مسافات متساوية كل واحد منها على رأس مثلث متساوى الأضلاع ، وحاولت الصحف أن تفسر بالضبط ما الذى دار بين الرئيس السادات والسيد بيجين بعد المناقشات « الوحشية » – كما وصفها الرئيس كارتر ، والحقيقة أنه لم يحدث شيء غير عادى ، سلام وكلام وانصرف كل واحد يدير ما فى رأسه من أفكار ومن تصورات متصلة بما عساه أن يحدث بعد ذلك . .

والتقى الرئيس السادات بالسيد فايتسمان وكان يركب بسكلتة ، وتوقف للحديث مع الرئيس السادات . . ثم إن فايتسمان كان دائم التردد على الرئيس السادات طوال الأيام السابقة . .

وفى هذا اليوم طلب الرئيس السادات أن يلتقى بالسيد موشى ديان ، وجاءه السيد ديان ، وخرج الرئيس السادات من الحديث معه بمعنى واحد هو : لا توجد أية إمكانية من أى نوع للتفاهم ، فوجهات النظر متباعدة أو مستبعدة تماماً !

وكانت هذه هى النتيجة التى توصل إليها الرئيس السادات بعد جلسة طويلة !

الجمعة

بعد أن فرغ الرئيس السادات من رياضته الصباحية التقى بالوفد المصرى ، وكما هى العادة دارت المناقشات حول حصيلة كل ما قيل .

فى هذا اليوم استقال وزير الخارجية السيد محمد إبراهيم كامل ، وهو صديق للرئيس السادات وكان زميله فى السجن وفى الكفاح السرى .

ولاحظ الرئيس السادات أن السيد محمد إبراهيم كامل عصبى المزاج ، وهو عصبى بتكوينه ويبدو أن المناقشات الحادة والإرهاق ، ثم إن بعض معاونيه لم يساعدوه فى وزن الموقف وزناً صحيحاً ، كل ذلك قد ضاعف من اضطرابه . .

وكان الجو العام متوترًا ، والرئيس الأمريكى فى حيرة ولا يعرف كيف يوفق بين وجهات النظر المتنافرة .

ويبدو أن السيد محمد إبراهيم كامل لم يتحمل الموقف بأكمله .

فبعد الحديث الطويل الذى دار بين الرئيس السادات والسيد ديان استدعىٰ السيد سيروس فانس صباحاً ، وقد حضر هذه المقابلة وزير الخارجية المصرى ود . أشرف غربال سفيرنا فى أمريكا .

واستهل الرئيس السادات حديثه بقوله : أحب أن أقول لكم إننا حددنا موقفنا وإن كانت هناك بعض المواقف لأمريكا ، وقد وافقت عليها ومواقف أخرى لم أوافق عليها وكل ما أخشاه أن الذى وافقت عليه . قد يستغله الطرف الثانى فى أية مفاوضات مقبلة – إذا فشلت مفاوضات كامب دافيد . ولكننى أريد أن أسجل أن هذه الموافقة قد قررتها تيسيرًا لمهمة الرئيس كارتر فقط ، ولكنها لن تكون أساساً لأية مفاوضات مقبلة مع الطرف الآخر ، وأرجو أن يكون واضحاً أنه إذا لم يحدث أى اتفاق ، فإن مصر لا تلتزم بما وافقت عليه لأمريكا بصفة خاصة ! وإلا كان ذلك إضرارا بمصالح مصر . . وهذا ما لا أستطيع !

وكان رد السيد فانس : إن هذا الأمر لابد أن أعرضه على الرئيس كارتر مباشرة وخرج السيد فانس .

ولم تمض سوى خمس دقائق حتى كان الرئيس كارتر يتحدث فى التليفون قائلاً : سيادة الرئيس السادات أريد أن ألقاك الآن .

وجاء الرئيس كارتر ، وأعاد الرئيس السادات ما سبق أن أعلنه للسيد فانس .

قال الرئيس السادات : نحن الآن قد أمضينا عشرة أيام . ويبدو أن الطرف الآخر لم يوافق على شىء ، وأن المسافة تباعدت بيننا .

قال الرئيس كارتر : أنا أوافقك تماماً ، وإذا قدر لهذه المفاوضات أن تفشل فسوف أعلن موقف مصر كاملاً ، وموقف إسرائيل كاملاً ، وموقف أمريكا كذلك . . ولا شىء يلزمك ما دامت إسرائيل لم تتفق معك .

وجمع الرئيس السادات الوفد المصرى وقال : إن الرئيس كارتر قد وافقنى على وجهة نظرى . . وقد طلب منى مهلة يومين فقط . . وقد وافقت على ذلك !

وذهب الرئيس السادات فى رفقة الرئيس الأمريكى حتى أوصله إلى مسكنه . . كما هى العادة . . فكل منهما يرافق الآخر إلى مسكنه . .

وعند الظهر تقريباً كانت حالة وزير الخارجية المصرية سيئة تماماً ، ولم يطق صبراً على هذا الجو المتوتر المشحون . . فذهب إلى الرئيس السادات قائلاً : سيادة الرئيس : أريد أن أستأذنك فى إعفائى من العمل وزيراً للخارجية . . لأننى لا أستطيع .

قال الرئيس السادات : معك حق ، وأنا يا ابنى قبلت استقالتك ولكن حاول أن تهدأ . . وقال الرئيس السادات : إننى أعتبر محمد كامل مثل إبنى تماماً ، فقد اشتركنا فى الكفاح السرى ، ودخلنا السجن معاً ، وأنا أعذره لأنه لا يقدر على تحمل هذه الضغوط الهائلة على أعصابه . .

ثم أمر الرئيس السادات بإرجاء رحلته إلى واشنطون ، فقبل مجىء الرئيس كارتر كان الرئيس السادات قد قرر أن يترك كامب دافيد . . ويعود هو والوفد المرافق له . . لأنه بعد هذه الأيام العشرة لم يتزحزح السيد بيجين عن مواقفه السابقة المعلنة . .

وأحس الرئيس السادات أنه كان يتوقع ذلك عندما أعلن لمجلس الأمن القومى أنه لابد أن تعاد الحسابات من جديد توقعاً للأسوأ . .

ومن الموضوعات التى ناقشها الوفد المصرى مع السيد محمد إبراهيم كامل موضوع المستوطنات . فقد رأى السيد محمد إبراهيم كامل ، أنه لابد من النص عليها فى إطار التسوية ، وبذلك يثبت حق مصر قانوناً . .

ولكن المستوطنات مسألة « مبدئية » ولذلك ليست مطروحة للأخذ والرد ، أو الإثبات والقرار فيها سياسى . فإما فك المستوطنات وخروج كل من يعيشون فيها ، وإما لا اتفاق مطلقاً بين مصر وإسرائيل . . بل إن الرئيس السادات عندما قيل له

إنه لا يمكن النص عليها . لأن السيد بيجين ليس مفوضاً بمناقشتها ، إذ لابد من عرضها على الكنيست الإسرائيلي ، أعلن الرئيس السادات أن كل شيء متوقف على موافقة الكنيست أو عدم موافقته فإذا رفض الكنيست الانسحاب من المستوطنات المقامة على أرضنا المحتلة ، سقطت كل اتفاقية السلام . .

فقضية المستوطنات قضية مبدأ . . قضية سياسية . . والقرار فيها سياسي وليس نصاً قانونياً . .

وكانت المسافة كبيرة بين القرار السياسي المبدئي ، على النحو الذي أعلنه الرئيس كارتر بمنتهى الوضوح في الاجتماع المشترك في الكونجرس ، وبين النص على ذلك قانوناً . .

ولكن معاوني السيد محمد إبراهيم كامل أفزعوه وأرهقوه بضرورة النص على ذلك . . (وفي اجتماع الكنيست الإسرائيلي أعلن السيد مناحم بيجين : لو رأيتم الرئيس السادات وهو يزمجر في وجهي ، إنه لا يريد أن أناقشه في المستوطنات على سيناء . . إنه لا يقبل مناقشة هذه القضية إطلاقاً) . .

وفي الساعة العاشرة مساء . . بينما كان الرئيس السادات يتفرج على التليفزيون قيل له : إن السيد عيزر فايتسمان وزير الدفاع الإسرائيلي في الصالون ويريد أن يلقاك .

ودخل السيد فايتسمان فبادره الرئيس السادات بقوله : خير يا عيزر ؟

قال السيد فايتسمان : سيادة الرئيس إنني أرى الأمور قد قاربت نهايتها على النحو الذي يرضيك .

قال الرئيس السادات : لقد جاء ديان أمس . . وكان واضحاً تماماً أنه لا أمل في أي شيء .

قال السيد فايتسمان : ولكني أرى أنها سوف تنتهي غداً ، كل شيء كما تريد تماما .

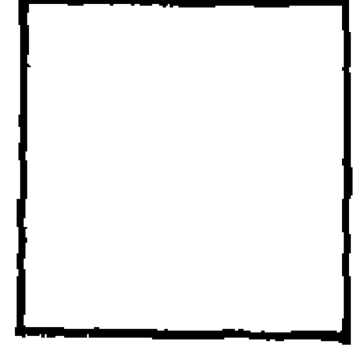
قال الرئيس السادات : خير . .
وجلس الاثنان يتكلمان فى موضوعات مختلفة - بعد أن تغير الجو تماماً . .

السبت

تلقى الرئيس السادات معلومات تؤكد له أن الأمور تمشى إلى الأحسن .

وفى الليل أصبحت الصيغة قريبة ومقبولة من الطرفين ، فقد بدأ السيد بيجين يوافق على ما وافقت مصر عليه . .

ولا يزال وزير خارجية أمريكا السيد سيروس فانس دائخاً بين كل المتخصصين فى الصياغة .



إذا كانت حرب ٧٣ مفاجأة لإسرائيل فلن يكون سلام ٧٨ مفاجأة لمصر!

صحفى إسرائيلى نظر من نافذة مكتبى إلى نهر النيل وقال : إلى أين تذهب كل هذه المياه ؟

فقلت : إلى البحر !

فامتقع وجهه وقال : هكذا دون أن تفعلوا بها شيئا . . هذا شيء غير معقول !

ونظر إلى السماء الصافية والشمس الساطعة ، وقال : وأشعة الشمس هذه !

قلت : وماذا تتوقع أن نفعل بها . . إنها موجودة هكذا على مدار السنة .

فأجاب : ألا تستفيدون منها فى البيوت بدلا من البوتاجاز والكهرباء . . إننى لم ألاحظ شيئا من ذلك فوق أسطح البيوت فى مصر !

ولما ذهبت إلى إسرائيل لاحظت أن النقص فى المياه جعلهم ينقلونها فى أنابيب تشبه الشرايين فى جسم الإنسان – وفى دول الخليج أيضا يفعلون نفس الشيء – ثم يعتصرون هذه الأنابيب لينزل منها الماء على الأشجار ، تماما كما نضع القطرة فى عيوننا . . أى بحساب شديد . . أما أشعة الشمس فإنهم يدخرونها فى البطاريات أو يتصيدونها بمسطحات سوداء من الخلايا الشمسية ، فتتحول إلى حرارة يستخدمونها فى غلى الماء وفى الطهى !

وقال لى الصحفى الإسرائيلى : إن هناك غلطتين ارتكبهما موسى عليه السلام : الأولى أنه خرج من مصر . والثانية أنه بدلا من أن يذهب إلى فلسطين كان يجب

أن يذهب إلى السعودية !

فهو يرى أننا لانستخدم هذه الموارد الطبيعية استخداما تاما .

ولكن الحقيقة أننا نفعل ، فماء النيل نستخدمه فى الرى ، ونوقفه أمام السد ، ومن اندفاعه تتولد الكهرباء . ومن تراكمه أمام السد كانت بحيرة ناصر الضخمة . . والتى امتلأت بأسماك لم نتمكن بعد من الاستفادة بها . . وليس معنى ذلك أننا لن نفعل . . سوف نفعل غدا أو بعد غد . .

ولكن وفرة الماء فى مصر جعلتنا نسرف فى استخدامه أو نهمل فى استخدامه بلا خوف ، لأنه موجود هنا من ألوف السنين . . ومن المؤكد أن مشاكل مياه الشرب ومياه المجارى سببها أننا نسرف فى استخدام الماء ، ونترك الحنفيات مفتوحة بلا مناسبة دون أن ندرك كم يكلفنا ذلك من أعباء مالية ومعمارية أيضا . .

ومن المؤكد أن الشعب اليهودى أو الشعوب اليهودية فى إسرائيل هى نوعيات مختلفة عنا . ولكن ليس من الضرورى أن يكون هذا الاختلاف لصالحها دائما .

وتاريخنا هو الذى عمق هذا الشعور بالاختلاف . .

فنحن قد ترسب فى أعماقنا أننا فلاحون ، ولأننا فلاحون فنحن مرتبطون بالأرض . وهذا الارتباط جعلنا نقبل الهوان مهما كان ولانتركها . وجعلنا أقل استعداداً للمغامرة أو للهجرة . . وأقل ميلا إلى التغيير ، لأن الذى نعرفه أفضل من الذى لانعرفه – كما يقول المثل الشعبى . . أو كما يقول المثل الآخر : « آفتى معرفتى ، وراحتى ماأعرفش » أى أن المعرفة آفة ، وقلة المعرفة راحة . وهو مثل يدل على منتهى الهوان والاستكانة . . ولذلك بقى الشادوف والطنبور والمحراث ، وظلت بيوت الطين مسكنا للفلاح ، وظلت غرفة نومه هى زريبة مشتركة بينه وبين الحيوانات ! .

وفى ظل الأتراك أصبح الفلاح شتيمة ، والناس المحترمون هم الأفندية . .

ولذلك اتجهنا بعد خروج المماليك والأتراك إلى أن نكون جميعا أفندية وبكوات وباشوات – تماما كما كان الأتراك . فالأرض والفلاحة والفلاحون هم الحضيض

الاجتماعى والاقتصادى فى مصر . . وأصبح المثل الأعلى للمصرى هو أن يكون أفنديا يلبس البدلة ويجلس إلى المكتب ويتبرأ من أنه فلاح ابن فلاح . . وتحول المصريون إلى موظفين . . إلى كتبة . إلى بيروقراط . .

ولما كانت ثورة ١٩١٩ كان من شعاراتها أن القائمين بها هم من أصحاب الجلابيب الزرقاء – أى أنهم فلاحون ولهم الشرف ، وأصبح الفلاح شرفا يدعيه كل إنسان ، فلاحا كان أو لم يكن . .

ثم جاءت الاشتراكية فأضيف إلى الفلاح مواطن آخر اسمه العامل . وأصبح العمال والفلاحون نصف الأمة . وانقسم المجتمع إلى قسمين : عمال وفلاحين ، ومثقفين . . وليس هناك حد فاصل بين الفلاح وبين العامل وبين المثقف .

مثلا : هل خريج كلية الزراعة يعتبر فلاحا أو مثقفا ؟ أى هل الرجل الذى يفهم فى الأرض وطبيعة الأرض وزراعة الأرض ، أكثر وأفضل من أى فلاح ، هل هو فلاح أو هو مثقف أو هو عامل أو هو ماذا ؟

حتى الذين يصيدون الأسماك ويزرعونها فى البحيرات . . هل هم عمال ، أو هم فلاحون ؟ أى ماهو الاسم الذى نطلقه على المشتغلين فى المزارع السمكية !

إن هذه الخلافات لها أساس واحد هو : هل نحن نحترم العمل اليدوى ؟

إن الصورة البدائية للعمل اليدوى هى فلاحة الأرض . فهل نحن نحترم العمل اليدوى ؟ إن كل قيادات مصر قد التقطت لهم صور وهم يمسكون الفأس أو يمسكون الشاكوش . والمعنى هو : أن العمل اليدوى محترم . وأنه مضى ذلك الوقت الذى يضع فيه الباشوات « الجوانتيات » فى أيديهم حتى لاتتلوث . . ورأينا حتى فى الدول الصناعية الكبرى رؤساء الدول يرتدون العفريتة وينزلون إلى الأحواض الجافة لبناء السفن أو لمناجم الفحم . احتراما للعمل اليدوى ، وتذويبا للمسافة بين العاملين بأيديهم فى الأرض . أو تحت الأرض . وبين الجالسين إلى المكاتب ؟

ومن العدل لأنفسنا أن نقول إننا حققنا الكثير فى الصناعة والزراعة . ولكننا عادة نخصم هذه الإنجازات الهائلة من حسابنا عندما لانرى فيها إلا عيوب

العاملين وخسارة المؤسسات والشركات . وسبب ذلك : عدم الثقة بالنفس . وفى نفس الوقت : نوع من الندم على أننا تركنا الزراعة واتجهنا إلى الصناعة ! .

وقد تعلمنا من الكتب فى ظل الاحتلال البريطانى : أن مصر أرض زراعية . كانت ويجب أن تبقى .

ولذلك زرعنا القطن لانجلترا ، لتعيده إلينا قماشا نرتديه . ولم نفكر – لأننا فلاحون – فى أن ننشئ لأنفسنا مصانع للغزل والنسيج . وعندما أنشأناها كان ذلك علامة من علامات النهضة الصناعية والانتقال إلى العصر الحديث !

ولقد كان الرئيس السادات لماحا وبارعا عندما رد على مخاوف الناس من السلام ومن الغزو الإسرائيلى للأسواق المصرية والاستيلاء عليها قبل أن نتهيأ لذلك . ولأننا خائفون عادة ، فإننا نغمط أنفسنا قدرها .

فقد صدقنا هذا الوهم ، ونسينا أن لدينا ألوف الشركات والمؤسسات والبنوك ، ومئات الألوف من المتخصصين فى الصناعة والتجارة والمعاملات المالية . . وقد تعاملنا مع أمريكا وروسيا وأوربا . ولم يحدث أن استولوا على مقدرات مصر ، فى الداخل أو الخارج . .

ولكن يحدث عادة بسبب الأزمات القومية العارمة أن « ننتكس » نفسيا . وهذه ظاهرة عند الأفراد وعند الشعوب أيضا . فالانفعالات الشديدة عند أى إنسان ترده إلى الطفولة فالفرح يجعله يبكى ويجعله يقفز ويصرخ تماما كأنه طفل . والغضب والحزن يجعلانه غير قادر على التحكم فى أقواله وأفعاله . . تماما كما لو كان طفلا .

ونفس الشيء يحدث عند الانفعالات القومية الكبرى . .

فبعد النكسة مثلا : صفينا حسابنا مع مصر . فلم يعد لمصر رصيد . لقد انهار كل شيء . وأصبح حسابها لدينا صفرا . فلا هى دولة ، ولا نحن شعب . وقد هزمنا اليهود . وقد سقطنا ولن نقوم إلى الأبد .

ووقع اليهود فى خطأ مشابه تماما : وهو أنهم حققوا كل شيء . وأنهم لن يخرجوا

من أرضنا . وأنهم ولدوا لينتصروا . وأننا ولدنا لنهزم إلى الأبد . هم عمالقة ونحن أقزام .

وفى حالة العار القومى اخترعنا صورا وقصصا نضاعف بها عذابنا واحتقارنا لأنفسنا . فتوهمنا أن الطائرات التى ضربت مصر كانت تقودها فتيات إسرائيليات . أكذوبة مهينة لمصر ولرجولة شباب مصر . وأكثر من ذلك أن طيارة إسرائيلية سقطت ، كانت تقودها سيدة حامل ، وأن هذه السيدة انتقلت سليمة إلى مستشفى المعادى لتلد . وولدت توأم أحدهما : اسمه ناصر والثانى اسمه ديان – وليست هذه القصة إلا نسيجا من خيوط سوداء وحمراء . . أى خيوط من العار والدم !

وفى إسرائيل رأينا المجندات الإسرائيليات . . فتيات . . ككل الفتيات . . وشبابها ككل الشباب . . لافارق بيننا وبينهم ، ولكن الكراهية لهم ، والهوان أمامهم ، وغرورهم وغطرستهم ، كلها عناصر تجعل الحبة قبة ، وتجعل القبة حبة !

ومع هذا الهوان سقط كل شيء أمامنا . . أو أسقطنا أنفسنا من عين كل شيء . . احتقرتنا الدنيا . لأننا سبقناها فاحتقرنا أنفسنا ! . . وذهبنا فى تحقير أنفسنا إلى القول : بأننا لو لعبنا البلى مع إسرائيل فسوف تنتصر علينا . .

بل ذهبنا إلى القول بأن كرة القدم هى التى كانت السبب فى هزيمة مصر . فلو أننا شعب جاد لما أضعنا الوقت فى الفرجة على كرة القدم . ولذلك فبعد النكسة وجدنا قائدا ممتازا مثل الفريق مرتجى رئيسا للنادى الأهلى – مع أنها صدفة ، ومع أن الدول التى تلعب كرة القدم وتتفوق فيها حتى أثناء الحرب ، لم تقل إن هزيمتها كانت بسبب الكرة . ولكننا وجدنا تعليلا وتبريرا للهزيمة فى كل شيء . . إلا شيئا واحدا : هو قيادتنا السياسية والعسكرية !

ولما سقط فى أيدينا الضابط عساف ياجورى ، التقطنا له فيلما سينمائيا . رأيت الفيلم . ولاحظت أنه مبهور بما يراه فى مصر . فلم يكن يتصور أن القاهرة فى حجم كل المدن الإسرائيلية . وأن بها كل مظاهر الحضارة . . ثم قرأت التحقيق السرى الذى أجرى معه . . إنه يتصور أن مصر جماعة من الحفاة ، وأنهم يسكنون فى

أكواخ . . وأننا لانعرف من مظاهر الحضارة شيئا !

وعندما ذهبت أنا إلى القدس ويافا وتل أبيب وحيفا وعكا لم يبهرنى شىء مما رأيت . فهى مدن صغيرة يسكنها خليط هائل من الشرق والغرب . . ورأيت الجامعة العبرية ورأيت مستشفى هاداسيا . . وذهبت إلى قسم جراحة المخ . وعرفت وقرأت أسماء بعض الأشقاء العرب مرضى هناك ويعالجون من سنوات طويلة سرا ، وليس من بينهم مصرى واحد ، ولكنهم جميعا من دول الرفض ! .

وكان فى استطاعتهم أن يجدوا نفس العلاج فى مستشفى المعادى بالقاهرة ، أو فى أى مستشفيات أخرى فى العالم . ولكنه الوهم بأن إسرائيل هى قمة التكنولوجيا والحضارة . . أو أن اليهود جميعا أفضل وأكثر تطورا من العرب جميعا ! .

ورأيت عشر مستوطنات إسرائيلية بالقرب من القدس ومن مدينة الخليل . . إنها أحياء سكنية صغيرة جدا . وفى نفس الوقت فيها كل وسائل « الإعاشة » . . ثم إنها ثكنات عسكرية .

ونحن جربنا هذا النوع من المستوطنات . . فعندنا مديرية التحرير ، وهى تشغل مساحة تعادل مساحة الـ ١٥٤ مستوطنة الإسرائيلية . . وبها فلاحون وعمال وموظفون أكثر عددا من جميع سكان المستوطنات الإسرائيلية . ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يفضلون مشروعا صغيرا ناجحا على مشروع كبير خاسر .

ومديرية التحرير فكرة ناجحة ، ولكنها فادحة أيضا . وعيوب مديرية التحرير ، هى نفس عيوب التفكير المصرى الذى لايعطى كل شىء حقه من الجدية ومن استشعار الصعوبة . . ومن المهم جدا أن تنظر إلى كل مشروع على أنه صعب ويحتاج إلى وقت . . أى إلى مراحل متوالية لإنجازه . ولكننا تنطبق علينا النكتة التى قالها الفيلسوف الإغريقى سقراط . فقد وصف سقراط رجلا سفيها بأنه كالذى ملأ جيوبه بحبات القمح ، ثم أراد أن يحصيها فأخرج الحب من أحد الجيوب . . وأخذ يعده . فلم يستطع ، فاهتدى إلى حل . . أما الحل فإنه أفرغ جميع جيوبه ليقوم بإحصائها معا . . فلم يستطع ! .

وبذلك تجتمع النية الطيبة ، مع العجز التام ! .

والذى حدث بعد نكسة ١٩٦٧ ، تكرر بعد انتصارات ١٩٧٣ .

فقد استرحنا إلى المناداة بأن تكون مصر مصرية فقط . ولاداعى لأن نغرق أنفسنا فى العروبة والعرب . . فبعد النكسة رأينا أننا انهزمنا من أجل العرب ويجب أن نفكر فى أنفسنا . . وبعد الانتصار ، رأينا أننا انتصرنا من أجل العرب ، وهذا يكفى ، وعلينا أن نقفل الباب والشباك لأن « العرب جرب » — كما يقول المثل الشعبى ! .

وهى مواقف تدل على الغضب ، فإذا كان الإنسان فى حالة غضب جاء تفكيره فى حجم الشرار وفى لونه أيضا .

وكان معنى ذلك أننا تعبنا من الحرب . ولكن فى نفس الوقت ليست عندنا خطة للسلام. فالحرب أسهل ، والسلام أصعب . .

وإذا كانت الحرب فى حاجة إلى استعداد وتعبئة ، فإن السلام أيضا . . فأنت لكى تهدم بيتا تحتاج إلى أدوات للهدم ، دون أن تهدم بقية البيوت المجاورة أو تزعزع أركانها — لعلك تتذكر كيف هدموا فندق سميراميس . . وإذا أردت البناء فتعال وتفرج كيف أقاموا فندق هيلتون رمسيس بسرعة وهدوء وبأحدث ماوصل إليه فن العمارة فى العالم . .

وكما أن المدفع سلاح الحرب ، فإن الفأس والمنجل والشاكوش وأدوات اللحام مفردات السلام . .

وكما أننا قد أخطأنا فى فهم اليهود . فإنهم أيضا قد أخطأوا . .

ونحن عندما دخلنا حرب ٦٧ ومن قبلها ٥٦ ومن قبلها ٤٨ ، واجهنا عدوا لانعرفه . .

ولكن عندما عرفناه وعرفنا أنفسنا حاربناه فى ٧٣ وانتصرنا عليه . .

* * *

وكل مانخافه — والخوف هنا يجب أن يكون نوعا من الاحتراس واليقظة

المحترمة – وهو أن نسالم عدوا لانعرفه أيضا . .

ومن المؤكد أن هناك قدرا من عدم الفهم وسوء الفهم موزعا بيننا جميعا ، وكما أنه لن نكون أصدقاء فى يوم أو فى سنة أو فى عشر سنوات ، فكذلك من المؤكد أننا لانفهمهم . ولاهم أيضا ، بهذه السرعة . . ولكن الزمن كفيل بأن يداوى الجراح ، وأن يجعل لكل واحد وزنه وحجمه . .

وإذا كنا قد أزلنا خط بارليف بالحرب ، وأزلنا خط بارليف النفسى بالمبادرة ، فإننا سوف نفتح القلوب والعقول والحدود بمعاهدة السلام . .

وليست معاهدة السلام هى النهاية ، إنما هى البداية ، فالسلام عمل متواصل ، وليس مجرد ورقة نوقعها .

وإلا وقعنا فى أكذوبة الأفلام المصرية الغرامية التى تنتهى عادة بأن يتزوج البطل البطلة . ويقوم المأذون بدور حمامة السلام . . مع أن المشاكل الحقيقية والصعبة تبدأ بعد الزواج ، أى بعد نهاية الفيلم . فبعد نهاية الفيلم يلتقى اثنان مختلفان تماما ، وكل واحد له تاريخ وله مزاج وله عادات وآمال وأحلام وعيوب . . والزواج الناجح هو الذى يحاول فيه اثنان مختلفان أن يكونا متآلفين متوافقين .

وكذلك اتفاقية السلام تشبه « عقد زواج » بين اثنين قررا أن يتعايشا وأن يتفقا على الحلوة والمرة .

وهذا الاتفاق ليس إلا إعلانا للنيات الطيبة . . وبعد النيات الطيبة تبدأ الأعمال الحاسمة وتبدأ الخناقات والاختلافات والمناقشات . .

وأمامنا صورة فى العالم العربى : إن الخلافات بين الأشقاء العرب أفدح من التى بيننا وبين إسرائيل . . فنحن مع إسرائيل نحاول أن نتفق وأن نتوافق ، أما العرب فهم يتفقون على ألا يتفقوا ، وهم يرفضون . . ثم يرفضون الرفض – أى أنهم « يترافضون » . . ثم ماهو الاسم الذى نجده فى اللغة العربية للدلالة على ماتقوم به سوريا فى لبنان؟ . . والدم فى أيدى الأمة العربية كلها ، قريبها وبعيدها ، ملكها وأميرها ورئيسها . . أى كل الذين تجرى من تحتهم الأنهار . . والذين تجرى من

تحتهم الآبار . . إن إسرائيل لم تفعل ذلك بالعرب فى الحروب الأربع الماضية ! .

ولكننا نحن العرب فعلنا ذلك ! !

من ضمن الفوارق بيننا وبين اليهود ، اختلاف التاريخ الذى نحن حصيلته ، تاريخهم مختلف . كانوا أقلية فى كل بلد ، وكانوا منطوين على أنفسهم خوفا وفزعا وحرصا على ألا يكونوا طرفا فى أى خلاف أو موضوعا للنقد والمقارنة ، ولذلك كانت لهم « حارات » مغلقة عليهم . . حتى إسرائيل نفسها أصبحت كبرى هذه الحارات . . بل إن مدينة نيويورك التى يحكمون منها أمريكا وأموال الدنيا ، قد أغلقوها على أنفسهم . . أما فى المدن الأمريكية الأخرى فإنهم يتركونها ويعيشون فى الضواحى أى منعزلين ، بل إن يهود بريطانيا طالبوا فى العام الماضى بشراء مساحة كبيرة من الأرض يقيمون عليها « حارة » مغلقة عليهم يتعبدون فيها . . أى أنهم يريدون مجتمعا يهوديا كاملا ، منعزلا عن بقية الناس ! . .

ولأنهم فى حالة خوف دائم ، فهم ينتهزون الفرصة ، لأنهم لايعرفون بالضبط ماالذى سوف يحدث لهم بعد ذلك . .

ولكننا أهدأ وأقل قلقا . . وفى نفس الوقت متواكلون — أو متوكلون على الله . . وأننا فى انتظار معجزة تنقذنا من أى شىء . .

ونحن لذلك قد ألقينا أعباءنا كلها على السماء . . وليس على أنفسنا .

ولكننا متشابهون فى شىء واحد . . كما يقول ناحوم جولدمان فى مذكراته التى عنوانها « التناقض اليهودى » : إن أكبر غلطة ارتكبتها إسرائيل هى أنها لم تبادر بالصلح مع العرب . . أو أنها اختارت أن يكون العرب أعداءها ، فالعرب كاليهود من أصل سامى — وهذه مغالطة . فليس كل اليهود أفارقة أو آسيويين ؟ ! — وهؤلاء الساميون لاينسون مطلقا . فاليهود تحطم معبدهم من عشرين قرنا ولايزالون يبكون عليه ، حتى بعد أن استولوا عليه لم تجف دموعهم ، خوفا من أن يضيع منهم مرة أخرى . .

ويقول جولدمان : لو كان الإنجليز أعداء إسرائيل لهان الأمر ، فالإنجليز

ينسون ، فقد راحت منهم أكبر إمبراطورية ، ولم يبكوا عليها ، إنما هم مشغولون بمن التى سوف تتزوج ولى العهد ! .

وعندما قال الانديت نهرو للرئيس جمال عبد الناصر : ولماذا لايكون سلام مع إسرائيل وتعود العلاقات عادية بينكم . . فيجيئون إلى بورسعيد ويشترون السلع المصرية وتذهبون أنتم إلى تل أبيب ؟ .

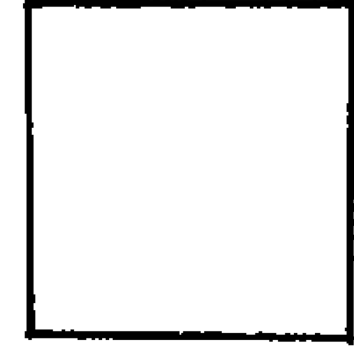
كان رد جمال عبد الناصر : إننى أخشى إذا جاء يوم الأحد أن يشتروا كل مافى المحلات من بضائع ، وسوف نمضى يوم الاثنين فى البحث عن بضائع لملء هذه المحلات من جديد !

وهذا الذى قاله الرئيس عبد الناصر يبين مدى خوفه من السائح اليهودى أو التاجر اليهودى – أو اليهود عموما !

ولكن التاجر المصرى ليس ساذجا ولا أبله إلى هذه الدرجة .

ثم إن قناة السويس بعد تأميمها تصور العالم كله أننا لانستطيع أن نديرها . . ولكننا أدرناها . . واستردتها مصر وأدارتها ووسعتها ، ونجحت فى تحريك كل السفن والمياه والرمال فى قاعها وعلى شاطئيها !

وكان من عيوبنا عندما ننظر إلى يهود إسرائيل أو يهود العالم أننا نرفض أنهم مشكلة . . ويكون الرفض فى شكل نكتة نطلقها عليهم . . فبدلا من أن ندرس إسرائيل كمشكلة ، أو يهود العالم كمعضلة سوف نتعامل معها ، وأن هذه ضرورة الغد وبعد الغد ، فقد كنا نستخف بالموقف كله . . ولذلك صورنا لأنفسنا اليهود فى أقبح صورة ، وجعلنا قبح الوجه نوعا من الانتقام منهم ، واسترحنا إلى هذه الخدعة النفسية ، ولذلك كانت صورة اليهودى عندنا هى : الرجل القصير الأصلع . .



كان الخوف "على" السلام :
أصبح الخوف "من" السلام !

فى كل الاتفاقيات والمعاهدات نجد أن الساسة أجرأ وأسرع وصولا إلى الهدف من خبراء الحرب والقانون . فنى كامب دافيد اتفق الزعماء الثلاثة على الصلح وعلى السلام ، بينما يرتجف الخبراء وراء غرف مغلقة . فهؤلاء الخبراء يضربون رءوسهم فى قواميس القانون وفقه الاستراتيجية بحثا عن الكلمة المناسبة والعبارة الدقيقة . ويختلفون ، ثم يجىء الزعماء وفى لحظات يزيلون الغموض فى إشارة واحدة .

ويؤكد الساسة أنهم اتفقوا ويجىء المتحدثون الرسميون ويؤكدون أن هناك خلافات يمكن تخطيها ، أما الخلافات فهى بين الخبراء ، وأما وسيلة تخطيها والقضاء عليها فهذا ماسوف يعمله الساسة . . وهكذا .

ومن ألف باء المفاوضة أن كل طرف يحاول أن يحصل على الأكثر فى أقصر وقت وبأقل جهد . . فنحن نريد أن نسترد أرضنا . . هذ حق . ولكن اليهود يريدون مقابلا لذلك . . فهم يحاربون وهم ينسحبون . . ولكنهم سوف ينسحبون .

لقد اتفقنا على ذلك . . ولكن لدى الجانب الإسرائيلى مشاكل داخلية . . ثم لديهم ماهو أهم من ذلك : الخوف الغريزى من أن أى انسحاب هو « انقراض » لهم وقضاء عليهم — وهذا ماسوف أعود إليه فيما بعد . .

فالرئيس السادات فى رسالته إلى الرئيس كارتر يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ قد اشترط ، أن يكون انسحاب إسرائيل من المستوطنات قرارا تتخذه كل المؤسسات

الدستورية والبرلمان ومجلس الوزراء ، وإذا لم يحدث ذلك فإن اتفاقية الصلح تكون ملغاة وباطلة . .

وأعلن الوزراء والزعماء أن هذا مستحيل وأعلن خبراء الحرب والقانون أن هذه كارثة ، ولكن القرار السياسى قد صدر . ووافقوا جميعا على هذا الشرط . .

وفى كل الرسائل التى بعث بها السيد بيجين إلى الرئيس كارتر كان يستخدم كلمتى ، يهودا والسامرا بدلا من الضفة الغربية . .

فأرسل إليه كارتر خطابا فى نفس اليوم يقول فيه : إننا نفهم وسوف نفهم أن كلمتى يهودا والسامرا معناهما الضفة الغربية .

ولم يعد هناك خلاف على معنى ومساحة الضفة الغربية عند جميع الأطراف . .

وفى رسالة أخرى من الرئيس كارتر إلى السيد بيجين يقول : سوف نفهم عندما يرد ذكر الشعب الفلسطينى أو الفلسطينيين أن المقصود هم : الفلسطينيون العرب . .

والرئيس كارتر يرد بذلك على مايقوله الجانب الإسرائيلى من أن هناك شعبا فلسطينيا واحدا يضم الفلسطينيين الإسرائيليين والفلسطينيين العرب !

حتى هذا التلاعب بالألفاظ قد انتهى .

وفى الوقت الذى يختلف فيه الخبراء حول بعض الكلمات ، وعلى الربط بين اتفاقية الصلح مع مصر واتفاقية الانسحاب من الضفة الغربية – بما فيها القدس – ومن قطاع غزة حتى يكون لهما الاستقلال الذاتى . . فى الوقت الذى يختلفون فيه على نوع « الخيوط » التى نربط بها الوثيقتين هل تكون الخيوط من الحديد أو من الحرير ، هل تكون من النايلون الذى يراه المصريون بوضوح ، ولا يراه الإسرائيليون ؟ ، فإن هناك مشاورات بشأن مكان وشكل عقد معاهدة الصلاح . .

هل يتم ذلك على جبل سيناء بحضور ممثلى الأديان السماوية الكبرى ورؤساء الدول الصديقة والمحبة للسلام . . أو يكون الاتفاق بأن يجىء الرئيس كارتر إلى القدس ويأتى بالسيد بيجين إلى القاهرة ، ثم يعود بالرئيس السادات إلى القدس ؟ .

وفى نفس الوقت يتناقش الخبراء فى التعويضات ، وفى حقول البترول

المصرية ، وهل من الضرورى « النص » على أن تبيع مصر لإسرائيل بعض البترول . . وهل النص على ذلك يعتبر فرضا وشرطا ، أو نترك ذلك للسنوات القادمة عندما يصبح فى الإمكان « تطبيع » أشياء كثيرة . أى جعلها طبيعية !

ومن الملاحظ أن الجانب الإسرائيلى يتعجل ذلك .

إن كل طرف يريد أن يحصل على أكبر مكسب . المصريون يريدون أرضهم سليمة وفى أسرع وقت ، وأن يحصلوا على التعويضات الضرورية ، واليهود يريدون أن يخرجوا من آبار البترول ولكن دون أن يرفعوا عيونهم عنها . .

وكل ذلك مألوف فى مثل هذه الاتفاقيات التى تجىء عادة كمرحلة انتقال من العداوة إلى حسن الجوار . .

* * *

ورغم حرص جميع الأطراف على أن يكون هناك سلام ، فإن هناك سحبا قديمة تظهر وتختفى هذه السحب تتحول إلى مطر فتصفو السماء ، ثم تعود فترتفع سحب من سوء الظن ، وترعد السماء وتبرق بالخوف من المستقبل هم خائفون ونحن أيضا .

وكثيرا ماسئلت فى مناسبات مختلفة : وماالذى أعجبك فى إسرائيل ؟ ما الذى بهرك فيها ؟ ويكون جوابى : لاشىء . .

* * *

ولم يسترح الناس إلى ذلك ، لأنهم يتوقعون أن أحدثهم عن عجائب المخلوقات وروعة التكنات . . وإلا فكيف ضربونا ومسحوا بنا الأرض فى حروب ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ ؟ لابد أن يكون هناك شىء خارق للعادة يملكه الجيش الإسرائيلى الذى لايزيد عدده على المتسكعين فى شوارع سليمان باشا وقصر النيل و ٢٦ يوليو فى أى يوم جمعة !

فإذا قلت : القدس مثلا ! لقد رأيت فيها المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة وحائط المبكى ، وكنت قد رأيتها من ٢٢ عاما ، ثم كنيسة القيامة وطريق الآلام ،

ووادى الزيتون وكلها فى القدس العربية . . أما القدس اليهودية فهى بيوت مصنوعة من الحجر الأبيض – تطبيقا لقانون وضعه الإنجليز أيام الانتداب ، فكل البيوت بيضاء وأما تل أبيب فمدينة صغيرة جدا . . وكذلك يافا وحيفا . . ولابد أن أقول إنها نظيفة ، لأننا نحن المصريين ، ننظر إلى تحت أقدامنا أولا ، ونحكم على الشعوب ، وسبب ذلك أن شوارعنا ليست نظيفة ، وأننا نخجل من ذلك ، ولكن شاطئ تل أبيب صغير متواضع جدا ، بالاختصار لم أر شيئا واحدا يبهرنى . . ومن الطبيعى ذلك ، فقد رأيت أمريكا وأوربا عشرات المرات . .

فيكون السؤال التالى : إذن فما الذى فى هؤلاء الناس ؟

فى هذا السؤال شيء كثير فيه إصرار وإلحاح من جانبنا على أنهم شعب عجيب مادامت بلادهم هكذا ، ومادام عددهم قليلا ، وماداموا قادرين فى جميع المرات على أن يهزمونا فى كل حروب ماقبل أكتوبر.

وهذا السؤال ينطوى على الخوف منهم وعلى الخوف منا أيضا .

وهذا طبيعى مادامت الكراهية قد أشعلت أربع حروب بيننا وبينهم ، وكان من الممكن أن تقع حرب خامسة قبل مبادرة القدس بأيام . . وكل مانحاوله الآن أن ننهى هذه الحروب أو نؤجلها إلى أجيال تالية . فبدلا من أن تقع كل عشر سنوات ، نجعلها تهدد بالوقوع كل عشرين أو خمسين سنة .

والمسئول عن هذا الخوف المتبادل : نحن أيضا . .

فاليهود أكثر الناس خوفا ، وهم معذورون فى ذلك بسبب اضطهادهم فى كل مكان وكل زمان ، حتى أصبح الخوف من كل الناس غريزتهم الأولى والأخيرة ، فالخوف دفعهم إلى الحرص الشديد وإلى الترابط والانعزال . والوقوف صفا واحدا سرّا ضد كل الناس ، ولأنهم فى حالة من الفزع الدائم فهم حريصون على ألا يكونوا طرفا فى أية قضية ، وألا يكونوا موضوعا للخلاف أو النقاش . . ولكنهم بسبب انعزالهم وانطوائهم وغموضهم ، كانوا موضوعا لخلاف بينهم وبين الأغلبية المسيحية أو الإسلامية . .

وكان جزاؤهم الطرد والحرق والتعذيب من ألوف السنين ، فلم تجمع الشعوب كلها الوثنية والمؤمنة على شيء واحد قدر إجماعها على كراهية اليهود ، ولأسباب مختلفة . الأغلبية أجمعت على كراهيتهم ، والأقلية – أى اليهود – استقرت على الخوف من كل الناس . .

والخوف دفع اليهود إلى ارتكاب الكثير من الأعمال التى أفزعت الناس أيضا . فتأكد لدى الناس أن اليهود شعب غريب شاذ خائن غادر وحشى . . وظهرت صور اليهودى المخيف مصاص الدماء والذهب فى شكل شايلوك عند الشاعر شكسبير فى مسرحية « تاجر البندقية » وفى شكل فاجن عند الروائى دكنز فى قصة « أوليفر تويست » وغير ذلك من مئات الأعمال الأدبية الباقية . .

حتى أسطورة « اليهودى التائه » قد شارك فى صنعها اليهود وغيرهم . . إنها أسطورة اليهودى الذى تعذب فى كل أرض وراح يتنقل بين كل العواصم . دون أن يجد الكلمة الحلوة أو المكان المريح . . وأهم من ذلك دون أن يعرف السبب الحقيقى لضياعه وكراهية الناس له . .

واليهودى التائه هو صورة مجسدة لخوف اليهود ، وصورة لأملهم فى أن يجدوا المكان الآمن ، وأن يجدوا النبى أو الزعيم الذى ينقذهم من الضلال والتيه فى كل العصور .

وقيام إسرائيل هو إحدى معجزات العصر الحديث . . وقمة البراعة الصهيونية . . والغفلة والبلاهة العربية أيضا . فقد استطاع اليهود من كل لغة ووطن ولون أن يتسللوا إلى فلسطين وأن يستولوا عليها من الداخل وأن يشتركوا فى حروب خارج الأرض التى احتلوها . . وقد استطاع اليهود ببراعة شيطانية أن يلتقوا فى أرض المعاد – هذا التعبير من اختراعهم ، فلم يعدهم أحد بأرض أو بأى شيء . . ولكن أصبحت إسرائيل حقيقة ويجب الاتفاق معها ، والتوافق بعد ذلك . .

إن يهود العالم ، قبل قيام إسرائيل ، كانوا مثل ملايين العازفين الذين يحفظون نوتة موسيقية واحدة ، فلما التقوا فى مكان واحد . ووقف أمامهم قائد أوركسترا

واحد وأشار إليهم أن يعزفوا لم يشذ منهم أحد . . لأنهم يحفظون لحن الحياة والموت . . لحن المصير من ألوف السنين . . واستطاعوا أن يجمعوا وراءهم يهود العالم بفلوسهم وشركاتهم ووسائل الإعلام والنشر والسينما التى تسلطوا عليها . . ثم إنهم استطاعوا أن يحتكروا كتفى أمريكا . . فإسرائيل القزم تبدو عملاقا لأنها تقف على كتفى عملاق هو الولايات المتحدة – ولولا أمريكا ماكانت إسرائيل ، ولولاها ماحاربت ، ولولاها ماكان السلام !

وبين اليهود خوف أيضا : فإسرائيل ممزقة سياسيا ودينيا واجتماعيا . . فهناك عشرات الأحزاب ، وسوف تكون عشرات أخرى ، وأكثر الناس ثقافة لايستطيع أن يحصى عدد الأحزاب . . السياسية ولاالكتل البرلمانية . . أما الاحزاب الدينية والطوائف المذهبية فكثيرة . . وهناك الخلاف بين اليهود الشرقيين وهم الأغلبية ، واليهود الغربيين وهم الأقلية الحاكمة . . أى أن الأقلية البيضاء هى التى تحكم إسرائيل ، كما تحكم روديسيا وجنوب أفريقيا . . مع فارق واحد . . هو أن الأغلبية الملونة فى إسرائيل من اليهود أيضا : ورغم حرص إسرائيل على أن تكون دولة يهودية من وزيرها إلى خفيرها ، فإذا التفرقة بين الأبيض والأسود قائمة وحيوية . . ولذلك هناك أكثر من إسرائيل : إسرائيل البيض وإسرائيل الملونين . . وإسرائيل الغربيين البيض ، وإسرائيل الشرقيين الملونين .

وهناك مشكلة إسرائيل « الحالمة » ، إنها تريد أن تكون دولة أوربية فى الشرق الأوسط . أى أن تبقى فى الشرق الأوسط جغرافيا فقط ، ولكنها اجتماعيا تظل غربية أمريكية ، وفى نفس الوقت هناك حرص من اليهود الشرقيين على أن يرتبطوا بالشرق وأن يندمجوا فيه ، أما الحكومة الغربية القائمة فلاتريد أن تندمج فى الشرق الأوسط . .

وفى نفس الوقت هناك أعداء الصهيونية الذين يرون أن قيام إسرائيل خطأ ، وأن أكبر جريمة ارتكبتها الصهيونية ضد الشعب اليهودى هى قيام دولة إسرائيل نفسها ، لأن قيام الدولة معناه : أنها أحاطت نفسها بالأعداء من كل مكان . وأن

إسرائيل قد جعلت اليهود فى الشرق هدفا محددا لمائة مليون عربى . .

وأنها قد أثارت قضية « اليهود » و « اليهودى » و « الصهيونية » . . والعداء لليهود فى البلاد الأخرى . .

ولو كان اليهود قد ظلوا فى الدول الأخرى دون أن تقوم لهم دولة ، لعاشوا فى سلام لأن أحداً لايشير إليهم قائلا : هؤلاء يهود . . هؤلاء مختلفون . . هؤلاء يكسبون فى كل ظروف الحرب والسلام . . أليسوا هم الذين حاربوا مع نابليون ؟ . . أليسوا هم الذين حاربوا مع خصمه ولنجتون ! . . أليسوا هم الذين أطلقوا الحمام الزاجل فى معركة واترلو لينقل إلى بريطانيا هزيمة نابليون ليضاربوا فى البورصة . . ويكسبوا الملايين من وراء نكبات الشعوب الأخرى ؟ . إن أعداء الصهيونية ، أى أعداء قيام الدولة اليهودية يرون أن إسرائيل كارثة على اليهود . .

كما أن هناك هيئات دينية تعارض حتى اليوم قيام دولة إسرائيل ، وترى أن هذه دولة لقيطة ، وأنها لم تقم بالصورة التى نصت عليها التوراة والتلمود . ولذلك حرام أن يتعامل اليهود معها ، ومعنى ذلك أن قيامها حرام ، وسقوطها حلال !

وقد رأيت فى القدس عدداً من أتباع هذا المذهب الدينى المعادى لإسرائيل ، وأخبرونى أنهم لايعترفون بإسرائيل ولايتعاملون بالنقد الإسرائيلى ، ولذلك فعندما اشتريت منهم بعض القواميس دفعت بالدولار . . وعرفت منهم أنهم يحتفظون بجوازات سفر أمريكية ، وأنهم يرون حائط المبكى بعيونهم ، ولكنهم لايستطيعون الذهاب إليه . . لأن حائط المبكى قد أصبح تحت الاحتلال الإسرائيلى . وهم لايعترفون بإسرائيل . . وأنه لاشىء يضايقهم إلا أنهم يبعثون للملك حسين يطلبون منه السماح بدخول القدس العربية التى بها حائط المبكى ، غير أن جلالته لايرد عليهم !

ووزير الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت انتونى ناتنج هو الذى اهتدى إلى حسم هذه المشكلة المعقدة عندما قال : إن السلام من الممكن أن يتحقق بين إسرائيل والعرب بشرط أن تكف إسرائيل عن أنها دولة غربية ، تعيش بين العرب

وتتعالى عليهم وعلى الشرقيين من أبنائها ، وأن تكف عن أنها دولة صهيونية تريد أن تتوسع على حساب الغير !

* * *

هذه التيارات الفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية والعنصرية فى داخل الثلاثة الملايين إسرائيلى هى التى تخيف يهود العالم . . لأن هذا مظهر من مظاهر التمزق والتفكك . . وأن هذا يهدد الشعب اليهودى بالانقراض . فلا الشعب فى وفاق مع نفسه ، ولا مع غيره من كل الشعوب الأخرى ، ولا مع العرب . .

وكنوع من التعويض النفسى فإن اليهود لديهم شعور بالعظمة والغرور . ويرون أنهم أصل العالم . . وأنه لايوجد إنسان ليس يهوديا ، ولاتوجد أرض لم يكن بها يهود .

ولذلك لم يكن غريبا أن يتلقى السيد بيجين رسالة من أحد علماء أمريكا اليهود بأن اليهود يجب أن يطالبوا بالضفة الغربية لنهر المسيسبى . . لأنه قد عثر فيها على آثار ترجع إلى عهد الملك سليمان . . ولابد أن الأمريكان قد أضحكهم ذلك ، ولكن ألوف اليهود لم يندهشوا ، وسوف تظهر جمعيات يهودية تطالب بإسرائيل الكبرى من الفرات إلى المسيسبى !

فكل فكرة تقول إن اليهود كانوا هنا سوف تلقى قلوبا متفتحة وخيالا ومالا . .

وبذلك يعذب اليهود أنفسهم ، لأنهم غير راضين عن الذى فى أيديهم ، ولأنهم يتطلعون إلى مافى أيدى الغير لأنه يجب أن يكون فى أيديهم . .

وعلى الرغم من أن عندهم عقدة الخوف من أن ينقرضوا . . فإنهم فى نفس الوقت لا يشجعون الزواج من الديانات الأخرى ، مع أنه يحميهم من النقص المستمر . . ولكنهم يريدون أن يكون اليهودى خالصا ، يهودى الأب من مئات السنين والأم من ألوف السنين ، ولذلك ينظرون إلى اليهود الذين تحولوا إلى ديانات أخرى باحتقار شديد ، وهم فى إسرائيل – حتى هذه اللحظة – لم يتفقوا بعد على من هو الشخص اليهودى ؟

وهم بذلك لايساعدون على أن يتضاعف عدد اليهود . . إنما هم يتناقصون أو لايتكاثرون بالصورة التى يحلم بها المتهوسون من رجال الدين والسياسة . .

والمؤرخ البريطانى أرنولد توينبى ، هو أعظم المؤرخين وأشجعهم ، فقد أعلن فى سنة ١٩٦٧ بعد أن انتصرت إسرائيل على العرب فى حرب يونيو : أن إسرائيل دولة سوف تزول . وأن وجودها فى الشرق الأوسط غير طبيعى . وأن تكوينها الداخلى مزيف ، وأنها لذلك سوف تنفجر وسوف تتناثر شظايا . . ويعود اليهود كما كانوا مشتتين فى كل أرض . وفى التاريخ أمثلة كثيرة على ذلك !

ولم يستطع أحد أن يخدش المؤرخ البريطانى ، فهو فى حصن منيع من عظمته وحكمته وأمانته ، ومستحيل أن يتهمه أحد فى علمه أو عقله أو شرفه . . وقد حاول اليهود أن يردوا عليه ، أو أن يمسحوا هذه العبارة من الصحف ووكالات الأنباء .

ولكن الرجل قال مايفزع اليهود . فهم فى حالة من الفزع الشديد على أنفسهم أن ينقرضوا . .

ولكن هؤلاء اليهود الخائفين ، قد أخافوا العالم كله أيضا . . واختلقوا حول أنفسهم الأساطير والأكاذيب . ونسبوا إلى أنفسهم العظمة حتى أفزعوا الناس منهم ، وحتى أفقدوا الناس الثقة بهم والاطمئنان إليهم . . ثم إنهم يحاولون أن يكسبوا ثقة الناس والارتياح إليهم . إنها مشكلة !

ومنذ اكثر من عشرين عاما صدر كتاب عنوانه « أى ثمن يا إسرائيل ؟ » ومؤلف هذا الكتاب أمريكى يهودى اسمه الفرد ليلينتال . والكتاب هجوم عنيف على اليهود وتعقب لهم فى كل مكان . واتهام لهم بأنهم يسيطرون على كل أسلحة المال والتجارة والتليفزيون والصحف فى أمريكا وأوروبا والعالم ، والكتاب يتهم اليهود بالجشع .

ولكنه فى نفس الوقت يؤكد قوة اليهود وحيلهم ومؤامراتهم ودسائسهم من أجل السيطرة على العالم كله ، فالكتاب أراد أن يهاجم اليهود ، فأخاف العالم كله منهم . . أى أنه أشاد بهم من حيث أراد أن يلعنهم .

ثم إن المؤلف يخاف على اليهود من أن يعمقوا لدى العالم كله الشعور بالكراهية لهم . .

ومن الواضح الآن ، ومن نهاية الحرب العالمية الثانية ، أن هناك عداء متزايدا ضدهم فى أمريكا نفسها . . ففى أمريكا حزب نازى صغير . . ومن بين أعضاء الحزب النازى يهود أيضا ، إنهم يكرهون الصهيونية ، لأن الصهيونية هى مذهب فكرى يجعل « اليهودية » مشكلة حية ساخنة قابلة للانفجار فى كل وقت ، وهذا النوع من اليهود يريد أن يعيش فى هدوء بين كل الشعوب !

* * *

أما خوف اليهود الآن من العرب . . فهو أن العرب ليسوا ضعافا . . ثم إنهم أغنياء ، ولقد تغيرت الخريطة السياسية والاقتصادية فى المنطقة العربية . وإن اليهود لن يستطيعوا بالقوة والحيلة أن يستولوا على كل أموال العرب وتجارتهم فى يوم وليلة كما كانوا يحلمون !

وفى نفس الوقت هناك خوف العرب من اليهود ، فقد عاش العرب عشرات السنين فى حالة خوف من الخداع اليهودى والمؤامرات الصهيونية . . وأنه لن يمضى وقت طويل حتى يستولى اليهود على مصر من الداخل !

واليهود فى الوقت الذى يريدون أن يكونوا فيه على وفاق مع العرب ، يخافون من أن يذهب اليهود العرب إلى بلادهم الأصلية ، أى العربية . . أو يندمجوا فى البلاد العربية ! !

وقد لوحظ أن اليهود الغربيين ، بعد مبادرة السادات ، بدأوا يتعلمون اللغة العربية . .

ومعنى ذلك أن اليهود الشرقيين . بسبب كراهيتهم لليهود الغربيين ، يريدون أن يرتبطوا بالشرق أكثر وأكثر . . وبذلك يحطمون حلم بناة إسرائيل فى أن تظل إسرائيل دولة غربية متطورة وسط الشرق المتخلف . مرتبطة بأوروبا وأمريكا . .

فهم يريدون السلام ويخافون منه أيضا . .

يريدون ألا يحاربوا ، ويخافون أن يهزمهم اليهود الشرقيون . .

وبذلك تستسلم إسرائيل للشرق العربى ، بعد أن جاءت إلى الشرق بكل آمالها وأحلامها وأسلحتها الغربية . .

فكأنها بالأفكار الأوربية والحرب الأمريكية قد جعلت إسرائيل قطعة من أوروبا ، ولكن بالسلام تخاف أن تصبح دولة آسيوية ، ونخاف أن يعيدها أبناؤها الشرقيون إلى العرب !

وبسبب الخوف وسوء الظن والكراهية الشديدة والحسابات القديمة التى نحاول تصفيتها الآن ، فإن هناك الكثير من المبالغات : المبالغة فى قدرتهم ، والمبالغة فى عدم قدرتنا ، المبالغة فى شطارتهم ، والمبالغة فى خيبتنا . .

وإسرائيل ترى أنها قادرة على تطوير المنطقة كلها إذا ماتم الصلح بيننا وبينهم ، ولكن ماالذى عند إسرائيل وليس عند أمريكا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا وغيرها ! .

ثم ماالذى حدث بمصر بعد أن استعانت بالخبرة الأجنبية أو اشترتها أو اقتسمتها ؟

لقد حدث مانجده فى كل مكان : نوع من التعاون من أجل المنفعة المشتركة . .

وسوف يحدث مع إسرائيل ، مايحدث مع كل الدول الأخرى . . باختيارنا وإرادتنا ، ولاخوف علينا من الأجانب .

وهذا الخوف أيضا عميق عندنا ، ولذلك فنحن معذورون أيضا . . فقد رأت مصر فى تاريخها أنواعا من الأجانب قادمين من الشرق والغرب والشمال والجنوب . . وكانت مصر مقبرة لهؤلاء الغزاة .

وكما يحدث قبل أن يذهب الناس إلى المقابر ، لابد من الجنازات التقليدية والبكاء على الميت . فقد بقى الكثير من ذلك فى تاريخنا وفى أعماقنا أيضا .

فالخوف من الأجنبى ، ليس صفة نشعر بها دون شعوب كثيرة ، ولكن هذا الخوف يجعلنا نحرص على أن نستعد له وأن نحمى أنفسنا منه . .

وفى نفس الوقت هذا الخوف يتضمن الشعور بأننا أقل من غيرنا وأنه من الممكن

أن يتغلب علينا . . ولكن يجب أن نفيق إلى أن الدنيا تغيرت . . تغيرت بنا وحولنا . وأننا لم نعد صغارا فى الحرب أو فى السياسة أو التجارة . .

وأننا إذا استشعرنا الخوف ، فلكى نودعه فى نفس اللحظة ونمضى بمئات الألوف من المتعلمين القادرين على الصناعة والزراعة والتجارة والقتال . . فلسنا قليلين ، ولسنا وحدنا . . ولاخوف علينا منهم ، ولاخوف علينا من أنفسنا . . إن إسرائيل تخاف من نفسها ، أكثر من خوفها من أشد الناس عداوة لها .

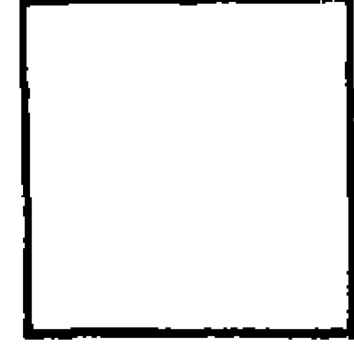
ومن يدرى . . فقد يؤدى هذا السلام الفريد فى تاريخنا إلى أسلوب فريد فى العمل والإنتاج وإضافة الجديد إلى الحضارة الإنسانية . . ففى هذا السلام تلتقى الديانات الكبرى الثلاث ، وبهذا السلام نصنع نموذجا لما يمكن أن يحققه أبناء العداوات الطويلة من خير للإنسانية . .

وماأكثر العداوات والأحقاد بين الجيران فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا . إن سلامنا ليس نهاية المعجزات ، إنما هو بداية المعجزات .

إن هذا السلام معناه أن السماء قد انطبقت على الأرض . . أى تطابقت معها . . فبعد أن كانت المعجزات من خصائص السماء أصبحت من صفات الأرض . .

ففى السماء السلام ، وسوف يكون على الأرض أيضا !

فإذا كنا بعد المبادرة – عرباً ويهوداً – نخاف على السلام ألا يتحقق . . فهل نحن حقًّا نخاف « منه » على أنفسنا ، إذا تحقق ؟ ! إن المورخ البريطانى توينبى عندما توقع لإسرائيل أن تزول ، لم يتصور أن سلاماً سوف يكون فى الشرق الأوسط . . وأن جسور السلام سوف تقام بين إسرائيل ومصر ثم بينها وبين دول عربية كثيرة . .



كيف كانت وأصبحت عملية السلام !!

عند الإغريق أسطورة تقول إن « شابا » حبسوه فى إحدى « المتاهات » . ولكن حبيبته قد وضعت فى جيبه خيطاً طويلاً يتركه وراءه يتدلى لعلها تهتدى إلى إنقاذه بعد ذلك . وهذا مافعله الشاب الحبيس . وهكذا أنقذته حبيبته الفتاة « أريان » . هذا « الخيط الهادى » دخل التاريخ تحت اسم « خيط أريان » الذى يهدى من السجن إلى الحرية ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الظلم إلى العدل . .

وما أحوجنا إلى أن ننزع خيطاً واحداً من نسيج خريطة الشرق العربى قبل مبادرة السادات فى مثل هذا اليوم من عام كامل ، لنعرف كيف كانت الأحداث تجرى وتتعثر ، وكيف كانت القرارات تلتوى وتتكوم . وكيف كان من الضرورى أن نترك مصيرنا هكذا يلعب به من يساوى ومن لايساوى شيئاً . .

إنه خيط واحد ننزعه من لوحة اسمها « الضياع » مصنوعة من قماش داكن علقناها على جدراننا ورحنا نبكى أمامها حظ الأمة العربية المنهزمة إلى الأبد أمام إسرائيل المنتصرة إلى مالانهاية . . إنه الهوان الذى ارتضيناه صغاراً وكباراً . وأن هذا قضاؤهم علينا ، وقدرنا !

وليس هذا الخيط ناعماً ولامتيناً ، ولكنه مثل « خيط أريان » شديد الالتواء فى متاهات السجن المظلم البارد الذى حبسنا فيه أعز الناس علينا : شعوبنا العربية ومستقبلها إلى مئات السنين . .

كان من رأى كيسنجر – ولايزال – أنه مالم تكن هناك نار فلن يلين الحديد فى السياسة أو فى الحرب . .

وكان من رأيه أيضا : أن النار التى تحرق ، هى نار تضىء أيضا !

ولذلك فإذا كان العرب يريدون أن يلفتوا العالم إليهم فعليهم أن يشعلوا النيران .

وترك كيسنجر للمفكر العربى ، أو السياسى العربى ، أن يختار نوعية النار التى يشعلها أو يفتحها على عدوه . .

وقبل حرب أكتوبر بأيام . . التقى كيسنجر – وهذه قصة معروفة ومنشورة فى كثير من الكتب – بوزير إسرائيلى . .

قال كيسنجر : أنتم منتصرون الآن . ويجب أن تكونوا أكثر كرما مع العرب ، فالعرب كبرياؤهم جريحة ، وسوف يكون العرب جيرانكم إلى الأبد . فلماذا عداوة الجار بدلا من صداقته ؟

قال الوزير الإسرائيلى : لاتشغل بالك كثيرا بالعرب . . لقد ماتوا . ولففناهم فى أكفان كبريائهم . وسوف نتولى دفنهم فى قناة السويس . وبذلك يعيد التاريخ نفسه . ففرعون وجنوده قد غرقوا فى هذه القناة وهم يطاردون موسى وشعبه . . لاتشغل بالك اترك لنا هذه المهمة التاريخية !

ويبدو أن العرب أيضا صدقوا أنهم هذه الجثث الهامدة الخامدة المدفونة ، اليوم أو غدا ، فى قناة السويس .

ولذلك كانت حرب أكتوبر مفاجأة للجميع ، وفى مقدمتهم كيسنجر أيضا . ولكن كيسنجر ، كصاحب نظرية فى تفسير التاريخ ، رأى أن حرب أكتوبر تصلح جواً للمباحثات . وأن هذه الحرب وحدها وعلى ضوئها ولظاها ، يمكن أن تؤدى إلى ليونة ومرونة المفاوضات بين العرب وإسرائيل .

ثم توالت الانسحابات الإسرائيلية من سيناء ومن الجولان . .

وفى لقاء الرئيس السادات بالرئيس الأمريكى الأسبق فورد فى سالزبورج ، انتقلت عملية السلام إلى مستوى أعلى ، فلم تعد القضية هى الانسحاب ، ولا قطعة

أرض مقابل قطعة سلام ، إنما السلام الشامل .

وتغيرت الظروف السياسية فى أمريكا بانتخاب الرئيس السابق جيمى كارتر .

وكان شيئا عجيبا وباهرا أن يستدعى الرئيس كارتر ، كيسنجر وزير الخارجية السابق ، ليعرف منه طبيعة الأوضاع المعقدة فى الشرق الأوسط ، وليعرف منه المدخل الصحيح إلى حل هذه المعضلة السياسية والعسكرية .

وكان هذا الاستدعاء دليلا على واقعية كارتر . وفى نفس الوقت على أنه وضع المشكلة الفلسطينية فى أرفع مكان من قائمة المشاكل الدولية التى تنتظر رأيه وقراره ، وكان كارتر أول رئيس أمريكى يعلن أن الفلسطينيين يجب أن يكون لهم وطن . أى أن المشكلة الفلسطينية لم تعد مشكلة لاجئين يريدون أن تقام لهم بيوت بدلا من الخيام – أى مشكلة إنسانية ، إنما قرر كما لم يفعل رئيس أمريكى من قبل ، أنها قضية سياسية . وأنها قضيته الأولى . وأنه لذلك يريد أن يجد لها حلاً .

والتقى الرئيس السادات بالرئيس كارتر فى فبراير ١٩٧٧ . أى بعد شهر واحد من حلف كارتر اليمين الدستورية . وتركزت المباحثات حول ثلاث نقاط : الانسحاب إلى حدود ما قبل نكسة ١٩٦٧ ، وطبيعة السلام ، والمشكلة الفلسطينية . .

وكان اليهود يتعجلون قضية « طبيعة السلام » .

وكان من رأى الرئيس السادات أن هذه القضية تحتاج إلى وقت ليس أقل من خمس سنوات ، فليس سهلا على العرب أو على اليهود أن يتناسوا كل شىء بهذه السرعة . وبلا مقابل ، وأنه من الضرورى أن نعالج هذه العلاقات المعقدة بكثير من الواقعية . . لأنه إذا كان من السهل تغيير الأرض ، فليس من السهل تغيير الذين احتلوها أو الذين استردوها . والتاريخ العالمى أكبر شاهد على ذلك . وضرب الرئيس السادات لذلك أمثلة من تاريخ أوروبا نفسها : مابين فرنسا وألمانيا ، أو مابين فرنسا وبريطانيا ، أو مابين إيطاليا ويوغوسلافيا . .

وأدرك الرئيس كارتر منذ اللحظة الأولى أن سياسة مصر واقعية ومنطقية . وأن ماقاله الرئيس السادات مطابق تماما لما قاله كيسنجر ، فمصر هى مفتاح الحل

والربط . . الحرب والسلام فى الشرق الأوسط . .

وفى نفس الوقت كانت أجهزة الإعلام الضخمة التى تتحكم فيها إسرائيل ، تروج لتعبيرات غامضة مثل الحدود الآمنة . . والسلام المستحيل . . والمسافات الحضارية بين العرب وإسرائيل . . والمهام الدينية السماوية التى سوف تقوم بها إسرائيل من أجل رفع مستوى العرب . . وأنها الشعب الذى اختاره الله لهداية العرب وغيرهم . .

وليس عند أحد فى أمريكا أو فى الغرب ، متسع من الوقت لمناقشة هذه الادعاءات أو الشعارات . والغريب أننا نحن العرب صدقنا ذلك ، ولم نجد مانقوله دفعا لهذه الأكاذيب الواسعة الانتشار ، فقد ارتضينا موقف الدفاع عن النفس . رغم أننا أصحاب حق . وأننا يجب أن نأخذ حقنا بالقوة ، وأن إسرائيل المعتدية هى التى يجب أن تقوم بدور الدفاع عن النفس وتبرير وجودها العدوانى على الأرض والشعوب العربية .

وفى نفس الوقت كانت الإدارة الجديدة للرئيس السابق كارتر تريد أن تعرف حقيقة مايجرى فى المنطقة ، وقد أوفد كارتر وزير خارجيته فانس ليلتقى بالزعماء العرب . . يعرفهم ويعرفونه ، ويسمعهم ويسمعون منه ، وليؤكد للجميع أن الإدارة الأمريكية لها أسلوب مختلف عن أسلوب كيسنجر ، وأن أسلوب كيسنجر وإن كان محترما فإنه لايصلح لكل العصور . وكذلك كان رأى الرئيس السادات . وقد أعلن ذلك أمام فورد وكيسنجر فى سالزبورج .

وكان الاستعداد فى ذلك الوقت لعقد مؤتمر جنيف برياسة أمريكا وروسيا وحضور جميع الأطراف .

وبدأ النقاش يدور حول « شكل » الأطراف و« حجمها » إذا ذهبت إلى جنيف .

وبدأت الخيوط السوداء فى « نسيج السياسة العربية » تتراكم واحدا إلى جوار واحد . حتى أحس الرئيس الأمريكى بالأسى والحزن ، وإن لم يفقد الأمل . .

فقد أخبر الرئيس السادات فى أول لقاء له أن سوريا قررت أن تذهب إلى جنيف فى وفد موحد .

وكانت مفاجأة ، فقد أعلن الرئيس الأسد فى أواخر سنة ١٩٧٦ للرئيس السادات أنه لايريد الوفد الموحد ، وأنه من الأفضل أن تكون هناك وفود متعددة ، وتكون لها أدوار مختلفة أيضا .

قال الرئيس كارتر : هذا مانقله إلينا وزير الخارجية سيروس فانس .

قال الرئيس السادات : ولكن الرئيس الأسد قد اتفق معى على شىء آخر . ولذلك يؤسفنى أن أرفض الوفد الموحد .

وكانت وجهة نظر مصر أن الوفد الموحد سوف يؤدى إلى مواقف مضحكة . .

فلايستبعد أن نختلف مع السوريين . ويقف المندوب السورى يرفض أو يعترض بلا سبب معقول ، كما فعلوا قبل ذلك بعد فك الاشتباك الاول وبعد فك الاشتباك الثانى ، وكما فعلوا فى مؤتمر الرفض وفى مؤتمر بغداد ، وسوف يؤدى ذلك إلى فضيحة عربية فى مواجهة الوفد الإسرائيلى الموحد . ولذلك كان من الأفضل توزيع الأدوار العربية بإحكام فى مواجهة إسرائيل .

واندهش الرئيس الأمريكى كارتر ، فهو حديث العهد بالسياسة العربية ، وقد قيل له : إن العرب مثل الهنود الحمر . . لا أحد يدرى ماالذى يريدون .

وقال له أحد الوزراء اليهود : إننا وحدنا الذين نعرف العرب ، ولكى تفهموا العرب يجب أن نقوم نحن بدور الترجمة !

وعلى الرغم من أن الرئيس كارتر قد قيل له أيضا : يجب أن تتوقع مثل هذه المواقف المفاجئة من سوريا ومن غيرها ، فإنه أصر على أن يفهم وأن يساعد على حل القضية . وأن قراره نهائى . ومن العدل له ولأنفسنا أن نساعده فى ذلك . .

ثم طلب الرئيس الأمريكى من مصر أن تقبل هذا الوفد الموحد . مادام هذا الوفد سوف يأتى بالسوريين .

ثم طلب من الرئيس السادات : أن يفكر فى هذا المؤتمر ، وأن يساعده على

إيجاد حل . .

ثم طلب الرئيس الأمريكى أن يكون هناك وفد عربى موحد يدخله الفلسطينيون أيضا . بشرط أن يعلنوا موافقتهم على القرار ٢٤٢ ، وبتحفظ أيضا . وأن أمريكا سوف تحترم هذا التحفظ ، لأن هذا القرار — كما هو معروف — لايتحدث عن القضية الفلسطينية ، إنما عن اللاجئين الفلسطينيين ، فإذا وافق الفلسطينيون على ذلك فسوف يكون لهم وجود أو حضور فى الوفد الموحد .

ووافق الرئيس السادات على الوفد الموحد الذى يضم منظمة التحرير الفلسطينية .

وفجأة حضر ياسر عرفات إلى مصر . وقابله الرئيس السادات . وأخبره بأنه قبل الوفد الموحد من أجل أن يدخل فيه الفلسطينيون . فأعرب ياسر عرفات عن سعادته . ثم أعلن عن فكرة فى غاية الذكاء . قال : إنه سوف يمثل الفلسطينيين فى هذا الوفد أستاذ أمريكى فلسطينى الجنسية . وبذلك تبطل حجة إسرائيل التى تصور الفلسطينيين جميعا إرهابيين وسفاحين . .

وشاركه الرئيس السادات سعادته بهذه الفكرة الذكية ، ورأى فيها دليلا على أن فكرا سياسيا سليما بدأ يخرج من رءوس العرب . فقد ضقنا نحن العرب بأنفسنا وأفكارنا التى هى أوهامنا الطويلة . .

وقبل أن يمد الرئيس السادات يده إلى التليفون عاد فسأل ياسر عرفات : هل هذا رأيك النهائى ؟

أجاب : نعم .

— لن تتراجع فيه ؟ . . فقد تراجعت فى مواقف كثيرة عن آراء كثيرة .

— لن أتراجع .

— على خيرة الله . . إذن فسوف أبلغ هذا للرئيس كارتر أمامك الآن . .

واتصل الرئيس السادات بالخارجية المصرية ، وطلب إرسال برقية إلى وزير خارجيتنا بضرورة طلب مقابلة عاجلة مع الرئيس الأمريكى . ووافق الرئيس

الأمريكى فورا . ووصف وزير الخارجية المصرى موقف الرئيس الأمريكى بأنه أصيب بذهول عندما سمع قرار ياسر عرفات !

وأعلن الرئيس كارتر ماقررته منظمة التحرير الفلسطينية ، وثارت إسرائيل بكل أجهزتها على الرئيس الأمريكى الجديد الذى ألقى بنفسه فى « وكر الدبابير » دون أن يعرف عواقب مايقوله وماسوف يفعله !

وأنكر ياسر عرفات ماقاله للرئيس السادات ! !

وشعر الرئيس كارتر بالحرج الشديد ، وبعث برسالة حزينة بسبب هذا المأزق الذى وضعته فيه المنظمة الفلسطينية ، رغم أنه الرئيس الأمريكى الوحيد الذى طالب لهم بوطن ، والوحيد الذى جعل القضية الفلسطينية هى أولى قضاياه !

وقبل أن يسافر الأمير فهد ولى عهد المملكة السعودية إلى أمريكا ليعرض وجهة نظره على الرئيس الأمريكى ، رأى من الحكمة أن يستدعى ياسر عرفات . واستدعاه . وعرض عليه الموقف . وقال له : إن أمريكا تريد من المنظمة الفلسطينية أن تعترف بالقرار ٢٤٢ مع التحفظ على ماتشاء فى هذا القرار .

ووعده الأمير فهد بأنه سوف يكافح من أجل إقناع الرئيس كارتر بوجهة نظر المنظمة الفلسطينية .

وأعلن ياسر عرفات وآخرون معه للأمير فهد أنهم موافقون على ذلك تماما !

ولكن الأمير فهد كان أكثر دراية من الرئيس السادات بمعاملة المنظمة ، فطلب إلى ياسر عرفات أن يكتب هذه الموافقة . وأن يوقعها هو وزملاؤه . فكتب ووقعوها جميعا ، وأعلن الأمير فهد سعادته بهذه النتيجة . فقد حصل على وثيقة مكتوبة تساعده فى محادثاته مع الرئيس الأمريكى .

وقد ابتهج الرئيس الأمريكى بهذا النصر الذى حققه الأمير فهد . .

ولم تمض أيام حتى أعلن ياسر عرفات والذين معه أنه لم يوافق قط على القرار ٢٤٢ ولا على ماأعلنته السعودية . . فأصدرت السعودية بيانا عنيفا ضد هذا الموقف الغريب الذى اتخذه ياسر عرفات وزملاؤه !

وكان ذلك شيئا جديدا على الرئيس الأمريكى الجديد . . أما ماهى حصيلة هذا كله عنده ؟ فلا أحد يعرف بالضبط .

لابد أنه لاحظ أن اليهود صف واحد وكلمة واحدة ، أما العرب فكثيرون وآراؤهم متضاربة . وينكرون اليوم ماقالوه بالأمس . فكيف يمكن التفاهم معهم ؟

وقد لخص الرئيس كارتر ذلك كله فى رسالة بعث بها إلى الرئيس السادات يقول فيها : إننى أرى أن خلافاتكم العربية أعنف من خلافاتكم مع إسرائيل ، حلوا مشاكلكم وأنا أتكفل بحل مشاكلكم مع إسرائيل ! ولايزال الاستعداد مستمرا بصور مختلفة من أجل انعقاد مؤتمر جنيف ، الذى لم ينعقد حتى الآن . .

وتقدمت أمريكا بجدول أعمال . . أى بإطار للحوار . .

رفضته سوريا ورفضته إسرائيل أيضا . . وقبلته مصر . .

وقالت سوريا ، فى رفضها : إنه أمريكى امبريالى استعمارى رجعى تصفوى .

وبعثت سوريا لأمريكا تقول : ولماذا لايكون هناك « جدول عربى » بدلا من الجدول الأمريكى ؟

وانتظرت أمريكا الجدول العربى ، ولكن سوريا لم تبعث به . .

والتقى الرئيس كارتر بوزير خارجية إسرائيل موسى ديان . وأعلنت أمريكا عن جدول جديد . .

ورفضته سوريا : لأنه جدول أمريكى صهيونى .

وقبلت مصر الجدول المقترح ، ووجهة نظر مصر فى جميع الأحوال هى : ليكن أى جدول يؤدى إلى أى لقاء ، وليكن أى لقاء مع إسرائيل وجميع الأطراف ، وليكن أى حوار يسمعه العالم كله ، وفى نفس الوقت نشترك مع الدنيا فى شهود محاكمة إسرائيل . وبذلك يكون هذا المؤتمر محكمة للعدل الدولية أو محكمة للتاريخ ، ويكون سكان الكرة الأرضية هم ألوف الملايين من المحلفين . . ولهذا السبب فمصر تقبل أى جدول من أى مصدر ، وأى لقاء فى أى مكان وبحضور أية أطراف عربية أو أمريكية أو سوفيتية ، المهم : أن تتم المواجهة والمحاكمة !

ولجأت أمريكا إلى جدول مشترك بينها وبين الاتحاد السوفييتى . .

وثارت إسرائيل ، وأطلقت أجهزة إعلامها وصحفها على الرئيس الأمريكى

أما موقف إسرائيل فهو أوضح من مواقف سوريا والفلسطينيين ، فإسرائيل لاتريد أن تتفاوض ، ولا أن تتخذ مواقف محددة ، ولا أن يحاكمها أحد ، ولا أن يستمع أحد إلى وجهة النظر العربية ، فالغرب كله واقع تحت التأثير الصهيونى العالمى . وهذا مكسب عظيم . لاتريد أن تخسره إسرائيل بالجلوس إلى العرب فى محاكمة دولية !

وأعجب من ذلك أن سوريا عادت فوافقت على اللجان الثنائية . . أى على تكوين لجنة تضم سوريًّا وإسرائيليًّا ، ولجنة تضم مصريًّا وإسرائيليًّا ، ولجنة تضم أردنيًّا ومصريًّا وفلسطينيًّا . .

وفجأة بعث الرئيس الأسد من يقول للرئيس السادات : إن سوريا ترفض اللجان الثنائية . لأن اليهود إذا انفردوا بنا ابتلعونا ، ولأن أنياب اليهود أمريكية . وعلى ذلك فأمريكا ليست إلا أنياب اليهود ، وهى لذلك عاجزة عن فعل شىء ، حتى لو أرادت ذلك .

والمعنى هو : أن أمريكا أعجز من أن تفعل شيئا لإسرائيل ، ونحن أعجز من أن نفعل شيئا لأمريكا !

والحل الذى تراه سوريا لنا جميعا : لاحل . إنما نرفض أية فكرة ، وأن نظل فى مكاننا هكذا ، لانتحرك . إنما فقط ننظر إلى ماضينا ، أى أن نوقف التاريخ ونتفرج عليه ، فقد علمنا التاريخ ألا نتعلم منه شيئا .

ولذلك فالذى قيل قبل حرب أكتوبر وأثناءها وبعدها ، وفى مؤتمر الرفض ، وفى مؤتمر بغداد شىء واحد : إننا عاجزون عن مواجهة إسرائيل وإذا استطاعت مصر أن تفعل شيئا فنحن لانقبله ، لأنه جاء عن طريق مصر . حتى السلام على يدى مصر ، أفضل منه الحرب على يدى إسرائيل !

ولم يكن ذلك صحيحا . فحرب أكتوبر لم تكن انتصارا لمصر وحدها . وفك

الاشتباك لم يكن على سيناء وحدها ، ومبادرة السلام لم تكن للعرب وحدهم ، إنما للعالم كله . . واتفاق كامب دافيد بعد ذلك ، لم يكن صلحا منفردا ، إنما لايزال حرصا وسعيا متواصلا على أن يكون السلام شاملا . فالسلام أولا . والباقى مفردات تحت كلمة السلام . بما فى ذلك سيناء والجولان والضفة والقطاع . .

ورغم أن كل هذا كلام قيل وسوف يقال ، فإننا ننسى بسرعة ، ومادمنا ننسى فنحن نظلم أنفسنا كثيرا . لأن الذى حققناه كثير ، والذى أنجزناه عظيم .

ولأن أحداثا كثيرة قد توالت ، وإنجازات عظيمة قد تحققت ، فهى تنسى بعضها البعض . . إنها مثل أمواج البحر ، تعلو وتذوب بعضها فى بعض . . ولأن العين والأذن قد اعتادت عليها . فلم تعد نراها شيئا غير عادى . ولكن الخريطة السياسية والمعنوية للعالم العربى قبل المبادرة — أى منذ نوفمبر ١٩٧٦ ، عندما انتخب الرئيس كارتر حتى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ عند زيارة الرئيس السادات للقدس — كانت بشعة الخيوط والألوان . .

ولابد أن يكون الرئيس كارتر والعالم كله قد اقتنع بأن التعامل مع العرب لايقل صعوبة عن التعامل مع إسرائيل ، مع الفارق الكبير بين قدرة إسرائيل على التأثير فى الرأى العام الأمريكى ، وعجز العرب عن ذلك . . لأنه يوجد أكثر من « نوعية » عربية . . مثلا : السعودية بمالها من وزن عربى كبير وسمعة عالمية . . لم تفلح فى إقناع الفلسطينيين باتخاذ موقف يخدم قضيتهم !

ولم يبق إلا القليل أمام الرئيس الأمريكى ، حتى يأخذ بوجهة النظر الصهيونية بأن أحداً لايستطيع أن يفهم العرب أو يتفاهم معهم إلا اليهود . . وهذا ماسبق أن اعتنقه الرئيس الأمريكى جونسون .

ولكن فهما ساذجا قد تسلط على الفكر العربى فى أعقاب ١٩٦٧ . حتى الرئيس جمال عبد الناصر بذكائه لم يختلف عن الرئيس الأسد فى تصوره بأن أمريكا تستطيع أن تقول لليهود : اخرجوا ! ! . .

فيخرج اليهود من كل الأرض المحتلة . .

صحيح أن هذا قد حدث أيام العدوان الثلاثى ، أيام كان إيزنهاور رئيسا لأمريكا ، ولكن الدنيا تغيرت ، فإيزنهاور لم يعد رئيسا لأمريكا ، ولم يكن اليهود قد استولوا فى انتصارات باهرة على كل هذه الأرض العربية ، ولذلك اندهش جدا الوزير الأمريكى الذى التقى بالرئيس جمال عبد الناصر فى حضور الرئيس السادات فى أسوان ١٩٦٨ . عندما قال له جمال عبد الناصر : لماذا لاتطلب أمريكا إلى اليهود أن يخرجوا ! .

كما أن الرئيس الأسد كان مضحكا حقا عندما طلب من الرئيس كارتر . . أنه على استعداد لأن يذهب إلى جنيف ، وأن يقبل جدول الأعمال الأمريكى ، وأن يقبل اللجان الثنائية بشرط : أن تضمن أمريكا انسحاب إسرائيل من كل الأرض المحتلة !

أى أن تقول أمريكا لليهود : اخرجوا !

فإذا هم خارجون من كل الأرض المحتلة بلا حوار ولانقاش ولا اتفاق على أى شىء !

وإذا كانت أمريكا تستطيع ذلك ، فما معنى مؤتمر جنيف ؟ . . مع أن سوريا من رأيها أن أمريكا عاجزة عن فعل شىء . أو إذا استطاعت فإنها لاتريد ذلك . فالإرادة والاستطاعة صفتان إسرائيليتان ! .

ولكن الوهم الذى تغلغل فى عقولنا بعد النكسة : أن كل رئيس أمريكى هو إيزنهاور ، وأن الظروف لم تتغير فى أمريكا . . فلا حدثت فضائح ووترجيت ، ولاذهب رئيس منتخب وجاء من بعده رئيس معين . . ولاسقط هذا الرئيس فى الانتخابات . . ولا جاء رئيس جديد ، ولا اليهود احتلوا سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة . . ولا تذكر العرب أنهم أعطوا للعالم كله صورة لاتبعث على الاحترام ، فلا كلمة لهم ، ولا رأى لهم ، ولا قرار لهم ، ثم إنهم يطلبون من أمريكا أن تحقق لهم المعجزات بلا مقابل !

هذا هو حالنا فى كل سنة ١٩٧٧ :

ومفروض أننا نضع مصير الأمة العربية ومصر فى أيدى هؤلاء المترددين والمزايدين والذين يتاجرون بالأرض العربية وبالدماء العربية ، وكل هذه قصص معروفة ، ولكن لابد من إضافة لون الدم إلى لون خيوط العار السوداء فى نسيج الخريطة العربية المعلقة أمامنا ، والمعلقة أيضا أمام الرئيس الأمريكى الذى أدخلناه طرفا كاملا فى القضية العربية ، وهذا فى ذاته إنجاز عظيم . .

وإذا كانت هذه هى حالتنا التى تبعث على الأسى فما الذى يمكن عمله ؟

أولا : ماهو المطلوب ؟

المطلوب : أن نتولى نحن حل مشاكلنا ، وخاصة أننا فى وضع أفضل وأكثر احتراما ، أى أننا يجب أن نستثمر إلى أقصى حد انتصارات أكتوبر وأحزان إسرائيل التى لاتنتهى !

هل نلتقى بإسرائيل سرا ؟

هل نستأجر محامياً يترافع عنا ؟

هل نفرض على الإدارة الأمريكية الجديدة أسلوب كيسنجر فى الحل . . ونظل هكذا نأخذ شرائح من أرضنا حتى نهاية القرن أو نهاية التاريخ ؟

لقد التقينا باليهود فى « فك الاشتباك » وكان اقتراحا أمريكيا . . وقد التقينا بهم قبل ذلك فى اتفاقيات الهدنة . .

« لابد من عمل شىء جرىء » — هذه هى العبارة التى بعث بها الرئيس السادات إلى الرئيس كارتر .

ولم تكن فى رأسه صورة واضحة لهذا العمل الجرىء . ولكنه لابد أن يكون اتصالا مباشرا بالطرف الآخر . لامجرد الاتصال . ولامجرد الحديث السرى الودى . ولكنه يجب أن يكون الاتصال قرارا . وأن يكون القرار علنا ، وأن يكون القرار تأكيدا لمطالب الأمة العربية ، وتجديداً لأحلامها التى حققتها مصر والتى سوف تحققها أيضا .

ومقدمات قرار المبادرة معروفة . . وإن كانت نتائجها ماتزال تتوالى . ولا يستطيع إنسان أن يوقفها .

ذهب الرئيس السادات إلى الرئيس الرومانى شاوشيسكو ، وعرف منه أن مناحم بيجين : رجل قوى وأنه يريد السلام . أو أنه رجل قوى وأنه إذا قرر السلام فسوف يكون قادرا على تحقيقه .

وأضاف الرئيس السادات إلى ذلك أن بيجين فى الحكومة سوف يكون أقل عنفاً من بيجين فى المعارضة ، وأنه من الأسهل أن يناقش بيجين رئيس الوزراء من أن يناقش بيجين زعيم المعارضة !

وكانت مبادرة القدس . وكانت خطبة الرئيس السادات فى الكنيست .

ولم تكن اللقاءات سهلة . . ولا هى اليوم . . ولا هى غدا . . ولا هى بعد غد ، إذا انقطعت المباحثات اليوم لنستأنفها بعد شهر .

(وقد سبق أن أشرت إلى ذلك وقلت : إن من الممكن أن تكون هناك جولات جديدة للمفاوضات) .

ثم كانت مفاوضات القدس التى انقطعت . . وكانت مفاوضات ليدز . . ثم كانت اتفاقية كامب دافيد التى وقعها الأطراف الثلاثة . .

ونحن نعرف وإسرائيل أيضا ، أن أحدا لايقوى على مواجهة تيار السلام . . ولا طاقات الخير التى تفجرت فى كل أرض ، فلا أروع ولا أجمل ولا أعظم ولا أبقى من السلام . . وإذا كانت الحرب كابوسا متجددا ، فلايزال السلام « نشيد الإنشاد » عند كل الشعوب فى كل العصور ، ثم إن السلام الذى ندعو إليه هو سلام بين أبناء الديانات الكبرى الثلاث ، ونحن نعرف كم من الجرائم والمذابح قد ارتكبت باسم الدين فى كل العصور .. إننا أمام أكثر الأحلام جمالا وجلالا !

* * *

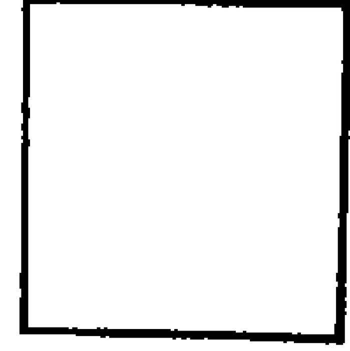
تغيرت معالم خريطة « الضياع » بخيوطها السوداء القبيحة التى علقناها وتعلقنا بها ، وتعلقنا منها قبل المبادرة . . فنحن الآن قد كبرنا فى أسماع العالم وعيونه . .

ولكن أشقاء لنا لايريدون لنا جميعا هذه الصورة الجميلة الجديدة . . إنهم يستدرجوننا إلى مواقف جامدة ، إنهم قد استدرجوا العرب الطيبين إلى بغداد . . حتى السعودية كبرى شقيقات الخليج ، قد شَدُّوها إلى منتصف الطريق . . أما الكويت فهى العضو الجديد فى معسكر الرفض ، وهى معذورة . فخوفها من العراق مفهوم ، وخوفها من الفلسطينيين ، أيضا ، فالأغلبية فلسطينية . . حتى ليقال عن الكويت إنها « الضفة الغربية » للخليج ، والأقلية الكويتية ضعيفة جدا أمام الأغلبية الفلسطينية : فالمال للأقلية والمال للأغلبية !

وتحولت قضية الأمة العربية كلها إلى قضية مبنى الجامعة العربية ، فليأخذوا الجامعة العربية وأمينها العام أيضا بعد أن جرح كبرياء المصريين بتصريحاته الغريبة . . فأصبح اليوم أقرب فى تصريحاته إلى الذين أجلسوه على المنصة الرئيسية فى مؤتمر بغداد !

إن سنة واحدة من السلام ، ومن السعى المتواصل من أجله ، ليست بالوقت الطويل ، ولكن الذى تحقق فيها كثير جدا . .

وسوف نرى الذين يرفضون السلام ، يقفون فى الطابور الطويل يطلبون المساواة !



لهذه الأسباب :
يخافون من السلام في إسرائيل

من أخطائنا فى التفكير : أن ننظر إلى مشكلتنا من جانب واحد ، سواء كان الجانب العربى أو الجانب الإسرائيلى . وفى الحالتين لانعرف إلا نصف الحقيقة . .

وقد عانينا الكثير بسبب هذا الفهم ، أو هذا العجز عن الفهم . فقد كانت نكسة ٦٧ نتيجة مؤكدة لما تصورناه عن أنفسنا ، وماتوهمناه عن العدو الإسرائيلى . . ووقع العدو فى هذا الخطأ أيضا . . فقد توهمت إسرائيل أن مصر لن تقوم ، ولذلك كانت هزيمة إسرائيل فى أكتوبر .

إذن فلقد وقعنا فى خطأ واحد . ولقى كل منا مايستحقه . .

والآن بعد مبادرة السلام وبعد اتفاقية كامب دافيد . . فقد قرأنا وسمعنا كل شىء من الجانب المصرى ، ومن الجانب العربى ، رغم أنه لايوجد رأى عربى واحد مع مصر أو ضد مصر . . بل إن بعض العرب بموقفهم من مصر أقرب إلى الفهم الإسرائيلى ، وإن لم يقصدوا ذلك . .

والذى يقرأ الصحف الإسرائيلية ، أو الصحف اليهودية الصديقة لإسرائيل ، يجد حالة غريبة من الفزع . فهم خائفون على أنفسهم وعلى أرضهم ، وعلى مكاسبهم التى حققوها بالسلاح ، وبعد السعادة الغامرة التى رأيناها فى شوارع إسرائيل وبيوتها بعد مبادرة السادات ، نجد أن الأسى والرعب قد استوليا على رجل الشارع - مع أملهم المؤكد فى أن يسود السلام الأرض ، وأن يكون بين الناس . .

وقد اندهش عيزر فايتسمان عند عودته من واشنطن لهذا الجو الكئيب فى إسرائيل . ووصفه فايتسمان بأن إسرائيل بدأت تعانى من « ويلات السلام » .

وانتقد الصحف الإسرائيلية التى تتحدث عن سلبيات السلام ، ولاتزف للناس إيجابيات السلام . وعيزر فايتسمان أحد أبطال الطيران . ويعيش مأساة حياته كلها ، فله ابن أصيب بشظية على قناة السويس أصابته بنصف شلل ، فكراهيته للحرب لاتقل عن كراهيته لعديله موسى ديان . .

* * *

والخوف طبيعة يهودية ، فليس يهوديًا من لم يعرف الخوف . فهذه هى أول مرة من ألوف السنين تكون فيها لليهود أرض . . ويكونون أغلبية ، فقد عاش اليهود أقلية فى كل دولة . . وفى كل مدينة ، ثم إنهم عندما أقاموا هذه الدولة تسللوا إليها ، واشتروا أرضها شبرا شبرا . . أى أنهم سحبوا الأرض من تحت العرب ، وهذا مانحاول أن نعمله نحن الآن . . أى نسحب الأرض من تحت اليهود . . لكى نستردها فى سنة أو فى عشرين سنة . المهم أن نبدأ وأن نأخذ وأن نستمر ، وأن نتحد جميعا على أن نطبق عليهم ماطبقوه علينا ، ونحن أصحاب حق وهم على باطل . .

ومنذ قامت الدولة وهم يحاربون خارجها . إنهم مثل أمريكا ، لم يحاربوا على أرضهم قط . فأمريكا تحارب فى أوروبا وروسيا . . وإسرائيل أرض ضيقة . وأهلها أكثر ضيقا بها . ولذلك فهم خائفون إذا انسحبوا . وسوف يؤدى الانسحاب إلى تكدس السكان ، وإلى اختناق الجيش الذى يحتاج إلى الحركة وإلى الميادين الأوسع للتدريب .

وسوف يؤدى الانسحاب إلى انعدام الفواصل الطبيعية بين إسرائيل وأعدائها . وإسرائيل – كالاتحاد السوفييتى – محاطة بالأعداء من كل جانب .

وهذه هى مشكلة « الحدود الآمنة » . . ورغم أن هذه النظرية قد أسقطتها حرب أكتوبر والأسلحة العابرة للقنوات والقارات ، فإن إسرائيل يدفعها الخوف إلى التمسك بالحدود الآمنة ، والفواصل الطبيعية ، والعازل السكانى ، والمانع المائى

والعائق الترابى . . إلخ .

وهناك خوف بين القادة العسكريين من أن السلام سوف يؤدى إلى تسريح الجيش . وإلى اختصاره وإلى تجريد إسرائيل من أهم نتائج الخوف : اليقظة الدائمة ، وقد خسر اليهود الكثير بسبب الخوف العاجز . وكسبوا كل هذه الأرض بسبب الخوف الواعى ، أى الخوف المستعد عسكريا . .

وقد قامت دولة إسرائيل على الخوف ، فقد « اعتصرتهم » الشعوب الأخرى ، وحشرتهم فى الحوارى المظلمة ، ودفعهم الخوف من كل الناس إلى التآمر على كل الناس والتواطؤ ضد كل الشعوب حتى اليوم . وهم معذورون فى ذلك ، لأنهم لم يعرفوا الحب أو الصداقة أو المودة ، إنما عرفوا كراهية كل الناس واحتقارهم والخوف منهم .

يقول الفريد نوبل صاحب جائزة نوبل بمنتهى المرارة : إن يهوديا واحدا كان يحب الناس بلا مقابل ، يهودى واحد فقط . فاستحق هذا اليهودى أن يكون إلها : إنه المسيح !

ومعنى هذه العبارة أنهم جميعا لايحبون أحدا ، ولايحبهم أحد .

ولذلك حاولوا بكل الحيل أن تكون لهم أرض ، وأن تكون لهم دولة . وعندما تمسكنوا وتمكنوا عاودهم الجشع ، أى الخوف من أن يفقدوا ماتحت أقدامهم . . فاتجهوا إلى مزيد من أرض الغير . . وعاودتهم أحلامهم المجنونة بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات . .

وهناك اتجاه عند يهود أمريكا بأن إسرائيل الكبرى تمتد من النيل إلى المسيسبى !

واختلفت اليهود حول هذه المعانى ، وهم عادة يختلفون على أى شىء . فإذا اختلفوا كونوا حزبا جديدا أو طائفة جديدة . وهم الذين يقولون عن أنفسهم : إذا اختلف اثنان من اليهود أنشآ ثلاثة أحزاب !

وكما اختلف اليهود على الحرب وضرورتها واختلفوا على « شرعية » قيام دولة إسرائيل ، هم الآن أشد اختلافا على السلام مع مصر ومع العرب .

لقد كانت مبادرة السلام صاعقة . . أحرقتهم . . وأضاءت لهم . . وكشفتهم أمام أنفسهم : إنهم لم يستعدوا للسلام . إنما رتبوا أفكارهم وغرائزهم ومستقبلهم على الحرب ولاشيء إلا الحرب . وأن يعيشوا ويموتوا يحملون السلاح ، وإذا دخلت بيت أى مواطن إسرائيلى ، وقد فعلت أنا ذلك كثيرا ، فسوف تجد وراء الباب عددا من الأسلحة للزوج والزوجة والأبناء !

إنهم ليسوا سعداء بحالة الحرب . . ولكن هذه الحرب هى مزيج من الشقاء والاستعلاء معا ، فهم أشقياء بحالة الحرب المستمرة ، وهم راضون بأنه منتصرون على العرب ، أو بأنهم أقلية متميزة عن الأغلبية العربية التى انهزمت فى ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ .

وكتب المدارس فى إسرائيل كلها صفحات سوداء دموية ، لأنها تاريخ الجرائم العالم كله ضدهم ، فهم مكروهون وهم محسودون أيضاً ، ويبرر اليهود ذلك بأنهم شعب الله المختار ، أى أن الله اختارهم ليكونوا سادة العالم . . فهم يواجهون كراهية العالم . . بحب الله لهم ، وهم يفسرون كراهية الناس لهم ، بأن العالم كله حاقد عليهم وحاسد لهم . أى أن الكراهية طبيعية : أى من الطبيعى أن يكره الإنسان من هو أذكى وأغنى وأقوى منه . . فكأنهم فى الوقت الذى يضيقون فيه بكراهية الناس لهم ، يسلحون الناس بكل المبررات التاريخية والمنطقية لهذه المشاعر ضد اليهود !

ومن مشاكل السلام التى يفزع لها يهود إسرائيل والعالم ، أن اليهود العرب سوف يعودون إلى البلاد العربية التى جاءوا منها ، فهم يشعرون فى إسرائيل بالغربة وبالتفرقة العنصرية . فالأقلية البيضاء هى التى تحكم إسرائيل . . أكثر الطبقة الحاكمة من روسيا وبولندا وألمانيا . . أما الأغلبية فهم شرقيون أى أفارقة أو آسيويون أو من أوروبا الغربية مثل أسبانيا والبرتغال . . وهؤلاء اليهود الشرقيون هم الأغلبية الساحقة فى الجيش الإسرائيلى ، أى الذين يحاربون ويموتون ويعيشون فى الصحارى . . بينما اليهود البيض يعيشون فى المدن . .

وفى نفس الوقت هناك يهود آخرون ينعمون بالسلام والرخاء فى أمريكا

وأوروبا . فلماذا يعيش اليهود الشرقيون ويموتون من أجل الآخرين . . إن هذا يتناقض مع مبادئ الدولة اليهودية : دولة المساواة بين كل اليهود من كل لون ومن كل طبقة . الدولة التى ساعدتها روسيا أول الأمر لتكون نموذجا « للدولة الشيوعية » المتطورة . . أما هذه الدولة الآن فقد أصبحت دولة رأسمالية عنصرية عسكرية فى الدرجة الأولى !

فهؤلاء اليهود الشرقيون إذا عادوا إلى بلادهم الأخرى فإنهم يقومون « بتفريغ » إسرائيل تماما ، ويضعون اليهود الغربيين فى مأزق لم يتوقعوه . لأن عليهم أن يقوموا بالقتال وبالأعمال اليدوية كزراعة الأرض والعمل فى المصانع ، وشراء قوات أجنبية مرتزقة تدافع عن أرضهم المقدسة !

والمنظمات الفلسطينية هى التى توسلت إلى كل الدول العربية . . أن تسمح لليهود العرب أن يعودوا إلى بلادهم . وقد وافقت العراق والسودان ومصر على ذلك . أما المغرب ففيها ألوف اليهود منذ مئات السنين . وكان هدف المنظمات الفلسطينية هو تخفيف الضغط على العرب فى إسرائيل أو على العرب فى الشرق الأوسط .

واليهود الشرقيون فى إسرائيل يعانون من ويلات التفرقة العنصرية والخلافات الطائفية . .

ويعانون أيضا من مشاكل الإسكان ، ويحلمون بأن يعودوا إلى بلادهم العربية . . فهم فى مصر لم يلقوا اضطهادا ولاتعذيبا ، على خلاف ماأصابهم فى العراق وسوريا . .

ويخاف اليهود أيضا من الحدود المفتوحة بينهم وبين العرب ، بينما كان اليهود يحلمون بألا تكون هناك حدود بين الشعوب . فالكاتب اليهودى « يورى » فى روايته « الخروج » يصف سعادة البطل عندما دخل إسرائيل لأول مرة ، كانت سعادته مطلقة عندما لم يسأله رجل الجوازات عن أى شىء . . لا عن اسمه ودينه ولونه ، ولا الجهة التى جاء منها والمكان الذى يريد أن يقيم فيه . . إنما يكفى أنه يهودى جاء إلى جنة اليهود !

ولكن الخوف من الحدود المفتوحة سوف يؤدى إلى دخول العرب ، وهم أغلبية ، ودخول رءوس الأموال العربية التى دخلت كل الدول الأوربية والأمريكية ، وإلى ضياع القطاع العام والقطاع الخاص . . ثم يحاول اليهود أن يثيروا الفلسطينيين على مصر ، فيقولوا : إذا تم الصلح مع مصر فسوف يجىء العمال المصريون ، وسوف تنخفض الأجور ، ويكون العمال الفلسطينيون هم الضحية الأولى ، والعمال اليهود هم الضحية الثانية . .

ولكن هناك مغالطة : فصاحب رأس المال لايهمه دين ولا لون العامل ، إنه يريد التكلفة الأقل . ولذلك يشجع على استيراد العمال الأرخص . حدث هذا فى استراليا . . فقد سارت استراليا على « السياسة البيضاء » أى أن استراليا للبيض فقط ، فلا يدخلها آسيوى أو أفريقى ، ولكن تسلل الصينيون إلى استراليا ، والحقيقة أنهم لم يتسللوا . . إنما أصحاب رءوس الأموال قد أتوا بهم لأنهم أرخص ، مما يضاعف أرباح أصحاب رءوس الأموال . ورأس المال لادين له ولا لون ، فلا خلاف بين مليون دولار يملكها مصرى وبين مليون دولار يملكها يهودى ، كلاهما غنى وكلاهما يريد أن يكسب . . وكلاهما يؤمن بفلسفة واحدة . ومن هنا كان أصحاب الملايين من كل لون وكل دين وكل أرض : طبقة واحدة !

وعدد العمال الفلسطينيين الذين يجيئون من الضفة الغربية ويعملون فى إسرائيل . . حوالى مائة ألف — إن الشعب الفلسطينى هو الذى يبنى إسرائيل . .

وهناك من يقول : إن الجريمة سوف تنتشر فى إسرائيل ، وسوف يكون مصدرها مصر . لأن الذى يقرأ الصحف المصرية يحسب أن الناس تأكل بعضها البعض ، وأن مصر قد حلت أزمة اللحوم ، بأن تحول بعضها إلى آكلى لحوم البشر مع أن الصحف الإسرائيلية تشكو من ارتفاع نسبة الجرائم ، ومن انتشار المخدرات التى يقومون بتهريبها إلى لبنان والأردن .

ويجدون لذلك تفسيرا مقبولا عندهم : وهو أن المجتمع الإسرائيلى غير متجانس ، وأن ثلاثين عاما لاتكفى لأن يتوافق ثلاثة ملايين يتحدثون ثمانين لغة

وجاءوا من مائة دولة . وأن إسرائيل محتاجة إلى وقت طويل لكى تصهر هذه الخلافات بين مواطنيها ، وأن عملية الصهر هذه يجب أن تكون على نار هادئة ، وليست على نيران الحروب ، وهو عذر تسوقه إسرائيل لشعبها لعله يقبله .

ولكنها فى نفس الوقت عندما تتحدث عن التوافق بينها وبين العرب ترى أن هذا يجب أن يتم بسرعة . وأن تدخل فى اتفاقيات السلام والعلاقات الطبيعية ، وتنسى إسرائيل أنها إذا كانت عاجزة عن « تطبيع العلاقات » بين أبنائها من اليهود فى ثلاثين عاما ، فكيف تحقق ذلك بين أعدائها من مئات السنين ، فى يوم وليلة ! !

وهناك من يخافون من استحالة ذلك . . ويرون أن إسرائيل ستعود مرة أخرى . إلى أن تكون « حارة لليهود » محاطة بالأعداء . . رغم كل محاولات السلام وإنهاء الحروب ، إنها تخاف من أن يعود الشرقيون اليهود إلى الشرق . وتظل الأقلية اليهودية الغربية منبوذة بين الأغلبية الشرقية اليهودية والإسلامية والمسيحية !

* * *

ولم تصل إسرائيل حتى الآن إلى تعريف لمن هو الشخص اليهودى ؟

وأبسط الإجابات تقول : إن اليهودى هو من كانت أمه يهودية !

فالأب لايهم دينه ، سواء كان مسلما أو مسيحيا أو ملحدا !

وسؤال آخر : حتى إذا كانت الأم يهودية ملحدة ؟

ويكون الجواب : حتى إذا كانت ملحدة .

ولكن رجال الدين يقولون : بل لابد أن تؤدى الطقوس الدينية المعروفة . .

ويكون اعتراض : إن هذا تدخل فى حرية الاعتقاد ، فنحن لم نأت من كل بلاد العالم ليقوم رجال الدين بالحجر على حرياتنا !.

ولم ينته النقاش حول هذه النقطة .

ولكن يبدأ نقاش آخر : فإذا كانت هذه الأم اليهودية قد انحدرت من أم مسيحية كانت قبل ذلك يهودية . ثم اضطرت لظروف خارجة عن إرادتها أن تغير دينها . فهل تصبح يهودية بعد ذلك ؟ !

الجواب : لقد حدث ذلك لمئات الألوف من اليهود ، ومع ذلك فالعبرة بما فى نفوس الناس ، وربنا رب قلوب !

اعتراض آخر : وإذا كان زواج هذه الأم أو أمها أو جدتها مدنيا ، فهل تصبح الذرية كلها يهودية ؟ !

رجال الدين يقولون : مستحيل . بل هم كفرة مسلمون أو مسيحيون .

ويقول رجال السياسة : بل يهود . فلم يكن من الممكن أن يتزوج الناس قانوناً وحياتهم كلها خائفة وخارجة على القانون !

سؤال آخر : وإذا كان الأب يهوديا وكانت زوجته مسيحية ثم تهودت ، فهل الأبناء يهود ؟

رجال الدين : لا . . بل الأبناء جميعا كفرة ، وليس هذا زواجا بل إنه نوع من الزنا ، حتى لو تم عقد الزواج مدنيا !

ورجال السياسة يقولون : بل هم جميعا يهود !

قضية كبرى أثيرت فى الكنيست وفى المحكمة العليا ، واضطرت الحاخامين اللذين يحكمان مذاهب إسرائيل أن يتكلما لأول مرة من ثلاثين عاما : أحد اليهود جاء هاربا من معسكرات الاعتقال النازية . هذا الهارب قد تحول عن اليهودية رغم أنفه ، وأصبح راهبا قسيسا كاثوليكيا ، ثم عاد إلى إسرائيل ، هل هو يهودى ؟

رجال الدين قالوا : مستحيل . إن الذى لعن اليهود فى صلواته فى الكنيسة لايمكن أن يكون يهوديا . إنه مسيحى كافر !

ورجال السياسة : بل يهودى . . بل إسرائيلى . إن الضرورة لها أحكام ، ومن أحكام الضرورة أن يدخل اليهودى فى أى دين وأن يتظاهر به . وأن يحرص على دينه الحقيقى تحت ملابسه !

ثم ماقول رجال الدين والدنيا فى « جماعة » يهودية متطرفة ترى أن الحرب حرام . . والجيش حرام ، وأن قيام دولة إسرائيل حرام ، وعلى ذلك يجب ألا يتعاون معها أحد ؟ . . وهى حرام لأن التوراة تقول إنه سوف يجىء المسيح — الذى

لم يأت بعد فى رأيهم – ليعلن قيام هذه الدولة . كل هؤلاء ليسوا يهودا !

* * *

ومشكلة اليهود ، هى مشكلة الأقليات التى يدفعها الخوف إلى التعصب . . أو يدفعها الخوف إلى أن تلوذ بالأغلبية وتذوب فيها طلبا للحماية والبقاء . ولذلك كان الزواج المشترك بين اليهود وغيرهم من الديانات الأخرى ، مما يتنافى مع أسس قيام الدولة اليهودية . فأساس إسرائيل : أن تكون دولة يهودية لليهود يمارسون فيها حياتهم تماما كما نصت عليها التوراة و « التلمود » . وعلى الرغم من أن اليهود قد كرهوا « حارات اليهود » فى العالم كله . . فهم حريصون على أن يعيدوا « حارة اليهود الكبرى » – أى إسرائيل !

واندهش العالم كله فى يناير ١٩٧٨ عندما فوجئوا أن عددا من يهود بريطانيا قد تقدموا لشراء ألف فدان فى شمال انجلترا ليقيموا عليها « مستعمرة يهودية » أو « حارة لليهود » يمارسون فيها الدين على حريتهم دون أن يختلطوا بأحد من الناس – أى من المسيحيين . . والغريب أن يهود بريطانيا لايلقون اضطهادا أو تعذيبا أو اعتراضا من أحد . ولكنها الطبيعة اليهودية : العزلة المتعالية . . أى ينعزلون عن الناس خوفا منهم وتعاليا عليهم !

والخوف من اليهود الشرقيين ، والخوف عليهم ، هو عقدة الطبقة الحاكمة فى إسرائيل فالطبقة البيضاء الحاكمة أجانب عن الشرق الأوسط . إنهم أوروبيون . . خواجات . . وليس لهم الحق فى أن يطالبوا بإسرائيل الشرقية الآسيوية .

وكانت صحيفة التايمز البريطانية قد نشرت أنها عثرت على مخطوطة ترجع إلى القرن التاسع الميلادى . هذه المخطوطة تسجل كيف تحولت قبائل الخزر إلى الديانة اليهودية . . وقبائل الخزر تسكن بين بحر قزوين والبحر الأسود . وكلهم من القوازق الحمر . . وهؤلاء اليهود هم الذين هاجروا إلى أوروبا ، ومنهم ولد كل يهود أوروبا الشرقية ! وهم اليهود « الأشكنازيم » . .

وهذا ماأثبته قبل ذلك الكاتب اليهودى العظيم أرثور كيستلر فى روايته التى

نشرناها مسلسلة فى مجلة « أكتوبر » بعنوان « القبيلة الثالثة عشرة » ، وهى تؤكد أن يهود إسرائيل الخواجات لاحق لهم فى أن يطالبوا بإسرائيل ، وكان د . بطرس غالى قد اقترح علينا أن ندعو الكاتب البريطانى المجرى الأصل كيستلر لإلقاء محاضرات فى مصر . وهو كاتب عظيم ، وأرسلنا إليه ، وأسعده ذلك ، ولكنه اعتذر فى ذلك الوقت بمرضه . ولكننا سوف ندعوه . وهو أروع كتاب اللغة الإنجليزية فى القرن العشرين . .

وخوف آخر فى إسرائيل : أن التمزق بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين سوف يدفع عرب إسرائيل (نصف مليون) إلى التمرد أيضا ، أو تعميق الشعور القومى عندهم فى الوقت الذى يؤدى فيه السلام مع العرب إلى « تفريغ » إسرائيل من اليهود العرب . .

وخوف آخر من أن اليهود إذا أعطتهم أمريكا معونات ضخمة فسوف يتضاعف التضخم فى إسرائيل . فالتضخم الآن قد بلغ ٤٠٪ ولكن مع تدفق رءوس الأموال الأمريكية ، سوف يختل الميزان التجارى . . فى نفس الوقت الذى نجد فيه إسرائيل تحاول أن تضغط ميزانيتها لكى تقدر على دفع المعاشات والتأمينات الاجتماعية ورفع الحد الأدنى للأجور .

وخوف أعمق : هو أن تتقارب أمريكا مع مصر . . وبدلاً من أن تكون طرفاً كاملاً ، تصبح صديقا أكبر وأقرب إلى مصر !

والخوف من أن تفقد إسرائيل مصدرا هاما للوقود بعودة آبار البترول إلى مصر . فقد عادت إلى مصر بعد فك الاشتباك الثانى حقول أبو رديس ، وكانت تفى بـ ٥٥٪ من احتياجات إسرائيل ، ثم راحت إسرائيل تنقب فى المساحة المخصصة لإحدى الشركات الأمريكية فى خليج السويس .

ثم عثرت على الغاز الطبيعى عند شواطئ رفح ، ومضت إسرائيل تستغل هذه الآبار استغلالا تجاريا .

وقد أرسلت لها وزارة الخارجية الأمريكية مذكرة عنيفة فى يناير سنة ١٩٧٧ ،

تنبه إسرائيل إلى أنها قد خرقت القوانين الدولية ، فليس لها الحق فى أن تستغل هذه الآبار المصرية ، لأن مقررات محكمة لاهاى تنص على : أن القوات المحاربة لها حق الاستفادة من المرافق العامة بما يفى باحتياجاتها الضرورية – أى لايحق استنزاف الموارد أو التجارة فيها . .

* * *

كما أن المحكمة الدولية العسكرية فى نورنبرج سنة ١٩٤٦ قد أكدت هذا المعنى ، وأضافت أن « هذه حقوق اعترفت بها كل الشعوب المتحضرة » ! !

وغالطت إسرائيل فى مذكرة تقول : إن هذه المقررات تنطبق فقط على القوات المقاتلة . . أى القوات التى هى فى حالة قتال ، ولكن الأوضاع فى سيناء مستقرة تماما منذ سنة ١٩٦٧ . ولذلك فهذه الأحكام والمقررات لاتنطبق على جيش الدفاع الإسرائيلى !

وعادت وزارة الخارجية الأمريكية تقول : إن قوات الاحتلال العسكرية ، سواء كانت متحركة أو متمركزة . . هى قوات احتلال مقاتلة ، ويجب ألا تستغل العقارات أو المنقولات أو الثروات الطبيعية إلا بقدر احتياجها فقط . . وأن ملكية هذه الآبار لمصر . معترف بها دوليا . .

* * *

ورغم أن إسرائيل فى حاجة إلى السلام أكثر من حاجتنا نحن ، فهم خائفون من الحرب ، وخائفون من السلام ، وخائفون أبدا . قد أعطاهم الله الكثير ، وأخذ منهم الكثير .

ولذلك فهم أكثر الناس عذابا وحرمانا فى العالم كله ، وفى إسرائيل بالذات . فهم أجانب فى كل بلد وفى كل أرض . وهم حريصون على تأكيد هذا المعنى . لأنهم لايريدون أن يذوبوا فى الآخرين . إنما عليهم أن يواجهوا التيارات السكانية والاجتماعية والسياسية والدينية . أى أن يكونوا دائما فى مهب الريح . . ثم يطلبوا الأمان والسلام : أى يطلبون الماء فى النار ، ويطلبون الهدوء فى العواصف ،

ويطلبون الحب فى جزيرة الكراهية !

والخوف هو الذى دفعهم إلى المساومة فى التجارة والسياسة . إنهم يخافون أن يخسروا . أن ينقصوا . أن يتراجعوا .

* * *

إن قصة معروفة للكاتب الروسى اليهودى شالوم رايبتوفتش الشهير باسم « سلام عليكم شالوم عليخم » . يقول إنه من الصعب أن يكون الإنسان يهوديا . ويروى أن أحد لاعبى القمار اليهود خسر كل أمواله . فأرسل خاتما من الماس إلى يهودى آخر . . يقول : هذا الخاتم يساوى ألف جنيه . ادفع المبلغ وخذه . حلال عليك .

ورده اليهودى الآخر قائلا : لايساوى أكثر من ٨٠٠ جنيه ، ولن يشتريه أحد بأكثر من ذلك .

فأعاده إليه يقول : لن أبيعه بأقل من ٩٠٠ جنيه . إذا لم توافق فابعث به فورا . .

وجاءته علبة صغيرة ملفوفة بأناقة ومعها هذا الخطاب : لن أدفع أكثر من ٨٥٠ جنيها . فإن وافقت فلا تفتح العلبة . . وسوف أبعث لك بالفلوس حالا . وإن لم توافق فأرجو أن ترد هذه العلبة دون أن تفتحها !

فتضايق المقامر جدا ، وفتح العلبة ليجد فيها هذه العبارة : موافق على شراء الخاتم بألف جنيه !

وهى نكتة ولكنها حقيقة تدل على ضرورة أن يساوم اليهود فى السياسة والتجارة ، وكلها شطارة !

إن اليهود فى إسرائيل أفاقوا من « صدمة السلام » فوجدوا العالم كله ضدهم . ويستحلفهم ألا يضيعوا هذه الفرصة . فقد عاش العرب ثلاثين عاما فى مرحلة « الفرص الضائعة » على الجميع ، وكان مناحم بيجين أول من أخذته هذه الصدمة ، فقد أتت به انتخابات سنة ١٩٧٧ كرجل حرب . وكرجل وعد بأن تقف

إسرائيل قوية دون عون من أمريكا ، ووعدها بأن تكون قادرة على رد العرب وردعهم فى أى وقت تشاء !

* * *

وفجأة هبط عليه السادات . . وكان بيجين فى نصف ملابسه العسكرية . . وكان عليه أن يغيرها فورا ليواجه المد العالمى للسلام !

وحاول بيجين أن يحارب آخر معاركه وهو ينسحب . فقد كانت مفاوضات كامب دافيد هى « الخندق الأخير » فى حرب السلام مع مصر ومع العرب ومع العالم كله . .

وكانت المساومات على كلمة وعلى حرف . . بل إن عبارة واحدة قد أعيدت صياغتها عشرين مرة . وكان أساس التغيير هو ترتيب بعض الكلمات ! !

وقد عرفنا ذلك فى فض الاشتباكين الأول والثانى ، وكان كيسنجر يشكو من ذلك ، ولكن وجده طبيعيا .

وأخطر من ذلك كله أن السلام يقضى على أساطير دينية اتخذت شكل الحقيقة السياسية ، وهى أن إسرائيل الكبرى هى « أرض المعاد » فهم الذين اخترعوا ذلك ، وفرضوه على العالم كله ، وصدقهم العالم ، وصدقوا هم أيضا ما يقولون . ولم يكن من أحلام مؤسسى الصهيونية أن تكون أرض المعاد فى فلسطين ، بل قالوا فى استراليا ، وقالوا فى أوغندا ، وقالوا فى سيناء ، وقالوا فى جنوب أفريقيا — أية أرض .

وبعد ذلك اخترعوا لأنفسهم الأكاذيب السياسية . . وهم قادرون على ذلك بمايملكون من أجهزة الإعلام والإعلان : فقد أقنعوا العالم كله بأن هتلر قد أحرق منهم أربعة ملايين . وقد صدرت أخيرا كتب يهودية تؤكد أن هذا الرقم مبالغ فيه ، وأن هتلر لم يحرق إلا الخصوم من كل دين ومن كل لون سياسى .

وهم الذين يقولون ذلك . كما أنهم الذين يقولون إنه لاحق لهم فى أرض إسرائيل !

وفى إسرائيل من يطالب الشعب اليهودى بأنه لاداعى لأن يبكى على « حائط المبكى » لأنه أصبح فى حوزتهم ، ولكن رجال الدين يرون أن البكاء ضرورى لتعميق الشعور بجريمة الشعوب الأخرى ، والحرص على الحائط حتى لايضيع مرة أخرى . . وهم الآن مطالبون بالانسحاب من القدس العربية ، باعتبارها جزءا من الضفة الغربية !

وإسرائيل لاتمانع مطلقا فى أن تتحول الحرب بيننا وبينها إلى حرب دينية . حرب بين المسلمين واليهود ، كالحرب التى بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، وبذلك تلتقى كل عناصر الدمار فى الشرق الأوسط . . الحرب الدينية والحرب البترولية ، وتبقى إسرائيل على ماهى عليه ، وسوف تقف وراءها أمريكا دائما !

* * *

إنهم خائفون من السلام ، لأنها دولة قامت على : أنه لاسلام مع غير اليهود .

إنهم خائفون من السلام : لأن إسرائيل أخذت الأرض بالحرب ووسعتها بالحرب ، وجمعت المعونات من أجل الحرب ، ولأنها حملت السلاح لكى ترفع من قدر السلاح الأمريكى على السلاح السوفييتى !

وقد توهم الكثيرون من الأشقاء العرب أن إسرائيل سوف تبلعنا إذا نحن تصالحنا معها . . ولكن ماالذى استطاعه السوفييت فى مصر وكانوا ١٧ ألفا ؟ . . ماالذى ابتلعه الأمريكان والفرنسيون والإنجليز فى مصر ونحن قد شاركناهم فى مشاريع كثيرة ! . .

إنهم لم يبلعونا عسكريا ، ولم يبلعونا سياسيا . . فما الذى يخيفنا منهم ؟ . . إنهم أكثر خوفا منا . لأنهم – هم أيضا – قد أقاموا حساباتهم على أن مصر لم تتقدم ولم تتطور ، ولكن لم يعد ذلك رأيهم بعد حرب أكتوبر وبعد أن جاءوا إلى مصر . . وبعد أن جلسوا إلى مصريين ، وبعد أن وقف العالم معنا ضدهم ، لأن العالم كله مع السلام وليس مع الدمار الذى تشكو منه إسرائيل قبل أية دولة أخرى !

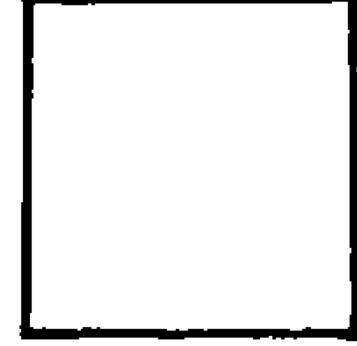
إنهم لن يستطيعوا أن يقفوا ضد العالم كله . . فالعالم بعد أن كان معهم أصبح

ضدهم ، وعليهم أن يكسبوا الدينا بعد أن خسروها . وبعد أن أصبحت أمريكا طرفا ثالثا ، وليست محاميا لإسرائيل فى الحق وفى الباطل . .

لقد استوقفتنى عبارة شاعرية جاءت فى كتاب صدر فى أمريكا بعنوان « يهود اليوم » للكاتب اليهودى إيلى ويسلى . . يقول : « لقد عرف اليهود كل صور العذاب والمعاناة والقسوة . لقد عرفوها وحفظوها ونقلوها إلى أولادهم . . عرفوا ماحدث فى ميونخ وما حدث فى معالوت وفى عنتيبى . . وفى الطائرات المخطوفة وفى السيارات المنسوفة ، حتى كانت زيارة السادات للقدس . لقد كانت شيئا غير عادى لا لأنه زعيم مصرى فقط . .

ولكن الشىء غير العادى أيضا هو استقبال الشعب اليهودى له . . لقد تجمع الناس فى كل الشوارع ، سعداء يضحكون ويبكون ويهتفون – ومن بينهم أرامل ويتامى – وهذا الرجل السادات ، هو الذى قتل أزواجهن وآباءهم ، إنه أيضاً الرجل الذى جاء إلى القدس وملأ القلوب بالأمل فى ألا يموت زوج أو ابن ، هذه هى المعجزة . وأروع مافى هذه المعجزة أنها معجزة إنسانية . . ربما آخر معجزات الإنسان ! » .

ولذلك يجب أن نحققها بالقوة . . قوة الإيمان بضرورة السلام ، وقوة احتمال مشاكل الطريق إليه . .



هل هى مرحلة ثامنة للسلام ؟!

تحاول الحكومة الإسرائيلية أن تدق الشعب اليهودى على رأسه . . لعله يفيق من « نشوة » مبادرة السلام ، وتحاول أن توقف التيار الهائل الذى يحتشد وراء مصر فى دعوتها من أجل السلام ، ومن أجل السيادة على الأرض ، ومن أجل أن يكون للشعب الفلسطينى وطنه وسيادته عليه . .

وأساليب الحكومة الإسرائيلية كثيرة . من بينها تحويل العيون عن المبادرة وشغلها عن متابعتها ، وإيهام العالم بأنها متساهلة ومصر متشددة .

ولكن العالم أقوى من حكومة إسرائيل . .

فهل تكون هناك مرحلة ثامنة لعملية السلام ؟ كيف ؟ ومتى ؟ ومن الذى يجلس فى مواجهة الرئيس السادات عند التوقيع النهائى على السلام بين مصر وإسرائيل . . وبين إسرائيل وكل العرب ؟ . .

المرحلة الأولى : المبادرة

وهى التى يحلو للرئيس السادات أن يصفها بالمرحلة « الرومانسية » . . لأنها حالة من الحلم والخيال والنشوة والأمل والغرابة والمعجزة تستولى على الإنسان فلا يدرى إن كان فى هذا العالم أو فى العالم الآخر . .

حتى الرئيس السادات نفسه يقول : إننى لم أفق من هذه النشوة الغامرة إلا بعد أن عدت إلى القاهرة !

وإذا كان ظهوره على سلم الطائرة المصرية فى مطار بن جوريون « صدمة » انتشت لها الملايين ورقصت وغنت فى الشوارع ، فإن ظهوره فى الكنيست صدمة من نوع آخر . .

وإذا كانت زيارته هى قمة الرومانسية ، فإن خطبته فى الكنيست هى قمة الواقعية .

وترددت كلمة « المعجزة » على ألسنة الشعب اليهودى فى إسرائيل وفى العالم . . وعاد اليهود إلى التوراة والتلمود يبحثون عن نبوءة تؤكد معنى هذه الزيارة التى تسبق الخلاص من الخوف ومن الحرب ومن الموت . .

واليهود يرون أن خروجهم من مصر وراء موسى عليه السلام : معجزة . .

ويرون دخولهم إلى أرض كنعان بعد أربعين سنة من الضياع فى سيناء : معجزة . .

ويرون أن وعد قورش ملك الفرس بأن يدخل اليهود القدس مرة أخرى ليبنوا المعبد الذى هدمه البابليون : معجزة .

ويرون أن وعد اللورد بلفور الذى جاء بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرنا : معجزة – فقد أرسل اللورد بلفور خطابا إلى اللورد روتشيلد فى نوفمبر سنة ١٩١٧ يعده بأن يكون لليهود وطن فى فلسطين .

وقيام الدولة التى تضم عشرات الشعوب بعشرات اللغات : معجزة .

ويرون أن انتصارهم على مصر فى سنة ١٩٦٧ هو قمة المعجزة ، فقد أرادت مصر أن تقضى عليهم وأن « تلقى بهم فى البحر » . .

ويرى اليهود ، مؤمنين وملحدين ، أن مبادرة السادات فى نوفمبر ١٩٧٧ . . معجزة المعجزات ، فلم يتوقع أحد أن يقوم زعيم أكبر دولة معادية لإسرائيل فيقطع المسافة بين مصر وإسرائيل فى ٣٠ دقيقة ليبقى بإسرائيل ثلاثين ساعة لينهى حروب

ثلاثين عاما ، وأحقاد ثلاثين قرنا منذ خروج اليهود من مصر فى عهد رمسيس الثانى . .

وإذا كان اليهود يرون أن مجيء إحدى السفن البريطانية وإنزالها الطعام والذخيرة للعصابات اليهودية التى تستعد لقيام الدولة الجديدة معجزة وإذا كانوا قد نظموا عشرات الدواوين عن هذه السفينة التى رأوا فيها سفينة نوح الجديدة ، فإن طائرة السادات عندما هبطت القدس هى سفينة نوح الجديدة التى تحمل نوعا واحدا من الكائنات : حمامات السلام ، ونوعا واحدا من النباتات : أشجار الزيتون ، وأملا واحدا لكل العصور : أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب !

وقد نقلت هنا آخر عبارة لأحدث كتاب صدر فى إسرائيل عن « يهود اليوم » يقول المؤلف إيلى ويسلى : « النساء اللائى وقفن فى شوارع القدس يصفقن ويغنين ويبكين فرحا برؤية السادات ، هن الأرامل اللائى قتل السادات أزواجهن . ، والشباب الذى رفع الأعلام للسادات هم اليتامى الذين قتل السادات آباءهم ، ولكنهم قد نسوا ذلك تماما . . فهم جميعا لايريدون حربا بعد حرب أكتوبر . . وهذه هى المعجزة فى عصر انتهت فيه المعجزات ، ولكن عظمة هذه المعجزة ، أنها المعجزة الإنسانية . . فهى شيء فوق العقل ، ولكنها تمت بالعقل ، ويمكن تحقيقها بالعقل أيضا ، وهذا مايعطى لهذه المعجزة معنى جديدا ، فلنحقق معجزتنا لإنقاذ انسانيتنا » .

والفرق بين الحدث العادى والمعجزة هو كالفرق بين المشى والطيران ، بين الهبوط على الأرض والهبوط على القمر ، بين النثر والشعر . .

وقد سجلت شركات الاسطونات هذا الحدث ، وفى هذه الاسطوانات لاتجد فارقا بين صوت السادات فى مجلس الشعب وصوته فى الكنيست : نفس القوة . ونفس الإصرار على تحرير الأرض العربية والقدس والضفة الغربية وغزة .

وظل الملايين سعداء بما رأوا ، أو بما لم يكن أحد يحلم بأن يراه ، بينما دخل السياسيون فى الاقتراب والتعرف على الزائر الجريء . وكان الزائر الجريء أيضا ينظر

إليهم يتفحصهم واحدا واحدا .

بل إن الرئيس السادات قد بدأ ذلك منذ اللحظة الأولى وهو يصافح مستقبليه فى المطار . وأذيعت فى الدنيا كل كلمة قالها وكل ضحكة أطلقها ، والعالم لا يصدق إن كان هذا الذى يراه أو يسمعه واقعا أو خرافة ؟

وفى العشاء الذى أقيم فى فندق «كينج دافيد» جلس موسى ديان على يمين السادات ، وجلس بيجين على يساره وعيزر فيتسمان فى مواجهته ، وهم جميعا يرصدون كل حركة وكل كلمة . إنها فرصة نادرة ، وبسرعة فائقة عرف الرئيس السادات نوعية المتحدثين إليه .

ففى مواجهته جلس عيزر فايتسمان ، وهو مليء بالحيوية . . ومثل كل الطيارين مندفع ، ولكن الرئيس السادات أحس أنه أقربهم إلى عقله وإلى قلبه أيضا ، وكان أسرع الجميع فى فتح النقاش أو الاقتراب من الهدف من هذه الزيارة التاريخية ، وسأل الرئيس السادات : كيف تحل مشكلة الأمن ؟

واستراح الرئيس السادات إلى هذا السؤال ، لأنه انتقال سريع إلى قلب المشكلة .

وكان رد الرئيس السادات : يجب أن نحدد المشكلة أولا ، وأن نعرف حجمها . وتحديد المشاكل حجما ووزنا هو نصف الطريق إلى حلها . .

واتجه الرئيس السادات إلى موسى ديان وقال له :

– ياموسى .

– نعم .

– أنت الذى أقمت مستعمرة ياميت ؟ . .

– نعم .

– ما الذى قصدته بإقامة هذه المستعمرة ! .

– لاشيء . إنها أرض أقامت عليها بعض العائلات . .

– ألم يكن الغرض من هذه المستعمرة هو الفصل بين سيناء وقطاع غزة ؟

أو حماية جناح الجيش الإسرائيلى فى شمال سيناء ! . .

– لاشىء من ذلك . .

– وليست لها أية دلالة أخرى عندك ؟

– ليست لها أية دلالة خاصة ! .

– إذن فلعلمك لست مستعدا لأن أتناقش فى أى شىء يتعلق بالمستعمرات التى أقيمت على الأرض المصرية ، تماما كما ذكرت فى الكنيست . .

وبعد ذلك عاد الرئيس السادات يقول لموسى ديان : عندما اختارك بيجين وزيرا لخارجيته فرحت وقلت أنت الرجل الذى سوف يحقق السلام ، لأنك وعيت تماما درس حرب أكتوبر ؟

قال ديان : أرجو أن تقول ذلك لرئيس الوزراء !

وعند توديع الرئيس السادات فى مطار بن جوريون طلب إليه وزير العدل الإسرائيلى : لو بقيت يومين آخرين يارئيس سادات لأعطيتك نص اتفاقية السلام .

ورد عليه الرئيس السادات ضاحكا : ولكن يؤسفنى أننى لا أحمل فى جيبى مكافأتك على كتابة هذه الاتفاقية !

المرحلة الثانية : القاهرة

أو مؤتمر القاهرة التحضيرى للمؤتمر الكبير فى جنيف . . أو إذا استعرنا اللغة التى استخدمت أثناء المبادرة وبعدها . . فإن هذا المؤتمر يوصف بأنه محاولة للهبوط الهادئ على سطح الأرض ، فقد باعدت المبادرة بين رءوسهم وأقدامهم . .

بل كانت الرءوس فى السماء والأقدام بعيدة أيضاً عن الأرض . .

وكانت الحكومة الإسرائيلية قد بدأت ذلك بعد المبادرة مباشرة ، فلم تتوقف عن إلقاء الماء البارد على مشاعر الشعب اليهودى ، ووضع الفرامل على مظاهراته ومحاضراته وقصائده وأغانيه .

وفى التاريخ اليهودى مئات المواقف التى هزت الشعب المعذب المطرود المضطهد فى كل أرض ، فلايكاد يظهر واحد يبشره بالخلاص حتى يلتف الناس حوله وينسوا طعامهم وشرابهم وأولادهم .

وقد نشرت الصحف الإسرائيلية أن السادات لو رشح نفسه فى إسرائيل لانتخبه الشعب كله ، وقيل أيضا لو رشح السادات نفسه فى أمريكا لاختاره الشعب رمزا وداعية ومحققا للسلام العالمى . .

ولم تفلح حكومة إسرائيل فى تحديد إقامة الأحلام والخيال فى رءوس الناس . ولكنها مضت تحاول . .

المرحلة الثالثة : الإسماعيلية

ولكن قبل أن يجىء مناحم بيجين إلى الإسماعيلية سافر إلى واشنطن ، والتف الناس حوله يسألونه ماالذى سوف يفعله من أجل السلام ، بعد أن جاءه زعيم الدولة التى انتصرت فى حرب أكتوبر ، وبعد أن تأكد للعالم كله أن السادات رجل يريد السلام ، وبعد أن آمن الشعب اليهودى أيضا بأن السلام ممكن ، وأنه ككل طريق طويل يبدأ بخطوة قصيرة ؟ . .

ولم تكن خطوة السادات قصيرة . . بل إنها خطوة إلى كل العواصم التى تعانى من ويلات الحروب ، ودعوة لأن يفعل العالم كله مثلما فعل : الاتصال المباشر والحوار .

والتقى مناحم بيجين بالرئيس الأمريكى السابق كارتر ، وأعلن بيجين أن أفكاره قد أيدها الرئيس الأمريكى ، ثم أعلن أن رئيس وزراء بريطانيا قد أيدها أيضا ، ولكن مصر لم تعلم فى ذلك الوقت شيئا واضحا عن الذى عرضه بيجين على رؤساء الدول التى توقف عندها ، غير أنه طلع على العالم فى ذلك الوقت بتعبير جديد هو « الحكم الذاتى » للضفة والقطاع . .

وكان بيجين حريصا على أن يؤكد للعالم كله أنه مادام الرئيس السابق كارتر قد وافق على الأفكار التى عرضها عليه ، فهو لا يستبعد أن يوافق الرئيس السادات أيضا . .

ولم تشأ مصر أن تعلق بشىء على ذلك حتى يصل بيجين إلى الإسماعيلية .

وجاء بيجين إلى الإسماعيلية ليرقص مئات الألوف من اليهود فى شوارع المدن الإسرائيلية . وحاول بيجين أن يجعل لهذه الزيارة طعم المبادرة التى قام بها السادات ، أو يجعلها تخفف من عنفها على المواطن الإسرائيلى أو على الرأى العام . .

ولذلك عندما جلس بيجين مع الرئيس السادات وحدهما عرض عليه بسرعة تشكيل لجنتين إحداهما عسكرية والأخرى سياسية ، ووافق الرئيس السادات على ذلك فورا . لأن أساس سياسته الجديدة : أن نجلس معا وأن نتناقش فى كل شىء . .

ولاحظ الرئيس السادات أن بيجين كان متشددا ، وأن موسى ديان كان أكثر مرونة .

فبيجين جاء يتلو ورقة بها أكثر من ثلاثين بندا عن « الحكم الذاتى » . وكان مفهوم الحكم الذاتى بمنتهى الوضوح ، ولايزال أيضا ، هو أن يبقى الوضع فى الضفة والقطاع على ماهو عليه ، ثم تقوم مصر بإعطائه نوعاً من « الشرعية » . .

وكان ذلك شيئا عجيبا حقا ، ولا يماثله إلا ماقاله بيجين نفسه فى مذكراته عندما تحدث عن « الحكم الذاتى » فى السجون الروسية والسجون النازية ، فهو يقول : إنه فى داخل هذه السجون يتمتع النزيل بالحكم الذاتى ، فهو الذى يغسل ملابسه ويحلق لحيته ، وهو حر فى أن يهتف لستالين أو لهتلر باللغة التى تعجبه ، ويرى بيجين أن السجن النازى أكثر تحضرا من السجن السوفييتى !

وظهر بيجين متشددا فى الإسماعيلية ، بل إنه عدل عن وعود كثيرة كان قد تقدم بها . .

وقبل ذلك أعلن فى مجلس الوزراء الإسرائيلى : أن زيارة السادات للقدس

لاتعنى أن يملى علينا شروطه !

وهو فى نفس الوقت كان يرد على الصحف الإسرائيلية والعالمية وعلى رجل الشارع فى إسرائيل الذى أحس أن بيجين يريد أن يغمض عينيه بالقوة حتى لايرى الشىء الباهر الجديد ، ويرد على الذين قالوا : إنه لم يستعد مطلقا للسلام . .

وعلى الذين قالوا : إن الانتخابات التى أتت به إلى الحكم كانت تقوم على جمع الشمل الشعبى والعسكرى والعالمى ، لمحاربة العرب دون سند من أمريكا ! ،

وعلى الذين يسخرون من أن تقف إسرائيل وحدها دون مساندة أمريكا !

ويصف الرئيس السادات ماحدث فى الإسماعيلية مستعينا باللغة التى ولدتها المبادرة فيقول : «كأن عددا من رواد الفضاء قد هبطوا على الأرض ، وكان هبوطهم عنيفا فأصابهم بعدد من الكدمات ولكن صاحبت هبوطهم موسيقى تصويرية عالية ، حتى لايشعر أحد بأن اصطدامهم بالأرض كان عنيفا ، ولكنى سمعت الصدمة العنيفة ، ورأيت الكدمات بمنتهى الوضوح ، وأعدت تقديرى للموقف بسرعة » .

وفى ذلك الوقت أطلقت الحكومة الإسرائيلية تعبيرات باهرة مثل : الحدود الدولية . . والسيادة الكاملة على سيناء .

المرحلة الرابعة : القدس

فى صباح ذلك اليوم نشرت مجلة « أكتوبر » حديثا مع الرئيس السادات ، فيه عبارة ظهرت فى العالم كله بمئات اللغات فى لحظة واحدة ، العبارة تقول : ليس عندى أمل فى أن تصدر إسرائيل فى اجتماع القدس إعلانا بالمبادئ !

واتصل الرئيس السابق كارتر بالرئيس السادات . .

وانعقد مجلس الأمن القومى فى القاهرة . .

وتأجلت الرحلة إلى القدس بضع ساعات ، وتوقفت أنفاس العالم كله ، فقد

كانت هذه « صدمة » جديدة استخدمها الرئيس السادات الذى وصفه الساسة والديبلوماسيون بأنه صاحب نظرية « الصدمات الديبلوماسية » . .

وفى مطار القدس ألقى وزير الخارجية المصرى كلمة كرر فيها ماسبق أن أعلنه الرئيس السادات ، ورأينا الساسة والصحفيين يمطون شفاههم ، لأن مصر لم تلن ولم تحد شيرا عن الذى أعلنه الرئيس السادات فى الكنيست . .

وفى اليوم التالى جلس الرئيس السادات فى استراحة القناطر الخيرية أمام التليفزيون ، يراقب جلسة الافتتاح : الوجوه كلها سعيدة ، والدنيا مضيئة .

وتحدث موسى ديان فى غاية النعومة والرقة ، وتحدث بلغة العصر : التفاهم والجلوس معا والاتصال المباشر والواقعية ومنطق الأحداث .

إنها نفس اللغة التى يسمعها العالم المتحضر ، فيوقن بأن إسرائيل تريد السلام حقا .

كلمة موسى ديان قطعة من الديبلوماسية الرقيقة .. يستحق عليها عشرة على عشرة وهذا تعبير الرئيس السادات وهو يراه ويسمعه . .

ولكن عبارة واحدة جاءت فى خطابه جعلت الرئيس السادات يعيد تقدير المواقف بسرعة ، ويقرر فورا استدعاء الوفد المصرى ، فقد وضح أمامه كل شىء ، وتحقق ماتوقعه قبل ذلك .

فقد جاء على لسان ديان : أن كل اتفاق يجب أن يلتقى فيه الطرفان عند منتصف الطريق !

وفزع الرئيس السادات من هذه العبارة الناعمة ، لأن منتصف الطريق الذى يتحدث عنه ديان يقف على الأرض المصرية المحتلة ، ومعنى ذلك أن نقتسم مع إسرائيل أرضنا ، حتى لو قال ثلاثة أرباع الطريق ، فمعنى ذلك أن ربع الطريق سوف يبقى عند إسرائيل ، بل لو قال ٩٩٪ من الطريق . . لكان معنى ذلك أن ١٪ من الطريق سوف يكون فى حوزة إسرائيل !

وقادة حرب أكتوبر يتذكرون للرئيس السادات أنه كان يقول لهم : لو أخذت

عشرة سنتيمترات من الضفة الشرقية للقناة ، ووقفت عليها ثابتا ، لتغير وجه التاريخ ، أعطونى عشرة سنتيمترات واثبتوا فوقها ، وأنا أعطيكم سيناء كلها والأرض العربية المحتلة . . !

ومعنى ذلك أننا إذا استعدنا جزءا من أرضنا ، استعدناها كلها ، وإذا تركنا لليهود شبرا من أرضنا سلمنا لهم بكل الأرض . ولذلك فلا مساومة على أرضنا وعلى سيادتنا عليها !

وأبرق الرئيس السادات إلى الوفد المصرى : انتظروا تعليمات عاجلة .

ثم ذهبت التعليمات بضرورة عودة الوفد المصرى فورا .

وطلب وزير الخارجية المصرى أن يبقى الوفد حتى الصباح ، لأن الاتفاق وشيك ، وأن كل شىء يمشى فى الطريق الصحيح .

وكانت التعليمات مرة أخرى أن يعود الوفد قبل أن يطلع النهار ، لأن إسرائيل كانت قد ملأت الدنيا بأنها سوف تعلن المبادئ وأن هذه المبادئ وافق عليها سيروس فانس وزير خارجية أمريكا السابق ووزير خارجية مصر . فإذا حدث أن وافق وزراء الخارجية الثلاثة على ذلك ، أصبح موقف الرئيس السادات صعبا ، وأصبح تأكيدا لما أشاعته إسرائيل وأشاعه بيجين قبل أن يجىء إلى الإسماعيلية بأن مصر هى المتشددة !

أما الإعلان الذى كانت إسرائيل قد أعدته فليس إلا صياغة جديدة لقرار قديم ، أما القرار القديم فهو رقم ٢٤٢ الذى مضت أكثر عشر سنوات على صدوره ، وإذا صح ذلك فلم يكن الموقف كله فى حاجة إلى مبادرة وإلى رحلة إلى القدس . . !

وفى فندق هيلتون بالقدس رأينا حزنا عميقا على كل الوجوه ، ولم نكن نحن ندرى بالضبط ماالذى جرى ، وعادت الكاميرات الباهرة إلى مدخل الفندق ، ولكن أنوارها مظلمة إذا صح هذا التعبير ، وهو صحيح ! وأعناقها منكسة ، ورأيت الدموع فى عيون النساء والشباب .

وعندما ذهبنا عند الفجر إلى مطار بن جوريون خيل إلينا أنه مطار آخر ، وسألنا فقيل لنا : إنه نفس المطار . .

وكنا نقارنه بما كان عليه المطار يوم نزله السادات ، فقد كان المطار كله قطعة من النور أو النار . أما الآن فهو مثل الفحم الخامد الخامل : لا أحد لا أضواء . لا طائرات ، وبرودة الجو فى يناير كانت مضاعفة : برودة الهواء والوداع . .

وأصبح واضحا تماما أن موسى ديان يقوم بدور جديد ، فبعد أن كان مرنا فى الإسماعيلية أخذ يتصلب فى القدس ، فكأنه استعار مقعد بيجين ، أو عاد إلى الدور المكلف به فى هذه المفاوضات . .

المرحلة الخامسة : ليدز

وبدعوة من الرئيس السابق كارتر استجابت مصر إلى لقاء جديد بين وزراء خارجية أمريكا وإسرائيل ومصر . .

ولم تسفر اجتماعات ليدز عن شىء جديد ، إنما عاد موسى ديان يؤكد ماسبق أن أعلنه فى القدس ، وهو ضرورة الحل الوسط بالنسبة للأرض .

وكان من الطبيعى أن نرفض ذلك ، وفى نفس الوقت تحاول إسرائيل أن تنفخ فى أبواق الدعاية أن مصر هى التى ترفض السلام ، وأن إسرائيل تحاول بكل مافى وسعها ، ولكن المصريين لايريدون التفاهم ، أو لايجدون المرونة وسيلة للاتفاق على خطوات السلام .

وكانت إسرائيل تريد أن تأخذ العالم كله وراءها عندما أعلنت استعدادها لإعادة سيناء إلى مصر ، وهو إعلان رائع ، فإذا رفضته مصر كان نوعا من الجنون أو السذاجة .

ولكن العالم تنبه أيضا إلى أن إسرائيل عندما عرضت سيادة سيناء أثارت قضية المستعمرات على الأرض المصرية ، ورأت ضرورة بقاء المستوطنات تحت الحراسة

الإسرائيلية ، أو إذا لم توافق مصر على وجود قوات إسرائيلية ، فليبق الإسرائيليون فى المستوطنات بشرط ألا يخضعوا للقانون المصرى فى المعاملات أو المحاكمات – أى عودة الامتيازات الأجنبية ؟ !

وقد حدث فى كامب دافيد بعد ذلك أن تساءل الرئيس السادات بحضور الرئيس كارتر : قل لى يامستر بيجين ماهو الاسم الذى تطلقونه على انسحاب إسرائيل من سيناء وعودة السيادة المصرية إلى هذه الأرض المحررة مع بقاء المستعمرات الإسرائيلية فى حماية قواتكم العسكرية ؟ !

هل أجد عندك اسما لهذا الوضع الغريب العجيب ؟ !

ولم يجب ! !

وإذا كانت إسرائيل قد حاولت بعد المبادرة ان تطلق سحبا من الدخان الرقيق على تحركاتها ، وأن تلف تصريحاتها فى ورق لامع ناعم ، فإنها أيضا كانت تلف السم أيضا وتطلقه بنفس الحرارة والبراعة . وكانت الوزارة الإسرائيلية تستعير نفس أساليب الحرب ، فتقوم بالتعمية لإخفاء أهدافها وتلجأ إلى حيلها اللغوية فى صياغة التصريحات والاقتراحات .

وقد أيقن الرئيس السادات أن اجتماع ليدز لن يسفر عن شىء ، لأن موسى ديان بعد أن أعلن ضرورة « الحل الوسط » فى مرحلة مبكرة من المفاوضات لن يعدل عنه بهذه السهولة ، وهذا بالضبط مافعله فى ليدز ، فلم يستخدم موسى ديان لاسحب الضباب ولا الموسيقى التصويرية ، إنما أعلن دون أن يلف عبارته فى شىء : أنه بدون حل وسط . . لاحل !

وكانت هذه العبارة إيذانا بإنهاء لقاء وزراء الخارجية فى ليدز .

وكان على الشعب الإسرائيلى أن يواجه حكومته التى لاتزال تفضل الأرض على السلام ، مع أن حرب أكتوبر قد أكدت له أن الأرض لم تحمه من الحرب ! وأن إسرائيل التى قامت فى الشرق الأوسط لم تحقق له الأمن والأمان . بل حشرته ووضعته وراء ألف بارليف : من الكراهية والرغبة فى الانتقام والخوف . . والبكاء

فقد تحول كل بيت فى إسرائيل إلى حائط للمبكى !

وعاب على بيجين أشد الناس حبا أنه قد استهل مرحلة جديدة من « عصر الفرص الضائعة » !

المرحلة السادسة : كامب دافيد

وكان الرئيس السادات قد التقى بالرئيس السابق كارتر فى كامب دافيد فى فبراير من عام ١٩٧٨ وفى نفس الوقت كانت التصريحات تقفز من كل مكان فى العالم ، وكانت حكومة إسرائيل قد اتخذت موقفا متشددا ، تريد أن تغطى على مشاعر الأمل والخيال السياسى والدينى الذى استولى على العالم كله . .

حتى إن شاعرا إسرائيليا كان أذكى من الجميع عندما أعلن فى إحدى قصائده : أن أكثر الناس سعادة هم أقربهم إلى الدموع . . والعين تلمع أكثر كلما امتلأت بالدموع !

وقد رأى خبراء الدعاية وخبثاؤها أيضا أنه ليس أسهل من أن ننقل الناس من التفاؤل إلى التشاؤم ، وليس أسهل من أن نصدم الناس فى عزيز لديهم ، إذا رأوه يتجمد فى الجليد أمام أعينهم وقد حاول بيجين أن يلقى بالجليد على كل شىء . . لعله يفلح فى أن يكفن مبادرة السلام لتموت فى سلام . . لولا أن المبادرة لم تعد فى قبضة أحد . . فقد بدأت شخصية وانتهت عالمية . بل إنها من علامات العصر ، وأسلوب جديد فى القضاء على الحروب الدينية والسياسية والاقتصادية والتوسعية والشخصية . .

وأذكر عندما قابلت الحاخام الأمريكى شندلر فى بهو فندق هيلتون ، أن قلت له : لعلك تذكر أننا تناقشنا فى الطائرة إلى أسوان ، وكان من رأيى أن مناحم بيجين يحاول أن يقلل من شأن مبادرة السادات يريد أن يجعلها شخصية يستحق عليها جائزة نوبل للسلام ، وبعد ذلك ينتهى كل شىء ، إنها تستحق جائزة السلام فعلا

ولكنها لم تعد شخصية ، إنها سابقة فريدة فى التاريخ . .

وبعد مائتى يوم كانت لقاءات القمة فى كامب دافيد للمرة الثانية ، المرة الأولى كانت بين الرئيسين المصرى والأمريكى ، وفى الثانية انضم إليهما مناحم بيجين .

وكانت مفاوضات عنيفة جدا ، وقد وصفها الرئيس السابق كارتر بأنها « وحشية » ، وقال : إنه لم ير فى حياته اثنين يتناقشان بهذا العنف !

وكادت هذه المفاوضات تنقطع نهائيا ، وليس فى استطاعة أحد أن يتخيل ماالذى كان من الممكن أن يحدث لولم يتداركها الرئيس الأمريكى فى آخر لحظة .

واتفق الأطراف الثلاثة على « إطار للعمل » للسلام الشامل بين مصر وإسرائيل وبين الدول العربية الراغبة فى السلام ، وعلى ضرورة الحكم الذاتى الشامل للضفة الغربية وقطاع غزة وعلى عروبة القدس . .

ولأن الاتفاق كان على الإطار الواسع الشامل للعمل من أجل السلام ، فهناك جزئيات أخرى تحتاج إلى اتفاق أولا بأول ، وهناك خلافات على الصياغة وعلى المراحل المختلفة لتنفيذ الاتفاق . .

المرحلة السابعة : واشنطن

بدأت هذه المرحلة بأن ذهب وزير الدفاع المصرى فى ذلك الوقت كمال حسن على ووزير الدولة للخارجية د . بطرس غالى ود . أسامة الباز ، والتقى وزراء الخارجية والدفاع والمستشارون من الأطراف الثلاثة ، وأحكمت السرية على خطوات المفاوضات .

ولكن حدث تراجع واضح من جانب إسرائيل . وعادت إلى « مط » العبارات . . وإعادة « طبخ » الكلمات .

وسافر السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية برسائل بالغة الأهمية للرئيس الأمريكى السابق كارتر ورؤساء الدول الأوروبية . .

ولم تؤد هذه المفاوضات التى استغرقت ٢٧ يوما إلى رجوع إسرائيل عن مفهومات قديمة ومخاوف عتيقة ، وإضاعة الوقت وشغل الناس عن متابعة خطوات السلام . .

وازداد قلق الشعب الإسرائيلى ، لأن حكومته تعمل بانتظام على تجميد مشاعره مع إطلاق سحب من الدخان وموجات من الشوشرة . ولكن الشعب الإسرائيلى قد اعتاد على ذلك ، واعتاد أن يطالب بتوضيح كل شيء . . فالموقف أكثر خطورة وحيوية من أى وقت مضى ، ثم إن الشعب الإسرائيلى يرى أن حكومته تغامر بالصداقة التقليدية الأمريكية ، وتستهين بالرأى العالمى المحب لأنشودة السلام !

ومادام الحوار مستمرا بين جميع الأطراف فليس من الحكمة أن نروى – الآن – وجوه الخلاف فيما بيننا .

وقد أعلن د . مصطفى خليل رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الوقت بعد لقائه بالرئيس السابق كارتر خطوات محددة للسلام . هذه الخطوات كانت نتيجة الاجتماعات الطويلة للجنة التى رأسها السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ، وقد راجع الرئيس السادات كل ماتقرر فيها ، ووقعها بيده .

ثم أرسل الرئيس السادات خطاباً شخصيا لبيجين .

فهل نحن فى نهاية المرحلة السابعة ! . . أو هل هذه المرحلة مستمرة !

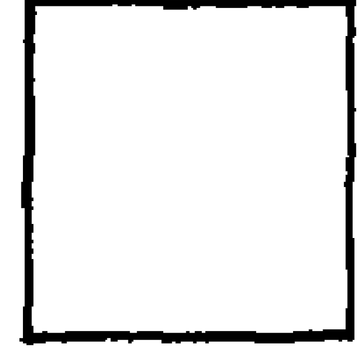
هل تبدأ مرحلة ثامنة ؟ . . هل تبدأ جولة ثانية ؟

لقد أعلن الرئيس السادات أنه من الممكن أن تتوقف المفاوضات تماما ، على أن يعود كل طرف إلى مراجعة نفسه ، وإعادة « تقويم » لكل هذه المرحلة . . وماالذى أعطى ؟ وماالذى أخذ ؟ ومن الذى يريد السلام حقا ؟ ومن الذى لايزال يرى فى الأرض بديلا من الأمان ؟ ومن الذى يقوى على مواجهة التيار الجارف فى شعب إسرائيل وفى الشعب اليهودى وفى العالم كله ؟

إن خريطة الشرق الأوسط تتغير الآن ، أو تتهيأ لما سماه الرئيس السادات « بالمخاض الجديد » إن رءوسا سوف تسقط ، وإن رءوسا أخرى سوف تتصارع ،

وإن زحفا شيوعيا منظما يلف الشرق العربى وإن الشعب الأمريكى يتساءل : ماهى حدود التزاماته الأدبية والأخلاقية لإسرائيل ؟

فإذا كانت جولة ثانية ، فلتكن شيئا جديدا . . وليست تكرارا لكل السلبيات التى رأيناها ومللناها فى سنة طويلة جدا ، امتلأت بأحداث لو وزعت على ثلاثين عاما لكانت سنوات مثيرة !



لا أعرف السلام.. ولا أستحق الجائزة !

من أجمل أساطير السويد والنرويج قصة كتبها الأديب يورجن مو الذى عاش ومات فى القرن التاسع عشر. وكأنه قد تنبأ بما سوف يحدث لعدد كبير من مخترعى الدمار ، مثل الفريد نوبل .

تقول الأسطورة إنه فى يوم من الأيام مشى السيد المسيح ومعه القديس بطرس فى شوارع إحدى المدن . ووقفا عند دكان حداد . ووجدا الحداد مشغولا بوضع الحديد فى النار . والنار تتطاير شظاياها فى كل اتجاه . والحداد ضخم والعرق يسيل من وجهه ومن جسمه . وقد أضيفت إلى ضخامته كمية أكبر من الغرور والغطرسة فبدأ أضخم من حجمه ، كأنه ديك وسط عشرات من الدجاج .. أو كأنه طاووس يواجه الريح ويصيدها بريشه الطويل الملون ويبدو أن السيد المسيح والقديس بطرس قد أدركا أنهما أمام إنسان غير عادى أو غير طبيعى فسألاه : هل أنت حداد حقا ؟

وأحس الحداد أن هذا السؤال لا ينطوى على جهل بقدره فقط ، بل على إهانة لا يستحقها ، فأشار إلى لافتة فوق الدكان مكتوب عليها : هنا يعمل أعظم حداد فى العالم كله !

وهذه اللافتة جاءت نتيجة اتفاق مكتوب بين الحداد وبين إبليس .

فقد وعده إبليس : سوف أعطيك كل شىء إذا ذهبت إلى النار بعد وفاتك وكنت واحدا من أتباعى .

ووافق الحداد بشرط أن يجعله الشيطان أعظم حداد فى العالم لمدة عشرين عاما !

ولاحظ السيد المسيح والقديس بطرس أن الحداد لا بأس به . . ولكن السيد المسيح استأذنه فى أن يساعده فى صناعة « الحدوة » الحديدية لعدد من الخيول الواقفة بالباب . فقال له الحداد : لا مانع من أن تتدرب عندى ، كثيرون غيرك يتمنون ذلك !

وأمسك السيد المسيح أحد الخيول فخلع ساقه ووضعها فى النار ، ولم تحترق الساق إنما خرجت ولها حدوة متقنة . ثم أعاد الساق إلى مكانها من جسم الحصان ، وفعل نفس الشيء بسيقان كل الخيول الواقفة أمام دكان الحداد . ونظر اليه الحداد قائلا : لا بأس سوف يكون لك مستقبل . . أين تعلمت صناعة الحدادة هذه ؟

ورد السيد المسيح قائلا : هناك حدادون كثيرون فى مدن أخرى .

قال الحداد : أعرف . . ولكنهم كما ترى أقل منى قدرة وعظمة .

ثم مد السيد المسيح يده إلى حصان صغير ووضعه كله فى النار . ولم يحترق الحصان . إنما خرج من النار وفى كل واحدة من أرجله الأربع حدوة حديدية ملتهبة ومتقنة .

ولم يتنبه الحداد إلى أن السيد المسيح طراز لم يشهده أحد من قبل . وأنه صاحب قدرة خارقة . ولكن الحداد خلع رجل أحد الخيول . . وسالت الدماء وأحرقها فى النار . . ودفع تعويضا عن الحصان وكاد الناس يحطمون دكانه . ولم يدرك الحداد أنه حاول المستحيل — أى أنه حاول أن يحقق شيئا ليس فى استطاعته ولم يتنبه فى نفس الوقت إلى أن أمامه رجلا عجيبا ، ولكن الغرور الذى نفخه والكلمات الحلوة التى سمعها من إبليس وملأت أذنيه وغطت على عينيه جعلته لا يفهم حدوده . وجعلته يؤمن أنه فوق البشر . .

وسأله السيد المسيح : هل تريد شيئا من السماء أحققه لك ؟

وقال الحداد بمنتهى الجشع : نعم .

قال له السيد المسيح : أطلب تجد .

قال الحداد : ثلاثة أشياء .

قال السيد المسيح : كما تريد . ماذا تحب أن أحققه لك ؟

قال الحداد : أولا . . إذا طلبت إلى أحد أن يصعد فوق هذه الشجرة لا ينزل إلا إذا أذنت له . .

– ليكن ذلك !

ثانيا : إذا طلبت إلى أحد أن يجلس على هذا المقعد لا ينهض إلا إذا أمرته بذلك !

– ليكن ذلك !

– ثالثا : إذا دخل شيء فى كيس نقودى لا يخرج إلا بأمرى .

– ليكن لك ذلك !

وعقب القديس بطرس قائلا : إنك رجل مجنون . . لماذا لم تطلب الجنة ورحمة الله فى الآخرة والسلام فى الدنيا ؟!

وكانت العشرون عاما قد انتهت ، فجاءه إبليس يطلب الوفاء بالوعد ، وأن ينتقل مع الحداد إلى السماء . . ومنها إلى جهنم . . فقال له الحداد : انتظر حتى أفرغ من تركيب هذه الحدوة .

قال إبليس : ليس عندى وقت .

قال الحداد : إذن فاصعد إلى هذه الشجرة . . وتناول بعض ثمارها وانتظرنى . . وقفز إبليس إلى الشجرة .

وقال له الحداد : سوف تبقى أنت هنا خمس سنوات على الأقل حتى أفرغ من عملى !

ولم يفلح إبليس فى أن يترك الشجرة .

وانتهت السنوات الخمس . وراح إبليس يستجديه أن يسمح له بالنزول وسمح

له . وعاد الشيطان يطلب إليه أن يفى بالوعد .

فقال الحداد : ولكنى لم أفرغ من عملى بعد !

اجلس بعض الوقت فى هذا المقعد .

وجلس إبليس فى المقعد . .

وهنا قال له الحداد : ليس قبل خمس سنوات أخرى أفرغ من عملى الشاق ، ثم إننى مدين بأموال كثيرة . وهذا يحتم علىّ أن أعمل كثيرا فانتظرنى ! وحاول إبليس أن ينهض من المقعد فلم يستطع وانتهت السنوات الخمس وسمح لإبليس بأن يبرح المقعد .

فقال له الحداد : أنت قلت لى من قبل إن إبليس يستطيع أن يجعل نفسه شيئا كبيرا ، وأن يجعل نفسه جسما صغيرا أليس هذا صحيحا ؟

قال إبليس : بلى . صحيح تماما .

قال الحداد : أريد أن أطلب إليك خدمة أخيرة ، وهى أن تدخل فى كيس نقودى وتراه من الداخل هل به ثقوب ؟

قال إبليس : ممكن . . فورا .

ودخل إبليس كيس نقود الحداد . . وقال له من داخل الكيس : به بعض الثقوب وسوف أسدها حتى لا تتسع وتسقط منها نقودك !

وهنا لف الحداد خيطا متينا على الكيس وراح إبليس يصرخ من الداخل . ثم أمسك الحداد كيس النقود ووضعه فى النار . واحترق الكيس . وصرخ إبليس وهرب . ولم يعد يراه الحداد .

* * *

ومات الحداد وصعدت روحه إلى السماء . وفى الطريق إلى الجنة والنار التقى بخيّاط من أبناء قريته . وسأله : إلى أين ؟ ! قال : إلى الجنة التى يقف على بابها القديس بطرس .

فسأله الحداد : ولماذا الجنة ؟ قال الخياط : لا أعرف . ربما لأننى لم أضع على

دكانى لافتة تقول إننى أحسن خياط فى العالم !

وذهب الحداد إلى باب جهنم . ودق الباب . وسمع من يقول له : من هنا ؟ فأجاب الحداد : أنا الذى تعاقدت مع إبليس . . وهو الذى جعلنى أعظم حداد فى العالم .

وسمع إبليس صوته ، وصدرت أوامره بإقفال جميع أبواب جهنم التسعة . وسمع الحداد من يقول له : لا أحد يعرفك هنا . وليس لك مكان عندنا !

وانطلق الحداد يلحق بالخياط ووجد الخياط قد فتح له باب الجنة ، ودخل وأغلق الباب وراءه فى وجه الحداد . وعندما اقترب من باب الجنة سمع من يقول له : لم تطلب الرحمة فى الآخرة ولم تطلب السلام فى الدنيا !

واستأنف الحداد الطريق إلى أبواب جهنم ، ثم إلى أبواب الجنة ذهابا وإيابا . . وإلى الأبد !

* * *

ولو تقدم المخترع السويدى ألفريد نوبل صاحب جائزة نوبل لنيل هذه الجائزة لرفضته اللجنة بإجماع الأصوات ، لأنه لم يفعل شيئا واحدا من أجل السلام . ولا يشفع له أنه هو شخصيا عاش معذبا ومات أكثر عذابا . . فلم يعرف السلام حيا ، ولا عرفه مئات الألوف من معاصريه . . وكان هو السبب !

فهو رجل متعدد المواهب وصاحب خيال وشاعرية . ولكن عبقريته كانت فى صنع المواد المتفجرة . والتقدم المستمر فى تطويرها . وتوسيع نطاق إنتاجها فى السويد وأوروبا ولو طال عمره لأنتجها فى أمريكا وروسيا . ولأصبح اسم نوبل . اسما لا نُبْل فيه !

وكان يشغله أيضا أن عددا من الدول الأوروبية قد سرقت منه براءة الاختراع وأنتجت المتفجرات لحسابها . . وهناك قضايا أمام المحاكم الدولية ، والتهمة أنهم سرقوا منه شهادة دفن عشرات الألوف من الناس !

ولم يعرف نوبل السلام مع نفسه أو مع أحد من الناس ، فهو عاش غريبا فى

هذه الدنيا . عقله يعمل فى كل اتجاه ، يحاول إصلاح الأسلحة وتطويرها ، وإصلاح المصانع وتجديدها يحاول نظم الشعر وابتداع أوزان جديدة حاول أن يؤلف قصصا . وكتب ونشرت له قصص بعد وفاته . إنه لم يسترح إلى الشكل الأدنى الذى يناسب أفكاره المتفجرة .

لم يكن له بيت واحد . كانت له عشرات البيوت الباردة . إنها قصور فخمة يسكنها رجل بمفرده فلم يكن يثق فى الرجال ، ولا يحب النساء . والمرأة الوحيدة التى حاول أن تكون له علاقة بها . لم يصارحها بذلك . وصدمته عندما روت له أنها تحب . وأن حبيبها خانها . وأنها رغم ذلك تحبه وتريد أن تتزوجه بأى ثمن . فكتم الحب والهوان معا . كأنه أضاف إلى أعماقه مزيدا من الجليسرين الذى يضعه فى الديناميت ، وإذا كان أحد لم يستمع إلى انفجار دموى فى داخل ألفريد نوبل ، فمن المؤكد أن كبرياءه هى التى قامت بدور كاتم الصوت ، ولكن الانفجار قد حدث والدخان قد غطى بصيرته . وزاده مرارة ويأسا . وكلما تعاظمت قوته وتضخمت ثروته ، تضاعفت عزلته ووحدته . أما طعم الدنيا على لسانه فهو : المرارة اليائسة ، واليأس المرير – وهذه كلماته . .

ولما رأى الدمار ينتشر فى الدنيا . بفضله هو ، أحس بأن عبقريته ليست إلا تطورا رائعا لأشكال الموت والقضاء على الأبرياء ،

واهتدى إلى أن هناك وسيلتين لتحقيق السلام فى العالم .

الأولى : أن تتعادل الأسلحة عند كل المعسكرات أى إذا كانت الأسلحة بنفس القدر . عند كل الناس . فإن هذا يمنع أحدا أن يقاتل أحداً . لأن الدمار سوف يصيب الطرفين .

وقد ثبتت صحة هذه النظرية عندما أصبح « الرعب النووى » سلاحا متعادلا عند الأمريكان والروس بعد إلقاء القنابل الذرية فى هيروشيما ونجازاكى باليابان . .

والطريقة الثانية : أن تتفق الدول جميعا – ولا نعرف كيف ؟ – على نزع السلاح ، فتلقى كل الدول سلاحها فى البحر . ويصبح العالم كله بلا سلاح . وإذا

أصبح الناس بلا سلاح ، أى بلا أطراف فإن أحدا لا يفكر فى قتل أحد أو خنقه بيديه .

ومثل كثير من أفكار نوبل ، فقد جاءت نظريته فى السلام وتحقيقها سريعة خاطفة ومجرد أمل يائس . كأن نوبل يريد بهذه العبارات القصيرة أن يعتذر عن الدمار والدماء التى أغرقت الدنيا شمالا وجنوبا بسبب المتفجرات التى أعمت ألوف المحاربين وخرقت آذانهم ، وحطمت قلوب الحالمين بسلام للإنسانية !

ونوبل يشبه رجلا قتل أباه وأمه . ثم وقف فى المحكمة يستعطف القاضى ، ويطلب منه الرحمة لأنه أصبح يتيم الأب والأم !!

وحتى عندما توفى نوبل بعيدا عن بلاده ، تماما كما عاش بعيدا عنها وعن الناس وجدوه قد أوصى بألا يدفن إلا بعد ثلاثة أيام ، لأنه يخشى أن يدفنوه حيا .

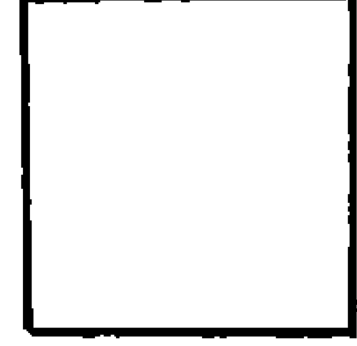
فقد انتشر فى ذلك الوقت فى أوروبا أن أناسا كثيرين كانوا يدفنونهم أحياء ، بمنتهى حسن النية ، أما كيف اكتشفوا ذلك ؟ فقد حدث عندما عاد كثيرون من أقارب الموتى لزيارتهم وفتحوا قبورهم لسبب ما : أن وجدوا الميت قد مزق الكفن ، وراح يزحف على ركبتيه حتى باب القبر . . ولو كان باب القبر مفتوحا لخرج إلى الناس !

ولذلك ظل جثمان نوبل فى إحدى الغرف ثلاثة أيام . . ولم يتركوا جثمانه هادئاً فى مكانه . بل إن أقاربه ورجل الدين يدخلون من حين إلى حين يقلبون جسده ويضعون آذانهم على قلبه ويهزون رءوسهم بأنه ميت . . ولكن لابد من تنفيذ الوصية . وفى اليوم الثالث وقف عشرون رجلا وامرأة يقلبون الجثة يمينا وشمالا ويضعون آذانهم على صدره ويسدون أنوفهم بسبب رائحة الموت ، ثم دفنوه !

مسكين . . لم يعرف السلام حيا ، ولو تقدم لجائزة نوبل فلن يفوز بها ! ولكنه أراد أن يعوض الإنسانية كلها عن الذى أصابها بيديه . . فدعا إلى السلام وتشجيع الداعين إليه . .

وهو بذلك يكفر عن خطاياه المتفجرة الدامية . .

وفى يوم ذكراه من كل عام يترحم الناس على رجل لم يرحمه أحد ، ولم يرحم أحداً . . وكانت نفسه أولى ضحاياه !



«الديموقراطية» والعداء لإسرائيل . .

يقول أجنون أديب إسرائيل الذى فاز بنصف جائزة نوبل فى الأدب ، « من الممكن أن يكون الحوار المنطق حكما منطقيا بالإعدام أيضا ، ولذلك مات كثيرون فى السياسة والتاريخ لأسباب منطقية ظالمة . . بل إننا نعيش فى عصر الذين قتلوا وماتوا لأسباب منطقية .

وكل الحروب بين المذاهب وبين الأديان هى حروب أقنعت أتباعها بالمنطق ، وكان الموت على الطرفين ولنفس السبب » . .

ويضرب لذلك مثلا : أن ديكا أحس بأن أصحابه من اليهود سوف يذبحونه فى أحد الأعياد وشكا الديك مأساته ومأساة أجداده هذه إلى أحد الفئران ووجد الفأر حلا ، قال : إن هذه أسرة من التجار . وليس عندهم وقت لحفظ الصلوات . فهم يقرأونها من كتاب . فإذا أنا أكلت ورق الكتاب فإنهم لن يصلوا اليوم ولن يذبحوك . بل إنهم سيرون فى ضياع الكتاب نذيرًا للشؤم والغضب السماوى عليهم . وقد يدفعهم ذلك إلى العدول عن ذبح الديوك والبحث عن طائر آخر .

وكانت فكرة معقولة وذهب الفأر إلى كتاب الصلوات فأكله بينما انقض عليه قط فأكله أيضا !

فهل فى استطاعة السيد مناحم بيجين أن يأكل اتفاقية كامب دافيد دون أن يخاف من القط الأمريكى أو القطط العالمية التى ترى أن السادات جاد فى السلام ؟ !

يقول ناحوم جولدمان الذى أمضى سبعين عاما يدعو للصهيونية العالمية . أى منذ كان فى الثالثة عشرة من عمره : إن أخطر ما أدت إليه مبادرة السادات أن عددا هائلا من الإسرائيليين قد آمنوا بصدقه .

هذا العدد الهائل قد خصمهم السادات من حساب بيجين الذى تزعم المعارضة فى إسرائيل ثلاثين عاما . وكان أشد الناس إيمانا بإسرائيل الكبرى ، وبأنه لا سلام مع العرب . وأن العرب يجب أن يهزمهم اليهود حتى تصبح الهزيمة طبعا فيهم . وحتى يؤمنوا إيمانا مطلقا بأن إسرائيل قد ولدت لتنتصر ، وأنهم ولدوا لينهزموا وأن الأمر الواقع هو ما تفرضه القوة . .

ولذلك فإن جولدمان فى حديثه الأخير إلى مجلة « بارى ماتش » الفرنسية يرى أن بيجين رجل معتدل . . وأننا إذا قارنا موقفه اليوم بما كان يقوله فى السنوات الماضية ، فهو إنسان آخر تماما ، ولكن الرجل ليست له تجربة فى الحكم ، كما أن إسرائيل ليس لها عمر سياسى . . وأن الرجل كان قد أقام مجده على العنف ، وأقام مستقبله على الحرب .

وكان فى شبابه يخطب فى الشوارع وفى المخابئ . أما الآن فهو ليس فى حاجة إلى ذلك . . الشارع أصبح كنيست والمخابئ أصبحت مؤتمرات دولية . . ولم تعد إسرائيل مجموعة من الهاربين أو اللاجئين ، إنما دولة باعتراف الأمم المتحدة . . لها قوة وسطوة . . وقد أضافت إلى أرضها مساحات شاسعة من أرض الغير . .

ويحلل ناحوم جولدمان بقية رجال إسرائيل ، فيرى أن موسى ديان متشدد . ولكن لا وزن له فليست له شعبية ولا ينتمى إلى حزب إنما هو أحد مساعدى بيجين فقط . .

ويرى أن رابين وبيريز كليهما أكثر تشددا من بيجين .

فلا يبقى من أكثر الناس اعتدالا إلا عيزر فايتسمان .

ويقول جولدمان : إن ما تعانى منه إسرائيل ليس من أخطاء الساسة ، ولكن من أخطاء السياسة . فساسة اسرائيل يحاولون مخلصين أن يفعلوا شيئا من أجل السلام .

ولكنهم تماما كالذى يمشى فى شارع ملتو . . موازيا للأرصفة إنه مواز للأرصفة ولكنه فى شارع غير مستقيم ، فالسياسة التى سارت عليه إسرائيل من أيام بن جور يون هى السياسة الخاطئة وهذه السياسة قد دعمتها جولدا مائير التى توفيت فكانت بذلك آخر « الرجال الكبار » فى إسرائيل . .

ولكن إذا عدنا لبن جوريون فسنجد أنه قد وافق على مبدأ تقسيم فلسطين ووافق على أن تكون لإسرائيل دولة يهودية وعدل عن فكرة إسرائيل الكبرى . أى أنه كان واقعيا فى منطقه أوكانت واقعيته مرحلية ، أملا فى أن تتاح له فرصة جديدة للتوسع وقد حدث قبل حرب سنة ١٩٦٧ أن أعلن ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل استعداده للاتفاق مع مصر وأنه لا يطمع فى أن تتسع « حدود » إسرائيل . ولكن بعد انتصار حرب سنة ١٩٦٧ عدلت إسرائيل عن الذى أعلنه رئيس وزرائها .

يقول جولدمان : إن الطعام اللذيذ يفتح الشهية . . ولذلك انفتحت شهية إسرائيل على أرض الغير !

ولابد عند النظر إلى واقع إسرائيل من العودة إلى ذلك الكتيب الصغير الذى أهداه ناحوم جولدمان إلى الرئيس السادات . . فى مدينة الرباط بعد عودته من كامب دافيد . الكتيب بعنوان « المذهب الصهيونى وواقع إسرائيل » والكتيب عبارة عن مقالة ممتعة بقلم أحد أعلام الصهيونية وآخر حكمائها أيضا .

فهو يرى أن هناك أحداثا فاصلة فى تاريخ اليهود :

الأول : التعذيب النازى لهم . فقد قضى هتلر على مليون يهودى . وعلى ثلاثة ملايين آخرين من خصومه السياسيين ومن المسيحيين أيضا . . وقد استطاع اليهود أن يثيروا عطف العالم عليهم بسبب هذا العذاب وأن يحصلوا على تعويضات هائلة من ألمانيا وغيرها .

ولولا هذا الاضطهاد النازى ما قامت دولة إسرائيل أى أن العرب هم الذين دفعوا الثمن لجريمة لم يرتكبوها عندما استولى اليهود على أرضهم وعندما اندفعوا يطردونهم — صحيح أنهم لم يلقوا بهم فى بحر حقيقى . . ولكن الضياع الذى ذاقه

الفلسطينيون ليس بحرا إنما هو محيط من الضياع والمرارة !

والحدث الثانى : هو قيام الدولة ، وذلك بموافقة ثلثى أعضاء الأمم المتحدة وقد أدى قيام هذه الدولة إلى أن أحس العرب بأنهم عزلوا عن العالم تماما كما تحس إسرائيل الآن .

وقيام إسرائيل أمل وعمل . وحلم اليهود فى كل العصور . وليس لليهود – وهذا كلام جولدمان – أى حق تاريخى فى هذه الأرض ولكن اليهود يدينون فى بقائهم حتى اليوم إلى العناد والإصرار والاستمرار والإيمان بالنفس إلى درجة الغرور ، وانتظار المعجزة . .

الحدث الثالث : وهو يشبه « الجريمة المستمرة » بلغة رجال القانون ، هذه الجريمة هى أن اسرائيل شنت ثلاث حروب على العرب . هذه هى أكبر غلطة فقد عمقت إسرائيل الشعور بالمرارة عند العرب . والشعور بالهوان ، والرغبة فى الانتقام ثم إن العرب أغلبية ساحقة ، وقوة مالية واقتصادية وقاعدة تاريخية ، وأهم من ذلك أن هذه الانتصارات لم تحقق لليهود فى إسرائيل أو خارجها أى نوع من أنواع الراحة تماما كما يوجد قصر رجل غنى فى قلب أحد الأحياء الفقيرة ، يكفى أن ينظر من النافذة ليرى العيون الحاقدة ويجد الكراهية الخرساء ويجد الانتقام المؤجل .

إن الفيلسوف الألمانى نيتشه هو الذى قال : إنه من السهل هضم الهزائم ولكن من الصعب هضم الانتصارات الكبرى . ومع ذلك فلا إسرائيل هضمت فى أمان انتصارها ، ولا العرب هضموا فى هوان هزائمهم !

إنها أكبر غلطة ارتكبتها إسرائيل – فالعرب من الجنس السامى لا ينسون بسهولة . وهم بالفعل لم ينسوا ولن ينسوا !

الحدث الرابع : مبادرة السادات .. هذه المبادرة قد زلزلت إسرائيل كلها ، مهما حاول اليهود أن يخفوا ذلك – ولم يفلحوا حتى الآن فقد ظهر لليهود أن هناك رجلا قويا لأقوى دولة عربية يريد السلام ، وهو جاد فى ذلك وأنه لا يريد أن يلقى بإسرائيل فى البحر بل إنه عرض الأمن والأمان والشرعية على إسرائيل ولا تستطيع

إسرائيل أن تتراجع ولا أن تهرب إن المناقشات التى تدور بين إسرائيل ومصر وبين إسرائيل وأمريكا هى نوع من اللعب المنطق . أو العبث الفقهى . بقصد تعويق مسيرة السلام ، وهذا مستحيل .

يقول جولدمان : بل إن كلمة سحرية قد ظهرت فى قاموس الحوار بينهم هى « استمرار المفاوضات » . . أى أن الحوار مستمر ، والتوافق والتوفيق متواصل . .

ومن أخطاء إسرائيل أنها تتصور أن اتفاقية السلام قد أخذها السادات « رهينة » إلى أن يتم الربط بين الانسحاب الشامل وقيام الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وإسرائيل تغالط فى عدم إعطاء الفلسطينيين حكمهم وحكومتهم . ما الذى يخيفها ؟ إنها تستطيع أن تحصل على كل الضمانات من أمريكا ومن روسيا ومن الأمم المتحدة .

ويرى جولدمان أن اسرائيل ترى أن وجود قوات أمريكية علىأرضها يمس سيادتها هذا سخف . إن مثل هذه القوات موجودة فى ألمانيا وهولندا وبلجيكا . وليس بين هذه الشعوب أناس أقل إحساسا بالسيادة من إسرائيل بل إن أمريكا إذا فكرت فى سحب قواتها فإن الفزع يستولى على هذه الدول . وقد حدث كما حدث أيضا عندما انسحبت بريطانيا من قواعدها شرق السويس أن فزعت دول عربية . . وحاولت هذه الدول إقناع بريطانيا بأن تبقى مهما كان الثمن . ورفضت بريطانيا رغم مئات الملايين التى عرضت عليها !

بل إن جولدمان يتمنى أن تكون اتحادات فيدرالية تجارية أو أسواق مشتركة فى المنطقة مثل السوق الأوروبية المشتركة !

وكما أن الاضطهاد قد دفع اليهودإلى أن يتماسكوا فكذلك موقف إسرائيل من القضية الفلسطينية سوف يؤدى إلى أن يتشدد الفلسطينيون وأن يتماسكوا ومهما اختلف الفلسطينيون فى داخل إسرائيل أو فى أرض الشتات فهم عرب : لغة وتاريخا وحضارة وأكثر انسجاما من اليهود الذين ليست لهم لغة واحدة ولا أصول واحدة !

وهناك عبارة مشهورة للقديس أو غسطين يقول فيها : إن الإنسان « لا يكون »

مسيحيا ، إن الإنسان « يصير » مسيحيا – أى أن الدين ليس صفة إنما هو عمل . .

وكذلك اليهودية والإسلام فالإنسان لا يكون فلسطينيا . إنما يصير فلسطينيا متعصبا متشددا ، وحتى إذا اختلف مع أشقائه العرب فهم مائة مليون ومئات الملايين من المسلمين ومئات المليارات من الدولارات وراءها المصالح الأمريكية ، ووراءها التحفز السوفيتى وكل هؤلاء يواجهون إسرائيل إذا هى أضرت بمصالح الجميع !

وما يقوله جولدمان بعد ذلك هو تأكيد لما قلته كثيرا فى هذا المكان من أن التشدد الإسرائيلى سوف يؤدى إلى تشدد ضد إسرائيل من العرب وفى العالم كله .

لقد عاشت إسرائيل على أنها شعب غير عادى لقى عذابا غير عادى فأعطيت له تعويضات غير عادية وتسانده وتساعده أمريكا بصورة غير عادية .

ولكن الكارثة التى سوف تواجهها إسرائيل هى أن يضيق العالم بإسرائيل هذه الدولة الصغيرة التى فرضت نفسها بقوة الإعلام اليهودى ، والفلوس اليهودية على أعصاب الناس فقفزت بمشاكلها إلى الصف الأول من مشاكل العالم كله .

وأكبر كارثة سوف تصيب إسرائيل هى أن ينظر لها العالم على أنها دولة عادية ولأنها عادية فهى صغيرة فيجب أن يكون لها « حجمها » من الاهتمام الأمريكى أولا . . والتقدير العالمى ثانيا . و « تطبيع » العلاقات بين إسرائيل وبين أمريكا هو أكبر هزيمة يمكن أن تصيبها فى التاريخ . . فسوف يتساءل دافع الضرائب الأمريكى . . أين تذهب أموالنا ؟ ولماذا تذهب إلى إسرائيل إذا كانت تهدد مصالحنا مع العرب فى المنطقة وفى العالم ؟

وقد قلت تماما أكثر من مرة ، وهاجمتنى بعد ذلك إذاعة إسرائيل وصحفها فإن جولدمان فى حديثه إلى « بارى ماتش » يؤكد : أن إسرائيل قد خلقت موجات من العداء لها فى العالم كله . . حتى ابن جولدمان وهو أستاذ فى جامعة أمريكا يقول له : إن هناك عداء لليهود فى الكليات والجامعات !

كما أنهم فى فرنسا يحرقون المعابد اليهودية وينسفونها . .

وفى أمريكا الآن حزب نازى معاد لليهود !

وفى ألمانيا الاتحادية حزب نازى أيضا وهذا الحزب يعيد إلى الأذهان بلا خوف ولا ندم ما فعله هتلر بهم قبل ذلك . .

وفى إيران يقتلون اليهود ويحرقون معابدهم وغداً فى تركيا .

واليهود هم الذين وصفوا فى كتبهم تعذيب هتلر لهم . . كيف تبدأ سلاسل العذاب . إنها تبدأ عادة صغيرة . . عود كبريت وبعد ذلك تحترق الدنيا من تحتهم ومن حولهم . .

ففى كتاب « العذاب » من تأليف ويسلى يقول : إنها تبدأ عادة بواحد هام يبدى ملحوظة فتصبح حقيقة وإذا اعتنقتها الملايين أصبحت كارثة . . فهتلر يحكى أنه كان يمشى فى شوارع فيينا عندما رأى شخصا يرتدى قفطانا أسود . وله لحية سوداء . وعينان سوداوان . ويمشى فى الظلام ، فظنه هتلر شبحا أو عفريتا . . وعاد هتلر إلى نفس المكان . . ورأى عددا كبيرا من لا بسى القفاطين السوداء وأيقن أنهم جميعا من اليهود . ومنذ ذلك اليوم وهو يرى أن اليهود هم عفاريت البشرية . ومصدر ويلاتها وخرابها والمتآمرون عليها ، ووجد فى احراقهم بالغاز وقتلهم بالسم ، مهمة دينية مقدسة !

ولذلك يجب ألا تستهين إسرائيل بما أحدثته هى فى العالم من ضيق بها وبمشاكلها وقد جرب اليهود فى ألفى سنة ما هو الشىء الذى يبدأ بضيق الناس ويدفع اليهود إلى الانطواء فيقف الناس ضدهم عاما بعد عام !

إن كل ما أصاب اليهود من عذاب واضطهاد ، وما يتهددهم الآن ، يبدأ بهذه الصورة البسيطة من مط الشفتين وهز الكتفين واحمرار العينين !

كما أن أصدقاء اليهود فى أمريكا لا يريحهم أبدا أن تصدر من الهيئات السياسية فى إسرائيل هذه العبارات الصارخة ضد الشعب الأمريكى أو الرئيس الأمريكى .

وقد وقعت أحداث كثيرة يجب أن تنبه اليهود إلى مشاعر الأمريكان . فكثير من

الأمريكان قد رفض مشاهدة فيلم « العذاب » الذى عرضه اليهود ليثيروا عطف الأمريكان عليهم .

بل إن فرنسا لم توافق على عرضه إلا أخيرا جدا ، وفى بريطانيا ثاروا عليه . .

ومعنى ذلك أن العالم قد ضاق بقصبة عذاب اليهود ، واتهامهم لكل شعوب الأرض بأنها تفرجت على اليهود ولم تساهم فى إنقاذهم وليس هذا صحيحا فلولا مساعدة العالم كله لإسرائيل ما قامت ، ولولا مساعدة أمريكا بالذات . ما عاشت إسرائيل ولا حاربت وانتصرت ثم إن الحكومة الإسرائيلية لأنها بلا تجربة فى الحكم والسياسة تتوهم أن أمريكا تتدخل فى سياستها وأنها تضغط عليها .

والسذاجة هنا هى : أن السياسة ، أى سياسة ، هى تدخل فى شئون الغير ، وضغط عليه لإقناعه بوجهة نظر أخرى .

بل إن غلطة أمريكا الحقيقية – وهذا كلام جولدمان – أنها لم تتدخل فى سياسة إسرائيل بل تركتها تقرر وحدها ، وكان من نتيجة ذلك أن تصورت إسرائيل أنها دولة كبرى . وأنها قادرة على أن تقرر وحدها . وأن تحل مشاكلها مع العرب إن استطاعت ذلك فى أى وقت ؟!

إن أمريكا وحدها هى القادرة على أن تحقق السلام والسوفيت قادرون وحدهم على إفساد جو السلام ، وإثارة الشعوب بعضها على بعض والحزب الشيوعى الإسرائيلى متطرف فى رفض الاتفاقية وفى الانسحاب وفى تحقيق الحكم الذاتى .

وعلى إسرائيل أن تفيق إلى الواقع الجديد فى إسرائيل نفسها ، وفى المنطقة العربية ، وفى الشرق الأوسط كله ، إن هناك مدًّا دينيا ، ومن شأن المد الدينى أن يؤدى إلى التعصب وإلى حكم رجال الدين – أى إلى « الدينوقراطية » إذا صح هذا التعبير فإذا تعصب أبناء دين كانت ضحاياهم أبناء الأقلية ، أو الديانات الأخرى حدث ذلك فى لبنان ، وفى إيران وفى الهند ، وباكستان وبنجلاديش وفى تركيا ووراء ذلك أو تحته ، هناك التخطيط السوفيتى الذى يحيط بالمنطقة ويحيق بها أيضا من كل الجهات وهذا يجعل موقف أمريكا صعبا ، ويجعل نظرتها أكثر « شمولية »

وهذا هو الخطر الحقيقى على إسرائيل ، لأن أمريكا إذا نظرت إلى المنطقة ككل ، كان معنى ذلك أن إسرائيل سوف تدخل « ضمن » الحساب الختامى ، أى أن أمريكا لا تعمل لها حسابا خاصا ، فقد أصبحت إسرائيل دولة عادية ، بعد أن كانت دولة غير عادية أما سبب ذلك فهو التعنت الإسرائيلى الذى يهددها ، ويهدد الدولة العظمى التى تساندها .

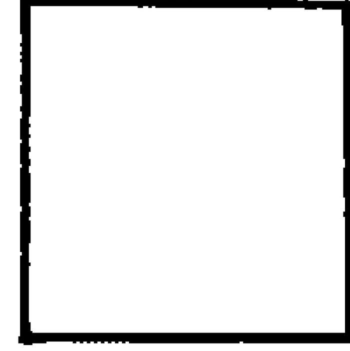
وهذا وحده هو الذى يجعلنا نتفاءل لأن إسرائيل تحاول أن تفيق من الدوخة الدينية القديمة ، وأن تفيق من الشطحات السياسية أما الواقع الذى نراه معا : فهو أن السلام هو الحياة ، وأن أمريكا لا تستطيع أن ترضع إسرئيل إلى الأبد . وأن لديها مشاكل أخرى أكبر وأخطر وأن أمريكا لا تستطيع ما دامت إسرائيل دولة عادية ، أو حتى لو كانت غير عادية ، أن تلقى بمائة مليون عربى إلى البحر !

إن تاريخ اليهود كله لم يعرف لحظة اعتراف واحدة إنهم كانوا يتسولون الاعتراف بهم بل كانوا يشترون الشرعية كما حاول الكونت روتشيلد أن يشترى « حائط المبكى » من العرب ولكن هذه هى الفرصة الأولى والأخيرة فى كل تاريخهم ، أن يكون لهم تاريخ بعد أن عاشوا عشرات القرون على حافة التاريخ أن يكون لهم سلام بغير قوة ، وأن تكون لهم أرضهم بغير حرب وأن يكفروا عن خطيئة احتلال الأرض بالقوة ، وطرد أصحابها بالعنف .

إن إسرائيل لا تحقق شيئا مستحيلا إذا انسحبت من أرض ليست لها ، فقد تكرر ذلك قديما وحديثا مئات المرات .

إن إسرائيل إذا لم تفتح عينيها فإننا سوف نعود إلى ما كنا عليه قبل المبادرة فنغمض عيوننا من جديد ، لنرى صورة كريهة ، نريد أن ننساها ويريدوننا أن ننساها . . أما الصورة فقد نزعناها من جدران الذاكرة يوم ذهب السادات إلى القدس . .

وليس سرا أن نقول : إن الصورة موجودة إلى جوار الحائط ، ولا يزال مسمارها هناك عاليا فى مكانه !



فلنقرأ ما فعلوه فى الصين ويوغوسلافيا ومصر!

كانت مشكلة مصر وإسرائيل هى « واحدة » المشاكل فى العالم . أصبحت الآن واحدة « من » المشاكل . أى أنها أخذت حجمها الطبيعى . لأن هناك أحداثا أخطر وأوسع وأعمق فى المنطقة والذى حدث فى إيران ، وسوف يحدث ، يدفع الجميع إلى أن يضع كل إنسان يده فى جيبه ويعد أصابعه ، فنحن مرة أخرى وبصورة صارخة أمام السوفيت والأمريكان الدولتين العظميين ، أو الصورة الجديدة لصورة قديمة عرفناها وحفظناها فى القرن التاسع عشر :

بريطانيا وفرنسا .

وبقدر ما جف من بترول إيران سوف تراق دموع كثيرة ، ويراق حبر أكثر قبل أن نعرف ما الذى جرى بالضبط . وهل كان مفاجأة للسوفيت والأمريكان . أوكان السوفيت يعلمون يوم قامت مظاهرات فى يناير ١٩٧٨ ، وكان بين المتظاهرين عدد من الحزب الشيوعى المنحل ، أوكان ذلك مفاجأة لأمريكا رغم وجود عشرات الألوف من الخبراء والأجهزة المتطورة جدا فى داخل إيران وعلى حدود روسيا ؟ . . .

هل هى مرة أخرى « عقدة فيتنام » .

وعقدة فيتنام معناها : أن تدخل أمريكا الحرب برجالها وتخسر ، وأن تدخل روسيا بعملائها فتكسب .

وإذا كانت الحرب هى السياسة بالدماء والسياسة هى الحرب بلا دماء . . فقد لجأت روسيا إلى السياسة فى فيتنام ولجأت أمريكا إلى الحرب . .

هل هى مرة أخرى وصية القيصر بطرس الأكبر للروس بالزحف إلى اسطنبول والهند عبر بلاد فارس ؟

هل هى إذابة الجليد السوفيتى فى المياه الدافئة للبحرين الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ؟

هل هى سياسة الاكتفاء بأن تكون إسرائيل حارسا للبلاد العربية وإيران حارسا لدول الخليج ، لكى تنام أمريكا بعيدا عن هذه الخلافات ؟

إن لوما كثيرا يقع على أمريكا . . ولكن لوما أكثر يقع على دول الشرق الأوسط فإذا كانت الشيوعية تقضى على الديمقراطية فمن المؤكد أن الديموقراطية تقضى على الشيوعية . وهذا يفسر جانبا كبيرا من أخطاء المنطقة التى أخضعت نفسها للحكم الشمولى ، أى لحكم الرجل الواحد بلا دستور ، وهذا النوع من الحكم هو الذى يدفع الشعوب إلى أن تثور . فإذا ثارت ارتفعت حرارتها . . وهنا يتسلل إليها أنشط الميكروبات المتربصة بالمنطقة . .

إن وصية بطرس الأكبر قد تحققت بعد ذلك بأكثر من مائتى عام عندما جاء خروتشيف إلى الإسكندرية وأخرج خطبة مكتوبة من جيبه وقال :

هذه هى أول مرة أضع فيها قدمى على قارة أفريقيا !

وكانت أول وآخر مرة لخروتشيف ، فقد أطاح به الزعماء الجدد . ولكنها كانت أول مرة للسوفيت فقد دخلوا مصر ومنها إلى العالم العربى وإلى الدول الأفريقية ، ولم يخرجوا منها ، وإن كانت مصر قد أخرجت منهم أربعين ألفا فى أسبوع واحد !

غير أن مصر احتاجت إلى ١٥ عاما لكى تعرف حقيقة السوفيت عندما فطن المرحوم جمال عبد الناصر وهو فى موسكو إلى حقيقة أهداف السوفيت فى مصر . فأعلن أنه سوف يتجه إلى أمريكا وإذا رفضت أمريكا فسوف يتجه إلى الشيطان .

تماما كما أعلن تشرشل فى الحرب العالمية الثانية استعداده للتحالف مع الشيطان ضد هتلر فتحالف مع الروس ! . . .

فنحن فى سنة ١٩٥٥ قد طلبنا السلاح من السوفيت بعد أن اعتدت إسرائيل فى فبراير من ذلك العام على غزة . وقتلت وجرحت مائة مواطن فلسطينى . وأعلن بن جوريون رئيس الوزراء أنه فعل ذلك ، وسوف يفعل ، دفاعا عن النفس ، وكان إعلانه هذا قمة الاستخفاف بكل المنظمات الدولية ، فإسرائيل كانت ولا تزال تجلس على كتفى أمريكا ، أقوى دولة فى العالم ، ولذلك بدت أقوى وأكبر من الجميع . . وإذا كان خروتشيف قد خلع حذاءه وضرب منصة الأمم المتحدة فإن الذى فعله بن جوريون كان أسوأ . فخروتشيف قد أضحك العالم كله على صورة الرجل الفلاح الذى لم تهذبه الحضارة ، وأصبح على رأس الدولة الثانية فى العالم ، ولكن بن جوريون اعتدى وقتل وتباهى بذلك . ولم يعترض أحد على ما فعل أو ما سوف يفعل !

والحقيقة أن مصر قد طلبت السلاح من السوفيت قبل ذلك فى سنة ١٩٥٣ وكان رد ستالين على مصر : أن السوفيت لا يعطون السلاح إلا لدولة شيوعية . .

ومعنى ذلك : كونوا شيوعيين تحصلوا على ما تريدون .

ولم تحصل مصر على ما تريد ، لأنها لم ترد أن تكون شيوعية . أى تتحرر من الإنجليز لتقبل الاستعمار السوفيتى الجديد .

ولم يغير السوفيت هذه السياسة حتى الآن وهى نبوءة كارل ماركس التى أعلنها فى أواخر القرن التاسع عشر فقد قال عن روسيا الامبراطورية القديمة ما يصدق على روسيا الامبراطورية الجديدة : إن روسيا لم تغير سياستها . ولن تغيرها . فقد تختلف الأساليب ولكن الهدف واحد هو : السيطرة على العالم !

وأمام هذه الأحداث الجليلة فى الشرق الأوسط منذ عام ١٩٧٨ ، قد أصبح التحليل السياسى كالمشى على الحبل . وأصبح الاهتزاز فى المشى هو قمة التوازن . . وبعد أن كانت مشكلة مصر وإسرائيل بقعة سوداء فى ثوب رمادى ، أصبحت بقعة

سوداء فى ثوب يزداد سوادا . ولذلك يجب أن ينظر إليها لا من داخلها فقط ، ولكن من خارجها أيضا .

والذى ينظر إلى الخريطة يجد أن السوفيت هم الذين كسبوا ويكسبون أيضا إما لأن سياستهم هى الأسرع ، وإما لأن الأمريكان أبطأ وأخوف .

ولكن العجيب فى أمر السياسة فى الشرق الأوسط أن الاستعمار الجديد يستعير نفس أساليب الاستعمار القديم ولكننا ننسى .

فنحن طلبنا السلاح من روسيا ورفضت أول الأمر . كما رفضت أمريكا أن تعطينا إلا القليل جدا . وحجة أمريكا أنها قد اكتفت بإسرائيل حارسا لمصالحها فى المنطقة ولذلك أعطت هذا الحارس سلاحا متطورا لضرب العرب أصحاب البترول وأصحاب الطرق التى تربط بين أوروبا وأفريقيا وآسيا .

وإذا كان الصراع فى القرن التاسع عشر على طرق التجارة المارة بقناة السويس . فإن الصراع فى القرن العشرين على ذلك أيضا وعلى آبار البترول .

كما اكتفت أمريكا بأن أعطت إيران الشقيقة نفس الأسلحة المتطورة لحماية الخليج . وكل آبار البترول فى المنطقة أيضا .

وقد حدث بعد الحرب العالمية الثانية أن نهضت شعوب عديدة تطالب باستقلالها ، واستقلالها هو التخلص من الاستعمار القديم ، وفى أعقاب الاستقلال اشتعلت الوطنية والقومية أيضا . والاتحاد السوفيتى ضد النزعات الوطنية المتطرفة التى تؤدى إلى القومية والتمسك باللغة الواحدة والدين الواحد . لأن الاتحاد السوفيتى قد أذاب عشرات القوميات فى داخله من أجل الأممية أو الصورة الدولية للعلاقات الاجتماعية والسياسية . . وذلك بأن ترتبط كل الدول بموسكو . ومع ذلك فقد اتجه الاتحاد السوفيتى إلى الاقتراب من الدول المتحررة ، ومد يده . ونفخ فى نارها . وأعطاها سلاحا وساهم فى قيام مصانعها أى إرساء دعائم نهضتها الشابة .

ولكن التجربة كشفت لنا . وسوف تكشف لغيرنا فى هذا العالم أن الأسلحة السوفيتية كانت أرخص ولكن تكاليفها فادحة فهى أسلحة قديمة ، وتحتاج إلى

إصلاحات كثيرة ومن عادة السوفيت أنهم إذا أعطوا السلاح احتفظوا بقطع الغيار . وإذا أعطوا قطع الغيار احتفظوا بالخبراء . وإذا أعطوا الخبراء اشترطوا سيطرتهم على استخدام السلاح . كل ذلك حدث فى مصر . وعرفنا ويلات السيطرة الروسية عندما وقع الصراع بيننا وبينهم فى سنتى ٥٨ و ٦١ بسبب الوحدة مع سوريا . أى بسبب القومية العربية . .

كما أن السوفيت قد عاقبوا المرحوم جمال عبد الناصر لأنه شن حرب الاستنزاف فى سنة ٦٩ دون إذن منهم . وهم الذين أوقعوه فى حرب ٦٧ وهم الذين طلبوا وقف إطلاق النار من أنور السادات قبل انطلاق النار فى حرب أكتوبر ٧٣ .

وكانت حجة الروس فى ذلك أننا لم نستوعب السلاح . وأن المقاتل المصرى ليس كفئا وأننا لا حق لنا فى أن نستخدم السلاح السوفيتى دون أمر سوفيتى . .

ومعنى ذلك أن كل شىء مشروط . والشرط هو أن نكون تحت السيطرة السوفيتية . وأنه ما لم نكن شيوعيين تماما فلا حق لنا فى استخدام السلاح أو الخبرة السوفيتية .

وقد سمع وزير عربى أخيرا من وزير سوفيتى شرب كميات هائلة من الفودكا . قال له الوزير السوفيتى وهو يترنح : لو أعطيناكم السلاح أنتم أيضا فسوف تضربوننا به . .

ومصر هى المسئولة عن دخول السوفيت إلى المنطقة . وقد دخل السوفيت ولم يخرجوا بعد . . دخلوا فى ليبيا وسوريا والعراق . واستولوا على أثيوبيا وعلى اليمن الجنوبية وعلى أفغانستان ، وعلى باكستان ولا أحد يدرى إن كانوا تحت دخان إيران . .

وقد استغل السوفيت سقوط حكم الدكتاتور سالازار فى البرتغال ليتسللوا إلى المستعمرات البرتغالية فى أنجولا ومنها إلى موزمبيق وإلى روديسيا . .

ولكن العالم كله سوف يعرف أن السياسة السوفيتية هى القيصرية القديمة . هى الاستعمار الجديد فى صورة أخرى تماما كما تنبأ أبو الماركسية كارل ماركس فى سنة ١٨٦٧ . .

ولكن الرئيس الصومالى زياد برى قد طرد الخبراء السوفيت . .

وما نجستو دكتاتور أثيوبيا على خلاف مع السوفيت ، وقد طرد عددا من الضباط وثلاثة من الجنرالات السوفيت . .

كما أن الرئيس الأفغانى تراقى قد لقى معاملة سيئة فى موسكو فى آخر لقاء مع برجنيف ، وقد بدأ يسعى فى طلب المعونة الأمريكية . .

ثم إن الهند عندما أسقطت أنديرا غاندى ، أطاحت بالنفوذ السوفيتى أيضا .

غير أن موقف الأمريكان من الهند . ورفضهم بيع الأسلحة والمفاعلات النووية لباكستان قد جعل باكستان تتجه إلى السوفيت . .

وموقف ليبيا ليس أحسن حالا . فهناك تململ واضح ضد السوفيت والألمان الشرقيين والكوبيين . وفى نفس الوقت قد سافر وفد ليبى إلى قرية بلينز . قرية الرئيس السابق كارتر والتقى بأخيه . واتفق معه على المودة والصداقة . . ويحاول الوفد الليبى أن يتغزل فى مزارع الفول السودانى التى تملكها أسرة الرئيس كارتر . . وقد وعد القذافى بأن يجعل الفول السودانى طعاما شعبيا لأنه من مزرعة الرئيس الأمريكى . ولأن الفول السودانى يذكره بالسودان التى سبق أن دفع إليها بقوات من المرتزقة أملا فى إسقاط النظام السودانى . خدمة للسوفيت !

كما أن سوريا والعراق اللتين اتفقتا معا على تصفية المقاومة الكردية . تحاولان فى نفس الوقت الارتباط بالسوفيت بمعاهدة ما . أو بالدخول فى حلف وارسو . كما أعلن القذافى صراحة وقد اختلفتا مع السوفيت أيضا . .

وأضيف أن لوما شديدا قد وجهه السوفيت إلى بعث العراق بسبب إعدام عشرات من الشيوعيين . . عسكريين ومدنيين . .

وقبل ذلك كله . أى قبل تجربة السوفيت فى مصر ، كانت تجربتهم فى يوغوسلافيا وفى الصين . . فستالين هو الذى قال فى سنة ١٩٤٨ : إن إصبعا واحدة من يدى تكفى لإسقاط الماريشال تيتو !

وأزيل اسم ستالين وبقى تيتو بعد ذلك !

وعندما طلب لافال وزير خارجية فرنسا إلى ستالين أن يتلطف فى معاملة بابا الكاثوليك حتى لا يخسر مئات الملايين كان رد ستالين : البابا ؟ من هو ؟ وإذا عرفنا من هو فكم لديه من الجيوش . . البرية والبحرية والجوية ؟ وكم يدخل من أمواله فى جيب السوفيت ؟ إن بقاء البابا سببه أن الشمس لم تطلع عليه بعد فإذا طلعت تاب وذاب !

وعلى ذلك فلا سلاح له . أى لا قوة له .

ومادامت روسيا وحدها هى التى تعطى السلاح فهى التى تعطى القوة . أما أمريكا فقد اكتفت بأن تعطى السلاح لعدد قليل من حلفائها أما بقية الدول المتحررة التى فى استطاعتها أن تحمى نفسها وغيرها ضد الشيوعية فلم تحصل على السلاح !

بل إن الاستعمار السوفيتى الجديد قد استعار شعارات الاستعمار البريطانى القديم . فقد حدث أن وقف إيدن . فتى الامبراطورية البريطانية يعلن فى مجلس العموم أن الدول العربية أطفال صغار . ولأنهم صغار فمن السهل إرضاؤهم . وذلك بأن نعطيهم بعض الأسلحة يفرحون بها . فإذا فرحوا سكتوا . فإذا عادوا للبكاء أعطيناهم سلاحا آخر . .

وقد فعلت روسيا نفس الشىء أعطت مصر وغيرها أسلحة مختلفة متخلفة ، وفرحت بها هذه الدول ، وراحت تفرقع سام ١ و٢ و٣ ولكنها أمعنت فى تعذيب هذه الدول . فقد أعطتها السلاح وأعطتها الأمل فى مزيد منه . . وكان الأمل نوعا من الهوان . . ولكننا لم نعرف ذلك إلا متأخرا جدا . . وكانت تجربة ، ومن الواجب أن تكون عبرة لغيرنا فى هذا العالم ، وهى بالفعل كذلك . . وسوف نرى . .

* * *

يقابل ذلك . ولا يختلف عنه كثيرا إلا فى درجة الفعل ورد الفعل : الموقف الأمريكى . .

فمنذ عهد فوستر دالاس وأمريكا قد ارتضت أن تكون « الأمريكى القبيح الوجه » . أو الشخص البغيض الذى لا يعطى ولا يتفرج . إنما هو لا يبالى مطلقا . مكتفيا بأن السوفيت متخلفون فى كل وسائل العلم الحديث . وأن هذا وحده يكفى . فالسوفيت لا يجتذبون أحدا بحياتهم ومنتجاتهم وأفلامهم وسلوكهم الشاذ . وأن أمريكا هى أمل الشعوب . والشعوب لذلك يجب أن تتجه بمحض إرادتها إلى أمريكا .

كما أن دالاس قد أقام حول الاتحاد السوفيتى ستارا يشبه حائط الصين العظيم . هذا الستار هو حزام الأمن على حدود السوفيت . وحزام الأمن « يحتوى » الدول الحليفة لأمريكا . أو المفروض أن تكون كذلك . واستراح دالاس إلى نظرية الاحتواء التى ملأت الفراغ الذى تركته دول الاستعمار القديم . كما استراحت فرنسا إلى خط ماجينو . وألمانيا إلى خط سجفريد . وإسرائيل إلى خط بارليف . والصين إلى الحائط العظيم . .

وتأكد لدى « الأمريكى القبيح الوجه » أنه ليس قبيح الوجه فقط بل الفكر والتاكتيك والاستراتيجية أيضا . وقامت المخابرات الأمريكية بدور الصديق الجاهل — حتى فى إيران أيضا .

وكانت سياسة أمريكا هى الالتقاء بصديق قوى ليتولى عملية الحراسة . . فإسرائيل كانت حارسها القوى المكلف بتأديب العرب . ومن أجل إسرائيل أضاعت أمريكا كل مصالحها فى المنطقة . بل إن أمريكا هددت الحضارة الغربية كلها . فقد رفع العرب سعر البترول خمس مرات . بسبب حرب أكتوبر ، ووقوف أمريكا وراء إسرائيل .

ولا يزال مناحم بيجين يذكر أمريكا بدور إسرائيل فى المنطقة . وقد أعلن أن إسرائيل هى حارسة الديموقراطية الغربية . أى أنها ضد الشيوعية والمد السوفيتى فى المنطقة .

مع أن فى إسرائيل حزبا شيوعيا . ومع أن إسرائيل لم تقطع صلتها بالسوفيت فى

أى وقت . بل كلما ساءت علاقة السوفيت بالعرب . أطلقوا سراح عشرات الألوف من اليهود ، وإسرائيل على استعداد أن تبيع الرئيس الأمريكى كما باعت الذين قبله والذين من بعده . للاتحاد السوفيتى ثمناً لثلاثة ملايين يهودى يعيشون فى ولاية بيربيجان . . ومن الغريب أن هؤلاء اليهود السوفيت عندما يخرجون من روسيا فإنهم . بدلا من أن يذهبوا إلى إسرائيل ، يسافرون إلى أمريكا !

إذن فلم تعد إسرائيل حارسة للمصالح الأمريكية . إنما هى حارسة لمصالحها فقط . وأمريكا من الضرورى أن ترعى مصالحها هى أيضاً . والشعب الأمريكى يجب أن يطالب حكومته بذلك . فليس من أجل إسرائيل يضيع الشرق الأوسط كله . . ولا الحضارة الإنسانية .

وفى أمريكا وفى العالم كله مد ضد اليهود . سببه العداء لإسرائيل والصهيونية العالمية التى خدعت العالم . وورطت دول الغرب وأمريكا فى عداء لا معنى له ضد العرب وضد المصالح العربية . .

وليس من الصدف أن يعلن رئيس وزراء إيران الشقيقة أنه لا يريد أن يكون حارسا للخليج . إنه يريد أن يرعى مصالح إيران نفسها . وأنه مطالب بأن يسد الهوة التى خلقتها أحلام شاه إيران السابق . فقد أراد أن يقفز ببلاده مائتى سنة فى خمسين عاما . وذلك بخلق صناعات كماوية متطورة وإنشاء جيش قوى . . وسوف يكون من سياسة الإدارة الجديدة فى إيران أن توجه عائدات البترول الهائلة إلى صالح الشعب والطبقة المتوسطة والمهنيين الذين كانوا طليعة الثورة على الشاه ونظامه وأسرته والسلطة البوليسية الخانقة . .

وقد باعت أمريكا فيما بين سنتى ٧٢ و ٧٨ أسلحة لإيران وتركيا والسعودية بما يعادل ١٨ مليار دولار .

وقد استفاد السوفيت تماماً من السلبية الأمريكية والتردد أيضا .

حتى الرئيس السابق كارتر كان قد قرر إرسال حاملة طائرات أمريكية لتقف بالقرب من الخليج . وكانت حاملة الطائرات فى الفلبين . ولكن مستشاريه نصحوه

بأن يعدل عن ذلك . ولذلك توقفت حاملة الطائرات فى بحر الصين . .

وربما كان إرسال سرب طائرات ف ١٥ إلى شواطئ السعودية المطلة على الخليج اقتراباً من مناطق الخطر واستعداداً للطوارئ . .

كما استفاد السوفيت من « الوفاق » مع أمريكا . والوفاق معناه : أنه لا شىء يجب أن يدفع الدولتين إلى الحرب النووية . فهذه الحرب لا غالب فيها ولا مغلوب . إنها مهلكة للجميع .

ولذلك فهناك حسابات لا نعلمها بين روسيا وأمريكا عندما تنظران إلى الكرة الأرضية أو إلى الكواكب الأخرى . .

وكل واحدة من الدولتين أقرب إلى السكين . .

ولكنهما معا تكونان « مقصا » يقطع من يدخل بين طرفيه .

ونحن لا نعرف ، بالضبط ، متى نجد أنفسنا بين طرفى المقص ، أو متى نجد أنفسنا قطعة من الزبد أمام سكين حادة ؟ !

هل نعود فنتحدث مرة أخرى عن عقدة فيتنام الأمريكية . أى أنها دخلت بقواتها أرضاً بعيدة فانهزمت فيها ؟ فأمريكا لم تحارب على أرضها بعد — نفس الحجة التى تقولها إسرائيل !

فأمريكا أرسلت إلى فيتنام نصف مليون جندى . وفقدت خمسين ألفا . وجرحت مائتى ألف . وخسرت مئات المليارات من الدولارات . وكانت غلطة أمريكا أنها لم تفهم الشعب الفيتنامى . إنما اعتمدت على المخابرات المركزية . وقدمت لها المخابرات « نجوين » ذلك الزعيم اللعبة الذى أدى إلى هزيمة أمريكا التى لا نظير لها فى التاريخ . حتى اضطرت أمريكا أمام الضغط الوطنى والفضيحة العالمية أن تتخلص من هذا الزعيم اللعبة ، بأن أقامت انقلابا ضده . وخرجت أمريكا . . ومن يومها لا تريد أن تدخل فى أفريقيا أو فى آسيا حتى لا تجد نفسها مطرودة من الباب والشباك . . فتخسر هيبة الدولة العظمى !

وسوف يتكرر فشل أمريكا إذا اعتمدت على أقزام من الحكام ، ولم تتجه إلى

الشعوب أو إلى الرجال ذوى الشعبية . .

وطبيعى جدا أن يستفيد السوفيت من أخطاء الأمريكان الفادحة . ومن المغامرات السياسية . ومن الخلل فى الحسابات . ومن البيروقراطية الشديدة فى إدارة البيت الأبيض .

ولكن شيئا هاما جدا قد حدث فى عهد الرئيس السابق كارتر ووزير خارجيته فانس . فقد اتبعا سياسة هادئة . وفى نفس الوقت . اتصفت بالشجاعة والشرف . فوقف أمريكا من النزاع العربى الإسرائيلى أكبر نموذج لذلك . فقد وضع كارتر السلام فى الشرق الأوسط المشكلة رقم واحد . وعكف عليها حتى تم اتفاق فى كامب دافيد . وأصبحت أمريكا شريكا وليست متفرجا أو حكما فى مباراة لا كأس فيها ولا دورى منذ ثلاثين عاما . وخرجت امريكا عن انحيازها الكامل لإسرائيل . وقررت أن تجد حلا رغم المشاكل الهائلة فى كل مكان .

وسوف تصبح مشكلة مصر وإسرائيل والعرب عاجلة مرة أخرى بسبب ما حدث بصورة دموية فى المنطقة أيضا . وحتى لا يستفحل الموقف فى إيران وفى تركيا أيضا ، حيث توجد عشرون قاعدة أمريكية . وحيث يوجد أكبر جيش فى حلف الأطلنطى كله . .

ولأن المشاكل فى الشرق الأوسط قد اتخذت ستارا دينيا أو معنى دينيا ، وقام رجال الدين بدور « تأنيب الضمير » فإن الموقف الأمريكى قد أصبح شديد الحساسية ، والمنطقة كلها حساسة ، بل هى أكثر وأكبر وأخطر مناطق العالم التهابا بالدين والبترول ، وأكثرها استعدادا لتكون ضحية لمن يتربص بها من كل جهة . .

وقد وصفت المنطقة كلها بأنها تشبه « هلال الدمار » أو « هلال الانحلال » وأن الدب الروسى يتربص بها كلها . . وينتظر أن تقع الفريسة على أرضها بعد أن ترهقها المقاومة الداخلية أو الحرب الأهلية أو اليأس من المساعدة الأمريكية .

* * *

فما الذى سيحدث فى الشرق العربى ؟

إن تجربتنا مع السوفيت واضحة تماما ، وهى أكبر دليل على أن المعونات السوفيتية مشروطة . . وعلى أن السوفيت يلعبون على وتر اسمه التمزق الداخلى ، والغليان القومى ، والحقد الطبقى . وإذلال الشعوب لكى تكون ذيلا لها . حتى الدول الأوروبية قد غضب عليها السوفيت لأنها قررت أن تكون اشتراكية متطرفة أو اشتراكية معتدلة أو حتى شرعية وطنية – دون أن تكون للسوفيت ولاية عليها . وهذا فى عرف السوفيت نوع من الإلحاد والجحود ، تماما كما فعلت الصين ويوغوسلافيا .

ومن الغريب حقا أن الصومال التى طردت الخبراء السوفيت تتجه إلى أمريكا لكى تعطيها السلاح ، أو حتى تيسر عليها شراءه من الغرب . ولكن أمريكا لا تفعل شيئا ؟ !

وسوف يزداد الخلاف حدة بين سوريا والسوفيت من ناحية ، وبين العراق والسوفيت من ناحية أخرى . وبين جناحى البعث أيضا .

ونحن يهمنا ألا نكون فى فلك الأمريكان أو السوفيت طبعا . ويهمنا جدا ألا يعود الأمريكى قبيح الوجه مرة أخرى . ولكن الذى يعنينا فى المقام الأول هو أن تحل قضيتنا وأن نقوم نحن بحلها ودون أن نجلس على حجر أمريكا أو على كتفيها ، إنما نحلها مواجهة مع إسرائيل . وقد جلسنا معها وسوف نكمل الاتفاق معها . .

فالسلام حيوى بالنسبة لنا . . ونريد أن نفرغ منه . لأن لدينا مشاكل داخلية ملحة ، فلابد أن يتوافر الرغيف والمقعد والدواء والتليفون والتليفزيون لكل إنسان . . لقد أنفقنا أموالا كثيرة نارا ودخانا فى الهواء دفاعا عن أرضنا وعن عروبتنا . ومن حقنا أن نوفر الحياة الضرورية لكل إنسان . .

إن دولة عربية واحدة قد خسرت عندما انخفض الدولار ما قيمته ١٤ مليار دولار !

إن نصف هذا المبلغ يكفى لإنعاش مصر على شكل استثمارات مشتركة . ولكن لابد أن نجد المال الغربى الذى نستثمره فى بلدنا . ولكى يتحقق لنا ذلك ، لابد من

السلام لكى تستقر الأرض تحت أقدامنا وكذلك تستقر أدوات البناء فى أيدينا . فإن حروبا كثيرة قد هدت كيان أمتنا ، وأبكتها بعضها على بعض وباعدت بينها .

وجعلتنا لعبة كبرى فى أيدى السوفيت ، فليست جبهة الرفض هذه إلا تجميعا للمتنافرين من أجل تفكيك الأمة العربية وضربها بعضها ببعض . مع أن الخطر الواحد والعدو المشترك يدعونا إلى أن نتحد ، ومع ذلك يتصايح العرب بالتضامن العربى . بالتضامن العربى مع من ضد من ؟ مع الروس فى حلف وارسو ضد العرب ؟

إننا لا نريد أن تكون منطقتنا مرة أخرى نهبا للصراع بين طرفى المقص – أو بين طرفى الوفاق ، ولا يصح أن تتوهم دول عربية أنه لا حياة لها بدون موسكو أو بدون واشنطون . بل لنا حياة مستقلة ، وإرادة مستقلة ، وأن نكون على مسافة متساوية مع الجميع . .

* * *

إن سنة ١٩٧٩ يمكن أن تسمى سنة السلام ، لأنها سنة الإرادة العربية المتحررة ، والتى يجب أن نحرص جميعا على تحررها ، ففى ذلك حياتنا وليس فى أى شىء آخر !

وليس صحيحا ما يقال من أن الدول الصغيرة غانيات فى كباريه السياسة . وأنها لذلك فى حاجة إلى بلطجى خواجة يحميها . فليست السياسة كباريها . . ولذلك فلسنا غانيات ، ولا ضرورة لأن يكون بيننا خواجة . فنحن نرى أن القيم الأخلاقية وأن الكرامة الوطنية وأن الشجاعة السياسية . . كلها قد دفعت إلى السلام ، وأنها قادرة على أن تحققه .

وليس صحيحا أن الحكمة التى تقول : « جوع كلبك يتبعك » – يمكن أن تنطبق على الشعوب . كما توهم إيدن والسوفييت أيضا !

ولكن مصيبتنا فى العالم العربى أننا نيام نيام . . وأننا ننظر إلى الخريطة ولكننا لا نراها ، فليس يكفى أن نفتح عيوننا لنرى ، فكم انفتحت عيون على فراغ . .

إن الذى يجرى حولنا ليس بعيدا عن أحد . ولذلك يجب أن نواجه الواقع الرهيب . وأن نراه . وأن نحسب مالنا وما علينا . وأن نسوى صفوفنا . . وأن نتقارب ، وأن نعرف أين مصلحتنا الوطنية .. وأن نريح أنفسنا بأن نقف على قاعدة صلبة هى : أن كل ما بين الشعوب هو مصالحات ومصالح ، وكلما كانت مصالحات كانت مصالح أكثر ، وهناك من يعلنون ذلك ومن يخفون هذه المعادلة التجارية البسيطة . .

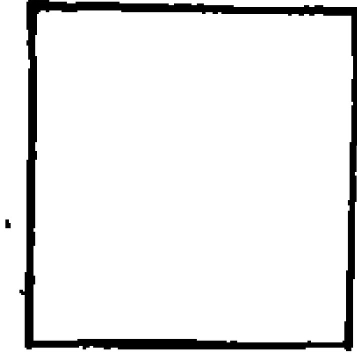
والذى « ينظر » إلى خريطة الشرق الأوسط يجد أن السوفييت راجحون على طول الخط . . ولكن الذى « يرى » الخريطة يهتدى إلى أن السوفييت سوف ينكشفون تماما . . فليس صحيحا أن روسيا هى قلعة الحرية وأم الوطنية ورائدة القومية ، وليس صحيحا أن الروسى « جميل الوجه » . .

فالدروس المستفادة متاحة للجميع . . ولذلك يجب أن نعيد قراءة التاريخ القريب للصين ويوغوسلافيا ومصر وسوريا والعراق وأفغانستان وأنجولا وليبيا وأثيوبيا . . وكيف سحق السوفيت كلا من المجر وتشيكوسلوفاكيا !

ولا تزال عبارة خروتشيف التى قالها فى أمريكا صادقة : إذا كنتم تتوقعون أن ينحسر المد الشيوعى فى العالم ، فسوف تنتظرون طويلا جدا . . تماما كما تنتظرون أن يتعلم الجمبرى كيف يرقص ويغنى على موسيقاكم المنحلة . . إن الشيوعى المخلص يجب أن يتفرج على شئ أو على أحد أو على حدث . . بل يجب أن يدخل فى أية معركة من أجل الحزب الشيوعى السوفيتى . . وهذه هى السيادة العالمية للعمال !

ولكن رغم ما قال وما يقال الآن ، ورغم الأحضان فى موسكو فإن سنة ١٩٧٩ قد شهدت انكشاف الأنياب السوفيتية .. وسوف تشهد الأعوام القليلة القادمة انحسار المد السوفيتى فى هذه المنطقة .. وليس ذلك من أجل دولة عظمى أخرى هى أمريكا . ولكن من أجل أن تسترد الشعوب حريتها وسيادتها على مصيرها .. ما دامت قد تعلمت آداب المعاملة فى سوق السياسة التى هى : أخذ وعطاء ..

فلا صداقة دائمة ، ولا عداوة دائمة ، إنما مصالح دائمة — إنها حكمة قديمة .



أيها الإمام خميني : ما الذى فعلته بالشرق الأوسط ؟

فضحتنا ثورة إيران : فقد ظن الناس أن شاه إيران يريد أن يجر شعبه إلى القرن العشرين ، وأن الإمام خمينى يريد أن يجر إيران إلى القرن الأول للهجرة ، كأن الإسلام دين متخلف أو يدعو إلى التخلف . ولكن هذه الثورة نبهت المسلمين وغيرهم إلى أن الدين الإسلامى ما يزال حيا شابا . فأربعة عشر قرنا من عمره لم تجعله كهلا . فالديانة المسيحية عندما بلغت مثل هذه السن قد دعت إلى التنوير فى أوروبا ، ودفعت إلى النهضة العلمية والفنية . . ولكننا نتأثر بما نقرؤه عن الإسلام فى صحف الحضارة الغربية التى هى خلاصة حضارات الإغريق واليهودية والمسيحية .

وفى سنة ١٩٢٠ ذهب جنرال فرنسى إلى دمشق وطلب أن يزور قبرا خارج المسجد الأموى وأخذوه إلى هناك . ووقف الجنرال يهز رأسه ساخرا يقول : لقد عدنا إليك يا صلاح الدين !

أى أنه بعودته هو وغيره ، لن تقوم للإسلام دولة وصولة بعد ذلك !

وقد أخطأ هذا الجنرال وملايين غيره !

وبقدر ما كان الغرب يجهل عن الإسلام كنا نحن نجهل عن المذهب الشيعى . وكنا ننظر إلى المذهب الشيعى على أنه مذهب ملىء بالخرافات . وأنه أبعد ما يكون عن الإسلام . وبذلك نضيف إلى الجهل بمذهب إسلامى ، وجهلنا أيضا بالإسلام نفسه .

هناك نقطة خلاف بين المذاهب الإسلامية . وهذه الخلافات مهما كانت . فإنها لا تجعل مذهب الشيعة مذهبا كافرا .

هناك مسافة بين ما قاله الرسول ﷺ عند بئر «خم» وبين ما قاله خمينى .. أربعة عشر قرنا هى عمر الإسلام وعمر الشيعة . فهناك حديث نبوى شريف صحيح دعا فيه الرسول ﷺ إلى التشيع لعلى بن أبى طالب : أول وآخر من ولد فى الكعبة ، وأول من آمن بالرسول من الشبان . وابن عمه ، وزوج ابنته والشهيد أبو الشهداء ، ويقول الشيعة إنه بعد أن رجع الرسول ﷺ من حجة الوداع وصل إلى بئر خم . وخطب فى الناس قائلا : إن الله مولاى . وأنا مولى المؤمنين . وأنا أولى بهم من أنفسهم . فمن كنت مولاه ، فعلى مولاه ، فعلى مولاه . فعلى مولاه . . اللهم وال من والاه . وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه . وأبغض من أبغضه . وانصر من نصره ، واخذل من خذله . وأدر الحق معه حيث دار . ألا فليبلغ الشاهد الغائب » .

وقد ألف أحد علماء الشيعة ، واسمه عبد الحسين الأمينى ، كتابا فى ١٢ جزءا ، اسمه « الغدير » يقصد « غدير خم » وفى هذا الكتاب جمع كل الأحاديث والنصوص التى تؤيد خلافة على بن أبى طالب . .

واتهم الشيعة رجلين فى مصر : الأستاذ أحمد أمين . لأنه هاجم المذهب الشيعى . واتهموا د . محمد حسين هيكل باشا بأنه قبض ٥٠٠ جنيه مقابل أن يحذف هذا الحادث الخطير من الطبعة الثانية من كتابه « حياة محمد » ؟ !

هذا الحديث قد رواه ١٢٠ صحابيا و١٨٤ من التابعين و ٣٦٠ من أئمة الحديث .

والشيعة يرون أن خطبة الرسول هذه هى دعوة إلى الشيعة — فلا خلاف بين الشيعة والسنة فى صحة هذا الحديث . إنما الخلاف فى تفسير كلمات الولاية والحب !

وهى قضية بين المذاهب الإسلامية ، ولكنهم جميعا مسلمون .

ولم نكن نعرف ونحن صغار ما الذى كان يقصده ارشميدس بعبارته الشهيرة :

أعطنى مكانا خارج الكرة الأرضية وأنا أحركها لك . . حتى قامت ثورة خمينى . فقد استطاع هذا الرجل أن يكون بعيدا عن أرض إيران ١٤ عاما . فحركها عن بعد . . بل إنه حركها من داخلها . وأسقط ملكها وعرشها وجيشها . .

واستحقت ثورة إيران أن تكون أعجوبة القرن العشرين . .

بل إن الرئيس السادات يرى أنها الثورة الكبرى الثالثة فى التاريخ .

فالثورة الفرنسية هى الأولى . والثورة الروسية هى الثانية !

وككل ثورة تبدأ عادة بالعنف وتنتهى بالاعتدال . فالإمام خمينى اليوم هو أكثر الناس اعتدالا . وأكثرهم إلحاحا على الشعب أن يلقى سلاحه . ورئيس وزرائه يهدد بالاستقالة إن ظل أتباع خمينى بهذه الصورة الدموية الوحشية التى تجعل العالم يتصور أن المسلمين مصاصو دماء البشر ، وهمجيون ضد الحضارة والتفكير السليم .

ولكن الثورة عادة : نار تأكل نفسها وأبناءها ووعودها . .

أما الثوار فهم مثل الأثرياء : ليس لهم أولاد . ولكن لهم ورثة فقط !

ولذلك يحاول الثوار أن يخطفوا الثورة وأن يرثوا خمينى حيا ، ولذلك رأينا الخلافات بين آيات الله فى إيران . . وبين « مجاهدى الخلق » أتباع خمينى . . وبين « فدائى الخلق » من الماركسيين المسلمين (؟ !) الذين يريدون أن تكون لهم شرعية ماداموا قد هتفوا ضد الشاه فى الشوارع . وهتفوا بحياة خمينى الذى أعلن عداءه للإلحاد وللماركسية وللاستعمار الغربى فى نفس الوقت . .

إن الشرق قد تغير تماما بعد ثورة إيران . لم يعد شىء له نفس الحجم والوزن واللون – وكل إنسان يحاول أن يغير ريشه وجلده ونظرته ونظريته ليعايش الثورة الإيرانية . أما السوفيت فهم أسرع فى مهاجمة الشاه . وأسرع فى التحذير من خمينى . وأسرع فى أن يذهبوا فى اتجاه الريح . ويملأوا أشرعة سفنهم بعواصف التغيير .

وقد أعلن بونومارييف عضو المكتب السياسى السوفيتى فى برافدا يوم ٣ فبراير سنة ١٩٧٩ أن فيتنام وكمبوديا ولاوس وأنجولا وأثيوبيا وأفغانستان واليمن الجنوبية

كلها تمشى فى الاتجاه الصحيح . وأعلن أن قلاع الفاشية قد سقطت فى أسبانيا والبرتغال واليونان . وأن الثورة فى إيران قد نجحت ولم يشأ أن ينعت هذه الثورة بأية صفة . إنما هى نجحت . فروسيا كانت ترى أن الشاه أحسن حالا من خمينى . لأن إيران كانت قد استقرت . ولذلك استقرت الولايات الإسلامية على حدود إيران . أما الآن فقد أثارها خمينى . ولذلك سحبت روسيا كل الشيعة على حدود إيران فى تركستان وأزبكستان وأذربيجان . وراحت تشوش على إذاعة طهران !

وفى نفس الوقت وزعت منشورات وكتبا جديدة عن وجوه الشبه بين الإسلام والماركسية . ولذلك وجدنا « فدائى الخلق » الماركسيين يعلنون فى كتاب بعنوان « العدل طريق الحكم » أن الإسلام والماركسية كلاهما يدعو إلى العدل الاجتماعى ويدعوان إلى إنصاف الفقير من الغنى . فالإسلام والماركسية مذهب واحد !

تماما كما تقول : إن الشمس والخرائب لا يسكنهما أحد !

ويشكك « فدائيو الخلق » فى موقف الأمريكان . ويرون أنهم قد يطبقون « التكتيك الشيلى » فى إيران . . أى ما فعلوه فى شيلى . وذلك بأن يساعدوا خمينى أول الأمر . ثم يشجعوا العناصر المناوئة له فإذا فشل شجعوا الجيش على أن يقوم بانقلاب ضده . وهو شىء بعيد عن الواقع ، وأمل إبليس فى جنة الشاهنشاه ! — وكانت جنته لأسرته فقط !

وستالين هو الذى قال فى سنة ١٩٤٦ : إذا اشتعل عود كبريت فى طهران ، فإننى أرى ذلك خطراً على السوفيت ! !

* * *

فما الذى فعله خمينى فى الشرق الأوسط . وفى العالم الإسلامى كله ؟ الكثير . الدنيا تغيرت ، وسوف تشجع ثورة خمينى كل المسلمين (٦٠٠ مليون سنى و ١٠٠ مليون شيعى) على أن يعتزوا بدينهم . وأن يروا فيه الصيغة الكاملة لحل كل المشاكل الدنيوية . وليس عجيبا أن يفزع الناس إلى الله فى ساعات المحن . . وقد فزع الإيرانيون إلى الله بعد فشل مصدق . ورأوا فى خروج الشاه بعد ذلك انفتاحا

لطاقة القدر . ولكن بعد أيام عاد الشاه . وانسدت فى وجوههم طاقة القدر وانسدت نفوسهم . وضاقت قلوبهم ، وزاد يأسهم يوم طرد الشاه الإمام خمينى . ثم انفتحت طاقات القدر كلها يوم عاد من باريس ليحكم بكتاب الله فى عباد الله . .

وقد عرفنا هذا الفزع إلى الله بعد نكسة ١٩٦٧ : ضاقت بنا الأرض . وضقنا بأنفسنا . واتجهنا إلى الله . . يأسا من الناس ومن السياسة والحرب . . وليست هذه الاتجاهات الدينية المتشددة والمتهورة فى مصر إلا نوعا من الفزع إلى الله . . ولذلك أطال الشباب لحاهم . وغطت الفتيات وجوههن وأيديهن .

والمعنى : أنه لا ملجأ للخلق إلا عند الخالق . إلا فى دين الله ، وأنهم يطلبون الهداية والرعاية فهم ما يزالون صغارا .

والثورات التى ظهرت فى الشرق العربى كلها اتخذت طابعا دينيا إسلاميا أول الأمر . واعتدلت فوضعت الإيمان والعلم معا : توأما . فالإيمان بغير علم : أعمى . والعلم بغير إيمان : ضعيف ، والحكمة السياسية هى الاعتدال بين هذين العنصرين . والخوف دائما هو أن المزيد من العلم يؤدى إلى الكفر والإرهاب . والتعصب فى الدين يؤدى إلى الجهل والدم . والماركسيون صورة للعلم والإرهاب . والجمعيات الدينية المتهوسة صورة من الجهل والإرهاب أيضا .

واهتزت الأقلام فى مهب الريح . تميل يمينا ويسارا . فلا أحد يرى بوضوح . فالذى حدث فى إيران ليس له مثيل فى تاريخنا الحديث . ولا أحد يعرف بالضبط كيف استعد خمينى وكيف استعدى . وكيف تسلل وتغلغل . وكيف سحب بساطا عجميا من تحت عرش الشاه . وسحب الشاه ووراءه الخمسة والعشرون قرنا من عصر قورش الذى أعاد اليهود إلى القدس . وعفا عنهم فأقاموا فى إيران يحتكرون صناعة السجاد والزمرد والكافيار . وكل البنوك ، ومؤسسة بهلوى التى تملكها أسرة الشاه ، واليهود الأمريكان هم الذين ساعدوا الشاه على قيام جيش لعله فى حالة الصراع مع العرب يحتل كل آبار البترول !

وأعلن بختيار أنه ليس حارسا للخليج ، وهى نفس العبارة التى قالها هابيل عندما قتل أخاه قابيل : وهل أنا حارس لأخى ؟ ولكن الثورة الإسلامية فى إيران أعلنت أنها لن تكون حارسا لأحد ضد أحد . ثم عادت فأعلنت ضرورة وحدة المسلمين ، سواء تكلموا الفارسية مثل إيران . أو العربية مثلنا . وسواء كانوا من الشيعة أو من السنيين مثل معظم العالم العربى . .

ولكن ثورة إيران عادت فهاجمت كل دول الخليج .

* * *

هاجمت السعودية ، واتهمت نظام الحكم فيها وفى إمارات الخليج وفى الكويت .

والسعودية بادرت بعقد معاهدة أمن بينها وبين العراق لتسليم المجرمين الفارين . ففى الجانب الشرقى من السعودية يوجد ربع مليون شيعى من الإيرانيين وغيرهم . وهناك حساب قديم بين الشيعة والسنة فى السعودية . فالسعودية تدين بمذهب الإمام محمد بن عبد الوهاب . وهو رجل حنبلى متشدد فى دينه . وابن عبد الوهاب قد اتجه إلى التفسير الجديد فى الإسلام بسبب مارآه فى العراق . فقد رآهم فى العراق يزورون المقابر . ويرتدون السواد . ويلطمون الخدود ويشقون الجيوب أسفا على الإمام على والإمام الحسين وإخوته وأولاده . فجاء المذهب الوهابى يدعو إلى إلغاء كل الذى لم يفعله رسول الله ﷺ فهم فى السعودية لا يبنون القبور والأضرحة ، ولا يحتفلون بمولد النبى ﷺ وعاشوراء ورأس السنة الهجرية . . إلى آخر ما نفعله نحن فى مصر أيضا !

وسوريا استطاعت أن تحصل على فتوى من الإمام الشيعى اللبنانى موسى الصدر بأن الأقلية العلوية الحاكمة من الشيعة !

وسارع البعث السورى بالاعتراف بالإمام خمينى . تماما كما سارع قبل ذلك الرئيس الأسد إلى الشاه فى أعقاب زيارة الرئيس السادات لإيران . وطلب الرئيس الأسد من الشاه مزيدا من المال . تماما ، كما طلب من الإمام خمينى المزيد من البركة .

ولم ينس الإمام خميني أنه لم يحدث فى تاريخ المذهب الشيعى أن ذبح مثل هذا العدد من الشيعة فى جنوب لبنان . والقاتل هو البعث السورى . فقد ذهبت سوريا – ولا أحد يعرف لماذا ذهبت حتى الآن – لحماية الشعب الفلسطينى من المارون اللبنانيين . وفى الطريق إلى حمايتهم ذبحت الألوف من المسلمين الشيعة الفقراء .

وسارعت سوريا فى نفس الوقت لعمل حلف مع العراق . فالتقى الاثنان مرة أخرى . مرة لمواجهة مصر ومرة لمواجهة ثورة إيران ، مع أن حكومة العراق أعلنت أنها دولة علمانية . أى ليس لها دين رسمى . وهذا موقف غريب حقا . فالعراق تحكمه أقلية من السنة . والأغلبية الساحقة فى العراق من الشيعة (٧٠ ٪ وأكثر) وأعلنت سوريا أنها دولة علمانية أيضا ، كما أعلن ياسر عرفات أن دولة فلسطين علمانية . ولكنهم جميعا سارعوا بتلمس البركة من ثورة إيران .

* * *

ومن يقرأ صحف العراق لا يجد سطراً واحداً عن ثورة إيران ، خوفاً من العدوى . .

وفى العراق توجد كل الأماكن المقدسة عند الشيعة فى النجف وكربلاء . وسوف تذهب شيعة إيران إلى العراق للحج ، وسوف يسأل الإيرانيون عن البيوت التى أقام فيها آية الله خمينى ١٤ عاما . قبل أن تطرده العراق وتغتال ابنه آية الله مصطفى سنة ١٩٧٧ . فى نفس الوقت الذى اغتيل فيه ابن خمينى ، اغتال الشاه أيضا د . على شريعتى فليسوف الثورة الإسلامية . . الذى علقت صوره على كل أعمدة النور فى طهران !

والعراق يخاف من أن يتحرك الأكراد فى العراق وفى إيران وفى سوريا . وكان العراق قد وقع اتفاقية مع شاه إيران فى ٥ مارس سنة ١٩٧٥ . وتعهد الشاه ألا يساعد الأكراد وألا يمدهم بالسلاح . واستقر الوضع الكردى على الحدود . أما

الآن فيتحرك الأكراد لإقامة دولة منفصلة . هذه الدولة تقع على حدود الدول الثلاث !

والكويت ليست أحسن حالا من العراق . فهى لا تخاف من تحريك الأقلية فيها . فالكويتيون هم الأقلية فى بلادهم . إنما هى تخاف العراق ، وكانت إيران هى السد المنيع ضد تحقيق الآمال العراقية بالاستيلاء على الكويت .

وربما كانت البحرين هى أكثر إمارات الخليج خوفا ، ففيها جالية شيعية ضخمة . وكان شاه إيران يطمع فى ضمها لهذا السبب . وأعلن ذلك صراحة فيما بين سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٧٠ . واستطاعت السعودية وبريطانيا أن تقفا أمام التوسع الإيرانى ، وأخيرا اعترفت لها الأمم المتحدة بأنها دولة ذات سيادة . ولكن الإيرانيين رغم أنه لا يوجد علم واحد يرفعونه فى البحرين . فهم الذين يحكمون الحياة والتجارة والمستقبل أيضا .

ولابد أن يكون لدى الإمام خمينى ما يجعله يضحك بعض الوقت ، فهو رجل لا يضحك ، والذين قارنوا بينه وبين غاندى كانوا يقولون إن غاندى كان يتهلل للنكتة وكان يرويها ويطلبها أيضا . إلا الإمام خمينى ، ولكن الذين عايشوه سجلوا عليه الضحك مرتين : مرة عندما دعاه الرئيس القذافى لزيارة ليبيا فى طريق عودته إلى إيران .

ووجد الإمام خمينى أن هذه الدعوة تدل على سوء ظن به وبذكائه أيضا . فالرئيس القذافى هو الذى أخفى الإمام موسى الصدر ، أعدمه أو اغتاله تعاونا مع سوريا . ولذلك رفض أن يتوقف فى ليبيا . ورفض أموال ليبيا أيضا . لأن لديه من أموال الشيعة التى يدفعونها زكاة للجهاد . عشرات الملايين ينفقها على الفقراء فى إيران وفى العراق . .

والإمام خمينى هو الذى قال للذين حوله إن الرئيس القذافى لم يقرأ ما كتبه أديب فارسى . . هو ابن المقفع . وابن المقفع قطعوا ساقيه وألقوهما فى النار لأنه سرق ، وقطعوا يد أبيه قبل ذلك لأنه زور فى إحدى الوثائق . . وابن المقفع هو

الذى ترجم قصص «كليلة ودمنة» ومن بينها قصة أن الأسد عندما مرض ذهب لزيارته كل وحوش الغابة . . إلا الثعلب . ولما سألوا الثعلب . قال : إنى أرى آثار أقدام الوحوش قد اتجهت كلها نحو عرين الأسد . ولا أرى قدما واحدة قد اتجهت إلى الخارج !

وضحك خمينى مرة أخرى عندما علم – ولا نعرف كيف – أن شاه إيران قد صلى فى أسوان وراء إمام سنى . . وأنه لم يخرج من جيبه قطعة الفخار التى أخذت من تراب النجف وكربلاء ليضعها بين جبهته وبين أرض المسجد . . فالشيعة لا يسجدون إلا على أرض كربلاء أو قطعة منها وقال خمينى : كفرت يا جلالة الامبراطور . . فنحن لا نصلى وراء إمام . . فإمامنا غائب !

ورفض خمينى أن يستقبل القذافى ، الذى يريد أيضا أن يتلمس البركة من ثورة المسلمين فى إيران . . فخمينى رفض الأمريكان والسوفيت . بينما الرئيس القذافى عنده السوفيت والألمان والكوبيون والكوريون . . وهم جميعا يعيشون من فلوس الأمريكان !

وقد أعلن الرئيس القذافى أنه سوف يعقد حلفا عسكريا مع أثيوبيا لمواجهة حلف آخر بين مصر والسودان . . وأنه على استعداد لأن يوقع مثل هذا الحلف مع أية دولة أخرى تقدمية فى أفريقيا .

ولذلك راح يصب أمواله إلى جانب الأسلحة السوفيتية والمرتزقة الكوبيين والكوريين والألمان الشرقيين ضد اليمن الشمالية . أى يساهم فى حرب ضد بلد عربى . وهو أيضا أحد الذين وافقوا على القرار السرى فى مؤتمر الرفض ببغداد بتأييد اغتيال رئيس اليمن الشمالية ؟ ! .

وكانت اليمن شمالا وجنوبا مقبرة للغزاة .

وسوف يغرق اليمن الجنوبى الفقير جدا ، بأسلحته المتطورة جدا وقواته المرتزقة ودولارات ليبيا فى حرب لا أول لها ولا آخر . .

وسوف نتفرج – مع الأسف – على ما الذى سوف يفعله السادة : صدام

حسين وحافظ الأسد والقذافى . . نجوم مؤتمر بغداد ، فى أول امتحان لقرارات مؤتمر بغداد الذى لم يتخذ موقفا واحدا ضد إسرائيل ولا من أجل فلسطين .

ولم نسمع حتى الآن ما الذى سيفعله صغار مؤتمر القمة فى بغداد للسودان . . وهى دولة عربية شقيقة . وقد رفض الرئيس منجستو أن يحل أو يربط مع الرئيس نميرى . بل إنه هدده بتحريك جنوب السودان ضد شمال السودان . . وسارع الرئيس القذافى يشد أزر منجستو فى أى عمل مشترك ضد السودان .

ولا أحد يعرف ما الذى سيفعله زعماء مؤتمر بغداد لما سوف يحدث فى سلطنة عمان . وكان الشاه يحميها ضد الشيوعيين فى منطقة ظفار .

* * *

وقد وعدت مصر بمساعده أى بلد عربى يطلب ذلك . سواء كان سلطنة عمان أو الكويت أو حتى السعودية . . بل إن مصر مستعدة إذا طلبت السعودية أن تبعث إليها بأسراب الميراج التى اشترتها السعودية قبل ذلك لمصر . إذا طلبت ذلك .

ومصر لا تقوم بدور « الشرطى » فى المنطقة . فلا يستطيع أحد أن يفعل ذلك لا فى المنطقة ولا فى العالم كله . إن أمريكا وهى أقوى دولة فى العالم قد نزلت عن هذا الدور . وقد أعلن الرئيس السابق كارتر عند إقرار ميزانية الدفاع الأمريكية أن أمريكا لم تعد حارسا للسلام . إنما هى صانعة للسلام فقط . . وليست هذه سياسة جديدة لأمريكا ، أو حتى للسوفيت ، إنما هى سياسة استقرت ثلاثين عاما وجربت ٢١٢ مرة – كما ذكرت من قبل – ولم تحاول أمريكا إلا مرة واحدة أن تقوم بدور الشرطى . وتلقت ما تستحقه بعد ذلك فى فيتنام .

وليست لمصر أية أطماع فى أى مكان من العالم العربى . إنها فقط تسعى لمساعدة الشقيق العربى ضد العدوان ، حتى لو كان عدوان شقيق عربى أيضا ! ونحن نرى الأشقاء يعتدون بعضهم على بعض الآن . . فى لبنان وفى اليمن وفى ليبيا .

وعلى الرغم من أن مصر قد أكدت رسميا لإيران أنها مع الشعب الإيرانى . وأنها لن تسمح لفرد أو أفراد أن يعملوا ضد الشعب الإيرانى . فإن يازدى نائب رئيس

وزراء إيران قد هاجم مصر فى حديث نشرته صحيفة « نيويورك تايمس » . . واحتجت مصر على ذلك رسميا .

وطبيعى فى بداية الثورات : ألا يميز الثوار كثيرا بين حجم الأصدقاء وحجم الأعداء . ولا بين الذين يستغلونهم وبين الذين يتعالون عليهم أو يتآمرون ضدهم . . وعلى الرغم من أن إيران لم تهاجم ليبيا . فإن بين البلدين ما هو أكثر من العار . . وهجوم إيران على السعودية ظلم للسعودية أيضا . . فليس فى السعودية هذا القهر والإرهاب والجوع الذى كان فى إيران قبل الثورة . . كما أن السعودية لم تكن صديقا للشاه . إنما كانت تنظر إليه بالخوف والشك . . وموقف السعودية من مؤتمر بغداد ، لم يكن إلا تورطا ومحاولة يائسة ألا تكون طرفا . ولم تفلح ! .

ولأن د . يازدى كان بعيدا عن العالم الإسلامى ، فهو لم يدرك بوضوح ما الذى تغير فى الأربعة عشر عاما التى أمضاها هو أيضا خارج الشرق الإسلامى . . وما الذى تغير فى مصر . فهو لا يعرف أنه لا يوجد فى مصر إلا عدد قليل جدا من الشيعة . . عشرات . وأن المصريين لا يعرفون التعصب الدينى . وأن التسامح أسلوبهم فى الحياة . . ولو وقف أى إنسان على باب مسجد سيدنا الحسين وسأل الداخلين السعداء : ما هى العلاقة بين الحسين والمذهب الشيعى . لوجد أن ٩٩ ٪ لا يعرفون . إنما كل ما يعرفونه هو أنه الشهيد الحسين ابن فاطمة بنت الرسول وابن على ابن عم الرسول . وأنه بركة من رائحة أهل البيت !

ولست أهين أحدا إذا قلت إن أكثر القراء فى مصر لم يعرفوا معنى المذهب الشيعى إلا أخيرا . والفضل فى ذلك للإمام خمينى ! .

ولا حدود ولا سدود أمام ثورة إيران . . فلا أحد كان يتوقعها . ولا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك فى الحياة الدينية ، وشكل الحكم والحياة الاجتماعية ، ولا فى حسابات الدول الكبرى والعظمى . . ولكن من المؤكد أن هناك شيئا واحدا صحيحا : أن الإسلام أكثر حيوية من المسلمين . وأقدر على

التحديات وعلى إصلاح الفساد ، وأن التطبيق المحكم للإسلام قادر على حل مشاكل الناس .

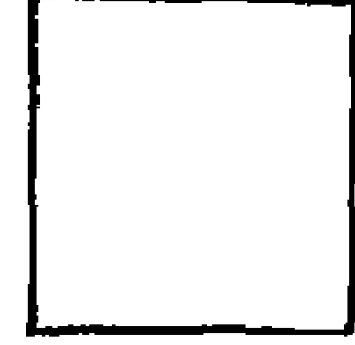
وليس عجبا أن نجد عمال الفحم فى بريطانيا يطالبون وزير الطاقة « أنتونى بن » بأن يعلق فى مكتبه صورة آية الله خمينى . . فقد انقصت ثورة إيران كميات البترول ورفعت سعره . وقد أدى ذلك إلى حل مشكلة الفحم فى بريطانيا . وهى مشكلة معلقة منذ أكثر خمس سنوات . . فإلى أن تهدأ الأوضاع فى إيران . وإلى أن يجد العلم الحديث مصادر جديدة للوقود فسوف يبقى الفحم هو الخندق الأخير فى معركة الطاقة .

وفى بداية ثورة إيران كان الشعب يمزق الأوراق المالية ، لأن عليها صورة الشاه .

أما الآن فقد حدث تغير خطير : إنهم يكتفون بطمس صورته ثم يضعونها فى جيوبهم ! .

وللتغيرات بقية سوف تأتى . .

إنها مسألة وقت قبل أن ينتهى « المخاض » الجديد فى العالم العربى .



من القاهرة إلى أماكن أخرى كثيرة !

كان الرئيس السادات قد فرغ من رياضة المشى اليومية بعد أن تجاوز الساعة نظر فى ساعته ، كانت الرابعة تماما عندما قيل له : مكالمة تليفونية يا سيادة الرئيس .

فسأل : من ؟

قيل له : إنه الرئيس كارتر .

وفى تلك اللحظة أخبره الرئيس كارتر أنه قرر أن يجىء لزيارة الشرق الأوسط .

فقال له الرئيس السادات : أهلا وسهلا . هذا أفضل .

وقال له الرئيس كارتر : ولكن لن أعلن هذا النبأ قبل أن أتصل بك مرة أخرى .

ثم عاد فاتصل بالرئيس السادات يقول له : إنه تناقش مع مستشاريه ، وسوف يعلن هذا النبأ .

وهذه هى المرة الثانية التى يجىء فيها الرئيس كارتر إلى مصر . فقد توقف قبل ذلك فى أسوان يوم ٤ يناير عام ١٩٧٨ . . وفى مطار أسوان أكد حرصه على السلام وأكد شيئا جديدا . . أن الشعب الفلسطينى له حق فى أن يشارك فى مستقبل حياته . .

وكان الرئيس السابق كارتر قادما من طهران . وقد دعاه الشاه السابق لقضاء رأس السنة هناك وعندما أطفئت الأنوار على موسيقى الفيس بريسلى .. غاب الجميع

فى قبلات عائلية ، وأعلن الرئيس كارتر فى عبارة واحدة . . هى خلاصة سوء الفهم وسوء التقدير لكل مافى إيران والمنطقة كلها . قال ! إن إيران جزيرة أمان فى الشرق الأوسط !

وكان الرئيس كارتر يشكو إلى ماقبل مجيئه إلى مصر بأيام أن أجهزة المخابرات الأمريكية والمباحث الفيدرالية ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع تبعث إليه بالكثير جدا من الأخبار والقليل جدا من التحليلات !

وكارتر هو رابع رئيس أمريكى يجىء إلى مصر . وكان أول الرؤساء هو الرئيس روزفلت الذى انتخب فى سنة ١٩٤٣ للرياسة للمرة الرابعة . جاء إلى القاهرة مع تشرشل وتشانج كاى تشيك للبحث فى وسائل هزيمة اليابان ، أما الرئيس الثانى الذى زار مصر واستقبله الشعب استقبالا حارا مثل استقبال كارتر ، فهو الرئيس نيكسون . . والرئيس الثالث هو جيرالد فورد الذى توقف فى أسوان أثناء زيارة الشاه محمد رضا بهلوى هاربا من بلاده أمام ثورة الشعب . . وراء الزعيم آية الله روح الله خمينى .

ولكن زيارة الرئيس جيمى كارتر ذات أهمية بالغة لأمريكا وللعالم الغربى وللشرق الأوسط كله بما فيه مصر وإسرائيل . . فلم يعد كلاما جديدا أن النفوذ الأمريكى يتقلص بصورة تهز صورة أمريكا دوليا عند أصدقائها فى الغرب والشرق . وكذلك جيمى كارتر . . فهو يلقى سخرية شديدة فى أمريكا نفسها . ويرونه صورة للضعف الشديد فقراراته اتسمت بالتراجع أو بالتردد أو بالحذر الشديد . والأمثلة على ذلك كثيرة ، مثلا : فى موقف أمريكا من إيران . ففى عام ١٩٧٨ قرر كارتر أن يبعث بإحدى حاملات الطائرات الموجودة فى الفلبين . وأصدرأمرا بأن تتجه إلى الخليج لمساندة الشاه . ثم عاد فعدل عن هذا القرار . وهاجمه رجال الكونجرس الأمريكى ، بل إن زعماء حزبه هو قد هاجموه لمجرد أنه فكر فى هذا الأسلوب العنيف لمساندة الشاه ضد شعبه . . ثم عاد الرئيس الأمريكى فأصدر قرارا فى فبراير عام ١٩٧٩ بأن تتجه إحدى حاملات الطائرات إلى الخليج . . ثم أصدر قرارا بأن

تتوقف فى منتصف الطريق . وكانت حجته فى ذلك أن ذهاب حاملة طائرات إلى هذه المنطقة سوف يشعل النار بدلا من أن يخمدها . وأخيرا أصدر قرارا بأن تذهب أكثر من قطعة بحرية إلى الخليج وإلى القرب من اليمن . .

ولما جاء وزير الدفاع الأمريكى السابق هارولد براون حصل على موافقة مصر فى أن تمر بقناة السويس إحدى قطع البحرية التى تدار بالطاقة النووية :

وجاء هذا الموقف العلنى بناء على إلحاح السعودية التى طالبت بأن يكون لأمريكا « حضور » ملموس فى الخليج .

وتحركت قطع الأسطول الأمريكى إلى المنطقة لمساندة الموقف السياسى السعودى . . والموقف العسكرى المتدهور فى اليمن الشمالية . وقد أعلنت أمريكا موافقتها على أن تمد اليمن الشمالية بما يعادل ١٤٠ مليون دولار من الأسلحة تدفعها السعودية . . وأعلن هارولد براون عن موافقة أمريكا على تزويد اليمن الشمالية بمزيد من الأسلحة فى حدود ٥٠٠ مليون دولار تدفعها السعودية أيضا .

ثم قدم سيروس فانس وزير خارجية أمريكا السابق احتجاجا رسميا فى خطاب شديد اللهجة على الوجود السوفيتى فى اليمن الجنوبية ، سلمه إلى دوبرينين مندوب روسيا الدائم فى الأمم المتحدة .

وفى اليمن الجنوبية ألف خبير سوفيتى و٥٠٠ كوبى و ١٠٠ ألمانى شرقى ، وبها ٢٥ ألف مقاتل و ٣٠ طائرة مقاتلة و ٢٠٠ دبابة .

وجاءت مشاركة أمريكا الإيجابية فى مشكلة الشرق الأوسط بعد جهود مضنية من مصر . فلم تعد أمريكا حكما فى مباراة إنما هى طرف ، فهى التى تحمل إسرائيل على قلبها وعلى معدتها وعلى جيبها ، وهى التى نزلت بكل أسلحتها لتساعدها فى حرب أكتوبر ، مما جعل مصر تقبل وقف إطلاق النار فورا – لأن مصر لا يمكن أن تقف فى حرب ضد أمريكا . . ثم إن أمريكا طرف يعطى المال والمساندة الأدبية والسياسية . وأصبحت طرفا . واشتركت فى اتفاقيات السلام فى كامب دافيد ، والتسوية الشاملة فى القاهرة . أو بين القاهرة وتل أبيب .

وربما كان قد اقتنع الرئيس كارتر بأن تمتد زيارته للقاهرة يوما وفى إسرائيل يوما . ويقوم سيروس فانس بدور المكوك ذهابا وإيابا بين مصر وإسرائيل .

وزيارة كارتر مفاجأة ، فقد كان من المتوقع أن يسافر الرئيس السادات . وينعقد مؤتمر قمة . وربما يتم التوقيع بالحروف الأولى أو بالحروف كلها . على أن يتم الاحتفال الرسمى بذلك فى سيناء .

ولكن مناحم بيجين لا يريد التوقيع النهائى فى جبل موسى . . ويرى أن يتم التوقيع بالعربى فى القدس وبالعبرى فى القاهرة وبالإنجليزية فى واشنطون .

ولكن مناحم بيجين قد عرف عند مجيئه إلى الإسماعيلية أن استقباله فى القاهرة ، إن لم يكن سابقا لأوانه تماما ، فهو فى غاية الصعوبة ، فليس من السهل استقباله فى القاهرة وهو ما يزال يحتل أرضنا المصرية . وقد تفهم بيجين هذا الموقف الصعب . ولو نظر بيجين المتشدد الهارب من السلام إلى العلم الإسرائيلى وراء المنصة التى جلس عليها فى الإسماعيلية لوجده ملفوفا تماما – فلا يرى أحد لا لونه ولا نجمة داود – وكذلك النفوس تنطوى على مضض ، وعلى مرارة ، وعلى سوء ظن به !

وتكهربت الدنيا عندما أعلن أن الرئيس الأمريكى جيمى كارتر سوف يزور مصر وإسرائيل ، ويرافقه وزير خارجيته سيروس فانس ومستشار الأمن القومى بريجنسكى . . وعدد من المستشارين ، وألف صحفى عالمى . ثم أعلن أن وزير الدفاع هارولد براون الذى كان فى المنطقة . سيرافقه أيضا . وأحس العالم كله أن هذه ليست زيارة ، إنما هى « غزوة عسكرية سياسية » ليس لها مثيل فى تاريخ أمريكا . فلم يفعل أى رئيس أمريكى شيئا مثل ذلك من قبل .

ولكن هذا يؤكد أن كارتر كما قال فى مصر « إننى نذرت نفسى للسلام » وهو رجل مؤمن بالله حقا وصدقا ، ومؤمن بأن الله هو السلام . . فهو من منطلق دينى يريد السلام ، ومن منطلق سياسى يريد السلام للأصدقاء ورعاية وحماية للمصالح الأمريكية ، ودفعا للتغلغل السوفيتى .

وجاء إلى المنطقة تحت ستار من نيران الإذاعات المعادية للسلام ولمصر ولأمريكا .

ويقال إن كارتر قد عرف أخيرا ومتأخرا فى مؤتمر القمة الذى عقد فى البحر الكاريبى فى جزيرة جواديلوب أن الموقف فى الشرق الأوسط خطير . . وأنه يجب أن يفعل شيئا سريعا وإلا فات الأوان وتضاعف العدوان ، وأصبح على السلام السلام !

ومن المؤكد أن الرئيس الفرنسى السابق جيسكار ديستان هو الذى أطلعه على حقيقة ماجرى فى إيران . . وأن المستشار الألمانى شميت هو الذى أقنعه بأن الموقف الإيجابى منه هو شخصيا . . هو المطلوب فى تلك اللحظة ! وفى هذه اللحظة تولدت فكرة أن يجىء بنفسه إلى الشرق الأوسط .

ولما تناول طعام العشاء مع مناحم بيجين فى البيت الأبيض ، وقام بيجين يصب النبيذ على طريقة اليهود يوم الصيام . . وبعد ثمانى ساعات من المناقشات المضنية والسمسرة السياسية ، أحس الرئيس كارتر أن السلام يحتضر ، وأن بيجين هو حانوتى السلام فى المنطقة . . وأن بيجين على استعداد لأن يدفن الرئيس كارتر فى الانتخابات ملفوفا فى كفن من حرير اسمه : السلام فى الشرق الأوسط . . هنا ، وللمرة الثانية أيقن أنه لابد من عمل إيجابى !

وأعلن الرئيس كارتر أنه سوف يزور المنطقة . وكانت مفاجأة لبيجين ، تماما مثل مفاجأة مبادرة السادات للسلام . فقد أحس بيجين أنه سيجد نفسه يواجه أقوى رجل فى العالم ، أو الرجل الذى يحكم الدولة التى تطعم إسرائيل وتسقيها وتسلحها وتدافع عنها بالحق والباطل . . ولكنها هذه المرة تريد أن تتخلى عن باطل اسرائيل ، وتتكفل بحق العرب والشعب الفلسطينى الذى أصبح مشردا ، كما كان اليهود مشردين !

هنا تضايق بيجين وراح يهذى ويقول : إن مصر إذا وافقت فإسرائيل سوف توافق !

يريد أن يقول إن مصر هى التى تعرقل السلام . والحقيقة أن مصر لا تعرقل السلام ، إنما هى تريد أن يكون السلام شاملا . ولا تريده منفردا . ولعل أحد الأسباب التى جعلت الرئيس السادات يبعث برئيس وزرائه في ذلك الوقت – د . مصطفى خليل إلى مفاوضة موشى ديان فى واشنطون . أنه يعلم أن موشى ديان سياسى مكشوف الوجه . وسياسى بلا قاعدة شعبية ولا حزب . . إنما اتخذه مناحم بيجين « مصيدة » يوقع فيها المفاوضين المصرى والأمريكى . . وذهاب د . مصطفى خليل ، وهو رجل ذو عقلية منظمة ومنطق واضح ويحظى بإعجاب الرئيس السادات يعطى للمفاوضين فرصة للتراجع والمراجعة . . ولو كان الرئيس السادات قد التقى بمناحم بيجين واختلف الاثنان . وبيجين حريص على ذلك ، لتوقفت المفاوضات ، وتأزم الموقف تماما .

ولكن قرار الرئيس السادات تأكيد لبعد نظر السياسة المصرية . . فما توقعه قد حدث . ولذلك كان لابد من لقاء ثلاثى لرؤساء أمريكا ومصر وإسرائيل . وفى الوقت الذى ينشغل فيه الساسة والدبلوماسيون بلعبة « البيانات المتقاطعة » والتحليلات المتضاربة . اتجه رجال الصحافة والإعلام من كل العواصم إلى القاهرة . وليس تعصبا لأبناء مهنتى ، فإن متابعة الصحفيين الأجانب متعة حقيقية . فهم طراز من الناس لهم تكوين نفسى مختلف . ولهم هدف واضح ، فقد حملوا جميعا أدوات المعرفة والتصنت على كل صوت يرتفع فى القاهرة والعواصم الأخرى . . وجاءوا مثل الحواة الهنود يحملون كاميرات وعدسات لها أعناق طويلة مثل الأفاعى . . ولها عيون مثل الأفاعى أيضا لا تغمض لأنها بلا أجفان . . وإذا كان للإنسان العادى عيون برموش وأجفان ، فإن البشرية كلها ترى من هذه العيون الزجاجية التى لا تغفل ولا تنام .

ولأن هؤلاء الصحفيين العالميين قد اعتادوا على السفر من مكان إلى مكان فى أية لحظة . فقد تبهدلت ملابسهم وتكدست أوراقهم وأقلامهم وأفلامهم فى حقائب من القماش .

وتدلت من رقابهم كل الشارات التى تدل على أسمائهم وهيئاتهم وجنسياتهم وفنادقهم وأرقام غرفهم وتليفوناتهم . . ولهم تليفونات خاصة . وفى الطائرة زودتهم وزارة الخارجية الأمريكية بدليل مطبوع عن مصر وإسرائيل . وفى هذا الدليل نصوص اتفاقيات كامب دافيد ، وكل الرسائل المتبادلة بين كارتر والسادات وبين كارتر وبيجين وبين كارتر والسادات يقول له فيها إن صورة من رسائلك قد بعثت بها إلى بيجين . ورسائل من كارتر إلى بيجين يطلعه على صورة من رسائله قد بعث بها كارتر إلى السادات . وهناك خرائط لمصر ولإسرائيل . وأسعار العملات فى البلدين . وفرق التوقيت ، وأشهر الفنادق . وعناوين السفارة الأمريكية فى القاهرة وتل أبيب - سفارة أمريكا فى تل أبيب . لأنها لا تعترف بأن القدس العربية عاصمة إسرائيل . . وفى هذا الدليل أيضا تعريف بالمفاوضين الأمريكان والمصريين والإسرائيليين .

وقبل أن يجىء الرئيس كارتر إلى مصر سبقه رجال الأمن الأمريكان المزودون بأجهزة إلكترونية متطورة جدا . أكثر هذه الأجهزة سرية تماما . فهناك أجهزة قادرة على التشويش الرادارى ، وهناك أجهزة لتعطيل كل الأجهزة العسكرية ، ورجال الأمن الأمريكان ينتشرون أيضا فى الشوارع المصرية دون أن يدرى بهم أحد . ثم إنهم فى فنادق هيلتون ومينا هاوس وفلسطين وسيسيل وسان ستيفانو . . ولديهم محطة أقمار صناعية . وفى السيارة المكشوفة التى ركبها الرئيس كارتر تليفون على البيت الأبيض مباشرة . هذا التليفون على اتصال بالطائرة الهيلكوبتر الأمريكية التى كانت تصاحب موكب الرئيس كارتر . فهذه الطائرة هى محطة فضائية على صلة بجميع أجهزة الأمن والبيت الأبيض وكل السفارات الأمريكية ومحطات المراقبة فى المنطقة . .

ولكن التغيير الوحيد الذى طرأ على أجهزة الأمن هذه المرة . هو أن الرئيس كارتر عندما توقف فى أسوان . . نزل أحد رجال الأمن وفى يده تليفون . وأوصل التليفون بطائرة الرئيس كارتر ووضع التليفون على منضدة فى مطار أسوان . هذا

التليفون على صلة بالبيت الأبيض مباشرة . أما هذه المرة فقد كانت طائرته الهليكوبتر هى محطة فضائية تتولى هذه المهمة .

وعندما نزل الصحفيون من طائرتين أمريكيتين ، اتجهنا نحن إلى الطائرة نجمع الصحف اليومية الأمريكية والمجلات الجديدة التى تركوها . وعندما فزع طاقم الطائرة لرؤيتنا . قلنا : نحن من رجال أمن المطار . فقيل : ولكنكم تحملون علامات مكتوبا عليها : صحافة . وكان الرد : نحن رجال أمن الصحافة فى المطار !

وكان من بين رجال الإعلام نجمة التليفزيون الأمريكى بربارا والترز . . وهى نجمة مفزعة لجرأتها على الذين تستضيفهم . وهى تتقاضى مليونا ونصف مليون من الدولارات سنويا – وقد تظلمت من ضآلة هذا الأجر . فأعطيت علاوة قدرها ربع مليون دولار . وكانت تتلقى التهانى على حديثها الذى أجرته مع شاه إيران السابق . الذى أعلن فيه : أنه لا يفكر فى النزول عن عرشه الآن ، وأنه سوف يذهب ليقيم فى أمريكا .

وكان ملك المغرب قد أعلن تأييده للإمام خمينى ، وأن شاه إيران لم يعد ملكا مادام لا يحكم بلاده . وأنه سيقيم فى المغرب مواطنا عاديا . وكان الرئيس السادات وفاء لديون مادية ومعنوية للشاه ، قد دعاه للاستشفاء فى مصر . . ومفهوم طبعا أنه لن يقوم بأى دور سياسى . تماما كالملك إدريس السنوسى الذى مايزال يقيم فى مصر . ولم تؤد العلاقات التى كانت سمنا على عسل مع ليبيا إلى محاكمته أو تسليمه . . فالرجل كبير فى السن . وكانت له مواقف نبيلة مع مصر !

ومن نجوم التليفزيون الأمريكان فى القاهرة أخطر منافس لبربارا والترز ، رجل اسمه كرونكيت ، وهو الذى نقل على الهواء دعوة بيجين للسادات وقبول السادات للدعوة . . وقد رافق كرونكيت وبربارا والترز الرئيس السادات فى رحلته إلى القدس فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ وسجلا له حديثا وطائرات الفانتوم الإسرائيلية تحيط بطائرته لحراسته .

وفى المطار ظهرت وجوه مصرية ، وقد بدا عليها القلق والأمل والرغبة فى نهاية العذاب . تماما كالجماهير التى وقفت بالملايين فى شوارع القاهرة والاسكندرية والطريق إليهما .

ظهر سيد مرعى مساعد الرئيس السادات فى حيوية ورشاقة ومرح .. ومعه ممدوح سالم مساعد الرئيس وقد استرد صحته ومايزال يحتفظ بهدوئه ورزانته . . والفريق أول محمد الجمسى بملابسه المدنية وقوامه الممشوق وضحكته العريضة .. أما الرسميون من الوزراء والقيادات السياسية والعربية فقد اصطفوا صفا واحدا .. فى انتظار مصافحة الضيف الكبير ..

وفى الموعد المحدد تماما ، ظهرت طائرة الرئيس الأمريكى . وبسرعة انفتح باب فى مقدمتها وفى مؤخرتها .. وظهر الرئيس كارتر ومن ورائه زوجته روزالين كارتر مع أول طلقة مدفع من إحدى وعشرين طلقة مدفع ، وكارتر وروزالين يصوران للنظرة الأولى ظاهرة الأزواج المتحابين أو المندمجين فى مشاركة عاطفية ، فيهما شبه كبير وخصوصا فى نظرات العينين . . والابتسامة والمشية . مع أنهما ليسا أقارب .

والرئيس كارتر نحيف لأنه رياضى ، ولأن حياته منظمة جدا . فهو يصحو فى السادسة صباحا تماما . كان ضابطا فى البحرية الذرية ، ويبدأ عمله فى هذه الساعة من كل يوم . وهو يرتدى بذلة بسيطة وحذاء غليظ النعل وبكعب منخفض . . وحذاؤه طويل بصورة لافتة ، وأما روزالين فقد ارتدت فستانًا وبلوزة ، ولاتحمل فى يدها شنطة وتعانق الرئيسان . وتعانقت السيدة جيهان والسيدة روزالين .

أما الجماهير فكانت تتابع هذا الحدث التاريخى فى الإذاعة والتليفزيون ، وعند خروج الموكب من المطار كان المطرب محمد نوح وفرقة النهار يغنون للسلام وتوالت ألوان الحماسة الجماهيرية على جانبى الطريق الشعب المصرى بكل فئاته وألوانه .. وأساليبه فى الفرح والغناء والبهجة : هتافات منظومة مرتجلة ولافتات بيضاء هى أيضا هتافات من قماش تنادى بالسلام .. وفى الشرفات وفى النوافذ وقفت الأمهات يحملن الأطفال الصغار .

وقد أدرك الرئيس كارتر بذكاء عجيب معنى الذى رآه وفى الكلمة التى ارتجلها قبل أن يلقى كلمته المسجلة قال : إن الناس لم تقف إعجابا بى فقط ولا برئيسكم المحبوب أنور السادات ، إنما وقفوا أملا فى السلام ، وأملا فى ألا يموت هؤلاء الأطفال الصغار الذين حملتهم أمهاتهم فى حرب جديدة . من قبله قال الرئيس نيكسون بعد حرب أكتوبر عندما استقبله الشعب المصرى : من السهل أن تجعل ملايين الناس يخرجون ويهتفون ، ولكن من المستحيل أن ترسم البسمة على وجوههم . إنها بسمة تلقائية صادقة ! وقد وقف الطلبة والعمال وأولاد البلد . . وأولاد الصعيد ينفخون فى المزامير وأبناء القناة يعزفون على السمسمية .

سيدة إيطالية جاءت لمصر لأول مرة تقول لقد رأيت استقبالات كثيرة فى العواصم الأوروبية . . ولكنى لم أر هذه الحماسة الصادقة .

فسألتها : ولكن فى رأيك لماذا ؟

قالت : إنهم يريدون السلام ، ويؤمنون بأن هذين الرجلين يريدان السلام حقا !

ثم قالت : لقد كنت فى إسرائيل ، وأعرف الشعب اليهودى ولو أتى بيجين بالسلام فإن أحدا لن يقف له فى الشوارع ، كما فعلوا يوم ذهب السادات إلى هناك فهم يؤمنون بأن السادات صادق ، وأن بيجين ليس كذلك ، إنه لايستطيع أن يتخلص من أشياء كثيرة ..من خوفه القديم.. . من عدائه للعرب .. من تمسكه بالأرض مهما كان الثمن . ولذلك إذا كانت المبادرة قد أصابته فى بطنه ، فإن مجىء كارتر قد أصابه فى قلبه . . فإما أن يستسلم وإما أن يموت .

وكانت هناك ١١ عدسة تليفزيونية فى مواقع مختلفة من الشوارع تنقل حركة السيارات والناس على شاشات فى أحد مراكز المرور .

وفى الوقت الذى يبتهج فيه العالم المحب للسلام بهذه الخطوة الواسعة القوية من أجل سلام المنطقة فإن أنواعا من البوم القبيح تقف على خرائب الحقد تنعى للأمة العربية ضياع المنطقة كلها وليست هذه الأصوات جديدة على آذاننا . . إنها أقرب

إلى أن تكون تسجيلات صوتية تعليقا على انتصارات مصر فى حرب أكتوبر . . وعلى نجاح مصر فى فك الاشتباك الأول بينها وبين إسرائيل . . ثم بين اسرائيل وسوريا وبعد فك الاشتباك الثانى بين مصر وإسرائيل ، وبين اسرائيل وسوريا . . وبعد فتح قناة السويس للملاحة البحرية .. وبعد إعلان سياسة الانفتاح الاقتصادى . . وبعد مبادرة القدس .. وبعد اتفاقيات كامب دافيد .. وطبيعى أن يحدث هذا اثناء وبعد زيارة كارتر للمنطقة ..

والمعنى هو : أن هذه الدول الشقيقة ودول المنطقة لاتريد السلام ولاتقدر عليه .. وهذه الدول تشعر بأنها كبيرة إذا ماوقعت مصر فى مأزق . . تماما كما تشعر أنت أنك غنى لأننى أضعت مالى . وينسى الأشقاء أننا إن لم نكن فى بحر واحد . فنحن فى سفينة واحدة ، وأن العدو واحد . وأن هذا العدو الواحد قد أشعل النار بين الأشقاء العرب .

كالذى يجرى بين اليمن واليمن . . وبين اليمن وعمان . . وبين سوريا ولبنان ، وغدا بين العراق والكويت ، وما يجرى بين ليبيا وتشاد ، وبين ليبيا والسودان ، وبين الجزائر والمغرب .. وبين أثيوبيا والصومال . . وبين إيران والعراق . . وبين أكراد إيران والعراق وسوريا وتركيا .

قال لى د . سيد نوفل : إن العرب ينسون ماذا أصاب هذه المنطقة .. ومالذى يمكن أن يصيبها .. هل نسينا كيف كنا نطارد يارنج المبعوث الدولى للشرق الأوسط وكيف كنا نعلق آمالنا ومستقبلنا على كلمة منه أو ابتسامة . . ثم كيف كنا سنة ١٩٤٨ وكيف كنا سنة ١٩٦٧ . وكيف أصبحنا سنة ١٩٧٣ .. إن زيارة الرئيس كارتر انتصار لمبادرة السلام وإنقاذ للشرق الأوسط وهيبة أمريكا .

وفى الوقت الذى كان تحتفل فيه مصر بثورة سوريا الشقيقة ، وفى نفس الوقت بزيارة الرئيس كارتر كانت سفارة سوريا فى القاهرة تضم عددا من الشامتين والحاقدين ، والذين لايقدرون على الحل والربط . . أو يقدرون على الربط أكثر .. ربط أقدارهم بأعداء مصر ، ودعاة الهزيمة والفشل . . ولكن ماقيمة من وقفوا

يشربون ويعربدون فى قاعة ، والشعب كله هادر يصرخ بالتشجيع للذين يصنعون السلام تمهيدا للرخاء فى مصر؟ !

وليس سرا أن مصر تريد مشروعا اسمه « مشروع كارتر قيمته عشرة آلاف مليون دولار » . تساهم بها أمريكا وألمانيا الغربية واليابان ، ومن تشاء من الدول العربية .. على غرار « مشروع مارشال » الذى أعدته أمريكا لإنعاش أوربا سنة ١٩٤٧ .

وكانت على مكتب الرئيس كارتر « المذكرة رقم ٣٩ » وهى من ألف صفحة ، وفى هذه المذكرة بيان تفصيلى بكل مشروعات مابعد السلام فى مصر ، وفى منطقة الشرق الأوسط ، وحجم رءوس الأموال والاستثمارات الجاهزة لإنهاض دول الشرق الأوسط . .

ومن السابق لأوانه تماما تحليل الأسباب الحقيقية لزيارة الرئيس كارتر للمنطقة ولكن أقرب هذه الأسباب هو أن أمريكا فى حاجة إلى أن تستجيب للشعور العام فى أمريكا وفى الغرب بأنها يجب أن تكف عن سياسة « العين بصيرة واليد قصيرة » لأنه لاقيمة لما تراه أمريكا وتفهمه ، وتعجز عن فعل شىء بعد ذلك .

والذى يراجع المواقف التقليدية للحكومة الأمريكية ابتداء من ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٧٥ يجد أن ٢١٥ حادثا دوليا قد وقع ، وأن هذه الأحداث هددت السلام الإقليمى والسلام العالمى . وأن مافعلته أمريكا ليس أكثر من تهديد بفعل شىء . ثم العدول عن ذلك إلا فى حالات قليلة ، مثل حصار برلين وأحداث لبنان والدومينيكان والعدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ . . وحرب فيتنام . . و١٧٪ من هذه الأحداث قد وقعت فى الشرق الأوسط .

و ٧٠٪ من هذه الأحداث الخطرة كانت موجهة مباشرة ضد أمريكا ، ورغم ذلك فلم تفعل أكثر من التهديد باستخدام القوة أى أنها استخدمت قواتها المسلحة سلاحا سياسيا .

وقد لجأت أمريكا إلى التهديد بالأسلحة النووية فى أحداث كثيرة .. ولكن الخوف من مواجهة السوفيت دفعهم إلى الحذر مع أن السوفيت لم يخافوا من

أمريكا ، إنما لجأوا إلى أساليب أخرى كدفع المرتزقة من الكوبيين والألمان الشرقيين والليبيين .

وكما استخدمت أمريكا حاملات الطائرات فى طمأنة دول الخليج واليمن الشمالية ، استخدمتها قبل ذلك فى حوادث معروفة ، استخدمتها بسبب أحداث إيطاليا سنة ١٩٤٧ ، والأردن والسويس والمغرب سنة ١٩٥٦ . وسوريا سنة ١٩٥٧ ، وفنزويلا سنة ١٩٥٨ ، ولاوس سنة ١٩٥٩ . والكونغو سنة ١٩٦٠ ، والكويت سنة ١٩٦١ ، والدومينيكان سنة ١٩٦٣ ، وفيتنام سنة ١٩٦٥ ، وعندما هاجمت كوريا الشمالية حاملة الطائرات الأمريكية بوبلوس سنة ١٩٦٨ ، وايران سنة ١٩٧٤ .

وكانت أمريكا تبعث بحاملات الطائرات على شكل زيارات ودية أو تدريبات بحرية أو إصلاح عطل أو دوريات عادية .. أى أنها كانت تنتحل الأعذار لتكون هناك بالقرب من الأحداث ، دون أن تدخل فيها أو تشارك فى حلها !

ويحدث فى السياسة – عادة – مايحدث فى الحب .. فالمحبان عندما يلتقيان فهما يعرفان جيدا مايريده كل منهما من الآخر ، ولكنهما يتظاهران بأنهما لايعرفان ، وإذا عرفا فإنهما لايصرحان !

وفى لعبة السياسة – وهى تنظير فن الكراهية بين الشعوب – كما فى لعبة الحب .. نخفى ولانبوح ، ونلتوى ولانستقيم .

وبعد الاستقبالات الشعبية ، يدخل صناع السياسة إلى الغرف المغلقة ويقفلون الأبواب . ويجلسون يناقشون كلمة وعبارة ، ووضع واحدة بدلا من الأخرى . . لأن الكلمة الواحدة لها ألف معنى . وكل معنى مشكلة وكلما كان المتفاوضون على مستوى رفيع كان الحوار مخاطرة ، والقرار مجازفة ، والاتفاق فى النهاية . أملا ومصيرا !

ومن هنا كانت الصعوبات التى لا يراها الناس عادة ، فرجال السياسة على هذا المستوى الرفيع ، هم تجار وسماسرة ورجال دين وكيميائيون وحواة .

ولذلك فالمفاوضات مساومات طويلة ومعقدة والاتفاقيات معادلات لغوية ومالية وعسكرية ودينية فى غاية الصعوبة . والشعوب مثل الأطفال ، إنهم يتعجلون النهاية : ويطلبون ولايفكرون كثيرا فى الكيفية التى تتحقق بها آمالهم . . والزعماء هم آباء الشعوب .

ونحن جميعا نتمنى أن يضع الرئيس السادات يده فى جيبه ، ويخرج اتفاقا للسلام يرضى جميع الأطراف .. أو يفعل ذلك الرئيس الأمريكى أو بيجين أو أى زعيم فى العالم ، نتمنى ذلك .. ونتمنى من أى زعيم يستطيع أن يحقق للمنطقة السلام العادل بطريق أفضل وأسرع من الذى تحاوله مصر وأمريكا واسرائيل ، أن يتقدم ويأخذ زعامة الأمة العربية أو العالم كله .

ومع ذلك فزعيم العالم الأمريكى والأوربى وزعيم العالم العربى وزعيم اليهود يلتقون لعلهم يتفقون . . وهم يحاولون فى ظروف وطنية وإقليمية ودولية متفجرة يحاولون وسط جهنم أن يبشروا بالجنة ! إن الطريق الذى بدأناه بالتضامن العربى من أجل الانتصار العربى فى حرب أكتوبر لم يصبح مسدودا .. لأن مشاكلنا قائمة وعاجلة ، وكان لابد من جهود مضنية لكى نظل أحياء . . والحياة جهاد . والجهاد هو انتصار على ضعفنا . ومادامت اسرائيل تحتل أرضنا فنحن الضعفاء . . ولذلك يجب ألا نكف عن إجلاء اليهود عن أرضنا بالقوة المصرية أو بالسياسة الأمريكية . . بالوحدة الوطنية أو التضامن العربى أو الدعم الأوربى الأمريكى ، ودول عدم الانحياز والأشقاء العرب ..

هل من الصدقة أن يولد الرئيس كارتر فى نفس اليوم من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٤ الذى أقرت فيه عصبة الأمم « بروتوكول » التسوية السلمية للمنازعات الدولية . . فيولد فى شهر أكتوبر الذى انتصرت فيه مصر على خوفها من الحرب ، وعلى « الأمن الأبدى » لإسرائيل ، وهل من الصدف أيضا أن يولد الرئيس كارتر فى نفس السنة التى توفى فيها الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون الذى نادى بمبادئ حقوق الإنسان والسلام بين الشعوب . . هل شاء القدر للرئيس كارتر أن يحقق حلم

الإنسانية كلها فى السلام . . أصعب أنواع السلام بين اليهود والعرب . بين اليهود الذين عرفوا الضياع ثم جاءوا يفرضونه بالقوة على الشعب الفلسطينى . ثم ينكرون عليه أن يكون له وطن ؟

إن حماما قليلا قد انطلق فى موكب الرئيسين كارتر والسادات ، هل سبب ذلك أزمة الحمام فى مصر ؟ أو أن الحمام والعصافير التى كانت منقوشة من عشرات السنين على جانب الوجه عند المصريين قد تلاشت منذ وقت طويل .. كما أن الحمام لم يظهر على اللافتات إلا قليلا . . لأننا لم نعد فى حاجة إلى أن نرمز إلى السلام . إنما نريد أن ننتهى من مرحلة الرمز إلى مرحلة تحقيق السلام بالفعل لا بالكلام ، وعلى أرضنا وليس فى سمائنا ، وفى نفوسنا وليس فى شوارعنا . وفى كل وقت وليس بمناسبة زيارة رئيس أو توديع رئيس .

* * *

من السهل أن تبدأ ومن الصعب أن تنتهى فكل شئ يبدأ ولكن إذا بدأ يجب أن يستمر . . وإذا استمر يجب أن يكون لصالحك أو لصالح الآخرين ليس هذا فى السياسة أو فى الحرب ، إنما فى حياتنا العادية .

تخرج من البيت وليست هذه إلا بداية الطريق إلى شىء وتظل تمشى وتتوقف ثم تعود تمشى وتذهب إلى عملك . وهذه هى البداية . وإذا بدأت عملك فيجب أن تمضى فيه . وإذا مضيت فيجب أن تصل إلى نتيجة وإذا وصلت إلى نتيجة اليوم فيجب أن تستأنف ذلك غدا .. حتى تكون فى وضع أحسن . وحتى الموت . .

وإذا زرعت شجرة . . وإذا فتحت طريقا . . وإذا نزلت إلى الملعب ، وإذا ذهبت إلى القتال .. وإذا توقف القتال .

فالحرب العالمية الثانية قد انتهت منذ أكثر من ثلاثين عاما . فهل ألقى الناس السلاح ؟ وهل توقفت مصانع الذخيرة ؟ لقد عرف العالم الحرب أكثر من ٣٤١٢ سنة . وعرف السلام ١٢٤ سنة فقط ، ومع ذلك فلا توقفنا عن التغنى بالسلام ، ولا توقفنا عن كراهية الحرب .

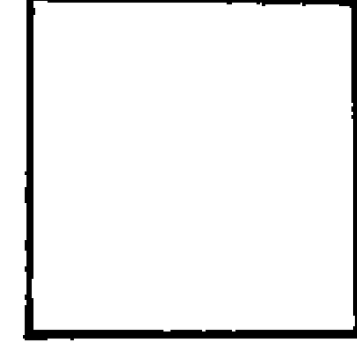
قامت ثورة مصر سنة ١٩٥٢ . . وعدلناها سنة ١٩٧١ . وحاربنا ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ و ٧٣ فهل ألقينا السلاح ؟ وبادرنا بالسلام سنة ١٩٧٧ ومازلنا نتفاوض فى السلام ولو تم توقيع السلام فى القاهرة . أو على جبل موسى . أو فى واشنطون ، فإن الذى سوف نقبل عليه أصعب بكثير جدا من الحرب .. إنها حرب ولكن بأساليب أخرى . فأمامنا مايستحق أن نتفرغ له فى مصر : البناء الاقتصادى .. والخدمات . . والتوازن الاجتماعى ، وأمامنا الساحة العربية والميادين الدولية .. وسوف تظل أمامنا إسرائيل ولأجيال طويلة ..

فلا شىء انتهى ، ولاشىء ينتهى . . إنما نحن ننتقل من معركة إلى معركة . ونضع سلاحا لنحمل سلاحا آخر . . حتى النصر أو الشهادة .

ولسنا وحدنا فى هذا العالم ، إنما كل العالم يحارب بالفأس وبالمطرقة وبالبندقية وبالحقنة وبالمسطرة وبالمصباح وبالقنبلة وبأغصان الزيتون وإذا كانت المعارك الحربية لعنة على جميع الأطراف ، فإن معارك السلام محنة وامتحان لنا جميعا .. ولكن إذا كان لابد أن نختار بين حرب الموت وحرب الحياة فإننا نختار الحرب من أجل الحياة الأفضل والسلام الأطول والمستقبل الأفضل .

ونحن لم نختر الحرب إنما هى مفروضة علينا . . ومفروض علينا أيضا أن نتعاون معا على الخلاص من ويلاتها معا – وهذا هو معنى الكفاح من أجل انتصار الحياة على الموت ، والنصر على الهوان ؟ .

كلمة بكلمة :
المفاوضات والمكالمات التليفونية بين الرئيسين السادات وكارتر



كانت فرصة جديدة للعالم كله أن يقارن بين الرجال الثلاثة القادرين على تحقيق السلام ، أما الرئيس السابق كارتر فقد أعلن بلهجة صادقة أنه « قد نذر نفسه لقضية السلام » وأنه سوف ينجح فى ذلك . ولكن العقول الإلكترونية فى أمريكا قالت : إنه لن يستطيع .

وإن أمريكا نفسها لاتستطيع ، فأمريكا ليس لها « حضور » فى كل المناطق الملتهبة فى العالم . ثم إن الأحداث فى الشرق الأوسط تكتسح أمريكا من الميادين ، بل إن أمريكا فى الثلاثين عاما الماضية قد « غابت » تماما عن خوف ، وأنابت عنها أساطيلها الجوية والبحرية ومساعداتها الاقتصادية وتأييدها الأدبى . . إلا مرة واحدة فى فيتنام وهى لذلك عميقة الندم . وإن كانت أصوات قوية فى أمريكا تطلب إليها أن تكف عن هذا « الخوف الصبيانى » من أى تدخل يعيد إليها وإلى الرئاسة الأمريكية وإلى الغرب : كرامتها الحضارية فى مساعدة الشعوب التى تنشد الحرية .

وجاءت الاستفتاءات فى أمريكا تسجل هبوطا مستمرا فى شعبية الرئيس كارتر ، بنفس الدرجة التى تسجل تضخمها ماليا وزيادة فى البطالة ، حتى جاءت أحداث إيران فأكدت أن أمريكا ليست غائبة إنما هى فى غيبوبة !

أمس وأول أمس

اعترف الرئيس السابق كارتر أنه تعب من الحوار مع رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين ، وأنه لم يذق طعم النوم أياما ، مع أنه عادة ينام كالطفل .

وكارتر معذور ، ولكن عذره غير معروف عند الناس . فهو ليس ضعيفا .. إنما هو رجل قوى . وقوته كامنة وليست صارخة ، وهذا العناء مع بيجين وغيره ليس إلا ثمنا لأدبه وعفة لسانه وتواضعه وإيمانه بالله ، ولذلك فقوته هادئة وساكنة .

وقد اتخذ الرجل ثلاثة مواقف تؤكد أنه ليس بالرجل الذى يستهان به فمبادرة كامب دافيد الأولى جاءت على مسئوليته وبمخاطرة غير تقليدية من رئيس أقوى دولة فى العالم . ومبادرة رحلته إلى القاهرة والقدس .. كانت مغامرة انتحارية . إذا فشلت أطاحت به هو والرئاسة وأمريكا إلى قاع الهاوية والهوان فى المنطقة وفى العالم ، ولكنه قرر أن يغامر ، ومعركة السلام مثل معارك الحرب لها ضحايا ، ولكنها معركة مقدسة تستحق التضحية .

ثم موقفه من العدوان الإسرائيلى على لبنان . فقد استطاع كارتر أن يدفع قوات إسرائيل إلى الانسحاب فى ٢٤ ساعة !

ثم تأكد لدى العالم أن مناحم بيجين يتفنن فى إيجاد الأعذار ليحتفظ بالأرض التى احتلها والموارد الطبيعية التى يستنزفها ، ثم يبكى على الظلم الواقع على الشعب اليهودى فى كل الدنيا بسبب التشدد المصرى والإهمال الأمريكى أو الانحياز الأمريكى إلى مصر وليس إلى اسرائيل .

وفى مباحثاته مع الرئيس كارتر امتلأت الصحف بتصريحات بيجين العصبية ، ورددت الإذاعات العالمية روايات متناقضة من تل أبيب التى ادعت أن الرئيس كارتر يهدد إسرائيل ويضغط عليها ، وأخيرا لجأ مناحم بيجين إلى حيلة مكررة .. وهى أنه لابد من العودة إلى مجلس الوزراء الإسرائيلى . ولجأ إلى مجلس الوزراء . وصوت هو ضد أن يلتقى بالدكتور مصطفى خليل رئيس وزراء مصر ووزير خارجيتها

فى ذلك الوقت .. الذى ذهب مفوضا من مصر بالاتفاق بل بالتوقيع بالحروف الأولى على معاهدة للسلام .

ولم تجد مصر حرجا فى أن يذهب د . مصطفى خليل وهو رئيس وزراء فى ذلك الوقت إلى بروكسل ليباحث موشى ديان وهو وزير خارجية .

وأدرك الرئيس السادات الذى يتابع الأحداث من بعيد ، والذى تصله التقارير أولا بأول من الرئيس كارتر ، أن الموقف خطير .. وأننا سوف نعود إلى ماكنا عليه قبل اتفاقية كامب دافيد ، ونعود إلى الدوران فى الدائرة اللعينة التى داخت فيها الأمة العربية ثلاثين عاما ، ولذلك قرر الرئيس السادات أنه لامفر من أن يذهب إلى واشنطون ويواجه مناحم بيجين على مرأى ومسمع من الشعب الأمريكى الشريك الكامل فى عملية السلام .

فمصر تريد السلام ، ولاشىء أعز عليها منه ، ولوكانت تبيع السلام لباعته لمؤتمر بغداد بألوف الملايين من الدولارات ولسنوات عديدة ، وأهم من ذلك أن مصر هى التى يجب أن تترافع عن قضية السلام ، وأن مصر هى التى تتحدث عن مصر وعن قضيتها . . وليس الرئيس كارتر ، رغم أنه مخلص وصادق وأنه يعلم جيدا أن مصر صادقة ، ورغم أن هناك تفاهما واتفاقا غير مكتوب بينه وبين الرئيس السادات ، فهو أيضا متفائل لأنه مؤمن بالله وصبور لأنه فلاح قد ارتبط بالأرض .

وأحس الرئيس السادات الذى صنع مبادرة السلام ، أنه لن يحتمل أن يراها تخمد وتتبدد وتضيع ، وأن مناحم بيجين مهما كان صخرة صلبة فلن يقوى على مواجهة العالم كله الذى آمن بالسلام .

يوم الأحد ٤ مارس

فى هذا اليوم تلقى الرئيس السادات آخر تقرير بعث به الرئيس الأمريكى ، حمل التقرير السفير الأمريكى السابق هيرمان أيلتس ، والتقى بالرئيس السادات فى استراحة الهرم .

وكانت خلاصة التقرير أن بيجين متصلب ، وأنه لايريد أن يلين ، وأن الرئيس الأمريكى ومعاونيه قد وضعوا صيغا جديدة لحل الخلافات .

وقبل أن يجىء السفير الأمريكى إلى الرئيس السادات وينقل إليه ماكان يعرفه مقدما : بسبب متابعته وتحليله للأحداث ، أسرع إلى ذاكرة الرئيس السادات موقف مشابه – وإن اختلفت المقدمات والنتائج ، فقد استعاد ذلك اليوم الذى جاءه فيه السفير السوفيتى فى يوليو ١٩٧٢ بعد أن ظلت موسكو تراوغ وتسوِّف شهرا ونصف الشهر ، ثم جاء الرد السوفيتى ، ولم يكن له معنى .. أوكان له معنى توقعه الرئيس السادات ، ودفعه ذلك إلى اتخاذ قرار طرد الخبراء السوفيت من مصر ، وعندما أصدر قرار طرد الخبراء السوفيت ، تصور بعض المحللين أدعياء العلم والمعرفة أن هذا القرار كان غاضبا – أى أنه كان عاطفيا ، وأنه كان من الأفضل أن يتريث الرئيس السادات قبل اتخاذه . وهذا أحد الأخطاء التى يقع فيها المحللون لقرارات الرئيس السادات المصرية ، فهذه القرارات تبدو مفاجئة ، هذا صحيح . . ولكنها تجىء نتيجة تحليلات ومناقشات مع معاونيه لايراها الناس ، فإذا صدرت كانت صاعقة ..

وبالضبط هذا ماحدث مع السفير الأمريكى أيضا ، فقد فوجئ بقرار الرئيس السادات أن يسافر إلى أمريكا ، وأذهله هذا القرار .

وطلب الرئيس السادات من السفير الأمريكى السابق هيرمان أيلتس أن يكتب هذه الرسالة للرئيس كارتر : إننى أسافر إلى الولايات المتحدة مدعوا أو غير مدعو ، وسوف أواجه مناحم بيجين على مرأى ومسمع من الشعب الأمريكى ، وإننى سوف أحضر .

وكان حاضرا السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ، وأمام ذهول السفير الأمريكى لهذه المفاجأة قال له الرئيس السادات : لاتظن أننى انفعلت فاتخذت هذا القرار ، لقد وصلت إلى هذا القرار من متابعتى لمسار الأحاديث والتصريحات والشائعات والمحاولات المستمرة لتعويق السلام ، فالسلام عقيدتى وأنا أومن به ،

ولاشك عند أحد فى العالم كله فى ذلك ، ثم إنها قضيتى ، ولابد أن أدافع عنها ، وأتحمل مسئولية ذلك تماما أمام ربى وشعبى والعالم كله .

ثم خرج الرئيس السادات يواجه مندوبى الصحف والتليفزيون العالمى وطلب إليهم أن يعودوا فى اليوم التالى لأن لديه مايقوله .

وشعر الرئيس السادات بمنتهى السعادة فى ذلك الوقت ، وهى حالة نفسية وعقلية تغمره كلما اتخذ قرارا مصيريا ، فهو يرى فى هذا القرار قمة الأزمة وبداية انفراجها أيضا .

واتجه الرئيس السادات يكمل النظام اليومى لحياته العادية ، فهو فى مثل هذه الساعة من كل يوم يمشى خمسة كيلو مترات . . أى مايعادل ساعة من الزمن ، ولاشىء يعطله عن هذه الرياضة ، حتى عندما كان فى واشنطون بعد اتفاقية كامب دافيد طلب مكانا يمشى فيه ، فأعد له الأمريكان مكانًا فى إحدى الكليات العسكرية ، وليست لدى الرئيس السادات هذه القوة التى لدى الرئيس كارتر ، فالرئيس الأمريكى لايمشى إنما هو يجرى وعندما قام الرئيس السادات بأداء العمرة ، وكان يرافقه معمر القذافى فى طريقهما إلى باكستان ، كان الرئيس السادات يمشى فقط فى مناطق الهرولة ، بينما كنا لانقوى على مغالبة الضحك من رؤية القذافى وهو يجرى بين الصفا والمروة ، كأنه واحد فى فريق لكرة القدم يحيى الجماهير قبل المباراة !

وبعد أن فرغ الرئيس السادات من رياضته ذهب ليأخذ دشًا ويصلى العصر ولم يكد ينتهى من صلاته قائلا : السلام عليكم ورحمة الله . . السلام عليكم ورحمة الله ، حتى قيل له : مكالمة يا سيادة الرئيس .

فسأل : من ؟

قيل له : الرئيس كارتر .

وخشى الرئيس السادات ألا يسمع صوت الرئيس الأمريكى بوضوح ، ففى هذه المنطقة من الهرم لاتسعف التليفونات أحدا من الناس ، وجاء صوت الرئيس

السابق كارتر عبر الأقمار الصناعية واضحا جدا .

قال كارتر : ياسيادة الرئيس أنت قابلت السفير الأمريكي .

قال السادات : نعم قابلته ، وهل بلغتك رسالتي ؟ .. إذن فأنا في الطريق إليك

قال كارتر : لا .. بل أنا الذي سوف أحضر إلى القاهرة ، سوف أجيء إلى المنطقة سأله الرئيس السادات : أهلا وسهلا .. ماالذي تم في محادثاتك مع بيجين ؟ ..

قال كارتر : أنا تقدمت بعرض أخير لمناحم بيجين .

قال السادات : هل أدى ذلك إلى حل المشكلتين الأساسيتين وهما : أسبقية الالتزامات العربية على أية معاهدة مع إسرائيل .. ثم الربط بين الاتفاقيتين ؟ ..

قال كارتر : أنا قدمت شيئا أستطيع أن أقول إنه يحقق رغبة الطرفين ، ولم أبعث به إليك لأنني سوف أحضره معي ، وسوف أرتب نفسي للمجيء إلى القاهرة والقدس ..

قال الرئيس السادات : كن على يقين من أننا سنرحب بك ، وكان في نيتي أن أجيء إليك بدعوة أو من غير دعوة ، وكنت قد دعوت مندوبي الصحف والتليفزيون غدا لكي أطلعهم على قراري هذا ، ولكن مادمت قد قررت الحضور إلينا ، فأهلا وسهلا .

وجلس الرئيس السادات يفكر في هذه المفاجأة وفي هذا الموقف الشجاع للرئيس الأمريكي الذي يؤكد قوته وصدقه وإخلاصه من أجل أن يتحقق السلام للجميع وللعالم .

ودق جرس التليفون للمرة الثانية .. وكان الرئيس كارتر هو المتكلم ، قال : لقد قررت نهائيا السفر إلى المنطقة .

وسأله الرئيس السادات : لماذا لم يخبرني السفير الأمريكي بقرارك هذا .. وقد كان عندي كما تعرف ؟

قال كارتر : لم أتخذ هذا القرار إلا منذ ساعة فقط . وقد طلبتك لكي أنقل

إليك أن مناحم بيجين اتصل بى من خمس دقائق وأطلعنى على موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلى على الاقتراح الأمريكى ، وأنت سألتنى متى أجىء .. فهل من المناسب أن أجىء يوم الخميس ؟ ..

قال السادات : أهلا وسهلا ، موافق .

قال كارتر : إذن فسوف أذيع النبأ .

قال السادات : موافق ، لامانع .

قال كارتر : أريد أن أقول لك شيئا هاما . يجب أن نقبل جميعا حقيقة بسيطة ، وهى : لاأنت تستطيع أن تحقق كل شىء . ولاأنا . ولاأحد غيرنا ، وإذا أصر كل واحد على أن يحصل على كل شىء ، فلن نصل إلى شىء .

قال السادات : تعال . أهلا وسهلا . وكن على يقين من أن الشعب المصرى ، وأنا واحد منه . سوف يستقبلك ، ولن ننسى لك هذا الموقف . لقد كان فى نيتى أن أجئ إليك ولكن مادمت قد قررت أن تجىء إلينا فهذا أفضل ، وليساعدنا الله .

وبعد أن صلى الرئيس السادات المغرب . دق جرس التليفون .

وكان الرئيس كارتر يقول له : الساعة الآن الثانية عشرة ظهرا بتوقيت واشنطون والسابعة مساء بتوقيت القاهرة ، وسوف نعلن النبأ ، وأريد أن أعرف منك ماهو الوقت المناسب للوصول إلى القاهرة ؟

قال الرئيس السادات : ليس متأخرا عن الساعة الثانية مساء .

وبدأ الرئيس السادات يعيد تحليل مسار الأحداث ، ويرتب نتائج النجاح والفشل .

يوم الخميس ٨ مارس

خرجت القاهرة لاستقبال الرئيس السابق كارتر وزوجته روزالين ووزير الخارجية فانس ومستشار الأمن القومى برزنسكى ووزير الدفاع هارولد براون ومساعديهم والمتحدثين الرسميين لهم السابقين. وتعلقت اللافتات فى الشوارع بالعربية

والإنجليزية ، ولافتات كتبها الشعب بنفسه فأخطأ فى النحو والصرف . . ولكنه لم يخطىء فى التعبير عن أن هذا الرجل هو القادر على أن يحقق السلام ، ولولا كارتر لظللنا دائرين دائخين فى مفاوضات ومناقشات وعقد نفسية وقانونية وخلافات عربية ودولية إلى نهاية القرن .

ويوم أعلن الرئيس السادات أن أمريكا تملك ٩٩٪ من ورق « اللعبة الدموية » بين العرب وإسرائيل لم يصدقه أحد .

بل إن الرئيس كارتر قد قال للرئيس السادات عندما التقى به فى كامب دافيد لأول مرة : يا سيادة الرئيس أنا لا أوافقك على أن فى يدى أمريكا ٩٩٪ من ورق اللعب !

فأجابه الرئيس السادات : معك حق .. معكم ٩٩,٩٪ من الورق وضحك الرجلان !

واتهم الرئيس السادات كثيرون بأنه يلقى بنفسه فى أحضان الأمريكان . وأنه يلغى دور الدول العربية الأخرى ودور مصر . مصر بوزنها الدولى ، والدول العربية الأخرى بفلوسها .

ولاتزال الدعوة مفتوحة لكل من يريد أن يساهم بشىء فى حل هذه القضية المعقدة . الدول العربية بفلوسها البترولية المودعة فى البنوك اليهودية كما هى . وتزداد ثراء ، وماتزال مصر بوزنها الدولى والعربى وانتصار أكتوبر الذى استثمرته حتى آخر قطرة دم وعرق ودمع . وليست مبادرة القدس واتفاق كامب دافيد وزيارة كارتر إلا آخر مراحل استثمار حرب أكتوبر .

والشئ الجديد فى هذه العملية الصعبة هو دخول أمريكا شريكا لاحكما فى مباراة ليس لها كأس ولا دورى ، ثم شريكا كاملا يحقق السلام والرخاء للمنطقة .

ونزل الرئيس السابق كارتر من عربته اللنكولن التى أتى بها من أمريكا ، والمزودة بكل وسائل المواصلات بالبيت الأبيض والقواعد الأمريكية فى أى مكان .

وفى استراحة المطار وفى الطريق إلى قصر القبة لم يذكر الرئيس كارتر شيئا مطلقا

عن الورقة التى بعث بها الى مناحم بيجين ووافق عليها مجلس الوزراء الإسرائيلى . ولم يشأ أن يطلب إليه الرئيس السادات ذلك . فرحلة كارتر استغرقت ١٨ ساعة عبر الاطلنطى ، ولم تتوقف الطائرة إلا فى القاعدة الأمريكية بجزر الأزوريس لكى تتزود بالوقود .

ثم التقى الرئيسان فى السادسة مساء فى « قصر الطاهرة » حيث أقام الرئيس السادات ليكون على مقربة من الرئيس الأمريكى ، وكان اللقاء فى المكتب الذى أدار منه الرئيس السادات حرب أكتوبر .

واستمع الرئيس الأمريكى لأول مرة إلى قصة حرب أكتوبر والاستعداد لها وكيف أديرت ولابد أن الرئيس كارتر يعلم أن الإعداد لهذه الحرب والاستعداد الشاق لم تدركه المخابرات الأمريكية والإسرائيلية ، وإن العقول الإلكترونية غير قادرة على فهم معنويات الشعوب .. إنها نفس العقول التى تلاحق الرئيس كارتر وتضغط عليه وتهدد شعبيته . ولا تعرف الينابيع العميقة لقوة شخصيته وعمق إيمانه بالله وبالسلام . .

وجلس الرئيسان ومعهما حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ود . مصطفى خليل رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى ذلك الوقت وسيروس فانس وزير الخارجية السابق .

وقدم الرئيس كارتر الورقة وفيها المقترحان اللذان قدمهما لإسرائيل وبقراءة الورقة ومناقشتها وجد الجانب المصرى أن هذه الورقة مع بعض التعديلات تصلح لأن تكون أساسا للمناقشة ، ولم يجد الرئيس السادات ضرورة لأن يؤكد من جديد أن هناك مبدأين أساسيين لامناقشة فيهما ، مهما كانت الظروف .

الأول : أن التزاماتنا العربية يستحيل التخلى عنها .

والثانى : أنه يستحيل عقد اى اتفاق منفصل .

واستغرقت هذه الجلسة ثلاث ساعات . وفى هذه الساعات تحدث كارتر وحسنى مبارك ومصطفى خليل وفانس .

وانتهى الوفدان المصرى والأمريكى إلى أن يجلس مصطفى خليل وفانس لمناقشة الورقة ، وعلى ضوء هذه المناقشات واستنادا إليها يدخلان التعديلات التى اتفق عليها الوفدان .

وبهذه الإجراءات البسيطة عند الأمريكان وعندنا .. أمكنت المناقشات والتعديلات واتخاذ القرار .

أما الوضع فى إسرائيل فهو أكثر تعقيد فهناك أحزاب متعددة وداخل الأحزاب الكثيرة هناك أجنحة ومن الأحزاب تتكون كتل ، ومن الكتل لجان ، وهذا هو الذى عاناه فيما بعد الرئيس كارتر عندما ذهب الى القدس ؟

وقبل نهاية الاجتماع توجه الرئيس السادات إلى الرئيس كارتر بسؤال مباشر : أنت تعرف موقف مصر بمنتهى الوضوح والصراحة . . فأنا لا أخفى عنك شيئا تماما كما تفعل معى ، فما الذى وراء موقف بيجين ؟

أجاب الرئيس الأمريكى كارتر : هناك شىء . . وأنا أوافق مناحم بيجين عليه تماما .

سأله الرئيس السادات مندهشا : كيف ؟ وماذا ؟

أجاب الرئيس كارتر : هناك اتفاقيات بين مصر والدول العربية منصوص فيها على إلقاء إسرائيل فى البحر وبيجين قال لى : إنه ليس لديه أى شك فيك . ولا فى صدق نيَّاتك ولاحرصك الأكيد على السلام ، ولكننا لسنا مخلدين فى مقاعدنا فمن أدرانا ما الذى سوف يفعله الآخرون من بعدنا ؟

وكان الرئيس كارتر يشير إلى (معاهدة بين مصر وسوريا على أيام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٠ ، ويشير أيضا إلى مؤتمر اللاءات الأربع فى الخرطوم بعد النكسة !) .

فقال الرئيس السادات : ولكنى فى يوم الخميس ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أى بعد ولايتى بأقل من خمسة شهور ، أعلنت لأول مرة فى البرلمان المصرى مايسمى « بالمبادرة المصرية » وقلت فيها إننى على استعداد لعقد اتفاق سلام مع إسرائيل .

وكنت بذلك أول رئيس عربى أو مسئول عربى يجرؤ على هذا التصريح الصريح على مسمع من العالم العربى ومن العالم كله .

ويؤسفنى أن أعترف لك بأنه لا أنتم فى أمريكا ولا هم فى إسرائيل قد التفتوا إلى خطورة هذا التصريح أو هذا القرار أو هذه الرغبة الأكيدة فى السلام ، بل إن روجرز قد تعقبته جولدا مائير وإسرائيل حتى أطاحوا به وأخرجوه من وزارة الخارجية Theyscaredhimoff طردوه . . أفزعوه . . روعوه وأنا أعلنت ذلك بعد ٢٢ عاما من الصراع العربى الإسرائيلى .

ويؤسفنى أيضا أن أحدا لم يدرك خطورة هذا الذى قلت ، حتى فى مصر ، ولكى أكون منصفا فإن الشعب المصرى هو وحده الذى أحس به ، وهذه هى عبقرية شعب مصر الذى أدرك بفطرته أبعاد أحلامنا فى السلام ، إن شعبنا أكثر شفافية من كثيرين من المسئولين عن مصير هذا الشعب ، مع الأسف .

وأصيب كثيرون بفزع فى مصر ، وتوقعوا أن تقوم مظاهرات فى اليوم التالى بعد صلاة الجمعة ، ولم يحدث شيء من ذلك فقد خرج شعبنا من نكسة ١٩٦٧ يريد السلام ويريد الأمن والأمان ، ولهم الحق فى الحياة الكريمة ، وشعبنا لاينسى أنه كان يوما ما سيد هذه المنطقة العربية ، وأنها الحرب التى حرمته من ضرورات الحياة ، ومن هنا كان حبه للسلام طريقا إلى الكرامة والرفاهية ..

وحدث فى مصر أن جاءنى كثيرون ، وتماسكوا أمامى ، وأنا أعرف أنهم كانوا فى حالة من الفزع ، ومن هنا كان اعتمادى على الشعب المصرى ، لأن أصابعى على نبض قلبه ، ولأن رأسى إلى جوار رأسه .. ويدى فى يده ومصيرنا واحد . وأملنا فى الله عظيم ..

ثم إننى فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. فى يوم ١٦ أكتوبر ونحن فى قمة النصر . وإسرائيل فى « قاع الهزيمة » كما قالت جولدامائير ، وقفت فى البرلمان المصرى أقول : برغم انتصارنا العظيم ، فأنا على استعداد لأن نلتقى فى جنيف لنتفق على السلام على أساس انسحاب إسرائيل من كل الأرض العربية ، هذا ماقلته وأنا فى قمة النجاح ،

وليس الذى حدث سرا ، ولا الذى قلته فى البرلمان كان خافيا على أحد ، ولكن مع الأسف لم ينل هذا القرار فى أمريكا وفى إسرائيل مايستحقه من التأمل .

ثم مبادرتى فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ . . فهل أنا الذى أعلنت هذا كله ، وبادرت بالسلام إلى قلب إسرائيل ، هل أنا أريد أن ألقى بإسرائيل فى البحر ؟ . . أو هل نحن نريد أن نقضى على الشعب اليهودى ؟

وعاد الرئيس كارتر يقول : إن أحدا لايشك فيك ، لا أنا ولامناحم بيجين ولا العالم كله . ولكن هذه الاتفاقيات ارتباطات قائمة .

قال الرئيس السادات : ماذا تقول فى اتفاقية كامب دافيد وهى الوثيقة التاريخية ، بل إن هذه الوثيقة هى نقطة التحول فى مجرى الأحداث ، وهى أساس نهائى لحل المشكلة ، وواضح وصريح فى هذه الوثيقة فيما يتعلق بمصر وإسرائيل أننا يجب أن نحل مايطرأ من مشاكل بالأسلوب السلمى ، وليس عن طريق الحرب .

قال الرئيس كارتر : على كل حال هذه وجهة نظر بيجين .

قال الرئيس السادات : إذا كانت هذه هى وجة نظره ومخاوفه التى لاتنتهى فيمكن تعديل هذا الموضوع .

ثم ضحك الرئيس السادات وقال : أنا على كل حال من أنصار نظرية الرئيس الراحل تيتو ، فقد أعلن : أن الذين يريدون أن يلقوا بإسرائيل إلى البحر ، لماذا لايلقون أمريكا أولا ؟ ومع ذلك فليس فى نيتى إلقاء إسرائيل فى البحر ولاتدميرها ولا القضاء على الشعب اليهودى .

واتجه المفاوضون إلى النظر فى هذا الموضوع .

وبهذه الاجراءات البسيطة بين مصطفى خليل وفانس أمكن الاتفاق على أى تعديلات .

ومصطفى خليل كما يصفه الرئيس السادات « مفاوض رائع ووزير خارجية ممتاز » ولذلك لاخوف من شىء ولاخوف على شىء فكل الحقوق مصونة لأنها فى

أيد أمينة ، وكل شيء معروف ، ولاتوجد كلمة سرية أو اتفاق سرى . وسوف يعرف العالم حقيقة كل شيء .

يوم الجمعة ٩ مارس

كانت الرحلة إلى الإسكندرية نفس الوجوه المصرية التى صفقت وهتفت لراكبي قطار السلام ، وفى الطريق إلى الإسكندرية جلس الوفدان فى عربة واحدة ، ولم يتوقفوا عن المفاوضات ، رغم أن رحلة القطار كانت أشق من رحلة الـ ١٨ ساعة عبر الأطلنطى ، ولكن السعادة والبهجة وصدق المشاعر قد عوضت الرئيس الأمريكى ومرافقيه عن الإرهاق الشديد ..

وذهب الرئيس الأمريكى إلى قصر رأس التين .

وفى الساعة السابعة مساء ذهب الرئيس الأمريكى لاجتماع مع الرئيس السادات فى استراحة المعمورة .

وجلس الرئيسان فى غرفة الاجتماعات ، وجلس معهما حسنى مبارك ود . مصطفى خليل وفانس وبرزنسكى ، وكانوا قد فرغوا من إعداد النصوص الجديدة وعرضت النصوص الجديدة ، ولم يستغرق الاجتماع أكثر من نصف ساعة ، فإذا أضفنا إليه ساعات القطار يكون الوقت كله أربع ساعات ونصفا .

وكان العشاء فى قصر رأس التين الذى تنقل فيه الوفد الأمريكى وأبدى إعجابه بفن العمارة والديكورات الجميلة .. كان العشاء بسيطا . وقدمت أكواب الجوافة والبرتقال والليمون ورحب الرئيس السادات بضيفه الكبير .. وجاءت كلمة الرئيس كارتر فى غاية الرقة وعظيم الامتنان للحفاوة به فى مصر .

وعاد الرئيسان إلى القاهرة .

وكانت كلمة الرئيس الأمريكى فى مجلس الشعب .

وأهم مافى كلمته أنه : أكد أنه شريك كامل فى المفاوضات ، وأنه ملتزم بحل

القضية الفلسطينية ، ثم إنه أعلن أنه سوف يساعد مصر فى حل ضائقتها الاقتصادية .

ولم يصدق الرئيس السادات كثيرون يوم أعلن أن المشكلة الاقتصادية هى رقم واحد ، وأن السلام قد أصبح المشكلة الثانية ، لأن السلام آت لاريب فيه . ولأن السلام فى صالح جميع الأطراف ، وأن مشاكل مابعد السلام هى الأكثر صعوبة والأكثر خطورة ، ومعركة السلام أكثر فداحة من معارك القتال ، ويكفى أن ننظر إلى أوروبا واليابان ، ماالذى فعلته بعد الحرب ، وماالذى جعل ألمانيا واليابان فى قمة الرخاء والثراء ؟

ثم إن الحروب الدموية بين الشعوب يجب أن تنتهى ، وأن يحل محلها السلام وأمامنا ماحدث بين ألمانيا وفرنسا ، أعدى الأعداء فى مئات السنين ، فماذا حدث اليوم ؟ إنهما أصدق الأصدقاء ، وبينهما مشاريع صناعية واقتصادية كثيرة جدا ، بل إنهما تنتجان معًا الكثير من الأسلحة ، ولابد من الحصول على موافقة إحداهما لكى تشترى الأسلحة من الأخرى . وقد وقفنا كثيرا أمام هذه المشكلة عندما كنا نشترى الأسلحة ، بل إن المستشار شميت قد أعلن لنا فى إحدى المرات : أننا لانبيع أسلحة لا لمصر ولا لإسرائيل ! وذهب الرئيس كارتر إلى منطقة الهرم ، وأذهلته روعة الماضى القديم .

وعندما ذهب الرئيس كارتر إلى مراكب الشمس .. زادت دهشته عندما رأى أخشاب السفينة ، ومجاديفها وحبالها ماتزال متينة كأن خمسين قرنا لم تمض على بنائها ، ثم سافر الرئيس كارتر إلى إسرائيل ، وكان الاتفاق بينه وبين الرئيس السادات على أن يكلمه تليفونيا إذا كان الأمر يستدعى شيئا .

وسأله الرئيس كارتر : هل توافق على أن يتم التوقيع فى إسرائيل ثم نعود نوقع الاتفاق فى القاهرة ؟ .

وكان رد الرئيس السادات : من أجل أن يتم توقيع اتفاق السلام .. فأنا على استعداد لأن أذهب لأى مكان . فالسلام هو منتهى أملى !

يوم الأحد ١١ مارس

كان على الرئيس الأمريكى كارتر أن يلقى بيانا فى الكنيست الإسرائيلى وجاء من بعده مناحم بيجين ، ثم زعيم المعارضة شيمون بيريز ، والمناقشات العنيفة .

أما الرئيس السادات فقد كان لديه تسجيل كامل على « فيديو كاسيت » لمدة ساعتين لكل ماحدث فى الكنيست ، وقد شاهد كل صغيرة وكبيرة حدثت فى نفس القاعة التى ألقى فيها خطابه التاريخى يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ ، وفى ذلك اليوم جلس مئات الملايين فى بيوتهم وفنادقهم وسياراتهم يشاهدون هذا الحدث الجليل الذى وصفه كثيرون بأنه أخطر من نزول أول إنسان على القمر .

وكان المعارضون فى الكنيست أربعة . اثنان من حزب « حيروت » حزب مناحم بيجين والآخران شيوعيان أحدهما عربى فلسطينى ؟ !

وقد شاهد الرئيس السادات عضو الكنيست جيئولا كوهين وهى تمزق الورقة التى أمامها قائلة : إن اتفاقية السلام مثل هذه الورقة .

ثم عادت تعقب على ماقاله بيجين وهو يشير إلى الرئيس كارتر : إنها الديموقراطية ياسيدى الرئيس ، فقالت : أية ديموقراطية التى تتحدث عنها يامن أدخلت السجون عشرات من المواطنين ابتهاجا بزيارة كارتر ؟ !

وعندما قال بيجين : إن الاتفاق الذى بين الشعب الأمريكى والشعب الإسرائيلى ليس مكتوبا .. إنه مكتوب فى قلوبنا . ردت عليه جيئولا كوهين بقولها : مكتوب فى قلبك أنت يامن تبيع أرض إسرائيل بأى ثمن .

وضحك الرئيس السادات عندما سمعها تقول : دكتاتور جنرال نازى .

وأحس الرئيس السادات أنها تقصده بذلك ، والتفت الرئيس السادات إلى من حوله قائلا : دكتاتور ؟ لا .. نازى ؟ أيضا لا .. ولكن إذا أرادت أن تقول : جنرال ألمانى فأنا أحببت العسكرية الألمانية والانضباط البروسى ، ودرست فى الكلية الحربية أن العسكرية الألمانية هى قمة العسكرية . وقد تعلمنا جميعا نظريات فيلسوف

العسكرية الجرمانية كلاوسفتس ، فقد أحببت طول حياتى هذه الروعة العسكرية .

وليست ملابس الحرس الجمهورى المصرى إلا استمرارا للإعجاب بالزى العسكرى الألمانى والانضباط الجرمانى أيضا .

يوم الاثنين ١٢ مارس

ولم يصدر عن إسرائيل شيء حتى الآن يدل على أن هناك انفراجا للأزمة ، إنما لقاءات متكررة صباحا ومساء للرئيس الأمريكى مع بيجين ومجلس الوزراء ولجان الخارجية والأمن والكنيست ثم مجلس الوزراء ثم الوفد الإسرائيلى ، ومعلومات متضاربة .

وأهم من ذلك كله أن الرئيس الأمريكى لم يتصل بالرئيس السادات كما اتفقا على ذلك .

وأخبار أخرى تقول إن طائرة الرئيس قد استعدت للإقلاع وإن حرس الشرف يتدرب على السلام القومى .

وإن هناك احتمالا بأن يجيء فانس إلى القاهرة ، أو من الضرورى أن يفعل ذلك مادام الرئيس الأمريكى قد قرر العودة إلى واشنطون ، وكان قد تنبأ بهذا الفشل قبل رحيله من أمريكا .

وعند الظهيرة اتصل الرئيس السادات بنائبه حسنى مبارك ورئيس الوزراء السابق مصطفى خليل وقال لهما واضح أن كارتر لن يجيء إلى القاهرة فهو لم يتصل بى . ولم يبعث لى تقريرًا عن الوضع ، ومن المتوقع أن يجيء فانس ، وقد فكرت كثيرا ، ولذلك يجب أن نستعد للخطوة التالية ، وهذه هى النقاط التى من الحيوى لنا أن نفكر فيها معا ، ولابد من الاستعداد لمرحلة جديدة فى مسيرة السلام بعد هذا الفشل الرهيب ! ولابد من الذهاب إلى أمريكا لمواجهة الشعب الأمريكى وإطلاعه على كل شيء ؟ .

وكانت صحف مصر وإسرائيل والعالم كله تتحدث عن فشل كارتر ، فشله كشخص وكرئيس ، وفشل أمريكا كلها فى المنطقة وفى العالم .

وعندما كان الرئيس السادات يشاهد التليفزيون فى الليل .. اتصل به الرئيس كارتر تليفونيا .

فقال له الرئيس السادات : إنى أراك الآن على الشاشة .

وقال الرئيس كارتر : غدا تشاهدنى شخصيا .

ولم يشأ الرئيس كارتر أن يفصح عن شىء .

ولكن الرئيس السادات لاحظ أن صوته هادئ وأن نبراته عادية ولابد أن يكون الرئيس الأمريكى قد التزم الحذر فى الحديث فى هذه الخطوط التليفونية المفتوحة .

قال له الرئيس السادات : أهلا وسهلا .. تفضل .

قال الرئيس كارتر : ألا تضايقك هذه الزيارة ؟

قال الرئيس السادات : بالعكس .. أهلا وسهلا .

سأله الرئيس كارتر : وأين تكون غدا ؟

أجاب الرئيس السادات : فى القاهرة .. هنا فى انتظارك .

قال الرئيس الأمريكى : إذن فسوف تكون لنا جلسة فى المطار .

قال الرئيس السادات : موافق تماما .. أنا فى انتظارك .

يوم الثلاثاء ١٣ مارس

نهض الرئيس السادات مبكرا وقام برياضة المشى التى اعتاد أن يؤديها بعد الظهر . وكان من المنتظر أن يجىء الرئيس الأمريكى فى الساعة الواحدة والنصف ، ولكن تأخر وصوله إلى الساعة الثانية وعشر دقائق .

وفى مطار القاهرة احتشد الصحفيون ووكالات الأنباء والتليفزيون وجاءت طائرة الرئيس الأمريكى ، وكل العيون تركزت على وجهه ، لاشىء يدل على أن حدثا ماقد وقع وإن كان الإرهاق الشديد قد أعطاه لونا حزينا .. هذا اللون قد بدا

أكثر وضوحا على وجه روزالين كارتر التى ارتدت تاييرا مشتقا من اسمها : فقد كان لونه ورديا !

ولم يدر بين الرئيسين كلام حتى تجاوزا حرس الشرف ودخلا الاستراحة والتفت الرئيس كارتر إلى الرئيس السادات قائلا : انتهى ياسيدى كل شىء .

تساءل السادات : ماذا ؟

أجاب كارتر : لقد تم الاتفاق .

فقال له الرئيس السادات : لماذا لم تقل شيئا من ذلك أمس ؟ . لقد حاولت أن أجد فى صوتك أو فى نبراتك أى معنى فلم أجد ، لقد ظللت طول نهار وليلة أمس أستعرض كل ماتم ، وأستعرض ماسوف يتم ، وهيأت نفسى لأسوأ الاحتمالات ، لماذا تركتنى طول الليل دون أن تلمح بأى شىء ؟ .. والآن .. ومنذ لقيتك عند سلم الطائرة حتى دخلنا هنا . لم تقل لى شيئا ؟

والذين شاهدوا الرئيس كارتر وزوجته نازلين من الطائرة فى وجوم أحسوا كأنهم مرة أخرى أمام « شاه أمريكا » ؟ !

ولكن الرئيس كارتر عندما يضحك فكل ملامح وجهه تضحك تماما ، ولذلك عندما قال للرئيس السادات : لقد انتهى كل شىء .. كانت عيناه وشفتاه وجبهته تشارك فى هذه الفرحة وتزفها بمنتهى السعادة .

وفى الدور الثانى من الاستراحة التقى الرئيسان كارتر والسادات ومعهما حسنى مبارك ومصطفى خليل وسيروس فانس وبرزنسكى ، ثم انضم إليهم فى مرحلة متأخرة أسامة الباز .

وعندما أغلق الباب عليهم .. أخرج كارتر ورقة من جيبه وأعطاها لفانس وقال له : اقرأ يافانس . . وإذا أنتم وافقتم عليها فسوف يعرضها بيجين على مجلس الوزراء الإسرائيلى وهى مقترحات أمريكية ، وسوف تعرض على مجلس الوزراء الإسرائيلى ليتخذ قرارا بشأنها ، وأنا أعرضها عليك لتتخذ قرارا أنت ومعاونوك .

وقرأ فانس الورقة .

وناقشها حسنى مبارك ومصطفى خليل . .

وجلس الرئيسان يستمعان إلى المناقشة ويتابعانها باهتمام دون تدخل .

ثم تحدث الرئيسان ، والتفت الرئيس السادات إلى الرئيس الأمريكى قائلا : لقد تحقق ماكنت أناقشه مع معاونى لقد تحقق السلام . . مبروك . .

وقال الرئيس الأمريكى : لم يساورنى أدنى شك فى تناولك للأمور ولافى نظرتك لهذه القضية ، وأستطيع اليوم أن أتحدث عنك وعن جهودك فى أى مكان ، لأننى أعرفك تماما . وأقدرك تماما . مبروك وبقى الاتفاق على بعض إجراءات تكميلية بين مصطفى خليل وفانس .

ونزل الرئيسان ، ولم يصدق أحد ماحدث ، ولا الاتفاق الذى تم ، حتى إن زوجات الرئيس كارتر والسادات والنائب حسنى مبارك لم يصدقن أنه تم الاتفاق على السلام وتساءلن أكثر من مرة : كيف ؟.. فقيل لهن : حدث .. اتفقنا على السلام . .

وتساءلن : هل هذا حقيقى .

وكانت السيدة روزالين كارتر مشدودة وعصبية ، ولما تأكدت أن ماسمعته صحيح اغرورقت عيناها بالدموع .

وخرج الرئيس كارتر وألقى بيانه فى هدوء . وبعد البيان مضت لحظات صمت رهيب ، بعدها أدرك الصحفيون أن البيان معناه أن السلام حقيقى .

ولما اتجه الرئيسان إلى طائرة الرئيس الأمريكى .. صرخ أحد الصحفيين الأمريكان : هل معنى هذا سلام بين مصر وإسرائيل ؟ !

إنه هو أيضا لايصدق .

ولو سمع الناس المكالمة التليفونية بين الرئيس كارتر ومناحم بيجين بعد الاتفاق على السلام فى استراحة المطار .. فإنهم لن يدركوا منها شيئا ، فقد قال كارتر : يامستر بيجين . . اتفقنا هنا على مااتفقنا عليه هناك .

لقد اتفقنا بوضوح سوف يزداد وضوحا ، وقد يسافر الرئيس السادات إلى

واشنطون ليوقع مع بيجين وكارتر النسخة الإنجليزية للاتفاقية .

وبعد أمريكا يتجه إلى اليابان عبر جزر هاواى ، ومن اليابان عبر القطب الشمالى إلى ألمانيا .

أما احتفالات مصر والعالم الإسلامى والمسيحى واليهودى بالسلام على جبل سيناء ، فسوف تكون فى ذكرى مبادرة السلام يوم ١٩ نوفمبر وسوف يفتح باب التبرعات الدولية لبناء مسجد وكنيسة ومعبد .

وربما لايعرف الرئيس الأمريكى أن اليوم عيد « الفوريم » .. فى إسرائيل ويوافق ١٣ آذار(مارس) سنة ٥٧٣٩ عبرية وفى هذا العيد يحتفل يهود العالم بنجاتهم من المذابح فى إيران ؟ ! .. فقد تسلط عليهم أحد الملوك وهدد بإبادتهم منذ ٢٤ قرنا . لولا أن فتاة جميلة يتيمة اسمها استر يهودية اختارها الملك زوجة له . واستطاعت هذه الفتاة اليهودية أن تؤثر على الملك ، فألغى قرارا كان قد أصدره رئيس وزرائه واسمه هامان بالقضاء عليهم !

ولم يلاحظ كارتر أن الظلام الذى يغرق إسرائيل سببه أن هذا العيد لايصح الاحتفال به ، فإيران هى اليوم التى تعذب اليهود وتطردهم ، رغم أن الإمام خمينى قد قابل أرملة الحاخام بلاو فى باريس ووعدها ألا يمس الثمانين ألفا من اليهود إذا أكدوا أنهم أعداء إسرائيل .

وفى مصر سوف يحتفلون بهذا العيد يوم ٢٨ من شهر مارس . ففى مثل هذا اليوم سنة ١٥٢٤ حاول الوالى المصرى أن يقضى على اليهود ، وأمسك واحدا منهم اسمه ابراهام كاسترو ووضعه فى السجن ، وتمكن كاسترو من الهرب إلى اسطنبول ليبلغ السلطان سليم أن والى مصر يريد أن يطبع صورته هو على العملة الفضية بدلا من السلطان ، وخلعه السلطان ، وعاد اليهود يدفعون مئات الألوف للسلطان بدلا من أن يدفعوها لوالى مصر !

ولم يكن من الصعب على يهود إسرائيل أن يعرفوا اليوم من هو « هامان » الجديد

الذى أراد أن يقضى عليهم ثمنا لأرض اغتصبوها ، وتضحية بالسلام الذى يحلمون به من عشرات القرون فى هذه المنطقة وفى العالم كله .

غداً وبعد غد

وتتوالى خطوات السلام العسكرى والسياسى ، وندخل فى معركة السلام الاقتصادى .

وتمضى قافلتنا .

وتتعالى – كما اعتدنا على ذلك – نفس الأصوات تقول إن مصر قبلت قاعدة عسكرية أمريكية فى سيناء ، وهذا عجيب ، مع أننا رفضنا قيام المستوطنات المدنية على أرضنا ، فكيف نقبل القواعد العسكرية لأى أحد ؟

فلا نحن نريد لأحد أن يقوم بدور الشرطى لأمننا وسلامتنا . ولا نحن أيضا نريد أن نقوم بهذا الدور ، وقد رأينا ماذا أصاب الشرطى الإيرانى ، وإذا كنا قد طلبنا سلاحا من أمريكا ، فسوف نطلبه ونقدمه لمن يحتاج إليه من الأصدقاء والأشقاء ، دفعا لعدوان أو دفعا لطمع الجار فى الجار – العراق والكويت مثلا .. اليمن الجنوبية وسلطنة عمان .. الصومال ضد أثيوبيا !

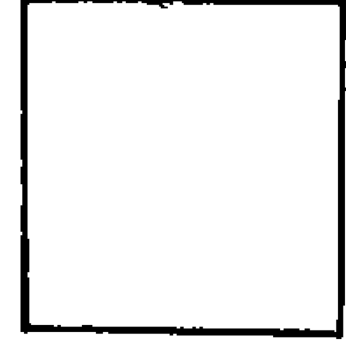
وإذا ذهبت دول الرفض إلى تجميد علاقتها بمصر .. فهى بالفعل مجمدة ، بل إنها مقطوعة ، وإذا ذهبوا من القطع إلى القطيعة ، فسوف نرد عليها بالمثل ، وإذا كان صغار الرافضين فى البعث العلوى فى دمشق والبعث التكريتى فى بغداد ومهووس ليبيا يريدون أن يحكموا الأمة العربية عن طريق الجامعة العربية ، فلا كانوا ولا كانت هذه الجامعة : معنى ومبنى !

إنهم هم الذين يعزلون أنفسهم عن مصر .. وعن التاريخ العظيم والنضال الكريم وعن نصف الأمة العربية ، هم الذين يعزلون أنفسهم عنا ، وليس فى وسع أحد ، أى أحد ، أن يعزل مصر عن تاريخها ولغتها ودينها ودورها ، وسوف نرى الذين ليست لهم اقدام يقفون عليها فى بلادهم ، ثم يريدون أن يحكموا الأمة

العربية ، كيف يواجهون السلام الجديد ؟ ..

وسوف يتغير كل شيء فى منطقتنا بعد السلام ، وهذا هو المخاض الأكبر الذى توقعه الرئيس السادات وانتظره ويعمل له ويلاحقه بالجهود السياسية والديبلوماسية والمشاركة الأمريكية والألمانية واليابانية ومن تشاء من الدول العربية فى « مشروع كارتر » من أجل السلام الاقتصادى والأمن الغذائى والمستقبل الكريم لمصر ..

وإذا كانت اتفاقية السلام هى نهاية حرب أكتوبر وكل الحروب فهى بداية معارك السلام . فليساعدنا الله على أنفسنا وعلى غيرنا .



ثم انتهت حرب أكتوبر لتبدأ حرب أكثر قداسة

مثل كل الأعمال الضخمة . . سوف يختلف الناس كثيرا حول معاهدة السلام ، كما اختلفوا قبل ذلك على مبادرة السلام . . وقبلها على فك الاشتباك ، وقبله على حرب أكتوبر والاستعداد لها ، وقبل ذلك على طرد الخبراء الروس ، ثم قبل ذلك على ثورة يوليو ٥٢ ، وبعد ذلك سوف تهدأ خيالات الناس وأوهامهم ومخاوفهم ، ويرون الأشياء فى حجمها الطبيعى .

وغدا وبعد غد سوف يقال إن مصر كانت على حق ، ولم يكن أمامها ، بعد أن جربت الحروب والدمار والموت ، وخراب الديار وانهيار اقتصادها وتفتيت خدماتها ، إلا أن تفعل شيئا عن طريق آخر .

هذا الطريق لا نحن الذين اخترعناه ، ولا ديننا هو الذى ابتدعه .

فالرسول عليه السلام عقد صلحا مع أعدائه ، أى مع أعداء الإسلام ، وفى كل العصور بين مصر وبين جيرانها حدثت عقود صلح ، كما كان هناك عقد صلح بين الملك سليمان نفسه وبين أعدائه من المصريين ، وحدث أيضا بين ألمانيا وفرنسا ، والصين واليابان ، إلى آخر التاريخ القديم والحديث .

ولم تسفر معاهدة صلح واحدة فى أى عصر من العصور عن عدل أبدى ، إنما فقط عن إعلان للرغبة فى التفاهم من أجل أن يتحقق العدل .

والذين وقعوا معاهدة السلام أمام مئات الملايين فى واشنطون لم يكونوا سعداء

للغاية ، ففى النفس الكثير ، وفى أيدينا القليل ، وفى آذاننا ما يجعلنا نكره بعض العرب ، مع أننا عرب ، اليوم وغدا وبعد غد ، عشنا وسوف نعيش ونموت عربا ، بتاريخنا ولغتنا وديننا وأشقائنا الذين اختلفنا معهم اليوم ، وسوف نختلف معهم غدا .

ولكن مصر لها حساباتها ، ولها حريتها أيضا ، والإخوة الآخرون معذورون فى خوفهم ، ولكن سوف يحسبونها فيجدون أن مصر قد فعلت كثيرا ، وأن الذى انتهت إليه ليس إلا نهاية مؤقتة ، وبعدها بداية ، وتجىء نهاية ، وبعدها عشرات السنين ، وبقدر ما كنا نشك فى إسرائيل كانت هى أيضا ، ولا تزال ولا نزال .

وعندما توقفت الطائرة فى جزر « ازوريس » وهى قاعدة عسكرية أمريكية منذ ٣٠ عاما ، سألنا الصحفيون : إن كنا عرباً رغم الخلافات ؟

وكان الجواب . . رغم الخلافات ، وبسببها ، فنحن عرب . . ولكننا أشجع العرب وأكثرهم وأقدرهم على التضحية ، وأعمقهم امتناناً لكل صاحب فضل . ولكن هناك حدود . .

وسئلت : حدود لأى شىء ؟

قلت : حدود للأخوة والصداقة . . وحدود لتدخل الآخرين فى حرية اتخاذ قرار مصير الأربعين مليوناً من المصريين ، لهم حق الحياة الكريمة . .

وقبل أن نصل إلى واشنطون كانت الصحف والإذاعات تؤكد أن هناك شيئا ما سوف يفسد كل شىء فى آخر لحظة ، أما هذا الشىء فسوف يجىء من إسرائيل ، لأن اليهود بتكوينهم التاريخى لا يحبون أحدا ، ويخافون من كل أحد ، ولذلك فلابد أن تؤكد لهم ، وأن يفعل الآخرون أيضا ، كل شىء بصورة واضحة ملموسة ، وربما كانت عبقرية الشعب اليهودى ترجع إلى شىء واحد : أنه عرف سر النجاح فى هذه الدنيا الفانية : الفلوس .

واليهود ليسوا أغنى الناس ، ففى الكويت من هو أغنى منهم ، ولكنهم أقدر الناس على تحريك المال ورأس المال ، ولذلك فكل شىء فى الدنيا عندهم يجب أن

يرد على هذا السؤال : كم يساوى أى شيء ؟ كم يساوى الحب ؟ كم يساوى السلام ؟

ونحن لا نطلب من الحاسب الإلكترونى أن يغنى ويرقص . . فهذه طبيعته !

وقد سبقتنا إلى مدينة واشنطون مناقشات فى كل الصحف والإذاعات تسأل : كم يتكلف السلام ؟

بعض المناقشات حزبية ، أى من الحزب الجمهورى المعارض لكارتر ، وهى محاولة لتجريده من الكسب الأدبى والسياسى العالمى الذى حصل عليه لنفسه ولمقعده ولأمريكا فى العالم كله .

وهناك من يناقش من الأمريكان ويقول : هل مشكلة الشرق الأوسط تساوى أن ينشغل بها كارتر عن المشاكل الداخلية ؟ كيف يقع فى هذه الغلطة ؟ إنهم فى الشرق الأوسط لم يتفقوا ، لا مصر مع العرب ، ولا إسرائيل مع مصر ، وهى لذلك مخاطرة ما كان يجب أن يرتكبها ويورط فيها نفسه وأمريكا أيضاً .

وكانوا يتساءلون قبل مجيئنا أيضا عن مشاكل الضرائب ، ومشاكل التضخم والغلاء والطاقة والبطالة ، ومشكلة أخى الرئيس كارتر المخمور دائما ، فأخو الرئيس كارتر عندما يشرب يحلو له دائما أن يلعن أو يشتم اليهود ، ويقول إنهم يملكون مقدرات أمريكا .

ويتساءل اليهود إن كان هذا هو رأى الأخ كارتر الصغير ، أو رأى الأسرة كلها ؟

وهى محاولة صهيونية لإفساد هذا الجو ، وإفساد هذا النجاح العظيم الذى حققه الرئيس كارتر للعالم .

وقد أجاب الرئيس السادات عن « ثمن السلام » عندما قال : إن السلام لا يقدر بثمن ، ولذلك فلا اشتراه أحد ، ولا بعناه لأحد ، وهى من أولها لآخرها مصالح ، إنما نحن نجلس معا ، ونبحث عن المصالح المشتركة للجميع .

وفى استطاعتك أن تسمى ذلك صداقة أو حبا أو حسن جوار ، فهذه التسميات

اللطيفة ليست إلا الورق الأنيق الملون الذى نلف به أشياء أخرى ، لا هى جميلة ولا هى أنيقة ، إنما هى مصالح مادية بحتة .

وأعلن وزير الدفاع الأمريكى أن ألوف الملايين التى سوف تعطى لمصر وإسرائيل ليست فى أغلبها إلا قروضا ذات فوائد واجبة السداد . أما الذى سوف تدفعه أمريكا لإسرائيل ولمصر فبضع مئات من ملايين الجنيهات ، وقد عرض التليفزيون الأمريكى صورة لوزير الدفاع المصرى فى ذلك الوقت كمال حسن على وهو فى داخل إحدى الطائرات ف ٥ .

وقد سألت الوزير كمال حسن على ، فأكد لى أن الطائرات ف ١٥ سوف تختفى ، فقد ظهرت فيها عيوب كثيرة . . وإن الطائرات ف ١٦ سوف يتم تسليمها لنا فى الثمانينات . . ولكن الطائرات ف ٥ هى أحسن الجميع . .

وجاء ذلك فى نفس الوقت ردًا على سؤال من د . عصمت عبد المجيد مندوبنا الدائم فى الأمم المتحدة الذى قال : ولماذا لا نحصل على الـ ٦٧ طائرة ف ١٥ التى أعادتها إيران إلى أمريكا ؟

وفى واشنطون يوجد اللورد كارادون ، وهو جواهرجى المعاهدات والقرارات ، وهو الذى صاغ القرار ٢٤٢ ، وأعلن فى حديث له أنه مستعد لتوريد قرارات أخرى مثل القرار ٢٤٢ الذى يستحق عليه قطع يديه ورجليه ولسانه أيضا ، لأنه عقدة القرارات ولغز الصياغات السياسية . وطبيعى أن يصدر هذا القرار عن اللورد كارادون ، فهو إنجليزى سليل الاستعمار القديم ، وقد أفلح فى أن يحول الحروف إلى كاوتش ، والنقط فوق الحروف إلى نقط مراقبة ، تطلق النار على كل من يقترب منها .

وظلت مصر وإسرائيل والعالم كله دائخاً بسبب هذا الكاوتش الإنجليزى ، وزادت دوخة الناس عندما ظهرت الترجمة الفرنسية .

وأعجب اليهود جدا بهذا القرار لأنه يعطيهم الشىء الذى يريدونه : الأرض المحتلة ، أو أرض محتلة ، أى يجعلهم يلعبون على الحبال التى امتدت بين حرفى

الألف واللام اللذين أدخلا على كلمة « أرض » محتلة ، وحارت البشرية فى معنى هذين الحرفين ، أى هل هى كل الأرض المحتلة أو بعض الأرض المحتلة ؟ .

وعند زعماء إسرائيل أن الأرض أهم من أى شىء آخر ، لأنهم عاشوا ٢٣ قرناً بلا أرض يملكونها ، وهذه هى المرة الأولى التى يملكون فيها أرضا ، أى يملكون شيئا يعجزون عن حمله معهم إذا هربوا أو إذا طردوا من أية أرض ، ولذلك فالانسحاب هو طرد مشروع لهم من أرض الأجداد ، وأرض الأجداد فى خرافاتهم هى كل أرض دخلوها ، أو دخلوها وخرجوا منها ؟ ! !

ولم يضحك أحد الوزراء الإسرائيليين عندما قلت له : غدا تطالبون بفندق مينا هاوس . فسألنى : لماذا ؟ قلت : لأن العلم الإسرائيلى قد وضع عليه أثناء لقاءات اللجنة التمهيدية لمؤتمر السلام .

وهو لم يضحك لأن فندق مينا هاوس كان يملكه أحد اليهود . إنه نفس الرجل الذى يملك فندق الملك داود فى القدس ، ويوم ذهب الرئيس السادات إلى القدس ، ولدت له حفيدة ، فقام صاحب هذا الفندق بزراعة ١٨٠ شجرة للرئيس السادات ، و ١٨٠ شجرة لحفيدته ، ثم بعث إليه بخطاب ووضع تحت إمضائه أسماء الفنادق التى كان يملكها فى مصر ، وقد بلغت ١٧ فندقا ، من بينها فندق مينا هاوس .

ولم توجه دعوة حضور احتفال توقيع معاهدة السلام وحفلة العشاء التى أقيمت بالبيت الأبيض ، إلى اللورد كارادون ، إنما وجهت الدعوة إلى رجل أمريكى صهيونى أسوأ منه هو جولدبرج الذى كان رئيسا للوفد الأمريكى فى الأمم المتحدة ، وقد قابله أحد الصحفيين المصريين وقال له ليضحك الاثنان والذين من حولهما : رغم جهودك العظيمة لعرقلة السلام ، فقد نجحنا فى النهاية !

ولابد أن يكون تعويق توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل ، بسبب أن الرئيس السادات كان متشددا جدا فيما يتعلق بالحكم الذاتى لفلسطين وقيام الدولة الفلسطينية .

وكان مناحم بيجين قد قال للرئيس السادات فى كامب دافيد أمام الرئيس كارتر : سيادة الرئيس . . لماذا تتعب نفسك ؟ إن الفلسطينيين لم يفوضوك فى الحديث نيابة عنهم .

وكان رد الرئيس السادات فى كامب دافيد : يجب أن نعذرهم ، إنهم ممزقون ، ويخافون من بعضهم البعض ، ثم إنها مسألة قومية ، ويجب أن أفعل ما أستطيع ، والقضية الفلسطينية هى قلب المشكلة ، فبغيرها لا حل ، ولا معنى لهذه الاتفاقية من أولها لآخرها إذا لم تؤد إلى حل القضية الفلسطينية .

* * *

وفجأة قيل إن مناحم بيجين سوف يزور الرئيس السادات فى السفارة المصرية ، وتعلقت الأنفاس ، وتعالت الشهقات ، وقلنا فى نَفَس واحد : ما الذى يريده هذا الرجل مرة أخرى ؟

وجاء مناحم بيجين تسبقه الموتوسيكلات والزمامير ، وفوقه طائرة هليوكوبتر إلى مبنى السفارة المصرية ، وصعد السلم ، وكان الرئيس السادات فى انتظاره فى الطابق العلوى ، وجلسا معا وباب الصالون مفتوح ، وفى الغرفة المجاورة جلس السفير المصرى والسفير الإسرائيلى ، ونزل جميع المصورين ومندوبى الإذاعات العالمية والمصرية ، وتعالت المناقشات الحادة بينهم .

وبعد ساعة ونصف ساعة نزل مناحم بيجين . . ليستقل المصعد هنرى كيسنجر وزوجته نانسى ، ويبدو أن صبغة شعر كيسنجر أكثر اصفرارا من ذى قبل ، وصبغة شعر نانسى كستنائية قاتمة أكثر من ذى قبل ، ولكنه أشد حيوية واختيالا بنفسه أكثر من أى وقت .

وأمام الصحفيين أعلن مناحم بيجين أنه سوف يجىء إلى مصر غدا الاثنين ، ردًا على زيارة الرئيس السادات للقدس ، ثم قال : اليوم العيد السبعون لميلاد زوجتى ، وسوف تكون هدية عيد ميلادها إذا دعاها الرئيس أيضا إلى مصر .

فوافق الرئيس على ذلك ، وحاول أحد الصحفيين أن يعرف : كم يوماً سيبقى مناحم بيجين فى القاهرة ؟

ولكن سؤاله قد لقى آذانا من رخام ، وابتلع الصحفى سؤاله لأنه لم يجد جوابا .

وهى صدفة غريبة : فقد حدث يوم زيارة الرئيس السادات للقدس أن أعلن ياوره الإسرائيلى : أن اليوم عيد ميلاد بنتى .وهما توأم ومجندتان فى الجيش الإسرائيلى !

ووجهت له الدعوة أن يزور مصر التى أحبها ودرس أدبها المعاصر وتخصص فيه ، وحصل على الدكتوراه فى أدب نجيب محفوظ ، وهو نفس الوقت عقيد أركان حرب فى سلاح المظلات . .

وبدأ الإسرائيليون فورا يسألون عن ترتيب الزيارة إلى القاهرة ، وأين يكون بيجين؟ وقيل إنه سوف ينزل فى قصر الطاهرة ، وينزل الوفد المرافق له فى فندق السلام . .

وبعد ساعة اتصل مناحم بيجين بالرئيس السادات تليفونيا ، كما كان متفقا ، وانتهيا إلى بعض الترتيبات الخاصة بالانسحاب من آبار البترول المصرية بعد ٧ شهور بدلا من ٩ شهور ، وفى نفس الوقت حصل اليهود على اتفاق مع أمريكا لتزويدهم بالبترول لمدة ١٥ عاما إذا رفضت مصر لأى سبب ضخ البترول إليهم بالأسعار العالمية .

وكما هى عادة مناحم بيجين فإنه يطلق بعض الأعيرة النارية فى الإذاعة والتليفزيون ، أو يطلق.مدفعا آخر هو موشى ديان لتجىء عبارات ديان جارحة أو دخانا كثيفا ، ثم يعتذر مناحم بيجين عن تصريحات ديان ، كل ذلك قد حدث ، واحتج مصطفى خليل على اتفاق أمريكى إسرائيلى عرفناه أخيراً . . والاحتجاج عبارة عن ١٦ اعتراضاً على التعهد الأمريكى بمساندة إسرائيل عسكريا ضد أى خرق لمعاهدة السلام . .

ثم رد عليه سيروس فانس فى خطاب من عشرين سطراً يقول فيه : ولكن مصر

هى التى أعلنت ذلك أنها لا تمانع فى أن يكون هناك حلف بين أمريكا وإسرائيل .

وكانت حجة مصر يوم أعلنت ذلك : أنه لا نهاية لمخاوف إسرائيل ولذلك فلتبحث لها عن أى شكل من أشكال الأمان السياسى والعسكرى . . لأننا نريد السلام ولا نريد حرباً مع أحد مادمنا قد حصلنا على حقوقنا وحقوق الشعب الفلسطينى .

ولا يزال الجو باردا فى واشنطون ، والأمطار قليلة ، ولكن الإذاعات تؤكد طول الليل : غدا جو بارد ، ولكن من المؤكد أن المطر لن يسقط فوق كارتر والسادات وبيجين ، وأن توقيعاتهم سوف تجف بسرعة دون أن يصيبها شىء من البلل .

وكانت إجراءات الأمن شديدة جدا ، جاءنا أتوبيس ، وحملنا الأتوبيس ، وقد وقف على بابه أحد رجال المخابرات الأمريكية ، ونحن نضع علامات الأمن الأمريكى ، ونضع علامات مكتوبا عليها : عضو الوفد المرافق للرئيس السادات .

وبسبب تجارب سابقة فقد صرخنا جميعا : ضعوا هذه العلامة الأخرى فى أى مكان وكنا نقصد العلامة التى تسلمناها من أجهزة الأمن الأمريكى ، والعلامة مكتوب عليها صحافة ، فهذه الكلمة وحدها تفصلنا تماما عن بقية خلق الله ، وتضعنا فى حظيرة من الأسلاك بعيدا عن الناس ، كأننا حيوانات متوحشة ، لها آذان طويلة ، وألسنة أطول .

وأخفينا أننا صحفيون ، ودخلنا وجلسنا على مقاعد من البلاستيك الرمادى ، وعلى العشب الأخضر الذى رأينا الكناسين وهم يغسلونه تماما فى اليوم السابق ، كما لو كانت الأرض من مليون رأس استقرت تحت أقدامنا أو مقاعدنا ، لتأتى أيد مختلفة بالمقشات تكنسها وتنسقها كما لو كان الذى فى يدها أمشاط وليس مقشات ، والموسيقى تنبعث من البيت الأبيض ، والمصابيح صارخة كالمصابيح التى يستخدمونها للضغط على المتهمين حتى يعترفوا بالحقيقة ، والهواء بارد يهز العلم الإسرائيلى الذى وضع أولا وراء المنصة ، ثم العلم المصرى ، ثم العلم الأمريكى . أما النجف المعلق

فى البيت الأبيض فهو يروح ويجىء ولا يسقط – منتهى المرونة ، والشمس ساطعة تماما ، ولكن الهواء بارد يبدد أشعة الشمس وحرارتها أولا بأول .

ومن بعيد تجىء هتافات الطلبة الفلسطينيين ، الأصوات قليلة صغيرة شابة ، والحناجر ممزقة ، وهم يهتفون ضد الخونة ، ولا نعرف من هذا الخائن حقا ؟ هل هو الذى يطالب بتحرير الأرض المحتلة ، أرض مصر العربية ، وسوريا العربية ، والقدس العربية ، والضفة الغربية العربية ، وقطاع غزة العربى ؟

لو كان الذين يهتفون يهودا لقلنا : معهم حق ، لأن مناحم بيجين يسلم الأرض التى احتلها ، ويسلم الآبار التى استنزفها ، ويطرد اليهود من المستوطنات التى أقاموها على الأرض المحتلة .

ولكن ما هى خيانة كارتر مثلا ؟ إنه يتوسط من أجل أن يحل نزاعا دمويا ، وبعد ذلك ، علينا نحن أصحاب المشاكل الحقيقية أن نواجه بعضنا البعض ، لنكمل حل المشاكل ، ثم تتوالى الهتافات بالخونة المصريين ؟ – الذين ماتوا دفاعا عن أرضهم وعن الأرض العربية ، والذين اتسعت صدورهم كثيرا لكل شىء . وسوف يضطر المصريون إلى الغضب وإلى الانتقام ، وهذا شىء فظيع ، ولسنا فى حاجة إليه ، ولا هم أيضا . .

أما المقاعد فقد انقسمت إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول : الإسرائيلى ، وقد جلس فيه بعض الأمريكان مثل فانس وزير الخارجية وبرجينسكى مستشار الأمن القومى وزوجات الرؤساء الثلاثة . . والقسم الثانى جلسنا فيه نحن وعدد من الأمريكان فى مقدمتهم السفير الأمريكى السابق فى مصر هيرمان ايلتس ، وهنرى كيسنجر وزير الخارجية الأسبق ، ووليم كوانت مساعد مستشار الأمن القومى ، وأبناء الرئيس السادات ، أما القسم الثالث فهو المخصص للأمريكان ، وفيه عدد من المصريين ومن الإسرائيليين أيضا ، وفى نفس الوقت كانت تدق أجراس الكنائس ، وكانت الطائرات تقترب من سماء البيت الأبيض تسجل هذا الحدث التاريخى ، وفوق البيت الأبيض جلس القناصة الأمريكان ومعهم الكاميرات ،

قالت لى السيدة فايدة كامل عضو مجلس الشعب : إن الأمريكان قد شاهدوا شيئا من ذلك الذى نراه فوق سطوح البيت الأبيض لأول مرة فى مصر.

وعزفت الموسيقى النشيد الوطنى المصرى الصامت بلا كلمات لآخر مرة . . فسوف يتغير هذا النشيد بعد ذلك . . وجاء النشيد الإسرائيلى يصاحبه غناء كل اليهود ، والنشيد الأمريكى يصاحبه غناء كل الأمريكان . .

وتوالت الكلمات الثلاث ، وجاءت فى كلمة كارتر آية من سفر النبى أشعياء . هذه الآية أيضا جاءت فى خطاب الرئيس السادات ، وفى خطاب السيد مناحم بيجين أيضا . . والآية تدعو إلى السلام ، فلا يحارب شعب شعبا بعد اليوم .

وفى خطاب الرئيس كارتر خمس عبارات كان قرأها لأحد القساوسة ، واسمه باركر نايت ، فأعجبته ، فاقتبسها ، وقبل أن يضعها فى خطابه طلب إلى مساعديه أن يستأذنوا صاحبها فى أن يضعها الرئيس فى خطابه ، وقال له مساعدوه : سيادة الرئيس . . هذا شرف له ، وشرف لأى إنسان ، أن تصبح كلماته تاريخاً مجيداً ، وأصر الرئيس كارتر على استئذان القسيس فى أن يضع هذه العبارات ضمن خطابه ، وبعد ٢٤ ساعة عثروا عليه ، ووافق الرجل سعيدا بذلك ، أما عبارات القسيس فهى تقول :

إن الحرب مثل السلام ، كلاهما يحتاج إلى خطة وإلى هجوم وإلى معارك وإلى تضحية ، وإذا كنا نقول يجب أن « نشن حربا » ، فمن الممكن أن نقول أيضا يجب أن « نشن سلاما » .

* * *

أما خطاب الرئيس السادات فهو هادئ وواقعى ، وكان امتناننا للرئيس كارتر صانع السلام . .

ولابد أن الهواء هو الذى سبق الرئيس السادات ، فأدى إلى أن يقلب صفحتين بدلاً من صفحة . . وهذه الصفحة هى التى تتحدث عن الشعب الفلسطينى الذى

يتهمنا بعض شبابه بالخيانة . . وقد أعاد الرئيس معنى هذه الصفحة فى كلمة العشاء فى البيت الأبيض .

وجاء خطاب مناحم بيجين حديثا عن تاريخ اليهود واضطهادهم وعذابهم ، وتاريخه هو أيضا ، واقتباسا من أحاديث سابقة ألقاها عند الاحتفال بتسليمه جائزة نوبل فى النرويج ، ثم عبارات طويلة بالعبرية أهمها المزمور الشهير رقم ١٣٧ الذى يتحدث عن أورشليم . فيقول : إن نسيتك يا أورشليم تنس يمينى ، أى لا أستطيع أن أنساك يا أورشليم إلا إذا استطاع إنسان أن ينسى ذراعه اليمنى ، أو تنساه ذراعه اليمنى .

واقتبس كارتر وبيجين آية من القرآن الكريم تقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »

وانتهى التوقيع ، وخرجنا مواطنين عاديين جدا أمام البيت الأبيض ، نبحث عن وسيلة للمواصلات ، وفى الأتوبيس غنت فايدة كامل بناء على طلب الجميع : عاد السلام يا نيل ، وطلبوا إليها أن تشدو بأغنيتها الجديدة ، ولكنها لم تفعل ، فأصوات المرافقين لها فى الأتوبيس لا تشجع على شىء من ذلك الفن ، ولكنها فعلت ذلك فى الطائرة قبل وصولنا إلى القاهرة بدقائق ، وصاحبها بالغناء أعضاء مجلس الشعب ، وبالرقص المضيفات الأمريكيات . .

أما فى الليل فكان احتفال العشاء . الجو زاد برودة ، وطرقات البيت الأبيض طويلة جدا ، وطوابير المدعوين أطول من هذه الطرقات ، وعيون رجال الأمن على الشارات التى علقناها على صدورنا ، وأدخلونا بحفاوة فائقة ، وتخطينا المئات من الأمريكان أصحاب الملايين وأعضاء الكونجرس ، واتجهنا إلى خيمة كبيرة ، وكل واحد فى يده ورقة عليها رقم الترابيزة التى سوف يجلس عليها ، ووجدت الورقة التى فى يدى تكذيبا رسميا لما نشرته الصحف من أن عدد المناضد ١٣٠ ، فقد كانت منضدتى ١٣٣ . وهى فى مكان يتوسط بين المسرح والمطبخ ، فنحن أول من يرى السفرجية وهم يحملون الطعام ، وأول من يرى الرؤساء الثلاثة وزوجاتهم وبناتهم

وأولادهم ، وعلى كل مائدة يجلس عشرة أكثرهم من عِلية القوم ، وأكثرهم من يهود أمريكا .

وفى كل مائدة يوجد عضو من الكونجرس وزوجته .

وهذه أكبر وليمة أقيمت فى البيت الأبيض ، ولم تدفع نفقاتها وزارة الخارجية ولا البيت الأبيض ، فمعظم حفلات البيت الأبيض على نفقة الرئيس كارتر ووزارة الخارجية ، ولكن نفقات هذه الحفلة التى ضمت حوالى ١٣٥٠ مدعوا ، كانت على حساب المؤسسات الأمريكية الكبرى ، وفى مقدمتها مؤسسة الكوكاكولا ، ومؤسسة فورد ، لأن المنضدة الواحدة تتكلف ألفا ومائتى دولار ، ثم إن بعض المدعوين قد دفع ثمن المقعد حوالى خمسمائة دولار ، أما المقاعد والأطباق والطعام والخيمة والتدفئة ومائتان وخمسون طباخا ومائة وتسعون سفرجيا ، فقد تكلفت جميعاً حوالى نصف مليون دولار .

وقد وجه البيت الأبيض الدعوات للجميع تلغرافيا ، وخصص خطا تليفونيا لتلقى الاعتذارات ، ثم طبع أسماء المدعوين فى كراسة من أربعين صفحة ، ونشرت جميع الصحف الصادرة فى اليوم التالى فى صفحة كاملة أسماء جميع المدعوين من إسرائيل وأمريكا ومصر ، قال لى أحد أعضاء مجلس الشعب : إن الصحف فى مصر قد نشرت أن أربعة من أعضاء مجلس الشعب هم الذين سافروا مع الرئيس السادات ، وهذا الخبر ليس صحيحا ، ثم إنه ضار ، لأنه يحرجنا مع المواطنين من الناخبين .

ومن الطبيعى أن تدور مناقشات كثيرة مع كل الجالسين معنا على موائد العشاء ، وكان معظم الذين معنا من أصحاب الملايين الأمريكان ، كان معى محامى اليهود المضطهدين فى روسيا وزوجته ، ولم يسترح هؤلاء جميعا إلا بعد أن ذهبوا وصافحوا الرؤساء الثلاثة واحدا واحدا ، وكان على الموائد التى أمامنا القليل من الفول السودانى الذى يبيعه الرئيس كارتر وأخوه .

ثم جاء الطعام عاديا جدا ، ونسيت أن أسأل إن كان الذى أكلناه هو نوعا من

السمك بالبطاطس أو نوعا من البطاطس التى أفسدتها رائحة السمك . لا أعرف ، ولكن شكل الطعام لا بأس به ، ولا أعرف إن كانوا قدموا لنا سلطة خضراء أو بيضاء ، وقد أسرفوا تماماً فى توزيع الشمبانيا على جميع الموائد .

وعند التحية يرفع الرئيس السادات كوب الماء الذى ليس باردا ، ويشرب فى صحة كارتر ، وفى صحة بيجين وزوجة بيجين ، والسلام .

ولا بد أنه شرف عظيم جدا أن يقف العازف المصرى المرحوم عمر خورشيد فى البيت الأبيض وأن يقدمه الرئيس كارتر للمتفرجين وللمستمعين ، ووضعت يدى على رأسى عندما بدأ عمر خورشيد يعزف اللحن « البيطرى » الشهير ، عن طلوع الشمس الذى يسهل علينا حلب لبن الجاموسة ، فقد خشيت أن يسألنى أحد عن هذه الأغنية ، ولكن بسرعة انتقل عمر خورشيد من موسيقى : طلعت يا محلى نورها ، إلى موسيقى أخرى ، ومن الغريب أن عددا كبيرا من الأمريكان والإسرائيليين كانوا يصاحبون الإيقاع الراقص بالتصفيق الشديد على « الوحدة » !

* * *

وعند الساعة الواحدة بدأنا نتفرس بوضوح فى كل الذين نعرفهم من صورهم ، ونتابع كلماتهم ، من مثل مناحم بيجين ، فهو أقصر كثيرا من كل المرات التى رأيته فيها ، وأكبر ما فيه رأسه ، وهو شديد البياض .

وموشى ديان أقصر وأنحف ، ويمشى يتساقط ، وهو ذئب شارد ليس له صديق ولا حبيب ولا حزب ولا قاعدة ، إنما يطلقه بيجين كبالون اختبار أو كلغم عائم .

وبيريز زعيم المعارضة الذى أجريت معه حديثا فى فيينا رشيق صوته غليظ ، ليس فيه منحنيات ، فصوته ليس معبراً مثل صوت كيسنجر تماما . . وبنطلونه طويل جدا يكاد يوقعه عند السير .

ويادين نائب رئيس الوزراء نحيف أسمر أصفر ، وحول عينيه علامات زرقاء ، ومشيته تدل على أنه يجلس كثيرا إلى مكتبه ، ويتحرك قليلا ، ويخيل إليك أنه ما يزال يحمل مقعده وراءه ، لأنه ينحنى إلى الأمام قليلا ، وهو العالم الأثرى الكبير

فى مجلس الوزراء الإسرائيلى ، فهو الذى ترجم « مخطوطات البحر الميت » ، وهو الذى يروى نكتة واحدة لا يضحك لها أحد سواه ، وهى أن أول اتفاق سلام كان بين الملك سليمان وبين فرعون مصر ، بعد أن تزوج الملك سليمان ابنة فرعون مصر ، والذى يجعله يضحك وحده هو عندما يقول : ولكن بيجين مع الأسف متزوج .

وهو صاحب التفسير بأن اتفاقية السلام هذه تعطى لإسرائيل استقلالها الحقيق الذى فقدته فى سنة ١٢٥ ميلادية ، عندما انهزم القائد اليهودى باركوشيه أمام الرومان .

أما عيزر فايتسمان فهو كما هو ، شاب فى غاية الحيوية . وقد أتى بابنه المصاب فى الحرب معه ، فايتسمان من ألطف الوزراء الإسرائيليين ، فعندما التقى بالرئيس السادات لأول مرة فى فندق الملك داود قال للرئيس : أهنئك على انتصارك فى حرب أكتوبر .

وكان فايتسمان يومها قد أصيب فى حادث سيارة فى الطريق بين القدس وتل أبيب حيث توجد وزارة الدفاع .

أما مندوبو الإذاعة والتليفزيون الإسرائيلى فكانوا يبحثون عن المسلمين من أبناء الأرض المحتلة ، ويسألونهم عن الآيات القرآنية المناسبة ليضعوها فى أحاديثهم أو فى مستهل هذه الأحاديث .

وكان مستوى الشياكة والأناقة دون المتوسط ، فالسيدات الأمريكيات لا يعرفن الموضة ، وأكثر الموجودات من الطاعنات فى السن . . لماذا ؟ لا أحد يعرف ذلك ، ولكنهن على كل حال أقدر من الجميع على فهم السلام ، لأنهن أمهات ، ولأن الكثيرات منهن قد جئن من أوروبا بعد العذاب والاضطهاد النازى .

وكان العشاء حفلة تكريم أقامها السادات وبيجين لكارتر ، فهو يستحق عن جدارة جائزة نوبل للسلام لسنة ١٩٧٩ . .

وعند خروج الزعماء الثلاثة من حفلة العشاء ظهرت على وجوههم الهموم والكرب العظيم ، فقد « ذهبت السكرة وجاءت الفكرة » ، كما يقول المثل ،

ولذلك فحديث الرئيس السادات فى الكونجرس فى اليوم التالى كان حسابيا تجاريا اقتصاديا بحتا ، وكذلك حديث مناحم بيجين ، فالسلام عملية اقتصادية ، والشعوب التى صفقت للسلام قد تعبت أيديها ، وتريد أن نعوضها عن هذه الطاقة التى بددتها فى الفرحة بالسلام والانتظار والخوف عليه ، والتعويض الوحيد فى السلام هو : الطعام . .

ونحن فى الطريق إلى الشارع البارد جدا ، كان رجال الأمن الأمريكان يقولون لنا . . فى الدور العلوى شمبانيا ورقص .

ولكن لم أجد عندى هذه القدرة على مجرد المعرفة ، فمنذ وصلنا إلى أمريكا وأنا لم أنم فى الليلة الواحدة أكثر من ساعة . ساعة من التحايل على النوم بفتح التليفزيون وإقفاله ، وفتح الراديو ، وإقفال الاثنين ، والبحث عن حبوب منومة ، ثم البحث عن ماء ساخن لكى أعد لنفسى فنجانا من الشاى . . لأن الفندق الذى نزلنا فيه يشبه فنادق الاتحاد السوفيتى ، لا يردون فيه على التليفونات ، وإذا ردوا تناسوا ، ثم إنهم لا يقدمون لك أية خدمة ليلية ، ولا إفطارا صباحيا ، والصباح عند أمثالى من الناس المساكين يبدأ من الساعة الرابعة ، ولذلك فلابد أن أرتدى ملابسى كاملة وأنزل إلى المطبخ ، وأحضر الماء الساخن فى تُرمس ، وأشرب أول فنجان شاى .

ومع هواء الليل البارد فى شوارع واشنطون نتساءل : ما الذى اتفقنا عليه ؟ لقد اتفقنا على أن نتفق ، أى أننا اتفقنا على أن نجلس معا ، ونسوى خلافاتنا ، وهى كثيرة ، بالحوار وليس بالسلاح ، والسلاح مختصر وسريع الطلقات ، أما الكلام فطويل لأنه مئات الألسنة الطويلة ، وحروبنا لم تستغرق أياما ، بل إن حرب ١٩٦٧ قد استغرقت ساعات ، أما كلامنا فقد بدأ منذ فك الاشتباك الأول ، وبعد ذلك منذ المبادرة للسلام حتى تم توقيع السلام ، واستغرق ذلك ١٦ شهرا .

* * *

وما حدث أيام اتفاقيات كامب دافيد تكرر هذه المرة أيضا ، فالتليفزيون الأمريكى قد عرض أيام كامب دافيد فيلم « هولوكوست » أى الحريق ،

وهولوكوست كلمة من أصل يونانى ، و « هولو » معناها : كل ، و « كوست » معناها : الحريق ، أى الحريق الشامل لليهود ، وكان الغرض من عرض هذا الفيلم فى أمريكا وألمانيا هو إعادة نشر قصة عذاب الشعب اليهودى ، وإثارة الشفقة عليه ، فهذا الفيلم تفسير وتبرير لخوف اليهود وتشددهم وعدم ثقتهم فى أحد ، ثم عرض هذا الفيلم فى فرنسا ، وكان ذلك بفضل السيدة سيمون فيل وزيرة الصحة ، وهى يهودية ، وكانت مثل بيجين أحد الذين دخلوا معسكرات الاعتقال وخرجوا منها .

وقد نبهنى د . حمدى السيد نقيب الأطباء إلى أننا فى مصر نستخدم تعبير « معسكرات الاعتقال » بدلا من كلمة « المعتقلات » مع أن الفارق كبير جدا بين معسكرات النازى الرهيبة وبين المعتقلات عندنا .

أما هذه المرة وقبل توقيع الاتفاقية بيوم واحد ، فقد عرض التليفزيون الأمريكى فيلم الوصايا العشر ، بطولة شارلتون هستون الذى قام بدور موسى عليه السلام ، وبول برينر وقد قام بدور فرعون الذى طرد اليهود من مصر ، وله تمثال فى باب الحديد بالقاهرة ، وقد رأيت هذا الفيلم أول مرة فى مدينة سيدنى باستراليا سنة ١٩٥٩ .
ورأيت تصوير هذا الفيلم بجوار أهرامات الجيزة ،فإلى جوار الهرم جاء المخرج الكبير سيسيل دى ميل ومعه مساعده المصرى بغدادى ، وتم تصوير خروج اليهود من مصر .

ويوم كتبت عن هذا الفيلم تلقيت خطابا عنيف اللهجة من الساعى الذى يجلس أمام باب مكتبى ، لأننى لم أكتب عنه هو . .

وسألته : وما دخلك أنت ؟ كان رده إنه كان يعمل فى هذا الفيلم ، ولما استوضحته : وما الذى كنت تعمله ؟ أجاب : كنت واحدا من الذين « يشحتون » فى شوارع القاهرة ، فقد كنا ندور على البيوت المصرية ونطلب إعارتنا حلة أو طبقا أو بعض الحلى .

ولم أره بين مئات الألوف من اليهود .

أما تصوير نزول « الوصايا العشر » على موسى عليه السلام ، فقد ذهب سيسيل دى ميل إلى جبل موسى وصور هذا الجبل ، ثم عاد إلى أمريكا ، وجعل البرق يكتب الوصايا العشر على الجبل واحدة واحدة ، أما كيف استطاع أن يجعل موسى يشق البحر بعصاه ، فقد صنع نوعا من العجين وراح يضربه بالعصا ، ثم يكبر هذه المشاهد ليمشى موسى وقومه ، ومن ورائه فرعون وجنوده ، ويقال إن فرعون قد مات مختنقا أوكاد يموت مختنقا .

وفرعون موسى هو الذى سافر إلى فرنسا للعلاج ، وانطلقت له المدافع ٢١ مرة ، باعتباره ملكا من الملوك ، وأول من اكتشف فساد جثة فرعون موسى هو الطبيب الفرنسى موريس بوكاى ، وقد ظهر موريس بوكاى مع طبيب مصرى آخر هو الدكتور مصطفى المنيلاوى على غلاف مجلة أكتوبر ، ومعهما طبيب ثالث ، وهم يتمشون على كوبرى أكتوبر أيضا .

وفيلم الوصايا العشر يحكى أهم حدث فى تاريخ الشعب اليهودى ، وهو الخروج من مصر ، والتوراة تحكى هذه القصة فى السفر الثانى ، وفى الفيلم الملون نجد أم موسى تلقى بابنها فى النيل وتطلب إلى ابنتها أن تحرسه وأن تعرف من الذى سوف ينتشله من الماء وانتشلته ابنة فرعون . . والقرآن الكريم يروى لنا القصة كاملة بلغة بليغة رائعة ، ثم إن الفيلم يحاول أن يصور هذه المعانى بإيجاز وإعجاز ، يقول القرآن الكريم :

« ولقد مننَّا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ، أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمِّ فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفسًا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ، فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى ، واصطنعتك لنفسى ، اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تَنِيَا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . . » إلى آخر ما جاء فى سورة طه .

والفيلم مرة أخرى يذكر العالم بعذاب اليهود ، وما وقع عليهم من اضطهاد فى مصر وكان ذلك الفيلم قد عرض فى الليلة السابقة على توقيع الاتفاقية .

ومنعنا هذا الفيلم من دخول مصر لأنه يدعى كذباً أن اليهود هم الذين بنوا الأهرامات ؟ ! !

وإلى جانب أخبار الاتفاقية والسلام ، تتوالى المشاكل العادية فى الدنيا ، فالصحف والتليفزيون فى أمريكا تتحدث عن إضراب المدرسين .

وتتحدث عن عودة جندى أمريكى من فيتنام بعد أن غاب ١٤ عاما . الحكومة تقول إنه هارب من الخدمة العسكرية ، ولذلك يستحق الإعدام أو السجن ، وهو يقول : بل كنت أسيرا ، والرأى العام يقول : حتى لوكان هاربا من الخدمة العسكرية يكفيه إنه عاش فى فيتنام يأكل ويشرب من تحت قدميه ، وينام فى المستنقعات ، حتى تغيرت ملامحه ولهجته أيضا .

وتسقط فوق كندا إحدى سفن الفضاء السوفيتية للمرة الثانية ، الأولى كانت مزودة بالطاقة النووية ، وقد أنفقت كندا أربعين مليونا من الدولارات حتى تعثر على بقايا سفينة الفضاء ، للتأكد من أنها ليست ضارة .

ويلجأ إلى سفارة أمريكا فى موسكو أحد المواطنين ، ويهدد بالانتحار إذا لم تقبله أمريكا لاجئا سياسيا ، وترفض أمريكا ، وينتحر الشاب .

ويظهر لأول مرة المكوك الفضائى ، إنه طائرة حملتها طائرة جامبو ٧٤٧ ، ونقلتها من المصنع إلى قاعدة إطلاق الصواريخ ، وسوف يكون لمصر فى هذا المكوك الفضائى الذى يحلو للدكتور فاروق الباز أن يسميه المتنقل الفضائى ، صندوق صغير به كاميرا تصور لمصر أرضها ومعادنها وجوها .

ومن الغريب أن يظهر هذا المكوك فى اليوم السابق على التوقيع ، أى نهاية رحلة المكوك كارتر ، ومن قبله المكوك فانس ، ومن قبلهما كيسنجر ، وهو الذى ابتدع سياسة المكوك بين عواصم الأعداء .

ولذلك فليس غريباً أن يكون المكوك الفضائى حول الأرض وبعيداً عن أهل

الأرض ، وإن كان فى خدمتهم جميعا . وبعد أن يدور بمن فيه من العلماء يعود إلى الأرض سالماً . ويمكن إطلاقه مرة أخرى ، أما جسم هذا المكوك فمصنوع من الطين المعالج معالجة خاصة ، تجعلة قادرا على تحمل درجة ٥٠٠٠ مئوية ، وهى التى تنتج عن احتكاكه بالغلاف الغازى حول الأرض عند هبوطه إلى الماء .

* * *

وعندما وقفنا فى مطار باريس طالعتنا الصحف الفرنسية تعلن أن الرئيس السادات قد وصل إلى المحطة الثانية فى طريق « مشروع كارتر » للرخاء الاقتصادى فى مصر . فالمحطة الأولى : واشنطون . . والثانية . . بون . . والثالثة : طوكيو . .

ونعود إلى مصر ، ونعود إلى معركة السلام ، نعود إلى الشعب ، وإلى مجلس الشعب ، ونكمل التصحيح الذى بدأ بثورة مايو ، ونعلن « ميثاق حقوق المواطن المصرى » . . تماماً مثل ميثاق حقوق الإنسان فى أمريكا . . وفى ظل الجو الصحيح السليم يكون الأمان . . وبعده الرخاء .

ولكن كما تحقق السلام بالحرب ، فلن يتحقق الرخاء إلا بالحرب أيضا . . الحرب ضد الكسل وضد الخوف وضد الفساد .

وسوف يرى الذين أدانوا مصر ظلما واتهموها تسرعا ، أن مصر كانت تعمل لهم ولنا ، وأن صالح العرب فى أن يتحدوا ويعملوا معا ، وقد جربنا معا كل الحيل والخطط والتشنج والمظاهرات والهتافات والمفرقعات ، ثم الحروب المنظمة ، فلنجرب الكلام المنظم والصبر الجميل ، والله ولى الصابرين ، وسيرى الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

. . ثم انتهت حرب أكتوبر . .

وبدأت حرب أكثر قداسة : وهى : ألا تكون حروب بعد ذلك ، حتى يعيش الناس فى أمان من الخوف ، وأمان من الجوع ، وأمان من المرض – اللهم آمين ! .



نقط جديدة فوق حروف قديمة

من ميت أبو الكوم إلى قصر القبة !

يوم الجمعة

كان لابد أن يعود الرئيس أنور السادات إلى قريته ميت أبو الكوم ، أحب الأماكن إليه ، وواحة الأمان فى طفولته وشبابه . . فقد فاته أن يقوم بواجب العزاء فى عمدة ميت أبو الكوم الذى توفى أثناء زيارة الرئيس الأمريكى السابق كارتر . وذهب إلى القرية التى أعاد صياغتها بأمواله التى حصل عليها من كتابه « البحث عن الذات » فى طبعاته بعشرين لغة ، وبنصيبه من جائزة نوبل للسلام . . ليتحول الطين إلى حجارة بيضاء ، وأشعة الشمس إلى مياه ساخنة فى الأنابيب .

ووقف الرئيس السادات على قبر أخيه الشهيد عاطف السادات ، وقرأ الفاتحة وعيناه على عبارة مضيئة تقول : استشهد فى سيناء يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . فقد استشهد عاطف السادات فى العشرين دقيقة الأولى لحرب أكتوبر ، وكان الفضل الأول للطيران الذى جاءت ضرباته الناجحة أولى بشائر النصر . .

وكان عاطف السادات أصغر الإخوة وأحبهم إليه ، وكان فى نية عاطف السادات أن يتزوج لولا أن الرئيس اتفق معه على أن يجعل الفرحة فرحتين بعد انتصارات أكتوبر . . ولكن شاءت إرادة الله أن يختاره واحدا بين الذين هم « أحياء عند ربهم يرزقون » .

وعلى قبر الشهيد عاطف السادات ، عقد الرئيس أنور السادات مؤتمرا صحفيا ، فلدى وكالات التليفزيون العالمى تعليمات صريحة أن يخوضوا غبار موكب الرئيس السادات أينما ذهب ، وسألوه ، وأعاد عليهم ما سبق أن قاله من أنه قد اتفق مع الرئيس الأمريكى كارتر أن يكون توقيع النسخة العربية للمعاهدة فى القاهرة ، والعبرية فى القدس ، والإنجليزية فى واشنطون . وقال : إننى وعدت الرئيس كارتر ، وهذا التزام بذلك .

ولكنه عاد فقال : ولكنى أفضل أن أعطى الفضل لصاحب الفضل . . وأرى أن توقع النسخ الثلاث فى واشنطون ، حفاوة بالرئيس كارتر الذى لولاه ما تحقق السلام بيننا وبين إسرائيل . .

وفى هذا اليوم تلقى الرئيس السادات رسالة من السيد مناحم بيجين ، عن طريق السفارة الأمريكية بالقاهرة ، الرسالة بعث بها رئيس وزراء إسرائيل إلى الرئيس الأمريكى لكى يبعث بها إلى رئيس مصر : يقول السيد بيجين : إن الرئيس السادات كان قد وعد بأن يكون التوقيع فى المدن الثلاث : واشنطون والقدس والقاهرة ، فما الذى جعله يعدل عن هذا القرار؟

وكان رد الرئيس السادات : إن ما وعدت به الرئيس كارتر صحيح ، لولا أننى أرى ضرورة أن نعطى للرئيس كارتر كل ما يستحقه من حفاوة وامتنان ، وذلك بأن توقع النسخ الثلاث فى واشنطون ، وعلى كل فلنترك هذا الموضوع إلى أن نلتقى فى واشنطون .

وكانت عبارة السيد مناحم بيجين رقيقة وودية ، وكذلك كان رد الرئيس السادات . .

وانطلقت الاجتهادات فى كل اتجاه ، وقيل إن مصر لن توقع الاتفاقية فى مدينة القدس ، وإلا كان ذلك اعترافا بأنها عاصمة إسرائيل . . مع أن الرئيس السادات يوم ذهب إلى الكنيست فى القدس قد أعلن أن القدس جزء من الضفة الغربية العربية ، وأن أى تعديل على المدينة يعتبر غير مشروع ، فلا حرج من أنه قد ذهب

إليها ، أو يذهب إليها بعد ذلك .

ولكن الاجتهادات والشائعات أسرع من الحقائق . . وأكثر الذين يعطون آذانهم للميكروفونات ليس عندهم وقت لكى يقرأوا ما أعلنته مصر بوضوح قاطع ، قبل المبادرة وأثناءها وبعدها ، عن مدينة القدس .

يوم السبت

من عادة الرئيس السادات فى رحلاته إلى أمريكا أن يتوقف فى منتصف الطريق . ليستريح من مشقة المشوار الطويل ، ولكنه هذه المرة قرر أن يجرب ما فعله الرئيس كارتر ذهابا وإيابا من الشرق الأوسط ، فتوقف الرئيس السادات فى جزر اسوريش البرتغالية الواقعة فى المحيط الأطلسى .

وتوقفت الطائرة عند قاعدة لاخيس الجوية فى جزيرة تريسيرا ، الأرض بركانية ولكنها خضراء تماما ، وجوها معتدل ، وعلى الرغم من أن هذه الجزر معناها جزر النسور ، فلم نجد نسرا واحدا . . ولا طائرا واحدا – إنما طائرات حربية فقط . . (تماما مثل جزر « كناريا » الإسبانية ، ومعناها جزر الكلاب ، لا تجد فيها كلبا واحدا . وكذلك جزيرة « كابرى » الإيطالية ، ومعناها جزيرة الماعز ، لا تجد فيها واحدة من هذه الحيوانات) . وكان الجو لطيفا باردا ، وتساقط المطر رذاذا . واستقبل الرئيس السادات حاكم الجزيرة ، فجزر اسوريش ليست لها حكومة مركزية ، إنما هى جزر ذات حكم إدارى منفصل ، وعدد سكانها ٤٠٠ ألف .

وأول ما سمعه الرئيس السادات من المستقبلين أنهم يباركون السلام .

وسألنا إن كان فى الجزيرة يهود ، فقيل لنا : نقرأ عنهم فى الكتب ، لأن البرتغال بلاد كاثوليكية شديدة التعصب . وكان لها دور كبير فى محاكم التفتيش فى العصور الوسطى من المسيحيين وغيرهم ! .

وطلب إلينا الجنود البرتغاليون الذين وقفوا بكلابهم البوليسية ومدافعهم الرشاشة : إن كان من السهل رؤية أهرامات الجيزة ! .

وكان هذا السؤال مثل طلب مكافأة على أنهم استضافوا طائرة الرئيس السادات والوفد المرافق له ، وتبرعنا جميعا بأن هذا ممكن فى أى وقت . . ولم نقل لهم عن الطريقة العملية لذلك ، فقد منعهم الحياء أن يسألونا ، ومنعنا الخوف من التورط أن نشرح لهم ذلك ! .

وكما هى العادة فى كل رحلات الرئيس السادات منذ حرب أكتوبر ، أن تنطلق اجتهادات وشائعات تقول : إن عددا من الإرهابيين قد سبقوه إلى مطار مدريد ، حيث كان من المفروض أن يتوقف ، وإنه لذلك قد غير مسار رحلته .

وهى أوهام وشائعات عرجاء ، لا تذهب إلى أبعد من ليبيا وسوريا والعراق .

يوم الأحد

وصلت الطائرة إلى قاعدة أندروز الجوية فى السادسة مساء ، أى فى الساعة الواحدة من صباح الاثنين بتوقيت القاهرة ، والرحلة شاقة ، فقد استغرقت ١٥ ساعة ، ومن المتفق عليه ألا يقوم الرئيس السادات بأى نشاط ، ما عدا رياضة المشى ساعة – كما هى عادته – وقد زادها الآن إلى ساعة وربع الساعة .

وقبل أن يصل إلى واشنطون وبعدها ، امتلأت سماوات الشرق والغرب بأن هناك جهودا خرافية من أجل ألا يتم التوقيع على معاهدة السلام ، ولم يقل أحد كيف يحدث ذلك ؟ أقرب الاحتمالات هو أن طائرة مجهولة تخترق سماوات أوروبا وأمريكا وتلقى قنبلة ذرية على واشنطون .

ولم يخف التليفزيون الأمريكى تساؤله : كيف يفلح أحد مهما أوتى من قوة أن يفعل ذلك ؟ فإذا حدث فهى معجزة ، والسلام خرافة ، وعلى العواصم الأخرى أن تركع تحية لهذه القوة الجديدة على الأرض ! . .

وبعد الظهر تلقى الرئيس السادات أن السيد مناحم بيجين يريد زيارته فى مقر السفير المصرى .

وكان قد سبق السيد مناحم بيجين خصمه السياسى السيد شمعون بيريز ، فهو

أيضا قد طلب لقاء الرئيس السادات فى نفس اليوم .

وتأجل موعد لقاء زعيم المعارضة السيد بيريز لليوم التالى .

وجاء السيد بيجين إلى السفارة ، وقد سبقته الموتوسيكلات وسيارات الأمن . ومن فوقه طائرة هيلوكوبتر ، وعشرات من مصورى التليفزيون والإذاعة ، ومئات من الأمريكان ، وقفوا أمام مبنى السفارة .

ودخل السيد بيجين إلى بيت السفير ، وعلى عادته فى المجاملة حاول أن يؤكد للصحفيين المصريين أنه يعرفهم ، وأنه لم ينس الأسئلة التى وجهوها إليه فى القدس . . وإن كنا نحاول أن ننسى غلظته وسلاطة لسانه فى القدس أيضا ، ولكن عذره أنه محام قديم ، وأنه زعيم سياسى لدولة فيها عشرات الأحزاب ، وأنه يبيع معاهدة السلام لأكبر بورصة سياسية ودينية وعنصرية فى العالم كله : الكنيست .

وصعد إلى الدور الثانى من المبنى ليتلقاه الرئيس السادات ، وليكون بينهما أول لقاء حقيقى يستغرق ساعتين : فقبل ذلك كانت اللقاءات ثلاثية ، وكان ثالثهما الرئيس الأمريكى السابق كارتر فى كامب دافيد ، بل إنهما فى كامب دافيد لم يلتقيا ثلاثيا إلا مرتين . . فى يوم واحد . . أما بقية الأيام فى كامب دافيد ، فقد كان كل منهما فى ناحية .

وكانا يتركان المشاكل وحلها والخلاف حولها لأعضاء الوفود الثلاثة .

وتحدث الرئيس السادات والسيد بيجين فى موضوعين . الأول هو موضوع : أين يتم توقيع النسخ الثلاث لمعاهدة السلام ؟ .

قال السيد بيجين : سيادة الرئيس . . أنت أعلنت موافقتك على أن يكون التوقيع فى القدس والقاهرة وواشنطون ، فما الذى جعلك تغير رأيك ؟

قال الرئيس السادات : كنت قد وعدت الرئيس كارتر بذلك ، وكنت عند وعدى لولا أنك جعلت موقفى صعبا ، فقد ظهرت على التليفزيون تعلن ذلك . . ثم أضفت إلى هذا أن القدس هى عاصمة إسرائيل ، اليوم وغدا . . وهذا يحرجنى تماما ، فأنا لم أقل إنها عاصمة إسرائيل ، ورأيى معروف ومعلن فى الكنيست . .

ولذلك أرى أن يتم التوقيع هنا ، وفى ذلك تحية يستحقها الرئيس الأمريكى . .

ووافق السيد بيجين على ذلك .

وقال الرئيس السادات : وأنا أدعوك لزيارة القاهرة يوم الاثنين القادم ، وبذلك تردِ زيارتى للقدس . . فأنا سوف أسافر من أمريكا يوم الأربعاء ، وأتوقف فى ألمانيا ، وأعود إلى القاهرة يوم السبت . . وسوف أكون فى انتظارك .

وكانت سعادة السيد مناحم بيجين لا توصف ، وبسرعة نقل أحد معاونى بيجين عن طريق تليفون السفارة نبأ هذه الدعوة إلى الإذاعة الإسرائيلية . . ثم دعوة الرئيس السادات لزوجة مناحم بيجين لترافقه فى زيارة القاهرة .

أما الموضوع الثانى الذى ناقشه الرئيسان فهو : آبار البترول المصرية ، وموعد جلاء إسرائيل عنها .

وكان الاتفاق أن يتم انسحاب القوات الإسرائيلية بعد أربعة شهور .

ولكن جاءت ثورة إيران عنصرا جديدا أفزع إسرائيل . وحرمها من حصتها البترولية . .

ودار الحوار بين الرئيس السادات والسيد مناحم بيجين هكذا :

قال الرئيس السادات : لقد اتفقنا على أن يكون تسليم آبار البترول فى موعده . . هذا التزام أمام أنفسنا وأمام العالم .

قال السيد بيجين : ولكن يا سيادة الرئيس أنت تعلم ماذا أصابنا بسبب إيران .

– أعرف ذلك جيدا . . ولكننا أمام اتفاقات ناقشناها كثيرا ، ويجب أن تنتهى ، فنحن سوف نوقع غدا على معاهدة السلام .

– إذن فليكن تسليمنا لآبار البترول المصرية بعد تسعة شهور .

– ستة شهور .

– أرجوك سبعة شهور .

– إن هذه الآبار قد ظلت فى أيديكم تستنزفونها ١٢ عاما . . وإضافة شهر أو شهرين لا تهم . ولكن الذى يهم هو أن نفرغ من الخلافات على التفاصيل . .

إذن ، فدخولنا العريش بعد شهرين بدلا من ثلاثة . . وتسلم آبار البترول بعد سبعة شهور بدلا من ستة . . اتفقنا !

— اتفقنا .

وتقرر فى هذا اللقاء أن يذهب الرئيس السادات إلى العريش المصرية يوم ٢٦ مايو ، وأن يدعو السيد بيجين فى اليوم التالى . . وأن يذهب الرئيس السادات إلى زيارة بير سبع ، أو بير شيفع كما ينطقها الإسرائيليون ، ومعناها بئر رقم ٧ أو الآبار السبع . . وتكون هذه الزيارة من الجانبين فتحا للممر الجوى بين إسرائيل ومصر . . وفتحا للحدود ، وإعطاء تأشيرات الدخول بين البلدين .

وفى نفس اليوم زار الرئيس السادات صديق قديم هو د . هنرى كيسنجر ، وجاءت معه زوجته نانسى ، وكما اعتاد د . كيسنجر أن يكون مركزا للكاميرات والميكروفونات ، وقف مختالا مزهوًا بين الصحفيين . . قال أحد الصحفيين : كان حديثك الذى نشرته كل المجلات العالمية رائعا .

سأله كيسنجر : ما الذى أعجبك فيه . . طبعا ليست الأسئلة هى التى أعجبتك ؟ ! ولم ينتظر أن يقول له : فعلا بعض الأسئلة كانت ذكية ، وإن كانت الإجابات أشد ذكاء ، ودخل إلى المصعد ومعه زوجته .

ودار بين وزير خارجية أمريكا السابق د . كيسنجر والرئيس السادات حديث وصفه الرئيس بأنه ممتع حقا . واستعرض الاثنان الموقف تماما ، وأكد كيسنجر للرئيس السادات أنه قلب موازين السياسة والديبلوماسية . . وأنه حقق معجزة السلام ، وأن نتائج هذه المعجزة ، رغم وضوحها الآن ، سوف تكون أعمق عاما بعد عام .

وبعد لقاء كيسنجر فى واشنطون ، ولقاء الرئيس السادات لبرزنسكى فى القاهرة ، يحلو للرئيس السادات أن يتساءل : لقد جاء وقت كان فيه العالم كله ينظر إلى كيسنجر على أنه أعجوبة السياسة والديبلوماسية . . وأنه رجل ليس له نظير فى العالم . . ولكن عندما جلست مع برزنسكى قبل مجىء كارتر إلى القاهرة ، وجدت

متعة فكرية لم أذق لها طعما فى حياتى . . فالرجل عقلية باهرة منظمة ، وآفاقه واسعة . . إن الحديث معه متعة مؤكدة ، فلماذا لا تخرج جامعاتنا مثل هذه النوعية السياسية أو الاقتصادية ؟ كم من الوقت نحتاج لكى نرى بين المصريين من يرقى إلى مثل هذا النبوغ الفكرى ؟

يوم الاثنين

لا أعرف كيف يوصف هذا اليوم الذى تطلع إليه العالم كله ، شرقا وغربا والذى تتمناه كل الشعوب التى أرهقها القتال ، وأضناها النزاع . .

وكل ما أذكره بيت من الشعر قاله شاعرنا الكبير على الجارم :

يوم كأن ضياءه من أعين من طول ما اتجهت له الأنظار

ولكن أحدا لا يعرف كيف تشرق الشمس فى ذلك اليوم . . ولا كيف يهدأ الهواء البارد فى حديقة البيت الأبيض ، ولا كيف تتم مراسم التوقيع ، ولا أين يجلس الناس ولا كيف ، ولا كم عددهم ؟ .

وقبل التوقيع ذهب الرئيس السادات للقاء مع الرئيس الأمريكى كارتر ، واستغرق اللقاء ساعة ، ومن بعده جاء السيد بيجين ، واستغرق اللقاء ساعة ، وأكد الرجلان للرئيس الأمريكى : أن هذا اليوم هو يومه هو . . وأن التكريم والامتنان العظيم له .

ويقول الرئيس السادات : وفى اللقاء مع الرئيس الأمريكى ازددت يقينا من أن الرجل صادق ومخلص ، وأنك معه لا تشعر بأنه رئيس أقوى وأكبر وأغنى دولة فى العالم . . إنما هو إنسان بسيط متواضع وقريب منك . .

وجاء موعد الغداء .

وأكلوا جميعا إلا الرئيس السادات فإنه لا يأكل نهارا ، إنما يكتفى بأكواب الشاى الصغيرة المحلاة بعسل النحل .

وكان الرئيس السادات قد نذر لله صوما منذ أيام كامب دافيد ، وصام شهورا ، ولكنه بعد أربعة شهور عاد إلى الإفطار على أكواب الشاى طيلة اليوم .

وفى حديقة البيت الأبيض جلس الرؤساء الثلاثة يوقعون على النسخ الثلاث من الاتفاقية وتعالت الهتافات بحياة السلام ، وتعانق الناس دون أن يعرف بعضهم البعض ، ولست استثناء عندما وجدت نفسى فى أحضان لا أعرفها ، ولكن المعنى عظيم رفيع .

ولمح الرئيس السادات د . هنرى كيسنجر ، وكان قد جلس إلى جوار السفير الأمريكى ، فى الأماكن المخصصة للوفد المصرى .

وأخرج الرئيس السادات قلما باركر ، وأهداه إلى كيسنجر ، وهو يقول : لقد وقعت بهذا القلم ، وهو هدية لك !

وقد استقر القلم الباركر فى جيب د . هنرى كيسنجر ، إنه قلمى أنا ، وكان قد استعاره الرئيس السادات !

واستخدم الرئيس السادات فى التوقيع قلما آخر باركر ، لم ير أجمل منه فى حياته . وقد تلقاه هدية فى عيد ميلاده الستين ، ومعه خطاب رقيق يقول فيه صاحبه : إن هذا القلم هدية لك فى عيد مولدك ، أرجو أن تقبله ، وأن توقع به معاهدة السلام مع إسرائيل .

ولم يكن أحد فى ديسمبر ١٩٧٨ يرى بوادر السلام أو التوقيع .

هذا القلم أعطاه الرئيس السادات بعد ذلك لسفيرنا فى ألمانيا ، وطلب إليه أن يعيده إلى صاحبه مشكورا ، بعد أن اكتسب هذه القيمة التاريخية ! وفى نفس الوقت كانت بعض دول الرفض قد استأجرت عددا من الشباب ليعلنوا فى الميكروفونات رفضهم لمعاهدة السلام وللسلام ولإسرائيل .

ونشرت الصحف الأمريكية أن دول الرفض قد استأجرتهم بالساعة .

وعندما قلب الرئيس السادات فى كلمته ، التصقت ورقتان ، إحداهما عن القضية الفلسطينية . . ولذلك لم يقرأها ، وأخطرت وكالات الأنباء والصحف

العالمية بأن هذا قد حدث سهواً .

وفى الليل أعاد الرئيس السادات فى كلمته تمسكه المتجدد بالقضية الفلسطينية .

ولكن الإذاعات المأجورة فى الشرق الأوسط خرجت بقضية طريفة ، قالت إن السيد فوزى عبد الحافظ السكرتير الخاص للرئيس السادات هو الذى أضاع هذه الورقة ، أو إن له رأيا مخالفا فى القضية الفلسطينية . . وإن الرئيس السادات قد أبعده . . ودلّلوا على ذلك بأن السيد فوزى عبد الحافظ لم يظهر فى حفلة العشاء ! .

أما أنه لم يظهر فى حفلة العشاء فهذا صحيح ، ولكن السبب هو أنه مريض ، وظل مريضا حتى عاد إلى مصر ! .

وأقام البيت الأبيض أكبر عشاء فى تاريخه .

وعندما جاء الرئيس السادات إلى المائدة المخصصة له فوجئ بالعازف المصرى عمر خورشيد وعازفين آخرين من إسرائيل ، أحدهما مصاب بشلل أطفال ، ويرفض أن يساعده أحد على الحركة .

فقد شاء الرئيس الأمريكى كارتر أن يكون على المائدة المخصصة للرؤساء الثلاثة هؤلاء الفنانون .

وتناول الجميع العشاء إلا الرئيس السادات أيضا ، فقد تناول طعامه قبل أن يجىء ، وهو يتناول طعامه الخفيف فى ساعة مبكرة ، وطعامه وجبة واحدة فى اليوم !

وقد سئل الرئيس السادات عن ذلك ، فكان حديثه دفاعا عن الصوم ، الذى يجعله خفيفا ويجعل تفكيره صافيا .

وقد سعد الرئيس السادات بما عزفه عمر خورشيد لموسيقى سيد درويش وزكريا أحمد وكيف أنه لقى تجاوبا من الحاضرين .

وعندما عاد الرئيس السادات إلى القاهرة ، رأى عمر خورشيد على شاشة التليفزيون وهو يروى كيف إنه ظل يبحث عن مقعده فلم يهتد إليه إلا بصعوبة . . فلم يخطر على باله أنه سوف يجلس مع الرؤساء الثلاثة !

وقبل العشاء كان الرئيس السادات قد التقى بالسيد شمعون بيريز زعيم حزب العمل وزعيم المعارضة أيضا ، وقد أعجب به الرئيس السادات عندما التقى به فى النمسا . فقد رأى فى سلوكه البرلمانى صورة نموذجية . . فالخلافات التى بينه وبين السيد بيجين هائلة . . ولكن عندما يقف الاثنان أمام القضايا القومية : فالصف الواحد ، والقرار واحد ! .

وقد أيد السيد بيريز حكومة بيجين كما لم يفعل الكثيرون من حزب « حيروت » الذى يتزعمه بيجين ، أو الأحزاب الأخرى المؤتلفة معه .

ودار بين الرئيس السادات والسيد بيريز حديث طويل . وبارك السيد بيريز خطوات السلام .

ووجه إليه الرئيس دعوة لزيارة مصر .

يوم الثلاثاء

هذا اليوم أمضاه الرئيس السادات فى الكونجرس بمجلسيه . . وقد انحنى الرئيس السادات تسع عشرة مرة . لعل الذين وقفوا لتحيته يكفون عن التصفيق ، ولكنهم ظلوا كذلك ست دقائق و ٤٠ ثانية كما سجلها التليفزيون الأمريكى .

وكان حديث الرئيس السادات له معنى واحد : بلادنا محتاجة إلى من يشاركنا فى استثمار خيراتها ، وهى كثيرة بشهادة خبرائكم .

وكان رأى البنك الدولى فى الاقتصاد المصرى يشبه صور كشف الأشعة وتحليلات الدم التى يحتاج إليها الطبيب قبل أن يعالج المريض ، وأكدت هذه التحاليل أن مصر ليست مريضة ، إنما مجهدة ، وأن البيروقراطية معوقة لأى نشاط !

وفى لقاء الرئيس السادات برجال الأعمال الأمريكان دعاهم جميعاً للحضور إلى مصر . . وانتهز وجود بول أوستن رئيس مؤسسة الكوكاكولا صاحبة المزارع الواسعة فى أمريكا الجنوبية وأفريقيا ، وقال : إن خبيراً من مؤسسة الكوكاكولا قد جاء إلى

مصر . وبهرته أرضها وسماؤها . وستة المليارات من الأمتار المكعبة من الماء الذى تلقى به فى البحر الأبيض كل سنة .. إن هذا الخبير هو الذى زرع ولاية أريزونا . . إنه أحد عباقرة الزراعة . . وقد سحرته مصر .

وجاء الرئيس الأمريكى دون أن يكون مدعوا ، وقال : إن الرئيس السادات رجل يحترم كلمته ، فما وعد بشىء وأخلفه قط ، أقدم لكم الرئيس السادات .

يوم الأربعاء

كانت الطائرة الهيلوكوبتر التى تتجه خارج واشنطون . . دليلا على أن الرئيس السادات فى سيارة إلى مكان ما . . وقد خرج الرئيس السادات والسيدة قرينته للنزهة خارج واشنطون لمدة ساعتين . .

وعاد الرئيس السادات ليقول للتليفزيون الإسرائيلى : أنتم واقعيون ، ولذلك يجب أن تسلموا بواقع المنطقة العربية ، ومن واقع المنطقة وجود منظمة التحرير الفلسطينية ، يجب أن تتعايشوا معها ، وأن تبحثوا لكم عن وسيلة للتفاهم من أجل الحل والسلام .

يوم الخميس

التقى الرئيس السادات برئيس ألمانيا الاتحادية فالترشيل ، أحاطه علما بتفاصيل اتفاقية السلام ، وتصوره لما سوف يحدث بعد ذلك بين مصر وإسرائيل ، وبين مصر والشقيقات فى العالم العربى .

ثم التقى الرئيس السادات بالمستشار الألمانى هلموت شميت ، وبينهما الكثير من الصفات المشتركة ، فكلاهما ولدا فى عام واحد ، وكلاهما يسهر طويلا ويبدأ عمله قبل الظهر من أى يوم . . ثم إن الهر هلموت شميت عندما التقى به الرئيس السادات قبل ذلك قال له : سوف تكسب فى النهاية ، اصبر ، إننى أرى الصورة من هنا . . إننى أعرف بالضبط ماذا حدث وما سوف يحدث ، بالصبر سوف تكسب ، إن

الذى أحدثته فى المنطقة وفى العالم لا يوصف ولا تمكن معرفة أبعاده الواسعة العميقة إلا بعد وقت طويل .

وإذا ذكر الرئيس السادات ساعات المتعة العقلية فى حياته ، ففى مقدمة هذه الساعات أحاديثه مع المستشار هلموت شميت .

يوم السبت

كما خرجت القاهرة لاستقبال الرئيس السادات عند عودته من القدس ، فهذه المرة قد خرجت القاهرة ومصر كلها ، ولو استطاع الرئيس السادات أن يصلى لله شكرا أثناء موكب الحفاوة به لفعل . والذى رآه وسمعه وأحسه هو أقصى مكافأة يستحقها زعيم وطنى من شعبه : الامتنان والأمل فى مزيد من النجاح من أجل السلام والرخاء . .

يوم الاثنين

تحيرت المعانى فى رءوس الناس : السيد مناحم بيجين فى القاهرة ! كيف ؟ ولماذا ؟ ثم كيف ولماذا مرة أخرى ؟ .

وقد جاءنا السيد بيجين فى الإسماعيلية قبل ذلك ، ولكن أحدا لم يشعر به ، فقد خرج من « بره بره » . وكان فى استطاعة السيد بيجين أن يوفر علينا وعليه وعلى العالم الكثير من الساعات العصيبة لولا . . لولا أشياء كثيرة أبداها ، وتشبث بها فى ذلك الوقت ، ولكن كل ذلك لا يهم الآن ، فقد تعاهدنا على السلام ، وفى العالم كله مئات الملايين من الشهود على ذلك .

وارتفع العلم الإسرائيلى على المطار إلى جوار العلم المصرى . . وهذا طبيعى ، وعزفت فرقة الموسيقى العسكرية نشيد « الأمل – هاتكفاه » وهو السلام الوطنى الإسرائيلى .

وكانت الصحف الإسرائيلية قد نشرت أن إسرائيل سوف تقدم نشيدا جديدا

بدلا منه ، وهو الذى فازت به فى مهرجان « التليفزيون الأوروبى » أخيرا . واسم الأغنية : هللوا للرب ! وعرفت فيما بعد أن هذه كذبة أبريل !

ولم نلاحظ أن أحدا كان يفتح شفتيه عند عزف النشيد الإسرائيلى ، كما كانوا يفعلون عند عزفه فى واشنطون ، ولاحظت وكالات الأنباء أن السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية لم يبتسم طوال فترة الاستقبال ، وإن زوجة النائب حسنى مبارك كانت أكثر مجاملة . . كما أن د . مصطفى خليل رئيس الوزراء السابق لم يكن هناك . .

ولكن السيد بيجين كان سعيدا جدا ، ولم يشعر أنه أسرف كثيرا فى استخدام كلمة : أسطورة . . تعليقاً على كل ما رآه فى القاهرة بعد ذلك : أنا فى القاهرة . . أنا أمام الهرم . . أنا الذى يبتسم له المئات والألوف من المصريين .

وكان صادقا فى إحساسه « بخرافة » هذا الموقف التاريخى الجليل ، ونقطة التحول والانطلاق فى الشرق الأوسط .

وأمام الهرم الأكبر اعترف السيد بيجين أن اليهود ليسوا هم الذين شاركوا فى بناء الهرم الأكبر — كما يدعى ذلك فيلم « الوصايا العشر » الذى يروى خروج موسى عليه السلام واليهود من مصر !

وأشفق عليه المرافقون من حرارة الشمس غير العادية فى ذلك اليوم ، ولكن سعادته قد أنسته كل شىء .

وعلى حد قوله : لو كان عند أى إنسان إحساس بالتاريخ ، ورأى الذى أراه الآن ، لغرق فى نشوة من السعادة الغامرة ! .

وكان العشاء فى قصر عابدين . . ثم عدلنا عنه إلى حدائق القبة ، وذلك بسبب شدة الحرارة واصطفت الموائد على العشب .

ولم يشأ السيد مناحم بيجين ولا أحد من مرافقيه أن يطلب عشاء « كوشير » أى طعاما على الطريقة اليهودية ، فلا خلاف بين المسلمين واليهود فى تحريم « الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » — كما يقول القرآن الكريم .

وكان من بين المدعوين الحاخام شندلر رئيس الطائفة اليهودية الأمريكية ، وهو الذى اتخذ موقفا عدائيا من مبادرة السلام ، ولما رآه الرئيس السادات داعبه قائلا : هل ألقى القبض عليك الآن ؟ .

وكان من بينهم أيضا أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل السابق ، والذى اشتهر فى العالم كله باسم « صوت إسرائيل » . وهو من جنوب أفريقيا ، وقد عمل فى المخابرات الحربية البريطانية فى مصر ، وكان رقيبا على الصحافة العربية والعبرية فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ، وقد التقى بزوجته سوزى امباش هذه فى مصر سنة ١٩٤٥ وهى يهودية مصرية ، ثم عمل رئيسا لوفد إسرائيل فى الأمم المتحدة .

ولا أزال أتذكر ونحن طلبة فى الجامعة أننى ذهبت لسماع إحدى محاضراته فى نادى الضباط فى الزمالك ، وكان موضوعها المستشرق الإنجليزى نيكلسون ، فقد توفى ، وكان أبا إيبان أحد تلامذته .

وقد ترجم أبا إيبان رواية توفيق الحكيم « يوميات نائب فى الأرياف » ترجمها عن الفرنسية إلى الإنجليزية ، وجعل عنوانها : « متاهة العدالة » أو « ضلالة العدالة » . .

وأول خطاب يتلقاه أبا إيبان بعد تسعة شهور من الآن سوف يكون من توفيق الحكيم ، الذى سيطالبه بحق التأليف . فقد رفض توفيق الحكيم أن يقبض المبلغ الذى حولته إليه دار النشر التى طبعت هذا الكتاب . . أما بعد العلاقات الطبيعية بيننا وبين إسرائيل فلن يتردد توفيق الحكيم فى المطالبة بكل مستحقاته !

وقد ضحكنا من كلمات فى الترجمة الإنجليزية ، ولكن وجدنا عذرا لأبا إيبان ، فهو لا يعرف اللهجة العامية المصرية ؛ مثلا : كوز ذرة . . فى اللغة العربية معناه : ثمرة نبات الذرة . . أو علبة صفيح مملوءة بحبات الذرة . . وقد اختار أبا إيبان هذا المعنى الأخير ، وهو المعنى غير الصحيح . .

وحار أبا إيبان فى ترجمة الأغنيات الشعبية التى جاءت فى كتاب توفيق الحكيم ، مثل : واحدة بياضة شفتشى .

والثانية بلطية . .
والتالتة من عجبها
عملت مراكبية .
. . .
ورمش عين الحبيبة
يفرش على فدان . . إلخ .

ومن بين المدعوين أيضا ثلاثة من أسرى الحرب أفرجت عنهم مصر . . وفى مقدمتهم أسير فقد ذراعه فى الحرب ، وجاء مع أبيه الذى ما يزال جنرالا فى الجيش الإسرائيلى . . وقد جاء هذا الجنرال يسأل عن الطبيب المصرى الذى أنقذ ابنه من الموت عندما كان طريح الفراش فى مستشفى المعادى .

وكان من بين المدعوين واحد من الذين اتهموا فى مقتل اللورد موين ، قال لى : من الصدف الغريبة أنه كان متهما بالاعتداء على الإنجليز فى نفس الوقت الذى كان فيه الرئيس السادات يعانى من نفس التهمة ! .

وجلست إلى جوارى السيدة حنا تسيمر رئيسة تحرير صحيفة « دافار » الإسرائيلية . . وهى لا تعرف الضحك . . قلت لها : هل تعرفين لماذا نقدم لكم مياها معدنية بدلا من ماء النيل ؟

سألتنى لماذا ؟

قلت : لأن الذى يشرب من ماء النيل يعود إلينا مرة أخرى ! .

وفى نفس اللحظة وقف الرئيس السادات يقول : إنكم تشربون من ماء النيل ! .

ولم تضحك السيدة ، لهذه النكتة ؟ !

إنما أبدت استياءها من الناى الحزين فى الموسيقى المصرية . . وقالت : إنها مملة ! .

فقلت : إنه يساعدك على البكاء .

فاستنكرت ذلك : لقد شبعنا بكاء .

قلت مغيراً الموضوع : كيف أحصل على صحيفتك وغيرها من الصحف الإسرائيلية ؟ !

سألت لماذا ؟

قلت : لكى أعرف أكثر .

ردت بسرعة : ليتك تعرف عن إسرائيل أقل مما تعرف فإن الذى تكتبه عنا هو من أوجاعنا الأسبوعية !

وجاءت فرقة رضا ، ورقصت على العشب الأخضر . . وجاءت فريدة فهمى وأبوها لمصافحة المائدة الرئيسية . .

وكانت سعادة السيد مناحم بيجين لا توصف ، وكان يؤكد ذلك لكل الذين حوله ، ولم يدع إلى العشاء كاتب إسرائيلى هو « عاموس آلون » كان موجودا فى القاهرة وقتها هذا الكاتب قد أثار استياء العالم كله والمصريين بصفة خاصة ، عندما أجرى حوارا علنيًّا مع السيدة سناء حسن ، إبنة سفيرنا الأسبق إلى أمريكا محمد باشا حسن . . والزوجة السابقة للسفير تحسين بشير . . فقد اشترك عاموس آلون مع سناء حسن فى مناقشة عامة . . ثم سجلا هذا الحوار على كاستات . . ثم صدر فى كتاب ممتع بعنوان « بين أعداء – حوار إسرائيلى مصرى » . . وكان الاثنان حالمين . . وأسبق من كل الناس هنا وهناك فى أن يتحقق السلام بين مصر وإسرائيل . . بل إن أقصى ما تمنته سناء حسن وهى حالمة مفتوحة العينين ، أن تجىء فرقة موسيقية من إسرائيل بقيادة برنشتين تعزف أوبرا « عايدة » فى القاهرة ، وأن تذهب أم كلثوم لتغنى فى تل أبيب !

سألنى الفريق الملاحى : ما رأيك فى هذا الجو الأسطورى ؟

قلت : هل تعرف أن شاعرنا حافظ إبراهيم قد أذهله أن يجد سعد زغلول وعدلى يكن يصليان معا وراء الملك فؤاد . . وهما من أشد الأعداء . . لقد قال حافظ إبراهيم :

سعد يصلى وعدلى تـبـارك الله ربى
يـارب أبق فؤادا حتى يصلى اللنبى . .

واللنبى هذا هو اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى فى ذلك الوقت . . فما الذى كان يقوله حافظ إبراهيم لو عاش ليرى السادات فى القدس وبيجين فى القاهرة ؟ ! .

يوم الثلاثاء

كان السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية قد تباحث مع السيد مناحم بيجين ، وأخبره أنه يرى ، وكذلك د . مصطفى خليل ، أن تسليم وثائق التصديق لن يكون فى القدس .

واتصل السيد مناحم بيجين بدكتور مصطفى خليل الذى كان مريضا فى بيته . واستفسر عن صحته ، ثم أعلن : إنى موافق على أن يكون تسليم وثائق التصديق فى إحدى محطات الإنذار المبكر .

ولم يكن د . مصطفى خليل رئيس وزراء مصر السابق فى استقبال رئيس وزراء إسرائيل ، فقد شعر قبل ذلك بإرهاق شديد ، وفى الطريق من ألمانيا إلى القاهرة استأذن الرئيس السادات فى إجازة أربعة أيام .

وأمضى السيد مناحم بيجين وقتا طويلا فى المتحف المصرى ، وكان ذلك فى غياب فرعون موسى – أى فرعون الذى أخرج اليهود من مصر ، فهذا الملك ما يزال فى باريس فى دور النقاهة الكيميائية ! .

وروى مناحم بيجين للرئيس السادات ما الذى بهره فى المتحف ، قال : لم أتصور مطلقا أن أرى تماثيل ما تزال حية . . عيونها حية . . رموشها ما تزال باقية ، كأنها لم تمت . . إن هذا أروع مما تصورت . . آه لو كان هنا إيجال يادين لأصيب بالجنون !

ووجه الرئيس السادات الدعوة لإيجال يادين نائب رئيس الوزراة الإسرائيلية لزيارة مصر. وهو العالم الأثرى الكبير. . وكان صديقا للرئيس عبد الناصر، ويوم حوصرت الفالوجا كان يادين رئيس الأركان الإسرائيلية، ويادين عالم أثرى، تماما كما كان أبوه، بل إنه شغل نفس الكرسى الجامعى الذى احتله أبوه فى الجامعة العبرية، وأبوه هو الذى عثر على مخطوطات البحر الميت فى « خربة قمران » شمالى البحر الميت . . وقام يادين بإكمال مهمة أبيه، وترجمها من العبرية القديمة والآرامية إلى اللغة الإنجليزية . .

وقد شاهدت بعض هذه المخطوطات بالجناح الإسرائيلى فى المعرض الدولى ببروكسل سنة ١٩٥٧ . وتمنيت يومها أن يترجمها أحد إلى العربية، وترجمها أمين متحف عمان بالأردن . وذكر فى مقدمة الترجمة أنها تلبية لرغبة كاتب صديق — وهو يقصدنى بذلك .

وهذه المخطوطات تروى كيف كانت الحياة فى القرن السابق على ميلاد المسيح . . كما أنها تؤكد أن المسيح كان يتردد على أحد الأديرة اليهودية لجماعة اسمهم « الأطهار » — أو « الأساة » كما ترجمها الأستاذ العقاد . . أى الأطباء أو الحكماء .

وقد شارك الأستاذ يادين أيضا فى الكشف عن أسرار قلعة « الماسادا » التى بناها الملك هيرود ولجأ إليها عدد من المؤمنين اليهود، وحاصرهم الرومان حتى انتحروا جميعا سنة ٦٦ م . .

وعندما جلس الرئيس السادات مع السيد مناحم بيجين امتدت يده إلى التليفون يطلب الرئيس كارتر . . لولا أنه لاحظ أن الوقت فى أمريكا هو الخامسة صباحا، وهو يعرف أن الرئيس كارتر يصحو عادة فى الخامسة والنصف، فأرجأ المكالمة حتى التاسعة مساء بتوقيت واشنطون .

وقال للرئيس كارتر : كنت سأوقظك فى الخامسة صباحاً .

رد كارتر : بل ليتك فعلت . فمن أجل هذه الأمور يجب أن أصحو . .

ودار حديث طويل وقد أطلعه الرئيس السادات على ما دار بينه وبين رئيس وزراء إسرائيل .

وبارك الرئيس كارتر الخطوات المتوالية من أجل السلام .

يوم الأربعاء

الصحف الإسرائيلية التى جاءت إلينا ، فيها : أن المركز العلاجى فى عين كريم التابع لمستشفى هداسا قد اتصل بالقاهرة . . فالسيدة برنيس تاتنباوم قد اتصلت بالسيدة جيهان السادات تدعوها لزيارة مستشفى هداسا بالقدس .

وقد استخدمت إسرائيل نظاما إلكترونيا تليفونيا لأول مرة ، واستغرق تركيبه ٧٥ ساعة ليمكن الاتصال بالسيدة جيهان السادات لمدة ربع ساعة ، وقرأت السيدة برنيس رسالة مكتوبة موجهة إلى سيدة مصر الأولى تقول فيها : إننى أتابع بالإعجاب الشديد جهدك من أجل المرضى ، ونتطلع إلى زيارتك لإسرائيل .

وكان رد السيدة جيهان السادات رقيقا ، ووعدت أن يكون ذلك فى الوقت المناسب أما الإعلانات فى الصحف الإسرائيلية فعن « ألبوم زيارة السادات للقدس » وأن النسخ محدودة .

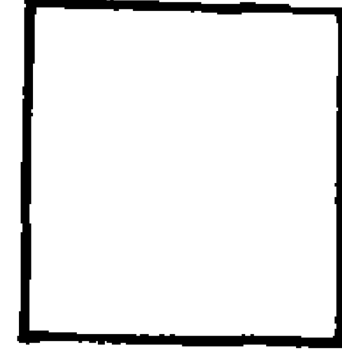
وإعلانات عن صورة من البلاستيك مصنوعة فى اليابان ، إذا نظرت إلى ناحية وجدت السادات ، وإذا نظرت من الناحية الأخرى وجدت بيجين ، والكمية محدودة .

وإعلان عن قناع بالألوان للسادات يوضع على الوجه فى الاحتفال بعيد الفوريم – أى عيد نجاة اليهود فى إيران ! .

وأعجب ما طلعت به مجلات التنجيم الأمريكية فى هذا اليوم : أن شابا أصبح الآن فى السابعة عشرة من عمره ، ولد فى الصعيد يوم الأحد ٥ فبراير سنة ١٩٦٢ ، هذا الشاب وقف يصفق لعودة السادات من واشنطون ، ويصفق لزيارة بيجين للقاهرة ، هذا الشاب هو الذى سوف يحقق السلام الكامل والتسامح الدينى فى

المنطقة . . وهذه هى نبوءة العرافة الأمريكية السيدة جين ديكسون التى نشرتها فى نيويورك تايمس يوم ١٠ يناير سنة ١٩٦٢ .

أما نبوءة السيدة إيرين هيوز الأمريكية أيضا فقد جاء فيها : فيما بين ١٩٧٦ و ١٩٧٩ سوف يزحف الروس على الشرق الأوسط ويكتسحون عدداً من الدول ، وفى هذا الوقت أيضا سوف تكون سحابة سوداء على هذه المنطقة . هذه السحابة سوف تزول تماما فى أوائل سنة ١٩٧٩ . . وتصفو السماء تماما ، ويشعر بالراحة كل الذين فى واشنطون ! . .



ومن الذى يحرر لهم الجولان ؟

حدث شىء خطير جدا يوم ١٦ يناير سنة ١٩٤٩ فى قصر الملك عبد الله ملك الأردن . فقد دعا جلالته إلى لقاء ثلاثة من ممثلى إسرائيل ، هم : موشى شاريت وزير الخارجية ، وإلياس ساسون وكيل الخارجية ، وموشى ديان أحد القادة الإسرائيليين ، وحملهم الكولونيل عبد الله التل فى سيارته عبر الأرض المتروعة السلاح إلى قلب عمان . ثم التقوا مرة أخرى بعد ذلك بأسبوع بحضور توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن . .

وكان عبد الله التل قد التقى بمندوبى إسرائيل عشر مرات قبل ذلك ، أما الملك عبد الله فقد التقى بكل زعماء إسرائيل واحدا واحدا سرا وعلنا . ولم ينكر الرجل شيئا من ذلك . بل كان يباهى الأمم بأن الإنجليز يعلمون ذلك ويباركونه .

فى هذا اللقاء الذى يصفه موشى ديان فى مذكراته ، كان الملك يجلس ووراءه لوحة مهداة من الملك جورج الخامس . اللوحة لمعركة « الطرف الأغر » التى انهزم فيها نابليون سنة ١٨٠٥ أمام الأسطول البريطانى بقيادة الأدميرال نلسن . وكان الملك فخورا حتى يخيل إلى من يسمعه أنه أحد الرعايا البريطانيين .

وتدحرج بهم الكلام إلى قطاع غزة ، قال الملك : أعطوها للشيطان ، خذوها أنتم . . ولكن لاتعطوها لمصر !

وعندما تعرض الإسرائيليون لضرورة الصلح والسلام ، قال الملك عبد الله : بل

أنا أريد صلحا منفردا دون تدخل من الأمم المتحدة . وسوف أقيم لذلك احتفالا كبيرا هنا ، وسوف يكون ذلك علنا . . فنحن عائلة واحدة . وأنا أريد أن أؤكد لكم أن مابيننا سوف يكون السلام والمحبة والاستقرار . . ويتأكد لديكم أننا أسرة واحدة !

صدر كتاب ديان « حياتى » فى عام ١٩٧٦ ، ولم يكذبه أحد فى كل مارواه عن الملك عبد الله . .

وأهمية هذا اللقاء ترجع إلى أنه سلوك « نموذجى » أو سلوك « نمطى » سارت عليه الأردن ودول عربية أخرى مثل سوريا والعراق : الخيانة والخديعة .

ومشكلة مصر أنها دولة كبرى ، وأن الدول العربية الصغيرة تريدها أن تكون مثلها : صغيرة ، فإذا توهمت أنها صغيرة ومساوية لها ، تقدمت إليها بطلب آخر أو أمل آخر : مادامت مساوية لها ، فلماذا لاتستشيرها فى كل ماتصدره من قرارات فى الحرب والسلام ؟ !

وتنسى هذه الدول الصغيرة أن المساواة فى الصغر ، أمل وليست حقيقة . . وأن مصر إذا كانت تساوى بينها وبين الدول الصغيرة ، فذلك أسلوبها فى أدب الحديث فقط !

وكما يحدث فى النصوص المسرحية القديمة ، فإن النص يبقى ، ولكن الذى يتغير هو أشخاص المتفرجين والممثلين والمخرجين . . ففى بريطانيا مسرحية « المصيدة » للمؤلفة الكبيرة اجاثا كريستى . . هذه المسرحية ظهرت سنة ١٩٥٢ ولايزال الناس يتفرجون عليها . . أما الممثلون فقد مات أكثرهم ، وكذلك المخرجون . . ولكن النص واحد !

وكذلك أحداث التاريخ تتوالى وتتكرر حرفيا . والذى يتغير هو الناس !

وسوف ترى أن لقاء الملك عبد الله مع ممثلى إسرائيل ليس إلا نبوءة بماسوف يحدث بعد ذلك .

فالملك عبد الله نفسه قد هدد جامعة الدول العربية التى ولدت قبل ذلك بثلاث

سنوات ، بأنه سوف يتركها . . وبأنه سوف يخرج على الصف العربى ، ويفكك التضامن العربى ، وانزعجت الجامعة العربية الهشة ، والدول العربية الضعيفة ، وأعطوا الملك عبد الله قيادة الجيوش العربية ، ليدخل فى حرب مع إسرائيل ، ودخل ولكن ليقتسم معها الأرض والحقول والمستعمرات والقرى ومدينة القدس وأرض فلسطين . . ومن المعروف تاريخيا أن الأردن صناعة بريطانية ، فقد كانت هذه الأرض التى اسمها الأردن إحدى المحافظات السورية ، واخترعها تشرشل ، وباركها إيدن بعد ذلك .

وإذا كانت للخيانة العربية بداية فهى الملك عبد الله . وإذا كان لها امتداد ، وهذا طبيعى ، فالملك حسين . وليس [illegible] أحد أو على التاريخ . فكل حوادث التاريخ قريبة ، وفى متناول كل إنسان . .

وقد صدر كتاب باسم « العرب » من تأليف توماس كيرنان . وفى هذا الكتاب حديث أجراه المؤلف مع الملك حسين ، صدر الكتاب ونفدت طبعته الأولى والثانية . ولم يصدر تكذيب أيضا لحرف واحد مما جاء فيه .

« يقول الملك حسين : أنا أعرف ماالذى يتحدث عنه الإسرئيليون . وما يقولونه عن الحدود الآمنة ليس إلا تغطية لتوسعهم الإقليمى ، وقد أعلن الأردن سنة ١٩٧٠ ، وكان ذلك مخاطرة منا ، أننا لن نسمح بأى نشاط لحرب العصابات على أرضنا . وقد أثبتنا بذلك أن لدينا الوسيلة والإرادة لدعم هذه السياسة ، ثم إننا نفذنا ذلك ، وكان فى استطاعة إسرائيل أن تنسحب بسهولة من أرضنا ، وأن تعيدها إلى الأردن منسحبة إلى حدود سنة ١٩٦٧ ، وبذلك لاتواجه المشاكل التى تواجهها اليوم . وقد حاولنا إقناع إسرائيل بذلك ولكنها رفضت بعناد أن تنظر فى الأمر . .

« وسأله المؤلف : ولكن الإسرائيليين الذين قابلتهم لاثقة لهم فى قدرتك على السيطرة على الضفة الغربية » .

« قال الملك : أحب أن أنبهك إلى أننا ذهبنا معهم إلى حد أن عرضنا عليهم سلاما دائما ، مستقلين تماما عن الدول العربية ، مقابل استعادة أرضنا ، هل تعرف حقيقة ماذا يعنى هذا التنازل من رئيس إحدى الدول العربية ؟ إننا فى الأردن نعرف حقيقة موقفنا الشديد الحساسية ، ولكننا على استعداد للقيام بأية مخاطرة من أجل التوافق مع إسرائيل ، ولكن الإسرائيليين قد رفضوا بانتظام أن يحققوا هذا الحل الوسط .

- وهل تقدمت حقا بهذه المقترحات لإسرائيل ؟

- طبعا .

- كيف ؟

- عن طريق بعض الوسطاء . .

- هل تذكر لى أحدا منهم ؟

- أفضل ألا أفعل .

- هل كان من بينهم كيسنجر ؟

- هذا معروف جيدا ، ولاأريد أن أناقش مافعله كيسنجر ، ولا يهم شخص الذى توسط بيننا ، إنما المهم هو أننا حاولنا ذلك كثيرا ، وأن إسرائيل قد رفضت ذلك تماما . . إلخ » .

لم يبتعد الملك حسين كثيرا عن الذى فعله جده الملك عبد الله !

ويتكرر كل شىء مرة أخرى فى الأزمات الكبرى فى العالم العربى ، مع اختلاف فى أسماء الأشخاص . .

ففى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ أمم جمال عبد الناصر قناة السويس . وكان القرار رعدا وبرقا وزلزالا لبريطانيا وفرنسا سيدتى الاستعمار القديم .

ويصور لنا التليفزيون البريطانى فى ذكرى مرور عشرين عاما على هذا القرار مشهدا لأنتونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا وفيصل ملك العراق ونورى السعيد رئيس وزرائه ، وقد جلسوا فى ركن هادئ يتناولون العشاء ، ويبدو أنهم كانوا يضحكون

لنكتة نابية قالها نورى السعيد ، وفجأة ينفتح الباب بسرعة ، ويدخل جرسون وقد دفع أمامه طبقا . وفوق الطبق ورقة مطوية ، ومن نظرة إيدن لعينى الجرسون يدرك أن هناك شيئا خطيرا . وفتح إيدن الورقة بيده اليسرى لتسقط الكأس من يده اليمنى قائلا : جمال عبد الناصر أمم قناة السويس !

وتراجع نورى السعيد فى مقعده ليقول . . نبهتكم إلى ذلك مرارا . يجب أن تتخلصوا من هذا الرجل . والآن هذه فرصتكم والعالم يريد أن يتفرج على ماسوف تفعله بريطانيا لكى يطمئن أصدقاؤها فى المنطقة وفى العالم .

ولم يكن انتونى إيدن فى حاجة إلى من يستعجل العدوان الثلاثى فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، والذى اشتركت فيه إسرائيل .

وأرسلت سوريا والأردن تطلبان أو تعرضان إن كانتا تشاركان مصر فى القتال ، وكان رد جمال عبد الناصر : لاداعى . . سوف نتولى نحن ذلك ! .

ولم يكن من الصعب على أحد أن يدرك أن هذا الطلب كان صوريا . ولو كان جمال عبد الناصر طلب إلى سوريا والأردن أن تدخلا الحرب لوجدتا ألف عذر للامتناع عن ذلك !

وفى نوفمبر انعقد مؤتمر قمة عربى فى بيروت يرأسه الرئيس كميل شمعون ، وهو صاحب العبارة المشهورة : لم نر أحدا له بطن وليس له ظهر . .

ولما طلب إليه أن يوضح المعنى الذى يفهمه أى إنسان ولكنه يفزع من التصريح به .

قال : طبعا بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وسوريا . هى « ظهر » لنا !

بل ظهر له هو وحده !

وكان كميل شمعون عميلا للجميع . فهو لايخفى ذلك .

وهو عندما أقسم هو وأتباعه على الولاء لإسرائيل كان صادقا . فقد أقسم دائما على الولاء لكل الدول الأجنبية .

وفى قمة بيروت التى يرأسها عميل الغرب وإسرائيل وسوريا كميل شمعون ، كان

معه فيصل ملك العراق ونورى السعيد .

أما موقفهم المحدد فقد كان ضد مصر ، وخلاصة هذا الموقف . أن مصر تصرفت من تلقاء نفسها ، وأن جمال عبد الناصر لم يستشر أحدا عندما قرر تأميم قناة السويس . .

وهو بذلك يستحق العقاب الذى هو العدوان الثلاثى . . ولذلك لم يكن أحد مخلصا فى طلب مساعدته - أى سوريا والأردن !

وكان قرار مصر ألا يدخلها كميل شمعون ، نوعا من حماية البيئة من التلوث !

وما صدر عن مؤتمر بيروت سنة ١٩٥٦ هو نفسه الذى صدر عن مؤتمرى بغداد الأول والثانى : لماذا لم تستشرنا مصر؟

حتى الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين ، وهو رجل حرب وسياسة ، كان قد أعلن استعداده لدخول الحرب معنا بشرط أن نخطره قبل قيام الحرب بثلاثة شهور . . أى قبل أن نصدر قرار الحرب وهو « سرى للغاية » . . أى يجب أن نعلن بمنتهى الوضوح للعالم كله أن الجزائر سوف تساعدنا بعد ثلاثة شهور من بداية الحرب ؟ !

ومادمنا لم نستشر أحدا فى ضرورة قيام حرب مع إسرائيل ، فكأننا لم نحارب . ومادمنا لم نحارب بإذن منهم ، فلا حاجة بنا إلى أية مساعدة ، فإذا حاربنا فهذه هى الجريمة والعقاب ، والجريمة أننا حاربنا . والعقاب هو ويلات الحرب والمظاهرات ضد مصر !

وماحدث قبل حرب سنة ١٩٦٧ معروف ، لأنه ليس بعيدا ، ولأن حرب ١٩٦٧ كانت نقطة بدء لكثير من التغيرات الجذرية فى الشرق الأوسط . وكان السوفييت يحركون أقزام المنطقة العربية ضد مصر .

ففى مايو من ذلك العام كان الرئيس السادات على رأس وفد برلمانى لحضور عيد العمال وبعده سافر إلى كوريا الشمالية ، وعند عودته لقيه فى المطار الرفيق سيمونوف نائب وزير الخارجية ، والذى كان حاكما لألمانيا الشرقية بعد الحرب قال له :

صلاح جديد هو النجم اللامع فى الشرق الأوسط والزعيم التقدمى المرتقب . .

وعاد يقول للرئيس السادات : أحب أن أقول لك إن إسرائيل قد حشدت عشرة ألوية على حدود سوريا .

ورد عليه الرئيس السادات بأن الاتحاد السوفيتى لا يفرق بين أصدقائه وعملائه . وكان من المنطقى أن يستفيد من تجربته الأليمة مع عبد الكريم قاسم الزعيم العراقى . ولكن السوفيت لم يستفيدوا من ذلك . . وإن صلاح جديد الذى هو دلوعة الاتحاد السوفيتى ، ليس إلا عميلا . وإن جمال عبد الناصر ليس كذلك ، ويستحيل أن يكون .

وعندما عاد الرئيس السادات إلى القاهرة نقل إلى الرئيس عبد الناصر ما سمعه وكان السوفيت قد أخطروه بما فعلته إسرائيل على حدود سوريا .

وحشد الرئيس عبد الناصر القوات المصرية فى سيناء . تخفيفا للضغط على سوريا وتصاعدت العمليات والقرارات ، حين أعلن ليفى أشكول : أنه قد يضطر إلى احتلال دمشق .

وتضايق الرئيس عبد الناصر . . حتى كان قرار الحرب ، وكانت حرب ١٩٦٧ .

وبقى السوفيت يلعبون بصلاح جديد ، ويضعونه فى مواجهة عبد الناصر . ويخلقون صراعا مستمرا أو منافسة بينهما – إن أمكن – لتحقيق الأهداف السوفيتية فى المنطقة ! .

وذهب صلاح جديد كما جاء : لا وزن له ولا قيمة ، وبقى جمال عبد الناصر بوزنه وحجمه فى التاريخ ، وكل ما بقى لصلاح جديد الزعيم السورى الذى صعد وهوى بسرعة كلمة « رفيق » التى أدخلها على قادة حزب البعث فى سوريا والعراق .

وهى كلمة يسعد لها الروس كثيرا جدا ، وقد روى برجنيف للرئيسين السادات وعبد الناصر حادثا طريفا : أن إمبراطور أثيوبيا عندما زار مصنعا فى أواسط روسيا ، هتف له أحد العمال قائلا : يعيش تافاريش تسار – أى يعيش الرفيق الإمبراطور !

والروس يفضلون الرفيق على الصديق ، أى يفضلون العميل ، والروس

لا يعرفون إلا نوعين من الناس : الصديق العميل لهم ، والعدو الذى لابد أن يكون عميلا لدولة أخرى .

ولا يعرفون أن يكون أحد صديقا للطرفين أو لأطراف متعددة !

وفى مؤتمر الخرطوم بعد النكسة ، لم تشأ سوريا أن تشترك فى المؤتمر . وأوفدت وزير خارجيتها ماخوس ليكون هناك . وقد سأله الرئيس عبد الناصر : ولماذا لا تشتركون فى المؤتمر؟ وقد ضاعت منكم الجولان كما ضاعت سيناء منا .

قال ماخوس أنا شخصيا أرى أن نشترك .

قال عبد الناصر : وصلاح جديد ؟ !

قال ماخوس : من رأيى أنه يريد ذلك أيضا .

قال عبد الناصر : لا أفهم .

قال ماخوس : إن الحزب لا يريدنا أن نشترك !

فالحزب هو الرأى ، وهو السلطة ، وهو الذى يريد أن يبقى فى الحكم بأى ثمن ، ولوكان الثمن هو مستقبل سوريا كلها أو على جثتها !

وسوف تبقى نتائج حرب ١٩٦٧ زمنا طويلا ، وما حرب ١٩٧٣ وما تبعها من تغيرات فى المنطقة ومبادرة السلام . واتفاقية السلام ، إلا محاولة لإزالة عدوان ١٩٦٧ ، وإنهاء لحالة لا هى حرب ولا هى سلم ، وفتحا لأبواب جديدة من الأمان وحسن الجوار ، وتخفيفا من ويلات الناس .

وحدث فى محادثات كامب دافيد أن تساءل مناحم بيجين فى حضور الرئيسين السادات وكارتر : لقد كانت الضفة الغربية وقطاع غزة فى أيديكم . فلماذا لم تقيموا فيهما دولة ؟ لماذا تطالبون بقيام الدولة الآن ؟

وقد سكت الرئيس السادات بضع لحظات قبل أن يرد قائلا : إن الذى فعله الملك عبد الله كان خيانة للأمة العربية . . وغلطة فظيعة . . وأفظع منها أن نسكت عنها ولا نصححها .

وكانت إسرائيل قبل ذلك وقبل المبادرة ، تسأل ، والعالم كله يردد من ورائها :

إذا كانت لكم مشكلة مع أى أحد ، سواء كان ذلك الأحد هو إسرائيل أو غيرها ، فلماذا لا تجلسون معا وتتناقشون . . فيقول الواحد منكم : لى عندك كذا . . ويرد الآخر : بل لى عندك كذا .

وكان العالم كله يرى أن هذا منطق . . وطبيعى بين الأفراد وبين الشعوب ، وحدث وسوف يحدث فى أعقاب الحروب والمنازعات السياسية . . ولكن العرب قد اتخذوا قرارا هو : لا نجلس مع إسرائيل ، وعليها أن تعطينا كل ما أخذته .

وهذا ممكن فى حالة واحدة فقط ، وهى أن نكون من القوة بحيث نملى شروطنا على إسرائيل .

ولكن إسرائيل مؤيدة من أمريكا ومن روسيا ، ثم إنها قوية بقدر ضعف العرب . وقد جربنا معها الحرب ، وانكسرنا وانتصرنا ، فلماذا لا نجرب الحوار والجلوس معا ومناقشة مالنا وما علينا كما تفعل كل الشعوب التى وضعت السلاح ، وحملت الفأس لتبنى ما انهدم من أرضها وأهلها ، وتستأنف سيرها ، وتستدرك ما فاتها !

وكما كذب الروس قبل حرب ١٩٦٧ . وادعوا وجود حشود على سوريا ، كذبوا مرة أخرى قبل حرب ١٩٧٣ . ولكنهم فى هذه المرة قد استخدموا « صلاح جديد » آخر ، هو حافظ الأسد الذى طالب بوقف القتال قبل أن يبدأ . فقد أقنعه السوفيت بأنه لا داعى لأن يدخل حربا ويحطم جيوشه ، يكفى ما سوف يصيب الجيش المصرى الذى من المقدر له أن يدفن حيا فى قناة السويس ، فإذا حدث ، ومن المؤكد عندهم أنه سيحدث ، تكون سوريا وحافظ الأسد والبعث الثورى قمة الأمة العربية .

وتوقفت سوريا بعد قتال دام ثلاثة أيام ، ومضت مصر تحارب إسرائيل ١٦ يوما ، حاربت فيها أمريكا أسبوعا ، ثم توقف القتال ، لأننا لا نستطيع أن نحارب أمريكا .

وأعلنت سوريا أن مصر هى التى خرجت من المعركة . وأن مصر لوكانت قد بقيت لفعلت سوريا المعجزات .

ونحن نعلم أن سوريا كانت تنتظر معجزة واحدة : أن تغرق مصر فى قناتها دفاعا عن أرضها !

وعاشت مصر لتنتصر للأمة العربية كلها .

ولتفك الاشتباك الأول على أرضها ، وعلى الأرض السورية ، فأعادت لها الأرض التى انحسرت عنها ، وأعادت لها القنيطرة ، ولم تسلم مصر من اللسان السورى البذىء - وصدق الشعب السورى الطيب أكاذيب حزب البعث الذى يمثل ٢ ٪ من الشعب ، باعتراف الرئيس الأسد للرئيس السادات !

وعندما نعود إلى التاريخ القريب جدا ، فمن حقنا أن نتساءل : وكيف سقطت الجولان سنة ١٩٦٧ ؟ وكيف سقطت القنيطرة ؟ ! أما الإجابة عن هذا السؤال فقد جاءت على لسان المرحوم الملك فيصل عاهل السعودية . وقد التقى الرؤساء فى الفيلا التى يقيم بها فى الرباط أثناء انعقاد مؤتمر القمة . قال الملك فيصل بصراحة بدوية ومرارة واضحة : الجولان قد بيعت !

ثم كرر ذلك ثلاثا !

وكان الحاضرون الرؤساء : السادات والمرحوم بومدين والأسد . .

وحاول الرئيس السادات أن يثنى الملك فيصل عن الاستمرار ولكنه لم يفلح . وكان وجه الرئيس حافظ الأسد قد امتقع تماما . فقد كان أثناء حرب ١٩٦٧ وزيرا للدفاع !

ولم يتحول الكلام عن الجولان إلا عندما حضر الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة !

وكان من حق الملك فيصل أن يتساءل فى نوفمبر ١٩٧٣ فى الرباط . فقد كان الطريق إلى الجولان صاعدا عموديا ضيقا . وكان فى استطاعة أى إنسان أن يوقف الزحف الإسرائيلى . ولكن حدث شىء عجيب ، فقد أزيلت الألغام قبل ذلك

بيومين . وتقدمت الدبابات الإسرائيلية دون مقاومة من أحد ، واستولت على استحكامات تكلفت مئات الملايين من الدولارات .

أما القنيطرة فقد أعلنت الإذاعة السورية سقوطها قبل أن يحدث ذلك بتسع عشرة ساعة . ووجد حزب البعث فى المذيع السورى كبشا للفداء . وأعدموه . مع أننا نعلم أن المذيع هو واحد مثلنا قد أغلقت عليه غرفة لا يرى إلا ما يضعونه أمامه من بيانات . . وهو فى عزلة تامة عن العالم حوله . ولكن كما بيعت الجولان بيعت القنيطرة أيضا !

إنه نفس منطق الملك عبد الله لليهود : أعطوها للشيطان . . خذوها . . ولا تعطوها لسوريا أو لمصر !

أليس من حق العرب أن يسألوا أنفسهم : هل البعث السورى هو الذى سوف يحارب من أجل استعادة أرضه ومن أجل حق الشعب الفلسطينى ؟ هل نسى العرب ذلك ؟

هل سوريا التى باعت أرضها وأبقت حزبها ، هى التى تقود الأمة العربية ؟ . . هل سوريا التى خرجت بعد ثلاثة أيام من القتال هى التى سوف تحرر الأمة العربية ؟ هل سوريا التى أعلنت أنها لم تكن جادة فى ذهابها إلى جنيف ، تماما كالسوفيت ، هى التى يمكن أن يأمن لها أحد على رأى أو على قرار ؟

إننا ننسى ، مع أن هذا تاريخ قريب جدا . وأننا نكرره كثيرا ، ولكن بأسماء مختلفة . .

وما حدث فى مؤتمر بيروت بعد العدوان الثلاثى ، عاد فوقع مرة أخرى فى بغداد مرتين ، وتعالت الأصوات : نفس الأصوات ، وإن لم يكن نفس الأشخاص ، يقولون نفس الشىء : ولكن مصر لم تستشرنا فى قرار تحرير الأرض ، واستعادة كرامة الإنسان ، وتجربة السلام بعد أن جربت الحرب ، واكتساب احترام العالم كله ، مضافا إليه : حقد جناحى البعث فى سوريا والعراق . .

وكما أن الملك عبد الله قد هدد بالخروج من الصف ، وعلى الإجماع العربى ،

والتضامن الذى ارتكبت باسمه أبشع الجرائم القومية ، هدد أيضاً حافظ الأسد وصدام التكريتى بقية الدولة العربية .

فهل صحيح أن الرئيس الأسد قد أعلن فى بغداد : أننا سوف ننقل المعارك إلى « غرف النوم » ؟ ! . .

وتليت أسماء الأمراء الذين وقع عليهم الاختيار ، لاغتيالهم ، والموعد الذى تحدد لذلك . .

كنا نتمنى ألا نصل فى علاقاتنا القومية إلى هذا الدرك الدنىء ، لولا أنه قد حدث !

فهل الدول العربية المعتدلة ما تزال ترى فى البعث مستقبل الأمة العربية ، وأسلوبها فى تحقيق أمانيها ، وإقامة الوطن الفلسطينى . والسلام بعد ذلك ؟ !

ولكننا نعلم علم اليقين ، والدول المعتدلة أيضا ، أن سوريا التى باعت الجولان والقنيطرة والتى تتقاضى معونة سنوية قدرها مليار و ٨٠٠ مليون دولار ، لا تريد لهذه المعونة أن تنقطع . . ولا شىء يقطعها إلا أن نجد وسيلة إلى السلام . . وسوريا تعلم أن الجولان لا تساوى هذا المبلغ ، بل نصف سوريا لا يعود عليها بمثل هذا المال الوفير . . ونحن نعلم أيضا أن آخرين غير حافظ الأسد يخرب السلام بيوتهم ، فلا حياة مترفة فى كل العواصم العربية والأوروبية ، إلا بأن يبقى الحال على ما هو عليه وأسوأ . ولذلك فهم يهددون بالاغتيال كل من يهدد بالسلام أو يسعى إليه . .

إن الملك عبد الله لا يزال أحكم الخونة فى تاريخ الأمة العربية . إنه يريد حلا منفصلا . . مع إسرائيل . . وكذلك حفيده الملك حسين . ولم ينكر أحدهما ذلك .

* * *

من حق أى إنسان أى يتساءل مرة ثانية وثالثة : هل إذا جلست سوريا وإسرائيل ، وتشددت إسرائيل ، ورأت سوريا أنه لابد من القتال من أجل تحرير الجولان ، فأين تقف مصر؟

بل أين وقفت سوريا — هذا هو السؤال ؟

إن هناك أكثر من سوريا : هل هى سوريا ١٩٥٦ أو هى سوريا ١٩٦٧ ؟ وأخيرا هل هى سوريا ١٩٧٣ ؟

ومن يسأل مصر ما الذى سوف تعمله ، نرجوه أن يسأل سوريا : وما الذى عملته ؟

وليس من يسأل أو من يتطوع بالإجابة فى حاجة إلى مجهود كبير . فالتاريخ قريب . وأحداثه متكررة . أو ليقرأ هذا المقال من بدايته . .

ومع ذلك ورغم ذلك ، وبسبب ذلك . فإن مصر التى عقدت صفقات سلاح مع أمريكا ، على استعداد للنجدة . . لنجدة أية دولة عربية شقيقة . . إذا ما طلبت ذلك ، تطبيقا لميثاق التضامن العربى . . فاستعدادنا جاهز لنجدة السودان غدا أو بعد غد .

ولنجدة الكويت رغم انفلات أقلامها ، ونحن نعلم أن الصحف فى الكويت تحت سيطرة الدولة منذ سنوات . . وعلى استعداد لنجدة السعودية الواقعة تحت تهديد حافظ الأسد بنقل المعركة إلى « غرف النوم » . . وكذلك نجدة عمان والإمارات وقطر والبحرين والصومال واليمن الشمالية .

ونحن نعرف مقدما أن البعث الدموى فى سوريا والعراق سوف يرد على هذا كله : بأن الحرب مع إسرائيل ، أفضل من السلام مع مصر أو عن طريق مصر . .

حتى هذا ليس جديدا ، فقد نادى به الملك عبد الله ونورى السعيد ، ومازال يردده كميل شمعون وصدام حسين . .

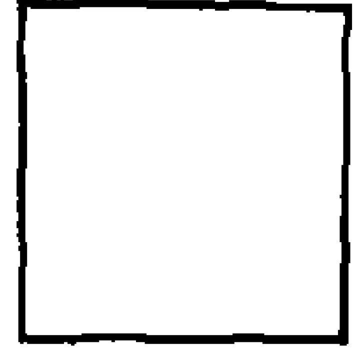
وإذا كنت قد بلغت هذا الحد من المقال ، ومططت شفتيك قرفا ، فقد سبقتك إلى ذلك : مع الأسف هذه أمتنا العربية تخاف من التهديد والوعيد ، وتفضل الانتظار على اتخاذ القرار ، وأن تحارب نفسها على أن تحارب عدوها ، وقد ضاعت سنين ، وسوف تضيع أخرى . . مادمنا لا نجد الشجاعة فى أن نعلن ما نؤمن به ، وأن ندافع عنه حتى الشهادة الكريمة ! .

* * *

وكان الملك سليمان يدهش جدا لما يراه فى هذه الدنيا . . فقد كان يرى الأنهار تصب فى البحار . . لا الأنهار جفت ، ولا البحار امتلأت . . ولا مياه الأنهار الحلوة قد أنقصت ملوحة مياه البحار ! ويتكرر ذلك كل يوم ، وإلى الأبد . .

وكذلك تتكرر أحداث التاريخ أيضا . . فى منطقتنا ، وعلى كل أرض ، ولكنا ننشغل عنها ، وننسى !

وحتى لا ننسى ، فمن الضرورى أن نقول . .



محكمة ..!
هل يؤيد الملوك والرؤساء قيام دويلات عربية دينية وعنصرية ؟!

اختر لك أى مكان من الأرض وامسك منظارا مقربا وتفرج على مايحدث فى العواصم العربية . وحاول أن تجد اسما لهذا العبث الدموى بأقدار الشعوب – يمكنك أن تستبدل بكلمة « العبث » كلمة « البعث » وسوف يكون المعنى واحدا .

ماهذا الذى يحدث فى دمشق . . الدولة تحاكم الشعب على مجرد التفكير فى شىء يخالف الحزب . . فهى لاتعتقل الأشخاص ، ولكن تجعل من الواحد منهم سجانا على فكره . . فهى تعتقله وتعتقل أفكاره أيضا . والقانون صريح فى حبس أى إنسان دون محاكمة إذا هو فكر فى أن يخرج عن الحزب أو يناقشه ، أو ينقل أخبار الحزب إلى أى أحد من زملائه السوريين . فهم فى سوريا يحكمون دولة اختارت الصمت أسلوبا فى التعبير عن الولاء للبعث العلوى .

أما القوات السورية فى لبنان فهى معضلة . فليس معروفا بالضبط لماذا دخلوا لبنان . ولايعرفون كيف يخرجون منها ، وإن كانوا سوف يخرجون حتما ليسقط حزب البعث العلوى ، فهو المرشح للسقوط .

وقد أعلنت سوريا بعد فك الاشتباك الثانى سنة ١٩٧٥ أنها دخلت حماية للثورة الفلسطينية ، فضربت الفلسطينيين فى تل الزعتر . . ثم ادعت أنها دخلت لحماية المسيحيين وأطاحت بهم دفاعا عن الفلسطينيين ، ثم اغتالت المسلمين دفاعا عن السوريين . . ودخلت قوات سوريا ولم تخرج ، وتدعى أن الذى ورطها فى لبنان هو

أنور السادات . . وأن مصر هى التى دفعت بها إلى حرب لبنان ، تماما كما أن مصر هى التى منعتها من قتال اليهود لأن مصر قبلت وقف إطلاق النار عندما نزلت أمريكا تحارب إلى جانب إسرائيل ، وكانت مصر قد حاربت ١٦ يوما ، بينما كانت سوريا قد خرجت من المعركة قبل ذلك بأسبوعين !

وفى بغداد حيث يحكم البعث التكريتى ، يسحلون الشيوعيين والمنشقين على الحزب من العسكريين والمدنيين . . ويعلقونهم فى الشوارع مشاعل للحرية والديمقراطية .

وليس بين دول الرفض دولة غارقة فى علاقاتها بأمريكا مثل العراق . وليس بين دول الرفض دولة واحدة منهارة فى أحضان السوفييت مثل العراق . ومع ذلك فهم أكثر الناس تباكيا على الحرية وعلى التضامن العربى وعدم الانحياز إلى الشرق أو الغرب .

وفى الرياض نجد أن الحكومة السعودية حائرة بين تهديدات السوريين وإرهاب الفلسطينيين وتخويف العراقيين وصداقة الأمريكان والحرص على مصر واستقرارها وديموقراطيتها ووزنها الدولى والإسلامى .

وفى طرابلس انشغلت حكومة القذافى بتغيير القرآن وحذف الأحاديث النبوية وإعدام كل من يرفع إصبعا يعترض على القذافى . . وإرسال القوات واسترجاعها بالفلوس . . وخلق معارك وهمية فى كل مكان لتبديد أموال الشعب ، وخلق بطولات وهمية والقيام بدور كوبا فى أفريقيا . . وذلك بأن يتحول الليبيون إلى مرتزقة بلا قضية !

وفى عمان يحكم الملك حسين شعبا من الفلسطينيين يعلمون علم اليقين أن الأردن سوف تكون لهم . . فهم ٧٠٪ من الشعب ، ويعلمون أن الملك حسين ضد استقلال الضفة الغربية لأنه يريدها ، ولأنه يحلم بالمملكة الأردنية المتحدة التى تضم ضفتى نهر الأردن ، وقد وصفها جده الملك عبد الله : بأن الضفتين جناحان لطائر واحد هو مملكتى ! .

والفلسطينيون يعلمون أن اثنين قد أراقا دم الشعب الفلسطينى ، كما لم يحدث فى التاريخ : حافظ الأسد فى تل الزعتر ، والملك حسين صاحب أيلول الأسود ! .

ولكن عجز المقاومة الفلسطينية وتمزقها واختلاف أمرائها ، هو الذى جعل أسلحتهم تتجه إلى الناحية الأخرى بعيدا عن دمشق وعمان !

وفى الكويت أغلبية فلسطينية ، ولكن الفارق بين الكويت والأردن ، أن الفلسطينيين فى الكويت ضيوف جاءوا وأقاموا وحكموا . . ولكنهم فى الأردن هم الأصل والملك حسين وبطانته ضيوف فرضهم تشرشل وإيدن وبن جوريون بعد ذلك ! . .

هل عندك كلمة أخرى مناسبة غير كلمة القرف . . تضعها عنوانا على هذه الدرجات المتباينة من لون الدم والدخان والحقد ، هل لديك تسمية أخرى غير العار لهذا الذى يفعله العرب ضد العرب ولايخجلون .

إن مصر حاربت وانكسرت وشمتت فيها الأمة العربية . كأن المفروض أن ينكسر أنف مصر حتى لاتكون كبيرة على أحد ، أو إذا كانت كبيرة فلابد أن تكون كسيرة أيضا . . وعندما انتصرت مصر سبقنا العرب إلى تهنئة أنفسهم ونسوا أن يهنئونا .

ورفضت مصر أن تقوم بدور « القوات الانكشارية » القديمة . . فتحارب بها الأمة العربية إلى آخر جندى مصرى . . وفى نفس الوقت لاتشارك مصر أحدا فى عائد الحرب والنصر .

* * *

وإذا كنا لانتدخل فى شئون الأشقاء العرب ، فلماذا استباحوا التدخل فى شئوننا . إننا ماضون فى السلام الذى لايقدرون عليه . . ولن يقدروا بغير مصر ، وبنفس الطريقة .

وإذا كانت الأمة العربية شرقا وغربا تبحث لها عن قضية ساخنة ، تستأهل عقد مؤتمر قمة من الملوك والرؤساء ، وعلى وجه السرعة ، فما حدث فى لبنان هو القضية .

ولكن الأمة العربية لم تناقش ذلك فى مؤتمرى بغداد الأول والثانى . . ويبدو أنها لن تفعل ذلك .

مع أن الذى حدث فى لبنان هو صورة مفزعة لما سوف يحدث فى بلاد عربية أخرى . وأثناء أعياد الفصح فى القدس عام ١٩٧٨ أعلن الأب فرجيل بكسنر أن « طريق الآلام » الذى سار فيه السيد المسيح حاملا صليبه منذ ألفى سنة ليس هو الطريق المعروف الآن . والذى يمشى فيه الحجاج صاعدين من الوادى إلى حيث كنيسة القيامة . . إنما هذا الطريق أبعد من ذلك بأربعمائة متر .

ولو أنصف هذا القس الطيب لقال إن « طريق الآلام » أبعد من ذلك بعشرات ومئات الكيلومترات ، إنه يمر بين بغداد ودمشق وعمان وطرابلس والكويت . . إنه الطريق الذى يمشى فيه « التضامن العربى » يحمل الأعواد الخشبية التى سوف يصلبونه عليها .

* * *

ثم بعد ذلك أعلن الرائد سعد حداد قائد القوات اليمينية المسيحية استقلال الأرض التى يحتلها ، وأعلن ذلك من فوق أرض إسرائيل .

ولك أن تستنتج بسرعة معنى ذلك ، وكل ماخطر على بالك صحيح . فقد حدث ذلك بمساعدة إسرائيل . وبمساعدة سوريا أيضا .

ومصر لها مواقف معروفة ومعلنة ، ولكننا ننسى ، فالأحداث كثيرة ومتوالية كموج البحر ، بعضه يذوب فى بعضه الآخر وإلى غير نهاية .

فمصر أعلنت أن سوريا قد غرقت فى مستنقع لبنان ، وأنها لن تهتدى إلى الخروج من لبنان ، وأنها إذا خرجت من لبنان فسوف يؤدى ذلك إلى انهيار الحزب العلوى الحاكم ، وأن معركة سوريا ليست مع لبنان ، ولا مع الفلسطينيين ، ولكن مع إسرائيل .

واتجه الرئيس السادات إلى الشعب اللبنانى وطالبه بأن يتحد وأن يبحث مصيره ، وأن يلتقى اللبنانيون ويلغوا ميثاق سنة ١٩٤٣ الذى ينص على أن يكون

رئيس الجمهورية مارونيا ، ورئيس الوزراء مسلما سنيا ، ورئيس مجلس النواب مسلما شيعيا ، وأن يكون عدد النواب المسيحيين فى مجلس الشعب أكثر من عدد النواب المسلمين ، على الرغم من أن المسلمين أغلبية .

وأعلنت مصر أن الاتفاق ممكن إذا جلس اللبنانيون معا ، وفى لبنان لايفرقون بين المسلم والمسيحى ، فهو مجتمع متسامح ، ومن الممكن من أجل وحدة الأرض وتكامل التراب ، أن يتسامحوا أكثر ! .

ولكن أحداً لم يستمع لصوت مصر.

وانعقد مؤتمر قمة فى الرياض ، وبعد ذلك فى القاهرة للبحث عن مخرج للأزمة اللبنانية .

وفى الرياض كانت مفاجأة ، فقد أمرت السعودية حافظ الأسد أن يوقف إطلاق النار وأن يطير فورا إلى الرياض ، فأوقف النار وهبط فى الرياض .

وقال الرئيس السادات يومها : إذا كانت للسعودية هذه السيطرة على حافظ الأسد ، فما الذى أسكتها عشرين شهرا ؟ ! .

ومعروف أن السعودية هى التى تطعمه وتسقيه ، وأنها قادرة بفلوسها على أن تسكت مدافعه ، وأن تقطع لسانه أيضا .

وفى القاهرة وفى قاعة الجامعة العربية أعلن الرئيس السادات أمام الملوك والرؤساء موجها كلامه للرئيس حافظ الأسد : أننا جميعا نطالبك ألا تمزق لبنان . . ثم إن دم الفلسطينيين فى عنقك ، والذى أراه فى لبنان هو بداية مروعة لدويلات صغيرة دينية وعنصرية ! .

ولكن حافظ الأسد أحنى رأسه ولم يقل شيئا ! .

وعندما أعلنت إسرائيل مساعدتها للرائد سعد حداد وفتحها حدودها لإيواء الجرحى واللاجئين من جنوب لبنان ، استنكرت مصر موقف إسرائيل . .

وعندما توقف السيد سيروس فانس وزير خارجية أمريكا السابق فى عام ١٩٧٨ فى مطار جناكليس فى طريقه إلى إسرائيل طلب إليه الرئيس السادات أن ينقل

رسالته إلى رئيس وزراء إسرائيل ؟ .

قال له الرئيس السادات : أرجو أن تنقل هذه الرسالة إلى السيد مناحم بيجين . قل له إن هذا الذى يفعله فى جنوب لبنان سيعرقل كل جهود السلام . وأن مصر تستنكر بشدة هذه الدماء التى تراق سواء كان المجرم لبنانيا أو سوريا أو عميلا إسرائيليا أو إسرائيليا . .

وعندما عاد السيد سيروس فانس من رحلته إلى إسرائيل وتوقف فى مطار جنا كليس لمدة ساعة عائدا إلى أمريكا ، سأله الرئيس السادات : هل نقلت رسالتى إلى رئيس وزراء إسرائيل .

أجاب فانس : نعم وبالحرف الواحد .

سأله الرئيس السادات : أريد أن أعرف كل كلمة قالها لك . فسوف يتوقف على ذلك الكثير فى عملية السلام بيننا وفى الشرق الأوسط .

قال فانس : إن السيد مناحم بيجين يقول إنه لم يتطوع بمساعدة القوات المسيحية ، ولابدفع مرتباتهم ولابنقل جرحاهم ولابتوفير العمل للاجئين من جنوب لبنان ، إنما هو فعل ذلك بناء على طلبات كثيرة منهم . . من الرائد سعد حداد . ومن الرئيس السابق كميل شمعون . . ثم إنه أطلعنى على هذه الرسائل المكتوبة بخط اليد وعلى ورق إسرائيلى . . كما أنها كتبت فى داخل الأراضى الإسرائيلية ! .

فهل نلوم إسرائيل على أنها فعلت ذلك ؟ نحن لانلوم إلا أنفسنا . . إلا اللبنانيين وإلا السوريين الذين شجعوا الرائد حداد على أن يفعل ذلك ! . .

وعندما دخلت إسرائيل واحتلت ثلث لبنان فى ٤٨ ساعة ، كان ذلك طبعا بمساعدة القوات المسيحية وبالتنسيق مع سوريا .

وينسى الرافضون فى البعث العلوى السورى ، والبعث التكريتى العراقى أن أمريكا قد دفعت مجلس الأمن إلى اتخاذ قرار بانسحاب إسرائيل فى يوم واحد . وانسحبت وحددت إسرائيل « خطا أحمر » للجيش السورى لايتجاوزه ، ووقف الجيش السورى عند هذا الخط ، تماما كما حددت إسرائيل — أو كما أمرت

إسرائيل ، ولم نسمع أو لم نر طلقة واحدة وجهها الجيش السورى إلى القوات اليهودية . بل رأينا الاتصال والعناق وتبادل الزيارات عبر الخط الأحمر.

ونشرت الصحف الإسرائيلية فى ذلك الوقت أن الخط الأحمر كان أحمر اللون فعلا ، وأنه استعار هذا الاسم من لون الليالى التى أمضاها العسكريون اليهود والسوريون واللبنانيون .

* * *

وقد أثيرت قضية الجنوب اللبنانى فى مفاوضات كامب دافيد .

وكان الرئيس السادات هو الذى بدأ الحديث مع السيد مناحم بيجين فى حضور الرئيس كارتر .

قال الرئيس السادات : لانحن ولا أنتم ولا أمريكا نملك حق تقرير مصير الشعب الفلسطينى . إن الشعب الفلسطينى وحده هو صاحب القرار . ونحن فقط نساعده على ذلك ونيسر له وسائل الوصول إلى هذه الغاية القومية .

وقال الرئيس السادات للسيد مناحم بيجين : يجب أن تكفوا عن تأييدكم لكميل شمعون ، إنه رجل منبوذ من الأمة العربية ، ومن الشعب اللبنانى أيضا . . كان عميلا لبريطانيا ، ثم عميلا لفرنسا ، وعميلا لأمريكا ، وعميلا لسوريا ، وأخيرا عميلا لكم . . وقد أمرت ألا يدخل هذا العميل المنبوذ مصر لاحيًّا ولاميتا !

واعترف السيد مناحم بيجين : لقد زودنا القوات المسيحية بالدبابات والمدافع والذخائر . وعاوناها ماليا أيضا . ولما حاولت أن أضغط على حداد رفض . وكانت حجته أن هذه أرضه وهذا شعبه وهذه قواته . وأنه يعرف ماذا يريد بالضبط .

وكميل شمعون هذا معروف . فقد أكل على كل الموائد وجمع فتاتها . أول الأمر عندما عينه الرئيس بشارة الخورى سفيرا للبنان فى بريطانيا ، أصبح عميلا بريطانيا . ثم تآمر على الشيخ بشارة الخورى . وجعله الإنجليز رئيسا للبنان فترتين . وحاول كميل شمعون تعديل الدستور ليكون رئيسا للمرة الثالثة .

وهو الذى استدعى أمريكا لإنقاذه . . واتخذ الرئيس ايزنهاور قرارا فريدا ، هو

إنزال قوات أمريكية فى لبنان : ١٤ ألف جندى من مشاة البحرية . وقد لقى إيزنهاور معارضة لهذا القرار ، ولكنه اعترف بعد ذلك فى مذكراته « إننى حاولت أن أوقف التسلل الشيوعى » .

ثم عاد فصارح الشعب الأمريكى أنه بهذا التدخل أراد الاستقرار فى الشرق الأوسط ، وأراد تخويف جمال عبد الناصر الذى يعمل بوعى أو بدون وعى منه ، على تدعيم النفوذ السوفييتى فى المنطقة .

ثم ألقى ايزنهاور بيانا إلى الشعب الأمريكى يذكره بانقلابات شيوعية أخرى فى أماكن متباعدة من العالم . الحرب الأهلية فى اليونان سنة ١٩٤٧ ، والغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٤٨ ، وسقوط الصين فى أيدى الشيوعيين سنة ١٩٤٩ ، والتهديد الشيوعى للهند الصينية .

وكان ايزنهاور يرى أن وراء اضطرابات لبنان تسللا شيوعيا .

واتفق ايزنهاور وكارتر فى أنه من الضرورى عمل شيء حفاظا على هيبة أمريكا وعلى أصدقاء أمريكا فى المنطقة وفى العالم كله . ومنعا للنار والدخان حول آبار البترول .

وينسى الرافضون مافعله الرئيس كارتر الذى استطاع أن يغير وجه أمريكا من حارس للسلام إلى صانع للسلام ، وأكبر دليل على ذلك قرار خروج إسرائيل من لبنان ، وعملية السلام فى الشرق الأوسط . وأن تكون أمريكا شريكا كاملا فى حل مشاكل المنطقة .

* * *

فما الذى قرره الرؤساء والملوك العرب وهم يرون أن لبنان قد انقسم على نفسه نصفين ، فهل هذا هو المقصود بالتضامن العربى . . أى أن تدخل سوريا إلى لبنان وتسكت الفلسطينيين وتسكت المسلمين ، وتترك المسيحيين يقيمون دولة مستقلة بمساعدة إسرائيل ؟ .

إن وجود سوريا فى لبنان مايزال قائما ، ولكن لم نسمع أحدا فى بغداد ، ولا فى

أية عاصمة أخرى قد سأل : ولماذا ؟ وإلى متى ؟ .

لاأحد ، فهل المقصود بالتضامن العربى أن يتضامن العرب فى القضاء على الحد الأدنى من التكامل الوطنى أو الوحدة الإقليمية . . أى أن يتحدوا على التفكك ويتماسكوا من أجل التمزق ؟ .

وهل هذا أيضا هو ماقصدته الدول القادرة على تحريك سوريا ، حربا وسلاما وطعاما وشرابا ؟

لم نقرأ عن اعتراض واحد ولم نسمع عن احتجاج .

هل نحن أمام المشروع الفرنسى القديم بتمزيق العالم العربى إلى دويلات صغيرة دينية وعنصرية ، فتكون هناك دولة يهودية – وقد قامت – ودولة مسيحية فى لبنان ودولة إسلامية ودولة درزية .

إن الذى فعلته سوريا بقيادة البعث العلوى يؤكد هذا المعنى . فقد أقام العلويون دولتهم الجديدة . وأصبح للدولة الجديدة ميناءان هما : اللاذقية وطرسوس . وأصبحت لها إذاعة خاصة . وأنشئت بها مرافق ضخمة ، وقد أنفقوا على هذه الدولة العلوية أضعاف ماأنفقوه على سوريا . . ويوم ينسحب الجيش السورى من لبنان ، ولابد أن يفعل ، فسوف يأوى العلويون إلى دولتهم التى أعدوها إعدادا فريدا . . ولابد لسوريا أن تنسحب من لبنان بعد أن انسحبت قوات الطوارىء العربية واحدة واحدة . .

وحتى لايحاسب السوريون ، إن استطاعوا ، حزبهم العلوى ، فقد صدرت القوانين التى تحرم عليهم التفكير فى ذلك – مجرد التفكير ! .

* * *

وأخطر من ذلك كله : هل هذه هى القيادة الرشيدة التى تريد الأمة العربية أن تسير وراءها فى حل قضاياها وإعادة الشعب الفلسطينى إلى أرضه وعروبة القدس ؟ .

إن مصر قد أعلنت ذلك بوضوح فى القدس نفسها . . أعلنت أنها عربية

وأعلنت عودة الضفة الغربية إلى أهلها وقيام الدولة الفلسطينية ، وتحققت الخطوات الضرورية للسلام . وسوف يجيء السلام مرحلة بعد مرحلة . أعلنت مصر ذلك بقوتها ووزنها وسياستها الواعية ودبلوماسيتها الرشيدة . وكل ذلك معروف .

هل الدول العربية مشغولة الآن فقط بتحريف القرآن الكريم وهدم الإسلام . . ثم تفتيش الذين يحملون المصاحف من الكعبة وإليها ، حتى لايتسلل المصحف الليبى ؟ .

هل القذافى هو الرجل الرشيد والمطلوب أن تهتدى بهديه الأمة العربية – وإلا كانت خائنة لعروبتها !

هل الاتفاق سرا مع إسرائيل على تقطيع لبنان وإثارة الطوائف بعضها على بعض هو المقصود بالتضامن العربى ؟

أو هل التضامن العربى هو التضامن ضد مصر فقط – حقدا تاريخيا عليها ! ؟ . .

إن مصر ترفض الحرب الطائفية والعنصرية فى أى مكان من العالم العربى ، وإن كانت غير قادرة الآن على أن تساعد لبنان ، فإن مصر سوف تصبح قادرة على ذلك فى وقت قريب .

وعندما جاء المرحوم كمال جنبلاط إلى مصر والتقى به الرئيس السادات فى استراحة كنج مريوط ، طلب إليه المرحوم كمال جنبلاط أن يتدخل فى لبنان عسكريا .

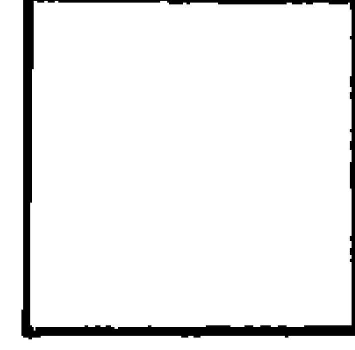
وكان رد الرئيس السادات : أتمنى لو أستطيع . ولكنى لا أستطيع . فالبحر بينى وبينكم . والبحر مشترك بيننا وبين إسرائيل وسوريا وغيرها . ولو كان بينى وبين لبنان شريط من الأرض عرضه عشرة سنتيمترات ، ماترددت فى مساعدة لبنان عسكريا !

فإن كانت الأمة العربية عاجزة عن مساعدة لبنان على أهله ، فما الذى تقدر عليه الأمة العربية . وإن كان كل جهد الأمة العربية أن تشتم مصر ، فلتفعل ذلك .

فمصر لم تقم على البرامج الإذاعية ، حتى تسقطها البرامج الإذاعية .

إن كاتبا عربيا قد وصف الأمة العربية من عشرين عاما بأنها « ظاهرة صوتية » ، إنه لم يبعد عن الحقيقة كثيرا .

إن الأمة العربية تمشى فى « طريق الآلام » الذى سوف يؤدى إلى نهاية الطغاة والإرهابيين . ولابد من مخاض يعقبه ميلاد جديد لأنظمة جديدة تواجه الواقع الجديد وتسايره حتى السلام ! .



السعودية وغيرها .. إلى أين ؟

مثل حبات العنب المر فى عنقود واحد – هذه حال الدول العربية . جمعتها المرارة . ثم فرقها الطمع . ثم عاد الخوف فجمع بينها مرة أخرى .

ولم تنحل . . مشكلة عربية واحدة . .

* * *

ومن أقصى المغرب العربى تجىء إلينا الألغاز السياسية .

فالمملكة المغربية كانت وماتزال لغزا محيرا . فالملك الحسن الثانى من أذكى السياسيين وأكثرهم وعيا وقدرة على التصور . وله مشاكل فى الداخل والخارج . فقد حاول أن يلتقى بالرئيس الراحل بومدين . وتحدد لذلك زمان أثناء عودة الرئيس الجزائرى من موسكو ، ومكان هو مدينة بروكسل . ولكن الموت عاجله . ولم يتحقق هذا اللقاء . وإن كانت الرغبة فى تهدئة مابين المغرب والجزائر ملحة . ولم يتضح بعد موقف الرئيس بن جديد .

وإن كان الملك الحسن حريصا على تسوية مابين البلدين من خلافات على الحدود . . ثم الخلاف الرئيسى حول استقلال الصحراء وجبهة البوليزاريو . . ولم يتحقق شىء من ذلك لا بين المغرب والجزائر . ولابين المغرب وموريتانيا ، ولاتزال قوات البوليزاريو تلقى مساعدة من دول غربية وعربية أيضا !

ولما أقام شاه إيران فى أسوان تعجل الملك الحسن الثانى إقامته فى المغرب . .

ولكن الرئيس السادات طلب من الملك الحسن أن يمهل الشاه وزوجته كي يستريحا بعض الوقت . وأعلنت الشاهبانو فى اليوم التالى : أن هذه هى أول ليلة أنامها بعمق منذ سبتمبر سنة ١٩٧٨ .

وروت أن الشاه قد أعطاها حبة منومة سامة .

فقد فضل الشاه إذا هاجم الثوار القصر أن يجدوه هو وزوجته نائمين حتى الموت ! فهو لايريد أن يسقط فى أيديهم حيا !

ولما ذهب شاه إيران وزوجته وأولاده إلى المغرب ثارت المعارضة ضد استضافة الشاه . وسارت المظاهرات ووزعت المنشورات . ونشرت الصحف المغربية الناطقة بالفرنسية أن أحدا لايريد الشاه . . وأن وجوده يسبب حرجا لامبرر له . . وظهرت على الجدران عبارات عدائية للشاه .

وظهرت عبارات تقول : إن المغرب لايحتمل أكثر من شاه واحد !

وجاء السفير المغربى فى القاهرة يطلب من مصر استدعاء الشاه حتى لايضطر المغرب إلى طرده .

ثم طرده المغرب بمنتهى الوضوح . وكانت مشكلة الشاه أنه لايجد مكانا آخر . فأمريكا رفضته ، ثم إن دولا أخرى قد أبدت عجزها عن حمايته . إلى أن تدخل دافيد روكفلر ومستشاره د . هنرى كيسنجر وصديقهما ماكلوى سفير أمريكا فى ألمانيا ، فدبروا له مكانا فى جزر بهاماس لمدة تسعة شهور فقط !

وجاء سفير المغرب إلى القاهرة ليعود إلى الرباط فى نفس اليوم . ويبقى هناك وبذلك يكون المغرب قد سحب سفيره دون انتظار لما سوف يقرره بعد ذلك مؤتمر بغداد . .

ثم قطع المغرب علاقاته الدبلوماسية بمصر .

وقيل فى تفسير ذلك إن المغرب مضطر إلى ذلك لأنه يحصل على البترول مجانا من العراق . وربما كان بسبب ضغط الاتحاد السوفييتى أيضا الذى يحتكر فوسفات

المغرب وفى نفس الوقت لايساعد قوات البوليزاريو ، بعد أن تعهد للمغرب بالتوسط بينها وبين الجزائر وليبيا .

* * *

وليبيا عندما زارها الرئيس الرومانى شاوشيسكو دارت بينه وبين العقيد القذافى مناقشات طويلة . ولاحظ الرئيس الرومانى أن كلمة القذافى على العشاء كانت معتدلة . وأنه لم يهاجم مصر ولا الرئيس السادات . ولما تحول النقاش بينهما إلى الوضع بين مصر وليبيا قال القذافى : إن الرئيس السادات قد أضعف الأمة العربية وضاعف من قوة إسرائيل .

وكان رد الرئيس الرومانى : كيف تقول إنه ضاعف قوة إسرائيل وهو يسترد منها كل الأرض التى احتلتها . ويسترد آبار البترول فى خليج السويس والغاز الطبيعى عند العريش ، وماأحوج إسرائيل إلى ذلك كله . وأنت تعرف ماالذى أصاب إسرائيل بعد أن رفضت إيران أن تبيعها البترول .

وكان رد القذافى : إن ماتقوله صحيح .

ولكن لم يخف العقيد القذافى مخاوفه من مصر . وأنها تحشد كل قواتها لغزو ليبيا .

ولكن الرئيس السادات أكد للرئيس الرومانى ماسبق أن أعلنه قبل ذلك من أن مصر لاتريد أرضا ليبية ولابترولا ليبيا ولا أموالا ليبية .

وأن القذافى خير له أن يهدأ وأن يعقل بدلا من استئجار الروس والألمان الشرقيين والكوبيين والكوريين والبلغار وغيرهم .

وكان القذافى يعيب على الدول العربية كلها أنها لاتساعد ثوار أريتريا . ولكن القذافى أرسل أبو بكر يونس سرا ليعقد اتفاقا مع منجستو لضرب ثوار أريتريا . . وفى نفس الوقت لضرب السودان أيضا .

ولم ينكر القذافى ذلك ، إنما أعلن أخيرا أنه يفكر فى ذلك . والحقيقة أنه لن يفكر ، إنما هو اتفق مع أثيوبيا منذ وقت طويل .

فلاشىء قد تغير من موقف ليبيا لصالح العرب شرقا وغربا وجنوبا .

ولم تثر عليه السعودية لأنه حرَّف فى القرآن وطبع مصحفا جديدا قد حذفت منه كل كلمة « قل » فى كل السور . . وهو يستعد لطبعة جديدة يحذف منها كلمة مصر ، ولايحذف كلمة إسرائيل ؟ !

وكل مافعلته السعودية هو أنها أوفدت عددا من العلماء فى مجلس القضاء الأعلى برياسة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان وعضوية الشيخ أبو بكر محمود جومى كبير قضاة نيجيريا وأحمد الحمانى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى الجزائر وعلى مختار الأمين العام للمجلس الأعلى للمساجد . وذهبوا جميعا للقاء القذافى . وناقشوه : كيف تنكر أن السنة مصدر من مصادر التشريع . .

فأنكر القذافى أنه قال شيئا من ذلك ، وأن مانشرته الصحف الليبية ليس إلا ممارسة لحريتها فى النشر . . وسألوه : وكيف تصلى العصر ركعتين بدلا من أربع .

فأنكر ذلك ، فقالوا له : سمعناك تعلن ذلك فى الراديو .

وأجاب : إن هناك مذيعين يقلدون صوتى ويحكون قصة حياتى ، والإذاعة حرة .

وجاء فى تقرير العلماء « أن من أنكر السنة فقد أنكر القرآن . لأن القرآن الكريم قد أمر فى مواضع كثيرة بطاعة الرسول ﷺ واتباعه . وعلق الرحمة والهداية ودخول الجنة والنجاة من النار ، على ذلك » .

وطالبوا القذافى « بأن يعلن توبته إلى الله سبحانه وتعالى من إنكاره ماأنكر من السنة . وأن يعلن التزامه بما صح منها عند أهل العلم » .

ثم سألوا القذافى عن كتاب صدر باللغة الإيطالية بعنوان « القذافى نبى الصحراء » . والكتاب من تأليف صحفية إيطالية اسمها ميريلا بيانكو . فقد جاء فى صفحة ٢٤١ هذا الحوار الغريب العجيب !

« قالت : قل لى يارسول الله .

قال : نعم .

قالت : هل كل الأنبياء كانوا يرعون الغنم ؟

قال : نعم ، نحن جميعاً نفعل ذلك » .

وكان رد القذافى على العلماء أنه لم يقرأ هذا الكتاب .

وجاء فى تقرير العلماء : أن الذى قلته فى هذا الكتاب تكذيب لقوله تعالى : (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) . وقد قاتل الصحابة كل من ادعى النبوة من بعده . واعتبروه كافراً حلال الدم والمال مثل الأسْود العنسى ومسيلمة الكذاب والمختار بن أبى عبيد الثقفى . وعليك أن تبرأ مماكتبته هذه الصحفية الإيطالية وأن تتوب . ومن تاب تاب الله عليه . والله فى ذلك يقول : (إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيَّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) . والرسول عليه السلام يقول : « التوبة تهدم ماكان قبلها . . إلخ » .

فلا تاب القذافى عن الكفر بالسنة وماجاء فى كتاب الله ، ولا أمسك يده عن ضرب أريتريا واستعداء أثيوبيا على السودان .

ولاتحركت الأمة العربية أو الجامعة العربية لهذه الدماء العربية التى تسيل فى الصومال وأريتريا وتشاد .

* * *

وسوريا والعراق : جناحا حزب البعث . . ليست بينهما سياسة عليا . . إنما انفعالات ومظاهرات صوتية عنيفة ، والذين شهدوا مؤتمرى بغداد الأول والثانى يتندرون بالخلافات التى كانت بين صدام حسين وحافظ الأسد أو بين وزيرى خارجية العراق وسوريا . حتى إن أحد السفراء العرب قد أعلن فى إحدى الجلسات : والله لا أفهم الذى أسمعه ولا أصدق ماأراه .

وكان ذلك تعليقا على أن وزير خارجية سوريا كاد يخرج من القاعة إثر ملحوظة أبداها وزير خارجية العراق !

أما الوضع فى سوريا فليس فيه جديد ، أى ليس هناك شىء سيئ جديد

نضيفه إلى السيئ القديم : القوات السورية استباحت الدماء العربية ذهاباً وإياباً . وساعدت على انفصال الرائد سعد حداد . . وتركت القوات الإسرائيلية تفعل ماتشاء فى لبنان فتعطى السلاح والطعام والأجور للقوات الانفصالية . والحكومة المركزية فى بيروت عاجزة عن فعل شىء . والرئيس اللبنانى معذور عندما قال : إن لبنان لايستطيع وحده أن يدرأ عن نفسه كل مصائب الأمة العربية .

وكان من الأفضل أن يقول - ولكنه لايجرؤ - إن لبنان لايقوى على ردع القوات السورية ! .

ثم إن القوات السورية التى انفضت عنها القوات العربية لابد أن تعود بعد أربع سنوات إلى قواعدها فى سوريا ، وحتى لايستطيع أحد أن ينظر إلى القوات المقهورة بعين واحدة ، حرم عليه القانون أن يفعل ذلك وإلا اعتقلوه خمس سنوات بلا محاكمة ! .

وقد ساء الوضع فى العراق بعد ثورة إيران ، فالأماكن المقدسة فى العراق ، وآية الله خمينى قد عاش فى العراق ١٣ عاماً ، ثم طرده العراق تلبية لرغبة الشاه . وقتل العراق ابنه آية الله مصطفى خمينى ، والعراق فى حالة من الفزع بسبب ثورة الشيعة فى إيران . . وثورة الأكراد السنيين فى شمال العراق .

وإن كان العراق سعيداً فى نفس الوقت لأنه ينفرد بسيادة الخليج . فقد اختفى الشاه الذى كان صاحب أقوى جيش فى العالم بعد أمريكا وروسيا .

وبهذه القوة استطاع العراق أن يخيف كل دول الخليج وفى مقدمتها المملكة العربية السعودية .

وقد أفلح العراق فى أن يضغط على الكويت .

ومطالب العراق فى الكويت لم تنته . ولم يعلن العراق أنه لن يطالب بالكويت . . وإذا لم يطالب بالكويت ، فليكن معلوما لدى الكويت أنه اليوم أو غدا لابد أن يكون إحدى محافظات العراق . . وإذا لم يفعل الكويت ذلك فعليه أن يملأ فم العراق ذهبا ، كما حدث أيام عبد الكريم قاسم . .

وحاول العراق الضغط على الصومال أيضا . . ففى الصومال ثلاثة معامل لتكرير البترول وقد أقفلها أكثر من عشرين يوما . وتوقفت الحياة تماما فى الصومال ، وارتبكت موارده المالية . .

واستخدم البترول سلاحا للضغط على السودان أيضا .

وقبل استخدام سلاح البترول كان العراق يحاول أن يتسلل لدعم التيار الشيوعى فى السودان . وقد حدث ذلك سنة ١٩٧١ فقد أرسل العراق طائرة احترقت . وكانت الطائرة تضم عناصر مناوئة للرئيس جعفر نميرى .

كما حاول العراق أن يرسل أسلحة إلى جنوب السودان تشجيعا له على الانفصال ، ولكن الرئيس نميرى أفلح فى أن يحقق الوحدة بين الشمال والجنوب . وهو مافشلت فى أن تحققه العراق بين العراقيين والأكراد . .

ويوم اتجه السودان إلى العراق لشراء البترول كان العراق فى أزمة ، فقد كان لديه مخزون ضخم من البترول لايعرف كيف يقوم بتصريفه . ولم يكن السودان فى حاجة إلى بترول العراق لأنه يحصل على البترول من إيران بشروط ميسرة : نصف القيمة نقدا والباقى على أقساط .

واشترى السودان بترولا من العراق بشرط أن يدفع السودان ٦٥٪ نقدا ، والباقى على أقساط . .

وبعد أن اجتاز العراق هذه الأزمة ، طالب السودان بأن يدفع ٨٠٪ نقدا . والباقى على أقساط ، وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٧٧ . وكانت أسعار البترول قد ارتفعت فى ذلك الوقت !

وفى يناير سنة ١٩٧٩ وفى قمة الأزمة الإيرانية طلب العراق إعادة النظر فى اتفاقية شراء البترول . وطالب العراق بأن يدفع السودان قيمة البترول كاملة ونقدا ومقدما !

وكان على السودان أن يوافق . ودفع السودان مقدما . ولم يأت البترول ، وانتحل العراق أعذارا غريبة ، من بينها أنه لاتوجد ناقلات بترول ، وأن على السودان أن يدفع تكاليف الشحن والتفريغ . ووافق السودان . واتجهت إحدى

ناقلات البترول إلى البحر الأحمر . وقبل أن تصل إلى موانئ السودان غيرت وجهتها ، ولم يصل البترول .

واتجه السودان إلى مصر . وبعثت مصر بالبترول الذى يحتاج إليه السودان .

وأعلن العراق أنه لن يبعث إلى السودان بقطرة زيت واحدة !

وماحذفه العراق من احتياج السودان أضافه إلى احتياجات المملكة المغربية ! ..

ولم تؤد هذه المواقف المشتركة . . من ضغط البعث العلوى على لبنان والفلسطينيين والأردن ، والبعث التكريتى العراق على السودان والمغرب وتونس والكويت إلى التقدم خطوة لحل مشكلة عربية واحدة . . إنما أدى هذا الضغط المشترك ولأسباب مختلفة تماما إلى زيادة المرارة بين الدول العربية الشقيقة . .

واليمن شمالا وجنوبا لم يصلا إلى حل .

وإذا كان لنا أن نذكر فضلا على أحد ، فمصر هى التى قدمت لليمن الجنوبية استقلالها على طبق من ذهب ، يوم ذهبت قواتنا لمعاونة اليمن الشمالية .

وقد أعلنت اليمن الجنوبية ذلك كثيرا جدا ، ولكنها اليوم سوف تنكر هذه الحقيقة ! فماالذى صار إليه اليمن جنوبا وشمالا أو ماسوف يصير إليه فى حل القضية العربية ؟ لانجد جوابا عند أحد من الذين يدفعون الملايين ويمدونهم بالسلاح من الشمال أو من الغرب من أثيوبيا قادما من ليبيا !

والفلسطينيون أين هم ؟ وما اسم الصيغة السياسية التى ارتضوها لتحرير الأرض وإعادة الوطن المنهوب المسلوب ؟

هل حقق لهم السوريون ذلك ؟ هل يحقق لهم الملك حسين الذى يريد الضفتين لنهر الأردن والذى يعلن أنه لايحق لأحد أن يتكلم باسم الفلسطينيين ، إلا الفلسطينيين أنفسهم . ومع ذلك فهو الذى يتكلم باسم الفلسطينيين الذين هم ٧٥٪ من شعب الأردن وكل الضفة الغربية . .

وهو الذى يعلم – وهم أيضا – أن تحرير الضفة الغربية وقيام الحكم الذاتى هما إبعاد للملك حسين عن أن يكون طرفا فى قضية الشعب الفلسطينى . .

ثم إن السيد ياسر عرفات وهو زعيم منظمة التحرير يعلم أنه لايقوى على توجيه سياسة كل المنظمات المتضاربة والمتقاتلة . . وأن هذا الأسلوب المرتجل فى تحرير الأرض لم يسفر إلا عن إبادة الشعب الفلسطينى نفسه . . ولن ينسى الفلسطينيون فى الأرض المحتلة ولاخارجها مافعله الملك حسين فى أيلول الأسود ، ولا مافعله الرئيس الأسد فى تل الزعتر . . ولكنهم لايملكون إلا الصمت على مضض ، فهم فى خوف من بطش الملك حسين والرئيس الأسد وإسرائيل أيضا !

وعندما عاد السيد فاروق قدومى أحد زعماء المقاومة من موسكو سألته شخصية سعودية كبيرة : ماذا فى جيبك !

يقصد ماالذى أتى به للقضية . فكان رد السيد قدومى : سوف ألقى بيانا من نار . . وقد أشارت صحيفة برافدا إلى ذلك !

ولم يكمل السيد قدومى عبارته حتى قاطعه السعودى الكبير : هذا كل ماعندك وكل ماعندهم فى موسكو !

فما الذى كان يتوقعه الكبير السعودى ، لاشىء أكثر من ذلك اليوم وغدا !

* * *

وفى تونس التقى السيد الفيتورى وزير خارجية تونس بالسيد ياسر عرفات . وجلس السيد عرفات يتحدث عن أمجاده ، وعن كيف استقبله آية الله خمينى ، وكيف إن الثوار فى إيران قد تدربوا على أيدى منظمة التحرير ، ولولا المنظمة ما قامت ثورة إيران ولانجحت . .

ولكن السيد الفيتورى قد نبه ياسر عرفات إلى أن آية الله خمينى قد نفى ذلك تماما ، ونبه ياسر عرفات إلى أن الذى يقوله لايخدم فلسطين ولا إيران . . وأن مساعدة رفاق السلاح مثل « الحسنة المستورة » — أى المساعدة الطيبة التى لايصح الإفصاح عنها وإلا ضاعت مثوبتها عند الله .

وقال السيد الفيتورى : لنكن واقعيين . . يجب أن نعرف حدودنا . . يجب أن نعرف ماالذى نقدر عليه . . إننى لاأذهب إلى ماأعلنه الرئيس اليوغوسلافى تيتو . .

فهو قد أعلن أن الذين يريدون إلقاء إسرائيل فى البحر ، يجب أن يبادروا بإلقاء أمريكا . . لأن إسرائيل لكى تستولى على فلسطين قد استولت على أمريكا أولا . . ولكنى أطلب منك شيئا واحدا : حاول أن تقنع ليبيا بألا تعطى بترولها لأمريكا ، وأن تقنع الجزائر بألا تعطى غازها لأمريكا . . ولاأقول السعودية وكل دول البترول ، فإذا أفلحت فى ذلك أصبح كل شىء سهلا !

وأطرق السيد ياسر عرفات ولم يرد !

ومع ذلك فتونس تخاف من ليبيا ويسيل لعابها لأن تكون « لبنان المغرب العربى » . . وأن تكون مقرا للجامعة العربية . .

ولذلك كان طبيعيا أن تقطع علاقتها بمصر.

لعلها تساعد على حل القضية . .

أما السعودية فعلاقتها بمصر استراتيجية . . إنها علاقة حياة أو موت ، والعلاقة القديمة ووصايا الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس الدولة السعودية معروفة وتؤكد على ضرورة الحرص على بقاء هذه الرابطة القوية . .

ولذلك فالسعودية لها وضع خاص ومكانة عالية عند المصريين ، وفى الأمة العربية أيضا . وماتفعله السعودية يكون نمطا لما تفعله دول الخليج بعد ذلك ، فالسعودية هى الشقيقة الكبرى ، ولاتحتاج دول الخليج إلى أسباب تعلنها لكى تسلك مسلك السعودية ، وإن كانت كل واحدة حريصة على أن تسوق أسبابا مختلفة . ولكننا جميعا نعرف السبب الحقيقى .

ثم إن السعودية بعد حرب أكتوبر قد كسبت مكانا رفيعا فى العالم .

فحرب أكتوبر قد جعلت الدول العربية قوة سادسة فى العالم لسببين : الأول هو روعة الأداء العسكرى فى حرب أكتوبر ، والثانى استخدام سلاح البترول كقوة ضاغطة على العالم كله . والسعودية تشغل مكانا متقدما بين دول البترول . ففيها ٦٠٪ من احتياطى البترول العالمى . وهى تعطى لأمريكا ٢٠٪ من احتياجاتها ، ثم إن ارتفاع أسعار البترول مضاعفة ، قد ملأ البنوك وحرك الشركات والمصانع ،

وجعل العالم كله يتطلع إلى دول البترول ويمشى وراءها ويحرص عليها .

لاشك أن السعودية قد فزعت من الذى حدث فى إيران . بعد أن أيدت شاه إيران أول الأمر . وبعد أن هاجمها آية الله خمينى فى كل مقوماتها الدينية والسياسية والاجتماعية . وقد أدى فزع السعودية إلى أن اتجهت إلى السيد الرهيب للخليج وهو العراق الذى أصابه الفزع من الأغلبية الشيعية فى البلاد . ومن الثورة الشيعية على حدوده ، وكذلك فزعت السعودية من المد الدينى فى إيران وفى أفغانستان ، وفى مؤتمر بغداد سمع السعوديون التهديد وقرأوا أسماء الشخصيات التى تحدد موعد وأسلوب اغتيالها .

ونحن نعلم أن السعودية حاولت أول الأمر أن تحتوى المقررات العنيفة . ولكن لم تستطع أمام التخويف والإرهاب من كل جانب .

وعندما عرض صدام حسين تمويل الجامعة العربية بمليون دولار ، وطلب إلى رؤساء الوفود أن يفعلوا مثله . لم يتطوع أحد بدولار واحد . وكان لابد أن تدفع السعودية نصيبها من ميزانية الجامعة العربية التى تبلغ عشرين مليون دولار . ودفعت السعودية حوالى ثلاثة ملايين . ودفع الملك حسين نصيبه وهو واحد على مائة من ميزانية الجامعة العربية .

واندفعت السعودية فى التيار حتى نهايته وقطعت علاقتها بمصر – مع الأسف الشديد . .

فهل هذا يؤمن السعودية من العراق ؟

هل هذا يؤمن السعودية من المد الدينى ؟ وإذا كانت السعودية قد بادرت بعقد اتفاقية تبادل المجرمين بينها وبين العراق ، فهل هذا هو الأمان الحقيقى ؟

إن السعودية تعرف ماذا يريده العراق من الخليج ومن السعودية نفسها !

إن السعودية تخدم ، بوعى أو بدون وعى ، مايريده السوفييت فى هذه المنطقة . ثم ماالذى فعله السوفييت فى العراق ، أو ماالذى فعله العراق بالشيوعيين . . وماالذى كاد يفعله السوفييت فى مصر ، وفى اليمن . وفى الصومال ، وفى الدول

الأفريقية ، ومااالذى يفعله السوفييت فى سوريا !

وعندما ضغط العراق على دولة الإمارات لتتبادل التمثيل الدبلوماسى مع روسيا . اعترضت السعودية فعدلت الإمارات . . وقيل يومها إن السعودية . بعد أن رأت ضعف أمريكا فى إيران وتخليها عن أصدقائها سوف تتجه إلى روسيا . . مع أن السعودية تتوارث أن روسيا هى دولة الإلحاد الأولى فى العالم . بل إن موقف السعودية قد أغرى صحف الكويت أن تضغط هى الأخرى على السعودية وتخيفها فنشرت أن الحزب الشيوعى السعودى قد أعلن قيامه !

وأنا أذكر حادثة رويتها لعدد كبير من الأصدقاء السعوديين . . فقد كان يعيش فى مصر أخوان سعوديان ، وكانا يعملان فى المخابرات المصرية والسوفيتية فى وقت واحد . وفى إحدى الليالى ، وكنا فى هافانا بكوبا ، جلست أداعب أحدهما فاقترحت عليه إنشاء حزب شيوعى سعودى . وأطلقت عليه اسم « الحزب الشيوعى الشريف » . . وجعلت اختصاره : ح . ش . ش . واقترحت أن يكون اسم أخيه : أبو هريرة . وبذلك تنقل عنه الأحاديث كلها .

ومضيت فى هذه المداعبة وقلت له سيكون « الحزب الشيوعى الشريف » متفقا مع كل الأذواق والمذاهب السياسية والدينية . وجعلت « البيان الشيوعى للحزب الشريف » على شكل أسئلة وأجوبة . مثلا : ماهى أحب السجائر إليك ؟ جواب : الكنت . .

ما هو أحب الأقلام ؟ جواب : باركر .

ماهو أحب العطور ؟ الفرنسية .

ماهو أحب الأقمشة ؟ الإنجليزية .

ماهى أحب السيارات ؟ الكاديلاك .

ماهو أحب الأديان ؟ الإسلام .

ماهو أحب المذاهب السياسية ! الماركسية . . إلخ .

وصدقنى هذا السعودى الطيب ، وأخذ الورقة ووضعها فى جيبه . . وفى طريق

عودتنا توقفنا فى موسكو . وبينما أتقلب فى فراشى تذكرت ماحدث ، وتذكرت أنه يعمل فى المخابرات المصرية ففزعت ونهضت إليه فى غرفته وأيقظته وطلبت إليه « البيان الشيوعى » لكى أضيف إليه بعض العبارات . . ورفض وقاوم ثم أعطانى البيان فأحرقته فى غرفتى . .

ودعانى إلى العشاء فى بيته فى مصر الجديدة ، وأعجبنى طعام الكسكسى فهو أيضا من أصل مغربى .

وفوجئت بعدها بيوم بسائق يحمل لى فى مكتبي بأخبار اليوم حلة بها كسكسى . وأعطيتها للسعاة . وفى اليوم التالى علمت أن ثلاثة منهم قد دخلوا المستشفى ، فقد أصيبوا جميعا بالتسمم !

لقد فكر فى أن يقتلنى ، لأنه اكتشف أننى كنت أسخر منه !

وأستبعد اليوم أن يكون هذان الأخوان قد عادا إلى هذه الفكرة ، لأنهما من أغنى الأغنياء . .

فهل هناك آخرون من اليمنيين أو من الأحلاف الجدد الذين اختاروا السعودية وطنا لهم !

وقطعت السعودية علاقتها بمصر . .

وفزع سعوديون كثيرون لذلك . .

فالذى بين مصر وبين السعودية أقدم وأبقى . .

ويوم اغتيل الملك فيصل أصدر الرئيس السادات « أمرا إنذاريا » للقوات المصرية بأن تتحرك فى البحر الأحمر استعدادا لنزولها إلى السعودية ، إذا طلبت ذلك .

واتصل الرئيس السادات بالأمير سلطان وزير الدفاع وأخبره بأن مصر جاهزة لكل الاحتمالات . . وشكره الأمير سلطان ثم قال له : لقد اخترنا واحدا منا ملكا هو جلالة الملك خالد .

واتصل الرئيس السادات بالملك خالد يهنئه .

وكانت مصر أول من أعلن أن الملك خالد قد أصبح خلفا للمرحوم الملك فيصل .

وقطعت السعودية علاقتها بمصر . فهل سيؤدى ذلك إلى مزيد من الأمن والأمان لها من العراق ومن السوريين والفلسطينيين .

لقد جاء إعلان السعودية بقطع العلاقات بعد الاستفتاء فى مصر على المعاهدة ، وبعد أن أيدها ٩٩٪ من الشعب المصرى . فهل قطع العلاقات معناه تحدى الشعور العام فى مصر . . وهل هذا يحقق للسعودية استقرارها . .

وهل السعودية إذا أسلمت قيادها لهؤلاء الذين فى فزع من شعوبهم ، فى العراق وسوريا . تكون قد اختارت ماهو أفضل لها ولشعبها وللعرب .

إن الكثير من معطيات هذا الموقف العربى ، ليست واضحة تماما . فالذى تعلنه الدول الشقيقة شىء ، وماتبعث به سرا شىء آخر . .

ومايساق من تبرير مختلف عن الذى يقال من تفسير .

ويعز علينا ماآل إليه مصير المملكة السعودية والمملكة المغربية ولابد من بعض الوقت لكى نجمع حبات العنب المرّ فى عنقود واحد . لعلنا نعرف ماالذى يجب أن نفعله . ونحن نحرر مصر والأرض المحتلة وقيام الدولة الفلسطينية .

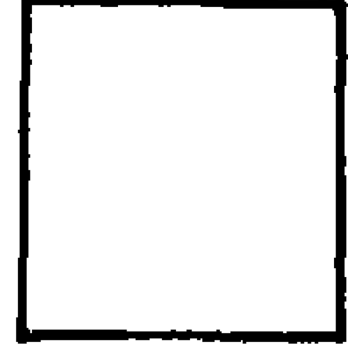
هل ننتظر شهرا أو ستة شهور . . لابد أن ننتظر قبل أن تظهر بوضوح كل ألوان الصورة المضطربة فى العالم العربى ! !

ولكن لابد أن نتساءل : ماهى نهاية الطريق الذى بدأته الدول العربية بقطع علاقاتها بمصر . . هل مصر هى التى كانت عقبة فى حل القضية العربية . . والابتعاد عنها يقرب الجميع من الهدف الأسمى وهو جلاء اليهود عن سيناء والجولان والقدس . .

إن هذه الدول العربية جميعا لم تقدم حلا واحدا ، ولا اقتراحا بحل . .

لقد جاء إلى منطقتنا محللون سياسيون كثيرون . لقد سمعوا وأطالوا ، وفكروا وتعمقوا . وعادوا يكتبون فى بلادهم حقيقة ماجرى فى العواصم العربية . .

إن واحدا منهم هو الصحفى الأمريكى « يوسف كرافت » وهو أكثر الصحفيين اعتدالا وواقعية . . لقد كتب يقول إنه هو أيضا فى حاجة إلى معلومات دقيقة وإلى فهم لهذه المواقف العربية المضطربة . . ولكنه فى نفس الوقت يرى أن الشعب المصرى قادر على الاحتمال وقادر على وزن الأمور . ثم إن واقعية الرئيس السادات وبعد نظره ونفاذ بصيرته وصبره يجعله قادرا على أن « يوازن ويزن » . . ولابد من وقت طويل لكى تكون الصورة أوضح عند الجميع فقد حملت مصر وحدها العبء الأكبر . . ولاتزال !



هل يطالبون بنقل الأزهر إلى تونس ؟

مع السعودية ليس عندنا اختيار ، إلا أن نحزن على ماأصابها ، وماأصاب العلاقات المصرية السعودية . فهي قد صنعت رأيا عاما معاديا لمصر. أى أنها لم تكتف بموقفها هي ، فاشترت أنصارا واشترت تأييدا . هذا الكسب خسارة مضاعفة للقضية العربية ، فهل نهنىء السعودية على أنها وجدت سلعة جديدة تشتريها ، هى عداء مصر وتعويق الحل الشامل ؟

وعندما سمع بعض المصريين أن السعودية قطعت علاقتها ، ونحن أيضا ، صاح واحد منهم : هل معنى ذلك أننا لن نحج بيت الله ؟

لم يخطر على بال هذا المسلم الطيب إلا أن السعودية هى الطريق إلى بيت الله . . وأن كل مايربطنا بالسعودية هو أنها الأرض التى اختارها الله ليلتقى فيها وعليها ملايين الناس بالحب والإيمان . . وأن قطع العلاقات معناه البعد عن بيت الله . ولم تخطر على باله العلاقات السياسية أو المشاكل الدبلوماسية أو السياحية أو التضامن العربى . . لاشىء إلا أنها الأرض المقدسة . ومن الغريب أن هذا الرجل قد حج بيت الله قبل ذلك سبع مرات . . وأنه ليس فى حاجة إلى مزيد من الحج !

وهذا هو أحد عناصر الاحترام العظيم الذى فى قلب المسلمين للسعودية . . وبعد ذلك تجىء عناصر أخرى من علاقات تاريخية قديمة ، ومن صداقات عميقة ومن حب المصريين للسعوديين.لأنهم أرق الشعوب العربية وأكثرها مودة وألفة . . فنحن

لانشعر بالغربة فى السعودية وفى السودان . ولافضل لأحد فى ذلك . إنما هو الدين واللغة والأخوة والدم . وإذا كان فى السعودية عشرات الألوف من المصريين ، فإلى مصر يجىء عشرات الألوف منهم : أصدقاء وأقارب .

وعندما سمع سعودى كبير أن مصر قطعت علاقتها بالسعودية قال : سوف أستقيل من عملى وأبقى فى مصر . . فقد أمضيت فيها نصف عمرى . . وابنى الأكبر قد تزوج منها ، وأختى أيضا . . وفيها ثلاثة أرباع أصدقائى .

وقال سعودى شاب على مسمع من كثيرين وفى بيت أحد الوزراء المصريين : والله لولا أن هذا عيب . . وأن أحدا عاقلا لايفعل ذلك للجأت إلى إسرائيل محتجا على السعودية ومصر . فما كان من الضرورى أن تصل الخلافات إلى القطيعة !

ومن مظاهر الحزن على ماأصابنا ، أن نتذكر محاسن موتانا . . ومن موتانا : الملك فيصل ، فليس بين السعوديين أحد فى مثل مكانته ، وليس هذا طعنا فى كفاءة أحد ، فلم يختلف السعوديون على حكمة الملك فيصل ولاسعة أفقه ولا اطلاعه الكامل على القضية الفلسطينية . ولايزال الملك فيصل يقوم بدور الغطاء الذهبى للمعاملات السعودية . ولايزال هو الحد الأقصى لما بلغته السياسة والدبلوماسية السعودية . .

وإذا كان التهديد قد أخاف السعودية – كما أشار الرئيس السادات – فإن الملك فيصل قد تعرض لتهديدات أعنف من الرئيس عبد الناصر . . بل إن الرئيس المصرى السابق قد أهان الملك فيصل فى شخصه وفى قومه . . إلى أن كان مؤتمر الخرطوم عندما جاءت حكمة الملك فيصل درسا فى الأدب والكياسة . حتى خجل الرئيس عبد الناصر من نفسه وقال عبارة معروفة : لقد تبت . . تبت تماما أن أهاجم هذا الرجل !

وجاءت التوبة على شكل تكريم عظيم للملك فيصل – تكريم من مصر للسعودية أيضا . وأيامها كان الرئيس عبد الناصر زعيم الأمة العربية بلا منازع لقوته وسطوته وهيبته .

إذن فلقد كسب فيصل وكسبت السعودية المزيد من الاحترام .

أما المواقف السعودية المترددة ، فهى التى أغرت الكثيرين بأن يضعوا أنوفهم فى السياسة الداخلية للسعودية . . وأن يمدوا آذانهم إلى أبعد من عيونهم ليعرفوا بالضبط ماذا يجرى وراء أبواب القصور والمخيمات فى الرياض وبالقرب منها . . ولا أحد يلوم هؤلاء الباحثين عن المتاعب فى البيت المالك السعودى . . فهذه صفة المخابرات والصحافة أيضا : لابد أن يعرفوا وأن يحللوا وأن ينشروا بعد ذلك !

وليس من الصعب أن يفتقد العالم : الخط الواحد والرأى الواحد الصادر عن الرياض فى القضايا المتعددة . والأمثلة على ذلك كثيرة فى مؤتمرى بغداد الأول والثانى . . وفى مؤتمر مقديشيو . . وفى تصريحات وزير البترول فى السياسة الخارجية وتصريحات وزير التجارة فى السياسة البترولية . . وكلها مشاكل داخلية .

وفى مصر لاحظنا ذلك أيضا . . ولكن أحدا لم يعلق بشىء . فهى قضايا داخلية وهى عبارة عن ضربات للكرة خارج الملعب الكبير ، ولكن المباراة الشاملة هى التى تهم .

ويوم جاء وزير الدفاع الإسرائيلى عيزر فايتسمان إلى القاهرة تلقى الرئيس السادات من السعودية خطابين فى يوم واحد . أحدهما يبارك الزيارة والآخر يلعنها !

ولاتعليق لنا على ذلك . إنما الصحف العالمية هى التى التقطت أمثلة أخرى وكتبت مانمسك عن الإشارة إليه .

ويبدو — والله أعلم — أن السعودية تحيرت فى اختيارها بين أن تكون محبوبة وبين أن تكون مخيفة . ثم اختارت أن تكون مخيفة . فالسعودية خافت . فقامت بتعويض خوفها من العراق والفلسطينيين بتخويفها للآخرين . واشترت عددا من الدول العربية لتقاطع مصر لعلها تخيف مصر .

إذن فلقد خافت السعودية فتوهمت أنها أخافت أيضا !

ومعنى ذلك أنها اشترت بالمال كراهية المصريين — مع أن الكراهية سلعة غالية جدا فى مصر ، ونادرة إذا أردنا أن نصدرها للسعودية !

ثم تعلن السعودية – هى أيضا – أنها ليست على خلاف مع الشعب المصرى . . إنما مع الرئيس المصرى . . مع أن سياسة الرئيس المصرى هى سياسة الشعب المصرى . . فهى إذن على خلاف مع الشعب المصرى كله !

واستبدلت بمصر : ليبيا والفلسطينيين والعراق !

والكلام بعد ذلك معاد ، ولكن هناك أحداثا بارزة ذات دلالة خاصة . وربما كانت هذه الأحداث معروفة ، ولكننا ننسى ، وهذا من فضل الله علينا : فلو تذكرنا كل شيء طول الوقت ، لضاقت بنا الدنيا وضاعت . ولكن الأحداث ينسى بعضها بعضا ، أو أن الأحداث الجديدة تضع الأحداث القديمة فى الظل إلى أن يظهر ضوء جديد .

وليس الكلام عن الملك فيصل إلا عملا بقول الشاعر القديم :

وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر .

وليالى الأمة العربية ظلماء وتحاول السعودية أن تجعلها طويلة أيضا . وذلك بأن تخفى الشمس ، ولكن بطريقة هزلية . . وذلك بأن تطلب إلى الرؤساء الذين أعطتهم الكثير من الشيكات أن يغطوا بها عيونهم ، فلا يرون لاشمسا ولاقمرا ! .

ويبدو أن الأمراء السعوديين ينسون هم أيضا ماقاله معمر القذافى عن البيت المالك السعودى . . وعن الدين فى السعودية . . ويبدو أنهم أيضا قد نسوا شكاواهم من سوء أدب القذافى ومعاملته الجافة لهم . . فهو عندما يكتب إليهم خطابا يختمه عادة بهذه العبارة : « وأرجو من الله جل جلاله وحده ، أن يلهمنى القدرة على قلب النظام السعودى من أساسه ، إنه هو السميع العليم » .

أما بداية الخطابات فتكون عادة إلى السيد الملك فلان . . » ولايقول إلى صاحب الجلالة – لأن الجلالة لله وحده . .

ويوم ذهب القذافى لأداء العمرة فى السعودية مع الرئيس السادات وهما فى طريقهما إلى باكستان نزل الرئيسان فى قصر الضيافة وطلب الرئيس السادات من القذافى أن يكون اللقاء فى الساعة الحادية عشرة مساء . وقال : يامعمر يجب أن

تحترم الناس هنا : إنهم فى غاية الذوق . وشديدو الحساسية لأسلوبك الجاف . يامعمر لاتحرجنى مع هؤلاء الناس الطيبين .

وقال معمر : حاضر ياريس .

وجاءت الساعة الحادية عشرة مساء ، وجاء الأمير فواز أمير مكة المكرمة قبل ذلك بنصف ساعة ونزل الرئيس السادات وقد ارتدى ملابس الإحرام . ولم ينزل القذافى ، وأرسلوا من يستعجله . فوجدوه يأكل ويتحدث . ونبهوه ، ودخل القذافى ليستحم ، ونزل بعد ذلك بنصف ساعة ، وغضب الرئيس السادات ولم يحدثه طول الطريق إلى مكة المكرمة ، وأحس الأمير فواز بحرج شديد . وحاول أن يهون الموقف ولكنه لم يفلح .

وقبل ذلك كان من رأى معمر القذافى أن يذهب إلى مكة دون إخطار الملك فيصل ، وتضايق الرئيس السادات قائلا : لوكنت فى مكان فيصل لمنعتك من دخول السعودية . ياأخى يجب احترام الناس ، ثم إن الملك فيصل شريك لنا فى المعركة من أولها لآخرها .

ولكن القذافى يرى أن الكعبة بيت الله ، وينسى أنها بيت الله الذى أقيم فى أرض الناس الذين لهم كل الاحترام !

وفى داخل الكعبة فوجئ الرئيس السادات بعد أن صلى فى الجهات الأربع للكعبة بأن القذافى قد أمسك يد الرئيس السادات بقوة ووضع فوقها يده ثم يدا ثالثة . وطلب : أن نتعهد جميعا أمام الله بحل القضية الفلسطينية !

وعندما خرجوا من الكعبة اكتشف الرئيس السادات أن الشخص الثالث كان مندوب المنظمة الفلسطينية !

فما الذى فعله القذافى بتعهده أمام الله ؟ وماالذى فعلته السعودية بتآمر القذافى عليها ، والتطاول على قادتها ؟

لقد أرسلت السعودية وزير التربية والتعليم إلى طرابلس برسالة خاصة . وطال اللقاء بينه وبين العقيد القذافى . وظهرت صورة الوزير السعودى فى غاية السعادة .

ولم يسأل أحد ماالذى أسعده يومها ؟

وجاء الفلسطينيون إلى مصر يشكون للرئيس السادات من إهانة القذافى لهم واحتقارهم والتعالى عليهم . . واشتراطه لمساعدتهم أن يكون موقفهم معاديا لمصر والسعودية . وكل كلماتهم معروفة ومسجلة . والسعودية تعلم ذلك .

وبعد أيام سوف ينعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية فى الرباط . وقد دفعت السعودية خمسة ملايين جنيه نفقات هذا المؤتمر . ودفعت أكثر من ذلك ليتوافر هذا العدد . فهل ستوافق السعودية على اقتراحات القذافى بتغيير القرآن الكريم ؟ . وعلى حذف كلمة مصر وإبقاء كلمة إسرائيل فى القرآن الكريم ؟ وهل توافق السعودية على إلغاء شعائر السعى بين الصفا والمروة لأن هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام كانت مصرية ، ولأنها كانت تبحث لابنها عن الماء بين أحجار الصفا وأحجار المروة أصبح ذلك من شعائر الله ؟

إننا من أكثر عشرين عاما ، حتى نهاية العالم ، لم نغفر لإسرائيل أنها حذفت كلمات من القرآن الكريم . . فهى قد حذفت كلمة « ليست » من الآية التى تقول : (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) وحذفت إسرائيل أيضا كلمة « غير » من الآية : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

ثم إن إسرائيل فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ قد حذفت هاتين الآيتين ومنعت تدريسها فى مدارس العرب المسلمين فى فلسطين المحتلة : (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) .

إذن فالسعودية تقبل من القذافى ماترفضه الأمة الإسلامية من اليهود أعداء الإسلام ، لماذا ؟ هل لأن السعودية ترى أن موقفه من القرآن أهون بكثير جدا من موقفه من مصر . وأن موقفه من مصر هو الذى يهمها أكثر ، أما كتاب الله والله

فلا يهم . إلى هذه الدرجة من الخوف من مجرد الكلام . ترتعد السعودية ؟

ربما قيل إنه من أجل الشعب الفلسطينى والإبقاء عليه تتضاءل كل الخلافات فى الدين . ولكن ماالقول أن الفلسطينيين أيضا قد هانوا على السعودية ، أليست السعودية هى التى تنفق على الجيش السورى الذى قتل أبناء لبنان مسلمين ومسيحيين ثم قتل الفلسطينيين أيضا ! هل السعودية قد اختارت هى الأخرى تصفية القضية بتصفية الشعب الفلسطينى !

ثم ماالذى فعله العراقيون أحلافها الجدد من أجل الشعب الفلسطينى . إنهم قد ذهبوا فعلا لمساندة الشعب الفلسطينى . حدث ذلك .

وفى سبتمبر (أيلول) الأسود اغتال الملك حسين شعب فلسطين ، وقضى عليه . ولما تعب من صيحات الأبرياء ودمائهم ، ترك هذه المهمة لأخيه الأمير حسن ، وسافر جلالته فى إجازة للتزحلق على الجليد – إجازة لضميره طبعا . أما الأمير حسن فقد وجد أن فى الموقف صعوبة لم يحسب حسابها . وهى أن الجيش العراقى يعترض الطريق إلى مدينتى جرش وعجلون حيث يعيش الفلسطينيون ، واستأذن القوات العراقية أن تفسح له الطريق . فأفسحت الطريق وأجهز سموّه على بقية الشعب الفلسطينى بإذن خاص من القوات العراقية .

أما من الذى كان قائدا لجيش العراق فهو ابن عمة أو ابن خالة صدام حسين التكريتى . . إنه حردان التكريتى ! .

وفى إحدى الليالى وكان حردان مخموراً قال : إذن فلماذا جاءت قوات العراق . . إن الأردن وحده قادر على أن يقوم بكل العمل ! .

أى أنه لم تكن هناك حاجة إلى أن يجىء جيش العراق ليقضى على المقاومة ، مادام الأردن أهلاً لذلك ، والذين سمعوا هذه العبارة الوحيدة من حردان التكريتى نقلوها بسرعة إلى بغداد . وعاد نفس الشخص إلى حردان التكريتى يخبره بما قررته بغداد . فهرب حردان التكريتى إلى الكويت . ليلقى مصرعه هناك .

أما القاتل فقد وضع مسدسه فى جيبه ودخل السفارة العراقية بالكويت من بابها

الواسع ليخرج من نفس الباب فى حراسة البوليس الكويتى ، ويركب طائرة إلى بغداد !

والملك حسين وعائلته موظفون جميعا فى البلاط السعودى – ورغم أن السعودية تعلم أنه ليس فى حاجة إلى مال ، فإنها تعلم أنه رجل بخيل شحيح . . وأنه يفضل أن يكون سلعة يرتفع ثمنها فى المزايدات السياسية !

أما الفلسطينيون أنفسهم فالأمير فهد يعرف تماما عجزهم عن اتخاذ قرار واحد . ونحن نعلم أيضا رأى الأمير فهد فيهم . . وهناك حادثة معروفة ، فقبل أن يسافر الأمير فهد للقاء الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر استدعى ياسر عرفات . وطلب إليه أن يحدد موقفه ، فأكد ياسر عرفات أنه موافق على القرار ٢٤٢ – وهذا ماسبق أن طلبه الرئيس كارتر .

ولكن الأمير فهد طلب إلى ياسر عرفات أن يكتب ذلك . وكتب موافقته على القرار ٢٤٢ .

وعندما التقى الأمير فهد بالرئيس كارتر أطلعه على قرار ياسر عرفات ، ونقلت الصحف الأمريكية هذا التحول الفلسطينى أو هذا النجاح السعودى ، وقبل أن يصل الأمير فهد إلى الرياض كذب ياسر عرفات مانشرته وسائل الإعلام العالمية .

وغضب الأمير فهد وأصدر بيانا حادا ضد ياسر عرفات !

فما الذى فعله السعوديون بعد ذلك بالفلسطينيين أو فعلوه لهم ؟ إنه لغز .

ولما أرسل الرئيس السادات برقية إلى الملوك والرؤساء قبل سفره إلى كامب دافيد يؤكد الموقف المصرى الواضح من أجل التسوية الشاملة ، تلقى برقية من الملك خالد .

وفى البرقية يطلب الملك السعودى ألا ينسى الرئيس السادات الحل الشامل والقضية الفلسطينية والقدس العربية . وهو نفس ماقاله الرئيس السادات وأكده ويعمل على تحقيقه ولكن البرقية السعودية هى مجرد « تسجيل موقف » أو فى نفس الوقت « مزايدة » سياسية . . وإن كانت البرقية لم تخرج عن مجرد « تكرار » للموقف

المصرى . . وفجأة جاءت برقية أخرى فظنت القيادة المصرية أنها برقية الملك خالد قد جاءت مرة ثانية . أما المفاجأة فقد كانت نهاية البرقية . لقد كانت موقعة من الملك حسين - نفس البرقية ونفس الحروف والإمضاء مختلف .

والسعودية تعلم رأى الملك حسين فى الدولة الفلسطينية وتعلم أنه لايريد إلا الضفة الغربية تمهيدا لقيام المملكة الهاشمية المتحدة .

فهل هذه المواقف الغامضة والمتضاربة هى السياسة السعودية الجديدة ؟ وهل إذا كانت هذه سياستها ، أفليس من طبيعة التاريخ السياسى أن تستعين بالمقارنات فيقفز إلى الذاكرة اسم الملك فيصل ؟ وإذا كانت هذه هى السياسة السعودية الجديدة ، مع ماللسعودية من عظيم الاحترام والود . أفليس هذا يدعونا للحزن على ماأصابنا جميعا ؟

هل إذا استطاعت السعودية أن تصطنع رأيا عربيا مخالفا لمصر ، تظن أنها قادرة على إقناع أمريكا بأنها الدولة الزعيمة - كما تساءل الرئيس السادات ؟

وعلى ذلك فأمريكا يجب أن تتجه إلى الرياض إذا أرادت حلا لمشاكل الشرق الأوسط من حق السعودية أن تشترى وأن تبيع وأن تنقل آراءها إلى حيث تذهب فلوسها . ولكن هناك أشياء كثيرة لايمكن شراؤها بالمال : الصحة والحب !

ولاشىء يحتاج إليه البيت المالك السعودى أكثر من الصحة . . ولاشىء يهدد الرصيد السعودى العظيم فى مصر إلا الحب - افتقاد الحب . . فالسعودية بدأت تسحب رصيدها الضخم من قلوب المصريين ، إنه رصيد أبقى من الأنهار السوداء التى تجرى ذهبا تحت أقدامهم . .

ولكن الخوف أنسى السعودية أنها كبيرة وأنها فى كل قلب مصرى . ومن مظاهر الخوف أنها أخذت بعبارة قالها آية الله روح الله خمينى ، فقد هاجم الدول التى تحكمها العائلات فى الخليج العربى أو الفارسى - لانعرف . ولذلك فزعت السعودية إلى أمريكا فأرسلت لها أمريكا طائرات ف ١٥ وطائرات الاستطلاع وحركت لها حاملات الطائرات ، وجاءت الطائرات الأمريكية تحمى البيت السعودى . أو تعلن

ذلك ، وهذا طبيعى ولأسباب كثيرة معروفة وبسرعة ارتبطت السعودية بالعراق بمعاهدة أمن إقليمى وتبادل للمجرمين والسياسيين – إن السعودية خائفة مرة أخرى ؟ !

وهناك نظرية مشهورة للعالم النمساوى لورنتس يقول فيها : إن الحيوانات الخائفة هى أكثر الحيوانات ميلا إلى العدوان !

وهذه النظرية تصدق على الإنسان وعلى الدول أيضا ، وتصدق على الأقليات أكثر فهل أحست السعودية بأنها بدون مصر أصبحت أقلية فى الأمة العربية ، إذا كان ذلك شعورها فهو صحيح . ولكن هل يدفعها الخوف إلى أن تستأجر من يعتدى على مصر . أى من يخيف مصر – عقابا لها على أنها تركت السعودية وحدها تخاف ؟

معقول ، ولكن إذا كانت السعودية تشعر بأنها « أقلية غنية خائفة » فما الذى جعلها تختار الخوف وتشترى الأمان الزائف ؟

من حق السعودية – كما قال الرئيس السادات – أن تكون زعيمة ، فلديها عناصر كثيرة تعطيها هذه القدرة : ثراؤها الذى يعطيها قوة عالمية ، ومكانتها بين المسلمين وعلاقتها الخاصة بأمريكا وعداؤها للشيوعية ، ثم الاحترام التقليدى من أيام الملك عبد العزيز والملك فيصل .

ولكن الزعامة فادحة ماديا ومعنويا ، ومعنويا أكثر . لأن المال لايصنع الزعامة – ليبيا مثلا ! . .

وليس أمام السعودية إلا المرتزقة تدفع لهم وتدفع بهم لتحقيق السلام وحسن الجوار فى الشرق الأوسط .

فهل استطاعت ذلك يوم اعتدت اليمن الشيوعية على اليمن الشمالية ؟

لقد أعلنت السعودية التعبئة وسحبت قوات الردع من لبنان . فاتجهت القوات اليمنية الشيوعية إلى الهجوم على سلطنة عمان العربية الإسلامية – إلا إذا كانت دماء أبناء عمان مستباحة لأن لهم موقفا شجاعا من مبادرات مصر . والسعودية تعلم أن

الطريق الذى ينتهى بعدن يبدأ بموسكو مارا بطرابلس ثم أديس أبابا . . وفى هذا الطريق تتساقط الأموال والذخائر ضد السودان والصومال . . وكل ذلك كلام معاد . ولكننا ننسى وهم أيضا فى السعودية .

ولكن الشرق الأوسط يتحرك عند نقطة تحول ، وهذا التحول سوف يشمل الحكومات والنظم ، والأدلة واضحة فى سوريا ولبنان وليبيا والعراق والمغرب — إن الموقف يبعث على الأسى ، أسانا ، ويبعث على الحزن ، حزنهم أيضا !

هل من المناسب أن نستخدم عبارات غير علمية فنقول إن السعودية كان عندها « عشم » فى أمريكا . . وهى لذلك لاتستحق هذه المعاملة من أمريكا !

فالولايات المتحدة تخلت عن شاه إيران بسرعة ، وبعثت من يتصل بآية الله خمينى فى باريس . وقد فعلت ذلك فرنسا وألمانيا وبريطانيا ، بصور مختلفة .

إنها السياسة : فن السفالة الأنيق !

وبسرعة تبرأت الخارجية الأمريكية من سفيرها فى طهران الجاهل بما حدث فى إيران . وتنكرت لمخابراتها أيضا التى كانت تقول ليس فى إمكان إيران أحسن مما كان . حتى إن الرئيس الأمريكى عندما كان يراقص إمبراطورة إيران يوم رأس السنة قال : إن إيران جنة من الأمان !

ولم يعرف الرئيس الأمريكى أن إيران كانت فوق بركان !

وبنفس السرعة التى تخلت بها أمريكا عن الشاه ورفضت إقامته فيها ، تخلت عن جزيرة تايوان ، وتآمرت على عميلها فى فيتنام حتى أسقطته وتخلت عن كوريا الجنوبية — أى جميع أصدقائها ! وكل ذلك ألف باء السياسة ، فأمريكا لاتحمى شخصا لايحميه شعبه . . أى أنها لاتستطيع من أجل فرد أيا كان هذا الفرد ، أن تعادى الشعب الإيرانى أو السعودى أو المغربى . . فالملك ذاهب والشعب آت . وكلها بديهيات ولكننا ننسى !

فهل خافت السعودية من نفس المصير؟

لقد أخطأت السعودية فى حق نفسها تماما . فلا وجه للشبه بينها وبين إيران

فشاه إيران طاغية مستبد . وشاه إيران معاد للعروبة . وهو الذى أنهض الفارسية القديمة .

ثم إن الأسرة البهلوية قد احتكرت كل شيء حتى الهواء -- فقد خنقت الناس فى كل مكان . ثم إن الخلاف بين الدولة ورجال الدين قديم فى إيران . . والملك محمد رضا والد الشاه قد دخل بالخيول مسجد السيدة فاطمة فى مدينة قم . ثم صفع آية الله فى ذلك الوقت . فقد اعتدى رجال الدين على زوجة الملك لأنها دخلت المسجد مكشوفة الوجه .

وقبل ذلك عندما توج هذا الملك نفسه أتى بإمام الشيعة ووضع التاج على حجره . . ثم رفع هو التاج ووضعه على رأسه . . أى أنه هو الذى توج نفسه وليس رجال الدين . وهذا بالضبط مافعله نابليون بونابرت ! .

وشاه إيران هو الذى اغتال آية الله مصطفى بن آية الله خمينى . . ثم هو الذى اتفق مع العراق على طرد خمينى من العراق ، واتفق أيضا مع الرئيس الفرنسى ديستان على إيواء آية الله خمينى . ليكون تحت عينيه . . ولكن الرئيس الفرنسى كان أسبق إلى معرفة الحقيقة ، وهو الذى نصح الرئيس كارتر بسرعة التخلى عن شاه إيران !

ونحن لانرى بين أمراء السعودية من له ملامح الشاه ولا أسلوبه فى الحكم ، فالملك السعودى فى مجلسه يدخل عليه أى مواطن ويقول له : ياخالد . . يافهد . . وقبل ذلك يافيصل . . وياعبد العزيز .

ولكن الخوف هو الذى جعل السعودية تدخل بار السياسة وتقول : أنا جدع -- كما يفعل المخمورون عادة ، وماكان أغناها عن ذلك . ثم من هم هؤلاء « الفتوات » الذين اشترتهم السعودية ، لكى تباهى بهم الأمم يوم القيامة ، وتؤكد لأمريكا أنها الدولة الزعيمة فى المنطقة ؟ والزعامة مثل القمم -- مهما كانت ضيقة فإنها تتسع لكثيرين ، وفى استطاعة السعودية أن تكون كما تريد ، ولكن عليها أن تتحمل عبء وأرق وقرف الزعامة ، فالزعامة هى « المكروه » الذى نحمد الله عليه .

وقد أحست السعودية بأن السياسة الأمريكية قد أصابها البرود ، فوزير التجارة الأمريكية فشل فى إقناع السعودية بزيادة إنتاج البترول ، فى الوقت الذى قررت فيه السعودية تخفيضه حرصا على احتياطيها وتصديقا لما أشيع من أن البترول السعودى قصير العمر !

وغضبت أمريكا . ثم عندما ذهب وزير الدفاع الأمريكى هارولد براون يطالب بإنشاء لجنة أمن إقليمى ، اعتذرت السعودية سرا ، ورفضت ذلك علنا ، وغضبت أمريكا . . وقبل ذلك كان الأمير فهد قد أعلن عن سفره لأمريكا واعتذرت السعودية لأسباب سياسية ، وأعلنت أمريكا : بل لأسباب صحية ، وغضبت الدولتان .

وعندما كان مستشار الأمن الأمريكى برزنسكى فى الرياض انتهى إلى رأى واحد : إنهم وراء الأبواب يؤيدون مصر . وأمام الأبواب يعارضونها .

ولكن الأمير فهد سافر إلى أسبانيا للعلاج . فقد زاد وزنه كثيرا بسبب تعاطيه للكورتيزون لتخفيف آلام انزلاق غضروفى ، وقد أمضى معظم الوقت فى إحدى القرى الأسبانية عند مضيق جبل طارق . وقد نقص وزنه وقد تماثل للشفاء فى دولة أخرى .

وقد أرسلت السعودية الأمير بندر ابن الأمير سلطان وزير الدفاع ليستقصى الرأى العام ويجد تفسيرا للموقف الأمريكى من السعودية ، وقابل عددا كبيرا من مساعدى الرئيس الأمريكى ورجال الكونجرس والسفراء العرب ، والتقى بداود هارون مساعد مستشار الأمن القومى ، وأكد له هارون أن العلاقات السعودية الأمريكية فى أحسن حال ، وأنه لاخوف عليها . وطلب إليه أن يؤكد للقيادة السعودية ذلك .

ولم يخف الأمير بندر أسفه على ماأصاب العلاقات المصرية السعودية . . وأن الموقف السعودى يجب أن يسترد مصر وأمريكا معا . وقال وهو يضحك : لو سقط الرئيس الأمريكى فسوف يذهب رئيس ويجىء غيره . . ويعود كارتر إلى مزرعته

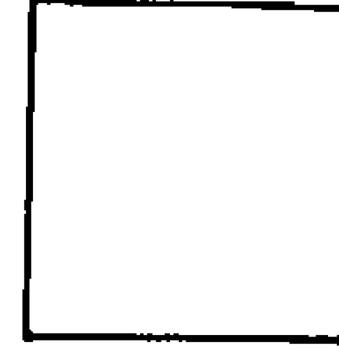
يبيع الفول السودانى بملايين الدولارات . . ولكن ماذا نفعل نحن . . إننا لن نجد الفول السودانى !

* * *

إننى لا أرثى العلاقات السعودية المصرية ، إنما أمص شفتى وأهز كتفى وتمتلىء الدنيا أمام عينى بعلامات الاستفهام والتعجب ، ويعز علىّ أن أضع الكثير من النقط على القليل من الحروف .

ولا أعرف هل ستذهب السعودية فى موقفها إلى الأخذ بوجهة نظر ليبيا فى نقل الجامع الأزهر من القاهرة إلى تونس ؟ ، وفى تونس هذه قد ظهر الرئيس الحبيب بورقيبة ، شفاه الله وجعل أيامه الأخيرة سهلة عليه ، وطالب بمنع الناس من الصيام لأن الصيام مضيعة للوقت والطاقة .

وغير ذلك كثير يمكن أن يقال لولا . . لولا أن هموم الناس كثيرة ، ولولا أنهم ليسوا فى حاجة إلى المزيد يأتيهم من الأراضى المقدسة – منتهى الأسف !



قضايانا الصارخة لن تحل همساً !

كأن هناك اتفاقا على الصمت بين بعض العواصم العربية وفى مقدمتها مصر. ولذلك يسعى كثيرون ينقلون رسائل شفوية ، للاعتذار عن الذى يقال ولايقال. وتجىء عبارات كثيرة لها هذا المعنى : إن الجماعة غاضبون .. ولكنهم يشعرون بالأسى والحزن .. ويؤمنون بأن هذه الحال لاتدوم.

أو يقال ، على أعلى المستويات : إن مصر هى الشقيقة الكبرى .. ولابد أن تصبر علينا ! ..

وحوادث ونوادر من كل مكان . لها نفس المعنى أو نفس الهدف .. أو الأمل فى الوصول إلى حل قريب ، ومطلوب أن نضعها الواحدة إلى جوار الأخرى ونحاول أن نفهم مثلا .

فى الكويت دارت مناقشة بين طبيب مصرى وبين ثرى فلسطينى ، وانتهت بأن أرسل الطبيب المصرى خطابا إلى شخصية كبيرة فى مصر يقول : تمنيت لو أن هذه المناقشة قد سمعها الناس جميعا . فلم نجد خلافا بين وجهتى النظر .. فمصر هى الدولة الوحيدة القادرة على أن تفعل ، وسوف تفعل . مع رجاء من الطبيب المصرى بعدم ذكر اسم الصديق الفلسطينى ؟.

* * *

وفى القاهرة ، وعلى مائدتين متجاورتين جلس صحفى إسرائيلى كبير وإلى جواره

ثلاثة من الأشقاء العرب . قال لهم : أنا إسرائيلى . . وأنت سودانى .. وأنت من الخليج . . وأنت مصرى .. ألا تلاحظون أننا جميعا بلا أظافر ولا مخالب .. وأننا بشر نشكو الجوع والعطش ، وسوف نشبع ونرتوى لأننا جميعا نريد أن نعيش ؟

ثم أشار بيده إلى رجل متوسط القامة .

وقال : وهذا هو موسى ديان فى القاهرة فى طريقه إلى الأقصر ، فى نفس اليوم والساعة التى نزل بها من القيادة العسكرية سنة ١٩٦٧ ، دون أن يرجمه أحد . فقد هزم مصر وهزمته مصر ، وانتهى الثأر ، وتبدأ الآن صفحات جديدة .. كذلك فعلت ألمانيا وفرنسا والصين واليابان . . وألوف الأمثلة فى التاريخ !

ولم يرد أحد . وجمع بينهم الصمت . . ثم ابتدأت الأصوات المعدنية للشوك والسكاكين ، وانشغلوا بنفس الطعام والشراب ، وفى نفس المكان والزمان ! ..

* * *

وفى الرباط قال الملك الحسن لضيفه الكبير : أنتم الذين دفعتم مصر إلى الغضب . . وعليكم أن تعيدوا للمصريين مزاجهم المعتدل ، وحبهم الحقيقى للمودة والسلام .

وكان رد الضيف الكبير كما روى ذلك فى القاهرة لأعلى المستويات : بل على الرئيس السادات أن يجد لنا مخرجا من هذا المأزق الذى وقعنا فيه جميعا ! ..

وتلقى الرئيس السادات رسالة شفوية من كبير من إحدى الدول العربية المعتدلة يقول : أنت الأخ الأكبر . . ونحن جميعا فى مكانة أولادك وإخوتك الصغار . . وقد اتسع صدرك لكثيرين أساءوا إليك فى شخصك وفى أهلك وفى قومك . . وأنت كبير العائلة كما تقول بحق وصدق ، وعليك أن تجمع إخوتك الشاردين بين الآراء والمذاهب والعواصم ! ..

وفى تليفزيون إحدى الدول العربية المعتدلة ظهر كاتب عربى يقول : إن الدول التى ثارت على مصر لم تقدم ماهو أفضل ، فإذا كان الذى تنشده الدول العربية هو أن تتفق على مصر ، فإنها لم تتفق معا .. إنما اتفقت على أن تختلف مع مصر ، وعلى

أن تختلف مع بعضها البعض . . فأضعفت نفسها مرتين .. مرة بالبعد عن مصر ، ومرة بالتباعد فيما بينها ؟

ولم يعلق أحد فى التليفزيون على هذا التصريح ، إنما تركوه لا إهمالا لحرية الرأى فقط ، إنما حرصا على أن يكون هذا النقد معروفا يتقل بين العواصم حتى يجىء إلى القاهرة .

ونشرت صحيفة « دى فلت » الألمانية على لسان عربى كبير جدا : إن حال العرب الآن هو المزاج العادى التقليدى للعرب . . فنحن نختلف كثيرا ، ونتفق قليلا ، ثم نتفق كثيرا جدا فيستقبل بعضنا البعض بالأعناق والقبلات . . ثم نختلف !

وتعلق الصحيفة الألمانية على ذلك بقولها : إن هذا السلوك غير المنطقى هو الذى يسود العواصم العربية !

والصحيفة لم تفهم أن هناك أكثر من منطق ..

منطق الألمان ومنطق العرب . . فمنطق العرب أن ليس لهم منطق .. إنما انفعالات ونزوات شخصية تتحكم فى الملايين عشرات السنين .. فالعرب لم يبتعدوا كثيرا عن التفسير الشخصى للأحداث . . وعن الاختراع الشخصى للأحداث أيضا . ولذلك فالدوافع شخصية ، والكوارث قومية !

وقد سافرت الصحفية الأمريكية كارين هاوس إلى السعودية وقابلت عددًا من كبار المسئولين ونشرت تحليلها فى صحيفة « وال ستريت » قالت إن الأسف عام والضيق لايخفيه أحد ، ولكن العرب أقدر على فهم مشاكلهم من الأوروبيين والأمريكان . . ولابد من البحث عن صيغة للتراجع الكريم عند الجميع .. إنها مسألة نفسية ..

* * *

والصحفى الكبير والترون صديقنا جميعا ، كتب من روما فى صحيفة « واشنطن ستار » يقول : قابلت كبار المسئولين السعوديين . لديهم حجة واحدة

تقول إنه لولا موقفهم لدخلت الشيوعية الشرق الأوسط . لقد أنقذوا سوريا والعراق والأردن والمقاومة من أن يلجأوا إلى المظلة السوفيتية . . وإن الدور الذى لعبوه كان من أجل السلام ، وإنهم ليسوا بعيدين عن الصيغة المصرية للسلام . ولكنهم اختاروا طريقا آخر . .

* * *

إذن فالمسافات متقاربة ، ووجهات النظر ليست متباعدة . . ولكن المطلوب هو أن أحدا يمد يده إلى أحد . . متى ؟ وكيف ؟

وقد غضب بعض المسئولين العرب من الأحاديث المتكررة التى كانت للسفير الأمريكى هيرمان ايلتس ، فهو رجل كفء ، وهو فى نفس الوقت أمريكى وطنى ، فقد قال : إن أمريكا ومصر قد انغمستا كثيرا جدا فى القضايا العربية ؟ !

أما أن أمريكا انغمست جدا ، فليس صحيحا ، لأنها لاتستطيع إلا أن تفعل ذلك .. فمصالحها كثيرة ، ومن حقه كأمريكى أن يحذر أمريكا من ذلك .

ولكن أن مصر قد انغمست فى القضايا العربية فليس صحيحا أيضا ، لأن مصر لاتنغمس قليلا أوكثيرا ، فهذا لايقال عنها .. إلا إذا كانت مصر غريبة عن القضايا العربية أوعن العروبة . . فنحن لاننغمس فى العروبة ، لأننا عرب .. تماما كما لايقال إننى انغمست أو حتى غرقت فى مصريتى . . فمصريتى ليست خارجة عنى .. إنما هى دمى ولحمى وأملى وأمنى وخوفى .

فلايعيب أحد على السفير الأمريكى أن ينصح بلاده ، ويعاب عليه أن ينصح مصر بأنها أصبحت عربية أكثر من اللازم ، أوكان يجب ألا تفعل ذلك .

والذين غضبوا من العرب رأوا أن الذى قاله السفير الأمريكى هو دعوة لمصر أن تبتعد أكثر وأكثر عن العرب .

ويتردد عدد كبير من الرسميين من أمريكا وفرنسا ورومانيا وبريطانيا بين العواصم العربية يسمعون ويناقشون وينقلون من هنا إلى هناك .

وقد بعثت دولة أوربية صديقة بنسخة من كتاب بعنوان « ضوضاء فى الشرق

الأوسط » لمؤرخ اسمه ايلى دروبنى مع رسالة رقيقة وإشارة إلى ماجاء فى أحد الفصول ، يقول الكاتب : إن العرب لايعرفون ثرواتهم البشرية ولاقيمتها ولامدى الاستفادة منها ..

مثلا فى مصر : إن عدد المتعلمين فى مصر أضعاف أضعاف عدد المتعلمين فى إسرائيل .. وإن عدد العلماء المصريين النابهين فى مصر وفى الجامعات الأجنبية أضعاف أضعاف عدد اللامعين فى إسرائيل .. كما أن عدد الأغنياء العرب أضعاف أضعاف عدد الأغنياء اليهود فى العالم كله .. وإن هذه البلاد العربية كلها أكثر قوة وتماسكا وتواصلا فى أرضها ولغتها ودينها وثرائها من إسرائيل ومن كل اليهود . . فلماذا لايستحضر العرب كل هذه المعانى وهذه الطاقات ويفعلون شيئا من أجل السلام العربى ، أو السلام العالمى ؟

لماذا لايجد العرب فى الصفات المشتركة قاعدة قوية لأن تكون وحدة عميقة عريقة ؟ انظروا إلى أوربا ماذا تفعل ، ومالذى تحلم به بعد أن جربت كل أشكال الخلافات الدينية والسياسية والعنصرية ، وبعد كل هذه الحروب !

إنهم فى أوربا يستعدون لبرلمان أوربى . أعلى مراتب الديموقراطية والمسئولية والحرية والأمان والحضارة .

لقد حاولت أوربا فى مئات السنين أن تجد قاعدة تقف عليها حضاريا حتى لاتتساقط جهلا وتمزقا ، منذ عصر النهضة والإصلاح .

فكانت الوحدة الدينية المسيحية ضد الأتراك المسلمين .

ثم الوحدة الأوربية الشاملة للعالم المسيحى ، سواء كان هناك خطر إسلامى يهدده أو لم يكن .

وتعالت فى أوربا فى القرن السادس عشر دعوات القس أرازموس .

وفى القرن الثامن عشر حاول الفيلسوف الألمانى «كانت» أن يضع لأوربا كلها برنامجا للسلام العالمى الدائم .

وامتحنت النيات الطيبة عشرات المرات بالحروب والكوارث الطبيعية ،

وأحست الشعوب الأوربية كلها أنه لابد من الاتحاد أو الوحدة . . أو لابد من الجامعة الأوربية حتى اجتمعت الدول الأوربية فى لاهاى سنة ١٩٤٨ ، وتكونت منظمات وهيئات التعاون الأوربى الأمريكى ضد السوفيت .. وهيئات التعاون الأوربى بعيدا عن السوفيت ومستقلة عن أمريكا .

وكان حلف شمال الأطلنطى فى أبريل سنة ١٩٤٩ .

ثم مجالس الفحم والصلب فى أوربا .

وفى أغسطس سنة ١٩٤٩ أعلن تشرشل فى مدينة استراسبورج : أن الخطوة الأولى قد اتخذتها أوربا من أجل الوحدة الشاملة تمهيدا للسلام الدائم ، وأن هذه الخطوة هى التى تهم .

واتحدت الدول الأوربية لاستخدام الطاقة النووية والحد منها . . ثم كانت وكالات للإنعاش والغوث .

ورغم هذه الخلافات الهائلة بين دول أوربا ، عنصريا ولغويا ومذهبيا ، ورغم الفوارق الهائلة اقتصاديا ، فإن هذه الدول المتحضرة قد وجدت أنه لاسبيل إلى البقاء فى سلام إلا بالاتحاد فى هيئة برلمانية تمثل أسمى درجات التفاهم والحرص على ذلك ؟

وكانت لنا جامعة الدول العربية . وتاريخها معروف لدينا ، فهو تاريخ للعجز المستمر وصورة مشوهة للمجامع اللغوية – بفتح اللام وتسكين الغين – ولذلك لم تنجز هذه الجامعة العربية شيئا . وقد امتحنت الجامعة العربية كثيرا . فلم تنجح فى امتحان واحد .. واليوم تقرر بعض الدول العربية إكراه الجامعة العربية على أن تبدأ من ضعفها وتمزقها مرحلة قوية – أى أن يتولد من هوانها وهذيانها جيش قوى يقهر إسرائيل ويصدها إلى حدودها فى يوم وليلة وبدون حرب . كيف ؟ !

هذا ماسوف تجيب عنه الجامعة العربية التى انتهت تماما . ولابد للعرب أن يبحثوا لهم عن شكل آخر للتضامن العربى ، يرقى إلى درجة التعاون الأوربى . تعاون المصالح العليا ، لاتعاون الخواطر والعناق والقبلات والغضب ، وحتى هذا ليس

ممكنا بين الدول العربية الآن ، وإليك الخريطة :

الخلافات قد انتقلت بين كل الأشقاء العرب ، وخاصة الجيران منهم .. العراق الشيعية وإيران الشيعية . . الجزائر والمغرب . . العراق واليمن الجنوبية . . ليبيا وإيران . .

أما المقاومة الفلسطينية فقد تحولت إلى أكوام من القتلى وأكوام من المقاتلين الذين دفنوا سلاحهم استعدادا لدفن قضيتهم أيضا بفضل البعث السورى والبعث العراقى ومباركة الدول العربية المعتدلة .

حتى قيل إن « المقاومة » أصبحت « المكاومة » أى وضع كوم إلى جوار كوم خوفا من إسرائيل وإذعانا لموسكو وإلقاء بالعبء كله على مصر !

ولن يحل القضية العربية أن يلتقى الرؤساء والملوك . . أين ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ وعلى أى أساس تباعدوا ؟ وعلى أى أساس تراجعوا ؟ إن الموقف العربى لم يتضح بعد . أما الموقف المصرى فيكتسب كل يوم معنى جديدا ، أما سيناء فسوف تعود إلينا . . وأما الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى فنحن نفاوض فيه . ولابد أن نستمر وأن نتوقع الخلافات ونستمر . .

فلم يكن شيئا سهلا ، لا كان فك الاشتباك الأول ولا الثانى ولا الانسحاب من سيناء والعريش .. ولا الحكم الذاتى سواء حكم الأرض أو حكم الناس أو حكم الفلسطينيين لأرضهم مستقلين تماما عن إسرائيل والأردن . . أو مع الأردن .. وكل ذلك مفهوم ومقبول فى المفاوضات بين الأعداء . حدث وسوف يحدث إلى مالا نهاية !

وكان برناردشو يضحك عندما يقول : إن بريطانيا وأمريكا شعبان تفصل بينهما لغة واحدة !

ولكن إذا كانت هناك نقاط للخلاف بين الشعبين ، فهناك ألوف من نقاط الوفاق فى نفس الوقت !

ولو عاش برناردشو ليرى ما بين العرب لقال إنهم شعوب واحدة تفصل بينهم :

الأرض الواحدة واللغة الواحدة والدين الواحد والخطر الواحد !

إن العالم النفسى الكبير فرويد هو الذى قال : بعد ثلاثين عاما من دراستى للمرأة داخلها وخارجها ، لم أستطع أن أجيب عن هذا السؤال : ماالذى تريده المرأة بالضبط !

وماالذى يريده العرب أيضا ؟ !

يريدون أن نعود بعضنا إلى بعض : بالأعناق والقبلات . . وهات رأسك . . صافية كاللبن ؟ !

ولكن قضايا الشعوب لا تتعقد هكذا ولا تنحل بنفس الطريقة . هناك أسس اقتصادية سياسية حيوية - أى أسس علمية ثابتة لأن يكون وفاق واتفاق وسلام بين أكثر الناس عداوة - أمريكا وروسيا وكل الدول الأوربية - وبين أكثرهم مودة ورحمة كالعرب مثلا .

ولابد أن يكون ذلك من جميع الأطراف ، وليس بأن يعلن طرف واحد فيقول : انتهى كل مابيننا من خلاف . . تعالوا إلى طعام واحد وشراب واحد وعناق واحد !

إن فى التلمود اليهودى قصة تقول ، إن رجلا طيبا طلب من الحاخام أن يعلمه الحكمة والنجاح فى الحياة ، فنصحه الحاخام بأن يذهب لزيارة رجل طيب يعيش فى مدينة بعيدة . فذهب إليه . فوجده يأكل ويشرب ويتكلم ككل الناس ، فلم يجد فى كل مايفعله أو يقوله شيئا جديدا . . وكان الرجل الطيب يعود يائسا .. لولا أن أحد الأغنياء زاره فى بيته ، فوجده يقلب فى دفاتر أمامه ويخاطب ربه قائلا : لقد أفطرت فى عيد الصيام يوما .. فأنا مدين لك بيوم .. ولم أتصدق على شحاذ ، فأنا مدين لك بصدقة . . وشربت الخمر فى عيد الصيام ، فأنا مدين لك باعتذار وصوم . . ولكنك أنت أيضا أدخلت ابن أختى السجن وهو برىء ، فأنت مدين لى ببراءة واحد من أقاربى .. وأنت قبضت روح زوجتى وكانت فى غاية الصحة ،

فأنت مدين لى بحياة زوجتى .. ثم إننى تزحلقت فانكسرت ساقى فأنت مدين لى بتصحيح هذه الساق .

ثم سكت الرجل وقال مخاطبا ربه : مارأيك لو أننى أعفيتك من ديونك وأنت أعفيتنى من ديونى ؟ اذن فأنت موافق شكرا .

والنكتة أن الرجل هو الذى قرر الديون وقرر إعفاء نفسه وربه من ذلك . ولكن بين الدول وبين الشعوب ، لاتجىء هكذا .. إنما لابد أن يتضح لنا تماما ماالذى تحقق على أيدينا . . وماالذى لم يتحقق للآخرين .. وفى محكمة الرأى العام العربى ، والمحكمة الفلسطينية الخاصة ، والرأى العام العالمى ، يجب أن نعرف من هو نوح الذى أنقذنا من طوفان الغضب وسوء التقدير وسوء الفهم وسوء الظن .

إن كاتبا ألمانيا يهوديا مهووسا قد ألف رواية عن « السد العالى » تمنى فيها هدم السد العالى قبل أن يستعد أنور السادات لقتال إسرائيل ، وقال الكاتب اليهودى : لقد هددنا العرب بأن يلقوا بنا فى البحر ، ولذلك سوف نأتى لهم نحن بالبحر . . عندما ننسف السد العالى . . وسوف نقوم نحن اليهود بدور نوح مرة أخرى وننقذ العرب من الهلاك .

ولم يحتج اليهود إلى نسف السد العالى وإغراق مصر وإنقاذ العرب فى سفينة نوح إنما كان التضامن العربى الذى مهد لانتصارات أكتوبر التى مهدت لمبادرة السلام الذى هز العالم حتى تم توقيع اتفاقية كامب دافيد واسترداد العريش .

هذه هى سفينة نوح لنجاة العرب من طوفان صنعه العرب لإغراق أنفسهم .

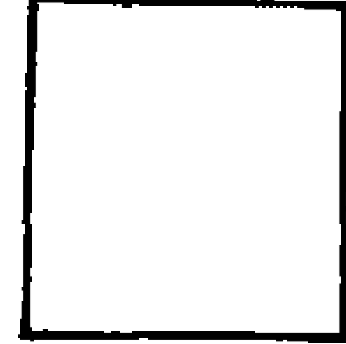
* * *

وكما حدث فى طوفان نوح أن واحدا من أبنائه قد ألقى بنفسه من السفينة متعجلا النجاة : قائلا : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء »

قال له نوح : « لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .. » !

وغرق ابن نوح عليه السلام ، فقد كان أول الرافضين فى التاريخ فهل الجامعة العربية هى التى تعصم الأمة العربية من الغرق فى طوفان الشيوعية والشيعية والبعث ؟

لابد من سفينة . والسفينة ليست مجرد ألواح من خشب .. ولكنها مجموعة من القوانين يجب اتباعها لبناء وسيلة أكيدة للنجاة من عواصف العواطف وأصفاد الأحقاد ! ..



رسالة من تحت الباب..

من تحت باب مجلس الشعب ، ألقى بهذه المقالة أثناء انعقاد الجلسة الافتتاحية ، وبذلك أتخفف من عبء الكلمات ، وأضيفها إلى الهموم المتراكمة والجديدة للأعضاء الجدد . .

١ - إننا نسرف فى استخدام كلمة « مرحلة » . حتى أصبحنا نتطلع إلى مرحلة فريدة لاتتردد فيها كلمة مرحلة ، ولكننا نظلم أنفسنا إذا مللنا هذه الكلمة ، فهناك قرارات حاسمة اتخذناها ، وكل قرار منها « نقلة » إلى الأمام ، وكل نقلة هى مرحلة ، وكل مرحلة هى بمثابة منصة للوثوب إلى جديد .

ونحن اليوم فى مرحلة مابعد العريش ، وهذا المجلس الموقر قد انتخب فى ضوء انتصارات العريش وتحرير الأرض العربية . فالعريش أرض عربية وسيناء عربية ، ونحن جميعا - بغداد والقاهرة - نطالب بتحرير الأرض العربية من الاحتلال الأجنبى ، وفى مصر قد بدأنا نفعل ذلك . ودعونا أشقاءنا أن يفعلوا نفس الشئ . أى يساعدونا على تحرير أرضنا . لنساعدهم على تحرير أرضهم التى هى أرضنا . وهذا هو التضامن العربى .

٢ - ولاداعى لأن أعيد وأزيد فى ذكر كل الذى نعرفه جميعا قبل العريش وبعدها . فنحن نحرر أرضنا العربية من الاحتلال اليهودى ، بينما العرب يحتلون أرضا عربية أو يباركون الاحتلال الجديد ، وهذا يضعهم فى مأزق حزين . أو من

الواجب عليهم قبل أن يطالبوا بانسحاب إسرائيل ، أن ينسحبوا هم أولا .. أن تنسحب القوات السورية من لبنان ، والقوات الجزائرية من المغرب ، والقوات الليبية من تشاد وحدود السودان ، وأن تنسحب قوات عدن من أرض صنعاء ومن أرض عمان ، وأن تنسحب القوات العراقية من إيران ، وأن يثوروا على تهديد إيران باحتلال البحرين ، وأن تنسحب إيران من جزر طنب الصغرى والكبرى وأبو موسى فى الخليج ، وكان الشاه قد احتلها بعد مهرجان قورش العظيم .. عندما استضاف الملوك والرؤساء فى مدينة برسبوليس وأطعمهم لحم الطاووس وأغرقهم بالهدايا العجمية . ثم استولى على هذه الجزر بعد ذلك . لقد أطعم الفم فاستحت العين أن ترى الاحتلال ، وإذا رأته أن تستنكره !

بينما مصر ماضية فى تحقيق السلام . وقد ساعدها على ذلك أنها انتصرت فى حرب أكتوبر ، وأنها بادرت بالسلام ، وأنها صادقة الدعوة والدعوى ، وأنها ثابتة الخطوات ، وأنها اختارت الحوار وهى على يقين من حدودها المادية والنفسية وعلى يقين من الوضع المتميز لإسرائيل . كما أن مصر قد استعانت على إسرائيل بالشعب اليهودى الذى يريد السلام ، وبالشعب الأمريكى الذى يقدس الحرية والتسامح الدينى والعنصرى ، ومستعينة بشجاعة الرئيس كارتر ومثله الرفيعة .

٣ – وفى نفس الوقت فإن مصر لا تستعير أسلوب الرافضين لكل شىء . فنحن نبارك أن يعقد مؤتمر جنيف . . وأن تجلس روسيا وأمريكا على رأس المائدة . ونناشد الاتحاد السوفيتى أن يكون فى حجمه العظيم وبوزنه الهائل ، إيجابيا فى تحقيق السلام وتقرير مصير الشعب الفلسطينى .

٤ – ومصر على استعداد أن تقدم العريش مكانا مختارا لكل مفاوضات السلام وكان يسعدنا حقا لو شاركتنا روسيا وكل الدول الغربية والأفريقية الاحتفال برفع العلم المصرى فى العريش ، على أرض مصرية قد تحررت .

٥ – وفى هذه المرحلة نحن أمام مجلس شعب جديد قد انتخب فى ظل السلام ممثلا لكل الشعب بكل فئاته وصفاته – إلا هذه الأقلية « الناشزة الشاردة » وهذا

طبيعى فى كل مجتمع ، أن تجىء الأغلبية من المؤمنين بالانسجام الاجتماعى والفكرى ، الأغلبية التى تريد البناء والتى تفرح بالسلام والتى تتطلع إلى الحرية والعدل والرخاء .

ولكن السلام كالحرية تماما ، ليس لفئة دون فئة ، ولكن السلام اجتماعى ، كما أن الحرية عدالة .

وليس السلام أملا ولكنه عمل . كما أن الحرية ليست حلما إنما هى إنجاز ، وليس يكفى أن يكون الإنسان حرا مسالما ، ولكن يجب أن نحرص على الحرية وعلى السلام . فالإنسان لم يولد ليبنى البيت ولايسكنه ، ويزرع الأرض ولايملكها ، وينادى بالحرية ولايتمتع بها .

إذ كيف يريد الحرية لنفسه ولايرتضيها لغيره . وهذا هو الموقف المأساوى للدول العربية التى تكبلت بالحديد وتنادى بالحرية للآخرين ، والتى استغرقتها التصفيات الجسدية وتنادى بالسلام بين الشعوب العربية ، تدعو للتضامن وهى ممزقة . تدعو لتحرير الأرض العربية ثم تحتلها . كأن هناك نوعين من الاحتلال : احتلال العرب لأرض العرب ، واحتلال اليهود لأرض العرب . إن الاحتلال واحد . كما أن الحرية لاتتجزأ . والظلم واحد ، كما أن العدل معصوب العينين لايفرق بين صغير وكبير ، بين مسلم ويهودى بين عربى وفارسى ..

٦ — إن أمتنا العربية فى محنة — أى أنها تمتحن فى عزيز لديها ، ونحن لانطلب من العرب أن يكونوا مصريين ، وإن كنا نؤكد أن المصريين عرب ، ونحن لانمن بذلك على أحد ، إنما هو تقدير لواقع الحال ، فنحن — أحببنا أوكرهنا — عرب . كنا وسوف نبقى عربا .

إنها محنة تاريخية لكل العرب ..

٧ — ولاأحد وحده يصنع التاريخ العربى . إنما تصنعه الشعوب معا . ولا أحد يرى التاريخ وهو يتطور . تماما كما لانرى الأشجار وهى تنمو ، والأطفال وهى تكبر ، ولذلك فنحن لانرى ماذا يجرى على الأمة العربية .. وإن كنا نرى « مخاضا »

وميلادا أليما لصنع سياسة جديدة فى الأمة العربية .

والذى حدث فى مصر هو إحراج لكل النظم فى المنطقة . فالشعوب ترى ماذا حققت مصر . . ولم تحققه حكوماتها ، والشعوب العربية ترى الديموقراطية فى مصر ، وحكم الفرد بلا دستور فى البلاد الأخرى ، ومصر دولة (لها قضية) .. ودول عربية أخرى بلا قضايا . فالله قد أعطاها الكثير من الذهب ، فتلاشت فى بريقه كوارث الإسكان والطعام والشراب والتعليم والمواصلات والعلاج وتحرير الأرض — إنها مجتمعات بلا قضية !

وإن كانت قضية القضايا الآن : هى التضامن العربى ، تضامن الصغار معا فى إطار قضية كبرى ..

٨ — ولابد أن نفعل ذلك . لأننا نعيش فى عصر دولتين عظميين تقتسمان الكرة الأرضية والكواكب الأخرى . . ولهاتين الدولتين حسابات معقدة خفية لانعرفها ، ولكن تضامننا معا ، يجعلنا أقدر على المواجهة والمعايشة والاستمرار .. صحيح أننا جميعا نعانى خوفا واحدا ، ولكن الخوف مثل الأمان : درجات فمنذ سقطت قنبلة هيروشيما ، أصبحنا نعيش فى عصر الرعب النووى . فلا عاصم اليوم من أمر هذا الدمار الشامل . فنحن كالدول العظمى نعيش معا فى قنبلة زمنية . . ضيوفا على هذه الأرض . . مسافرين بين محطتين . إحداهما فى الدنيا .. والثانية فى الآخرة ولذلك كان لابد أن ننشد الأمن فى أنفسنا . . والأمان فى تضامننا .. حتى الدول الكبرى تتضامن لتواجه الدول العظمى ، حتى الدول العظمى تتوافق لتوافق الدول الكبرى المتضامنة ، ودول العالم الثالث ودول الطاقة !

وكلها ألف باء التاريخ الحديث والقديم ..

٩ — وفى مواجهة كل ذلك وغيره يجب أن نواجه أنفسنا فى « وقفة حساب وقرار » . وفى مواجهة آمالنا الداخلية يجب أن نعدل الدستور ، وأن نقوم بترشيد الحكم المحلى حتى لاتكون القاهرة المصدر الوحيد للقرار وتعويق أى قرار . ولابد أن نقتسم المعاناة والعناء . فلا يدفع الموظف وحده الضرائب ، ويفلت الرأسماليون

والطفيليون والحرفيون واللصوص والمهربون ..

ولابد أن نصدر وثيقة حقوق الإنسان .. تقنينا لحقوقنا وواجباتنا وأملنا فى الحياة الكريمة . ومن الواجب أن تأخذ المرأة حقوقها ، وأن تعتدل بين أيدينا أحوالها الشخصية ، وأن تطبق شريعة محمد على المسلمين ، وشريعة عيسى على الأقباط .

١٠ - وأن تكون الصحافة سلطة رابعة « فليست السلطة فقط هى إصدار القرار المكتوب تشريعا وتنفيذا ، إنما أن تشارك فى صياغة قرار الرأى العام » . وسوف يكون لمجلس الصحافة ٥١٪ من ملكية الصحف ، ويكون ٤٩٪ للعمال والإداريين والمحررين فى هذه الصحف ، ولابد أن يكون لمجلس الصحافة حق اختيار القيادات الصحفية ، وأن يكون قادرا على عقاب الذين باعوا أقلامهم لأعداء مصر - هذه الدعارة الفكرية !

وألا تكون الصحف مثل صحيفة الذنوب للشعب فلا نرى فيها إلا عيوبنا وإلا عارنا وإلا عوراتنا ، ويجب أن تكون الصحف اكتشافا يوميا لمتاعب الناس ، تمهيدا لعلاجها ، يجب ألا تكون أقلام الصحفيين مثل وخز الضمير لمن لاضمير له ، إنما يجب أن يطالب الصحفيون أنفسهم قبل غيرهم باحترام الإنسان وكرامة الإنسان .. فليس من العدل أن تكون شوكا بلا ورد ، ولامن الإنصاف أن تكون وردا بلا شوك .

١١ - وفى ظل وبسبب هذه التغيرات الجديدة فى عهد السلام ، يجب أن نضع أمامنا قضية القضايا : لماذا هذا التراخى فى كل شىء ؟ لماذا ننجح فى التحديات الكبرى ، ولاننجح فى الإنجازات الصغيرة ؟ لماذا يتفوق عدد من المصريين فى الخارج ، ولانرى نظيرا لذلك فى مصر؟ إنها قضية « المناخ » العلمى والنفسى والاجتماعى ، إنها قضية . ولذلك يجب أن تلقى ماتستحقه وما نستحقه نحن أيضا من فهم وعلاج وحل .

إن ٤٢٪ من الشعب المصرى دون سن الرابعة عشرة . أى دون سن القدرة على

الإنتاج إنهم أفواه تأكل وتشرب ولاتعمل ، وهذه مشكلة فى بلد يتزايد مائة ألف نسمة كل شهر.

١٢ – ولحسن حظ مصر أن ليس بين السياح هذه الأيام ذلك الأديب الفرنسى يوجين يونسكو أحد أعلام « مسرح اللامعقول » . فله مسرحية اسمها « الكراسى » وفيها بطلان يستقبلان عددا لانهائيا من الزوار الوهميين ، ويجلسانهم على كثير من المقاعد الوهمية أيضا.

ويرى المؤلف أن أعظم تحية يوجهها الشعب له .. هى ألا يذهب إلى المسرح وبذلك تكون الصالة خالية من الناس ، والمسرح خاليا من الممثلين هنا فقط يكون المسرح صورة من المجتمع ومرآة للشعب.

ولو شاهد يونسكو قاعة المجلس السابق . وقد عرضت عليه قضايا حيوية فواجهها بمقاعد خالية ، لصفق لهذا النجاح المسرحى الهائل . . ولطالب وزارة الثقافة بنصيب من حق الأداء العلنى ! لقد كان ذلك محنة سياسية برلمانية فادحة ، ونتمنى من المجلس الجديد أن يعيننا على أن ننسى ما كان ، ويعلم الله أننا نحاول ذلك !

١٣ – وفى مواجهة مصر الثابتة المستقرة نرى الدول العربية : لاثابتة ولامستقرة ولامستمرة . ولم تضف جديدا إلى ماأعلنته مصر .. بضرورة أن يكون سلام ابتداء من يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهى فى قمة نصرها العسكرى ، وانتهاء باتفاقية السلام والحكم الذاتى والقدس وتحرير الأرض العربية ابتداء بالعريش وانتهاء بالضفة الغربية . وليست شماتة فى العرب أن نقول : نريد أن نرى التضامن بغير مصر ، والجامعة العربية بغير مصر ، والسلام بغير مصر ، وتحرير الأرض بالقوة بغير جيش مصر.

١٤ – وقبل أن تكون قمة عربية فى أية عاصمة .. يجب أن نعرف أينا على خطأ وأينا على صواب .. وأينا هو الذى يعمل من أجل الشعب الفلسطينى الذى تفرق

دمه بين القبائل والعشائر والمذاهب السياسية والدينية .. من السنة والشيعة والموارنة بين الدروز والأكراد والفرس .

١٥ - ولابد ونحن ماضون فى تحقيق السلام ، أن نتطلع بعظيم الاحترام إلى الرئيس جعفر نميرى وشعب السودان الشقيق الحر الكريم .

وأن نشعر بالإعجاب بشجاعة السلطان قابوس وشعب عمان الشقيق .

١٦ - وأن نحيى إخوتنا الأفارقة الذين لم يشغلهم الذهب عن مساندة مبادئ العدل والتعايش السلمى وعدم الانحياز والاعتراف لمصر بفضلها فى جمع الوحدة الأفريقية والآسيوية والعالم الثالث .

ومصر يجب أن تذكر للشعب الصينى العظيم مساندته لها أدبيا وعسكريا ، إيمانا منه بعدالة القضية وجدية القيادة السياسية .

١٧ - ويجب أن تشكر مصر للرئيس الأمريكى السابق كارتر موقفه العظيم الشجاع ومبادراته القوية من أجل أن يتحقق السلام . وقد غامر الرئيس كارتر بشخصه ومنصبه وبلاده من أجل أسمى قضية : العدل . . ومن أجل أعظم هدف : السلام .

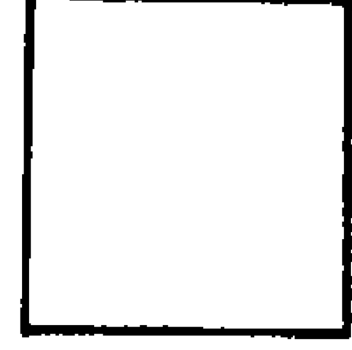
١٨ - ونحن نعلم منذ البداية أن السلام صعب . وأن إسرائيل تضع العراقيل ، ولكن لاتوجد مشكلة ليس لها حل ، ولايوجد حل دون تفاوض ولايوجد تفاوض لاتتبادل فيه الأطراف احترامها بعضها لبعض .

والوفود المصرية التى تتفاوض مع إسرائيل قد أثبتت براعتها وشجاعتها واستحقت احترام العالم ، وعظيم الامتنان منا جميعا .

١٩ - ونحن معذورون حقا إذا احتارت على أقلامنا وعلى ألسنتنا كلمات : الصداقة والعدالة والمحبة والكراهية عندما ننظر إلى ماتفعله الدول العربية ، فقد « اختاروا مرحلة السلام والاستقرار فى محاولة مؤسفة لتضييق الخناق علينا ، والتأخير من خطانا نحو حق المصريين فى حياة كريمة تلبى حاجاتهم الأساسية ، وتعوض معاناتهم القاسية من أجل حقوق الأمة العربية وكرامتها » .

فللعرب الشكر على ما قدموا وعلى الذى لم يقدموا .

٢٠ – وسوف تسيل دماء كثيرة هناك ، وسوف تطفو جثث لنظم فاسدة وهنا فقط يعرف العرب من الذى كان على صواب ومن الذى جانبه الصواب . وسوف يكون الثمن فادحا .



حدث فى مونروفيا ولم يحدث!

« لأننا نعشق الحرية جئنا إلى هنا »

وهذا هو الشعار الذى اتخذته ليبريا أول جمهورية فى أفريقيا ذات دستور دائم وضعته فى سنة ١٩٤٨ . وهذا الدستور وأشياء أخرى كثيرة قد نقلتها عن أمريكا حرفيا . . وقبل أن تنقل هذا الدستور انتقل إليها الزنوج الذين تحرروا . وجاءوا إلى هذه البلاد ليحكموها منذ ذلك الوقت . وعددهم لا يزيد على عشرين ألفا بين مليون وربع مليون من المواطنين . . فالطبقة الحاكمة أمريكية زنجية . .

وقد استغرقت رحلتنا إلى العاصمة مونروفيا – نسبة إلى الرئيس الأمريكى « جيمس مونرو » الذى ساعد على قيام هذه الدولة . عشر ساعات بلا توقف . وفى الطائرة راجعت معلوماتى عن ليبريا هذه فكانت تافهة جدا . إنها دولة مستقلة فى غرب أفريقيا عند مصب نهر مونسرادو ، قطعة من أمريكا : التاريخ والشعب والدستور والدولار . حتى ساعتها مضبوطة على ساعة واشنطون دون مراعاة لفروق التوقيت . وجوها استوائى حار رطب . ونحن فى نهاية موسم الأمطار . . ولابد أن تكون دولة فى غاية الطموح لتعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الأفريقية ، ثم مؤتمر القمة الأفريقى السادس عشر ، وقد كلفها ذلك أكثر من ٣٠٠ مليون دولار . وسوف يكون المؤتمر أكثر سخونة من الجو . ويكون الكلام أكثر غزارة من الأمطار . وسوف يهدأ كل شىء بعد ذلك . ويتراخى ويتكاسل تماما ، كالطابع

الأفريقى الأصيل ، فى كل شىء .

ولكن لابد أن نذهب فحبنا للسلام مثل حبهم للحرية ، قد أتى بهم عبر الأطلنطى إلى هناك .

وصلنا إلى مدينة مونروفيا ليلا . . وكانت السحب كثيفة والطائرة تتعثر وتلتوى وتتفادى المطبات الهوائية ودارت الطائرة فوق المحيط الأطلسى ثم نزلت على أرض حمراء داكنة . إنه المطار الذى يبعد عن العاصمة أربعين ميلا .

ولا شك أن أهل ليبريا قد انتهزوا فرصة مجىء الرؤساء الأفارقة ليتفرجوا على أشقائهم من القارة الكبيرة الغريبة العجيبة . . وعندما خرجنا من المطار كانوا بملابسهم الوطنية يرقصون ويطبلون ويزمرون . ولم نكن نحن شاغلهم الوحيد إنما هم مشغولون بالفرجة بأنفسهم . . وأمام البحث عن سيارة ، والراحة من الرحلة الشاقة ، انصرفت عيوننا عن الرقص والملابس الوطنية إلى الطريق إلى المدينة . الطريق طويل قاتم ناعم والسيارة تجرى مسرعة . وكانت الصعوبة الوحيدة التى عندنا هى أن نجد الراحة فى المقعد أو فى الحديث مع السائق . فقد اكتشفنا أن لغته الانجليزية ، لا هى أمريكية النبرة ولا هى إنجليزية . إنما هى خليط من لغته ولهجته . ففى ليبريا أكثر من عشرين قبيلة لكل واحدة لغة وعدة لهجات وهى شديدة الاعتزاز بها . . أما اللغة الإنجليزية فهى لغة الطبقة الزنجية الأمريكية الحاكمة . ولذلك فهى لغة مفروضة عليهم بالقوة .

ومن عاداتهم هناك أن يتركوا الأضواء الخلفية للسيارة مضاءة طول الوقت : هكذا ترتجف لتراها السيارات أمامها وخلفها ، وهذا أفضل وأوضح فى مثل هذه الطرق المظلمة تماما ، وأكثر السائقين جاءوا من ساحل العاج ، فليس فى ليبريا هذا العدد الذى يكفى ألوف العاملين من أجل الوفود الأفريقية .

ولم نذهب إلى فندق كبير ، إنما استأجرت ليبريا سفينة يونانية كبيرة اسمها « ايتاليس » لنقيم فى غرفها – ٧٦٤ غرفة بها ألفان من الأسرَّة . فى كل غرفة سريران . أحدهما فوق الآخر . والتكييف فيها ضعيف فهى لذلك خانقة . وقد

دفعت الحكومة لهذه الباخرة ٨٧٠ ألف دولار إيجارا لأسبوعين ، وأعضاء الوفود جميعا يتناولون طعامهم بالكوبونات . فليس مسموحا لغيرنا أن يأكل ويشرب وإن لم يكن مسموحا له أن ينام على راحته . . فبعضنا فضل فى الساعات الأولى أن ينام على مقعد فى أحد الصالونات – وكان الإرهاق هو السبب !

أما مبنى المؤتمر والفلل التى أقيمت للرؤساء . فقد تكلفت بضع مئات من ملايين الدولارات .

ولم نستطع فى الليلة الأولى أن نعرف بالضبط ما الذى يميز البلاد عن غيرها فالباخرة يونانية الجنسية والموظفين . وبعضهم يعرف اللغة العربية وقبطان السفينة يسأل عن الإسكندرية التى سوف يسافر إليها فى منتصف الشهر القادم ، وهو كأكثر اليونانيين قد جاء إلى مصر وعاش فيها وله أقارب وذكريات .

لم تسعفنا النشرات الصحفية أن نعرف ماذا حدث قبل مجيئنا . وما الذى يمكن أن يحدث . . الراديو فى السيارة يذيع الأغنيات والموسيقى الراقصة وأثر هذه الموسيقى واضح على السائق وعلى كل الناس فى أى موقع . فهم يرقصون أوهم يستعدون لذلك . . وهذا الرقص هو التدليك اليومى . . الذى يكسب الناس هدوءا إضافيا ومزيدا من الأمن . ويبعدهم عن جنون السياسة والسياسيين ولذلك فهم قد عزلوا المؤتمر برؤسائه ووفوده بعيدا عنهم . أى عن اهتمامهم . . وأصبحنا نحن مجرد « نمرة » فى البرنامج اليومى لحياتهم ، الذى اختل لمجرد تشريفنا لبلادهم !

ومن الباخرة فى الصباح الباكر وضحت معالم المدينة . . فالبيوت قد انحدرت سقوفها حتى لا تحتفظ بالمطر . وهى ككل البيوت فى المناطق الاستوائية . . صغيرة منعزلة بين الغابات وذات ألوان زاهية والخضرة داكنة والماء كثير . والمطر لا يتوقف والهواء هو الآخر ليس إلا مطرا رقيقا . أى إذا كان المطر قماشا خشنا . فالهواء حرير يهفهف ويوزع رطوبته بالعدل على الوجه والملابس . ويقابل الناس هذا المطر بلا شيء : فالأجسام نصف عارية والأقدام عارية . والنساء إذا كن من أصل أمريكى . فإنهن يعرضن أكثر مساحة من أجسادهن تحدثا بنعمة البياض . . وإذا

كن زنجيات ، فإنهن يغطين أكبر مساحة من أجسادهن . ويقمن بشد الأقمشة عليهن . لا تواريا ، إنما ليبرزن المفاتن الأفريقية النهدين والردفين ، وإذا أدى ذلك إلى عجزهن عن المشى فإن المشى لا يهم . إنه ترف عند المرأة ، والرجل هو الذى يمشى ويعمل وينقص وزنه وعمره .

وهذه هى قمة التقاليد الأمريكية فالمرأة الأمريكية تعمل كالرجل . ولكنها تدفعه إلى العمل الأكثر ، فإذا مات ورثت نصف ما يملك . فوراء كل رجل أمريكى امرأة تدفعه إلى العمل حتى الموت !

حتى فى مطاعم السفينة فإن الفتيات اللاتى يطالبننا بالبونات قد جلسن فى ملابس أنيقة غالية الثمن : الساق على الساق . . والمنظار الأبيض – لابد أن يكون أبيض – والابتسامة الجاهزة . . وفى المؤتمر أيضا جلست الفتيات إلى المكاتب فقط جلسن استكمالا للوجاهة والديكور الاجتماعى .

ولا أعرف أين ذهب الرجال فلم نر عند مداخل المؤتمر وفى الطريق إليه وإلى السفينة سوى شباب وأطفال مونروفيا ، وقد ارتدوا ملابس الكشافة ذات الألوان الحمراء والخضراء والبيضاء – وأكثر الأشياء حتى أسنانهم . إن أرواح الألوف من أعضاء الوفود بين أيديهم المجردة من السلاح ؟!

وكل شىء سار فى هدوء وفى أمان . ولم يعترض أحد على أى شىء – إلا السفير المغربى الذى اعترض على أن الصورة التى وضعوها للملك الحسن الثانى بين كل الرؤساء والملوك فى الطريق إلى المؤتمر كانت لا تليق . بجلالته . أما الصورة التى نزعوها فقد كانت للملك الحسن وقد ارتدى طربوشا وخرج الشعر من تحت الطربوش . كما يحدث عندنا فى الأفلام المصرية القديمة ورأى السفير أن صورة الملك تجعله أقرب إلى الشبان الخنافس . بينما القذافى الذى شعره طويل . صورته قد جعلت شعره قصيرا . ولذلك وضعوا للملك الحسن صورة أخرى بلا طربوش . . ما عدا هذا التغيير لم يحدث أى شىء لأى أحد من الناس . .

والمنطقة التى أقيم فيها المؤتمر هى منطقة فرجينيا – وفى هذه المنطقة يسجل تاريخ

ليبريا موقفين لاثنين من رجالها :

الرجل الأول واسمه يهودى اشمون الذى جاء ممثلا « لجمعية الاستيطان الأمريكية » سنة ١٨٢٢ وهو تاجر فى الدرجة الأولى جاء يجرب حظه هو وزوجته وجاء حاكما أيضا زرع الأرض وعلم الناس الزراعة والتجارة والصناعة وتكاثر خصومه عليه . حتى ماتت زوجته كمدا ودفنها تحت الأرض الأفريقية وترك البلاد حزينا على ما حققه فيها . ثم عاد إليها ليقف على أرض فرجينيا ويقول عبارته الشهيرة : ليس على لسانى شيء سوى عبارة قيصر الشهيرة : جئت ورأيت وغزوت – والحقيقة أننى جئت ورأيت ولم أستطع أن أغزو قلب أمريكى واحد !

إن هذا الشعار أيضا هو المكتوب على أكياس سجائر مارلبورو – أى أن الذى يدخنها قد حقق لنفسه هذا النصر العظيم فى اختيار أحسن مذاق وألذ كيف !

ومن وصايا يهودى أشمون أنك لن تجد صعوبة فى حب الناس فهم طيبون مثل أرضهم دافئون مثل جوهم . . ولكن الأمريكان أكثر برودة وأشد عداوة لك إننى أوصيكم بأنفسكم أما الأمريكان فالله كفيل بهم !

ولم تكن سوى صرخة يأس .

وكان رغم ذلك أول من أقام بيتا حيث يسكن الرؤساء فقد أصابه اليأس إلا قليلا . وبسبب ما تبقى لديه من أمل عاد إلى ليبريا التى عشق من أجلها حرية الرجل الأسود من الرجل الأبيض ، ولم يبق أمامه إلا أن يتحرر الرجل الأبيض من الرجل الأبيض .

وعلى قبره فى أمريكا هذه العبارة : من بعدى سوف يكون الأفارقة أكثر تحررا ونموذجا رفيعا لحب الحرية والعدل والخير .

أما الأمير عبد الرحمن فهو ابن أحد شيوخ القبائل وجده ملك تمبكتو ، أسروه فى إحدى المعارك وباعوه فى أمريكا هو وزوجته ، وظل أربعين عاما فى أمريكا حتى أنجب ستين طفلا . وماتت أمهاتهم جميعا . وأعلن الأمير عبد الرحمن عن قصته الدفينة . أنه أمير وأبوه ملك وجده ملك . ويريد أن يعود إلى موطنه ليبريا وراح

يعرض نفسه على الولايات الأمريكية ويطلب اكتتابا بسبعة آلاف دولار ليشترى حريته هو وأولاده من سيده الذى يملكه وذهب إلى القضاء يسأل هل أنا وحدى العبد الرقيق أو أولادى أيضا ؟ إن سيدى لم يشتر أولادى إنما هم قد ولدوا فى الأسر والغربة .

وكانت قضية خاسرة فهو مثل البقرة والجاموسة . هى وصغارها لمن يملكها واهتز الضمير الأمريكى لويلات الأمير عبد الرحمن وجمعوا له المال واشتروا حريته وتجمع وراءه الساسة والتجار يحاولون أن يستخدموه لتوثيق الصداقة بين أمريكا والدولة الجديدة التى صنعت على الجانب الآخر من الأطلنطى وذهب الأمير عبد الرحمن واسترد حريته وكرامته ولم يكد يلمس أرض أفريقيا حتى مرض طويلا ثم مات بسرعة ولم تمت من بعده عبارة قالها عندما دفن بالقرب من الأرض التى أقيم عليها مؤتمر منظمة الوحدة الأفريقية : هنا مات رجل عاش لتخرج من عظامه غابات الحرية إلى الأبد !

وقد نسبوا إلى الأمير عبد الرحمن أن روحه ترفرف على الأرض البور تجعلها خضراء . وتدق أبواب الظالمين تخيفهم . وتأخذ بأيدى الأرامل واليتامى ، وأن الأمير عبد الرحمن ! لم يكن إلا أحد أنبياء الله اختفى فى أمريكا لبعض الوقت كما يختفى الأنبياء عادة قبل استعدادهم للدعوة والتبشير ولم يكن الأمير عبد الرحمن نبيا . ولكن إيمان الناس بالحرية يجعلهم يجسدون لأنفسهم صورا للخلاص ومبشرين بالعدل ومزيد من الحرية .

أما أحد أبناء الأمير عبد الرحمن فهو الذى أبدع أربعين قصيدة . ويقال إنها المصدر الأساسى لكل رقصات الجاز الأفريقى وقد اكتشف أحد الأثريين أن هذا الأمير الصغير قد نقش قصائد عجيبة . البيت الواحد كلمة واحدة . وكلها من وزن واحد وكان يكتب القصيدة الواحدة على الشجر – وكان النحل يمتص رحيق هذه الكلمات .

وفى الأساطير الإغريقية أن النحل كان يمتص لعاب الشاعر هوميروس –

ويفضله على ملايين الزهور فى كل الحدائق والحقول !

وفى كتاب عن أساطير ليبريا أن عرافة توقعت أن يجىء كل أبناء العم والخالة مرة واحدة إلى مونروفيا ، ويتعانقون ويتشاجرون ثم ينفضون ولكن كما نقول : لن تتوقف مياه نهر مونسرادو ومياه نهر سانت بول ونهر دوكويا ، ولن ترفع الأسماك ذيولها ولن يتوقف المطر . وسوف تبكى الأشجار كما اعتادت بعض أشجار المطاط .

ثم قالت هذه العرافة مرجريت لوفجوى : سوف يحدث ذلك بعد خمس عشرات وأربع أربعات واثنين وواحد .

وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ من هذا القرن وقد تحققت هذه النبوءة فى موعدها تماما .

* * *

وانفض المؤتمر ولم تتوقف الأنهار ولا ماتت الأشجار . ولا انعدمت الأسماك ولا يزال الناس يقفون فى شوارع مونروفيا . كأنهم ينتظرون شيئا أو أحدا والحقيقة أنهم واقفون ، فليس لديهم ما يعملونه بل إن أكثرهم حركة هم الباعة المتجولون .
فقد دخلت إحدى المكتبات وانفتح الباب ورائى ، ووجدت اثنين كل واحد منهما يحمل سلة كبيرة من « الكوسة » الخضراء . وظننته يريد أن يشترى شيئا ولكنه بائع متجول ودخلت صاحبة المكتبة البيضاء معه فى فصال طويل .

ولما خرجت وجدت بائعا آخر قد دخل محل ساعات سويسرية لنفس السبب . ربما كان سبب ذلك أن الشوارع طويلة . وأنه لا توجد سوق عامة . وعلى الناس أن يسعوا فى طلب الرزق .

ولكن هؤلاء الباعة يحظون بكراهية الجميع فقد نهب هؤلاء الباعة جميع المحلات منذ شهرين عندما ثار الشعب على ارتفاع سعر الأرز ، واتفق الجيش (٤ آلاف جندى) والبوليس (وعددهم خمسمائة) ضد الحكومة وأطلقوا النار على الأقفال الكبيرة للمحلات كلها ونهبوها وأكثر هذه المحلات تحمل اسماء أبو غازى . ومرزق ، وقدور . وحداد – إنهم جميعا من اللبنانيين وعددهم عشرة آلاف مقابل

خمسين مصريا من المهندسين والصيادلة والأطباء ، وتسع سيدات تزوجن أصحاب بارات جاءوا من بيروت ؟

وإلى جانب اللبنانيين ، وعلى الرغم منهم فإن الزنوج الأمريكان يملكون التجارة والشركات وكل المسئولين كذلك . . حتى ابن الرئيس الليبيرى يعمل قنصلا فخريا لليبيا فى مونروفيا ويشارك فى عدد كبير من الشركات . وقد طلب من مصر أن يكون مدير مكتب شركة الطيران العربية ، ولم توافق مصر أو ترفض فليس للشركة العربية خط بين القاهرة ومونروفيا .

أما ليبريا كلها فليست إلا مستوطنة أمريكية مائة فى المائة فغابات المطاط تملكها شركتا فيرستون وجودير وشركة ميشلان الفرنسية وكذلك مزارع الكاكاو والبن ومناجم الماس أيضا .

ولكن هذه المزارع كلها تقوم بتشغيل عشرات الألوف من العمال المتعلمين . . ويخرج المطاط فى قوالب صغيرة ويخرج الكاكاو وكذلك البن الذى يباع فى مونروفيا مخلوطا بحب الهيل أى « الحبهان » كما نسميه فى مصر . أما الصناعات الأخرى المتروكة للشعب فهى بيع الخضراوات والثمار وخياطة الملابس . وقد لاحظت أنها قد اتخذت لون قماش « الدنيم » وهو قماش سادة وقد ظهرت عليه بقع متموجة من الألوان المختلفة . . و « الدنيم نسبة إلى مدينة « نيم » الفرنسية .

وكما قالت العرافة مرجريت لوفجوى . لن تتوقف حركة شىء فى مونروفيا . . فكل شىء هادئ ماعدا صوت سرينة الموتوسيكلات تتقدم ركب الرؤساء وماعدا أعلام الدول كلها . . وصور الرؤساء على الطريق المؤدى الى مبنى المؤتمر . . وشيئا من اللهفة على أن يبقى المؤتمر منعقدا وقتا أطول لكى تبقى السفينة ايتاليس راسية بجوار مونروفيا . فقد اتجه إليها كل أغنياء مدينة مونروفيا . ووضعوا هم أيضا صورا وعلامات كالتى نضعها على صدورنا . وبذلك تحولت الباخرة إلى مدينة عائمة واختلط الوفود بغيرهم من أهل البلد جاءوا يشربون ويرقصون ويتفرجون ويقامرون

وبذلك استطاعت الحكومة الليبرية أن تكسب من وراء هؤلاء الزوار للسفينة مليون دولار فى عشرة أيام !

وليبيريا هى صاحبة أكبر أسطول ملاحى تجارى فى العالم كله . وقد استطاعت السفن التى تحمل علم ليبريا أن تمر بقناة السويس ذهابا وإيابا عشرات السنين فى طريقها إلى إسرائيل تحمل كل السلع والبضائع والمنتجات الحلال والحرام والممنوعة دوليا – أليست تحمل أعلاما ليبرية ! وأليست ليبيريا دولة من دول العالم ، ولا تربطنا بها عداوة أو صداقة .

إن أى إنسان يستطيع أن يستخدم علم ليبريا ويضعه على أى جسم عائم . يكفى أن يدفع للدولة ألف دولار سنويا . ثم تعفيه الدولة من الضرائب . فإذا كانت الدولة تعطى علمها لأية سفينة من أى نوع ، فليس شيئا كبيرا أن تبيع علامات المؤتمر لأى مواطن مسالم أو إرهابى إن الأمور سهلة . والقرارات أسهل . ولا خوف عند أحد من أحد . إنما الخوف والكراهية والجشع والسيطرة – كلها مستوردة .

* * *

لا شىء تغير أو سوف يتغير كما يتصور الساسة أو يتوهم الصحفيون . فقد كانت المناقشات العنيفة التى سبقت القمة بين غرف صغيرة . لم تذهب أصداؤها إلى أبعد من الميكرفونات والآلات الكاتبة والخطابات السرية بين العواصم ، وكلها تقول : إن هناك خلافات حادة فى كل أفريقيا الخلافات كلها على الحدود فلا توجد حدود متفق عليها بين دولتين متجاورتين بل الرجل الأبيض عندما ترك أفريقيا كان قد ترك وراءه قضايا كثيرة معلقة ومعقدة ، لعله إذا عاد مرة أخرى يكون هو القاضى بين المتنازعين : أى يكون خصما وحكما أيضا .

وعلى الرغم من أن الرجل الأبيض قد خرج فإنه لا يزال قادرا على تحريك الدول الناطقة بالفرنسية والدول الناطقة بالانجليزية والدول الشيوعية والدول الفقيرة وطبيعى أن تصدر الأوامر فى باريس وفى لندن وموسكو مطبوعة على براميل البترول والدولارات والفرنكات والشلنات .

وقد حاولت ٢٢ دول أفريقية أن تلوى القرارات لأنها واقعة تحت ضغوط شديدة وليس من الصعب تفسير ذلك . إذ كانت القرارات تريد أن تدين اتفاقيات السلام مع إسرائيل . وفى لجنة صياغة هذه القرارات تزعمت تونس والجزائر الخط المعادى للسلام . . صحيح أن « الادانة » قد رفضت . وكانت جهود مصر مضنية . ولكن فى نفس الوقت لن نتوقع شكرا لمصر كدولة أفريقية على أنها حررت أرضها . ولن نتوقع امتناناً لها لأنها تحاول أن تحرر الأرض العربية المحتلة فى قارة آسيا ، وأن يعود للشعب الفلسطينى الآسيوى وطنه – ومصر هى التى أدخلت فلسطين فى منظمة الوحدة الأفريقية !

أما بقية المشاكل الأفريقية فلم تتغير فالصراع قائم بين كل الدول المتجاورة ولا تزال دول تعتدى على دول . ولا تزال دول تطرد جماعيا مواطنين لدولة أخرى – الجابون تطرد شعب بنين منذ ١٦ يناير سنة ١٩٧٧ ، ولا تزال الخلافات عنيفة دموية بين الجزائر والمغرب التى انسحبت من المؤتمر وبين موريتانيا بشأن قضية الصحراء .

ولم يشأ المؤتمر أن يدعو ممثلى تشاد . الشعبيين والرسميين : تفاديا للخلافات بين ليبيا وتشاد .

ويحلم أعضاء الوفود بقوة أفريقية رادعة . ويحلمون بأن يكون هناك صندوق دعم افريقى ويحلمون بأن تساعد الدول الأفريقية البترولية شقيقاتها على أن تتخطى أزمة الطاقة العالمية وعلى الرغم من أن رئيس ليبريا وليام تولبرت ووزير خارجيته سيسل دليس قد أرادا تحويل المؤتمر إلى الجوانب الاقتصادية . بعد أن أغرقته القضايا السياسية فى الدورات السابقة . فإن الموقف قد أفلت زمامه . وتربعت المشاكل السياسية على مقاعد من الشوك والمسامير الساخنة التى أقلقت الوفود وأفزعت الشعوب .

وسوف تدعو مصر منظمة الوحدة الأفريقية إلى أن تنعقد فى القاهرة سنة ١٩٨٣ بمناسبة مرور عشرين عاما على إنشائها .

ولأن مشاكل القارة كثيرة ومعقدة ومتجددة . فإن مشاكل شمال القارة بعيدة عن مشاكلها العنصرية فى الجنوب ، ومشاكل الحدود فى الوسط والغرب . ومشاكل ارتفاع الإيجارات المفروضة على المنظمة فى الحبشة . ولذلك فنحن نرى أن مشاكلنا – وهى هامة وخطيرة من وجهة نظرنا نحن . لا تلقى نفس الاهتمام ولا أخذت نفس الحجم فهى مشاكل ثانوية بالنسبة لهم . كما أن مشاكل روديسيا العنصرية وناميبيا وزمبابوى وبنين وتشاد والساقية الحمراء ومدينتين مغربيتين سبتة ومليلة وتحتلهما أسبانيا من مئات السنين .

ولذلك كان من الضرورى أن يسافر الرئيس أنور السادات إلى مونروفيا وقد أصر على ذلك . ولم يستمع إلى نصائح مستشاريه بأن يكلف رئيس وزرائه السابق مصطفى خليل بعرض القضية هناك .

وبعد كثير من اللقاءات فى اليوم الأول أصر الرئيس السادات على أن يجعل كلمته موجزة . وعلى أن يترك النص المكتوب وأن يحدث الرؤساء والأشقاء بوضوح ولم تكن مشكلة الرئيس السادات هى قضية السلام إنما كانت قضية الحرب التى أدت إلى السلام فقد نقلوا إليه أن رئيسا أفريقيا – لعله معمر القذافى – قد أعلن أن حرب أكتوبر كانت تمثيلية بين مصر وأمريكا – على قتل ألوف المصريين واليهود !

وكان الرئيس السادات مباشرا ومركزا فى عرض قضيته . قضية الحرب من أجل الكرامة العربية والسلام العالمى . ومصر أولا وأخيرا دولة أفريقية آسيوية ولكنها أفريقية عربية وسوف تبقى كذلك . . وعلى الرغم من أن نغمة إدانة مصر من عمر حرب أكتوبر فإن أحدا لم يقدم لمصر أسلوبا بديلا لكى يحقق به عزة العرب وحريتهم والسلام مع عدوهم إسرائيل لا أحد . ولا تزال الدعوة قائمة لمن يقدم حلا أفضل ولكن العرب اختاروا الانتظار حتى يسقط الحل كثمرة لشجرة الوهم بزوال دولة إسرائيل ، لا لسبب إلا أنهم يريدون ذلك ويحلمون بذلك !

وكل ما أذاعه راديو موسكو هو أن الرئيس السادات قد ذهب ومعه ضباط مسلحون لحمايته . . فكم ألفا أخذ الرئيس برجنيف إلى فينا ؟ وكم مليونا استخدمت

اليابان فى حراسة الرؤساء : كارتر وديستان والمستشار شميت ورئيسة وزراء بريطانيا تاتشر ورئيس وزراء إيطاليا أندريوتى ورئيس وزراء اليابان أوهيرا ؟ بل كم ألفا يحرسون الرئيس برجنيف إذا ذهب إلى الدول الشيوعية الأوربية ؟

ومن المؤكد أن تفاصيل قصة الحرب والسلام ليست معروفة لدى كثير من الرؤساء وهذا طبيعى فمشاكلهم القومية أكثر حجما وإلحاحا وصراخا على آذانهم وعيونهم من قضية مصر وإسرائيل ، ولذلك كان لابد ألا نضيع فرصة لعرض قضيتنا فى كل المؤتمرات الدولية فلسنا وحدنا فى الشرق الأوسط . ولا فى منظمة الوحدة الأفريقية . ولا منظمة التضامن الأفريقى الأسيوى . ولا الأمم المتحدة ولسنا نستطيع أن نذهب وحدنا فى كل الاتجاهات ومن الواجب أن نسعى إلى الأشقاء . وإلا كان ذلك عزلا اختياريا ، وتعاليا عليهم واكتفاء بأنفسنا وقدرتنا على الحل وليس هذا ممكنا .

وكما أن مشكلة مصر كانت قد اتخذت حجما أقل من حجمها ووزنها وخطورتها فى غياب الرئيس السادات . . فإن دولا أخرى قد اتخذت بفلوسها حجما أكبر وأضخم . وليس هذا حجما إنما هو « تضخم خبيث » مثل ليبيا وتونس والجزائر . . أما ليبيا فلخوفها الدائم من مصر ، وأما تونس فلأنها قد استفادت ماديا من انتقال الجامعة العربية إليها – وتونس دولة سياحية تجارية يباع فيها كل شىء وكل أحد . . وأما الجزائر فلأن رئيسها « جديد » جديد فقد أراد أن يكون الوجه المتجهم الصارم حتى لا تتعبه المقارنات المستمرة بينه وبين الرئيس السابق بومدين والأسبق بن بيلا .

* * *

وكان الهواء خارج المؤتمر منعشا والمطر باردا . . والهرب من الجدران الخانقة والأضواء الباهرة والخطب الطويلة واليأس من النهضة الأفريقية السريعة . هو طعم المرارة على لسانى . . وتفسير الرغبة فى الهرب من الشارع إلى السيارة إلى الطيارة وكفى .

حتى الأمطار قد أغرقت أرض المطار ، وهبطت الأرض تحت الطائرة التى

كانت تقل الرئيس السادات . ولم نستطع أن نرفع الطائرة ولا أن نشدها .

وفى الليل جاءت طائرة من شركة مصر للطيران أعادتنا إلى القاهرة وقد تكسرت جوانبنا من النوم فى مقاعدنا التى تشبه إلى حد كبير الأسرة التى نمنا عليها فى الباخرة « ايتاليس » .

لقد ذهبنا ورأينا وغزونا . . غزونا ما نقدر عليه من الأرض . ومن نقدر عليه من الناس !

الفهـــرس

صفحة

صفحة

صفحة

كتب للمؤلف

١ وحدى مع الآخرين
٢ عذاب كل يوم
٣ طريق العذاب
٤ الوجودية
٥ يسقط الحائط الرابع
٦ كرسى على الشمال
٧ ساعات بلا عقارب
٨ قالوا
٩ مدرسة الحب
١٠ شارع التنهدات
١١ الخبز والقبلات
١٢ يا من كنت حبيبى
١٣ من أول نظرة
١٤ قلوب صغيرة
١٥ شىء من الفكر
١٦ الخالدون مائة
١٧ وجع فى قلب إسرائيل
١٨ عزيزى فلان
١٩ هى وغيرها
٢٠ أعجب الرحلات فى التاريخ
٢١ القوى الخفية
٢٢ الصبر أو دراسات أخرى
٢٣ طلع البدر علينا
٢٤ الحنان أقوى
٢٥ كل شىء نسبى
٢٦ أضواء وضوضاء
٢٧ حتى أنت يا أنا
٢٨ وداعاً أيها الملل
٢٩ ألوان من الحب
٣٠ من نفسى
٣١ الحائط والدموع
٣٢ الذين هبطوا من السماء
٣٣ وكانت الصحة هى الثمن
٣٤ أرواح وأشباح
٣٥ الذين عادوا إلى السماء
٣٦ صالون العقاد

٣٧ التاريخ أنياب وأظافر
٣٨ على رقاب العباد
٣٩ غريب فى بلاد غريبة
٤٠ لعنة الفراعنة
٤١ أوراق على شجر
٤٢ ديانات أخرى
٤٣ مع الآخرين
٤٤ يوم بيوم
٤٥ كلهم سقطوا
٤٦ أحاديث الرئيس
٤٧ فى السياسة (جزءان)
٤٨ نحن أولاد الغجر
٤٩ لو كنت أيوب
٥٠ بقايا كل شيء
٥١ حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٥٢ هى . . وعشاقها
٥٣ اليمن . . ذلك المجهول
٥٤ بلاد الله . . خلق الله
٥٥ أطيب تحياتى من موسكو
٥٦ الأحياء المجاورة (مسرحية)
٥٧ حلمك . . يا شيخ علام (مسرحية)
٥٨ مين قتل مين ؟ (مسرحية)
٥٩ جمعية كل واشكر (مسرحية)
٦٠ كلام لك يا جارة (مسرحية)
٦١ الإمبراطور جونزا (مسرحية) ليوجن أونيل
٦٢ رومولس العظيم (مسرحية) لديرنمات
٦٣ هبط الملاك فى بابل (مسرحية) لديرنمات
٦٤ أمير الأراضى البور (مسرحية) لماكس فريش
٦٥ فوق الكهف (مسرحية) لتنسى دليامز
٦٦ بعد السقوط (مسرحية) لأرثر ميللر
٦٧ الشهاب (مسرحية) لديرنمات
٦٨ سواد عينيها (مسرحية) لجان جيرودو

رقم الإيداع		١٩٨٢/٣٩٣٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠١٣٧-٥	ISBN

٢/٨٢/٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



